سلسلة الجوائز

٦

أنيس منصور

عاشوا في حياتي

الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

سلسلة الجوائز

٦

أنيس منصور

عاشوا في حياتي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مقدمة

سؤال : هل تعرف فلاناً ؟
جواب : نعم أعرفه !
سؤال : هل سافرت معه ؟
- لا ..
- إذن أنت لا تعرفه !

• • •

وقال أوسكار وايلد الأديب الساخر : أنت لا تعرف امرأة ، قبل أن تعرف جسدها !

• • •

سؤال : هل تعرف فلاناً ؟
جواب : لم أعرفه .. لأننى قريب جداً منه !

• • •

سؤال : هل تعرف فلاناً .
جواب : لا أعرفه .. فأين أنا وأين هو .. إنه بعيد جدا حتى لا أكاد أراه !

ومن الصعب أن تعرف إنسانا جيدا ، إذا كنت تحبه .. فأنت تراه ولا تراه .. وإذا كنت تكرهه أيضا .. فأنت لا تحب أن تراه ، فكيف تعرفه وأنت لا تراه .. وأنت قد أسقطته من عينيك .. أو سحقته بعينيك .. أو أغمدت في قلبه رموشك ..

فالذى يحب كالذى يكره : لا يرى بوضوح !

ولكن لابد أن تحب ولابد أن تكره .. ولذلك فأنت لا تعرف الناس جيدا .. وإنما تعرفهم بالتقريب .. أو تعرفهم بعض الوقت .. وتحبهم بعض الحب .. وبعض الكره .. فأنت تعرفهم إلا قليلا !

والقرد فى عين أمه : غزال .. إذا أحبته ! وفى عينيها : قرد إذا كرهته !

ولكل إنسان عدة صور :

صورتك كما ترى نفسك .

وصورتك كما تحب أن ترى نفسك .

وصورتك كما يراها الناس ..

فإن كنت أديبا أو فنانا فأنت تساوى ما تقدمه للناس . فأنت تساوى كتبك أو لوحاتك أو موسيقاك أو تماثيلك ..

ولا توجد وسيلة أخرى لكى يعرفك الناس غير هذا الذى أبدعته ، أو عجزت عن إبداعه .

ولكنك لست فى كل الأحوال قادرا على الإبداع .. فأنت تتعب وأنت تضيق .. وأنت تحب .. وأنت تمل .. وأنت على أعصابك كاتباً وقارئاً .. ولذلك فليست لك صورة واضحة لا عن نفسك ولا عن الناس .

وإذا أنت نظرت فى المرايا .. فهناك مرآة تجعلك صغيراً ، وأخرى تجعلك كبيراً .. وثالثة تجعلك مقعرا .. ورابعة تجعلك محدبا .. وخامسة تجعلك أصفر اللون .. أبيض .. أحمر ..

ورأى الناس مثل هذه المرايا .. فأنت متعدد الألوان والأحجام والأوزان والأهمية والقيمة والأثر عند الناس .

وإذا سألت الناس . فأنت مثل الذى يسأل جميع المرايا .. فماذا لو نطقت جميع المرايا معاً ؟

سوف تسمع ضجيجا من النظريات ، وضوضاء من العواطف .. وترى تلونا من الأمزجة .. وكلها هي : أنت في عيون وآذان وأنوف وعقول وقلوب الآخرين !

وأنت لك وجهة نظر ، وأنا أيضا . وأنت على حق ، وأنا أيضا . والذي يعجبني فيك ، هو الذي أحبه لنفسي .. والذي لا يعجبني فيك ، هو الذي لا أحبه لنفسي ..

والذي أقبله بالعقل ، أرفضه بالقلب .. والذي أستريح إليه وجدانياً أنفر منه عقليا !

قال الفيلسوف الألماني كارل ماركس : أنا آكل ، إذن أنا موجود ..

وقال الفيلسوف الفرنسي ديكارت : أنا أفكر ، إذن أنا موجود .

وقال الشاعر بايرون : أنا أحب ، إذن أنا موجود !

وقال الأديب كافكا : أنا خائف ، إذن أنا موجود !

وقال تولستوي : لن أكون حراً ، حتى تموت زوجتي !

وكل واحد من هؤلاء يريدك أن تعرفه على هذه القاعدة . فهذا هو مفتاح الدهليز إلى أفكاره وأعماقه النفسية .

• • •

وفي حياة الواحد منا ألوف الناس .. قريبون وبعيدون .. يمرون دون أن يتركوا أثرا ، كما تمر الرياح على أوراق الشجر ، أو على رمال الصحراء .. أو يتركون أثراً كما تمر السيارات في الوحل .. أو كما تنفذ أشعة الشمس إلى الغرفة المظلمة .. أو كأعواد الحديد الساخن على بشرتك .

وقد يكون أقرب الناس إليك ، أبعدهم عنك .. ويكون أبعدهم عنك أقربهم إليك ..

وقد يكون الشخص متواضعا ، ولكنه عميق الأثر ، أمي وأمك مثلا !

وقد يكون أكثر ثقافة وأوسع إدراكا : المدرسون مثلا .. ولكن لا أثر لهم .

وقد تقرأ كتابا قديما فيهزك .. وتقرأ كتابا حديثا ، كما تقرأ صحيفة يومية لا تهزك ..

وقد يكون الكاتب الذى تقرأ له جميل العبارة عميق النظرة مسايراً للعصر ، يلقى الضوء فى كل مكان .. ولكنه لا يثيرك .

فقد يكون قد جاء فى الزحام ، أو يكون قد جاء فى الوقت غير المناسب ..

فعندما كنت مشغولا بالأستاذ العقاد ، لم أكن أقرأ لسواه .. لدرجة أننى لم أعرف أن هناك أدباء آخرين غيره فى مصر .. ولما قرأت مقالا لطه حسين بعد سنوات من متابعتى للعقاد ، أدهشنى أن هناك أدباء آخرين .. ولكن طه حسين جاء فى غير أوانه .. جاء بعد أن امتلأ عقلى بالعقاد ، فلم أجد له مكانا .. ولم أقفل عقلى دونه .. وإنما أجلسته على بابى سنة .. وعشر سنوات .. وأحزننى أننى لم أعرف طه حسين والحكيم والمازنى والرافعى وشوقى وابن المقفع والجاحظ وابن خلدون والحريرى وزكى مبارك إلا بعد ذلك بوقت طويل ! تماما كما تتوفر كل الظروف المناسبة لنمو بذرة من البذور : الأرض والماء والهواء والشمس .. وسلامة البذرة ، ولكنك ألقيتها فى غير أوانها ..

ويوم قرأت رواية « الحب والدسيسة » للشاعر الألمانى شيلر ، لم أكن أعرف أن هناك قصصا وروايات مصرية أو عربية ..

ويوم عرفت الأديب الإيطالى البرتو موراڤيا ، وقابلته وصادقته وقدمته إلى اللغة العربية ، لم أكن أعرف نجيب محفوظ ولا قرأت له ..

عندما حفظت القرآن الكريم كنت فى السابعة من عمرى ، وأنا لا أعرف معنى كلمة واحدة مما أقول .. وانتقلت من القرآن الكريم إلى قصائد المتصوفين وإلى مدائح الرسول .. فحفظت « البردة » للبوصيرى ، وأنا لم أسمع بشوقى أمير الشعراء ، ولا عرفت قصيدته « نهج البردة » إلا بعد عشرات السنين ..

وقرأت مئات الروايات المترجمة فى سلسلة « كتاب الجيب » من ترجمة الأستاذ عمر عبد العزيز أمين ، ولم أقرأ رواية عربية واحدة ، ولا عرفت أن هناك روايات عربية ..

عرفت تولستوى ودستويفسكى وبروست وشيللى وبيراندللو ودكنز وبلزاك ، قبل أن أعرف أسماء الأدباء المصريين . وكنت فى الثانية عشرة من عمرى . هل كنت أعى ما أقرؤه ؟ لا أعرف .. ولكنى أقرأ واستمتع .. وأطلب المزيد . ويجيء المزيد فى صناديق وحوالات .. فقد كانت هذه الروايات رخيصة الثمن وتباع فى كل مكان ..

وعندما كنت طالبا فى الجامعة ، وكانت قوات الانجليز فى مصر ، أثناء الحرب العالمية الثانية .. اشتريت عربة عليها مئات من الكتب الصغيرة الحجم التى كانوا يطبعونها للقوات البريطانية فى مصر .. وكانت هذه العربة تباع بمائة قرش ـ كل الحضارة الغربية بهذا المبلغ التافه !

وعرفت الفيلسوف الألمانى أوزفالد اشبنجلر ، فيلسوف الحضارة الغربية . وقرأت ما كتبه أستاذنا عبد الرحمن بدوى عنه ، قبل أن أقرأ سطرا واحدا للمؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى ..

وقرأت للمؤرخ الإنجليزى توينبى ، قبل أن أقرأ لأستاذنا المؤرخ شفيق غربال وأستاذنا على ابراهيم وأستاذنا ابراهيم نصحى ..

وعبد الرحمن بدوى أستاذنا فى الفلسفة قد قدم لنا عشرات الأسماء فى الفلسفة والأدب والفن والموسيقى .. وفى زحمة هذه الأسماء الباهرة ، ضاع هو ، فلم نعرف أثره وقدره ، إلا بعد عشرات السنين ..

وقرأت للأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار ، قبل أن أقرأ سطرا واحداً للآنسة مى زيادة أو حتى للخنساء ..

وعندما قدمنى الأستاذ إحسان عبد القدوس على أننى ، فيلسوف المستقبل ، وأديب الوجودية الشاب فى سنة ١٩٥٠ ، لم أكن أقرأ لإحسان عبد القدوس إلا ما كتبه فى السياسة ، ولم أقرأ له رواياته إلا بعد ذلك بسنوات .

وعندما حفظت ديوان ، أغانى الكوخ ، للشاعر الرومانسى محمود حسن اسماعيل ، لم أعرف مصطفى صادق الرافعى .. مع أنهما من مدرسة واحدة .. هذا رومانسى فى الشعر ، وذلك رومانسى فى النثر ..

ولا أعرف إن كان الشاعر محمود حسن إسماعيل قد تأثر بما كتبه مصطفى صادق الرافعى فى كتبه : السحاب الأحمر وأوراق الورد ورسائل الأحزان ..

ولم أحفظ لمحمود حسن إسماعيل بيتا واحد من دواوينه الأخرى . وقد أذهله مرة عندما جمعنا لقاء أدبى أننى أسمعته معظم الديوان ..

وأنا لم أعرف الشعراء الرومانسيين محمود حسن إسماعيل والهمشرى وصالح جودت إلا عن طريق الشعراء الرومانسيين فى أوربا : لرمنتوف الروسى ونوفالس الألمانى وليوبردى الإيطالى ودى ميسيه الفرنسى وشيللى

الإنجليزي .. قرأت لهم .. ووجدت عندهم ما أريد واتجهت إلى أمثالهم في لغتنا العربية .. فأحببت الأوروبيين ، وأصبحت مكتبة في قلبي للمصريين ..

ولم أستطع أن أحب ابن الرومي ، رغم إعجاب العقاد به ..

وإنما أحببت وأعجبت بالشاعر العظيم في كل العصور : المتنبي .. فهو عبقرية أفسدتها الأخلاق .. أو قلة الأخلاق .. وهو لا يقل احتقارا للناس عن احتقار أبو حيان التوحيدي والحريري والجاحظ والفيلسوف الألماني نيتشه والشاعر الإيطالي بتراركه والأديب الفرنسي رابليه .. والحق معهم .. فهم أعظم من عصورهم ، وأكبر من سفهاء زمانهم !

ويهزني عدد من المؤرخين الأجانب .. يهزني الأديب الفرنسي أندريه موروا ، وقدرته الفذة على تحليل الشخصيات ..

إن العقاد أبرع منه في معرفة ملامح الشخصية التي سوف تدرسها .. ولكن العقاد بارع في صناعة مفاتيح الشخصية .. إنه يعطيك مفتاحاً صغيراً جداً .. في عبارة واحدة .. وبسرعة ينفتح لك أسرار هذه الشخصية وإذا بك في أعماق أعماقها .. فالعقاد مهندس إلكتروني .. لا يطلعك على سر اهتدائه إلى هذا المفتاح .. وهو يفضل أن يبهرك .. أن يقوم بدور "الحاوي" الذي تصفق له .. لأنه يحب أن يكون شخصا معجزا .. فيجعلك تراه خارقا للعادة !

ولكن أندريه موروا يعطيك مفاتيح كثيرة .. ومداخل عديدة .. وهو يصطحبك معه .. ويدور حول الشخصية ويستمع إليها .. وإلى الناس حولها .. ومن كلام الشخصية وحديث الناس .. ومن محبتهم له ، وكراهيته لهم .. ومن القصص .. والنوادر .. والفواجع تعرف الطريق إلى القلب وإلى العقل ..

وإذا كان العقاد مهندسا ، فأندريه موروا قارئ كف .. قارئ فنجان .. ضارب ودع .. قصاص أثر .. مفسر أحلام .. ولذلك فأندريه موروا أروع وأجمل وأمتع ..

وشخص آخر أسعدني أن أعرفه إنه الكاتب الأمريكي الرائع : ول ديورانت ..

فليس في اللغة الانجليزية كلها شخص له عظمة وجمال وسحر هذا الرجل وزوجته .. فقد اشتركا معا في مؤلفاتهما الأخيرة .. ولكن ول ديورانت انفرد

بالأعمال الرائعة وحده : قصة الفلسفة الحديثة .. وقصة الحضارة بأجزائها الأحد عشر .. ومناهج الفلسفة .. ودروس فى التاريخ .. ثم ترجمة حياتنا .. فى حبهما الاثنين معاً .

فهذا الرجل ديورانت قد أوتى من العلم والأدب والذوق ما لم يؤته أحد فى عصره .. ولذلك فهو مثل أعلى فى الكتابة .. ومثل أعلى فى اتساع النظرة وفى المقدرة الفذة على الصياغة الأدبية .. فأنت عندما تقرأ لا تعرف إن كان هذا الذى تقرؤه أدبا أو تاريخاً أو فناً أو رسماً أو موسيقى . إنها جميعا .

وكثيرون غيره كانوا هداة صادقين بارعين لكل أبواب ودروب وأغوار وقمم الحضارة الغربية .

وعندما قرأت لمؤرخنا عبد الرحمن الرافعى بعد ذلك ، وجدت أنه رجل رضى على خلق . ولكنه ليس أديبا ولا فناناً ولا فيلسوفاً ..

وعندما اتجهت إلى التأليف المسرحى ، لم تكن عندى دراية واضحة بفنون الكتابة المسرحية .. وكان مزاجى أن أكتب المسرحيات الكوميدية .. وكتبت .. وظهرت مسرحيات على المسرح وعلى الشاشة .. ووجدت أن مزاجى يميل إلى السخرية .. بل هو أقرب إلى الواقع الحديث .. فنحن فى عصر المتناقضات .. عصر الانهيارات المذهبية .. عصر الانحلال الحضارى .. فالإنسان هو الذى يدعو إلى السخرية .. إنه لا يصدق ما يقول .. ولا يؤمن بما يكتب .. ولا يعمل على إنقاذ نفسه من نفسه .. وهو فى كل الأحوال يبعث على الإعجاب : فهو يكذب ببراعة ويصدق بعبقرية .. وهو يخترع وسائل الدمار بذكاء ، ووسائل العلاج والحياة بإصرار . فكيف لا نضحك من زماننا .. من أنفسنا ؟

وقبل أن ألتقى بمؤلف مسرحى واحد قابلت الأديبين : ديرنمات وفريش .. زرتهما فى سويسرا ..

وترجمت لديرنمات مسرحيات : زيارة السيدة العجوز .. وزواج السيد مسيسبى .. وهبط الملاك فى بابل .. والشهاب .. وظهرت كلها على المسرح ..

وقابلت فريش فى بيته وترجمت له مسرحيتين : مشعلو النيران .. وأمير الأراضى البور .. وظهرت الاثنتان على المسرح ..

وأناس عظماء لقيتهم لحظات .. بعضهم كان عميقا .. وكذلك عدد من الجميلات ..

فعندما رأيت مارلين مونرو في هوليوود . وبعد ساعة من الانتظار قالت لى : ازيك يا إنت !

وهى لا تعرف من أنا .. ولا من هو أى أحد .. فهى جميلة فقط . ويوم انتحرت مارلين مونرو ، كتبت عنها وبكيت أيضا . فقد رأيت فيها نموذجا معذبا للعذاب الإنسانى .. كيف يكون الجمال نقمة .. كيف يكون اليتيم مسكينا .. كيف هى تجارة الرقيق الأبيض .. ويوم تزوجها الأديب أرثر ميللر ، كرهت هذا الرجل .. ويوم ترجمت له مسرحية « بعد السقوط » التى بها صفحات عن مارلين مونرو ، ازددت كراهية له ..

وبقيت مارلين مونرو صورة جميلة ذهبية بارقة لامعة أمام عينى ، وهى وغيرها من الشقراوات ، طريقى إلى دراسة طويلة عن عذاب الجمال ، أو جمال العذاب ، أو عن « جهنم الشقراء » .. ولم أنسها ، ولا تركت كتابا واحدا ظهر عنها .. حتى تجمع لدى مائة كتاب !

ويوم قابلت الرئيس الجزائرى هوارى بومدين ، وهو رجل رقيق ، هامس الصوت مهذب ودود قال لى : لو اشتغلت بالسياسة ؟

فقلت : يكون ماذا يا سيادة الرئيس !

قال : تكون السياسة أدبا يقرؤه الناس !

ونسيت هذه العبارة ، فلم تكن لها ضرورة أو صدى فى نفسى .. فأنا لست سياسياً ، ولا أحب العمل السياسى . وإن كنت قد اشتغلت بالفكر السياسى أو الفلسفة السياسية . وكنت أقوم بتدريسها فى الجامعة ، كجزء من تاريخ الحضارة الإنسانية ..

وفوجئت بعد ذلك بسنوات بالرئيس السادات يقول لى : لو كتبت فى السياسة !

فقلت : يكون ماذا يا سيادة الرئيس ؟

فأجاب : تكون أكثر إيجابية فى عملك الوطنى !

ودارت هذه العبارة وترددت وتخبطت فى رأسى مترنحة ، ذهابا وإيابا :

أكون .. أكثر .. إيجابية .. فى العمل الوطنى .. وهل الذى أقوم به أقل إيجابية .. أو هو أكثر سلبية من العمل الوطنى ؟!

تدحرجت إلى الكتابة السياسية ، ولست نادما على ذلك . ولكنها أبعدتنى عن البيئة الصحية الصحيحة ، التى تناسبنى .. عن الأدب والفن والفلسفة .. أى الإنسان وعلاقاته بنفسه وبالآخرين ..

وعندما زرت الأديب السويسرى ماكس فريش فى البيت الذى يسكنه عند سفح أحد الجبال ، سألته سؤالاً تقليدياً : كيف حال صحتك !

أجاب إجابة غير مألوفة : أنا فى صحة جيدة جداً .

وكأنه لم يقل شيئا غير عادى ، فمضى يشرح ذلك : أنا أعمل ثلاثة شهور فى السنة .. وأسافر وأتجول بقية السنة .. وأسكن هنا .. وقد اخترت الارتفاع النموذجى .. فالبيت يقع على مستوى ١٨٠ مترا من سطح البحر .. والهواء أكثره أوكسجين .. ودرجة الحرارة معتدلة .. وقوة الجذب على هذه المنطقة معقولة تناسب وزنى وسنى ..

إذن هناك درجة حرارة وارتفاع وجاذبية وأوكسجين لابد أن تكون مناسبة للعقل .. وعلى الأديب أو المفكر أن يختارها . ولم أكن أعرف ذلك ..

وإذا كنت لا أعرف السباحة ، فإننى أمارس سباحة المسافات الطويلة والغوص فى أعماق الكتب ، أصعب الكتب وأطولها وأعقدها فى ثمانى لغات .. أرى البحر ولا أخاف الغرق ..

وعلمنى حب السفر ، متعة التنقل .. ولذة التغيير .. وجمال الحركة .. أنا الذى أنتقل خفيفا ، من مكان إلى مكان ، من كتاب إلى آخر ، ومن مفكر إلى أديب إلى موسيقار إلى كاهن إلى راهب إلى قسيس إلى شيخ إلى حاخام إلى إمام إلى ، جورو ، بوذى .. وكما يقلب الإنسان الكتب بأصابعه ، فإن كتاب الكون ، أقلبه بقدمى ، أو بعينى .. فأنا على سفر دائم .. وأنا أتغرب فى بلاد غريبة .. لا انتهت دهشتى ، ولا أحسست بأنى قريب لأحد أو من أحد .. وإنما غريب فى كل مكان وزمان ..

وإذا كان أستاذنا أرسطو قد علمنا : أن الدهشة هى بداية المعرفة .. فأنا ما أزال فى مرحلة الدهشة فلا نهاية للمعرفة !

وقديما سئل الشاعر الألماني جيته : ما هو الكتاب الذى أثر فى حياتك ؟ ..

فهز رأسه بأنه لم يفهم .

فأعيد السؤال : ما هو الشخص الذى هز حياتك ؟

فهز رأسه كأنه يرفض السؤال . فقيل له : ما هى البلدة التى أثر أدباؤها ومفكروها فى حياتك !

ولم يهز رأسه . كأنه لم يسمع شيئا . فقيل له : إذن ما هو الشيء أو الأشياء فى الأدب والموسيقى والتاريخ التى تركت أثرا فى حياتك .. أى أثر .. وليس من الضرورى أن يكون عميقا أو هامشيا ؟

فاعتدل الشاعر وأسند ظهره إلى الحائط ، فمن عادته أن يكتب واقفا لأوجاع فى مصرانه الغليظ وقال : أفضل أن أجيب عن هذا السؤال كتابة !

وكتب جيته يقول : كما أن أحداً لا يعرف نوعية الطعام والشراب الذى يجعل أظافرك وعينيك لامعة ، فإن أحداً لا يعرف بالضبط ما الذى أثر فيك أدبياً وفلسفياً !

ولما قيل للشاعر جيته : ما رأيك فى هذه العبارة : لا يقدر على الوحدة إلا حيوان أو إله ؟

فأجاب بسرعة : أو .. هما معاً !

أى الحيوان المبدع الخلاق .. أى الإنسان الأديب أو الفنان أو المفكر أو الموسيقار . فقط هو الذى يطيق أن يظل وحده يبدع كل مقدمات وعناصر الحضارة الإنسانية !

وأديب فرنسا مالرو هو الذى قال : إن الموسيقار لا يتعلم الموسيقى من خرير المياه .. وإنما من موسيقى الآخرين .. والرسام لا يتعلم كيف يرسم ، إذا نظر إلى غروب الشمس وشروقها ، وإنما من لوحات الفنانين الآخرين .. يرى عملية تركيب الألوان ، ويرى حركة الفرشاة .. والأديب لا يتعلم مما يسمعه من قصص وحكايات ومن حكمة الشعوب ، ولكن من الذى يقرؤه للأدباء الآخرين ..

إذن .. سوف أحكي لك حكاية من عرفت وكيف عرفت .. كثيراً أو قليلا .. ولا نهاية للذين عرفت عنهم وقرأت لهم .

ولكني سوف أكتفي بالذين عرفتهم عن قرب .. بالمعايشة والصداقة والحب والتأمل والتأثر ..

ولن أدعي شيئاً من الحكمة ، ولكن سوف أدعي حرصي الشديد على أن أعرف وأفهم : وتقديري العظيم لكل من حاول أن يقول جديداً .. أو يعرض جديداً فكراً قديماً .. ويكون « العرض » هو الجديد .. أى الأسلوب هو الجديد .

والأدب والفن : أسلوب .. وأنت تساوى أسلوبك !

وليس صحيحاً أن أحداً يستطيع أن يرى كل ما حدث وأن يسمع كل ما قيل ، ويلمس كل جسد .. لأننى لا أرى إلا من خلال « ثقب » في الباب .. هذا الثقب هو « وجهة نظرى » . وهى ضيقة ، كما أن عينى : ثقبان في وجهي .. وهما ثقبان ضيقان ، ولكنهما قادرتان على رؤية ملايين الملايين من الكيلومترات المربعة : السماء مثلا .. ورؤية ملايين النجوم التى تبعد عنا ملايين السنين الضوئية ..

و « ثقب الباب » أيضاً هو مجموع مشاعرى : حبى وكرهى .. ومبالاتى ولا مبالاتى .. وما يتفق مع مزاجي .. وما يناسب القارىء .. والمجلة التى تنشر لى ما أكتب . والمساحة الورقية .. والمساحة الزمنية .. ومدى احتمال القارىء لذلك . دعك من احتمال الكاتب أيضاً !



كل ما يولد فى الريف
لا يموت فى المدينة

كل ما يولد فى الريف لا يموت فى المدينة

صحوت مبكرا لأجد جلبابا أبيض مخططا بالأزرق وإلى جوارى حذاء جديد .. إذن هو يوم غير عادى سوف يبدأ فى حياتى . لقد تقرر أن أذهب إلى الكتاب . أى مدرسة القرية . والقرية اسمها « نوب طريف » مركز السنبلاوين . جاءها والدى من المنصورة ليشرف على الأرض الزراعية لعز الدين بك يكن . وواضح تماما أن والدى مختلف عن بقية الناس . فالبيت الذى نعيش فيه كبير من طابقين وحوله حديقة وملحق به اصطبل للجاموس والأغنام والخيول . وله باب خشبى ضخم . وأمام الباب يتمدد الخفير وزوجته إلى جواره نهارا . أما فى الليل فهو ينام وراء الباب . وفى كل ساعات الليل والنهار إذا ناداه والدى فانه يجيب : موجود ياحضرة المفتش .. أو نعم يا محمد أفندى ..

وقبلها بيوم سمعت والدى يقول : لاداعى لأن تذهب إلى السوق .. هات الحمار والبردعة الجديدة .. لأن صلاح سوف يذهب إلى الكتاب ..

أما « صلاح » فهو اسمى فى ذلك الوقت ..

وعندما صحوت وجدت أمى قد أعدت سندوتشا من الجبن الأبيض والخبز .. أما الجبن الأبيض فقد كانت تصنعه فى البيت .. وقد رأيتها كثيرا تضيف سائلا فى لون الشاى الحقيقى من زجاجة . وفى الصباح يتحول اللبن إلى جبن .. هذا الجبن هو الذى لم أعرف سواه سنوات طويلة .. أما بقية الأحداث فى ذلك اليوم فهى كثيرة ومتلاحقة وجديدة . جاء رجل ورآنى وقد ارتديت الجلباب الأبيض والحذاء الأسود اللامع وقرأ آيات من القرآن الكريم .. وجاءت أمى بالبخور ودارت به حولى .. ثم طلبت من الخادمة ، وهى سيدة كبيرة فى السن ، أن أدور حول النار وتقول هى : عين الحسود .. من عين الذى رأى ولم يرحم ، والذى نظر ولم يصل على النبى .. فى عين فلانة وفلانة .. وفلان وعلان ..

وفجأة وجدت شيئا يطقطق تحت قدمي .. لقد وضعت عددا من البيض الأزرق لكي أدوسه .. فاذا دسته ذهب مفعول الحسد و « العملات » إن كان أحد الحاسدين أو الحاقدين قد أعدها لمثل ذلك اليوم .. ولم يكد البيض يطق حتى زغردت الخادمة ، أن الله سبحانه وتعالى قد أذهب عني الشر في هذا اليوم ...

وأمام الباب وقف الحمار .. أبيض عال وحملني الخفير إلى ظهره وأمسكني حتى لا أقع .. وسبقت زوجته وراحت تنثر الماء يمينا وشمالا وتدعو الله أن يحميني من عيون الحاسدين .. وأظن والدتي كانت تنظر من النافذة ولابد أنها هي تكرر الدعوات .. وانتقلنا من أمام البيت إلى الطرقات الضيقة المغطاة بالتراب والطين .. والتي يتزاحم فيها الناس والجواميس والحمير والأغنام وكنت وأنا فوق الحمار أرى ماذا يحدث فوق الأسطح .. أطفال كثيرون وأغنام وكلاب ودواجن .. ولا أدري كم مضى من الوقت لكي أصل إلى « الكتاب » ولابد أنه وقت طويل . فلم أكن أدري بالضبط ماذا حدث أو سوف يحدث .. ولكنه يوم غير عادي بل أكثر من يوم .. فأنا أسمع عن هذا اليوم منذ شهور .. وسمعت الناس يتحدثون إلى والدي ويقولون : آن الأوان .. أن أبدأ حياتي وأتوكل على الله ..

ولم يكن والدي يعارض .. وإنما هو يستعجل هذا اليوم وكذلك والدتي .. هل الذي أخر هذا القرار ان الكتاب به أطفال كثيرون . والمكان ضيق .. هل لأن « سيدنا » أي صاحب الكتاب والمدرس الوحيد مريض .. أو هل كان يتزوج هو ، أو يتزوج أحد أولاده .. هل كنت أنامريضا وكان لابد أن تخف متاعبي .. لقد عرفت فيما بعد أن أحد أصدقاء والدي من الذين يفهمون في الطالع والنجوم والحسابات الفلكية هو الذي أختار هذا اليوم . كما يختار الأيام المناسبة للأزواج . أما هذا الرجل فهو شديد البياض أزرق العينين .. وله لحية صغيرة . وهو يحب الضحك .. والناس يحبونه . ولكن لاحظت أنهم لا يحترمونه بدرجة كافية .

وبعض الناس يضربه في بطنه وبعضهم يشد لحيته . ولكنه موجود دائما ، ومسموع الكلمة . وهم يطلبون إليه أن يحكي الحكايات ويروي النوادر .. ويقولون : تركي .. ويقولون أفغاني .. ألباني .. لبناني .. طلياني ..

وأمام بيت صغير مكدس فوقه قش الذرة والقطن والأرز وتصايح الديوك والحمام والكلاب ، وقف بى الحمار ، ولما حاولت أن انزل منعنى الخفير . وتركنى . وهبط واختفى فى داخل البيت ليعود ويقول لى : أن سيدنا مريض اليوم . غدا إن شاء الله ..

وشعرت بشيء من الارتياح .. وعدنا إلى البيت . كان الشارع أعرض وأقصر .. وكان البيت خارج القرية .. ورأيت أصدقائى من الأطفال قد جلسوا على جانبى الطريق .. وكانوا ينادوننى . ولكنى لم أكن أرد . أو أسمع ميقولون ولا أعرف ماذا يمكن أن يقال ..

وبعد لحظات وصلنا . لقد كان المشوار قصيرا جدا . ولم يكن فى حاجة إلى أن أركب الحمار . ولكنه فى مثل هذا اليوم لابد من اتخاذ إجراءات غير عادية ..

وفى اليوم التالى وجدت الجلباب والجزمة والسندوتش . ونزلت وحدى . وأمام البوابة وجدت الخفير . وفهمت أننى مادمت قد عرفت الطريق ، يجب أن أذهب وحدى على بركة الله .. ولم أجد أحدا لا أمام الباب ولامن النافذة . حتى والدى كان يتحدث إلى عدد من الفلاحين ، لم يلاحظ أننى فى طريقى إلى الكتاب .

وكان من الصعب أن أتوقف بين لحظة وأخرى وأمسح حذائى الذى تلوث بالطين ومخلفات البهائم . فلا نهاية لذلك ، ولا معنى للنظافة . كما أننى اعتدت على رائحتها ، فلابد أن اعتاد على آثارها فى حذائى وملابسى .. وكم مرة صبغنى كل ذلك وأنا أمر بالقرب من جاموسة أو بقرة !

وأمام الكتاب وجدت عددا كبيرا من الأطفال .. قد ملأوا جيوبهم بالبلح والفول والخبز الساخن وقوالب السكر . ووقفنا جميعا أمام الباب . ولم يجرؤ واحد منا على الدخول . ومضت ساعة وساعة .. والباب مفتوح دون أن يطلب منا أحد أن ندخل .. وظهر طفل وقال لنا : غدا ..

وعدنا إلى بيوتنا ..

وفى اليوم الثالث وفى ساعة مبكرة لم أجد أحدا أمام الباب . كل الأطفال قد دخلوا البيت . ونظرت فوجدتهم جالسين على الأرض : ابن العمدة وابن

شيخ الخفر وابن البقال وابن الخولي وأطفال آخرون .. البيت من الداخل ككل الزرائب .. طين جاف فوقه تراب . وفوق التراب قش .. وتبن .. وقطة من هنا وكلب من هناك .. وحمام يطير داخلا وخارجا .. وكل شيء أسود .. كأننا دخلنا فى بطن حيوان .. أو فى قلب فرن .. أو أن الظلام قد اتخذ ملمس الطين والتراب .. وجاءت سيدة وشخطت فى الأطفال .. ودفعت هذا وضربت ذاك .. وتكومنا فى جانب .. ثم أشارت بيدها إلى كل الاتجاهات .. وفى كل الاتجاهات تفرق الأطفال .. واحد ينظف الحلل بالتراب والرمل .. وواحد يفرط كيزان الذرة .. وواحد يعلق الغسيل على حبل فى السقف .. وواحد يمسك المقشة ويكنس أمام البيت .. وواحد يجمع الحطب ويضعه فى الكانون . وأنا طلبت منى أن أرش الماء بعد أن يفرغ زملائى من الكنس . ولما أبديت دهشتى أو جهلى بذلك . فاذا بها تزغدنى فى بطنى وتقول : تعمل كده .. أنت ابن مين ؟ فقلت لها .. وكان ردها : بكرة تتعلم .. كده ..

وراحت تضرب بيدها فى جردل الماء ليخرج الماء هنا وهناك لكى يسكن التراب ..

ولا أعرف كم مضى من الوقت ، عندما قالت : غدا .

وخرجنا . وفى اليوم التالى عدنا ووقفنا أمام الباب . وجاءت نفس السيدة إنها متوسطة الطول والعمر .. ترتدى فستانا أسود ومن تحته قميص أحمر . ولها خلخال من الفضة . وفى يدها أساور من الفضة أيضا . وفى عينيها كحل أزرق . ومن أنفها يتدلى شيء مستدير . ولم تكد ترانى حتى قالت : مالك ياواد .. انت بتبحلق لى كده ليه .. عينك فى الأرض ياواد .. خد ..

وأعطتنى المقشة . وأشارت إلى داخل البيت . إلى جانب من ركن مظلم تماما فيما عدا كوة تدخل فيها أشعة الشمس .. وفى هذا الركن نامت جاموسة صغيرة . ومطلوب أن أكنس تحتها دون أن أوقظها . ولابد أن بقية الزملاء لهم مهام أخرى .. ولكن عند الجاموسة يوجد مهام كثيرة .. فهناك ذباب يلسع .. وهناك أكوام من الطين والمخلفات .. ومطلوب أن أسوى ذلك كله بالأرض بالمقشة . ثم أن ألقى عليه بالتراب الجاف . وغدا لابد أن أنقل ذلك فى مقطف خارج البيت ..

وفجأة سمعنا صراخا وبكاء . إنها تضرب ابن شيخ البلد . وفهمنا أنه وهو يحلب الماعز . وقع منه اللبن فى الأرض .. ولم أكن قد رأيت حليب الماعز والجواميس .. ووقفت وهى تعلمه كيف يسحب الماعز إلى الوراء وكيف يتلقى أثداءها فى حجره وفى الوعاء الفخار - الطاجن ..

وقالت لنا : غدا ..

وكنا قد تشجعنا قليلا . فنحن لا نجلس أمام الباب بالضبط .. ولكن كنا نلعب بعيدا عنه .. وكان هذا اللعب نوعا من التمرد - وسبب هذا التمرد ، أننا عرفنا بالضبط ما هو المطلوب وماهى العقوبة إذا لم ننفذ المهام اليومية التى تطلبها منا سيدنا أو زوجته - وحتى الآن لم نر سيدنا . ولا حتى عرفت أسمه ..

ولما سألنى والدى فى إحدى المرات : هه .. ماذا فعلت ؟ .. قلت له ..

وقال الرجل الألبانى أو الطليانى : إنه نوع من الانضباط .. تماما كالعسكرية .. فهم يذهبون فى الموعد المحدد ويتلقون التعليمات ..

وكان يحكى حكايات مما عرف هو فى طفولته .. وكان الجميع ينصتون إليه . ولم أفهم شيئا مما قال . ولكنه ، ولكنهم راضون .

وفجأة جمعونا من الحقول ، فقد ذهبنا نجمع الفول ونكومه . ونضعه فى شوال على ظهر حمار . ونادونا . وذهبنا . أنه سيدنا قد حضر .. أو قد قام من السرير . أو أن الدراسة قد بدأت .. ونزلنا إلى البيت . فالأرض تهبط وتهبط .. وفى جانب لم نره من البيت ، كانت غرفة . ضيقة . مظلمة . والأرض مغطاه بالقش .. وفيها حشرات تلسع .. والسقف اسود قريب جدا . وبدا أول الأمر كذلك . ولكن بعد أيام عرفنا أننا إذا وقفنا فإن السقف لاصطدم برؤوسنا .. وكانت للغرفة نافذة . والنافذة مرتفعة . وهى ضيقة . ومنها تدخل الشمس . وفى أشعة الشمس ما لانهاية له من الذرات البيضاء التى نراها تسبح وتتقلب .. بعض الأطفال همس فى أذنى : إن هذه الذرات ملائكة ..

وتحت النافذة توجد مصطبة .. وعلى المصطبة توجد حصيرة . ومفروض أن يجلس سيدنا فوق الحصيرة ونحن أمامه على الأرض . وكنا نرى المسافة بيننا وبينه بعيدة .. هو فوق .. ونحن تحت .. والضوء فى عيوننا ، فلا نراه بوضوح ..

وجاء سيدنا الشيخ « سيد الزبلاوى » .. وقفز إلى المصطبة . ولا نراه بوضوح .. وإنما هو طويل عريض .. يسد عنا الضوء .. وله عمامة كبيرة ..وهو يهتز في جلسته .. ونادانا واحدا واحدا : اسمك إيه .. أبوك مين .. غدا تدفعون المعلوم .. كل واحد يسأل والده .. ويسلم عليه .. ويقول سيدنا معذور .. غدا .. توكلنا على الله .. حافظين الفاتحة ..

فقلنا جميعا : أيوه ..

قال : بسم الله الرحمن الرحيم .. توكلنا على الله .. اللهم افتح علينا أنا أقول وأنتم ترددون ورائى .. بسم الله الرحمن الرحيم .. قولوا ..

ونقول ..

ويقول : ألف لام ميم .. ذلك الكتاب لا ريب فيه .. الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه .. هدى للمتقين .. قول ياواد .. سمعنى صوتك .. قول ياواد .. دى اسمها سورة البقرة .. سورة إيه .. البقرة .. الم ذلك الكتاب لاريب فيه ..

ومضى اليوم الأول ونحن نردد طول الوقت ما حفظنا من سيدنا . وفى الليل سألنى والدى : إن شاء الله تكون حفظت .. قل ما حفظت ..

وقلت : إنها سورة البقرة ..

- ما شاء الله

- هه ..

- الم . ذلك الكتاب ، لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

وطلب منى والدى أن أعيدها مرة وثلاث ، فلم يكن نطقى سليما ، ولا كنت أتوقف عند نهاية الآيات . وكان يطلب منى أن أنطق الحروف بوضوح وأن أتلو ذلك على مهل تام .. لأن القرآن مختلف عن كلامنا العادى . وأن القارىء يجب أن يؤدى ذلك فى هدوء وخشوع ..

وبدأنا نرى سيدنا أوضح . وفى استطاعه الواحد منا أن ينظر إليه . وأن يلمسه أيضا . كان يصافحه ويقبل يده . وأن يشم رائحة السمن فى يده ، ولكن لانجرؤ على التعليق .. أو رائحة الحطب المحروق .. أو رائحة نوع فظيع من

..حضور يصعه سيدنا .. أما سيدنا فليس طويلا عريضا . إنه رجل قصير ..مة . لابد أنه فى مثل ارتفاعنا عن الأرض . فهو عندما يتحدث إلينا يكون ..جهه موازيا لوجوهنا وفي يده عصا طويلة .. وهو يرتدى حذاء عاليا . ثم .. مصطبة قريبة من الأرض . وهو يتلو علينا الآيات ويتركنا نكررها .. ..ف إلى خارج البيت .. ويناقش .. ونظل نحن نكرر .. فإذا أرهقنا ..كرار ، بأن انخفضت أصواتنا . سمعناه يقول أمام البيت : إنت ياواد إنت ..هو .. ياأولاد الكلب .. أنا سامعكم .

ومعنى ذلك أن نرفع أصواتنا بالآيات .. ونحن . عادة . جالسون على ..أرض . ونعطس من التراب ، ونمد أيدينا إلى ما تحت ملابسنا بسبب لسع ..راغيث .. ونهتز إلى الامام وإلى الخلف ونحن جالسون .. وفجأة يظهر سيدنا ..يهال علينا جميعا ضربا بالعصا .. جميعا . ونبكي ونكرر الآيات والدموع ..ى عيوننا .. ويهددنا إن لم نسكت سوف يقطع جلودنا ضربا .. وركلا ..صفعا . وينتهى اليوم الدراسى فجأة . ونخرج من الكتاب .. وكأننا خرجنا من ..مقبرة إلى وجه الحياة ، ونهلل . ونصيح .. ولا يجرؤ واحد منا أن يروى ..أهله ماذا حدث . أو ماذا أصابه .. لا الضرب ولا الشتائم .. ولا غسل ..أطباق ونشر الغسيل والكنس أمام البيت وداخله .. ولا تفريط كيزان الذرة ..تنظيف الملوخية .. واحد منا فقط هو الذى اختارته زوجة سيدنا لكى يفليها . ..ى تجلس أمامه وتعطيه رأسها يقلب فى شعرها ويلتقط الحشرات !

وواحد آخر قد خصه سيدنا بأن يطقطق أصابع قدميه .. وفى نفس الوقت ..ت وراءه .. وإذا غفل لأنه لا يستطيع أن يعمل شيئين فى وقت واحد ضربه ..لعصا ، ليبكي ويؤدى الاثنين معا !

• • •

وفى يوم تعالت الصيحات والصرخات فى شوارع القرية .. والناس يسبقون بالبلاليص والحلل التى امتلأت بالماء لإطفاء حريقة .. الحريقة فى ..ت نمر عليه كل يوم .. بابه لونه أصفر وواجهة البيت عليها صور نخيل ..طيور .. وله عتبة من الحجر الأبيض .. والناس يتدافعون داخلين خارجين ..

ومن الباب يرمون بورق .. بكتب محروقة .. وصناديق خشبية .. ومقاعد .. وحلل وأطباق . إنه بيت ذلك الرجل الطلياني .. والناس يطفئون النيران وهم يضحكون .. ففي البيت أحذية كبيرة وقباقيب .. وفيه ترابيزات .. وطبول . وفيه شيشة .. وحقائب خشبية .. وصور معلقة على الجدران .

وفى ذلك اليوم ملأت حجرتى بالكتب المحترقة .. بقايا كتب .. جثث كتب .. أو كأنها حمام أبيض احترق ريشه .. فلم يعد قادرا على الطيران .. لم اسمع من أحد تفسيرا لشيء .. كل الذى أدركته هو أن ألوف الكتب قد احترقت . ظننتها ألوفا فى ذلك الوقت .. وأن الناس يلقون بها خارج البيت ..

ولم ينتبه أحد إلى عودتى إلى البيت .. ولا إلى الدموع على خدى .. ولم أكن فاهما لشيء . وإنما هو شعور غريب تولانى فى هذه السن الصغيرة .. هل كانت للكتب أى معنى ؟ هل كان الحريق هو الذى أفزعنى .. هل كنت أتمنى أن أقتنى كتبا ، فوجدتها قد احترقت .. هل صحيح أن هذا الرجل قد وعدنى ببعض هذه الكتب أو كلها .. هل صحيح ذلك .. أو أننى توهمت أنه وعدنى يوما .. إن الكتب فى بيتنا كثيرة جدا .. ولكنى لم أكن أعرف القراءة .. فأنا أقلب فيها وأتوقف عند الصور .. وأحاول أن أفهم ..

وصحوت فى ذلك اليوم على عيون تطل ناحيتى وتقول : بسم الله الرحمن الرحيم ..

لقد أخرجونى من تحت السرير .. فقد تسللت ومعى الكتب المحروقة . وغلبنى النوم . ولم أر أنهم يبحثون عنى فى كل مكان .. وأنهم عند منتصف الليل وجدونى نائما على الأرض ويدى على هذه الكتب التى لوثت ملابسى ووجهى ..

وتعلمت أن أختفى تحت السرير كثيرا لأى سبب يغضبنى .. وتعلمت أن أضع رأسى على الكتب .. وأن أنام وينزعونها من فوق صدرى ، وقد أمسكت بها يداى .. ولم أنس هذا المشهد طوال حياتى . وكنت أرى أن إحراق الكتب هو أبشع جريمة .. ولم أهتد إلى سبب واحد يجعل إنسانا يحرق كتبه .. أو كتب غيره .. ولعلى قد رأيت فى ذلك الوقت أن الكتب هى الحياة .. وأن حياة أى إنسان هى كتبه .. هى القراءة .. وأن الحياة من غير كتب ، حياة بلا حياة ..

بعد ذلك بسنوات كتبت مقالا في مجلة كلية الآداب تمنيت أن تكون وفاتي على هذا النحو : أن أدفن وسط الكتب حيا ، ثم يشعلون النار فينا جميعا !

هل تأثرت في هذه الصورة بما يحدث في بلاد الهند ، فهم يحرقون جثث موتى ، وكانت الزوجات يحرقن مباشرة بعد أزواجهن . حتى لا تكون لهن حياة بعد المرحوم .. أي بما معناه : نعيش معا ونموت معا . هل تصورت أن الإنسان إذا احترقت كتبه ، فلا حياة له بعدها .. مع أنه يمكن تعويض الكتب المحترقة .. ويمكن إذا احترقت أن تقرأ غيرها في المكتبات العامة .. أو أن الأحياء قادرون على شراء الكتب واقتنائها ، وأن الكتب عاجزة عن أي شيء .. فلابد أن يكون هذا الشعور هو تقديس للكتب أو وثنية ورقية . أنه حماس شديد لكل ما هو مطبوع !

ولما جاء الطلياني إلى بيتنا لم يكن قد تأثر بما حدث .. فهو يضحك .. والناس يتساقطون من الضحك .. ويهللون ويصفقون ويطلبون إليه أن يغني .. وكانوا يحسدونه على النعمة التي هو غارق فيها .. فلا عمل له .. ولا ساعات عمل .. وهو سلطان زمانه يصحو وينام ويجد الطعام في أي بيت .. وكل قصصه وحكاياته غير صحيحة .. ولكنهم يستمعون إليه .. إنه طراز من الناس يعيش على الحكايات وافتعال القصص والنوادر .. أنه مثل : أبو الفتح الإسكندري في مقامات بديع الزمان الهمذاني .. أو أبو زيد السروجي في مقامات الحريري .. ومثل الصعاليك والشعراء المشرّدين في أوربا .. ففي استطاعته أن يدق أي باب في أي وقت .. وأن يجلس فيجيء الطعام والشراب ، وليس من الضروري أن يلتقي بأصحاب البيت .. هو اعتاد على ذلك .. وهم أيضا ولما علم أنني بكيت وامتنعت عن الطعام يوم أحرقوا بيته . لا أحد يعرف من الذي فعل ذلك . أحضر لي عددا من الكتب .. وهو يقول : عندما تكبر ..

وكنت أضع هذه الكتب تحت مخدتي ، وأنا لا أفهم منها شيئا .. وكانت والدتي تنقلها من تحت المخدة كل ليلة ، وتضعها أمام السرير .. فأعود لنقلها تحت المخدة ..

وفي يوم لم أجدها لا تحت المخدة ولا أمام السرير .. ولا تحت السرير .. لقد جاءت الخادمة ووضعتها هي والكتب المحترقة التي أخفيها تحت السرير ، في الفرن ..

وعرفت أول « تقلص » في معدتي لأسباب عصبية .. وظل هذا الألم يصاحبني عشرات السنين !

• • •

كان لابد أن يجيء والدى إلى الكتاب . وكان غاضبا . ووقف بحصانه أمام البيت . ونادوا على سيدنا .. وسمعت صوت والدى . ونظرت من تحت إلى فوق .. كان والدى ومعه عدد من الخفراء .. وكان سيدنا واقفا .. والصفافير فى أذنى .. والأطفال يرددون دون أن يجرؤ واحد على أن يتوقف أو ينظر للخناقة التى أمام الباب .. وعندما غادر والدى المكان نزل عدد من الناس مع سيدنا وراحوا يعنفونه .. وهو يحاول أن يقول شيئا .. وقال .. ولم أفهم . وتركوه وعاد هو إلى مكانه من المصطبة .. وتركنا نكرر ونكرر : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت .. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين . وكانت آخر سورة البقرة . وقد مضى علينا فى الكتاب أكثر من شهر ..

وكان سيدنا فى حالة ضيق شديد .. ينظر إلينا ، ونحن نتلو ذلك . ولا ينطق بكلمة . حتى العصا عندما وقعت من فوق المصطبة ، انتفض واحد منا وكأنها ثعبان وقدمها له .. فلم يشأ أن يمد يده .. فتركها الطفل على المصطبة ..

وفجأة دخلت زوجته وقد حملت على رأسها طبلية .. ووضعت الطبلية على المصطبة . إن سيدنا لم يتناول إفطاره بعد .. ورائحة الفطير المشلتت الساخن تفوح وتشل القدرة على التكرار .. ورائحة القشدة وسيدنا يأكل على مهل وبشهية مفتوحة . وأكثرنا غير قادر على المضى فى التلاوة بسبب هذه الروائح الشهية . ولكن سيدنا مشغول عنا تماما . ولعله قد لاحظ ذلك .. فكان يلقى إلينا بقطع من الفطير .. وكنا نتزاحم عليها ، ونلتقطها من بين القش .. ونمسحها بأيدينا أو فى ملابسنا ..

ولم يقل شيئا .

ذهبنا بالأمس وشكونا ما فعله سيدنا .. فقد ضربنا على أقدامنا ضربا موجعا .. ثم على أيدينا .. وظهورنا .. وقد رأينا ، الفلقة ، لأول مرة .. فواحد يجلس على الأرض ويرفع ساقيه ، ويلف هو الساقين بحبل وينهال ضربا على القدمين .. ونحن نصرخ وهو لا يتوقف .. جميعا ..

فقد لاحظ سيدنا أننا صبغنا أيدينا وأرجلنا بالحناء ـ كما هى العادة فى الريف عندما يكون زفاف . فالأطفال يحشرون أنفسهم بين الفتيات والسيدات ويطلبون أن يضعوا الحناء فى أيديهم ، ويربطوها بالقماش حتى الصباح .. وكذلك أظافر أقدامهم .. وفى الصباح تكون الحناء حمراء فاتحة الألوان .

فما كاد سيدنا يرى ذلك حتى انهال علينا ضربا وشتما وسبا لآبائنا وأمهاتنا : بدلا من أن تحفظوا القرآن وتضعون الحناء .. يانسوان ياأولاد النسوان !

ولكن شكوى الآباء من هذه القسوة فى الضرب ، لم تمنعه من أن يعيرنا به بعد من حين إلى حين ..

ولم نكن نعرف كيف نمحو الحناء من أيدينا .. وقد حاولنا ذلك كثيرا مستخدمين الطين والحجارة والصابون ..

وكان يطلب إلينا جميعا أن نتوضأ قبل أن نقرأ القرآن .. وأن نتوضأ إذا وجب ذلك ونحن نقرأ .. وكان الواحد منا يرفع يده ويقول : أريد أن أتوضأ ياسيدنا !

وكان يسمح لنا بذلك .. ونذهب إلى أقرب قناة أو ترعة ونتوضأ ..

وكنا نلاحظ أن سيدنا ينهض مرة واحدة ثم يطلب من واحد منا أن يرافقه لكى يصب عليه الماء لكى يتوضأ .. ولم نكن نفهم لماذا هو فى حاجة إلى الوضوء .. كان الوضوء من ضرورات الصغار .. ولا لماذا فقط مرة واحدة .. وعندما يحدث ذلك عادة بعد تناول الفطير المشلتت كل يوم ..

وكنا نسمع شخيرا ينهال علينا من فوق المصطبة .. ولم يجرؤ مرة واحد على النظر إلى أعلى .. لقد نام سيدنا نوما عميقا .. ولكن يجب ألا نتوقف عن القراءة .. وكان يطلب من واحد منا أن يقف بيننا ممسكا عصا سيدنا حتى يراقب الأطفال وهم يرددون الآيات وكان عليه هو أيضا أن يرددها معنا ، حتى يصحو سيدنا من النوم .. أو حتى يعود من أحد المشاوير ..

وفى إحدى المرات جاء سيدنا فوجد الطفل الذى أمسك العصا يبكى .. فأخذ منه العصا وانهال علينا ضربا : أنا عارف أنكم أولاد أبالسة .. أنا عارف أنكم طلعتوا عينه .. أنا سوف أربيكم ياأولاد ..

ورحنا نصرخ ونبكى . ثم سأله : عملوا فيك ماذا ؟

ولم يكن أحد قد ضايقه .. وإنما هو لا يستطيع أن يتخلص من زنقة البول المفاجئة !

* * *

كانت الحياة منتظمة .. أو رتيبة .. ولكن من حين إلى حين يجىء أناس إلى البيت .. ويسهرون ويتكلمون فى أشياء كثيرة .. بعضها أفهمه .. وأكثرها لا أفهمه .. يتحدثون عن بلاد بعيدة .. وعن أحداث .. قتل وذبح .. وعن الذئاب التى تهاجم القرى وتخطف الأطفال والأغنام .. وعن الذئبة التى لا تستريح إلا إذا أخذت بثأرها .. فإذا قتلوا زوجها ، ظلت تطارد كل الناس حتى تجد الرجل الذى قتل زوجها ، وعندها هذه القدرة الهائلة على معرفته .. وكذلك الأفعى التى إذا قتلوا زوجها ، ظلت تطارد القاتل حتى تجده وتلدغه .. وتقف عند رأسه حتى يموت !

وحوادث السطو .. اللصوص يجيئون من بعيد وفى الليل ينامون فى الحقول . وأحيانا يختفون تحت ماء الترع .. وأحيانا يغطون أجسامهم بالزيت والشحم حتى لا يستطيع أحد أن يمسك بهم . وإذا مسك بهم فإنهم يفلتون .. واللصوص الذين سطوا على بيت العمدة نفسه .. وكان موجودا .. وكان معه الخفراء وشيخ الخفر .. والمأمور أيضا .. فانتهز اللصوص هذا الجمع فى مكان واحد وسرقوا البهائم .. وبعض البهائم ذبحوها وتركوها فى مكانها .. وتشاجر اللصوص وبعضهم اعترف .. وفى إحدى المرات أمسك الخفراء أحد اللصوص واكتشفوا أنه كان امرأة . خرجت تأخذ ثأر زوجها الذى قتلوه من سنوات .. وأعجب بها الخفراء فأطلقوا سراحها لأنها قالت : رجال يلقون القبض على امرأة .. عار والله عار !

وعرفت الخوف . وعرفت أن الرعب يستولى على الريف كله من غروب الشمس .. فاللصوص والذئاب والأفاعى كلها تخرج بالليل .

وعرفت أن القطط بالليل ليست إلا عفاريت أو أرواحا وأشباحا .. وأنها ليست قططا .. وإنما هى اتخذت شكل القطط .. ومن يتعرض لها ، فإنها قادرة على أن تصيبه بالشلل وفقدان النطق ..

وتحت كل ورقة فى شجرة ينام عفريت .. وهذه العفاريت تسقط على الناس كالأمطار ليلا .. ولذلك يجب ألا يخرج الطفل وحده .. أما الرجال فهم يحملون النبابيت والبنادق حتى إذا سقط عليهم عفريت قتلوه .. وإذا مات عفريت واحد ، هربت العفاريت كلها !

وعند منتصف الليل ، من كل ليلة تخرج « النداهة » .. وهى امرأة طويلة جدا .. تمشى بين البيوت وتنادى الأطفال .. فينهض الأطفال من نومهم وتضحك عليهم .. ويمشون وراءها .. وتذهب بهم إلى النيل .. ويغرقون وتبحث عن غيرهم .. والنداهة قادرة على أن تتشكل كما تريد .. فهى إذا وجدت فلاحا يعمل فى الحقل ، جعلت من نفسها حمارا .. فيراه الفلاح فيركبه .. وتظل ترتفع وترتفع .. وتلقى به من فوق ظهرها فينكسر ذراعه أو ساقه .. وتهرب وهى تضحك !

أو إذا مات واحد من الناس فإن أهل الفقيد يتحدثون عنه طوال الوقت .. ويتخيلون أنه مازال حيا .. ولذلك تذهب النداهة إلى زوجة الفقيد .. وتقرب من نافذتها وتناديها بصوت زوجها .. فتنهض وتطل من النافذة فتجد رجلا مثل زوجها تماما .. وتمشى وراءه لأنه يريد أن يتحدث إليها لآخر مرة .. وأنه خرج من القبر لهذا الغرض .. ويطلع النهار عليها فتجد نفسها فى بلد آخر !

وبعض الأطفال يؤكدون أنهم مروا على الكتاب ليلا فسمعوا أطفالا يتلون القرآن .. إن بيت سيدنا « مسكون » بالعفاريت .. وبعض الأطفال يؤكدون أن سيدنا نفسه من العفاريت .. وآخرون يقولون : بل هو يعيش مع العفاريت .. وأنه متزوج من عفريتة .. وأن زوجته هذه ليست إلا عفريتة .. ولذلك فليس عندهما أولاد .. وأنها تمنعه من مغادرة البيت ليلا .. وإنها تضربه وهو يصرخ .. وأن إناسا كثيرين سمعوه يصرخ .. فلما دقوا الباب ليعرفوا ماذا

يحدث له .. خرج لهم هادئا مستنكرا .. ويقول الناس أنه « يخاوى » الجن !

وأن آباء الأطفال قد شاهدوا سيدنا في المنصورة .. وفي دمياط .. وعندما حاولوا أن يعرفوا ، اختفى .. فسيدنا من « أهل الخطوة » أي يستطيع أن يضع رجلا في القرية ورجلا أخرى في المركز .. وأن إناسا كثيرين رأوه في المنصورة فلما عادوا إلى القرية وجدوه في البيت .. وأن إناسا آخرين شاهدوه في نفس اليوم في دمياط .. وهو يصلى الفجر في « سيدى الباز » في دمياط وفي مسجد سيدى أبو أحمد الشربيني في شربين وفي سيدى البدوى في طنطا !

وفي إحدى الليالي وجدت والدى ووالدتي والخادمة يتسابقون على السلم .. وسمعت الخفير وزوجته والخفراء .. وكان ذلك عند منتصف الليل .. ولم أجرؤ على أن أسأل .. وترددت كلمة اللصوص وكلمة الذئب .. وعرفت أن أحد الذئاب أو أحد الثعالب أو أحد الضباع .. قد هجم على جاموسة وفتح بطنها .. أو على حمار .. أو أنه خطف طفلا كان نائما بين الخفير وزوجته .. وأنهم وجدوا الثعلب قد تسلل إلى بيتنا وخطف الدجاج من المطبخ ..

هل في ذلك الوقت تعلمت أن أنام وقد غطيت رأسي تماما ؟ ! هل الرعشة التي تصيبني كل ليلة وليس لها علاج هي بسبب هذا الخوف .. فلا أستريح إلا عندما أنام إلى جوار والدتي .. أو تجيء هي تنام إلى جوارى حتى أذهب في النوم .. هل عرفت في ذلك الوقت الغطاء الثقيل شتاء وصيفا .. إنني حتى هذه اللحظة أتغطى باللحاف والبطانية ، وبأضعافها شتاء .. ولا أشكو من الحرارة ولا أضيق بها .. بل إنني عندما أذهب إلى أي بلد استوائى ، فإنني أطفىء أجهزة التكييف وأبحث عن غطاء ثقيل .. حتى هذه اللحظة !

هل خوفي من الإصابة بالزكام صيفا وشتاء ، لهذه الأسباب القديمة ؟ !

لقد حاولت أمي أن تستمع إلى نصيحة طبيب من أقاربنا ، بأن تجعلني أعتاد على الغطاء الخفيف بالتدريج ، فكنت أتوهم أن العفاريت هي التي تعريني كل ليلة .. ولم أجرؤ على أن أصارح أحدا بذلك !

وفي ذلك الوقت كنت أجد الراحة الكبرى في رواية قصص العفاريت التي رأيتها من النافذة وفي دورة المياه والتي تمر بيني وبين الحائط ويكون لها مثل صوت الهواء يدخل من تحت الباب .. وكيف أنني رأيت القط يتحول إلى أرنب

والأرنب إلى عصفورة والعصفورة إلى نخلة والنخلة إلى ذبابة تدخل فى أذنى وتظهر كل ليلة .. فإذا صحوت فإننى لا أجدها ..

وعلمنى والدى أن أتلو آيات من القرآن كل ليلة .. وأظل أرددها حتى أنام .. وعلمنى والدى أن الله سبحانه وتعالى يحول حروف الآيات إلى جنود تحرسنى من العفاريت ، وكنت أنام بعمق ولا أرى ولا أتخيل شيئا ، ولكن بقى الغطاء ثقيلا جدا صيفا وشتاء !



حالة فزع في نصف الليل

حالة فزع فى نص الليل

وفى يوم استوقفنى سيدنا قائلا : سوف أذهب معك إلى والدك !

وتطلعت عيون الأطفال . فى رعب . ولكن أحدا لم يستطع أن يفهم . ولا أنا وتقدمنى سيدنا وسرت وراءه حانى الرأس . وفى الطريق يداعبنى الرجال ويقولون : الله يفتح عليك ياسيدنا الشيخ ..

وجاءت سيدة ودست فى جيبى قطعا من سكر النبات وهى تقول : سلم على ماما .. وقل لها هذه بركة من الشيخ عباس .. هى تعرف .. إياك أن تنسى !

ومررت على بيت الطلياني ودق سيدنا الباب . وسمعناه يقول : من الحمار الذى يرفس الباب .. إنطق ياحمار .. ألا تعرف إننى أستحم الآن ..

قال سيدنا : أنا الشيخ سيد

وجاء الصوت : إيه ياشيخ زفت ؟

ونظر سيدنا ناحيتى فى شىء من الخجل . ثم قال : محمد أفندى فى البيت ..

وجاءه الرد : اخطف رجلك إلى بيت محمد أفندى .. ولا انت على رجليك الحنة .. ولا شاطر تضرب العيال عندما يضعون الحنة على أرجلهم !

إنه يسأل عن والدى ، لابد أن لديه شيئا هاما .. خطأ قد صدر منى فى الكتاب ، لابد أنه سوف يشكو أو يتظلم ..

وأمام البيت هربت من سيدنا ، ووقفت وراء الباب أستمع إلى ما سوف يقوله .

وإذا سيدنا يقول : إن شاء الله تكون مبسوط .. إن « صلاح » يحفظ القرآن وينطقه على أحسن وجه .. وسوف يكون له مستقبل إن شاء الله .

ـ إن شاء الله .

ـ والله ياحضرة المفتش حدث شيء غريب النهارده .. وربنا يسامحنى .. وصلاح هو السبب .. وأنا طالب إنك تتوسط .. وتكون واسطة خير .. بإذن الله ..

فقد ذهب معى إلى الكتاب ، مرقص ، زميلى وصاحبى .. وأبوه هو صراف القرية .. ولاحظ سيدنا أن مرقص لا يتلو القرآن ولما طلب إليه أن يرفع صوته .. لم يفعل .. فهو لم يكن معنا فى الكتاب .. ولما كرر الطلب لم يفعل فإنهال عليه ضربا .. ووضع قدميه فى ، الفلقه ، . ولم يجرؤ واحد منا أن يقول إنه ليس زميلا فى الكتاب . ولما ضربه وأوجعه وبكى أصر سيدنا على أن يردد منفردا آيات القرآن الكريم فقال : كهيعص .. فقط ..

ولما طلب إليه أن يكمل لم يعرف فسأله : أنت مين ياواد أنت ؟

ـ أنا مرقص .

ـ أنت إيه .

ـ مرقص .

ـ نصرانى ياواد .

ـ أيوه .

ـ نصرانى .. وإيه اللى جابك هنا .. يانهار أسود ..

فأشار مرقص إلى أنه جاء معى ، وأننى طلبت منه أن يجيء . فجاء ..

ولم أكن أعرف معنى أن يكون طفل نصرانيا ،وطفل آخر مسلما ، لم أفهم . إنه ككل الأطفال . بل هو أقرب الأطفال وأحبهم . وأنا أذهب إلى بيته وأجلس إلى أمه وأخوته ونأكل ونلعب . وهو يجيء إلى بيتنا . وأحيانا يبيت عندنا ، ورغم أن بيوتنا متقاربة وأمه تزورنا ، وأمى تزورهم .. وأبوه يجلس منفردا مع والدى ويتحدثان ساعات طويلة .

وبدأت أنظر إلى مرقص على أنه إنسان غريب .. مختلف .. وكل الذى اهتديت إليه فى ذلك الوقت أنه لا يستطيع أن يجيء إلى الكتاب لأن والده على خلاف مع الشيخ سيد . هذا هو السبب .

هل صحيح ما لاحظته فى ذلك الوقت ، أن والده على خلاف مع كل

الآباء .. وأن مرقص لهذا السبب لا يلعب مع واحد منهم ، معى فقط .. هل لأننى أفضله على كل الأطفال ، بدأ الأطفال يبتعدون عنى وعنه ..

ولابد أنه الغضب الشديد هو الذى جعلنى أحرص على مرقص أكثر من أى واحد آخر .. ولابد أن حرصى على الانضمام إليه وإلى أسرته . وفى مواجهة كل الأطفال سوف أحرص عليه أكثر .. ففى مواجهة الأطفال قلت : نعم .. سوف أتزوج أخت مرقص .. اتفقنا !

وكنا فى ذلك الوقت فى السابعة من العمر . وعندما علم والدى راح يضحك . وكان ينتهز فرصة وجود الضيوف ويسألنى : يا صلاح .. هل اتفقت مع تريزة على الزواج ؟

وأقول بكل صدق وسذاجة : نعم .

- هل تعرف معنى الزواج منها ؟
- أنها تجىء إلى هنا وتعيش معنا .
- وأين تنام هى .. إن سريرك صغير .
- مع ماما ..
- وهل إذا تزوجت سوف تضع الحنة فى يديك وقدميك ؟
- لا .
- لماذا ؟
- لقد ضربنا سيدنا .
- وكانت تريزة إذا جاءت إلى بيتنا ، كنت أجلسُ إلى جوارها .. وألف ذراعى حول عنقها . والناس يضحكون وأنا لا أفهم . ولم يكن أحد يعترض على هذا السلوك من طفل دفعه الحب والإخلاص إلى صديق له أن يذهب إلى أبعد مما يتصوره أو يدركه ..

هل فى ذلك الوقت اتجهنا نحن الاثنين - مرقص وأنا - إلى ملاحقة أبناء الغجر ، لكى نلعب معهم ؟ هل كنت أكثر شجاعة من مرقص .. هل مرقص لم يكن فى حاجة إلى أن ينشد شيئا عند أبناء الغجر ، فهو أيضا مثل أولاد الغجر .. فلم يكن فى القرية من الأقباط إلا أربع عائلات متفرقة .. ليس فيها طفل واحد يلعب مع مرقص ولافتاة تلعب مع تريزة ؟

إذن أنا الذى ذهبت إلى مخيمات الغجر .: وكانت هذه المخيمات بالقرب من المحطة . محطة الدلتا .. أى الخطوط الحديدية الضيقة .. والخيام صغيرة متجاورة وحولها عدد كبير من الحمير السوداء .. والكلاب التى تنبح كل من يقترب منها .. وليس هناك إلا رجال كبار فى السن وأطفال .. أما النساء فهن يذهبن إلى القرية يبعن البيض والأقمشة ويقرأن الطالع للنساء ويضربن الودع .. هكذا قيل لنا .

وكثيرا ما حملت الطعام والسكر والأرز لكى أعطيه لأطفال الغجر . إنهم يقتربون ولا يتكلمون ثم يخطفون الذى أحمله أنا ومرقص ، ويتوارون فى الخيام .

ولما رويت لأمى أين كنت .. وجدتها قد ارتدت ملابسها بسرعة . ونادت زوجة الخفير والخادمة . وطلبت منى أن أدلها على مخيمات الغجر . ولما اقتربنا من الخيام ، راحت الكلاب تنبح . وتقدمت الخادمة تسأل عن : مبروكة .

ومبروكة هى واحدة من الغجريات التى تعرفها القرية . وظهرت مبروكة .. أو واحدة أخرى . وإذا بوالدتى تقول لها : هل هذا يصح ؟

وأشارت ناحيتى . ولم تدرك الغجرية ما تقوله . ولم أكن أدرى بالضبط ما هذا الذى يصح أو لايصح .

فأنا عندما جئت أبحث عن الأطفال الغجر لكى ألعب معهم ، جاءت سيدة ، وخلعت جلبابى وحذائى وأعطتنى جلبابا قديما وحذاء مهلهلا . وهى تقول : قل لوالدك يشترى لك غيرها .

وفى اليوم التالى جئت ومعى جلاليب أخرى بعثت بها والدتى . ومنذ ذلك اليوم بدأت صلة عميقة بالغجر .. فى مصر وفى فرنسا وأسبانيا ورومانيا .. وتابعت الغجر .. والروح الغجرية المشردة المتمردة على كل أنواع الحدود والقوالب .. وتصنيف الناس مذاهب وقوالب !

• • •

حفظت القرآن الكريم بعد سنتين وبضعة أيام . ومشاعرى لا توصف . فقد كبرت فى عيون الناس كثيرا . وكان لابد أن أمشى عالى الرأس . وألا ألعب

مثل الأطفال . ثم أن والدتي لم تعد تضربني .. ولم يعد اسمي صلاح .. وهو اسم التدليل .. وأنا أسمي هو الذي جاء في شهادة الميلاد .. ثم إنني أذهب إلى الصلاة في المسجد .. وإذا سمعت القارىء في المسجد فإنني أتابعه بصوت هامس .. ألست قد حفظت القرآن مثله ؟

• • •

وكانت الخطوة الثانية أن أذهب إلى المدرسة الابتدائية في القطار كل يوم . وأمام العلوم الجديدة الكثيرة ، فأنا واحد مثل كل الطلبة . فيما عدا « حصة الدين » . فأنا لست في حاجة إلى حفظ الآيات المطلوبة مع التلاميذ . لقد حفظتها وكل السور وكل القرآن الكريم ..

وتتابعت السنوات . لاجديد لا حوادث . كل شيء عادي جدا . وكان ترتيبي الأول . ولم أستطع أن أشكو إلى والدي أن مدرس الحساب واسمه هيكل أفندي .. وهو رجل بكرش أحمر الوجه طويل الطربوش أخضر العينين يستدعيني من حين إلى حين وأذهب إلى حيث يدرس في فصل آخر ويسألني وأجيب ، بينما لم يفلح واحد من أقراني في الإجابة . ثم يطلب مني أن « ألقعه » . أي أحمله على صدري . لكي يضربه هيكل أفندي بالعصا .. وبعد ذلك يطلب مني أن أعود إلى فصلي !

وعرفت التقلص الثاني في معدتي .. عندما طلب مني هيكل افندي أن أحمل واحدا من إخوتي لكي يضربه . وحدث ذلك أكثر من مرة !

وفي يوم استدعاني ناظر المدرسة . لأجد والدي هناك . ووجدت عددا من المدرسين . ووجدت والدي يقول :

- أنت تحفظ سورة هود .

- نعم .

- اقرأ ياابني .

- بسم الله الرحمن الرحيم : الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ..

- وسورة مريم .
- بسم الله الرحمن الرحيم : كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا ..
وقال أحد المدرسين : نحفظ سورة الطور .
- بسم الله الرحمن الرحيم : والطور وكتاب مسطور فى رق منشور .
قال والدى : سورة المنافقون .
- بسم الله الرحمن الرحيم : إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون .
قال ناظر المدرسة : ما شاء الله .
ووجدت والدى يقول : ثم إنه يحفظ الكثير من الشعر .. فى هذه السن لا يعرف معنى الذى يحفظه . ولكنه يحفظ وينطق نطقا سليما . وهو قادر على أن يحفظ أية كمية من الكلام الجيد . فبعد أن حفظ القرآن الكريم لم أعد أخاف عليه ..

ثم قال والدى : قفا نبك
قلت :
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
- هل تعرف من صاحب هذا الشعر ؟
قلت : القيس
قال والدى : امرؤ القيس . قل : لخولة أطلال
قلت :
لخولة أطلال ببرقة سهمد
ظللت بها أبكى وأبكى إلى الغد
- من صاحب هذه القصيدة ؟
- ابن العبد
- طرفة بن العبد .. قل : أمن أم أوفى ..
قلت :
أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدراج فالمتثلم

- فالمتسلم .. من صاحب هذه القصيدة
- زهير بن أبى سلمى .
- قل : أى محل ارتقى ..
قلت :
أى محل ارتقى
أى عظيم أتقى
وكل ماقد خلق الله
وما لم يخلق
محتقر فى همتى
كشعرة فى مفرقى
- من قال ذلك ؟
- المتنبى ..
- هل تعرف قصيدة عمرو بن كلثوم ؟
قلت :
الاهبى بصحنك فأصبحينا
ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها
إذا ما الماء خالطها سخينا
أبا هند فلا تعجل علينا
وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا
ونصدرهن حمرا قد روينا
لنا الدنيا وما أمسى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا
ونحن البحر نملؤه سفينا

ووقف حضرة الناظر واقترب منى وانحنى يقبلنى قائلا : كفى ياولدى .. بارك الله فيك .. فلم نكن نعرف عنك كل ذلك !

وأقترب منى واحد من المدرسين يقول : أنت أستاذ .. أنت لست تلميذاً !

وكان هذا هو مدرس « الانشاء » وقد أعطانى صفرا فى موضوع الانشاء .. ثم كتب فى كراستى أنت سرقت هذا الموضوع من أحد الكتب . صفر ..

ولم أكن قد سرقت الموضوع وإنما كتبته . ثم وضعت فيه بعض أبيات من الشعر .. فقد كنت أجد لكل مناسبة أبياتا من الشعر . بل كنت أسرف فى وضع الشعر فى كل موضوعات الانشاء .. هل لأننى أحفظ الكثير .. هل أردت أن أكون مختلفا عن التلاميذ ..

وقبل أن نخرج من غرفة حضرة الناظر ، التفت والدى يقول لى : قل لأستاذك أبيات الحريرى .. هل تذكرها .. سامح أخاك ..

قلت : نعم ..

سامح أخاك إذا خلط

منه الإصابة بالغلط

وتجاف عن تعنيفه

شكر الصنيعة أم غمط

من ذا الذى ما ساء قط

وله الحسنى فقط ؟

ثم وضع والدى يده على فمى ليكمل الأبيات :

محمد خير الورى

من عليه الوحى هبط !

وحين ضحك الناظر والمدرسون ووالدى .. ومدرسون آخرون جاءوا مع أولياء أمور التلاميذ خرجنا .. وعدت إلى البيت !

وكانت بداية شعور عميق عندى لم يبرحنى وقتا طويلا : أنا إذن مختلف عن بقية التلاميذ .. ثم بقية الطلبة بعد ذلك .. والناس أيضا !

وعندما تعمق هذا الشعور واستقر ابتداء من الكتاب فالمدرسة والجامعة ، وجدت فى العزلة والانطواء والقراءة الملجأ الوحيد .. المخبأ الأمين من مخاوف حقيقية ومخاوف وهمية .. ومخاوف تضخمت فى العزلة وكبرت مع القراءة وتمثلت أمامى مذاهب فلسفية بعد ذلك .. ووقعت ضحية لأشياء كثيرة :

فلم أعد أعرف إن كان الخوف هو الأصل أو هى الرغبة فى الانطواء .. هل أنا خائف ولذلك انعزلت ، أو أنا منطو بطبعى واعتدت على ذلك فأصبحت أخاف من أى شكل آخر من أشكال العلاقات الاجتماعية ..

ولم أكن خائفا من شىء محدد .. وإنما أصبحت الخائف العام !

• • •

كان يوم الجمعة .. وكانت غرفتى قد انفتحت نوافذها .. ووجدت حركة غير عادية فى غرفتى .. طشت وأوعية من الماء الساخن .. وبخور . وصلوات ودعوات . وجاءت خالتى « مبروكة » الغجرية .. وراحت تنقش رجلى ويدى وجبهتى باللون الأزرق والأسود . وكنت مستسلما تماما . لم أسأل . وكانت تقول : حلاوتك .. أمير والنبى !

وعرفت أن « السرحان » من صفاتى أيضا .. فلا سألت ولا اعترضت ، وكأننى أتفرج على إنسان آخر أو كأنها رغبتى فى أن أعرف هى أهم من كل شىء .

وأجلستنى على مقعد ووضعت قدمى فى الماء الدافىء الذى راحت تتلو عليه صلوات وعبارات لا أفهمهما ثم تشرب منه وتلقى بالماء من فمها .. ثم تنثره من فمها على وجهى .. ثم تنثره فى الغرفة .. وتلقى به على السرير . وتحرق ورقا بعد أن وخزته بالدبابيس .. ثم تلقى بالماء على السرير .. وبالورق المحروق فى كل مكان .. وتطلب منى أن أشرب كوبا قد شربت هى منه .. ثم وضعت فى يدى ورقا محروقا وطلبت منى أن أبتلعه .. وابتلعته .. وأعطتنى قطعا من سكر النبات .. وطلبت منى أن أبتلعه. لم تطلب وإنما أمرتنى بتهديد ووعيد .

ونزعت ملابسى .. وراحت تصب الماء على جسمى .. ثم أتت بملابس نظيفة وألقت عليها الماء .. وارتديت الملابس النظيفة . وانفتح الباب بسرعة ودخلت غجرية أخرى ومعها عود من الحديد الأحمر .. وأقتربت منى .. وإذا بى أهرب بسرعة . لأجد نفسى على السلالم خارج البيت متجها إلى المسجد بين صفوف المصلين وأجلس إلى جوار والدى الذى أفزعه منظرى ، ولما لم

يجدنى قادرا على أن أروى له ما حدث .. إتجه بى إلى جانب من المسجد .. وسألنى . وحكيت له . فغضب صارخا : جهلة .. مجانين !

ولما لم يجدنى قادرا على الصلاة من شدة الخوف وكثرة الدموع ، طلب منى أن أجلس وأجفف دموعى !

وفى البيت سمعت القصة . فقد شكت والدتى لجارتها أننى أنهض من النوم فى حالة فزع ورعب دون أن يكون هناك سبب لذلك . وأن هذا الفزع يحدث أول الليل ونصف الليل .

وقيل لها لابد أن يكون قد حدث بعد زيارتى الأخيرة للمقابر وحدى ليلا .. فقد مات أحد أقاربى . وسمعت من الأطفال أن الميت بعد أن يدفنوه يفتح القبر ويطلب شيئا من أى واحد .. والذى يحقق له هذا الشىء يدخل الجنة . ولذلك ذهبت . ولم أجد أحدا . ولما لم أعرف كيف أعود إلى البيت بسبب نباح الكلاب أو صوت الذئاب ، دخلت الضريح وأقفلت الباب وغلبنى النوم فنمت ..

وقيل أيضا إن سبب هذا الفزع يوم سقطت من فوق « النورج » ولولا أن البقرة التى تجره كانت مرهقة ما توقفت عندما سمعت صراخى . وأن الله قد كتب لى عمرا ثانيا . ولكن الخضة والسقوط تحت عجلات النورج ، هى التى أدت إلى تخويف « القرين » والقرين هو أخى الروحى الذى يعيش تحت الأرض والذى لا يفارقنى ليلا ونهارا !

وقال أحد المثقفين من أصدقاء والدى إن هذا الخوف سببه يوم تمت « طهارتى » فقد كنت نائما .. وفوجئت بحلاق الصحة . ثم إنهم كتفونى .. ومثل هذه الحالة ، تطارد الأطفال وقتا طويلا !

ولكن الغجرية « مبروكة » هى صاحبة فكرة « الكى » بالنار .. ليذهب الخوف والأرواح الشريرة .. ولم يقل أحد ، أين موضع الكى .. فى الرأس أو فى كعب القدم أو فى الذراع أو فى الكتف .. ووجدت شيئا من الحكمة فى هذا الذى كادت تفعله الغجرية .. فلكى أعود إلى حياتى الطبيعية بلا خوف ، لابد من الكى بالنار .. لابد من الحديد والنار . إنه ثمن فادح !

كأنه من الصعب ألا يكون الإنسان طبيعيا .. فإذا أراد أن يكون قويا سليما سويا .. مثل بقية خلق الله فلا مفر من الألم .. من الخرافة التي تحرق ، وتظل آثارها مدى الحياة !

وكثير من البذور التي تركها ظلام الريف وحقوله وأزقته الضيقة والعواء والنباح والخوار والنقيق بقي في خيالنا يقاوم العلم والحضارة .. ويظهر في الذكريات أو في الأحلام .. أو في المخاوف التاريخية .. لقد سافرت إلى أركان الدنيا جوا وبرا وبحرا .. ومن حين إلى حين تقفز قصة غريبة ليس لها أساس .. ولاأعرف كيف ظهرت ، ولاتبعا لأى منطق .. مثلا : كنت في جزر هاواى أتمدد على شاطيء وكيكى الجميل .. وأستطعم الآيس كريم في نصف جوزة الهند .. الواحدة في حجم البطيخة وفجأة ومن غير مقدمات وبلا معنى ولا علاقة وجدتني أغنى :

إن كنت يوم رايح كفر الدوار
على الشمال زور أبو حمص
تلاقى محل عليه فنيار
فيه البضائع راحة ترقص

وسجلت هذه الحكاية في كتابي ، حول العالم في ٢٠٠ يوم ، دون أن أهتدى إلى تفسير .. فلا وجه للشبه بين أبى حمص وكفر الدوار وهونولولو .. ولا وجه للشبه بين ترعة المحمودية وشاطيء وكيكى على المحيط الهادىء .. ولا فول الحاج عطية البكاش والآيس كريم بجوز الهند .. إذا كانت هونولولو هي الجنة فمن المؤكد أن أبو حمص هي جهنم الحمراء أعدت للكافرين !

ومرة أخرى كنت في مدينة ، تاج محل ، بالهند .. وفجأة وجدتني أقول :
ياعم جوزة من الهند
ومركب عليها غاب
أنا أخذت منها نفس
والعقل مني غاب
ياعـم ..
وأنا لا أدخن ولادخنت .. ولاعلاقة بين الجوزة وبين غياب العقل وبين هذا

الأثر المعمارى الجميل الذى أقامه السلطان لزوجته الوفية ، فكان بناؤه تحفة تاريخية !

وهى من أغنيات الريف ..

وفى الفاتيكان كنت أحضر قداسا للبابا يوحنا الثالث والعشرين .. وتفضل ومد يده على رأسى وخلع الطاقية ووضعها على رأسه ثم أعادها بركة .. وحقدا من كل الموجودين ..

لم أعرف أهمية الذى فعله صاحب القداسة إلا عندما خرجت من كنيسة القديس بطرس ، وهجم الناس على رأسى وخطفوا الطاقية ومزقوها مائة قطعة .. وكل واحد احتفظ بقطعة منها .. بركة حتى الموت !

ولم أكد أرى الراهبات وقد خرجن من الفاتيكان .. فى ملابسهن البيضاء كالطهارة والصفاء والإيمان .. شقراوات جميلات .. خرجن حانيات الرؤوس وتلاشين من الجماهير .. فوجدتنى أردد ما كان يقال فى أغانى الأفراح فى الريف :

يانوم العازب ياذله
ده نومة الكلب أحسن منه
يحط قميصه تحت رأسه
والمخدة بنات رجليه
يانوم العازب ..الخ

لاوجه للشبه ولامبرر ..

وفى كثير من الأحيان أجد متعة فى البحث والمقارنة ، ومطاردة السبب القوى الذى جعل شيئا كهذا قديما يطفو على الذاكرة ..

كأننى كنت أضعها تحت رجلى عشرات السنين .. ولما رفعت رجلى ، هربت إلى رأسى .. أو كأنها كان يجب أن تخرج من اللاشعور ، لتموت بعد ذلك .. وجاء دورها لتموت .. أو كأنه العقل نفسه تعب من الفرامل والضوابط والسلاسل والقيود والكليشات لكل أحداث الطفولة ، فأفلحت هذه الحادثة فى أن تهرب من عقلى إلى قلمى ، وتجعلنى أدوخ وأقتفى أثرها فى كل مكان ..

ولكن لابد لهروبها من اللاوعى ولظهورها سبب . لابد أن هناك مناسبة ما استدعتها .. وليست هذه المناسبة واضحة عندى حتى الآن .

فما هى هذه المناسبة ياترى .. لابد أن اهتدى إلى ذلك .. فأنا اهتدى بالوعى إلى اللاوعى .. ولاتزال حياة المفكر بحثا مستمرا فى جيوبه وجيوب الآخرين وعقولهم وعقله ، وقلبه وقلوبهم .. وليس هذا القلم إلا سنارة .. مصيدة .. عصا يتوكأ عليها ويدق بها الأرض والأبواب .. ويهش بها على غنمه الشاردة فى طفولته وشبابه ورجولته .. وضد الآخرين !

وأنا عادة استسلم لهذه الحالة الغريبة .. وأحيانا أضيق بها لأنها توجع دماغى .. ولكن لا أعرف كيف أتوب عنها .

هل أقول لك ما الذى قفز إلى قلمى حالا وكأنه شتيمة لى - ما جاء فى رواية توفيق الحكيم « يوميات نائب فى الأرياف » .. جاء :

نهيتك ما انتهيت
والطبع فيك غالب
وديل الكلب ما ينعدل
لو علقت فيه قالب !

* * *

الله يسامحك .. الله يسامحنى !



جاء الحب .. ذهب الحب

جاء الحب .. ذهب الحب

كنت طالبا فى السنة الأولى الثانوية .. نجحت فى الابتدائية وكان ترتيبى الأول .. ولابد أن أكون الأول فى السنوات الخمس القادمة أيضا .. وفى الثانوية العامة .. لابد ربنا يسهل ..

وفجأة لاحظت أننى فى كل مرة أفتح الكتاب أجد صورة أمامى .. هى سمراء شعرها أسود .. حاجباها غليظان .. ووجهها حزين . وأمد يدى إلى الورق أمامى ألمس هذا الوجه لا أجده .. إذن من أين تجيء هذه الصورة ؟ من دماغى . كيف ؟ لا أعرف .. ولم يكن فى استطاعتى أن أعرف فى ذلك الوقت .. إذن الصفحات هى الشاشة ودماغى موجود به الفيلم والمصابيح القوية التى تعكس الصورة . كيف ؟ لم أناقش نفسى . ولو ناقشت فإننى لا أفهم .

إذن هذا هو الحب ..

ومعناه أن تظهر صورة من دماغك وتمنعك من القراءة ومن التفكير . وهذه صورة فتاة أعرفها . وهل صحيح أننى أعرفها . رأيتها مرة أمام المكتبة الفاروقية . تمشى وحدها . وكانت فى مشيتها تقترب من المكان الذى أقف فيه . هى تمشى وأنا سارح لا أراها ولا أرى غيرها .. ولا أعرف ما الذى كان يشغلنى فى ذلك الوقت .. ولاتمضى دقائق حتى يجيء بقية الزملاء وتتمشى على النيل من أول المنصورة إلى آخرها . ولا أعتقد أننا كنا نرى شيئا مما حولنا . فنحن نتكلم فى الأدب والفلسفة والشعر . والقليل جدا فى السياسة . ولم كن أنا الذى يتكلم . وإنما الزملاء الذين يرددون ما يقال فى بيوتهم من حوار بين الأب والأصدقاء والأقارب . وهذا ما لم أعرفه .. فوالدى بعيد عنا . ولذلك ليس لنا أصدقاء كبار . فلا حوار ولا مناقشة فى السياسة أو فى أية قضية أخرى . ولذلك فكل مشاكلى « مستعارة » من الكتب . ولا أظن أننى فى ذلك

الوقت كنت أقرأ الصحف أو المجلات . ولكن أراها أحيانا . ولم أشعر بضرورة قراءتها .. ولا بأن هناك نقصا لأنني لاأقرأ ما فيها . ولم أجد أحدا من الزملاء يتحدث عن الصحف والمجلات .

وفي اليوم التالي كنت أرى هذه الفتاة أيضا . واعتقدت أن أتابعها بعيني ولذلك أستطيع أن أصفها : نحيفة . سمراء . طويلة . سوداء الشعر . لها مشية غريبة . فقدماها منفرجتان كأنها بطة أو أوزة .. وتهز رأسها بصورة عصبية ، فيتحول شعرها من جانب إلى جانب . ثم أنها تنظر ناحيتي .. تنظر في عيني . ولا تقول شيئا . لا عيناها ولا وجهها ولا شفتاها . ولا شيء . أو كأنها تريد أن تقول شيئا .

وفي يوم تخلف الزملاء . وانتظرت طويلا . وقررت أن أعود إلى البيت . وعندما وجدت الفتاة قد أقتربت في اللحظة التي تحركت أنا أيضا .. ودون قصد وجدت نفسي قريبا منها إلى جوارها .. أمشي وراءها . ولما أقتربت من الناس تأخرت عنها . ولم ألاحظ أنها قد أسرعت في مشيتها . وإنما هي تأخرت أيضا . كأنها تريد أن نمشي معا . وتوقفت حتى تمشي معا . فتوقفت هي أيضا .

وفجأة سألتني : كم الساعة ؟

قلت : لا أعرف .

فنظرت في ساعتها وقالت : السابعة .. ولكن ساعتي غير مضبوطة .. أنت رايح فين ؟

وكان هذا الحديث مفاجأة . وارتبكت . ولم أرد عليها . ولابد أن يكون وجهي قد أحمر تماما . ثم عادت تقول : أنا أخت فريد .. هو الآن في القاهرة .. أنت تعرف فريد ؟ قلت : أعرفه ..

وأظن أنها هي التي تكلمت طول الوقت . ثم إذا بها تقول لي أنها جاءت هي ووالدتها وزارت والدتي من بضعة أيام . فقد كانت مريضة جدا . وكانت هي ووالدتها في زيارة أقارب لهم في نفس البيت . ثم إنها دخلت غرفتي ووجدت كتبا كثيرة على مكتبي . ثم إنها رأت أنه من الضروري أن أفتح شباك مكتبي . فالغرفة رطبة جدا . وهي مندهشة كيف أنني أذاكر فيها . ولكن علمت من والدتي أنني أضع بطانية على ظهري وكتفي وطاقية من الصوف .. إنني

مزكوم معظم الوقت .. وإننى أنام على المكتب وكثيرا ما سقط المصباح فأحرق كتبى أو أننى اقتربت منه جدا فأحرق رموش عينى ... وأننى وحيد تماما . ليس لى أصدقاء . ولا أزور أحدا ولا يزورنى أحد . وأنى أكثر أخوتى حنانا بأمى وأبى . وأن أمى إذا مرضت فإنها تخفى عنى مرضها حتى لا تعطلنى عن المذاكرة . وأن أمى إذا توجعت فإنها تضع رأسها تحت اللحاف حتى لا أسمع آهاتها .. فنومى خفيف جدا . ويكفى أن أسمعها تقول : آه .. لأظل ساهرا حتى الصباح .. ثم قالت إن أمى روت لأمها ولها أيضا ، كيف أننى لم أذهب إلى المدرسة منذ يومين وظللت أبحث لها عن دواء فى كل الصيدليات .. فى المنصورة وطلخا .. ثم ركبت القطار إلى السنبلاوين . وأنها لذلك لا تطلب منى أن أشترى لها أى دواء .

وقالت لى أن أخاها فريد لا يهتم بأحد .. لا بأمها ولا أبيها ولا أخوتها .. وإنها عندما شكت له أن الشبان يعاكسونها فى الشارع ، لم يهتم . حتى عندما قالت : أن أصدقاءه يعاكسونها ، لم يظهر عليه أى شىء من الاهتمام . وقالت إنه يعاكس أخوات أصدقائه إذن لا مانع عنده من أن يعاكسوها هى أيضا . وفى إحدى المرات طاردها واحد منهم وأمسك يدها ، وقال لها كلاما لا يليق . وبكت وشكت لأخيها .. وكل الذى قاله لها : إقلعى الجزمة واضربيه على دماغه !

ثم نظرت ناحيتى وقالت لى : ولكنك مختلف !

أما كيف انتهى هذا اللقاء .. أو هذا السير معا . كل الذى أذكره فى ذلك الوقت أننا سرنا معظم الطريق الواحد وراء الآخر . أنا الذى أمشى وراءها . ولكن عندما اقتربنا من شارعنا سرنا معا . ووقفنا أمام بيتنا .. وأشارت بيدها إلى بيتها ، وكان يبعد بضعة أمتار .. ثم قالت : سعيدة .. أشوفك غدا .

فى تلك الليلة كانت صورتها وصوتها على صفحات الكتاب .. وفى مصباح أضعه أمامى .. وفى السقف .. وصوتها كان يجىء من أذنى .. إذن هذا هو الحب .. أو بداية الحب .

إنها أول فتاة أقترب منها ، أو تقترب منى .. جاءت إلى بيتنا . ورأت أمى . ورأت غرفتى .. وسمعت حكاياتنا . لقد دخلت حياتنا .. وحياتى . فما الذى ياترى قد حدث فى بيتنا ؟

أمي مريضة ؟ لا غرابة في ذلك .. ولا عيب . غرفتي صغيرة رطبة مخنوقة ؟ صحيح . والنافذة مغلقة وهي لذلك رطبة .. يتساقط من جدرانها الجير على الأرض .. ثم أنني أضع حصيرة على الحائط ورائي .. وأضع الأغطية على كتفي . تماما كأنني واحد من أهل الاسكيمو الذي يصنع بيته من كتل الجليد .. وكانت تنظر إلى جبهتي كثيرا .. إن الأحمر فوق حاجبي الأيسر سببه أنني نمت وأنا أذاكر فأحرقني زجاج المصباح ..

في المدرسة رحت أبحث عن أخيها فريد .. إنه في فصل آخر .. وكنت انظر إليه من بعيد .. إنه أبيض وهي سمراء .. إنه مرح محبوب من كل التلامذة .. وهو قوي يدخل في خناقات ويعملون له ألف حساب ..ثم إنه في فريق الجمباز وهو يقفز إلى العقلة والمتوازيين .. وهو يدخن .. وعندما إقتربت منه ومن زملائه دون أن أتحدث إليه وجدته يروي حكايات غريبة .. عن فتيات ويذكر أسماءهن .. وكيف عاكس فلانة وعاكسته فلانة .. وكيف عاد إلى البيت متأخرا يمشي على أطراف أصابعه .. وأن والدته ضبطته ووعدها بأن تكون هذه هي المرة الأخيرة .. فلو علم أبوه لضربه وحرمه من المصروف .. ولم أفهم شيئا من كل هذا الذي قال ..

ولم أعرف هذا الشعور الغريب الذي كان يدفعني إليه .. هل أريد أن أكون قريبا منها هي .. أو من أي أحد على صلة بها .. أو أن أعرف شيئا عن حياتها وعن بيتهم .. هل أريد أن أعترف له ؟ .. أعترف بماذا ؟ هل أعتذر له ؟ .. ولكني لا أعرفه . وليس هناك شيء عندي يقال . لقد وجدتني مشغولا بالبحث عن النظر إليه والاقتراب منه .. أما هو فعنده أصدقاء كثيرون . ثم أنني لا أعنيه . والتلامذة ينظرون ناحيتي على أنني مختلف . وأن وجودي بينهم . شيء غير مريح ، فأنا تلميذ فقط . مجتهد فقط .. لا ألعب .. لا أسهر .. لا أعرف أحدا .. وليس عندي ما أقوله .. فلا حياة لي .. لا في البيت ولاخارجه .. بالضبط نموذج لما لا يجب أن يكون عليه التلميذ المرح الشاب المتدفق حيوية وشقاوة . فأنا أيضا مثلها هي : حزين الوجه .. بلا كلام يقال لا على الوجه ولا من العينين .. أنا تمثال نصفي .. من الممكن أن يوضع فوق ترابيزة أو إلى جوار حائط وتتركني ساعات وأنت على يقين من أنك سوف تجدني في مكاني .

وفجأة وجدت فريد يقول لأحد أصدقائه : إبعد عن ميمي

فقال له : ميمي مين ؟
- أختي .. لا أريد مناقشة ..
ولم يناقشه . أخته إسمها « أ .. » وقد رأيت أنه جاد في هذا التهديد .. ولكن لم أتحدث إلى أخته . هي التي بادرتني . أي لم أعاكسها . وهي التي جاءت إلى بيتنا . وهي التي وعدت بأن تراني غدا .

وفي الغد لم أخرج . ولم أستطع أن أذاكر . وأدعيت لأمي أنني قلقان على صحتها . وأنني أريد أن أنام إلى جوارها واعترضت أمي . ولكن جلست إلى جوارها . ورحت أسألها عن الذين زارونا في الأيام الأخيرة . ولم أكن أعرف أن كثيرين فعلوا ذلك .. خالاتي .. وأختي .. وكانت غير شقيقة . ولم أنسها قط لا في ذلك الوقت ولا في أي وقت . وتمنيت أن تعيش أختي هذه معنا . ولكن أمي رفضت . ولم أفهم . وكانت أختي سمراء طويلة . لونها خمري وجهها جميل وعيناها أيضا . وصوتها أول فتاة تقبلني على خدي . وتضمني إلى صدرها . كانت أكبر مني بخمس سنوات . وكانت تقول : ياأخي .. ياحبيبي .. ياضنايا .

وكنت وأنا طفل صغير أهرب من البيت وأذهب إليها في بيت جدتها .. ولا أكاد أراها حتى أضع رأسي على كتفها أو على صدرها . ويجيء النوم . لم أفكر في معنى ذلك . وكانت هي على استعداد دائم لأن تضع ذراعها حولي وتتركني أنام . وكان منظرنا يبعث على الضحك وكان الناس يضحكون علينا . فلا تكاد جدتها تراني حتى تنادي : ياوجنات - اسم أختي - عريسك وصل .. العريس جاء ينام !

وكنت أدخل من الباب وأتجه إليها وهي تقبلني . وأجلس إلى جوارها . ولا أعرف ما الذي أقول ، وما الذي تقول وبسرعة أجدني مستغرقا في النوم .
وكانت أمي تتضايق من ذلك : الناس تقول إيه ؟ يقولوا إنك لا تنام في بيتك .. إنه لا يوجد سرير .. إنك تعمل طول الليل .. ولا مكان لك في البيت .. بلاش يا ابني .

ولم أعرف في ذلك الوقت ما الذي يجب أن أمتنع عنه .. حتى هذه اللحظة من صورة أختي تملأ هذه الصفحة .. باهتة .. ثم فاتحة .. سمراء .. سوداء .. ثم ملونة .. ثم تقترب وتقترب .. حتى لا أستطيع أن أمضي في الكتابة . تمنيت أن تعيش هذه الأخت .. أن تعيش لي .. ولكنها ماتت شابة .. مات أقوى وأعمق

شعور فى أعماقى أعماقى .. هذا الحب .. الحنان .. الأمان .. ولم أشعر لأية واحدة من أخواتي ، بمثل ما شعرت به لهذه الأخت .. التى كانت أمومتها مبكرة . وكان عطفها وحنانها فيضا لا ينتهى .. فقط نظرتها .. لمستها .. صوتها .. الأمان إلى جوارها ومعها .. وكنت إذا وجدت فستانها قد أرتفع عن ساقيها قليلا فاننى أسحبه إلى قدميها .. وفى إحدى المرات وجدتها تحمل طفلا من أقاربها .. فبسرعة طلبت إليها أن ترفع الطفل لكى أسحب فستانها إلى قدميها .. والأقارب يتعجبون لهذا الشعور العجيب بيننا . وكانت جدتها تقول : سبحان الله .. لو لم يكن أخاها ، لكان أحسن زوج لها .. ولكنها أكبر منه .. مع أنه لم يعش معها فى بيت واحد .. ولا رآها إلا عندما كبرت ..

وروت جدتها أنها بحثت عن أختى فى يوم من الأيام فوجدونا جالسين تحت شجرة من الصباح حتى المساء .. لا أكلنا ولا شربنا .. ولا انتهى لنا كلام ..

هل كانت « أ .. » صورة أخرى من أختى .. هل هذا صحيح أو أن خيالى هو الذى صورها كذلك .. أو هل هو إحساس بفقد أختى جعلنى أتمنى أن أجد تعويضا فى آمال .. أحيانا أجد آمال هذه مختلفة عن أختى .. مختلفة تماما .. فهذه سمراء وأختى خمرية اللون .. آمال سوداء العينين وأختى زرقاء العينين مثل والدها وجدتها وعماتها وخالاتها وأخوالها وأخوتها غير الأشقاء .. ولكن الصوت واحد .. فأختى كان لها صوت ملىء فيه « بحة » كأنها تتنفس كلاما .. وكانت إذا ضحكت تراجعت برأسها إلى الوراء .. وظهر على ملامحها طفل برىء .. وكانت مثل كل بنات الريف إذا ضحكت وضعت يدها على فمها حتى لا يسمع أحد ضحكتها ثم إنها تنحنى إلى الأمام كأنها تخفى وجهها أيضا . هل كانت آمال تفعل ذلك .. أو أننى تخيلتها الصورة الجديدة لأختى .. اختلطت الصورتان أمامى . وتداخل الوجهان . وأصبحت أشجع فى مقابلتى لآمال .. أذهب للقائها . وأتحدث إليها . وانظر إلى وجهها وأتابع ألوان الكلام والمعانى على وجهها وقد تلاشت صورتها أمامى وكذلك صوتها . فلم أعد أنشغل بها كثيرا . وإنما أحرص على أن أقابلها . وكنا نلتقى أمام بقال يبيع الحلوى ويبيع الكتب أيضا . وكان اللقاء يستغرق نصف الساعة . وأحيانا الساعة . وفى هذه الساعة نتحدث . هى التى تتحدث أكثر . فى أى شىء .. وكان عندها موضوعات كثيرة . وحكايات لا تنتهى . وكنت لا أعرف كيف أجرى حديثا ..

فحكاياتها مليئة .. أو عندها هذه القدرة الهائلة على تحويل أى شيء إلى حكاية ورواية .

أن أختى يرحمها الله كانت أجمل وألطف . ولكن لم يكن لديها كلام تقوله . كانت مثلى تماما . أما « أ ... » هذه فعندها كتب ومجلات وأغنيات ثم إننى لا أعرف كيف أجيبها على كثير من أسئلتها مثلا : ما الذى تقوله أنت وزملاؤك عندما تتمشون على النيل ؟ .

ويكون جوابى : عن الكتب .

- أى كتب ؟

- التى نقرؤها .

- هل تعرف أنهم لا يعودون إلى بيوتهم مثلك !

- لا أعرف ..

- واحد منهم يعرف إحدى زميلاتى ويحبها .. والثانى خطب إحدى قريباتى .. والثالث سوف يزوجه أهله ..

- لا أعرف .

- إذن عن أى شيء تتحدثون ..

- . . . . . .

ولم أكن أعرف ما هو المقصود بكلمة « الحب » وكل الذى أذكره أنها كلمة « سيئة السمعة » وفى كل مرة أسمعها في بيتنا أجدها مرتبطة بالإهمال فى المذاكرة والرسوب .. أو التدخين .. أو السهر أو طلب الكثير من المصروف .. ولكن لم أكن أعرف بوضوح ما هى العلاقة بين كل ذلك والحب ..

وكانت من حين لحين تسألنى هكذا : وأنت ؟

- وأنا ماذا ؟

- ما رأيك ؟

- فى أى شيء ؟

- فى هذا الذى أقول ؟

- ويكون الذى تقوله عن الزواج .. وعن المستقبل .. وعن الحب .. وعن

موقف أخيها منها وإهماله لها .. وقسوته عليها .. أو قسوة أمها .. أو الغمز واللمز من صديقاتها اللاتى رأيتها معى أمام البقال .. ثم ظهور السرحان والانشغال عليها وعدم قدرتها على التركيز .. وما الذى يعجبها فى واحد مثلى .. لايهش ولاينش .. ولا يصد ولا يرد .. يمشى ووجهه فى الأرض .. ولم أكن أعرف ما معنى أن يكون لى رأى .. أو تعليق على هذا الذى قالت .. هى قالت وأنا سمعت . انتهى . ولم يكن من السهل أن أحكم على هذا الذى سمعت فور سماعى له .. فأنا لا أعرف الحوار .. لا حوار فى بيتنا .. إن أهم القضايا التى نناقشها فى البيت .. أمى تتكلم . وأنا أسمع . هى مريضة . ولا رأى لى .. جاءنا ضيوف .. أعمل لهم الشاى .. فلا رأى لى .. قل لصاحب البيت : سندفع الإيجار بعد أسبوع .. فلا رأى لى .. أنا أذهب إلى غرفتى وأذاكر وأنام وأصحو .. وأذهب إلى المدرسة ولا رأى لأحد .. ولا رأى لى ..

مرة واحدة سألتنى : هل يرضيك أن أمشى فى الشارع وحدى .. وفجأة أجد أحد أصدقاء أخى يقرصنى من هنا ..

قلت بسرعة : قلة أدب !

وظهرت عليها السعادة . ولأول مرة وضعت يديها الاثنتين حولى . وكانت حركة مفاجئة . وبحركة عصبية مددت يدى وأبعدت يديها .. ولم أفهم ما قالته : أنا سعيدة جدا اليوم !

• • •

وفى يوم كان اللقاء فى حديقة « شجرة الدر » وأنا الذى اخترت هذا المكان . لم أعرف لذلك سببا واضحا . هل أنا أحاول أن أقلد ما يفعله مؤلفو الروايات الغرامية .. فهم يذهبون إلى الحدائق .. أو يجلسون تحت الأشجار .. دائما هناك حديقة وشجرة ورد .. وعصفور .. وأحيانا مجرى ماء .. نبع ماء .. بئر .. ودائما تكون قطرات الندى قد غطت أوراق الشجر .. أما السماء فلابد أن تكون إما صافية تماما .. وأما مغطاة بالسحب .. والأرض إما متوحلة أو سقطت عليها أوراق الشجر .. وهذه الأوراق ذابلة .. وأحيانا نجد أطفالا

يلعبون .. وبسرعة تجيء كرة صغيرة يجرى وراءها طفل .. لينحنى عليه المحبون ويقبلونه .. وتتلاقى عيونهم بما لا نهاية له من المعاني : الحب والزواج والأسرة وسعادة الأطفال .. قرأت في قصة إسمها « في غياب القمر » لا أعرف من الذى ألفها ، أن اثنين من العشاق جلسا تحت شجرة .. وكان من بين أغصانها ، أثنان متعانقان .. ولم تجد الطيور مكانا أدفأ ولا أجمل من هذين الغصنين ..

أما الفتى فقال : لأن العصافير كثيرة ، فقد تركت مخلفاتها على الأوراق ..

أما الفتاة فقالت : ما أروع احتمال هذه الأغصان .. وما أشد صبرها .. إنها تعطى الدفء والملجأ والطعام ، ثم تلقى هذا المصير من العصافير ..

قال الفتى : ليست عقوبة .. ولكنها طبيعة الحياة .. فالذى يأكل هو الذى يترك المخلفات .. وهذه المخلفات هى مواد عضوية تقوى قشرة الشجرة .. إن العصافير قد أعطت الشجرة أعظم ما تحتاج إليه .

قالت الفتاة لقد أنسيتنى صوت العصافير وشكل العصافير .. وهذا الحوار الأبدى بينها وهذا العناق الدائم يلف رقابها .. وهاتان الحمامتان .. آه لو تكلمتا .. تفتكر ما الذى يمكن أن تقوله إحداهما للأخرى .. لابد أنهما معا سوف ينطقان بكلمة الحب في نفس واحد ..

وقال المؤلف تعليقا على حوار العاشقين : طبيعى أن يكون الفتى العاشق مهندسا زراعيا .. وأن تكون الفتاة العاشقة رسامة عابدة للألوان .. لموسيقى الألوان ..

وفى رواية أخرى عنوانها « عذاب الليالى » لا أعرف اسم مؤلفها وجدتنى قد وضعت خطا تحت هذه العبارة قالت الفتاة : لا تقل إنك تحبنى .. فأنا على يقين من ذلك .. الأشجار والأزهار والطيور قد قرأت أفكارك وراحت تردد هذا المعنى ورقة وشجرة ونسمة هواء وفى بريق النجوم .. ولكن أجمل لمعان هو الذى في عينيك .. لا تقل شيئا .. لقد قلت .. قلت كثيرا جدا .. إنك خلقت غابة من حرفين ومحيطا يضج بالأمواج .. لا تقل .. وأنا لن أقول ، أننى أخشى أن تتداخل النجوم والقمر والسحب والرياح في ملحمة الحب الأبدى .. وأنا لن أقول . لقد قلت . وهذه الدنيا شاهدة علينا !

هل لهذه العبارات معنى خاص .. لم يكن لها معنى عندى . وإنما تراكيب الكلام وتخريج المعانى بعضها من بعض هو الذى يبعث على دهشتى فى ذلك الوقت .

ولما سألتنى : ولماذا حديقة شجرة الدر ..

كان ردى على ذلك شبيها بمثل هذه الكلمات : المكان أجمل . والأشجار الطويلة على الجانبين .. والأعشاب كالحرير .. والأوراق أكف صغيرة تتضرع إلى السماء .. والأزهار ابتسامات ..

هل أدهشها ذلك ؟ هل أعجبها ذلك ؟ هل قلت شيئا يستحق الإعجاب ؟ ولكن لماذا قلت ؟ لم يكن فى قدرتى أن أفكر وأفسر وأعبر وأبرر .. ولكى أحاول أن استسلم لمشاعر غريبة فى داخلى .. أو أننى تشجعت فأكون متحدثا متكلما أو مفكرا ..

وفى ذلك الوقت عرفت الكتابة .. وكانت كتابتى على شكل مذكرات .. أو على شكل حديث بينى وبين نفسى ..

وسألتنى : ماذا أقول لو رآنا فريد ؟

ولم أكن فكرت فى ذلك .

ولكنى قلت : إننى أشرح لك النحو والصرف .

قالت : ولكنى ممتازة فى النحو والصرف .

قلت : اللغة الفرنسية .

قالت : ولكنى ممتازة .

قلت : إذن التاريخ .

قالت : ولكن ليس معنا كتاب للتاريخ ..

ولا أذكر كيف انتهى الحديث بعد ذلك ..

ولكننا ذهبنا كثيرا .. وكانت هى أكثر تساؤلا عن الذى سوف أفعله فى المستقبل . ولم أكن قد فكرت فى ذلك . فأنا لا أعرف ماذا سيحدث غدا .. بل إن هذا الحاضر نفسه كان غيبا . فلم يكن فى حسابى أن أكمل تعليمى . فالظروف صعبة . وكانت هناك محاولات كثيرة فى أن أتوقف عن الدراسة وأن أعمل موظفا فى أى مكان . فالظروف قاسية . ولكنها والدتى . وهى تنظر

إلى أقاربها من المحامين والمهندسين والوزراء ، قد أصرت على أن أكون شيئا .. فأن أكون تلميذا هو نتيجة جهود مضنية قامت بها والدتي . لم أعرف تفاصيلها إلا متأخرا جدا ..

ولم أنشغل لحظة واحدة بمستقبلي . فكل الذى أعرفه هو أن أذاكر وأن أتفوق . أما بعد ذلك فلا أعرف . ولم أشغل نفسي . ولكنها كانت تفكر في أشياء كثيرة لم تخطر لي على بال .. هل تحدثت ، عنا ، نحن الإثنين ؟ لست على يقين من ذلك . ولكن لاحظت أنها تقول : نحن .. والناس يقولون عنا .. أمها قالت .. وزميلاتها قلن ، عنا ، ولم يكن في استطاعتي ، أن أقف بعيدا وأتفرج علينا نحن الأثنين . وكيف تبدو لمن يرانا من بعيد .. هي أكثر حيوية ومرحا وأكثر كلاما وأكثر وعيا بمن حولنا من الناس .. وهي ترفع صوتها وتخفضه .. وتتوقف عن الكلام وأحيانا تواري وجهها .. وفي نفس الوقت لا تغيب عنها كلمة أو لمحة واحدة مما أقول .. وأنا أتوجه إليها طول الوقت ..

- قل لي يا ..

ونطقت اسمي .. وأدهشني ذلك . ثم وجدتني سارحا فعادت وقالت : قل لي يا .. وكررت اسمي أيضا ولمسني ذلك النداء . وسمعت لإسمي رنينا وأداء مختلفا ..

وسألتني : هل تحب الأطفال ؟

وأجبت : لا أعرف ..

- إذا رأيت طفلا صغيرا كالذى رأيناه أمس .. فما الذى تشعر به .. أنا أشعر كأنه ملاك .. كأنه هابط من الجنة فورا . أنه أجمل مخلوقات الله .. منتهى السعادة أن أرى طفلا وأن أعانقه وأن أقبله .. ولا أمل النظر إليه أو الكلام أو اللعب معه ..

- لم ألعب مع أطفال ..

- لكن بعد أن رأيته لم تشعر بأى شيء نحوه ؟

- كائن ظريف ..

- فقط ..

وكنت أجد الحديث عن التاريخ والأدب وعن الكتب الجديدة ، هو الحديث المفضل . ولم تكن هي تجد في ذلك لذة .. وكنت أحدثها عن كل زملائي ..

ولكن لا أحدثها عن نفسي . ولا أجد ما أقوله عن نفسي وأسرتي وأقاربي ..

وسألتني : وأنت لم تشعر بالحب نحو أحد ؟ ..

- والدتي .. والدي ..

- أقصد أية فتاة من أقاربك ..

- لا ..

- هل توجد فتيات في الأسرة ؟ ..

- نعم .. ولكن ليسوا في هذه المنطقة ..

- ولا واحدة جعلتك تشعر أنها تحبك ..

- لا ..

- ولكن نفرض أن واحدة جاءت وقالت لك : أنها تحبك .. فماذا تفعل ؟

- قلة أدب ..

- أنها تحبك يكون معنى ذلك أنها قليلة الأدب ..

- أعتقد ذلك ..

- هل أنا قليلة الأدب لأنني أخرج معك .. ونجلس ونتناقش .. ونتحدث عن مستقبلنا .. يعني أنت كنت تحترمني أكثر إذا امتنعت عن الكلام معك .. وإذا رفضت فكرتك بأن نجيء إلى هذه الحديقة .. إذن أنت ترى أنني مادمت قد خرجت معك قد فعلت ذلك مع شبان آخرين .. ومعنى ذلك أنني كذابة عندما شكوت من معاكسة الشبان لي .. ولابد أن أكون قد خرجت مع واحد منهم .. ولكني أقول لك ذلك لكي أعطيك انطباعا أنني أفضلك عنهم .. مع أنني لا أريد منك أي شيء .. كل ما هناك أنني أعرف أنك تلميذ مجتهد .. كلهم يقولون ذلك . وأنك مؤدب خجول .. وأن والدتك تحبك جدا ، ومعها حق .. لأن عندك حنانا عميقا .. وأنا أجد فيك كل شيء ليس في إخوتي .. وأنا أشعر معك بالأمان والراحة ، أكثر من إخوتي .. ومنذ أيام سألتني ماما إذا كنت ما أزال أقابلك ..

- هي تعرف ذلك ؟

- مالك انزعجت هكذا .. طبعا تعرف . وأنا لا أخفي عنها شيئا ..

- ولكني لم أقل لوالدتي ..

- وهل يضايقها أن تعرف ؟

- لا أعرف ..

. وما هو الخطأ فى الجلوس معا ، أمام كل الناس .. وفى أيدينا كتب .. ونحن جالسان فى غاية الأدب والاحترام ؟ ! ..

وانقطعت الصلة بيننا تماما ، ولم أفكر فى الذى حدث . وكأنها ورقة سقطت من كتاب .. أو كأنها ورقة سقطت من شجرة حتى صورتها لم تعد تظهر أمامى .. ولا صوتها فى أذنى . وحتى عندما حاولت أن أستدعى صورتها وصوتها . لم أجد نفسى قادرا على ذلك ..

بالضبط كنت « مأخوذا » .. مسلوبا .. مخطوفا .. غائبا .. فالظروف كلها كأنها قد استولت على .. فأنا لا أرى بوضوح ولا أسمع بوضوح .. ولا صوتى واضح .. ولا تفكيرى .. وإنما أنا أعيش ببعض نفسى وأفكر ببعض عقلى وأحزن وأفرح ببعض قلبى .. وأنظر إلى الدنيا بجانب من عينى . وأنصت إليها بشىء آخر غير أذنى .. فأى نوع من البشر أنا فى ذلك الوقت . لا أعرف . ولاحيلة لى فى ذلك ..

كنت كواحد له أصابع ولكن لا يستطيع أن يضمها بعضها إلى بعض .. ولذلك كانت تتسرب من بين أصابعى كل الأشياء .. وغير قادر على التركيز حول شىء . ولذلك تتسرب من عينى كل الصور .. كواحد اعتاد أن يضع منظارا على عينه .. واختفى المنظار من سنوات ، فهو يجمع الصور والأصوات والمعانى والعلاقات بصعوبة .. ثم لا يكون منها شىء فى النهاية . وهذه القصة أهى قصة حب ؟ .. أو كان من الممكن أن تكون ؟ .. كل الكلمات كل اللمسات .. كل النظرات .. كلها عناصر الحب الحقيقية فى هذه السن .. ولكنى لم أكن قادرا على اتخاذ هذا القرار .. أو لم أكن قادرا على الاستسلام لهذه الإحساسات .. لم أفلح فى أن أقبض على هذه الفرصة ..

إن تاريخ الحضارة الانسانية كلها أساسه : أن الانسان استطاع أن يمسك بأصابعه المواد الأولية وأن يصنع منها البيت والفأس والسهم والعربة .. ومع حركات الأصابع ، تحرك الجهاز العصبى .. والعقل والفكر والإبداع .. اعتاد الإنسان على أن يمسك غصن الشجرة ويجعل منه سهما ويجعل منه قوسا وعصا وسقفا ومقعدا .. وكذلك كل المواد الأخرى ..

فكل شىء قد بدأ من لحظة اكتشف فيها الإنسان قدرته على أن يقبض على شىء .. على معنى .. على إحساس .. وأن يبنى به وأن يبنى عليه وأن

يطوره . وكذلك كل لحظة حب وصدق ..

لم أعد أراها .. وجعلت أمر أمام بيتها ليلا ونهارا .. وأفتعل الوقوف لأى سبب .. وصحوت مبكرا لأراها وهى فى طريقها إلى المدرسة . ورأيتها . ولكنها تعمدت ألا ترانى .. كأننى لم أعد شيئا . بل أكاد ألمس فى نظراتها « قلة أدب » . أى أننى قليل الأدب .. وأننى مثل كل أصدقاء أخيها . أعاكسها . وهى ترفض ذلك ..

وكنت أذهب إلى حديقة « شجرة الدر » وحدى . وليس صحيحا أننى ذهبت لأقرأ . فالكتاب فى يدى وأحاول أن أفتحه . وينفتح الكتاب ولكن رأسى لا ينفتح . فقد انسد تماما . والصفحات بيضاء وصورتها لم تعد تظهر أمامى . رغم محاولاتى ذلك . وكنت انظر إلى الأشجار ، وأتابع العصافير . لقد اختفت معانى الأشياء .. فالأشجار أغصانها واضحة وأوراقها بارزة . وعصافيرها عريانة . ثم أن الحديقة مكشوفة صغيرة . وكنت أراها قبل ذلك أحضانا تحنو علينا وتسترنا . وتمنيت لو أننى ، لو أنها أسندت رأسها إلى صدرى أو رأسى إلى صدرها ونمت .فاليوم راحة ، وهو فى نفس الوقت يوفر على الكلام الذى لا أجده . وإذا وجدته فإنه ثقيل وهى تجاملنى عندما تسمعه . أو هكذا كان شعورى ..

وتذكرت أننى كذبت عليها عندما قلت لها أننى رأيت شابا يعاكس فتاة وهجمت عليه وضربته قلما . وأن الناس طاردوه !

وأسعدها ذلك جدا ..

وسألتنى يومها : يعنى لو أن واحدا عاكسنى الآن ..

قلت : سوف أمزق ملابسه !

قالت : أنت تفعل ذلك مع أية واحدة .

قلت : طبعا ..

قالت : إذن ليس هذا من أجلى وحدى ..

قلت : بل أية واحدة ..

قالت : ولكن إذا عاكسنى واحد فسوف تغضب أكثر . وتضربه أعنف ..

قلت : طبعا ..

قالت : ولكن لماذا ؟

قلت : لأنها قلة أدب .. وإهانة ..

قالت : إهانة لك طبعا .. لأنني موجودة معك .. في حماك وهو قد أعتدى عليك أنت ..

قلت : صحيح ..

قالت : ولكن لماذا تهتم بي كل هذا الاهتمام .. ما الذى يجعلك تهتم بي أكثر من أية واحدة أخرى ..

قلت : لأنك أجمل واحدة فى الشارع ..

قالت : أنت تراني هكذا .. منذ متى رأيتني هكذا جميلة .. أنك لا تنظر إلى وجهي .. وإذا نظرت فأنت لا تعطيني هذا الانطباع .. لماذا تخفي مشاعرك .. لماذا لا تحدثني عن نفسك .. عن إحساسك بالنسبة لي .. لماذا تتركني هكذا أتعذب وأستنتج بصعوبة كل هذه الأحاسيس الجميلة ..

وكنت أتعجب لقدرتها على الكلام والتعبير .. وأنا أمامها ، خيبة ثقيلة ، .. وكانت تفسر ذلك بأن أحدا لا يتحدث معي في البيت .. ولذلك فلا حوار .. ولا سؤال ولا جواب .. بينما هي تلتقي مع زميلاتها وتجلس معهن ويفكرن معا في كل هذا الذى يدور بيننا ويتساءلن وينتظرن اليوم التالي للمناقشة من جديد ..

وفجأة وجدتها تقول : أنتَ تحبني .

قلت : نعم ..

ولم أكن صادقا . أو كنت صادقا ولكن لم أعرف معنى هذا الذى قلت ..

وقالت : ولكن تبدو حزينا على ذلك كأنك ما كنت تريد أن تحبني .. أو كأنك آسف على ذلك .. أو كأنك لا تحب أن تنقل لي هذا المعنى ..

بمنتهى الوضوح لقد هزتني هذه الفتاة هزا عنيفا .. كأنها أمسكت رأسي وضربته في الحائط ألف مرة .. والذى سقط من رأسي ، ألقت بعضه في الزبالة .. والباقي وهو مجموعة من المسامير والقلاووظ أمسكته بأصابعها وربطته ربطا متينا ووضعته في رأسي .. ثم ضبطت أذني على صوتها ، وعيني على صورتها ، وعقلي على وجودها .. أما قلبي فهو ، أسفنجة ، عصرته عصرا .. فنزل منه سائل غريب .. مسحته من الأرض بقدميها ..

لقد ضبطتني عليها تماما . كيف حدث ذلك لا أعرف .. مع أنها كانت أصغر مني بسنة .. ولكن تبدو فى العشرين رغم أنها فى الخامسة عشرة .. وكانت تبهرني بفهمها لكل أنواع السلع والملابس والطهو وأسعار كل شيء فى الدنيا .. وأسماء العائلات والفتيات والأزواج والأطفال .. وكل ما يحدث في المنصورة شرقا وغربا . الآن أفكر ليلا ونهارا . وأجرى لكى أراها . وإذا لم أرها اختلطت الصور والأصوات . وأمسح الجزمة وأكوى البنطلون والقميص . وأغسل أصابعى وأظافرى وأسنانى ..

وظهرت مع إحدى صديقاتها وذهبنا إلى حديقة شجرة الدر لآخر مرة وكنت أتحدث إلى صديقتها . أما هى فكانت لا تتكلم . حدث ذلك عدة مرات .. وكنا نجلس معا ساعات طويلة .. ولم تكن تعبأ كثيرا أن يرانا الناس معا .. كانت تبدو أكثر جمالا : عيناها ووجهها وشعرها وصوتها وعنقها وضحكتها ..

وأمضيت ليلة كاملة أكتب لها خطابا حاولت أن أجعله أدبيا .. وأضع فيه الكثير من أبيات الشعر . وأعطيته لصديقتها . وكنت أقصد أن أنقل لها بصورة واضحة إحساسى نحوها مرة واحدة . كل مشاعرى . وفى آخر الخطاب قلت : يبقى أن أعرف رأيك !

ولما قرأت صورة الخطاب أكتشفت أنني لم أكتب إليها خطابا عاطفيا ، وإنما مقالا أدبيا . فالمطلوب أن أعرف رأيها فى الأسلوب ..

وفى حديقة شجرة الدرْ جاءت صديقتها وحدها متجهة ناحيتى .. وتلفتت حولها وقالت : أخشى أن يرانا أحد . لقد أعطيتها الخطاب . وقرأته هى .. ثم استأذنتها فى قراءته . وغدا خطبتها !

وكلام آخر لم أعرفه .. ولم أتبينه . ولم أفلح فى ربط المعانى والكلمات والأحداث السابقة ..

ونهضت . وصافحتنى . ولم أجد سببا يجعلنى أمشى إلى جوارها أو وراءها . وعدت إلى مكانى من المقعد تحت شجرة . وبسرعة جاء الليل . وأظلمت الدنيا . وانتظرت . وفى حالة من الإغماء أو الذهول وجدتنى أمام بيتنا . فى الفراش إلى جوار والدتى .. ولم أسمع فى تلك الليلة آهاتها !



قباقيب وموسيقى والمستقبل

قباقيب .. وموسيقى .. والمستقبل

وكان من عادتى فى ذلك الوقت إذا سمعت عن شخص لا أعرف عنه كثيرا أن أبحث فى القاموس عن حياته وأعماله .. أو أن أذهب إلى أحد من المدرسين أو أقاربى ..

وفى ذلك الوقت ظهر كتاب صغير عن « شجرة الدر » ملكة مصر التى عاشت فى مدينة المنصورة .. وكان كل ملوك مصر تتم « سلطنتهم » فى المنصورة لأن القوات الصليبية قد هددت مصر واحتلت دمياط وتريد أن تقفز منها إلى بقية البلاد .. ولذلك كان الملك ورجاله وجيوشه يحتشدون فى المنصورة وحولها .

وذهبت إلى حديقة « شجرة الدر » ومعى الكتاب الذى ألفه ممدوح كمال الدين الزهيرى . من أقارب والدتى .. والكتاب مختصر وليس ممتعا ولا جميلا .. ولكن به من المعلومات الطريفة ما يفتح شهية القارىء الشاب .. وكان يقول عن الملك الكامل ناصر الدين محمد أمين الملك العادل أبى بكر بن أيوب . أنه كان يحب الأدب .. وينظم الشعر ويرتجله أيضا . ويقال أن الشاعر مظفر الدين الأعمى قد زاره . فطلب منه الملك الكامل أن يكمل الأبيات التى يطرحها عليه ..

قال الملك :

قد بلغ العشق منتهاه .

قال الشاعر :

وما درى العاشقون ما هو .

قال الملك :

وإنما عندهم تخونى .

قال الشاعر :

فيه . فهاموا به وتاهوا .

قال الملك :

ولى حبيب يرى هوانى .

قال الشاعر :

وما تغيرت عن هواه .

قال الملك :

رياضة الخلق فى احتمالى .

قال الشاعر :

وروضة الحسن فى حلاه .

قال الملك :

ريقه كلها مدام .

قال الشاعر .

ختامها المسك من لماه .

قال الكامل :

ليلته كلها رقاد .

فقال الشاعر الأعمى :

وليلتى كلها انتباه .

وقرأت أيضا أن ساحرا مغربيا زار المنصورة أيام الملك الكامل . وعرض على واحد من التجار حديقة وقصرا وعشرات الجواميس والحقول والحمير والطيور . واشتراها التاجر . ولما طلع النهار وجد نفسه نائما فى زريبة البهائم .. وراح يسأل الناس عن المغربى وعن الحديقة .. وعرف الناس أن الساحر قد خدعه واستولى على أمواله .

شيء من ذلك أصاب حديقة شجرة الدر . فلم أكن فى حاجة إلى ساحر ليحول الحديقة إلى حقل صغير عريان الأرض والشجر والطير وإلى أن يكون

ـــحب في السماء هكذا كالحا . غياب فتاة يكفى أن يحدث كل ذلك .

والملك الكامل ذهب إلى دمشق ومرض ومات سنة ١٨٣٤ م .

وكان ابنه الملك العادل نائبا عنه في مصر ، وسلطنوه ، أى جعلوه ملكا على مصر .. ولكن أخاه نجم الدين أيوب كان أكبر سنا وأحق بالملك . فحبس أخاه العادل ثم قتله بعد ذلك .

، وسلطنوا ، نجم الدين ملكا على مصر . وهو الذى اشترى عددا كبيرا من المماليك وهؤلاء المماليك طغوا وبغوا وسرقوا ونهبوا فأقام لهم قلعة في الروضة وتركهم هناك .

وكان على أيامه قاضي القضاة ، سلطان العلماء ، عز الدين محمد بن عبد السلام . قاضى قضاة الشافعية في الصعيد . ونقله القاهرة . ولم يكن راضيا عن ذلك . والعز بن عبد السلام هو الذى باع الأمراء في السوق لصالح الشعب .

ومرض الملك نجم الدين أيوب . وانتشر المرض في جسمه . وكانوا ينقلونه على محفة الى المعارك ضد الصليبيين في دمياط . ثم هرب أهل دمياط وحاكمها . فأحرق السلطان المدينة كلها . ومات الملك نجم الدين أيوب في المنصورة .

وكانت له زوجة اسمها ، شجرة الدر ، تركية جميلة ذكية . كانت تحكم مصر سرا وكانت هى التى توقع المراسيم بخطها . فقد كان خطها يشبه خطه تماما . ولما مات استطاعت أن تخفى وفاته عن الناس . وكانت تطلب إلى الأطباء والضيوف أن يدخلوا ويخرجوا كأنه مازال حيا حتى لا تؤدى وفاة الملك إلى ضعف القوات المصرية ضد الفرنسيين وجاء ابنه توران شاه وسلطنوه . كان أهوج أحمق واستطاعت القوات المصرية أن تأسر الملك لويس التاسع وأن تحبسه في بيت القاضى ابن نعمان . وكان توران شاه سفاحا . فهاجمه المماليك وقطعوا أصابعه .. ثم يديه وهرب وطاردوه وأحرقوه في بيت كان يقيم فيه .. ثم هرب إلى البحر فقتلوه بالسهام والنبال .. وحكم أربعين يوما .. وتوفى في المنصورة .

واتفق الأمراء على تولية شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأم خليل ، ملكة على مصر .

وكانت توقع المراسيم باسم ، أم خليل ، وكانوا يخطبون لها في المساجد ويدعون لها قائلين : « اللهم احفظ الجهة الصالحة ، ملكة المسلمين . عصمة الدنيا والدين . ذات الحجاب الجليل . والستر الجميل والدة المرحوم خليل »

ولما هاجمها رجال الدين . وخاصة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، خلعت نفسها من السلطنة . وكانت قد حكمت مصر ثلاثة شهور .

وأشار عليها القضاة بأن تتزوج الوزير أيبك التركماني . وتزوجته وهو أول ملك تركي حكم مصر . وهو أيضا مثل شجرة الدر كان من مماليك الملك نجم الدين أيوب .

وفي ذلك الوقت هبت عواصف على الكعبة أطاحت بكسوتها . وتشاءم الناس .

وجاء هولاكو وهدم بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله .. وزالت دولة بني العباس .

وبدأ الخلاف بين شجرة الدر . وزوجها الملك أيبك التركماني . وكانت تقول له : أنا التي جعلتك ملكا !

ثم طلبت إليه أن يطلق زوجته ، أم علي ، وطلقها .. ولكنها اكتشفت أنه طلقها من أجل أن يتزوج امرأة أخرى . فتآمرت على قتله . وفي يوم جاءت الفتيات وألقين عليها ماء الورد والورد .. وقمن بتدليكها وتجميلها . وارتدت أحلى حليها وأجمل أثوابها . وذهبت للملك وانحنت على يده تقبلها . وسعد الملك بذلك . وظن أن هذا قمة العفو والسماح من سيدة الملاح .. وتوارى الإثنان في الفراش .. وخرج الملك إلى الحمام . وخرج من تحت السرير ومن الحمام رجال ونساء ضربوه وقتلوه بالقباقيب ..

وعرف ابنه الأمير على بما حدث . فألقى القبض على شجرة الدر وأسلمها لأمه . فقتلتها بالقباقيب .. ونقلوها عارية إلى القاهرة يعبث اللصوص في

ملابسها ويقتلعوا المجوهرات من عنقها وصدرها وساقيها . وكانت هى التى ابتدعت أن تضع المرأة عقودا من الماس حول ساقيها .

وكان يقال لنا ونحن صغار أن كل بنات المنصورة فيهن شبه من شجرة الدر ! جميلات قادرات على الانتقام . وكان أبناء المحافظات الأخرى يقولون : من يدخل المنصورة مفقود ومن يخرج منها مولود ..

فما من شاب دخلها إلا وجد نفسه متزوجا .. كيف ؟ هم يقولون !

أما أوصاف شجرة الدر .. فهى بيضاء ذهبية الشعر زرقاء العينين . مليئة الشفتين طويلة الأنف طويلة العنق . ويقال إن صوتها جميل .. وكان الملك يحب أن يستمع إليها وهى تغنى . وكانت تغنى عند قدميه . فلما أنجبت له ابنه خليل تزوجها فكانت تغنى له على السرير . ولما أصيب بمرض جلدى كان ينام واقفا طوال الليل . لأنه لا يطيق الملابس والأغطية . كانت تغنى له وراء الباب . فلم يكن يحب أن تراه وهو يهرش ويبكى فى نفس الوقت . ولما زاره طبيب مغربى نصحه بأن يمضى معظم الوقت فى حوض من الماء ، فكانت تغنى وقد أدارت ظهرها له .. وكان الملك يحب أغانيها التركية .. وهى التى اخترعت دهان جسم الملك بالزبدة .. وأحيانا بلبن أشجار الجميز .. وأحيانا بلبن الحمير والخيول ..

وكانت شجرة الدر تقرأ له الشعر الذى يترجمونه عن اللغة العربية .. وكانت تنظم الشعر أيضا .

ونحن أهل المنصورة عندنا اعتقاد أن كل واحدة اسمها شجرة الدر سوف تقتل زوجها وسوف تموت قتيلة أيضا ولذلك من النادر أن نجد واحدة لها هذا الإسم ..

وبيوت كثيرة فى المنصورة قيل إنها بنيت فى نفس المكان الذى به قصر شجرة الدر ، وظهرت قصص وشائعات عن ظهور شجرة الدر ليلا فى ملابس الحداد .. ويقال فى ملابس الزفاف .. وكانت عندنا قصص ونحن أطفال أن من يرتدى القبقاب ليلا ويدخل به الحمام ، يظهر له عفريت شجرة الدر .. ولذلك فأطفال كثيرون يخلعون القبقاب فى الليل ..

وفى مذكراتى التى كنت أكتبها فى ذلك الوقت جعلت اسم الفتاة « ش ..ا » أى شجرة الدر .. ورحت أجد فى ملامحها كل ملامح ملكة مصر .. وكأننى نجوت من الموت وكأننى أنقذتها هى أيضا من الموت . وأعجبنى هذا الاكتشاف الذى كان نوعا من الانتقام أو الغيظ من اختفائها .

وفى يوم استمعت إلى محاضرة فى « نادى البلدية » لأستاذ من عائلة نور راح يقارن بين حتشبسوت ونفرتيتى وكليوباترا وشجرة الدر ..

وكلهن ملكات لمصر ..

حتشبسوت عاشت وماتت فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد .

ونفرتيتى عاشت وماتت فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وكليوباترا عاشت وماتت فى القرن الأول قبل الميلاد .

وشجرة الدر عاشت وماتت فى القرن الثالث عشر بعد الميلاد .

هل كانت المقارنة واضحة فى ذهنى ، لم تكن كذلك ولكن بهرنى هذا العلم الغزير . وكان الرجل لا يتكلم من ورقة . وأكثر الحاضرين من السيدات . هل كانت هى - ش . أ - بين الحاضرين ، لست على يقين من ذلك . ولكنى فى ذلك الوقت كنت أجد شبها كبيرا بين كل الفتيات . لا لأنهن كذلك ، ولكن لأننى لا أنظر باهتمام أو بدقة إلى وجه أحد من الناس .

أما حتشبسوت فكانت عاشقة .

ويقال أن نفرتيتى زوجة أخناتون الذى وصفها بالجمال والدلال . كانت تعلم أنها أجمل مخلوقات الله . والفنان الذى صنع لها التمثال النصفى كان يتغزل فى جمالها .. صحيح أن زوجها أخناتون كان مريضا أو مجنونا أو مختل التكوين ، فله وجه طويل وأنف طويل وشعر امرأة وكذلك نهداها وردفاها . ويقال بل هذا نوع من الكاريكاتير ..

ولكن هذا الكاريكاتير لم يتناول نفرتيتى ..

أما كليوباترة ملكة مصر أيضا ، فهى سابع واحدة لها هذا الإسم . هى يونانية . لم تكن جميلة . وإنما كانت ذكية . وكانت شرهة . مصاصة للدماء . ولو لا أن لها دخلا فى تتابع الملوك فى بلاد الرومان . لما دخلت التاريخ . وقد دخلته على أنها أخطر عاشقة . وكانوا يصفونها بأنها « ملك مصر »

- أو يسمونها « ملكة الملوك » ... وأما حتشبسوت فهى ملك الملوك .. « وأما شجرة الدر « فقد أسماها الأستاذ نور « ملكة العبيد » - فهى مملوكة تركية ثارت على غيرها من العبيد الأتراك ، رجالا ونساء ..

شيء عجب قاله الأستاذ المحاضر ولم يناقشه أحد فى ذلك ، أنهن جميعا يملكن صوتا جميلا .. النقوش الفرعونية تقول أن نفرتيتى كانت ساحرة الصوت والصورة . وكليوباترة كان صوتها يدوخ وكذلك شجرة الدر .

ثم هذه العبارة : إن الصوت الجميل بغير ذكاء . نهيق حمار .. والذكاء بلا صوت جميل : زئير أسد ..

وما أعرف ما هى العلاقة بين كل ذلك .. ولكن أسعدنى أن يكون للملكات صوت جميل .. ومثلهن أم كلثوم بنت الدقهلية .. ومحمد عبد الوهاب الذى يقال أنه من دمياط (دقهلية) ويقال من المنصورة .. كأنه لابد أن تكون لكل بنات المنصورة صورة شجرة الدر وصوتها أيضا .. حتى إذا كان موت : فالميت سوف يرى أجمل صورة ويسمع أجمل صوت !

ولم أكن فى ذلك الوقت ، ولا أحد من زملائى التلاميذ نناقش مثل هذه القضايا وإنما نقبلها ونضيفها إلى معلوماتنا . ونبحث عن شيء جديد فهى مرحلة تحصيل معلومات وجمع أكبر عدد ممكن منها ، أما الغربلة والاختبار والتحليل والتعليل . فسوف تجيء بعد ذلك !

ولابد أن تكون الفتاة « ش . أ » هى المسئولة عن انشغالى بمستقبلى .. وأن يكون المستقبل بعيدا تماما عن القراءة وعن الكتب . فهذه الكتب لم تجعلنى قادرا على الحوار معها .. ولا قادرا على إقناعها أو الاحتفاظ بها . وعندما حاولت أن أقدم لها نفسى . كتبت مقالا أو بحثا فى موضوع غريب .. لابد أنها انتهت إلى قرار مؤكد وهو أن هذا الشاب مجنون .. أو عبقرى يحتاج إلى صبر أيوب فى انتظار قدراته الخارقة .

فقد كان الموضوع : لماذا لايعيش التلاميذ فى بيوت بعيدة عن الأسرة .. ولماذا لا يعيش فى القسم الداخلى بالمدرسة الابتدائية والثانوية والجامعة . حتى يتفرغ للدراسة والتفوق ، دون أن ينشغل بمتاعب الأسرة ، وما يصرفه عن التفوق .

أى لماذا لا يعيش بلا حب يصرفه عن المذاكرة - أى أنها قد عطلت حياتى . وأريد أن أعرف رأيها فى ذلك .

وتذكرت أننى كنت قد بعثت لها قبل ذلك خطابا طويلا جدا . إن قرأته سوف تجد أننى أتحدث عن « تعاسة كل طفل له أب وأم .. وتعاسة أن يكون فى الدنيا أغنياء وفقراء .. ولماذا لا تكون الدولة هى أم كل الناس .. توفر لهم الطعام والشراب فى بيوت لا يملكها أحد .. بل لا داعى لأن يتعامل الناس بالفلوس » ..

قرأته ش . أ ولم تعلق عليه . ولكن أخاها هو الذى قابلنى فى القطار وقال لى : تحت السواهى دواهى .. لم أكن أعرف أنكَ شيوعى !

ولم أكن أعرف معنى أن يكون الإنسان شيوعيا .. وإن كنت سمعت هذه الكلمة كنوع من الإهانة البالغة والتحذير الشديد لبعض الناس . ثم انشغلت بالبحث عن معنى هذه الكلمة وعن مقارنة هؤلاء الشيوعيين بغيرهم من الناس . وما هى الفروق فى الشكل والتفكير . ولم أهتد إلى شىء . وأقرب الصفات إلى « هؤلاء » الشيوعيين أنهم لا يصلون قط ولذلك فقد وجدت هذه الصفة لا تنطبق على .. ولم أفكر فيما بعد ما هو المقصود بهذه التهمة أو هذه الشتيمة .. ولكن استنتجت أن هذه الصفة . أو هذه الشبهة هى التى جعلت أخته تبعد .. أو تهرب .. أو تتزوج . واقفلت هذا الدوسيه نهائيا ..

ولكن اتذكر أيضا أنها سألتنى : ما الذى قلته لفلان وأنتم فى المكتبة ؟

- بشأن ماذا ؟

- بشأن مستقبلك ..

- لا أتذكر ..

- هل قلت له أنك تريد أن تغنى .. وأن تكون لك فرقة موسيقية وراقصة .. وأن تتنقل مع فرقتك بين القرى ..

- آه .. قلت إننى أريد أن أغنى ..

- ... بل أنت تذهب إلى بيت الست شج شج ..

صحيح . أما الست شج شج فهى السيدة « شجرة الدر المليجى » وأنا

لا أعرف من هي بالضبط . ولكن ذهبت مع بعض الزملاء الى القرب من بيتها .. امام البيت . وعندها موسيقى وطبل وزمر . ومن النوافذ نستمع الى الأغاني الشعبية .. وأغاني أم كلثوم ومنيرة المهدية وصالح عبد الحي وعبده الحمولي وداود حسني .. والاصوات لرجال ونساء وأطفال . ويقال إن هناك فتيات يرقصن أيضا .. أما الصوت الغليظ الذي يشخط وينطر فهو للست شخ شخ . ولم أرها إلا مرة واحدة . كنا قد وقفنا امام الباب نتفرج ونستمع من بعيد . ولانجرؤ على الاقتراب . ولكنها في ذلك اليوم خرجت ورأتنا وقالت : تعال ياواد انت وهو : تعالوا ..

وأكدت لنا لاداعي للخوف . ودخلت ووجدنا أناسا جالسين على الأرض . ومعهم الطبول والمزمار والصاجات . أما هي فتجلس على مقعد وسط كل هؤلاء . في يدها عصا . وقالت : أنت تريد ان تغني !

واندهشت جدا . ولكن أحد الزملاء قال : انا قلت لها إن صوتك حلو .. وإذا بها تقول للحاضرين : غنوا له انت وعزولي وزماني .. وانت تغني معهم .. وأنا سوف أسمع صوتك .. لاتخجل . كلهم كانوا مثلك ..

وكان هذا هو المستقبل .. وكأنها هي شجرة الدر التي حكمت المنصورة .. فإما أن أسمع كلامها وإلا فالنهاية معروفة .. ولم أفكر . واقترب الزملاء ورحنا نغني معا .. وفجأة وجدتني وحدي أكمل الاغنية . إنها اتفقت معهم على ذلك . أي على ان يغنوا معا .. وفي لحظة يتوقفون لكي أمضي وحدي فتعرف خامة صوتي وضربتني بعصاها وهي تقول : كويس يا واد .. يجي منك .. روح هات والدك .. عندي كلام معه !

ثم نهضت الست شخ شخ وراحت تنادي بأعلى صوتها : ياجمالات .. ياست أبوها .. ياسلطنية .. ياتودد ..

وظهرت فتيات طويلات وقصيرات وبدينات شقراوات زرقاوات العيون أيضا .. يمضغن اللبان جميعا . ويقتربن منها في انتظار أوامرها . ثم التفتت ناحيتي لتقول واحدة منهن سوف تذهب معك لتعرف البيت وتنادي والدك ؟ !

وخفت من أن يحدث ذلك . فوعدت أن آتي به ..

واختفيت طويلا حزينا على الذي أصابني . ولم أصارح أحدا بذلك ..

وعرفت « ش . أ » كل هذه الحوادث بدقة وتفصيل عجيب . فالمنصورة مدينة صغيرة . وهى لها علاقات بأناس كثيرين . ثم إن زملائى يتحدثون كثيرا . ولم أكن أعرف ذلك ..

وعندما عدت الى البيت وجدت أحد اقاربى .. وهو شاب لطيف ظريف إبن حظ . وكان يعيب علينا اننا فى حالة حزن دائم . وأننا مدفونون بالحياة وأنه ما لم نجد شيئا نضحك له أو منه فلا أمل فى أن نكون فى صحة جيدة . ولا أمل فى أن أكون شيئا .. وأنه سمع من والدته أن اخاها وكان وزيرا يحب الرقص .. وأنه يطبل لأولاده ويجعلهم يرقصون . وأن صوته جميل جدا . وهو لا يغنى إلا عندما يكون جالسا مع أصدقائه يشربون ..

وسألنى قريبى هذا الذى هاجر إلى ألمانيا ومات هناك : عندك بنت ؟

- بنت يعنى إيه
- بنت تحبها
- لا ..
- يانهارك اسود .. حتى الآن ؟ متى إن شاء الله ؟
- كلهن مثل شجرة الدر
- مش فاهم .
- قاتلات .
- ومن هى شجرة الدر ؟
- لا تعرفها !
- لا أعرفها ..

ويعلق على المعلومات التى قلتها له بسرعة : وما دخل شجرة الدر هذه ببنات اليوم .. إنها واحدة قتلت زوجها وضربتها قتلتها .. حكاية قديمة . ولم أسمع عن واحدة قتلت زوجها .. ثم من قال لك تتزوج .. الخ .

وعرف منى أننى أتردد أمام بيت الست شج شج . وأسعده ذلك . وطلب منى أن نذهب معا .

وأشرت إلى البيت . ووجدته قد دخل . وتعالت الضحكات . وخرج مع

إحدى الفتيات وقد عانقها . وراح يقبلها أمامى . وهى لم تعترض . وسحبنى وقال لى : أدخل ياغشيم !

وسألته الست شج شج . إن كان يعرفنى . فقال إنه ابن خالتى . وقال إننى خام .. لوح .. إيدك والارض .. خليك معايا أنا !

وبسرعة غريبة وجدته قد لف منديلا حول وسطه . وهات يارقص .. وإذا به يقول لى : إرجع انت إلى البيت !

وأضفت هذه التجربة الساحقة إلى سلسلة الفشل فى مجالات أخرى كثيرة ..

وأصبح من عادتى أن أناقش على مهل بعض هذه الأحداث . ولم أجد أنها نوع من الفشل . فلا أنا حاولت . ولا أنا صبرت . ولا كان عندى أمل فى أن أكون مطربا أو راقصا .. ولكن من حين إلى حين أهرب وأبحث عن أى مكان يشغلنى عن نفسى .. وأحسست أننى ثقيل جدا .. ثقيل على قدمى .. ورأسى أثقل من جسمى . وإذا نمت فإن جنبى يوجعنى ، كأننى أصبحت فيلا .

- أما العلامات السوداء حول عينى فسببها نقص التغذية والنوم .

ومن غير تفكير ذهبت إلى بيت الست شج شج . ولم أجد قريبى هناك . ودخلت وجلست ووجدت رجلا يغنى . معمم أعمى . ولم يكن يشعر بأن أحدا قد دخل حتى يسأل : من ؟

فقالوا : تلميذ .

وتساءل : لماذا ؟

قالوا : عاشق

- عاشق شج شج .. الله ؟ هل هى تركت الرجال واتجهت للعيال . هاها ..هاها

- عاشق للفن ياعم الشيخ دهليز ..

- آه كده .. إسمك . لاتريد أن تتكلم .. بالله سيدى .. أريد أن أسلطن .. تانى وحياة عينيك .. مولاى كن لى ..

وراح يغنى بصوت أجش قوى .. ويتمايل يمينا وشمالا وهم يرددون وراءه شعرا قال إنه من نظم الشيخ سيد درويش .. ولكن عرفت فيما بعد أنه من نظم الشاعر المصرى : البهاء زهير .. وحفظت هذه الابيات كما كان يغنيها الشيخ

دهليز .. وكانت مكسورة فقد كان يضيف اليها حروفا وكلمات من عنده ..

مولاى كن لى وحدى
فإننى لك وحدك
وكن بقلبك عندى
آه .. ياعينى آه
لى فيك قصد جميل
لا خيب الله قصدك
إن تنس عهدى إنى
والله لم أنس عهدك
أضعت ود محب
مازال يحفظ ودك ..
.. آه ياقلبى آه ..
مالى عليك اعتراض
أذب كما شئت عبدك
آه عبدك .. والنبى عبدك ..
مولاى إن غبت عنى
وا سوء حالى بعدك ..
يالهوتى بعدك .. آه ..
يادهوتى عندك ..آه ..

وكانوا يقدمون للشيخ دهليز ، شيئا يشربه فى القلة .. وقالوا .. كونياك .. وقالوا : بيرة .. وكان صوته جميلا . وكان رجلا لطيفا . وكان بعد أن يفرغ من الغناء ويطلب من الحاضرين أن يرددوا وراءه يسأل كل واحد منا عن حاله .. وكان يقول : إنت ياإبنى .. إيه اللى رماك هنا ؟ إنت إبن مين ؟ ساكن فين ؟ وتريد أن تترك المدرسة ليه ؟ هل تحفظ شعرا .

قلت : حفظت القرآن الكريم والشعر القديم .

قال : ماشاء الله ..

- وتريد أن تغنى .. وتسرح مع الست شج شج ؟

ـ لا . لا .. فقط أنا أحب أن أسمع الأغاني .. ثم إنني لا أجد مكانا أذهب إليه .. وجاءت السيدة شج شج . واندهشت للحوار والمودة بيني وبين الشيخ دهليز . فقال لها : ماشاء الله .. حافظ القرآن .. وحافظ الشعر القديم كله .. حاجة تفرح .. الله يفتح عليك .

وجلست السيدة شج شج على الكرسي ، هي الوحيدة التي تجلس عليه .. ممتلئة .. طويلة عريضة . صدرها بارز .. وقد تغطى بالذهب والأساور في ذراعيها والخواتم والقرط طويل على الكتف العريان .. وعندما تضع ساقا على ساق تنكشف ساقاها . ولكن أحدا لا يجرؤ على أن ينظر . ولما لاحظت أن أحد الجالسين قد نظر إليها صفعته على خده . دون أن تشرح لماذا ، ودون أن يعتذر . هو أخطأ وهي عاقبته فورا ..

وسألتني : حافظ الشعر القديم كله ..

ـ ليس كله .. أحفظ شعرا قديما .

ـ مثل ماذا ؟

فقال الشيخ دهليز : هل تحفظ قصيدة دعوا الوشاة .. دعوا الوشاة ومافالوا ومانقلوا .. ياواد يابقدونس .. إنت يابن .. تعالى معي .. سوف اغنى دع الوشاة .. أنا لا أحفظها كلها إذا اخطأت ردني ..

قلت : حاضر ..

وراح الشيخ دهليز بصوته القوى يقول :

دعوا الوشاة وما قالوا وما نقلوا
بيني وبينكم ما ليس ينفصل
لكم سرائر في قلبي مخبأة
لا الكتب تنفعني فيها ولا الرسل
رسائل الشوق عندي لوبعثت بها
إليكم لم تسعها الطرق والسبل
أمسي وأصبح والأشواق تلسعني
فقلت : والأشواق تلعب بي
قال : وكم أحمل كلبي ..

قلت : قلبى
وكم أحمل قلبى فى محبتكم
ماليس يحمله قلب فيحتمل
قال : قضيتى فى هواكم مشكلة
قلت : قضيتى فى الهوى والله مشكلة
قال : قضيتى فى الهوى والله مشكلة
ما القول ما الرأى ما التدبير ما العمل ؟
يزداد شعرى حسنا حين أذكركم
إن المليحة فيها يحسن الغزل
يا غائبين وفى قلبى مساكنكم
قلت :
يا غائبين وفى قلبى أشاهدهم
وكلما انفصلوا عن خاطرى اتصلوا
أنا الوفى لأحبابى وإن غدروا
أنا المقيم على عهدى وإن رحلوا
فيارسولى إلى من لا أبوح به
إن المهمات فيها يعرف الرجل
بلغ سلامى وتحياتى له
قلت :
بلغ سلامى وبالغ فى الخطاب له
وقبل الأرض عنى عندما تصل
بالله عرفه حالى إن خلوت به
ولا تطل فحبيبى عنده ملل
فالناس بالناس والدنيا مكافأة
والخير يشكر والأخبار تنتقل
قال : وهو ينثنى ويهتز ويتوجع :
إن المليحة تغنيها ملاحتها
لاسيما وعليها الحلى والحلل

ثم عاد يغنى : إن المليحة .. الله ياواد يا دهليز .. الله بإحساسك ياواد .. سألنى إن كانت القصيدة قد انتهت قلت : ما تزال بها بعض الأبيات ..
قال : هات الأبيات
قلت :

ضيعت عمرك فاحزن إن فطنت له
فالعمر صرف الليالى سابق عجل
سابق زمانك خوفا من تقلبه
فكم تقلبت الأيام والدول !

ونهضت الست شج شج وهى تقول : والنبى ينفعك .. خده معك .. فعندما تنسى كلمة هو الذى سوف يكمل لك القصيدة .. حلاوته .. خده معك يادهليز .. وعلى الأقل يسحبك بدل من تخبطك فى الشوارع ..

وقال الشيخ دهليز ضاحكا : أهو إنت طلعت مش ولابد .. أنا عندما أترنح يقولون : مسكين أعمى . ولكنهم لا يعرفون أننى أترنح من الانبساط .. ولكن عندما يسحبنى واحد وأترنح يقولون إن سيدنا سكران .. ثم إنه إبن ناس .

فقالت : واحنا اللى ولاد كلب .

قال : معلوم أولاد ستين كلب ! إنت بس اللى قاعدة على الكرسى .. واحنا جنب الحيط على الارض .. وحياتك كلاب .. لولا الكلام الحلو اللى نغنيه كل ليلة !

وفى الطريق إلى بيت الشيخ دهليز ، وهو قريب جدا من بيتنا فى حى الحسينية .. إنه متزوج ويسكن غرفة فوق السطوح . وزوجته تعمل « داية » . وليس عندها أولاد . وهو سعيد بذلك .. ويضحك قائلا : أنا كما ترى .. وزوجتى لكثرة الأولاد التى تنزل على يديها كرهت كل الأولاد !

وقال لى الشيخ دهليز أنّه يفضل لى ألا أجيء وحدى .. وإنما أن اكون مع آخرين .. لمجرد أن نكون معا .. وأنى إذا أحببت أن أستمع إليه شخصيا ، فالبيت قريب . ووجدتها فكرة أعجبتنى جدا .

وكنت أذهب إليه أنا وبعض الزملاء . وكان الشيخ دهليز يغنى لنا سيد

درويش والحامولى وصالح عبد الحى وعبد الوهاب .. وكان يدق بأصابعه على الأطباق .. وأحيانا على ظهر الحلة ..

ولما عرف أن واحدا من الزملاء يستطيع العزف على العود .. وأن يصاحبه كان سعيداً . وجاء صديق له يصاحبه على الناى .. وكانت زوجته سيدة لطيفة .. وإن لم تشعر بالضيق من وجودنا ، فكنا نحس أنها فى حاجة إلى الراحة .. وكنا نسحب الشيخ دهليز إلى خارج الغرفة ونجلس عند جانب من السطح . حتى تدخل تنام والشيخ وشيخ آخر والزملاء يغنون ويطبلون . وكان الناس فوق الأسطح المجاورة يصفقون لنا . ويطلبون مشاركتهم لنا ..

كل هذه الحوادث تفاصيلها كانت عند الآنسة « ش . أ » يوما بيوم . ولم أسأل كيف كان لها ذلك ..

وكان الشيخ دهليز هو الذى أطلق على هذه المجموعة من عشاق الموسيقى « فرقة عشانا عليك يارب » . وكان يدعونا لنتدرب فى الغرفة نهارا ، عندما تكون زوجته مشغولة .. أما عدد أعضاء الفرقة فهم سبعة . أما الشيخ الجديد واسمه الإسناوى عبد الصبور ، فكان صوته غليظا ليست له طبقات . مثل حبل مشدود .. لا يعلو ولاينخفض .. وإنما هو قوى دائما ، حتى فى كلامه العادى ..

اما الأغنية فقد اختارها الشيخ الإسناوى وهو يفضل القصائد والموشحات . وذهبنا معه فى آخر حى « توربيل » وهو الحى الأرستقراطى فى المدينة . ووقفنا أمام البيت . ثم أشاروا لنا بأن ندخل . ودخلنا غرفة مجاورة للباب وجاء خادم وقدم لنا « المغات » . وهو الشراب التقليدى عندما يولد طفل . وعلى المغات الساخن يضعون الجوز واللوز والبندق . ثم أشار الخادم أنه حان وقت الغناء . وكان المغنى هو الشيخ الإسناوى وطلب أن نردد وراءه « اللازمة » .. وهو الذى سوف يحددها لنا ..

قال عالى الصوت :

عتب الحبيب فلم أجد ..

آه عتب الحبيب ..

سببا لذلك العتب حادث

ونردد : سببا لذلك ..

واليوم لى يومان لم أره

وهذا اليوم ثالث

ونردد : اليوم الثالث

تعجبت كيف تغيرت

منه خلائقه الدمائث

ما كنت أحسب أنه

ممن تغيره الحوادث

ويلذ لى العتب الذى

صدق الوداد عليه باعث

عتب الحبيب ألذ من

نغم المثانى والمثالث

ونردد : عتب الحبيب ألذ .. ألذ .. ألذ ..

لك لا أشك قضية

انا سائل عنها وباحث

ونردد : قضية أنا سائل عنها .. قضية أنا سائل عنها .. قضية ..

وجاء الخادم وقدم لنا مزيدا من « المغات » والحلوى .. ثم قال : سعادة البيه سوف يحضر حالا .. ومعه بسلامته المولود الجديد .. عاوزين هيصه .. ياعم الشيخ . إنه ولد على خمس بنات .. ربنا يخلى !

واعتدل الشيخ دهليز ليغنى قصيدته الجميلة بصوته الحزين ونبرته الدامعة الباكية . ويعلن الشيخ دهليز أنه سوف يغنى : غيرى على السلوان قادر ..

ويضحك الشيخ الإسناوى : كل هذا الحزن لأنك لم تر زوجتك من يوم تزوجتها .. والله ياشيخ ربنا لطيف بيك .. هاها ..

ولم نضحك ولا الشيخ دهليز . وعرفت فيما بعد أنه كان عاشقا ، معذبا . وأن المعشوقة هجرته وغدرت به .. ولم يستطع أن ينساها . يقول الشيخ دهليز ونحن نردد وراءه كل بيت :

غيرى على السلوان قادر

وسواى فى العشاق غادر

لى فى الغرام سريرة
والله أعلم بالسرائر
حلو الحديث وإنها
لحلاوة شقت مرائر
أشكو وأشكر فعله
فأعجب لشاك منه شاكر
لاتنكروا خفقان قلبى
والحبيب لدى حاضر
ما القلب إلا داره
ضربت له فيه البشائر
ياليل مالك آخر
أبدا ، ولا للشوق آخر
يا ليل طل . يا شوق دم .
إنى على الحالين صابر
.. ويرددها ويعيدها
وينوح بها ويبكى .. نعم ويبكى ويتفطر ..
لى فيك أجر مجاهد
إن صح أن الليل كافر !
ويردد : كافر والله كافر ..

وكان الشيخ دهليز ينشد واقفا يتمايل يمينا وشمالا . ثم أجلسناه وتسابقنا نمسح عرقه ودموعه .. عندما جاء الخادم يعلن : أن سعادة البيه يريد أن يصافحنا ويشكرنا ..

وجاء سعادة البيه .. وانبهرنا نحن التلامذة .. إنه ناظر المدرسة ولكن لم يلاحظ الاضطراب الذى ظهر علينا وبيننا ..

ولكن الشيخ دهليز قال له : أولادك .. تلامذتك فى المنصورة الثانوية ! وانزعج الناظر وسألنا إن كان ذلك حقا . فأسرع واحد منا قال : لا .. نحن من مدرسة الرشاد

وهى مدرسة ثانوية أخرى !



أهلاً أستاذنا دكتور هرش

أهلا أستاذنا دكتور هرش

شارع السكة الجديدة فى المنصورة كان بداية أشياء كثيرة فى حياتى .. مجرد صدفة ..

ففى هذا الشارع كان يوجد محل نصر لبيع الورنيش .. صاحب المحل فلسطينى وزوجته من بولندا وعندما ذهبت إليها لأول مرة وجدتها تقرأ رواية « الأبله » لدستوفيسكى وباللغة الروسية .. وحاولت أن تشرح لى عظمة المؤلف والرواية . ولكننى لم أفهم .. أو لم أكن قادرا على استيعاب هذا الذى تقول . ثم من هى ؟

وبالقرب من هذا الشارع توجد دار ابن لقمان الذى أسرنا فيه لويس التاسع أيام الحرب الصليبية . وفى داخل هذه الدار وأمامها وفى الطريق إليها أناس من كل شعوب الأرض .. أشكال وألوان وأحجام ولغات .. وكانت معهم كتب صغيرة وكبيرة بعد أن يقرأوها يتركونها إلى جوار الحائط .. وكنا نذهب لجمعها وأحيانا نطلبها .. وفى إحدى المرات عندما تزاحمنا على هؤلاء السياح متسولين فكانوا يعطوننا فلوسا وأحيانا بقايا الطعام .. ولم تكن تسعفنا الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية ، فنؤكد لهم أننا لا نريد إلا الكتب !

شىء غريب فى ذلك الوقت كنا نجد أصحاب أى بيت وأى دكان يجلسون أمامه .. الرجال والنساء والأطفال . ومن السهل أن نتحدث إلى أى أحد فى أى شىء .. مثلا كانت هناك مكتبة النميرى .. يدخل الواحد منا يسأل : عندك مؤلفات المنفلوطى . فيقال : لا .. نحن لا نبيع الكتب .. نبيع الكراريس والأقلام ولكن إذا أردت أن تجد هذه الكتب أذهب إلى شارع كذا .. وإذا لم تجدها فى هذا الشارع فسوف تجدها عند الست حميدة فى شارع كوهين المتفرع من شارع الشيخ حسين .. إنها سيدة مسكينة . حاول تساعدها .. سأذهب معك ..

ويجيء رجل طيب معنا ليدلنا على مكان بيع الكتب الجديدة والرخيصة ..

وفى يوم كنا نبحث عن التوراة لنقرأ معا وبصوت مرتفع سفر «نشيد الانشاد» بسبب ما قرأنا عن هذا السفر ووصف لما فيه من جمال شاعرى، وموسيقى فقيل لنا : مرقص الجواهرجى .. له أخ قسيس وصوته جميل ويساعد الطلبة .. إذهبوا إليه .. ربما أعطاكم ما تريدون مجانا .. ولو طلبتم إليه أن يشرح لكم كل شيء فسوف يفعل .. إذهبوا إليه ..

ونذهب . ونجد القسيس هناك . ويطلب إلينا أن نزوره فى بيته .. ويشرح ويشرح ونحب فيه أدبه ورقته ومرحه وإخلاصه .. ويطلب إلينا أن نذهب لنسمع موعظته فى الكنيسة .. ونذهب . ونجلس فى آخر الصفوف .

وفى شارع السكة الجديدة «سرجة» . أى مكان لبيع الزيت السيرج . وزيوت أخرى واستخراجها من الكسب .. وكان الكسب فى ذلك الوقت يدوسه الرجال بأقدامهم المغسولة النظيفة . وكنا نقف نتفرج وهم يعطوننا من تحت أقدامهم ونأكل .. ولكننا كنا نذهب نتفرج على «أم أحمد» أجمل بنات الحى فى ذلك الوقت .. إنها فتاة وليس لها ابن اسمه أحمد فهى لم تتزوج .. وقد علموها أن تقول إنها مثل أم درمان وأم قويق وأم الخلول .. كانت جميلة الساقين ..

وقد عرفنا من زوجة عم نصر صاحب محل الورنيش أنهم فى هولندا وروسيا يدوسون العنب بالأقدام ليصنعوا منه النبيذ .. ويدوسون الزهور والورود والياسمين، ليصنعوا العطور .. وأن الكثير من الشعراء كانوا يطلبون من الجميلات أن يفعلن ذلك ثم يجلسن تحت أقدامهن يعتصرن الرحيق من أقدامهن وأصابعهن .. وكان أمير الشعراء الروسى بوشكين يأتى بفتاة جميلة ويصب على رأسها النبيذ ويسرع إلى ارتشافه قطرة قطرة من قدميها .

ولم نكن نعرف ذلك .. ولكن الإحساس الجمالى واحد عند كل الناس .. فكان يرضينا أن نأكل الكسب من تحت قدميها ولما عرف أبوها أننا نجيء لسبب آخر غير شراء الكسب، منع إبنته من ذلك !

وامتنعنا نحن أيضا دون أن نتناقش فى هذا الذى حدث ..

ولما عرفنا أن أم أحمد سوف تسافر إلى القاهرة لتكمل تعليمها هناك .. ذهبنا

إلى محطة السكة الحديد قبل موعد القطار بساعات .. وجاءت أم أحمد وكأنها كانت تتوقع هذا الوداع .. جاءت إلينا تصافحنا وسارعنا إليها .. وعندما اتجهت تركب القطار .. كان حذاؤها قديما .. وكان ذلك آخر عهدنا بقدميها ..

ولا أذكر الأبيات التى نظمناها معا فى جمال قدميها وكعبيها وأصابعها .. ولا من الذى وصف أصابعها بأنها شفاة ، وأظافرها بأنها عيون وساقيها بأنها دمياط ورشيد ..

وفى ذلك الوقت إنهار بيت فى شارع السكة الجديدة .. سقط نصف البيت . وبقى نصفه الآخر .. فمات الأب ولم تمت الأم وماتت البنت ولم يمت الولد ومات القطة ولم يمت الكلب .. وتحت البيت كان صالون حلاقة .. مات الزبون على المقعد ولم يمت صاحب المحل . ووقفنا نتساءل : ما هذه النكتة ؟ ما الحكمة ؟

وتناقشنا فى هذا الحادث طويلا دينيا وفلسفيا واختلفنا ولم نتفق على شيء .. وتساءلنا وذهبنا لرجال الأديان الثلاثة . ولم نقتنع ..

أما نكتة النكت فى ذلك الوقت أن ذهبنا إلى إحدى الصيدليات .. واكتشفنا أن صاحب الصيدلية من أقاربى .. أما زوجته فهى مسيحية ، وكانت جدتها يهودية .. وجدتها قريبة لأحد الأصدقاء وهى الآن قريبة لصديق أيضا ..

أى أننا نحن الثلاثة أقارب - وليم وداود وأنا - وظللنا نبحث طويلا كيف حدث ذلك .. وكنا نطلق على هذه الصيدلية : صيدلية العائلة المقدسة .. وكان لهذا الاكتشاف أثر كبير فى نفوسنا .. جعلنا أقرب وأكثر حرصا على استمرار هذه العلاقة بيننا .. وكعادة الأطفال تعهدنا أمام أنفسنا وأمام السماء ألا ننفصل . فمثل هذه العلاقة النادرة يجب أن تبقى .. ولكن لماذا ؟ لم نتساءل . ولكن شيئا ما قد هزنا بعمق . وقد احترمنا هذه العلاقة حتى ذهبنا إلى الجامعة معا . ثم تفرقنا ..

وفى شارع السكة الجديدة محل ساعاتى اسمه « هرش » ولم يكن بيننا واحد يحمل ساعة فى يده أو فى جيبه . ولا عرفنا حتى إن كانت هذه الساعة ضرورية . يكفى أن نعرفها فى الصباح ، لنكون قبل رنين الجرس فى الفصول . وبعد ذلك لايهم الوقت . فنحن فى المدرسة وهى التى تضبط مواعيد الدخول والخروج .. فاذا خرجنا من المدرسة . فالوقت لا يهم .. ولكن محل

هرش كان غريبا .. فهو أسود اللون من الخارج . وله فترينة صغيرة فيها الساعات من كل حجم . ونحن لا نتوقف عند هذا المحل . وإن كنا أحيانا ننظر فى داخله نجد أناسا قد عكفوا على الساعات يصلحونها رجالا ونساء وهم جميعا من الألمان ..

وكان لابد أن نمر على هذا المحل ذهابا وإيابا . مرة نراه ونحن أمامه ، ومرة نراه من الجانب الآخر من الشارع . وكنا نتنافس فى معرفة المحلات على الجانبين وفى ترتيبها . ولم نكن نخطىء كثيرا . وفى يوم وجدت رجلا خواجة أمام باب شقتنا . قال لى : إننى أراك كل يوم تمر أمام المحل أنت وأصحابك .. أنا صاحب محل هرش ..

وكان يسأل على أحد سكان البيت . ثم طلب منى أن أجىء أنا وأصدقائى لنستمع إلى الموسيقى فى النادى .. وحدد لنا المكان والساعة . وذهبنا جميعا . المكان فى منطقة توريل الجميلة . أحد البيوت . الدور الأرضى . البيت به حديقة ذات أشجار عالية . الطرقات نظيفة . ولما ضغطت على الجرس خرجت سيدة عجوز . ونظرت فى دهشة وشىء من الفزع . فقلت : الخواجة هرش هو الذى دعانا ..

وتغيرت ملامح السيدة . وتركتنا ودخلت ليخرج الخواجة هرش متهلل الوجه مرحبا .. ومن ورائه ظهر شبان وشابات فى مثل سننا ووجوههم ضاحكة : تفضلوا .. تفضلوا ..

ونزلنا الدرج . وكانت قاعة كبيرة . بها مقاعد وبها رجال كبار السن وسيدات أيضا . وتتوسط القاعة منضدة عليها زهور وأكواب وبسكويت . وفى الجانب البعيد من الغرفة يوجد « فونوغراف » له بوق كبير .. وإلى جواره توجد اسطوانات .. وجلس إلى جواره رجل يخرج المنديل من جيبه ويمسح الاسطوانات برقة بالغة .. ثم يضعها بعضها فوق بعض بعناية فائقة . والصمت تام .. فالرجال قد سكتوا والنساء قد انحنين ينظرن إلى الأرض ، ولا ينظرن إلينا . والشبان والشابات فى صمت . وفجأة انبعث صوت الموسيقى ..

وكان هذا أول عهدى بموسيقى غريبة لا أعرف ما هى . ولا أعرف المعنى . ولا أعرف كيف يمكن أن يكون لها معنى .وأنظر حولى فأجد الموسيقى قد استولت على كل الذين حولى . ولا كلمة . ولا نفس . ولا رغبة

عند أحد فى أن يتنفس أو يتحرك .. ولما جاء طفل صغير تسابقت الأيدى لاحتضانه قبل أن ينطق بكلمة .. ثم راحوا ينقلونه من حضن إلى حضن ، فى هدوء شديد ..

ولما سئلت : إن كانت الموسيقى قد أعجبتنى .

نظرت إلى زملائى وقلت : جدا !

والحقيقة ، أننى لم أكن أعرف ما هذا الذى سمعت .. ولا ما الذى أعجبنى ولم يعجبنى .. فهى المرة الأولى التى أستمع فيها إلى موسيقى ليس فيها غناء ولا إيقاع ولا طبلة ولا عود .. إلى أصوات موسيقية فيها شيء لا أعرفه . ولا أظن أحدا من الزملاء قد أسعده أو أمتعه ما سمع . ولكن لدينا رغبة فى أن نعاود الاستماع . وقيل لنا إنه من الممكن أن نجيء كل أسبوع !

ثم كانت أول محاضرة للخواجة هرش فى نادى البلدية .. ولم تكن لها أية علاقة مباشرة بالموسيقى وإنما كانت تتحدث عن الحرب العالمية الثانية التى أعلن انتهاؤها أخيرا .. وعن الحروب عموما وعن العلاقات الإنسانية « والأسرة الواحدة » .. وكان ينظر إلينا نحن الثلاثة . وفهمنا المعنى المقصود . ثم عاد فتحدث عن الأدب والفن والجمال وحوادث التاريخ الأوروبى وجاء اسم عرابى باشا الزعيم المصرى واسم ابن خلدون المؤرخ التونسى .

وقبل نهاية المحاضرة بلحظات تحدث عن موسيقى بيتهوفن . وكانت هذه أول مرة أسمع فيها اسم الموسيقار الألمانى العظيم . وأول مرة أسمع فيها تفسيرا لهذه الضوضاء الموسيقية التى سمعناها والتى سوف نسمعها بعد ذلك .. وأول مرة أسمع كلمة « سيمفونية » وكلمة « حركة » فى داخل السيمفونية وأول مرة أسمع كلمة « أوركسترا » وقائدا للأوركسترا ..وكانت السيمفونية الخامسة لبيتهوفن .. وكيف أن بدايتها هى عبارة عن دقات للقدر .. تعلن الهزيمة .. أو تعلن صراع الإنسان مع القدر .. وأول مرة أسمع هجوما عنيفا على النازية وعلى هتلر .. وأشياء كثيرة قالها الخواجة هرش . ولم نفهم منها شيئا .

ولكن فى اليوم التالى عندما جلسنا على سلالم « المكتبة الفاروقية » جعلنا نسترجع ماذا قال الخواجة هرش وما المعنى ، ثم من هو هذا الساعاتى الذى يعرف عشر لغات ويتحدثها بطلاقة .. حتى لغته العربية سليمة فيما عدا اللهجة

الأجنبية .. من هذا الذى يستطيع أن يتكلم عن أشياء كثيرة بثقة ويقين ويجدأناسا كثيرين يستمعون إليه .. وكان فى بعض الأحيان يقرأ من ورقة مكتوبة أمامه ..

وفى ركن من القاعة كان جهاز الفونوغراف الذى رأيناه من قبل . أما الموسيقى فهى لبيتهوفن وهى السيمفونية التاسعة .. ولم يعرف واحد منا ما هى العلاقة بين كل الذى قال وبين هذه الموسيقى التى ليست فيها كلمة واحدة ولا أغنية ولا جملة يمكن حفظها أو ترديدها .. ولكنها جميلة .. مؤثرة .. وإذا حاول الواحد أن يشرح معنى الجمال ، فإنه لا يستطيع أن يقول شيئا . وكان عند الخواجة هرش جواب عن هذه الحيرة فهو قال لنا : مثلا رائحة الوردة كيف نصفها ؟ الفرق بين رائحة الوردة ورائحة القرنفل كيف نصفه كيف نحدده .. ؟ طعم اللحم وطعم السمك .. القمر والنجوم فى السماء .. موج البحر .. كل ذلك كيف نصفه .. إن اللغة لا تسعفنا فى التعبير .. ولكن نحن نعبر عن هذه المعانى تعبيرا غير دقيق . أما الشىء المؤكد فهو أن نوعا من الارتياح للذى رأينا وسمعنا وتذوقنا .

وكنا نندهش لهذا الذى يقوله الخواجة هرش .. كلام غريب وعجيب ومنطقى . ولا نعرف ما هى العلاقة بين الساعات والموسيقى ولا بين الموسيقى والسياسة والتاريخ والحروب ..

وسمعنا بعض الناس يقولون للخواجة هرش : يا دكتور هرش ..

وكان الرجل يرد ..

وعرفنا فيما بعد أنه مهندس كهرباء .. وأنه جاء من بولندا أو من ألمانيا . وإنه هاجر إلى مصر . واستقر فى المنصورة . ولم يكن يعرف كلمة عربية واحدة . ولكنه استطاع أن يتعلم وأن يقرأ وأن يكتب وأن يحاضر وأن يكون واضحا . وقيل لنا إنه ألف كتبا فى الأدب والفن والموسيقى .

وكانت له ابنة طويلة نحيفة شقراء تصاحبه أحيانا بالعزف على الكمان لكى يوضح بعض المعانى .

إنه أول من أشار إلى الموسيقى الكلاسيكية .. وإلى الموسيقى الألمانية .. وبيتهوفن بالذات .. وإلى أن هناك كتبا عن الموسيقى وفى الموسيقى وإلى أن هذه السيمفونيات التى سمعناها لها قصص وخلفية نفسية وتاريخية .. وكان ذلك كلاما غريبا للذين لم يعرفوا إلا الموسيقى الشرقية .. وإلا الأغانى ..

وأعتقد أنه بعد شهور من الاستماع إلى هذه الموسيقى الأوروبية بدأنا نتذوق ونستطعم هذا النوع الفخم الضخم من الهندسة الموسيقية أو من الصروح الموسيقية ..

• • •

ومن دكان هذا الساعاتي بشارع السكة الجديدة بدأ السلم إلى الموسيقى الغربية .. إلى أروع متعة من متع الحياة .. إلى هذا الطعام اليومي الذي لا تشبع منه ولا تستغني عنه ، ويستحيل الانتعاش الروحي من غيره ..

ومن ذلك الحين وأنا أجد نفسي متجها إلى الموسيقى الغربية باحثا عنها ، دارسا لها .. مصغيا في صمت وتأمل عميق لها ..

وعندما دخلت الجامعة انضممت إلى «جمعية الجراموفون» - أي الفونوغراف - أي الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية في إحدى قاعات قسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب القاهرة .. وكان يرأس هذه الجمعية ويشجع عليها دكتور لويس عوض وهو أحد أساتذتنا الذين أثروا في حياتنا الأدبية والفكرية أيضا ، بعدا عنه أو قربا منه ..

وإذا كانت موسيقى بيتهوفن قد بهرتني ، وإن كنت غير قادر على تفسير هذه المشاعر الغامرة وغير الواضحة ، فإن حياة هذا العبقري قد أدهشتني أكثر .. فهو قد ولد سنة ١٧٧٠ مع أمير الشعراء الألماني هيلدرلن وأمير الفلاسفة الألمان هيجل . وكان رجلا عنيفا قاسيا على نفسه . سيء الظن بالناس . وكان متناقضا منفرا أيضا . فعندما ذهب ليرى الموسيقار العبقري موتسارت ويطلعه على بعض أعماله الموسيقية اندهش موتسارت لرؤيته وقرأ ما كتبه ثم قال : لا ترفعوا عيونكم عن هذا الشاب ، سوف يكون حديث الدنيا كلها !

وإلى أن مات بيتهوفن لم يقل كلمة واحدة طيبة عن موتسارت !

وكان نموذجا للفوضى في بيته : البيت قذر .. الأوراق على الأرض وتحت المخدات . الأطباق والحلل على السرير .. الحشرات في فراشه وفي ملابسه : وكانت أعظم هدية يقدمها الأصدقاء له . هي أن يأتوا له بمساحيق تقتل

الحشرات فى ملابسه وسريره وشعره .. كما كانوا يسرقون ملابسه القديمة ويضعون مكانها ملابس جديدة - لأنه لا يستحم ولا يغير ملابسه !

وكان ينسى أن يأكل أو يشرب .. ففى مرات كثيرة يذهب إلى المطعم . ويجلس سارحا ثم يطلب أن يدفع الحساب . فيقال له : ولكنك لم تأكل يا سيدى الأستاذ !

فيغادر المطعم دون أن يأكل !

وكان كثير الشكوى من الناس . ومن أنه لا ينال ما يستحقه من التقدير الأدبى والمادى . وكان يبالغ فى ذلك . والحقيقة أن أحدا لم يلق من الإجلال ما لقيه هذا الموسيقار العظيم ، والتقدير المادى أيضا .

أصيب بالصمم وهو فى الثانية والثلاثين من عمره . وكان ذلك حادثا فظيعا . فالرجل الذى يعتمد على أذنيه ، لم يعد قادرا على ذلك .. فانعزل تماما عن الدنيا ولم يعد يستمع إلا إلى الموسيقى الخالدة فى أعماقه . إلى نفسه . فكان هذا الصمم سببا لمزيد من الإبداع الموسيقى .

وقد أدى الصمم إلى عدم الثقة بأحد من الناس .. وقد أخفى هذه الكارثة عن الناس . وكان يتظاهر بأنه سرحان حتى لا يسأله أحد عن الذى قاله له ..

وفى بيت بيتهوفن بمدينة بون عاصمة ألمانيا الغربية نجد الأبواق التى كان يضعها فى أذنيه لكى يسمع .. بدأت الأبواق صغيرة ثم راحت تكبر وتكبر حتى أصبح من الصعب حملها دون إثارة الضحك .

وعلى الرغم من استغراقه فى الإبداع الموسيقى ، كان يشغل نفسه بقضايا ما أغناه عنها .. مثلا قضية ابن أخيه .. مات أخوه وترك ولدا . وأراد الموسيقار العظيم أن يضم هذا الولد إلى حضانته بدعوى أن أرملة أخيه سيئة السمعة .. وذهب إلى القضاء يزمجر ويصرخ ويدق الأرض سنوات حتى حكمت له المحكمة بحضانة ابن أخيه .. وكان ابن أخيه نموذجا للاستهتار بعمه العظيم ..

قضية أخرى : أب كان يضرب ابنته الجميلة يريد أن يرغمها على الزواج من شاب غير الذى تحبه . ويهدده أهل الفتاة ، ان هو لم يكف عن التدخل فيما لا يعنيه .. وقد تدخل بعض تلامذته ونبهوه إلى خطورة ذلك على حياته وأعماله الفنية .

وكان يطارد الفتيات فى الشوارع .. لا يكاد يرى فتاة جميلة حتى يلاحقها ويعاكسها . وكانت الفتيات يقلن له : إذهب واستحم .. خير لك أن تشترى حذاء .. ما هي آخر مرة رأيت فيها الحلاق .. لابد أنك جزار تقلد بيتهوفن فى حركاته .. !

وكان الموسيقار العظيم يحب الحرية ويقدسها .. ولكن فى بيته طاغية من الدرجة الأولى .. يرفض أن يجيء أحد لزيارته . وإذا جاء لن يمد يده إلى ورقة على الأرض . وإذا جاء لن يطيل الزيارة أكثر من دقيقة أو اثنتين !

وكان شديد الغرور . وهذا طبيعي . طلب إليه أحد الأمراء أن يعزف شيئا للجنود الفرنسيين من جيش نابليون . فرفض . فهدده الأمير . فخرج من بيت الأمير يرتاد شوارع المدينة حتى وجد عربة نقلته إلى مدينة فيينا . وهناك وفى بيته حطم تمثال الأمير وداسه بحذائه وهو يقول : ليس بالأمر .. إننى لست طاهيا ولا عربجيا .. إننى أعظم مخلوقات الله لألف سنة قادمة .. !

وهو حقيقة كذلك .. !

هل كان هذا العبقرى مهملا .. ؟ نعم . هل أراد الانتحار ؟ لا .. إذن لماذا يتعاطى ٣٢ زجاجة حبوب مهدئة فى أسبوع واحد حتى مات ؟

من المؤكد أنه كان يطمع فى أن يلقى احتراما أعظم ومالا أكثر .. وكان يضيق فى نفس الوقت بالصمم الذى أصابه . ويضيق بحياته الخاصة المنعزلة المنطوية . ولكنه لا يعرف حلا لبقاء البيت على ما هو عليه ، ونظافته دون أن يتدخله أحد !!

وفى إحدى ليالى الشتاء وفى عاصفة رعدية توفى أعظم الموسيقيين فى كل العصور عن ٥٦ عاما !

• • •

وفى القاهرة عرفت أحد أقاربى وكان عاشقا للموسيقى الكلاسيكية . فقد تعلم فى ألمانيا . وعنده بيت جميل . واسطوانات .. واستعرضت أمامه معلوماتى عن الموسيقى . فوجد أن الذى لديه أضعاف ما عندى . ووجدها فرصة لكى يقنعنى بذلك .. فدعانى إلى بيته . وسمعت ما أسعدنى عن الموسيقى لبتهوفن

والآخرين . وسمعت عنده ومعه لأول مرة أسماء موتسارت والشتراوس وفاجنر وشومان وريمسكي كورساكوف وبرامز وبيزيه .. وغيرهم

وكانت هذه هي البداية الواسعة العميقة للموسيقى الغربية . وكان لا يسابقني ، وبعض زملائي الذين يصطحبهم إلى بيت هذا القريب ، إلا كثرة الفتيات عنده .. لا أعرف لماذا ؟ وكن لا يطقن هذه الموسيقى ولكنه كان يرغمهن على سماعها . وكن يسمعنها على مضض ، ولا يكاد يغيب لحظة في داخل البيت حتى يتهامسن ويتضاحكن . ويصعب علينا أن نتابع الموسيقى ، ويصعب أن تقول الواحدة : إسكتي !

ومسألة أن كان من الممكن أن نجيء في أي وقت آخر - أي وقت لا تكون هذه الفتيات . وكان يعترض لأنه يخشى أن نكسر الاسطوانات .. أو لأنه كان حريصا على تعذيبنا وعلى أن يتباهى بماله والمعجبات به اللاتي يحشرهن في سيارته الكبيرة .. ويتركنا نمشي على أرجلنا !

وكانت دار الأوبرا في القاهرة هي أروع مكان في هذه العاصمة .. ففيها المسرحيات الموسيقية الغنائية . الأوبرات العالمية ..

وفيها الباليه الذي هو تعبير راقص لموسيقى كلاسيكية لكبار الموسيقيين في الدنيا .

ثم جاءت الفرق الأوركسترالية العالمية بقيادة عباقرة القيادة في زماننا : فورتفنجلر وفون كارايان .

ورأيت الأوركسترا الضخم الذي قرأت عنه ولكن لم أره .. ورأيت قائد الأوركسترا كيف يمسك عصاه ويضبط النغم والإيقاع وكل أنفاس العازفين .. شيء عجيب حقا .

وفي سنة ١٩٥٠ كنت أجلس في أوبرا مدينة سالزبورج بالنمسا ، لافتتاح مهرجان موتسارت ، بعد الحرب العالمية الثانية . أما الذي حدث فشيء لا يهم . لقد نبهوني إلى ضرورة ارتداء بدلة . ولم تكن عندي بدلة . وكدت أبكي . فأنا قد سافرت ساعات طويلة لأشهد الافتتاح . ولحسن حظي وجدت شابا يقترب مني ، وقال لي : أنا جوتفريد .. هل تسبقني ؟

وكان الحلاق الذى قص لى شعرى بالأمس . وذهبت معه إلى الدكان وارتديت بدلة وكرافته ودخلنا معا .. وكانت هذه أول دار للأوبرا أراها فى أوروبا. لا تختلف كثيرا عن أوبرا القاهرة . بل أوبرا القاهرة أفخم . وإن كانت أوبرا سالزبورج أنظف وأكثر إتساعا .

ودخلت الاسطوانات والفونوغراف مكتبى .. وتكدست الاسطوانات من أوروبا ومن روسيا ففيها أرخص الاسطوانات وأخفها وزنا .. وبعد الاسطوانات دخلت الكاسيتات وأجهزة التسجيل .. وتعلقت أذنى بالبرامج الموسيقية فى الاذاعة .. أبحث عن التسجيلات الجديدة للموسيقى الكلاسيكية .

وفى سنة ١٩٥١ وفى مقر إحدى الجمعيات الدينية بالقاهرة ألقيت محاضرة عنوانها « ميتافزيقا الموسيقى » أعجبنى العنوان والسجع بين الموسيقى والميتافزيقيا .. وكان لابد أن أعتذر بسرعة عن هذا العنوان ، وأن أبدد المخاوف التى من الممكن أن يتركها فى نفوس المستمعين .. وكان موضوع المحاضرة عن النطق والاتسان والانسجام والجمال والجلال فى الموسيقى الكلاسيكية . وضربت أمثلة لذلك . مع عبارات من موسيقى بيتهوفن وموتسارت وبرامز .. ولا أدعى أننى كنت متمكنا تماما . ولكن كانت عندى شجاعة . وعندى ما أقوله فى الفلسفة أكثر مما أقول فى الموسيقى ..

وكان من بين المستمعين الأستاذ أحمد حسن الشجاعى المايسترو المعروف وصديق الأستاذ العقاد والمشرف على الموسيقى فى الإذاعة .. وطلب التعليق على الذى قلت . وكان لطيفا مجاملا .. ثم أضاف معلومات جديدة عن حرفة الموسيقى والعزف والتأليف ، وهو مالا أستطيع .. ثم طلب من الحاضرين أن يحرصوا على استدعائى من حين إلى حين ، ففى ذلك كسب للفلسفة والموسيقى معا !

واستأنف الأستاذ العقاد الموضوع الذى تحدثت عنه ، وأضاف هو أيضا الكثير عن نفسية الموسيقار وعن التفسير النفسى للعمل الفنى والأدبى .. واختار بيتهوفن نموذجا لكل ذلك .

وكان لابد أن ألقى محاضرة أخرى وفى نفس المكان وأنقل للسادة الحاضرين ما قاله الأستاذ العقاد وما قاله الأستاذ الشجاعى وما سمعته من الموسيقار دكتور

عمر خيرت .. ومن أساتذتنا فى الفلسفة اللاتينية مسيو باتريه ، وكان سويسريا وعازفا على الكمان فى الفرقة السمفونية بالقاهرة .

واسترحت إلى الذى قلت وإلى ردود الفعل والتعليق على ما قلت ، وتعليقى على ذلك أيضا .. ورأيت الابتهاج فى عيون الناس .

وعند الباب وجدت رجلا قصير القامة ومعه زوجته . ووجدته رفع البرنيطة وأحنى رأسه إلى الأمام قائلا : مسيو أنيس .. أنا سعيد بك .. وبكل الذى قلت .. هل تذكرنى ؟!

- باه .. طبعا .. أهلا أستاذنا دكتور هرتز .. !



شجرة الدر : ماما وبناتها
والأيام المنسية

شجرة الدرماما وبناتها والأيام المنسية

نعم كنت مسلطا على نفسى . لماذا ؟ لا يوجد سبب معقول يجعلنى طول الوقت أفكر فى الذى أعمله فى اليوم السابق . وقد كنت أنام عندما أضع رأسى على المخدة فجأة أنام وفجأة أجد النهار قد طلع . لا مجهود أبذله لكى يجىء النوم . وكنت اندهش للذى أسمعه من الزملاء إنهم يشربون الشاى فى السرير أو يقرأون حتى يجىء النوم . وأحيانا لا يجىء . ولكن لا أسأل أحدا .

أما فى ذلك الوقت فقد اعتدت أن أتقلب على الفراش . وأن أدير فى رأسى كل ما حدث طوال اليوم . فما الذى كان يحدث ؟ . لا شىء ذهبت إلى المدرسة . تناقشت تخانقت . ثم سكت . وجاء المدرس وطلب منى عدم الاشتراك فى الألعاب الرياضية قائلا : إقرأ لك كتابا أحسن لك . هؤلاء شبان بايظون يحتاجون إلى تربية .. أما أنت فالله يفتح عليك !

وكان الزملاء يتضايقون من ذلك .. ويضيفون فاصلا ثانيا وثالثا بينى وبينهم . ولم أحاول أن أذيب أو أزيل هذه الفواصل .. فلم يبق لى من كل تلامذة المدرسة سوى ثلاثة .. أحدهم يونانى الأصل والثانى ألمانى الأصل والثالث مصرى . نحن الأربعة أصدق الأصدقاء . ونتفق ونختلف . ولكن على المخدة تدور المناقشات من جديد ، لا أجدنى سعيدا بما قلت أو بما تذكرت أننى قلت ..

وعندما أقارن بيننا فإننى أجدنى الوحيد الذى يصر على أن يرتدى بنطلونا طويلا وقميصا له كم طويل .. ثم إن الحذاء له كعب غليظ مرتفع لا يريحنى أثناء السير الطويل .. ولكنى أنا الذى اخترت ذلك .. لماذا ؟ لم أعرف لأننى لم أفكر . ولم أفكر لأن تفكيرى كان فى اتجاه آخر تماما .. أو على الأصح كان تفكيرى مشلولا .. فأنا معلق التفكير . هناك شىء ما ، يمنعنى من أن أناقش أشياء كثيرة ، لا مع نفسى ولا مع غيرى ..

عندى هذا الشعور بالنقص الفظيع .. مصدر هذا الشعور أن والدى لم يكن معنا . فكم مرة جاءت أوراق من المدرسة ودعوات لحفلات .. وإن سألنى أحد أقول : والدى مسافر .. إنه مريض .. سوف يجيء وضايقنى أن أشاع الزملاء انه مات . ولكن ليس عندى أى دليل على أنه مايزال حيا . كنت أقسم بأنه فى البيت .. وتعالوا شوفوه . ولا أحد يجيء . ربما كان هذا الشعور هو الذى جعلنى أشعر بأن هناك شيئا ما فى حاجة إلى أن أتفادى الكلام عنه أو أخفيه .. ولذلك كان حرصى على ان اجعل البنطلون أطول والقميص والحذاء أعلى . أى لابد أن أضيف شيئا ما . لأن هناك نقصا ما .. ولم أجد ما أقوله عندما يندهش الزملاء من الإصرار على أن يكون الكم طويلا والبنطلون أيضا ، مهما كانت حرارة الجو . وكنت أجد اعذارا مختلفة . ولم انتقل من تفكيرى إلى القول : ليس من الضرورى أن يكون كل الآباء والأمهات فى مكان واحد .. فبعض الطلبة تزوج آباؤهم سيدات أخريات .. أو انهم ماتوا ..

ويتأكد هذا الشعور بنقص شيء هام فى حياتى عندما أزور بعض الزملاء . نتغدى أو نذاكر معا . هناك اختلاف هائل بين بيتنا وبيوت أخرى .. البيوت الأخرى فيها أصوات كثيرة . والاصوات عالية ولها رنين . البيوت الأخرى دافئة فيها أثاث كثير ومغطاة بالسجاجيد .. وأشياء كثيرة معلقة على الجدران . وإذا وقفت أمام بيت من هذه البيوت ، فإن روائح غريبة تخرج من تحت الباب وإذا انفتح الباب خرج الهواء دافئا محملا بعطور مختلفة . رائحة الطعام والكولونيا والصابون .. وإذا انفتح الباب تطلعت وجوه كثيرة جالسة ، ووجوه واقفة .. وعيون اتجهت إلى الداخل . وكلهم يتكلمون فى وقت واحد . والأيدى تمتد والقبلات . والدعوة إلى الصالون والشاى والدعوة إلى الغذاء .. وعندهم حكايات كثيرة يشاركون فيها جميعا .. وإذا واحد فاته أن يسمع جانبا من القصة طالب الآخرين أن ينتظروه حتى يسمعها من أولها .. وكانت القصة تقال عدة مرات .. بناء على حماس الجميع ورغبتهم . وكل شيء يبعث على الضحك . أى شيء . كيف ؟ لا أعرف .

أما فى بيتنا فتمضى الساعات لا أحد يسمع أحدا . وتجتاز غرف البيت كلها فلا تجد رائحة اقوى من جير الجدران ورطوبة الحمام والعقاقير والنعناع والينسون . وإذا جاء الطعام فإن أحدا لا يدعو أحدا لذلك . وإنما نجلس ونفرغ

من الطعام ولا كلمة واحدة . والأصوات ليس لها رنين ولا لها صدى . كأن الأصوات تحتاج إلى أبخرة الطعام لكى تنتقل بها من مكان إلى مكان . فقط عندما يجيء أقارب لنا ، فإنهم يجلسون مع والدتى بالساعات . وكل حكاياتهم عن فلانة بنت العم وبنت فلانة بنت الخال وعن أرض وجاموسة وفرح وخطوبة فلانة بنت فلانة .. وإذا جاء خالى أو خالتى أو جدتى ، فيكون لى نصيب من الكلام .

هذا إذن هو الفرق بين البيت والمسكن بين الأسرة والعائلة .. بين دفء اللحاف والبطانية ودفء الأمومة والأبوة والأخوة .. أما لماذا يضحك الناس بمناسبة ومن غير مناسبة ، وكيف ، فهذا الذى لم أهتد اليه ..

معها حق « أ .. » عندما كانت تكرر دائما : بابا قال لى .. وماما قالت لا .. بابا قال : أيوه .. كلمة واحدة .. وهو الذى يعطى المصروف .. وهو الذى ذهب إلى ناظر المدرسة .. وهو الذى اشترى .. وهو الذى اختار ..

هل كانت تعرف أن والدى ليس هناك .. وأن هذا هو الفرق بينى وبينها .. أو بين عائلتها وأسرتى .. هل أرادت أن تقول انها مهما كانت حرة فى خروجها ودخولها ، فلابد ان تسأل والدها عندما يجد الجد .. وما هو هذا الجد الذى يجد ؟ ان اتقدم أطلب يدها ؟ انا ؟ ومن الذى فكر فى ذلك ؟ هى التى فكرت هل تسأل أباها وأنا أسأل أمى ؟ وأنا أسأل أمى ؟ كيف .. أخطو اليها واصطدم بترابيزة عليها مائة علبة وزجاجة دواء وأراها شاحبة وأقول لها : أريد أن أتقدم .. إننى لا أستطيع ان أكمل هذه العبارة التى لم أسمعها من « أ .. » ولم أجرؤ أن أقولها لنفسى ..

فإن كانت تعرف ان والدى ليس موجودا فما شأنها فى ذلك ؟ وأنا لم أر أباها .. وأنا اشعر بأن والدى حاضر كل الوقت . أين أبوها وسلطاته ونفوذه ويده الغليظة وذراعه الطويلة وأخوها يشرب السجائر ويقال يشرب البيرة ويعرف الفتيات ويسهر ويسقط فى الامتحانات ولا يقف إلى جوار أخته إذا عاكسها أحد . إن والدى ليس معنا ، ولكن لا أفعل شيئا من هذا الذى يفعله أخوها .. وهى التى قالت عنى إننى مختلف عن إخوتها .. بل قالت إن كل ما عندى من صفات حميدة ومن أخلاق « نبيلة » - هى التى استخدمت هذه الكلمة - لا تجد لها نظيرا عند أخيها وبقية إخوتها ! إذن ليس من الضرورى

أن يكون الأب هناك لكى يكون الشعور به عميقا !

ورغم هذه المناقشات فى داخلى ليلا ونهارا ، فإنها لم تفلح فى أن تزيل ذلك الشعور الأليم بأن والدى لم يكن هناك معظم الوقت . وأنه لذلك محور قصص ونوادر وبطولات كلها من اختراعى عندما أواجه المواقف والتساؤلات التى تقتضى وجوده بيننا .

ولو كان والدى معنا لكان خطى أجمل . لأن خطه جميل . ولحفظت شعرا أكثر ، فأنا لم أضف إلى محفوظاتى من الشعر بيتا واحدا ولكنت صليت الفجر حاضرا وشربت الشاى بالنعناع . ولذهبت معه إلى صلاة الجمعة . ولحضرت حفلات الذكر والتواشيح ودلائل الخيرات .. ولكنه ليس هناك ..

وفى كل ليلة أفتح درجا من مكتبى وأضع ورقة أو ورقتين وقد كتبت شيئا أحرص على ألا يراه أحد . ولم تكن تلك الأفكار إلا شطحات فلسفية .. لا أعرف بالضبط ما هى .

مثلا : لماذا لاننبت من الأرض ، مثل كل الأشجار .. لماذا لاتحمل الطيور فى مناقيرها بذورا للقمح والقطن .. وبذورا أخرى يخرج منها الأطفال والشبان والرجال .. لماذا الأسرة ، لماذا العائلة .. لماذا لا يكون كل ذلك فى الحقول ؟ ! ولماذا إذا ولد طفل لا تتركه أمه فى الملجأ . وتقوم موظفات بتربية الطفل .. فإذا كبر كان بلا أم ولا أب . لا يفرح إن وجد أباه ولا يحزن إن لم يجد أمه .. ولماذا لا ينتقل الطفل من مدينة إلى مدينة ومن مدرسة إلى مدرسة . فإذا ولد الطفل فى المنصورة فإنهم ينقلونه إلى القاهرة . وفى القاهرةتنقطع صلته بأهله أو أمه أو أبيه .

أو أفكار أخرى تقول : ولماذا تكون للبيوت أبواب وللأبواب اقفال ومفاتيح .. لماذا لا تكون البيوت بلا أبواب .. لا حواجز .. كل شىء لكل أحد ولكل الناس .. لماذا يولد طفل غنيا ويولد طفل آخر فقيرا .. مع أن الطفل الغنى لم يفعل ما يجعله يرث ما ترك والداه ، والطفل الفقير لم يرتكب جريمة حتى يكون محروما .. لماذا هذا الظلم التاريخى .. إذن لا يوجد عدل فى الدنيا .. ولا أمل فى أن يكون هناك عدل ، مادام كل طفل يرث أباه وأمه .. إذن لا معنى للوراثة ولا معنى لأن يكون لأحد ثروة ، ولأحد الفقر والذل والهوان ..

وفي يوم زار المدرسة وزير المعارف د . محمد حسنين هيكل باشا ، كل شيء في المدرسة قد ركبه عفريت .. الناظر طالع نازل والفراشون والمدرسون والأرض فرشت رملا والزرع والورد قد تناثر في كل مكان والصابون مسحوا به الأبواب . والناظر على غير عادته يضحك ويداعب الطلبة ذهابا وإيابا .. والفصول مسحوها وغسلوها . وجاء هيكل باشا إلى الفصل ومعه حضرة الناظر وشخصيات أخرى لا نعرفها وإذا بهيكل باشا يطلب من كل طالب أن يجيب على هذا السؤال :

ما هي أمنيتك ؟ قالوا : مدرس .. ضابط .. طبيب .. غني .. الشيخ عاشور وسأل الوزير ضاحكا : من هو الشيخ عاشور ؟

قال التلميذ : خطيب مسجد الحسينية .

وقال تلامذة : محمد عبد الوهاب .. صدقي باشا .. الملك ..الشاويش .. وقلت أنا : آدم ..

قال الوزير : من هو آدم ؟

قلت سيدنا آدم

قال الوزير لماذا ؟

قلت : لأنه بلا أب ولا أم !

وجلست . ورفعت رأسي لأجد الدهشة على وجه الوزير والناظر والمدرسين ولا أعرف ما الذي قالوه . وخرج وزير المعارف .. ولم أعد أسمع شيئا مما يدور حولي ولا معنى أن يتردد إسمي كثيرا بين زملائي في تلك اللحظة ..

وبعد أيام وجدت واحدا من أخوالي يسألني : هل صحيح أنك وقفت أمام الوزير وقلت أنك تتمنى أن تقتل والديك لتكون يتيما بإرادتك !

ولم أعرف كيف فكرت في أن أكون آدم .. فهذه الفكرة لم تخطر على بالي قبل ذلك . وإنما ولدت في لحظتها . إنها عبارة كثيفة المعاني . خلاصة مشاعر مؤلمة . ترسبت في أعماقي وتبلورت . وأتيحت لها الفرصة ، فقفزت على لساني أمام الوزير والناظر .. شيء عجيب ان تخرج الأفكار هكذا دون تدخل مني .. أو دون تفكير أو تدبير .

وجاء والدى وسألني : أنت قلت إنك تريد ان تكون آدم .. أول انسان .. لابد ان يكون هذا شعورك .. فأنت الأول وسوف تبقى كذلك .. ولكن آدم عاش وحده في الجنة .. ثم عاش وحده على الأرض .. لابد أنها حياة موحشة أن يكون الإنسان وحده .. لا أب له ولا أم .. حتى زوجته خرجت منه ، كما خرج أولادها منها .. ويبقى هو وحده .. كل الانبياء كذلك .. كل العظماء كذلك .. الله يفتح عليك !

اقترب والدى من كل المعنى ، إلا المعنى الذى يعذبنى . ولكن يكفى أنه جاء وأننى جلست إليه .. وأننى لمسته . وأننى قبلت يده وأنه قبلنى . وأنه أذابنى . فأنا بعضه . ونحن واحد . وفى لمسة واحدة وضمة واحدة تزودت بكل الدفء وكل الراحة وكل الأمان . وقد أشبعنى ورواني وملأنى كل ذلك .. وحتى لو غاب شهرا فالذى تسرب منه إلى جسمى ونفسى كثير جدا . يكفينى شهرا وعاما .. إن والدى لم يره أحد ، ولكن الناس وأنا عرفناه بالعقل والقلب .

ولاحظت بعد ذلك حرصى على أن أعود إلى البيت من المدرسة . ولا أخرج وأنا الذى أفتح الباب وأنا الذى أرد بصوت مرتفع إذا أحد دق الجرس . وأنا الذى أرد وأتكلم وأفتعل المناقشات . وإذا دعانى أحد الأصدقاء إلى الغداء يكون الرد جاهزا ، ولكن والدتى وحدها !

أو أقول : مصروف البيت معى ولابد أن أعود إلى البيت فورا !

وتعلمت أن أردد عبارة سمعتها من والدتى ولم أدرك معناها بوضوح : أنا رجل البيت !

وعندما كنت أذهب إلى المكتبة أجد صورة والدى تقفز أمامى على الصفحات . وعندما أنام وأحلم بوالدى . فإن شيئا سيئا يقع .. كأنه جاء فى الحلم وفى اليقظة لكى ينبهنى إلى ذلك .. وظل هذا حالى معه ، سنوات طويلة بعد موته ..

وقد نصحنى والدى أن أصادق أحد سكان البيت .. إنه شاب فلسطينى .. سورى لبنانى لا أعرف . وهوأبيض اللون أسود الشعر . أما والدته فهى مثله تماما . وإن كان شعرها أطول . وكنا نسمع صوتها من أى مكان فى البيت . فهى تتحدث بصوت مرتفع . وكنا نعرف بالضبط ماذا يدور فى شقتها . وهى

زوجة صاحب البيت الذى هو مدرس اللغة الانجليزية فى مدرستنا .

وقال والدى إن إبن هذه السيدة يقرأ كثيرا وعنده كتب كثيرة . وقد التقى به وتحدث معه فأعجب به . وأسعدنى هذا التوجيه المباشر من والدى . وذهبت إليه وسألته ان كان لديه كتب . وإن كان يعيرنى واحدا واحدا . ولم يتردد لحظة . وعرفت أنه يقرأ بالفرنسية أيضا . وأمه تكلمه لغة غريبة وعرفت فيما بعد أنها العبرية . وانه ليس ابن المدرس ، وإنما ابن زوجها الأول . وهو من مثل سنى . لطيف . مرح دائما . على استعداد لأن يتحدث فى أى وقت وفى أى موضوع . وعنده موضوعات كثيرة . وكل شىء فيه يلمع : شعره الأسود الناصع ووجهه وعيناه وحذاؤه . والقميص أبيض والبنطلون أزرق أو بنى ومعطر دائما .

وفى يوم دعانى للافطار معه . وذهبت ودخلت أمه معنا . ووضعت أمامنا كمية كبيرة من الطعام .. شاى ساخن وفناجين كبيرة ولبن ساخن . وعيش افرنجى . وبيض وفول وجبن وحلاوة وزيتون وفاكهة . وأدهشنى أن يكون كل ذلك فى الإفطار .. ولم أعرف بأى شىء أبدأ أو بأى شىء أنتهى . وكانت هى التى تضع الشاى والجبن والبيض .. وتطلب من ابنها واسمه جمال أن يساعدنى فأنا فى غاية الخجل .

وجاء صوت غليظ من الداخل . يزعق وينادى : راشل .. راشل .. أنت يا بنت الكلب !

وامتقع وجه السيدة وابنها . ووقف الطعام فى فمى .. وفجأة تعالت الصيحات والصرخات والاستغاثة . وخرجت السيدة راشل من باب الشقة تجرى على السلم بقميص النوم والمدرس وراءها ببنطلون البيجامة وبلا جاكتة وبلا نظارة .. وقف جمال وأحنى رأسه . وإذا به يتجه إلى جمال ويقول : وأنت يابن الكلب إنزل هات بنت ستين كلب .. وإلا فهى طالق !

وفجأة جلس المدرس ووضع العصا على ترابيزة السفرة . وامتدت يده إلى البيض والفول والجبن .. ووجدتنى فى بيتنا .. فى سريرى أعانى من مغص شديد ولم أجد الكتب فى يدى . لقد نسيتها وخطر لى أن أصعد وأسأل عن الكتب . ولكن فزعت مما قد يحدث . ولم أعرف ما الذى يمكن عمله . ولم أجرؤ أن أحكى ما حدث لأحد . ولا حتى لوالدتى ..

وفى الصباح الباكر جاءنى جمال يقول فى لهجة رقيقة غريبة لم أسمع مثلها من أحد : آسف لما حدث . ماما شديدة الأسف !

لاعمرى سمعت مثل هذه الكلمات ولا فهمت معنى الاعتذار . ولم يشرح لى جمال ماذا حدث ولماذا ؟ وكنت قبل ذلك أسمع هذه الصيحات ، ولم أكن افهم بالضبط ماذا هناك فوق فى شقة صاحب البيت .. الآن فهمت أن هذا يحدث كثيرا جدا . كل يوم .. ضرب .. وشتيمه ونزول على السلم وتهديد بالطلاق والعودة .. ولم أعرف السبب ..

وفى يوم سقطت مدام راشل من السلم وانكسرت ساقها . وذهبت إليها مع والدتى فى المستشفى . وتحدثت هى عن أن زوجها رجل عصبى بخيل جدا . وأنه معقد لأنه غير قادر على أن يأتى بأولاد .. ويتهمها بالعناية الشديدة بابنها الوحيد وإهماله هو ..

وكانت تقول لوالدتى : ولا يهمك .. إدفعى الإيجار فيما بعد .. ليس الآن .. الناس لبعضها .. سوف أدفعه وانتى على مهلك !

وكانت أمى تحبها وتستريح إليها ..

ولم أكن أعرف ما هو الفرق بين اليهودى وبين المسلم ولا بين المسلم والقبطى .. فأنا أنظر إلى جمال وأنظر إلى ميشيل اليونانى الأرثوذكسى وإلى وليم القبطى . لافرق .. وليست عندى معلومات عن الفروق بين هذه الأديان الثلاثة .. ولاكنت دخلت كنيسة أو معبدا يهوديا .. ولكن كانت عندى معلومات قليلة جدا عن الفوارق بين الأديان .. فمن طفولتى أجد لى أصدقاء من المسيحيين واليهود . ولم أشعر بأى نوع من الخلاف بيننا .. فما دخل الدين فى أن نتحدث فى الأدب أو الشعر أو نمشى معا فى الشارع وأن نضحك وأن نلتقى فى اليوم التالى .. لم أجد سببا للخلافات بيننا فى أى وقت ..

سألت جمال : أين والدك ؟

قال : مات !

سألت وليم : أين والدك ؟

قال : قتلوه .. إنها مسألة ثأر بين عائلات فى الصعيد .

سألت ميشيل : ووالدك ؟

قال : في أثينا .. لن يجيء إلى مصر ترك البيت منذ عشر سنوات .

وفجأة اكتشفت أننا جميعا بلا آباء .. ولكن أحدا منهم لا يعاني الذي أعانيه والذي بالغت فيه كثيرا . وكان ذلك أعظم اكتشاف أراحني تماما ..

لقد وجدت أن كل أصدقائي بلا آباء .. يتامى ؟ ربما .. وكنت أداعب الزملاء : إن آدم عليه السلام وهو أبو البشرية بلا أب ولا أم .. فنحن جميعا أولاد رجل يتيم !

وفي بيت جمال .. رأيت التوراة لأول مرة .. قلبت فيها وقرأت .. اللغة عربية غريبة وأسماء كثيرة .. وأشار جمال أن آخذ الكتاب معي إذا شئت وقلبت فيه كثيرا ، ولم أجد متعة عند قراءته لأول مرة .. ولكن كانت لديه معلومات كثيرة . وتناقشنا . وسرنا طويلا . وجلسنا والتقينا وامتدت يدي إلى التوراة أقرأ وأفهم وأستمع أيضا . ولكن أين هذه التوراة من القرآن الكريم . لغة التوارة غريبة ولغة القرآن هي قمة البيان والجمال والموسيقى والحكمة ..

وذهبنا معا إلى محل ساعاتي في شارع السكة الجديدة اسمه (هرش) . فيه شبه كبير جدا من جمال ووالدته . أبيض أسود الشعر والعينين رقيق العبارة . ووعدني بنسخة مختصرة للتوراة ولكن بالفرنسية . فلم أستطع قراءتها . ووعد بأن يعثر على نسخة عربية مختصرة . وبعد أيام وجدتها عندي في البيت .. وجاءت كتب صغيرة وكبيرة بالإنجليزية والفرنسية والعربية .. وكانت نوعيات غير مألوفة .. وأكثرها في التاريخ العربي واليهودي .. لمؤلفين ومترجمين لم أقرأ عنهم .. انه عالم جديد غريب ، ولكنه ليس ممتعا .

ولم يشأ جمال وآخرون أن ينضموا إلى المجموعة القليلة التي تلتقي كل يوم على سلم المكتبة العامة في المنصورة .. هو جاء مرة واحدة . ولم يسترح إلى أنواع المناقشات .

وجاءني يقول : آسف .. لن أحضر اليوم . أنتم لكم موضوعات بعيدة عني تماما .. ولكن يكفي أن ألتقي بك في بيتك أو في بيتنا ..

وفي إحدى الليالي دق الباب . وكان جمال .. وقال : أريد أن أتحدث إليك فورا .

ونخل . وطلب أن ندخل مكتبى . وهى غرفة صغيرة بجوار الباب . ليس فيها إلا المكتب فى منتصف الحجرة ومقعد . وجلس هو فوق المكتب وقال لى : هناك شيء ضايقنى أنا وماما .. وهى التى أرسلتنى إليك الآن .. وهى تعرض عليك أن تقيم عندنا الشهور الثلاثة القادمة فسوف نكون وحدنا تماما !

لم أفهم . أدهشنى هذا الذى قال . وأدهشنى أكثر عندما قال : إذن أنت لا تعرف .. لقد اتفقت والدتك مع مدام شيرى أن تنتقل إلى شقتها .. إنها تريدك أن تعيش عندها بين أولادها . إنها تحبك وتريد أن تعاملك كواحد من أولادها . والدتك وافقت . أن تكون مثل أمك .. تتبناك . حتى تحصل على الثانوية وتذهب مع أولادها إلى الجامعة !

حاولت أن أدير هذه المعانى فى دماغى . أن أقلبها . لم أفهم . ففيها كلمات كثيرة أصادفها لأول مرة .. فلم أفهم معنى ان تكون مدام شيرى فى الدور الثانى ونحن فى الدور الأول ، وأعيش عندها .. لماذا ؟ بين أولادها لماذا ؟ كواحد من أبنائها لماذا ؟ وأمى وافقت لماذا وكيف ؟ لم أفهم . وقد حدث ذلك من أيام . ورأيت أمى جلست معها واشتريت لها الأدوية ودرت فى كل الصيدليات .. وجلست إليها وتحدثت معها ولم تقل لى شيئا . وكيف أتركها وحدها وما المعنى ؟

وأصر جمال .. على ان التقى بوالدته هو غدا لأنها حضرت جانبا من هذا النقاش بين والدتى ومدام شيرى ..

وقابلتها . وسمعت منها تفاصيل ماذار بينها وبين والدتى ومدام شيرى وبناتها وأولادها . أما بناتها فقد رأيتهن كثيرا فى شقتها وأمام البيت وعند البقال : كاميليا .. متوسطة الطول واسعة العينين مستديرة الوجه قصيرة الشعر فيها حيوية .. وخطوتها قصيرة . وإذا مشت تتلفت حولها ، حتى إذا لم يكن هناك أحد أو شيء يستدعى الالتفات .. ولكنها عصفورة الحركات ..

ومنى .. متوسطة الطول سمراء سوداء الشعر .. ناعمة الصوت . قلقة . وهى عادة التى تفتح الباب . وهى التى تشترى وتناقش الباعة على السلم .. وهى التى اذا رأتنى تقول : سلم لى على ماما .. والأخت الثالثة : تهانى بيضاء

ممتلئة واسعة العينين والفم ملفوفة . وشعرها ملفوف وعنقها وذراعاها .. ولم أسمعها تكلم احدا .. وإذا رأتني نظرت في عيني ولا تقول شيئا . أما الولدان فهما زميلان في المدرسة . أحدهما معي في نفس الفصل .. أنا أول الفصل وهو آخره .. وظللنا كذلك حتى تركنا المدرسة إلى الجامعة ..

اما السيدة شيري .. او شيرين .. وان كانت راشيل تناديها شاجرين .. شاجرينية .. ويتحدثان الفرنسية معا ، ومع البنات الثلاث ، فهي الأم الرقيقة اللطيفة الحنون المرحة ..

وفهمت أن والدتي مكسوفة تماما أن تفاتحني في هذا الموضوع . أما الموضوع فهو أن أنقل كتبي وملابسي وأعيش مع أسرة السيدة شيري .. لماذا ؟ ان انتقل والسلام . من اجل صحتي . ولم انتبه إلى أنني أسعل احيانا كثيرة . بسبب برودة الشقة . وان نظري قد ضعف بسبب الإضاءة السيئة . أو لسبب كثرة المذاكرة . أو سوء التغذية . وأن هذا القرار . انتهى .

ونزل جمال .. وجمع كتبي وملابسي . وانتقلت من الدور الأرضي الى الدور الذي فوقه . إلى سرير صغير في غرفة الولدين .. اما كتبي فقد اختفت تحت السرير .. سريري .. وملابسي وضعت في أحد الأدراج . ولم اعرف ما الذي يجب أن أعمله بعد ذلك .. كيف أنام .. كيف أذاكر .. إذا نزلت الى المدرسة هل أمر على والدتي .. وإذا عدت من المدرسة هل أدق الباب ماذا اقول لها وماذا اقول لإخوتي ..

هل أستاذن من ماما لكي أرى مدام شيرين .. هي قالت لي : قل لي يا ماما ..

هل أستأذن من ماما .. وإذا مرضت ماما هل استأذن من ماما لكي أبيت عندها .. وإذا أرادت دواء هل أنطلق في الشوارع أبحث عن الدواء .. وإذا كان هذا هو ما يحدث كل يوم فما معنى أن أمضي معظم الوقت تحت ، ثم اذهب إلى فوق لكي أنام أو أتناول العشاء .. وانام .. فما المعنى ؟ وكيف أتحرك وآخذ دوري في الحمام .. وأينما ذهبت فعيون كثيرة تنظر ناحيتي .. البنات والولدان وماما .. كل هؤلاء ينظرون ويفهمون ويقولون ، أو لايقولون ، وأنا لا أعرف ما الذي يقولون .. ولا كيف أوضح ولا كيف أدافع عن نفسي .. عن موقفي

الغامض .. ولا أعرف كيف أبدو راضيا أو ساخطا ..أو كيف اقتنعت بأن أكون بينهم .. ولا أكون تحت ولا أحاول أن أتحدث عن الذين تحت . ولا إذا جاء ذكرهم أن أعلق بشيء .. كأنه من المفروض أن أقاطع والدتى واخوتى . لماذا ؟ ما الذى جعل والدتى تفعل ذلك .. ماذا حدث ؟ وما سوف يحدث . هل اتفقت مع والدى على ذلك .. إنها لم تقل لى شيئا .

وكل الذى قالته السيدة شيرين يوم حملت كتبى وملابسى : أهلا وسهلا .. بيتك ومطرحك .. مع إخوتك .. لعلهم يتعلمون منك المذاكرة والاخلاق والنجاح .. ظللتم تتحدثون عنه وكيف يذاكر وكيف ينجح . جاء إليكم بنفسه .. تعلموا منه ..

وبعد سنوات سألت واحدا من أبنائها كم يوماً مكثت عندكم . قال : ثلاثة شهور ..

وقالت والدتى : بل تسعة شهور ..

وقال لى جميل : شهران ..

وقالت لى « أ .. » كيف استطعت .. كيف وجدت قلبا يطاوعك بعيدا قريبا عن أمك واخوتك سنة كاملة .. أين ذهب ماكنت تقوله عن الام وحنان الام .. وعن الإنسان الذى لايخجل من الواقع .. وكل إنسان له واقع خاص .. تماما كما ان له إسماً وجسماً فله واقع .. ولا يصح أن يخجل منه . وما هو قضاء وقدر هو عظيم الاحترام .. فهل تسمى ما حدث قضاء وقدرا ؟ كان فى وسعك ان تمنعه .. إنك لست طفلا رضيعا .. ولا أنت طوبة ينقلونها من عرض الطريق إلى جوار الحائط إلى بقية الطوب فى أحد الجدران .. ليس قدرا ولذلك لا هو ولا أنت تستحق الاحترام . كيف حدث ولماذا ؟ هل تريد ان تقول : إنك أردت أن تعرف .. ان تجرب .. ان تفهم .. لقد جربت فهل فهمت . قل لى الآن .. فقد وجدت الآن ألف سبب لكى أسقطك دمعة من عينى !!

وكنت قد ابتعدت عن كل طريق تمشى فيه « أ ... » وكل مكان .. ولم اعد أمر أمام بيتها ذهابا وايابا من المدرسة .. وتفاديت أن أرى أخاها واصدقاءه . وعندما وجدت صديقتها امام المكتبة حاولت أن تتحدث معى ولكنى أدرت رأسى بعيدا . فأخجلها ذلك .. ولم أعد أراها . ولكن « أ .. » لم تطق صبرا عندما

عرفت هذه الحكاية الغريبة .. لقد جاءت لزيارة والدتى وبعثت لى واحدا من اخوتى . ونادانى . ونزلت . ووجدتها قد جلست إلى مكتبى . وطلبت منى أن أغلق الباب ورائى . ولم تترك لحظة واحدة أرد بكلمة أو حتى أتنفس بصوت مرتفع .. ولو أعطتنى الفرصة ، ماوجدت شيئا أقوله ...

لقد كنت مأخوذا .. مسلوبا .. مسحوبا .. من تحت إلى فوق .. فكما كنت غائبا تحت ، فأنا فوق أكثر غيابا ..

كانت أيام تعاسة . نعم . منتهى التعاسة . فلا أنا فوق . ولا أنا تحت . ولا أنا طرف فى كل المناقشات . ولا الضحك ولا الدفء . ولم أعد أشم تلك الرائحة التى تفوح من ثقب الباب ومن تحت الباب .. وإذا اتجهت إلى الدور العلوى ، أحاول ألا أنظر إلى شقتى وأخشى أن ينفتح الباب فجأة فيرانى أحد .. فإذا حدث فلا أدرى ما الذى يمكن أن أفعله .. لم أفكر . لم أهتد إلى حل . ولا ماهى المشكلة ..

وقررت بينى وبين نفسى أن أعود إلى تحت .. قرار .. وأحاول أن أجد صيغة مناسبة لتوديع السيدة شيرين وأولادها .. وقررت أن أجمع كتبى وملابسى واهبط السلم فى ساعة مبكرة واترك لهم خطابا أشكرهم على كل شىء .. هذا قرار ..

وفى يوم دق الباب وتقدموا جميعا يفتحون الباب . وسمعت صوتا أعرفه .. ونظرت الى الباب من بعيد .. أعرفه طبعا . إنه الشيخ دهليز .

قالوا : تفضل .. قلت له أيضا . وصافحته . وكانت مفاجأة مخجلة . فلا أحد يعرف أننى كنت التقى بالشيخ دهليز وأغنى معه .. فتلك قصة خاصة أخفيتها بين طيات ذكرياتى المتواضعة .

وكان هو الذى بدأ بالكلام . وتساءل بسرعة وبصورة مباشرة وتوجه بحديثه إلى السيدة شيرى قائلا : أنت تعرفين أنه إبنى .. حبيبى .. فنان .. الله يفتح عليه ..

ولم تكن هى تعرف هذه الصلة ..

ومضى يقول : انقطع عنا شهورا . سألت عنه . قالوا إنه تزوج بنت واحدة غنية وجئت أسأل . صحيح ياست هانم .

ضحكت السيدة شيرين : فى هذه السن يتزوج .. الله يضحكك ياسيدنا الشيخ ..

- لا تقولى : سيدنا .. أنا لست سيدا لأحد ولا حتى لمراتى أنا أرتدى العمامة ولكنى لست سيدا .. انا رجل هلس جدا .. اسألية .. هاها .. هاها ..

وسألتنى السيدة شيرى : من هو ؟

قلت : إنه عم الشيخ دهليز .. يامدام

قالت بغضب : قل يا ماما

قلت : الشيخ دهليز يا ماما .. يغنى .. ويحفظ الشعر ..

قالت : يغنى ؟ والله ؟

والبنات قلن : يغنى .. الله .. تعرف ؟ .. والله فرصة !

وبسرعة غريبة ظهرت الطبلة والرق والعود والتفت الفتيات حول الشيخ دهليز وعلى إيقاع الطبلة . والرق والعود : لا والنبى ياعبده ..آه والنبى يا عبده . !

وأغنيات أخرى كثيرة . كانت مفاجأة لى . وقدموا للشيخ دهليز الشاى والقهوة .. وكان سعيدا وهم أيضا عندما طلب إليهم أن يشربوا القهوة لأنه يريد أن يقرأ لهم الفنجان ؟!

أما زوجته فهى التى سحبته إلى باب الشقة على أن تعود بعد ذلك . ولما عادت قرأت لهم جميعا الفنجان ..

ووعدهم بأن يعود . ثم أخرج خطابا من جيبه وقال للسيدة شيرى : حضرتك الست شجرة الدر غنام .. ألست كذلك ؟ !

قالت : مضبوط ..

قال : معى خطاب من الست شج شج .. تعرفينها ؟

قالت : طبعا هى التى قامت بزفافى من عشرين عاما . كيف حالها . وحشتنى . سلم عليها .. وقل لها اننى سوف أكون سعيدة اذا زارتنى ..

قال الشيخ دهليز مودعا : يا ست شجرة الدر لا تغضبى من الذى جاء فى هذا الخطاب .. لقد جاء زملاؤه فى المدرسة وقالوا إنك أرغمت والدته على أن يعيش بينكم .. يقولون إنك دفعت مبلغا من المال .. يقولون .. زملاؤه يقولون ..

ضايقت السيدة شجرة الدر وهي تقول : أعوذ بالله .. ما هذا .. إنه تلميذ ممتاز طيب .. وأنا أحب أن يكون بين أولادى .. ثم إنه ليس بعيدا عن والدته .. بهم في الدور الذي تحتنا .. فقط أن يكون مع الأولاد .. إنهم يحبونه .. هذا كل ما هناك . ولا أنا اشتريت ولا أمه باعت .. ولا عندى عروسة .. ولا هو عريس .. أنا مثل والدته .. خالته .. عمته .. وأنا ألاحظ انه ليس سعيدا .. بل لم أره قد أمسك كتابا .. لا هو ذاكر ولا أولادى .. وأنا أردت أن أسعده .. ولكن مادام ليس سعيدا ولا زملاؤه . وربما والدته .. فهو على كيفه تماما ..

واتجه الشيخ دهليز ناحيتي .. ومد يديه حتى وجدتني وقال : مبروك ياعم .. إفراج !

كانت لحظة فظيعة . لا أنا شكوت . ولا أنا ضقت بالإقامة عندها . فهذه معان لا أعرف كيف أحيط بها . ولا كيف أحددها . ولا دار بيني وبين والدتي أو الشيخ دهليز أو زملائي حديث أو حوار عن هذا الذى أنا فيه .. وأحسست بالخجل الشديد من السيدة وأولادها جميعا . فلم يسيء لي أحد . لا بكلمة ولا همسة ولا إشارة ولا تلميحة .. ولكن الإساءات الكثيرة جدا كانت في أعماقي .. في داخلي .. على شكل تقلصات في المعدة .. ومغص وأوجاع في أحشائي بعد كل وجبة .. وعند المذاكرة وعند دخول الحمام . وعند المرور أمام شقتنا متجها إلى أعلى ..

كنت أشعر انني لا أصعد إلى فوق ، وإنما أنا أنحط .. أهبط .. أسقط إلى قرار لا قاع له .. أسقط في داخلي .. لقد بذلت جهدا كبيرا جدا لكي أتذكر تلك الأيام . فقد تعاونت كل قدراتي العقلية على محو هذه الفترة من عمرى .. وكان جهدى أعظم وأعمق عندما استعدتها .. واستعرضتها وتذكرتها وجمعتها وسجلتها .. إنها الأيام المنسية أو التى يجب أن تظل منسية في طفولتى !



شجرة الدر لآخر مرة
وجاء لطفي السيد

شجرة الدر الأخرسة
وجاء لطفي السيد

في ذلك الوقت كنت أغني في حفلات المدرسة .. وكنت أغني في الجلسات الخاصة بين الزملاء .. وكانوا جميعا يغنون أيضا . أجمل هذه الأصوات كان للزميل جمال أبو ريه .. والذي أصبح بعد ذلك مؤلفا لقصص الأطفال . كان صوته طويلا جميلا .. وكنت أحب الاستماع إليه .. وأتردد في أن أغني أمامه .. ولكنه شجعني . وكان أكثر واقعية مني . فقال : عندما نصل إلى القاهرة نهرب من الجامعة ونتفرغ للغناء والطرب .. ولا دراسة ولا زفت !

أما المقهى الذي أغلقناه علينا فهو مساحة من الأرض قذرة .. كلها تراب وبعض الصناديق الفارغة .. والبلاليص .. والدكك المكسرة .. والسقف فوقنا هباب أسود .. وقماش يغطي المكان .. ودخان الجوزة والشيشة ينفذ إلينا خانقا .. وضوضاء المقهى والراديو .. ولذلك يجب أن تتعالى أصواتنا لكي نغطي على كل ذلك ..

وفجأة سكت كل شيء . لقد ذهب الشيخ نور الدين إلى صاحب المقهى وأعطاه مبلغا من المال ، فأقفل الراديو . ووقف نور الدين ملتفتا إلينا قائلا : والآن .. نستمع إلى مطربنا الخجول .. صاحب الصوت الجميل و « البحة » الدقهلاوية الساحرة .. إلى ..

وأشار ناحيتي . ولم أتوقع ذلك . ولكن لا مفر .. وقال الشيخ دهليز : آه .. عندي اقتراح يا سيدي .. رغم أنني لا شايف لا اسود ولا اخضر .. قل يا حبيبي من مقام الحجاز : تتيه على العشاق .. الله يكرمك .. قول .. بس اضغط على الآخر .. أحب أسمع .. الله يكرمك يا سيدي .. حتوحشنا .. الله يلس الفلسفة واللي بدعها .. ما كنت قاعد معنا .. والنبي ومن نبى النبي ما حد واخد منها حاجة .. الفلسفة تعرف إيه فلس × سفه .. هاها .. هاها ..

وجاءت السيدة شج شج .. وجاءت الراقصة .. وأمسك الشيخ نور الدين بالطبلة .. والتف الزملاء حولي ..

ورحت أغنى من مقام « الصبا » ـ هم الذين يقولون إسم المقام .. فأنا لا أعرف .. وكان يساعدنى جمال أبورية .. ويهمس فى أذنى بأن أرفع صوتى ..

تتيه على العشاق فى حلل خضر
مفككة الأزرار محلولة الشعر ..

يزعق الشيخ دهليز : مفككة الإيه .. محلولة الإيه .. آه .. فك الزراير يا سيدى .. فك .. الله يفكها عليك .. تانى ..

تتيه على العشاق فى حلل خضر
مفككة الأزرار محلولة الشعر
فقلت لها : ما الإسم ؟ قالت : أنا التى
كويت قلوب العاشقين على الجمر
شكوت إليها ما أقاسى من الهوى
فقالت : إلى صخر شكوت ولم تدر
فقلت لها : إن كان قلبك صخرة
فقد أنبع الله الزلال من الصخر

الشيخ دهليز : صخرة والنبى صخرة .. بنت الصخرة .. اقعد انت أفك أنا الزراير على طريقتى .. القزازة يا واد يا زهيرى يا ابن الصخرة .. القزازة .!

وبدأت الأصوات تتلاشى .. فقد تعب الجميع .. وتفرقنا .. دون أن نتفق على موعد .. ودون أن يسألنى أحد متى سأسافر . لقد أرهقنا الغناء والرقص والترديد .. ولما طلب منى الشيخ نور الدين أن أرافقه عائدا إلى البيت ، اعتذرت بأننى سوف أصحب الشيخ دهليز .. قال لى الشيخ دهليز : مطلوب منك مجهود كبير .. فأنا دايخ على الآخر .. وسوف أجد متعة كبرى فى الوقوع على الأرض والدرمغة فى الوحل .. فلا تتركنى .. وإذا كبس على النوم ، ضعنى إلى جوار الحائط .. وتعالى غدا أوقظنى .. ولا تنس الفطور ..

بيض وجبنة وشاى سخن .. هاها .. هاها .. والنبى أخرتك سوده يا واد يا دهليز .. يا واد يا إبليز إنت .. آه .. فيك نفس تغني .. أغنى أنا ..

عشنا يا نعم عيش
إلفين كالغصنتين
اليس من شؤم بختى
أصبت نفسى بعينى !

وقال : وحياتك لم يحدث شيء من هذا .. لا عشت ولا عاشت .. ولا إلفين ولا غصنتين .. وأين هى العين التى سوف أحسد بها نفسى .. هاها .. هاها .. أهو كلام حلو .. النسيم القادم من النيل أنعشنى .. أين نحن الآن ؟ ..

قلت له : أمام قسم البوليس ..

قال : أعوذ بالله .. خذنى إلى مكان على النيل .. أريد أن أتحدث إليك .. أنت صعبان على جدا ..

وجلسنا معا .. فى صمت .. وطال صمته .. واستغرق فى النوم .. وتركته .. ومضت دقائق .. وانشغلت بما فى داخلى .. واستعدت ما كان فى بيتنا .. ما دار بينى وبين والدى .. وحاول والدى أن يجلسنى على ركبته .. فقلت : كبرت على هذه الجلسة عشر سنوات ..

فقال : يبقى الابن صغيرا فى عينى والديه حتى لو كان عنده أولاد .. قل لى : ماذا تريد أن تكون عندما تكبر .

قلت : لا أعرف .

قال : بالتقريب .

قلت : لا أعرف .. متى سنسافر إلى القاهرة ؟

قال : سوف أسافر أنا أولا .. وأبعث لك بمن يسافر معك .. عندنا بيت جميل فى الزمالك .. أجمل أحياء مصر .. عندنا شقة مستقلة .. إنه قصر له حديقة جميلة .. ونحن لنا شقة عالية لها سلالم وسوف نكون فيها معا .. فإذا جاءت والدتك وإخوتك سوف نسكن معا فى مكان آخر أكبر وأوسع ..

وأجدنى أتطلع إلى وجه والدى .. أراه هو الآخر بوضوح .. أنا مندهش من حالتى .. فأنا أنظر إلى الناس .. وأفتح عينى جدا .. كل شيء أصبح بارزا ملونا .. والدى أبيض الوجه مع إحمرار .. العينان خضروان .. طويل عريض

يرتدى البدلة والصديرى دائما .. والكرافتة التى تلتف حولها سلسلة ذهبية .. وهناك سلسلة أخرى للساعة يضعها فى جيب الصديرى .. وله منظار .. وصوته هادىء وإذا تكلم فإنه يمسك يدى أو يقربنى منه ..

ولابد من هذا السؤال : ماذا تقرأ الآن .. هل أنت فى حاجة إلى كتب .. قل لى وسوف أبعث بها إليك .. إذا ضايقك كتاب ، أى كتاب ، لا تستمر فى قراءته .. اقرأ فقط ما يجعلك تشعر بالانبساط .. إذا جاءك كتاب ووجدت أنك لا تستطيع أن تتركه وجاء موعد الطعام لا تأكل .. وجاء موعد النوم ، فلا تنم . فليس سهلا أن تجد مثل هذا الكتاب ، وليست عابرة هذه المتعة .. إحرص على هذه المتعة .. فإنها أروع ما فى الثقافة .. عندك كتب ؟ .

قلت : نعم .

قال : كلها ممتعة ..

قلت : ليست كلها ..

قال : هل لا يزال أصدقاؤك هم الذين أعرفهم ..

قلت : ربما زادوا اثنين أو ثلاثة ..

قال : أراك حزينا . لماذا ؟

قلت : أمى يزداد مرضها وأنت لست معنا .. ولا تكتب لها خطابات .. وندفع الإيجار متأخرين وأنا لا أستطيع أن أقوم بأى عمل آخر .. حاولت أن أعمل فى محل فى شارع السكة الجديدة .. ولكن نفسى لم تطاوعنى .. ثم وجدت زملائى على استعداد للسخرية منى ..

وبكيت . وسكت والدى طويلا . ووجدته قد أخرج منديلا من جيبه ومسح دموعه هو ..

وعدت من هذه القضية الحزينة إلى الشيخ دهليز الذى صحا من نومه وجعل يهزنى أنا لكى أفيق من السرحان الطويل . وقال لى : أنت لا تعجبنى لا اليوم ولا أى يوم .. لماذا هكذا صامت . ما الذى ينقصك .. لك رجلان .. الحمد لله لك عينان .. وأبوان وناجح فى المدرسة وسوف تدخل الجامعة .. ألف شكر لك يا رب .. ما الذى يضايقك .. إنك تسكن فى الدور الأرضى .. ولكن سكان الدور الثانى يحسدون أمك عليك .. ألم يطلبوا إليك أن تعيش معهم وتكون لهم .. وربنا أعطاك قدرة هائلة على الحفظ .. وحفظت القرآن الكريم وتحفظ

سوف أبيات الشعر .. وأصدقاؤك يحبونك .. بصراحة أنت مش جدع .. وأنا رجل جبان .. كنت أريد أن ألقى بنفسى فى النيل الليلة .. ولكن لا أظن أنك ستتركنى .. أعرف أنك سوف تحكى ما حدث .. هل نسيت كيف جئت تروى لى ما حدث لصاحبك فوزى مع أبيه وأمه .. كيف تشاجرا وكيف أن فوزى كان يبكى طول الوقت .. وكنت أحب أن تستر صديقك .. ولذلك لن ألقى بنفسى فى النيل .. ثم أنك مش جدع .. وحلك هذه البنت آمال .. إسمها آمال .. ولا اسمها فاطمة .. آمال كانت مخطوبة لصاحبك يسرى .. هل قالت لك ذلك ؟

قلت : لم تقل شيئا .

قال : جاءك كلامى .. كذبت عليك .. وتلاقى آمال هذه لم تعطك يدها .. بينما كانت كلها فى أحضان يسرى .. الناس مظاهر .. أنا أعرف ذلك تماما .. أنا لم أفقد بصرى إلا منذ سبع سنوات .. لقد كنت أرى وألعب وأستمتع ولكن حدث ما حدث .. مظاهر كلها كذب .. وعيبك أنك تصدق كل شيء .. طيب .. عبيط .. وحزين على إيه مش فاهم ؟ عارف الشيخ نور الدين كان عاشقا للست شج شج وطلب الزواج منها وهو صغير .. فرفضت طبعا .. وضربته .. وكلنا ضربناه .. ولكن الشيخ نور الدين أضاع الكثير من ماله عند قدمى شج شج .. ولا يزال يحبها .. ويحب أن يكون بالقرب منها .. ولا يزال هو الذى يأتى لها بالأرز والسكر والدواجن .. كل أسبوع وحياتك ..

قلت مندهشا : لا أصدق ..

قال : إن شاء الله ما صدقت .. لكن هذا هو الذى يحدث .. هل سألت نفسك لماذا الرجل صاحب البيت يضرب زوجته اليهودية .. لا تعرف .. هذا الرجل عاجز جنسيا .. وزوجته هذه شريفة كريمة .. وهى تجمع الفقراء وتقدم لهم الطعام لوجه الله .. وهو رجل بخيل .. وقد استولى على فلوسها وأملاكها .. وكل يوم يهددها بالطرد .. وأنا أعرف أنها سوف تهرب من مصر .. أنا عارف .. لماذا لأن الواد « شولحان » الذى تسميه شولح من أقاربها .. وهو سوف يهرب .. ولكن لا أعرف متى .. ويوم تغديت أنت وإبنها جمال ضربها وضرب جمال وطردهما .. لأنه لا يحب أن يدخل بيته أحد .. وهذه السيدة قد أسلمت هى وإبنها من أربع سنوات .. فهى سيدة صالحة وهو رجل حقير شرير .. إنت مش جدع أبدا .. إصح .. إياك أن تنام .. هل تعرف كاميليا ..

قلت : من هى ؟

قال : صديقة آمال .. كانت مخطوبة لضابط بوليس .. تركها وتزوج خادمتها .. فما كان منها إلا أن عاكست ضابطا آخر يكرهه .. وسوف تتزوج هذا الضابط انتقاما منه .. قرف .. وأنا لا أعرف لماذا فضحت نفسك .. لا أنت أحببت .. ولا خطبت ولا وعدت بالزواج .. ولا أى شىء .. ولا لمست يدها .. وأصبحت البلد تتكلم عن أخيب حب شهدته المنصورة .. وبصراحة أنت لم تجد أحداً يعلمك .. لا أهلك ولا الكتب .. هل من المعقول أن يحب الإنسان امرأة .. المرأة لم يخلقها الله لأن نحبها . يا أخى ربنا يقول : ولقد كرمنا بنى آدم .. ولم يقل كرمنا بنات حواء .. ويقول إن كيدهن عظيم .. وقال إن كيد الشيطان كان ضعيفا .. ومعنى ذلك أن الرجل أضعف من الشيطان والشيطان أضعف من المرأة .. وفى هذه السن تحب إيه وتتنيل إيه .. يا شيخ بلا قرف .. اسمع

- نعم ..

- إصح وكلمنى كويس .. هل قبلتها ؟

- لا

- هل عانقتها ؟

- لا

- هل وعدتها بالزواج كده وكده ؟

- لا ..

- هل اصطدمت بها .. افتعلت إنك تعثرت فى طوبة ثم ألقيت بنفسك على صدرها .. حركة يعنى ؟

قلت : لا ..

قال : عندما أرادت الست شج شج أن أتزوجها .. كنت لم ألمسها .. فتعثرت وألقيت بنفسى عليها .. ووجدت أنها مجموعة مخدات وبطانية .. لحم وشحم عظيم .. لو ألقت بنفسها فوقى لكانت نهايتى .. ورفضت الزواج بعد هذه المعاينة . التى لم استخدم فيها عينى !

ونهضت .. وسحبت الشيخ دهليز فى طريق السكة الجديدة المظلمة الباردة . وقال لى : لا تصدق عينيك .. كل ما تراه كذب .. الرجال يكذبون

والنساء يكذبن أكثر .. والمرأة عندها غريزة .. فهى طول عمرها مضروبة بالجزمة .. ولذلك فهى تعبد الرجل الذى تضربه بالشبشب .. ثم تبكى لأنها لا تجد الرجل الذى لا يضربها ولا يعذبها .. ألم تقل لك « أ ... » اضربنى قلما اشخط فى .. اطردنى .. ألم يحدث ..

لا ..

إذن أنت لم تعطها فرصة لكى تتظاهر أمامك بالكبرياء لكى تذلها وتعذبها وتحتقرها .. شح شح هذه الجبارة فى ليلة من ليالى الأنس .. وجدتها تبكى .. قلت لها : مالك .. قالت : ليس فى حياتى رجل .. يشخط وينطر ويضرب ويطرد ويجعلنى أنام كل ليلة ودموعى على خدى .. فمددت يدى إلى الأرض وأمسكت الشبشب ورحت أضربها .. وهى تصرخ وأقول لك الحقيقة : تولانى الرعب لأنها تستطيع أن تسحقنى .. وفجأة وجدتها هجمت على يدى تقبلها .. من يومها وأنا أحتقر هذا الإنسان الذى اسمه المرأة .. أنا أعرف أنك لن تأخذ بما أقول ولكن تذكر ذلك عندما تذهب إلى القاهرة . لا فرق بين بنات المنصورة وبنات القاهرة .. فالمرأة واحدة وإن تغيرت فساتينها وشباشبها .. لا تنزعج إذا قلت لك : إننى كافر .. ملحد .. وهذه قصة أخرى .. إذا جلسنا معا فسوف أحدثك كيف أننى كفرت بكل أحد وبكل شىء .. ليس الآن .

ولم يدر الشيخ دهليز أنه هزنى بعنف وصدمنى فى كل حائط وفى كل عمود نور .. ثم ألقى بى على الأرض وراح يدوسنى بأفكاره الجريئة .. ثم يلقى بالطين على رأسى .. فلم أكن أتصور أن هذا الرجل « الهجاص » لديه هذه الأعماق .. أو عنده هذا الفيض من المرارة ..

إذن كل الناس يعرفون حكايتى - وهى ليست حكاية فلا فيها شخصيات ولا فيها أحداث .. ولكن مشكلة كبرى أن يكون لأى إنسان هذا العدد من الأصدقاء الذين يحبون الكلام ونقل الكلام .. إنهم إذاعة متعددة الموجات .. وكلهم يريد أن يكون مدرسا ومحاميا وأديبا وشاعرا ومطربا - جميعا صناعتهم الكلام .. قراءة الكلام وكتابته وأداؤه .. وأنا الحدث الوحيد الذى يستحق كل هذا الاهتمام .. أنا الطوبة التى سقطت فى هذه البحيرة الهادئة .. أنا الجثة التى طفت على سطح هذا المستنقع الراكد .. مغفل - أنا بهذه الصفة ولكن لا أدرى . وكذاب أيضا .. أى يروننى كاذبا . فلا أحد يتصور أن حزنى هذا لأسباب كثيرة

نفسية عائلية اجتماعية . فهم لا يجدون سببا لهذا الحزن : فأنا طالب متفوق .. وأعيش مع أمى ، وأبى حى .. وفى طريقى إلى الجامعة .. إذن لا معنى للحزن .. فإذا كان حزن أو أسى أو شجن فالسبب هو هذه القصة الغرامية .. والحقيقة غير ذلك .. ولكن الناس لا يصدقون إلا ما تقع عليه عيونهم .. فهم إذن لا يعرفون الحقيقة . لأن الحقيقة ليست ما يرون . وليس عند الناس وقت لكى يبحثوا ويحللوا وينصفوا . ولذلك فالناس ظالمون وعيونهم مضللة . وليس حبا من الناس أن يتحدثوا عنى .. ولا أننى صاحب بطولات خارقة .. ولا أنا قيس وهى ليلى .. وإنما الناس يتسلون بظلم الناس وفضيحة الناس وبهدلة الناس وتشويه الناس .. واستغفال الناس . فهم يعاملوننى بشكل ، ويتحدثون ورائى بشكل آخر . وأنا لا أصدق إلا الذى أرى .. والذى أراه كذب .. ولكنى أصدقه .. معك حق يا شيخ دهليز . فمن أين أتتك كل هذه الحكمة .. أنت الذى لا ترى وأنا الذى أرى ؟ وكيف أنك جاد هكذا وهازل فى نفس الوقت .. فلا الهزل حقيقتك ولا الجد .. أو أنك هازل حقا حزين حقا .. ففى وقت الهزل منتهى المسخرة ، وفى ساعة الجد فى منتهى الصدق . ولكنك لا تعرف كم عدد السكاكين التى أغمدتها فى أماكن مختلفة من جسمى ومن نفسى .. حتى ، آ .. ، هى الأخرى .. إننى لم أعد أرى وجهها .. فقط خشيتها .. التى هى لغز .. لا أعرف كيف أصفها .. موسيقى من الإيقاع والإغراء والالتفاف والالتفات .. تمشى وتطير .. بعضها يمشى وبعضها الثانى يحاول الطيران .. أحب أن أراها ذاهبة وأن أراها قادمة .. تمنيت أن أقف فى منتصف دائرة وهى تلف حولى حتى الموت . كرهت هذا أيضا . لماذا أصبحت أرى كل شيء بوضوح .. إلا هى .. أهذا هو الحب ؟!

وفاجأنى الشيخ دهليز : إنه مجرم ذلك الذى اخترع كلمة الحب .. لا شيء اسمه الحب .. إنها لحظة جنون .. رجل يريد أن يفقد عقله .. وامرأة تريد أن تلعب بهذا العقل .. مغفل مثل حضرتك يتوه .. يدوخ .. ويفقد لسانه ويقول لها : أحبك .. ولكنها لا ترد مع أنها تموت عليك ومن أجلك .. ولكنها تبلع حروفها وتستخدم فى كلامها معك كل الحروف إلا الحاء والباء .. كيف لا أعرف .. من الذى علمها ؟ لا أعرف .. ونحن الرجال بمنتهى العبط لا نجد فى كل حروف اللغة إلا هذين الحرفين .. هل تعرف زوجتى .. أنت رأيتها ..

هى التى قالت لى : أحبك .. وبعد أسبوع من الزواج قالت : أنا أحبك لأنك مزقت قلبى .. أى أنها أحبتنى من باب الشفقة .. طبيعى فأنا رجل أعمى .. ولاحظ أقاربى أنها تسرف فى وضع الأبيض والأحمر . لمن إذا كان زوجها أعمى ؟ ومن شهر بعد الزواج قالت لى : إنى أنا نمرود .. فلم أكد أتمكن منها حتى بدأت أجرى من البيت .. فهل معقول أنى أنا أتمكن منها .. كيف .. تريد أن تقول اننى أنا أقوى ، وأنها أضعف .. وأنا استطعت ان أستغل عطفها لكى أذل إيمانها .. كذب طبعا .. وبعد سنة من الزواج قالت : أننى صعبت عليها حتى جعلتها تقول : أنها تحبنى .. أى أنها لم تقل ذلك .. ولا وجدت سببا معقولا .. وإنما هى أرادت أن تسكتنى فقالت إنها تحبنى .. والآن أنت تعرف الباقى .. مع أننى لا منظر ولا منصب ولا أى شىء .. ولا يوجد عندى أية وسيلة للضغط عليها .. إذن هى التى ضغطت على لكى تتزوجنى . وأفهمتنى أنها تتزوجنى لأنى رجل طيب .. كله كذب .. أبدأ حياتك فى مصر بشكل آخر .. عفا الله عما سلف .. وكأنك لا رأيت بنات ولا جلست إليهن ولا تخيلت ولا تمنيت .. اهرب بجلدك .. اهرب يا سيدى .. اهرب يا حبيبى .. وسوف تهرب . ولن أقول لك كيف تهرب .. وكل واحد له طريقة فى الهرب .. وسوف تهرب .. اذهب بى إلى بيتنا .. ربما لآخر مرة فسوف ننفصل قريبا وبسرعة إن شاء الله ..

قلت : وأين ستذهب بعد ذلك ؟

قال : أين ؟ إلى حيث بدأت .. إلى شبشب الست شح شح .. هاها .. هاها .. وأمام بيته وجدنا بعض الزملاء فى انتظارنا . غريبة .

وقالوا معا : إننا فى انتظاركم من ساعتين ..

وقال الشيخ دهليز : أهو .. استلموه .. الآن أحسن من أى وقت مضى .. شفاه الله بعد الكلام الفارغ .. وإن شاء الله سوف يتم شفاؤه عندما يذهب إلى القاهرة ولن يرى أحدا منكم يا كدابين يا اولاد الكدابين .. أصبحوا كما أمسيتم على زفت !

وضحكوا .. وضحكت أنا بصورة عصبية .. وإذا الشيخ دهليز يقول : الله .. الله .. أسمعها تانى .. إضحك والنبى بالقوى .. الله .. إضحك يا سيدى .. عندى لكم جميعا مفاجأة كبرى .. غدا تجيئون وتنزل معا ..

وترتدون أحسن ملابسكم .. مفاجأة كبرى .. أنا الذى سوف أقودكم أيها العميان .. غدا ..

ما هى المفاجأة .. لم يقل .. ولكنه كان جادا .. واقتربت منه أسأله فهمس فى أذنى : لطفى السيد .. سنجلس إليه فى بيت أقاربه .. الساعة العاشرة صباحا . !

لطفى السيد ؟! لقد زلزلنا هذا الرجل الأعمى الأعرج الهجاص الجاد ، المستهتر المتفلسف الكافر الهلس الذى لا يغنى إلا شعرا جيدا .. ويكره اللغة العامية فى الغناء .. أنا لا أصدقه .. ولكنه يتظاهر بذلك .. فهو عندما يقسم بالله يقول : عندما أقسم بالله فأنا لا أكذب .

إذن كيف يقدس ما يكفر به .. إنه هو الآخر يكذب .. ويريد أن يهزنى بعنف .. وهو قد وعد بأن نلتقى بالأستاذ لطفى السيد ، الذى هو من أقاربه ، وقد وفى بالوعد .. ورغم الهيصة والفوضى التى حوله والتى يتردى فيها كل ليلة ، فهو لم ينس .. ورغم أننا نراه معظم الوقت فنحن لا نعلم من الذى كلفه بالاتصال بلطفى السيد وتحديد موعد لنا قبل أن نرى الرجل الذى هو مفخرة الدقهلية مثل على باشا مبارك .. وحسين هيكل باشا والشاعر على محمود طه والشاعر الهمشرى وأم كلثوم ..

• • •

بيت له حديقة على النيل . وتولانا الصمت والاحترام الحاضر للطفى السيد . ولكن أحدا منا لا يعرف من هو بالضبط لطفى السيد .. ماذا كتب ماذا قال .. ولماذا هذا الاحترام العظيم له .. فكل حديث عنه يجب أن يكون بحساب وباحترام بالغ .. فعندما اقتربنا من البيت .. وجدنا بوابا جالسا على مقعد أمام الباب .. اقتربنا منه لم ينهض . قال له الشيخ دهليز أنه على موعد مع البيه الكبير .. وقام البواب متكاسلا وهو يرمقنا جميعا بما لا نستحقه من الاحتقار .. وطلب منا الشيخ دهليز أن نصف له البواب فضحك وقال : أعور ؟ ..

وإذا بدهليز ينطلق كالمدفع : أنت يا ولد يا عبد الرسول يا بواب يا أعور .. تعالى .. إن هذا البواب كان يعمل فى المقهى المجاور لبيت الست شج شج .. وهو يعرفنى جيدا . وإن كان يتجاهلنى الآن .. ولكن لابد أن يعرف مقامه .. لابد ..

وجاء البواب . وقال : تفضلوا في الصالون بالدور الأرضي .. وسعادة البيه سوف يجيء إليكم بعد شرب القهوة ..

وقاطعه دهليز : يا عبد الرسول ..

قال البواب : نعم ..

ـ طبعا تعرفني .. أنا الذى كنت أدفع لك البقشيش .. تمام ؟

ـ تمام يا سيدنا الشيخ .

ـ كذاب .. أنت تعرف أننى لم أكن سيدنا الشيخ .. هل تعرف أن سعادة البيه يبقى ابن خالتى .

ـ أعرف ..

ـ هل تحب أن ترى سعادة البيه وهو يقبل يدى .. لا .. مش صحيح .. هذا « فشر » من عندى .. هاها .. هاها ..

وجاءت القهوة . وجاء لطفى السيد . وقد ارتدى عباءة فوق جلباب . وصافحنا وعندما جاء الشيخ دهليز قال له : وأنت يا إبليز كيف حالك .. لا تزال تسهر وتسكر وتغرر بهؤلاء الأطفال .. اخرج من بينهم أيها الشيطان .. كم عمرك يا إبليز ..

لم يرد دهليز ..

قال لطفى السيد : أنت فى سن عبد الكريم .. إذن أنت في الثامنة والعشرين الآن .. وإن كنت تبدو أصغر من ذلك كثيرا .. قل لى آخر ما نظمت من الشعر ..

ودهليز لا يرد .. لكن وجهه قد امتقع .. وجلس قبل أن نجلس وقبل أن يطلب إلينا أن نستريح ..

وقال لطفى السيد الذى بدا شمعى الوجه مشدود المعالم يتحدث باللغة العربية بطريقة غير مألوفة .. كان يحدثنا وكأنه يخطب فى اجتماع سياسى كبير .. كأنه لا يرى أننا ستة أشخاص .. ستة طلبة جاءوا للفرجة عليه ، لأنهم لا يعرفون من هو .. وإنما فقط ليروا من هذه الشخصية العظيمة الاحترام فى بلادنا .. ولم يتكلم دهليز .. ويبدو أن لطفى السيد قد اعتاد أن يتكلم دون أن يتوقع ردا من أحدا .. ولذلك لم يحرص على أن يطلب إلى دهليز أن يتكلم .. ولابد أنه لا يعرفه جيدا .. فلو كان يعرف أن دهليز غلباوى لأدهشه هذا

الصمت . ولكنه لم يندهش إذن هو لا يعرفه فى جلسات الهلس والعربدة !

وأخيرا تكلم : العيال دول .. أرادوا أن يجلسوا إليك قبل سفرهم إلى الجامعة !!

ولا أعرف ولا أتذكر شيئا مما قاله لطفي السيد : قال كثيرا فى موضوعات شتى .. ووجدتها فرصة لكى أسرح وأستحضر أشياء كثيرة قالها دهليز .. ومما قلت ومما قال غيرى .. فى الماضى البعيد وأخيرا وما قال والدى .. وما قالت أمى .. وما قلت .. أو ما تخيلت أننى قلت ..

وراح الكلام ومعالمه .. وصداه .. وتداخلت الصور .. ولم تبق إلا صورة « مشينها » بعيدا .. وكلما ابتعدت وتلاشت عادت وتجددت لتتلاشى .. فهى لا تمضى إلا لكى تظهر .. ولا تظهر إلا لكى تختفى .. وكذلك كل الأصوات والعبارات وأبيات الشعر والموسيقى .. ودقات الطبول .. ولوعة الكمان وتباريح العود ، وخفقان الطبلة .. وشهقات الشيخ دهليز ..

انتهى .. ما الذى انتهى .. لا أعرف كل شىء انتهى .. المنصورة انتهت .. المدرسة .. هى .. وأنا انتهيت .. وتخيلت أننى أصعد فوق الكتب .. سلمة سلمة .. أصعد .. وأصعد وفجأة أتزحلق ثم أقع من فوق .. طائراً بعيداً .. كأنى سحابة .. لا تحتى ولا فوقى .. ولا أنا أى شىء .. انتهى .. انتهيت .. !

• • •

وفى محطة مصر وجدت والدى فى انتظارى .. لا أعرف ما الذى قاله .. ولا أدرى من شوارع القاهرة شيئا .. ووقف التاكسى أمام بيت ..

وقال والدى : حمد الله على السلامة .. تمام العنوان ٣٩ شارع شجرة الدر ..

وابتسمت لآخر شجرة در فى حياتى .. ولم أقل ، ولا هو قال شيئا !



شجرة الدر : آخر العنقود

شجرة الدر آخر العنقود

لم أعد أجد كتابا أقرؤه فى « المكتبة الفاروقية » ولذلك أخذت كتبا معى . وجلست إلى جوار النافذة المطلة على النيل . ولأول مرة أنظر إلى النيل . مع أنه هناك كل يوم . ولكن بدأت أنقل عينى بين النيل والسماء .. وأقفلت الكتاب . اعتدت أن أطوى الكتاب . دون أن أفكر فى شىء ، وأن أنظر إلى الجالسين معى فى المكتبة . أكثرهم من طلبة المدارس . ولاحظت أنهم يقلبون الكتب بعنف . الورق فى أيديهم يصرخ . أيديهم غليظة . الورق يتكرمش . إنهم لا يعرفون كيف يتعاملون مع الكتب .. لماذا جاءوا ؟

اقترب منى أمين المكتبة وسألنى : مالك ؟

قلت : لا شىء .

قال : أنت لا تعجبنى . أنت شخص آخر غير الذى عرفته . لا تقرأ . لا تتكلم . لم تعد الكتب الموجودة هنا تعجبك . صحيح أنك قرأت أكثر الكتب هنا . ولكن ما تزال هنا كتب تستحق القراءة . كتب قديمة ولكنها قيمة .

ثم أشار إلى جانب من المكتبة . واتجهت عينى إلى حيث أشار . ولم أشأ أن أقول له أن هذه الكتب عندى فى البيت . وأنها من أحب الكتب إلى والدى . وأننى قلبت فيها كثيرا . ولكن لم أقدر على استيعابها .. حاولت ولكن لم أستطع إنها « الفتاوى الكبرى » لابن تيمية . إذا كان من الضرورى أن أقف على مقعد لكى تصلها أصابعى ، فإن عقلى يحتاج إلى سلالم طويلة لكى يبلغها ويحيط بها . حاولت ويكفينى هذه الآن .. ومن المؤكد أننى سوف أعود إليها عندما أكبر ..

ولكن الذى لاحظه أمين المكتبة صحيح . وأنا أيضا قد لاحظت على نفسى أننى سرحان .. مأخوذ .. شىء ما يسحبنى إلى مكان ما بعيد .. ما هو هذا الشىء . لا أعرف . هل هناك ما يضايقنى ؟ هل هناك ما يشغلنى ؟ لا شىء !

لا أحد . ولكنى غير قادر على التركيز .. عقلى مثل أصابع مشدودة ممدودة .. لا تحتفظ بشىء . بل كل شىء يتساقط دون أن أجد القدرة أو الرغبة فى التشبث به .

وتعلمت أن أنظر لنفسى فى المرآة . ونظرت وتركزت عيناى على عينى . النظرة حزينة . العين سادرة .. المرارة على شفتى . الشعر قصير جدا . لأول مرة ألاحظ ذلك . وأعود مرة أخرى أنظر إلى وجهى . شىء ما أعجبنى فى نظرتى . إننى أفكر . وتذكرت كيف بهرتنى صورة الفيلسوف الألمانى هيجل . الجبهة عالية واسعة . والرأس كبير . والعينان واسعتان قد امتلأتا بالكون . والشفتان ممتلئتان . حتى الفم يبدو وكأنه هو الآخر قد امتلأ بكل ما فى الدنيا .. ولم أر بقية جسم الفيلسوف ولكن هذا الذى رأيت يكفى .. ورأيت صورة الشاعر الألمانى جيته .. وصورة للموسيقار بتهوفن .. وتداخلت كل هذه الصور .. ولا أعرف ما هو الفرق بين كل هؤلاء .. ولا ما هى القيمة الحقيقية . فأنا أعرف عن الفيلسوف ، والقليل عن الشاعر ، ولم أستمع إلا مرة واحدة للموسيقار .. وكان ذلك فى إحدى حفلات السيد هرش ووسط هذه الجالية اليهودية فى المنصورة .. ولكن هذه الوجوه الرائعة تطل من كل الصفحات .. حتى عندما نظرت إلى نفسى فى المرآة .. كنت أحاول أن أقلد أى واحد من هؤلاء .. فكنت أفتح عينى وأطبق شفتى وأبدو كما لو كنت كبير الرأس ممتلىء الفم . ولكن ليس عندى ما هو أكثر من ذلك ..

ولما قرأت ما كتبته فى مذكراتى التى اخترت لها عنوانا غريبا عجيبا ، قال لى القدر قل .. فقلت ، ولا أدرى من أين جئت بهذا العنوان ولا بهذا الحوار ولا بأن يكون الحوار على هذا المستوى الرفيع . ولو سألت نفسى فى ذلك الوقت عن معنى القدر ، ما وجدت تعريفا لذلك .

وقرأت فى المذكرات : لا أعرف أين أدير وجهى . لا أعرف أين أحدد مسار عينى . لا أعرف ما الذى أقوله لزملائى لو قابلتهم . لم يعد عندى كلام . ولا عندهم أيضا . هم يقولون وأنا لا أسمع . هم يضحكون وأنا لا أرى سببا لذلك . إذا ساروا تقدمتهم أو تخلفت عنهم . كأننى لا أريد أن تكون هناك علاقة .. أو إذا كانت علاقة ، فأنا حريص على تبديدها .. تمزيقها .. إهدارها .. لماذا ؟ كل شىء ممل : أصواتهم .. وجوههم .. الطريق ..

الناس .. الكتب .. كلامي ممل . تفكيرى ممل .. المرآة مملة .. أو الوجه الذى يطالعنى منها فيه إلحاح كثير . فقد رأيته أمس ، وأول أمس .. ولا معنى لأن أراه اليوم أو غدا .. ممل .. الدنيا مملة .. هذه الكتابة .. هذا الورق هذا القلم .. هذا الحبر ..

إذن هذا هو الذى أصابنى بصورة واضحة : إنه الملل !

عندما وجدتنى محتاجا إلى أن أغير الوجوه والطريق ومواعيد الخروج والعودة إلى البيت ، ذهبت إلى حديقة « شجرة الدر » .. اختلفت الألوان فى عينى .. أوراق الشجر صفراء .. الأوراق أكف تتسول الاهتمام بها .. الأعشاب على الأرض جافة . المقاعد ضاقت .. صغيرة تهتز عندما جلسنا عليها .. لم أجد شيئا من كل هذا الذى كنت أجده قبل ذلك .. أين اللون الأخضر وأين الأحمر والأصفر والأبيض .. وأين زرقة السماء .. وأين الفضة فى قرص القمر ..

شيء عجيب .. كأن العالم الخارجى ليست له ألوان . وأن هذه الألوان تخرج من عيوننا . فالسعيد يجعل الدنيا حوله سعيدة .. والشقى يجعلها كذلك . والذى لا يستطيع شيئا تقف الدنيا كلها فى حلقه . أو تسقط من عينيه أو تنهار من أذنيه . فالدنيا كلها تخرج منا وتتشكل وتتلون وتقرب وتبعد كما تريد .. فهذا المقعد جلست عليه وقلت وسمعت . وتخيلت . وكان يتسع لثلاثة معا .. وضاق بى وحدى .. شيء عجيب . والكتب التى كنت أجدها من نعم هذه الحياة . لم تعد من هذه الحياة ولا حتى لها حياة . وكنت أنا قلبها الذى يدق كل يوم ومنذ سنوات .. فلا أنا قلبها ولا القلب يدق .. مرض أصاب الدنيا .. شلل .. ولكنه أصاب دنياى أنا .. فالناس كما هم . والزملاء يجيئون فى نفس الموعد . ويمشون معا ويتناقشون ويضحكون . لم تتعثر دنياهم . لأنهم لم يتغيروا . إذن أنا مريض . ولزمت البيت ..

وجاءنى الزملاء يضحكون واستعدت شيئا من الانتعاش . وقال واحد منهم : هل من المعقول أن تجلس بالساعات أمام ملجأ الأطفال ثم تريد أن تكون سعيدا ؟

وكنت قد نسيت تماما أننى مررت بملجأ الأطفال . وتوقفت عنده طويلا . ورأيت السيارة تنقلهم وترميهم أمام الباب . وتتهاوى الأيدى والأرجل تدفع الأطفال إلى داخل الملجأ .

وجذبني هذا الملجأ تماما .. وظللت أياما أتردد على بابه .. وأقف عنده .. وأرقبه من بعيد . فقد تصورت يوما أن السعيد من لا أب له ولا أم .. السعيد : طفل ولد في الطريق . وألقى فيه . ثم امتدت يد رحيمة ونقلته إلى ملجأ . وكبر في الملجأ إبنا لكل الناس . قريبا منهم . فإذا خرج من الملجأ استطاع أن يختار لنفسه من يشاء من الإخوة والآباء والأمهات . لا شيء مفروض عليه . إذا تعذب فهو الذى اختار وإذا أسعدته الأيام فهو أيضا الذى اختار . وأما الذين يقومون بتربيته والعناية به فهم موظفون . الأب مدرس والأم مدرسة . وإخوته كل الأطفال اللقطاء .

إن ملجأ اللقطاء مثل « مشاتل الورد » .. فالورد ينقلون شجراته من الأرض إلى أوعية فخارية في المشتل .. في البيوت الصغيرة الزجاجية .. وينمو الورد في الوعاء الفخارى .. ثم ينقلونه إلى الحديقة .. فهو ينقل من مكان إلى مكان .. كل يوم هو في أرض .. ليس مرتبطا بأرضٍ ولا بأحد .. ويلقى العناية من الجميع .. إنه اللقيط مثل الطيور في المزارع .. ينقلونها من بيوت الفلاحين إلى حظائر الدواجن .. فالحظائر أرحم كثيرا من البيوت .. والأوعية الفخارية أكثر حنانا وحفاوة من الأرض الشاسعة .. .

ولكن لم أر السعادة على وجوه الأطفال ولم أفهم . ووجدت أنه لابد أن يدلهم أحد على هذه النعمة التي هم فيها ولا يعرفونها .. لابد أن يكون من واجب المدرسة أن تقول لهؤلاء الأطفال .. أنهم لا ينتظرون عودة الأب وشفاء الأم .. إنهم لا يدورون في الشوارع يبحثون عن الدواء .. ولا يقفون أمام الأفران يبحثون عن الخبز .. ثم إن أحدا لا يغمز ولا يلمز إذا تأخروا عن دفع الإيجار .. وعندما ينام الواحد منهم فإنه يغرق في النوم .. فلا يسمع آهة مريض ولا سعال أطفال .. ويكون هذا المريض أباه أو أمه ويكون الطفل أخاه .. إنه ليس مسئولا عن أحد .. فكل الناس مسئولون عنه .. نعمة .

ولكن لم أشهد إلا الحزن في عيون الأطفال . وأنا أحب الأطفال . أو أحب أن أكون على مقربة منهم . هل لأنني لم أجد أطفالا في بيتنا . هل إذا زارنا أطفال فالفترة قصيرة ؟ ربما .

ولابد أنني كنت سارحا تماما عندما استنكر أحد الزملاء أنني أتردد على ملجأ اللقطاء القريب ..

ثم قال زميل آخر : لقد رأيناك منذ أيام وقد وقفت توزع الملبس على الأطفال أمام باب المدرسة .. من رآك يقول أن لك أخا أو أختا .. هاها .. هاها ..

فعلا حدث . فقد ظننت أن هؤلاء الأطفال يحتاجون إلى بعض الحلويات . واشتريت. وذهبت . ولكن الأطفال خطفوا الملبس . وكانت أصابعهم مثل مناقير الدجاج تخطف حبات القمح وتجرى دون أن تبدو عليها السعادة بذلك . ليسوا سعداء . ووجوههم هى الحزن الدفين . وعيونهم دموع جافة . والمدرسون في غاية القسوة . وجوههم مجرمة . وعيونهم كرابيج لا الأطفال سعداء ولا المدرسات . ليس ملجأ . وإنما هو سجن للأطفال . وكان هؤلاء الأطفال محرومين . لابد أن يلقوا جزاءهم . مع أن الأطفال ضحية .

وتشاء الصدفة وحدها أن أزور صديقا من أغنياء المنصورة . كبيرا فى السن . أنيق الملبس . يغير ويبدل فى ملابسه وقمصانه وكرافتاته كل يوم كيف ؟ إنه كذلك .. إنه غير بقية الناس .. وفى بيته وجدت إحدى المجلات الأدبية .. وقلبت ووجدت مقالا لمصطفى صادق الرافعى عن « عربة اللقطاء » .. فقد رأى عربة تنقل اللقطاء إلى الشاطىء .. والعربة يجرها حصانان . والحصانان في حوار حول هؤلاء الأطفال المساكين . وقرأت مقارنة بين هذه العربة وعربة الكلاب .. وأنكر له وصفا لهؤلاء الأطفال فقال : إنهم أولاد الجرأة على الله . والتعدى على الناس والاستخفاف بالشرائع . والاستهزاء بالفضائل . وهم الكراهية الخارجة من الحب . والوقاحة الآتية من الخجل . والاستهتار الصادر عن الندامة .

وما أصدقه عندما قال : ابتسم الأطفال بوجوه يتيمة !

وكرهت الأستاذ الرافعى . فقد كان قاسيا . ومن أدراه أنه ليس إبناً غير شرعى ، كيف عرف أنه ابن والديه ؟ من الذى قال له ذلك .. ومن هذا الذى على يقين من أنه إبن حلال ؟ ثم ما ذنب هؤلاء الأطفال ؟ .. إنهم ضحايا .. ولكنهم بشر . مساكين . والذى ينتظرهم فى الدنيا أكثر قسوة وتعاسة من كل ذلك .. إنهم يعانون كل يوم .. إننا لم نفلح فى إلقاء القبض على المجرم فحبسنا القتيل .. وكان القتيل طفلا ولم يكن قتيلا ولكننا نتولى قتله بانتظام كل يوم !

فما الذى أحزننى ؟ ما الذى ضايقنى ما الذى أفزعنى ؟

فقط انهارت أمامى ، وانهارت بى أيضا : أفكار كثيرة كنت أقمتها فى الصمت وحدى . وهى أن أسعد الناس : اللقطاء ..

وما دام اللقطاء ليسوا سعداء ، إذن فلا سعادة فى هذه الدنيا !

وكان من بين الزملاء شاب لطيف رقيق . كان أكثرنا هدوءا . أما أبوه فهو خطيب مسجد الحسينية . وهو من أحب الناس إلى الناس . وأكثرهم فصاحة وبلاغة . وكان صوته قويا مليئا . وقلت للزميل : أريد أن أرى والدك وحدى .. ممكن !

قال : طبعا . متى ؟

قلت : اليوم ..

قال : هل نترك الزملاء ؟

فقلت : أرجوك ..

وفى الطريق سألنى : إن كان شىء قد أصاب والدتى .

فقلت : لا شىء .

قال : والدك ؟

قلت : لا شىء .

قال : إذن أنت تريد منه أن يقرأ لك سورة « يس » لتخفف عنك الألم . أو تريد أن يكتب لك حجابا ..

قلت : لا ..

قال : إذن أنا عرفت .. وكان بودى أن أنصحك .. ولكن لم أشأ أن أتدخل فى شئونك .. تريد أن تشكو له ابنة أخته ؟

قلت : مين ؟

قال : « آ .. »

ولم أكن أعرف ذلك . ولم يكن عندى سبب واحد لكى أشكوها . أو أشكو أحدا من الناس .. عندى إحساس أننى « صفيت » حسابى مع الدنيا كلها .. فليس لى حق الحياه . انتهى . لافى البيت ولافى الشارع .. وكل صور السعادة قد انهارت أمام ملجأ اللقطاء .. ثم إنه ليس هناك أحد يعنيه أمرى ، ولا يعنينى أمره ، كل الخيوط تقطعت .. والأرض تحت قدمى بئر عميقة مظلمة باردة ..

وأنا أهبط .. فلا شيء أراه ولا شيء أسمعه .. ولا أرض تحت قدمي .. ولكني أهبط .. أهبط ..

فقلت عندي مشكلة أريد أن أعرف رأيه فيها ..

قال : مشكلة الشيخ دهليز .. تريد أن تترك المدرسة وتحترف الغناء .. لا تؤاخذني إذا كنت أحاول أن أسألك .. فالطريق أمامنا طويل ..

قلت : لا ..

قال : إذن هل صحيح ما يقال من أن جمال ابن صاحب البيت يريدك أن تعمل معه في دكان الورنيش .. دكان الورنيش في شارع السكة الجديدة .. إن أقاربه يملكون هذا الدكان وهو يتردد عليه بانتظام ..

قلت : لم أكن أعرف ذلك ..

وأعتقد أنه سألني كثيرا ولكنني لم أجد ما أقوله .. ووقفت أمام البيت . وقال : في الدور الرابع .. والسلالم مظلمة وملتفة ومكسرة . ويجب أن تتساند على الجدران ..

وقد تولاني شعور غريب .. إن السلالم هي أيضا بئر مقلوبة .. إنني أصعدها دون وعي مني .. فأنا لا أصعد وإنما أنا أهبط .. ولن تمضي لحظات حتى تنقلب السلالم وتكون بئرا .. وأهبطها على رأسي .. دوخة . من المؤكد أنني دائخ وأنني الذي أدور حول نفسي .. أما الدنيا فهي على حالها ، معتدلة مستقيمة عريضة .. وتستأنف نشاطها اليومي كما هي .. ولكنني .. نعم ولكنني أنا الذي ارتبكت كل خيوطه . وتضخمت كل عقده .. وأصبحت مثل عنكبوت أفرز كل هذا النسيج ثم سقط ضحية لكل ذلك .. فأنا الذي أفرزت خيوطي وعقدها .. وتعلقت فيها مشنوقا .. وأنا الذي شنقت نفسي وأنا الذي أدنت نفسي وأنا الذي حكمت بإعدامي . منتهى الظلم !

ووجدتني أمام الشيخ محمود عبد البر أخطب خطباء المنصورة . وحده . وقد ارتدى جلبابا أبيض وطاقية بيضاء . واقترب علاء الدين إبنه وهمس في أذنه . فقال الشيخ محمود : تفضل يا إبني أهلا وسهلا .. أخرج أنت يا علاء ! خيرا يا إبني .. كيف حال الأسرة الكريمة ؟

ـ الحمد لله يا أستاذ ..

ـ وصحتك

ـ الحمد لله ..

ـ إذن خير يا إبنى !

ـ لم أعد قادرا على القراءة يا أستاذ ..

ـ استرح يا إبنى .. أنا أيضا تمر بى أيام لا أفتح كتابا . وأحاول ولكنى لا أستطيع .. العقل تعب . العين تتعب .. النفس تتسد .. قال رسول الله ﷺ : « إن لبدنك عليك حقا » ! أنا أعرف انك تقرأ كثيرا ..

ـ ولا حتى كتب المدرسة .

ـ إنها جميعا كتب .. كتب المدرسة وكتب المكتبة .. ولكن منذ متى يا ولدى ؟

ـ منذ شهور ..

ـ هل تنام جيدا ؟

ـ نعم ..

ـ وتأكل ؟

ـ نعم ..

ـ لم أعد أراك فى المسجد ..

ـ صحيح . إننى لا أذهب .

ـ لماذا ؟

ـ فالمسجد هو الآخر أصبح مثل الكتب .

ـ آه .. أنت جلست مع الشيخ دهليز . إن هذا الرجل مفسد . لقد كان خطيبا لمسجد فى دمياط . وطردوه لأنه طلب من المصلين ألا يدخلوا المسجد لأنهم جميعا كذابون منافقون . وفى يوم وقف على باب المسجد . معلنا أن الذى كذب أمس لا يدخل . وحاول منع الناس فمنعوه من الصلاة وخطبة الجمعة .. ثم طردوه ..

فقلت : ولكنه لم يخبرنا بشىء من ذلك .. إنه يغنى ونحن كنا نغنى وراءه .. ولم أعد أراه منذ شهور ..

قال إنه هو .. أنا أعرفه .. هو .. لا أحد سواه ذلك الشيطان اللعين ..

قلت : ولكنه ليس شيطانا .. إنه رجل لطيف رقيق ..

وجاءت فناجين القرفة . وطلب منى أن أشرب . وكانت القرفة ساخنة جدا . ولسعتنى وصرخت صرخة مكتومة . وضحك وقال : منذ هذه اللحظة لن تعرف طعم القرفة .. فاللسان الملسوع لا يتذوق شيئا .. فما الذى لسعك يا ولدى ؟ حتى لم يعد لشىء طعم على لسانك .. أهى « آ .. » .. أنت صغير وهى صغيرة يا ولدى .. وأفكار كما صغيرة .. والطريق أمامك طويل .. ولا تحمل على كتفيك شيئا الآن .. سوف تحمل الكثير على رأسك وقلبك .. المثل الشعبى يقول : خفها تعوم .. أى أبعد الأحمال من فوق المركب فتكون خفيفة تعوم بسهولة .. والمثل حكيم . وأنا لم أفكر فى الزواج إلا بعد أن تخرجت فى الأزهر وإلا بعد أن استقرت الدنيا تماما . ولما تزوجت اخترت واحدة تعرف بالضبط ما هى طبيعة عملى .. فزوجنى أبوها إمام مسجد سيدى شمس الدين الشربينى .. وهى كريمة من أسرة كريمة . والحمد لله ..

هل ضحك الرجل . هل أغمى عليه . هل سقط من فوق المقعد ، هل تحطم فنجان القرفة فى يده هل جاءت زوجته هل جاء كل الأولاد ؟ هل انفتحت النوافذ ورأيت كل الجيران حولى يضحكون عندما قلت له : يا أستاذ أنا أريد من حضرتك خدمة .

قال : بكل سرور يا ولدى .

قلت : أريد أن أدخل أى ملجأ للقطاء !

ووجدت نفسى أتعثر فى الشارع عائدا إلى البيت !

• • •

وفى اليوم التالى أحسست بشىء من الإرتياح . فلم يقل الشيخ محمود شيئا . ولكنه استقبلنى وحدثنى وسألنى . وحاول . أنا لم أقل شيئا فأنا لم أعرف ما هذا الذى أشكو منه .. وهو حاول . ولم يهتد إلى حل لأنه لا يعرف المشكلة .. يكفى أنه كان أبا .. أو فى لحظة كان أبا .. وإذا كان قد أضحكه الذى قلت ، فلأنه شىء مضحك . فهو لا يعرف التاريخ الطويل لهذا المعنى . ولا العناء

اليومى الذى أرزح تحته . ولكن لا أجد نفسى مضحكا . وإنما هى المفاجأة التى أضحكته . ولو جلس معى واستطعت أن أحكى له لكان أقل ضحكا . بل لعله يبكى .. كما يبكى الناس وهم يستمعون إلى خطبته فى المسجد .. إن الشيخ دهليز نفسه هو الذى لم يكف عن الضحك عندما قلت له : ولماذا لا ندخل القبر .. لنرى الملائكة كيف يحاسبوننا ؟

فقال ضاحكا : أما أنا فلن يحاسبنى أحد .. إذا جاء الملائكة فسوف أقول أنا لا أعرفكم .. أنا أعمى .. فتحوا لى عينى ثم حاسبونى .. ولو فتحوا عينى لهربت منهم هاها .. هاها .

وكنت أعجب بأفكار الشيخ دهليز . أو على الأصح كانت تعجبنى فيه أنه يوافقنى على أفكارى . وكان يقول : والله ملجأ اللقطاء أحسن من القرف الذى نعيشه مع الست شح شح .. على الأقل نغنى ونرقص على مزاجنا .. ليس بالقوة ولا بالكرباج والشخط والنطر .. تعرف أول أمس كان عندى مغص يمزقنى .. ومع ذلك كنت أغنى : إفرح ياقلبى لأم كلثوم .. وغنيت البحر بيضحك ليه وانا نازله ادلع أملا القلل .. والله حصل .. قرف .. سخرة .. يمكن لأنى أعمى محتاج لمن يجرجرنى هنا وهناك .. ولكن أنت ما الذى يجرجرك .. الدنيا واسعة أمامك .. إفعل ما بدالك .. فالملجأ للعميان فقط !

قلت : ولكنى لم أعد أرى

قال : إذهب لطبيب عيون !

قلت : ليس هذا ما أقصده

قال ضاحكا : والله هذا ما أفهمه .. إنك تحدث أعمى عن جمال الدنيا .. أو إنها لم تعد جميلة .. فكيف تنتظر رأيى .. فمن لا رؤية له لا رأى له !

معقول ولكنه ليس مريحا . وإن كان لم يرفض مثل هذه الأفكار الجنونية .. وفوجئت بالشيخ دهليز على باب بيتنا ..

وقال : قل لى أدخل ..

قلت : اتفضل أدخل ..

قال : أين غرفتك ؟

قلت : تفضل ..

قال : إقفل الباب .. أنت أعطيتنى فكرة كانت غائبة عنى تماما .. وأنا جئت

أطلب مساعدتك . بأي شكل . أنا تعبان مع زوجتي . وهي تعبانة . وهي تعبت وأنا كما تعلم . وأريد أن أطلقها . لابد . هي قد تحملت الكثير من مشاكلي . ولابد أن تكون سيدة طيبة القلب . وإلا كيف تزوجت مصيبة مثلي .. أما الخدمة التي أطلبها منك فهي أن تذهب معا إلى قريبك المحامي ..

فقلت : لماذا ؟

قال : موضوع خاص ..

وذهبنا معا ، وفاتحه الشيخ دهليز قائلا : يا صاحب السعادة .. جئت أطلب خدمة إنسانية لرجل أعمى . الله يسترك لا تفضحني . أريد أن أدخل السجن .

فضحك المحامي كثيرا . وسأله : لماذا ؟

قال : لأنني في سجن . كما ترى . ودخولي أي سجن لا يضيف لي شيئا جديدا . ولكن في داخل السجن سوف أجد حريتي . لا شغل . لا إكراه في الغناء .. لا بحث عن الطعام لا زوجة تمن عليك بالطعام والشراب والحياة معا . الله يسترك إسجني . أنا معي الآن قطعة حشيش . وأرجو أن تبعث الخادم يطلب البوليس لإلقاء القبض علي .. الله يخليك يا معالي البيه .. ربنا يكرمك كما أكرمتني . إذا لم يكن السجن .. إذن أتقدم لك بطلب آخر لي ولقريبك هذا .. أدخلنا معا ملجأ اللقطاء !

وعندما عدت إلى البيت وجدت جدتي لأمي ..

وفي ملامحها كل الذي يرهق الأعصاب .. ولابد أنها جاءت لأسباب قهرية . فأنا لا أراها كثيرا ولا أحب .. فهي طويلة عنيفة مشدودة العود .. مشدودة الوجه زرقاء العينين . تتباهى بأنها فرنسية أوربية . لم أرها جالسة قط . وإنما كانت دائما واقفة لأن الوقوف يعطيها هذا الشكل الذي يأمر وينهى ويتوعد . وقد ضربتني كثيرا . وتؤكد من حين إلى حين أنها على استعداد أن تفعل ذلك لأي سبب .. دون خجل تؤكد هذه المعاني . ودون أن تلاحظ سخريتي منها واستنكاري لهذا الذي تقوله . ولا تسمع ما يقال لها من أنني كبرت .. وأنه ليس من شأنها أن توجه لي نقدا أو توجيها .

ولم تكد تراني حتى قالت : عندك إيه يا كلب ؟!

وكل الناس عندها كلاب صغيرة وكبيرة . وهي تذلل الناس بهذه الصفة .

أما بقية الحيوانات فهى للإهانة . ولكن الكلب دليل على المودة والرقة والتلطف وفتح أبواب الكلام . فقلت : لست كلبا !

محاولا أن أقفل باب الكلام .. أو أى باب بينى وبينها . ثم قالت : اليوم تسافر معى إلى بيت جدك .. لبضعة أيام لكى تعود كلبا قويا وفى صحة جيدة وبدلا من أن تنبح جدتك فإنك تعضها وتأكل ذراعها ..

أين والدك ؟

آه .. هذا هو السكين القديم ، الذى كانت تغمده فى قلبى ويخرج داميا وتتفرج عليه لتغمده فى مكان آخر .. من أجل ذلك كرهتها .. ولم أمش فى جنازتها . ولم أترحم عليها لحظة واحدة . ومن أجل ذلك كنت آتى بالتراب وألقى به فى حلل الطبيخ .. ومن أجل ذلك حاولت إشعال النار فى ملابسها .!

• • •

وفى القرية .. اتجهت إلى بيت صديق تركنا ودخل الأزهر .. أما النور فوجهه ، وأما الهدوء فكل جسمه .. وأما الراحة والسعادة ففى كل الناس حوله . كيف استطاع ذلك ؟ كيف صار هكذا مختلفا عنا .. ثم إنه راض تمام الرضا ..

قلت له : كيف .

قال : القرآن ..

قلت : أى شىء فى القرآن ؟

قال : نحن حفظنا القرآن معا . ولكنى انشغلت به أكثر وتعلمت كيف أتوسل إلى كنوزه وكيف أنحنى عليها وأحرص .. وأصلى وأصوم وأتوب .. هذه هى السعادة الحقيقية .. واذهب إليه فى كل الأيام ..

وفى كل مرة أزداد راحة وتتفتح أمامى نوافذ الأمل .. شىء ما أضاء فى داخلى .. أضاءنى .. لا أعرف ما هو ..

وخرجنا معا . وتحت شجرة على ترعة صلينا . وأخرج من كيس كتابا . وقال سوف أقرأ لك :

وقرأ :

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إصبروا وصابروا » ..

وقال تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » .

وقال تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » .

وقال تعالى : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » .

وقال رسول الله ﷺ : الطهور : شطر الإيمان ، والحمد لله : تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله : تملآن ما بين السماوات والأرض ، والصلاة : نور والصدقة : برهان .. والصبر : ضياء ، والقرآن : حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو : فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها ..

ويقال أن الرسول عليه السلام أعطى أناسا فسألوه حتى لم يبق معه شيء . فقال لهم : ما يكن من خير ، فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله . وما أعطى أحد عطاء خيرا من الصبر .

وقال رسول الله عليه السلام : عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له .

ولما ثقل المرض على رسول الله قالت فاطمة رضى الله عنها : وأكرب أبتاه . فقال عليه السلام : ليس على أبيك كرب بعد اليوم .

فلما مات قالت فاطمة : يا أبتاه أجاب ربا دعاه . يا أبتاه جنة الفردوس مأواه . يا أبتاه إلى جبريل ننعاه .. فلما دفن قالت فاطمة رضى الله عنها : أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟

مر الرسول عليه السلام على المقابر فوجد امرأة تبكي فقال لها : إتقى الله واصبرى . فقالت : إليك عنى ، إنك لم تصب بمصيبتى .

فقيل لها : إنه النبى ﷺ .

فذهبت إلى بيت رسول الله فلم تجد عنده حراسا فقالت له : لم أعرفك . فقال الرسول إنما الصبر عند الصدمة الأولى !

سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله عن الطاعون فقال : كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع في الطاعون ، فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له ، إلا كان له مثل أجر الشهيد ..

وقال رسول الله : يقول الله عز وجل : إذا ابتليت عبدى فصبر ، عوضته الجنة ..

كان رسول الله مريضا . فقيل له : يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا . فقال : أجل إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم . فقيل له : ذلك أن لك أجرين ؟ قال الرسول : أجل ذلك كذلك . فما من مسلم يصيبه أذى شوكة مما فوقها . إلا كفر الله بها عن سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها ..

قال رسول الله : لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى .

ذهب جماعة من المسلمين إلى الرسول عليه السلام وكان جالسا إلى جوار الكعبة فقالوا : ألا تدعو لنا ؟

قال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها .. ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه . والله لن يتم هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون !

قال رسول الله : إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة .

وقال أيضا : إن عظيم الجزاء مع عظيم البلاء . وإن الله تعالى إذا أحب قوما إبتلاهم . فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ..

قال رسول الله : من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الملأ يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء ..

قال رجل للنبى ﷺ : أوصنى يا رسول الله قال له : لا تغضب .

وفى إحدى الغزوات قال الرسول عليه السلام لرجاله بعد أن غربت

الشمس : يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

ثم قال عليه السلام : اللهم يا منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، إهزمهم وانصرنا عليهم ..

كم أمضينا من الوقت .. لم أشعر بشىء من المكان أو الزمان .. وإنما كل الذى أذكره فى ذلك الوقت أن استردت الدنيا كل ألوانها .. الزرع أخضر والأشجار .. والقنوات .. وانطلقت عطور من كل شىء .. والفراشات كأنها ملائكة .. أو كأنها كلمات طائرة .. أو كأنها دعوات صالحة .. وفجأة ظهر الأطفال والأبقار والجواميس والأغنام .. وكل شىء له لون وله صوت وله حجم .. وكل أضواء الدنيا انعكست على وجه زميلى الشيخ نور الدين .. كيف قرأ .. كيف كان صوته .. كيف كان سحره .. فما الذى فعله كل ذلك بنفسى .. لقد أصبحت أخف وزنا .. أطول .. أعرض .. وجدتنى قد نشرت ذراعى ومددت ساقى .. واقتطع وأقتطف أعواد البرسيم وأضعها فى فمى .. كأننى أريد أن أعيد الدنيا كلها إلى أعماقى .. كأننى أستطيع أن أحتوى كل شىء .. وكنت قد رفضت ورفضنى كل شىء ..

نعم : لا تغضب ..

قالها رسول الله .. لا تغضب من أحد .. لا تغضب على أحد .. لا تغضب من نفسك .. لا تكن قاسيا عليها .. لا تغضب .. لا تسخط .. لا ترفض .. أمسك نفسك ، تظل الدنيا أمامك .. إذا أطلقت الغضب على نفسك ، فقدتها ، ولم تجد ما يعوضك عنها .. صدق رسول الله .. ما أعظمه ما أحكمه .. إذن لابد أن أصالح نفسى على نفسى . فهذا قدر .. وهذا قضاء وقدر . وهذا مستحيل . وهذا صعب . والطريق طويل .. ولابد من الصبر على الطريق وويلات الطريق . وأكثر ويلات الطريق : الناس !

وعندما نهض الشيخ نور الدين وهو يتساند على الشجرة قال :

قيل لرسول الله : يا رسول الله من هو أكرم الناس ؟

قال : أتقاهم .

فقالوا : ليس عن هذا نسألك !

قال : يوسف .. إنه نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله ..
قالوا : ليس عن هذا نسألك !
قال : فعن معادن الناس تسألوننى ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام ..

وقال رسول الله : إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء ! وأخيرا هذا دعاء رسول الله عليه الصلاة والسلام : اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ..

* * *

وفى بيت الشيخ نور الدين جاءت فتاة طويلة ومدت يدها فقال : زوجتى ..
قلت : مبروك . لم أكن أعرف أنك تزوجت .
قال : وعندى أولاد .. هذه أصغرهن جميعا .. إنها آخر العنقود .. تزوجت مبكرا الحمد لله . عندى ثلاثة أطفال .. هذه الرضيعة سوف تكون زوجتك . هذا أمر .. لن تجد خيرا منك !

فضحكت أنا وهو وزوجته قائلا : بل لن أجد خيراً منها !

ثم قال : إن جدتها سيدة قوية جبارة .. أنت تعرفها عاشت فى لبنان بعض الوقت . ثم فى فرنسا .. وهى التى اختارت لها اسما غريبا وحكت لنا قصة طويلة .. المهم أنها تتمنى لها أن تكون ملكة على مصر !!
فقلت : اسمها شجرة الدر ؟
قال : نعم . كيف عرفت ؟

وضحكت وقلت له : أنت لا تعرف كم عدد شجرات الدر فى حياتى إنها غابة .. وفيها كل الوحوش البشرية !



شجرة الدر الأخيرة

شجرة الدر الأخيرة

مضى وقت طويل قبل أن ينفض المولد في رأسي وفي أذني وفي عيني .. وتساقطت خطوط كثيرة كانت تربطني بالآخرين .. ووجدتني وحدي مرة أخرى .. ولكن أكثر عزلة من أي وقت .. وأخف وزنا وحركة وأميل إلى المرح دون سبب واضح . ولكن شيئا ما ثقيلا كان هنا على رأسي .. كان هناك في قدمي .. كان هناك في قلبي ..

في الصباح الباكر ذات يوم وقفت على كرسي في غرفتي لأنظر إلى الشارع .. لم أجد شارعا . إنها حارة ضيقة . وفي مواجهة البيت توجد خرابة .. وفي البيت المجاور وجدت فتاة صغيرة تنظر هي الأخرى من النافذة . وجدتها تضحك .. طبعا تعرفني وكنت أداعبها عندما كانت تحبو وفي حجم الكرة .. وكنا نتنافس في حملها إلى البيت .. إنها ألعوبة الشارع كله .. ولم أجدها كما كنت أراها قبل ذلك ..

وخرجت من البيت .. وأمام الباب نظرت يمينا وشمالا .. ثم إلى عتبة البيت .. إنها متآكلة منهارة .. وإلى مدخل البيت إنه كئيب كالح .. والسلالم سوداء قذرة .. ولم أكن قد رأيت ذلك بوضوح قبل ذلك ..

وقررت أن أتجه يسارا . وأن أمر أمام بيت « آ ... » ولا أتوقف . ولا أحاول أن أستمع إلى شيء يجيء من النافذة . فلم تعد تهمني : لا بيتها ولا صوتها ولا صورتها .. ولكن إذا كانت لا تهمني فما الذي يجعلني هكذا أبذل جهدا خارقاً على تفادي ذكراها .. ولا أرى أخاها وصديقاتها .. ولكن ما دمت أفعل ذلك ، فهي إذن ما تزال تهمني .. نعم تهمني . ولكن أقل من ذي قبل . فهل يا ترى لو رأيتها الآن .. هل تسري الكهرباء في جسمي .. وأجدني استدرت إليها وسألتها .. وانتظرت أن ترد .. أو اتجهت إليها لكي أرمقها بنظرة عتاب ثم لا أنطق بكلمة .. أو أمسك يدها وأقول لها : أنت فضحتني ..

وقبل أن ترد مستوضحة معنى ذلك أبادر بقولي : نعم أنت فضحتني في المنصورة كلها .. وأنت تعرفين السبب !

ولكن ماذا يحدث لو قالت هي : بل أنت الذي فضحتني وأنت تعرف ماذا جرى في المقهى المسخرة الذي تجلسون فيه .. أنت مالك .. لماذا تتعمد أن تسيء إلى سمعتك .. ما علاقتك بهؤلاء العاطلين الذين يغنون ويرقصون .. لماذا لا تتفرغ لدروسك .. ما الذي أصابك ؟ أين الكتب ؟ أين الفلسفة ؟ أين ما كنت تحلم به ؟ كل ذلك تبدد مع الطبلة والمزمار ؟ وأين ما كنت تقوله عن المكان المقدس الذي تحتله وانتك من حياتك ؟ وتريدني أن أصدقك بعد ذلك ؟ .. إنني لم أفضحك .. أنت كتبت خطابا وبعثت به . وقرأته صديقتي .. وهي مستودع أسراري .. وهي حكت كل ما قرأت لصديقات أخريات أقل تحفظا فانتشرت قصتنا في البلد .. ولكن لا تقلق .. فالناس يعرفون أنك خجول .. ويعرفون أنني على خلق .. ولم يحدث ما أخجل منه ولا أنت أيضا .. فأين هي الفضيحة ؟

أو قالت : إنني الآن مخطوبة فابعد عن طريقي ..

ووجدت أن الحوار في داخلي يدينني .. يتهمني .. واقتربت من بيتها . ودفعت الباب . وانفتح ودخلت . لا أعرف كيف . وكانت هي التي تفتح الباب . وقالت : أهلا .. تفضل .

ودخلت . وغابت لحظات . وعادت تقول : شكرا . أنا كنت متوقعة أنك سوف تجيء تسأل عن صحة ماما .. الحمد لله .. اليوم أحسن !

ولم أكن أعرف أن أمها مريضة . وإنما أنا قررت أن أراها . والحقيقة أنني لم أقرر . وإنما صدر قرار من جهة ما في جسمي ، فامتدت يدي إلى الباب تدفعه ..

الشيء الوحيد الذي تغير هو أنني الآن أراها بوضوح ، لم أعرفه من قبل .. لا يهم أن أصف لك البيت والصالون .. ولكن هي ..

وقد ارتكبت غلطة في أول لحظة فقلت لها : يا فاطمة ..

فقالت : الحمد لله فاطمة أحسن .. فهي التي كانت مع ماما ، لما سقطت على السلم .. فأدركتها أختي فاطمة .. وقد أصيبت بجروح بسيطة الحمد لله ..

الحمد لله .. إنها لم تنتبه إلى أننى أخطأت . والعجيب حقا أننى لا أعرف أحدا بهذا الاسم . ولكن لابد أن رغبة قوية في داخلى أوقعتنى فى هذا الخطأ لكى أضيف مشكلة تنهى هذه العلاقة ..

دعنى أصفها لك .. فلم أرها قبل اليوم بهذا الوضوح : سمراء خمرية .. متوسطة القامة .. ولكن فى تكوينها عجائب المتناقضات .. أما ابتسامتها فعريضة مضيئة .. دعوة فاخرة لكى تكون أكثر قربا .. أما عيناها . فسوداوان جميلتان لامعتان .. متألقتان قلقتان .. نجمان فى رعشة دائمة .. كأنهما حائرتان .. كأنهما لإنسان آخر غيرها .. والذى تقوله شفتاها تنكره عيناها .. والذى تعد به إبتسامتها الكريمة السخية ، ترفضه عيناها الخائفتان الرائعتان المروعتان .. شيء عجيب . كل ذلك فى وجه واحد .. ولم أكن أعرف أن فى رأسها كل هذه العمليات الحسابية المعقدة .. كل ذلك واضح فى عينيها .. ولها مشية غريبة لا أعرف كيف أصفها .. خطواتها قصيرة : عصفورة على غصن يتمايل .. أما الساقان فأنوثة كاملة .. الساقان ملفوفتان مستديرتان .. وأما حصرها فصغير .. والحزام الذى تضعه دائما ، يلفت العين إلى هذه التحفة الجميلة .. وأما ما فوق خصرها . فشيء آخر .. كأن نصفها السفلى لامرأة جميلة ، أما نصفها العلوى فلطائر كبير .. فهى إذا مشت باعدت ذراعيها عن جسمها .. كأنهما جناحان وكأنها تهم أن تطير .. ولكن نصفها السفلى يعارض ذلك .. فهى الإنسان الطائر وهى الضاحك الخائف .. وإذا هى ذهبت بعيدا ، فكأنها لا تريد ذلك ، وإذا جاءت فكأنها تريد ذلك .. حيرة أن تعرف إلى من تتحدث إذا جلست معها .. إلى هذه الدعوة .. إلى إلغاء الدعوة إلى الإنسان .. إلى الطائر إنها كثير : كائنات مختلفة فى جسم واحد .

لعنة الله على الشاعر الألمانى الذى قال عن محبوبته : كلماتها مخدات أتوسدها .. ضحكاتها شعاعات أستدفيء بها .. غضباتها عواصف فى فنجان ..

ولم أنشد من كل هذه الصفات إلا البحث عن مخدات الكلمات .. عن الراحة فى الكلمات أو بسبب الكلمات ..

قلت لها : كم من الوقت أستطيع أن أجلس هنا ؟

قالت : ما تشاء ..

قلت : عندى ما أقوله لك .. لآخر مرة ..
قالت : ولماذا آخر مرة ؟
قلت : تعرفين أننى سوف أدخل الجامعة .
قالت : كلية الآداب .
قلت : قسم الفلسفة ..
قالت : إذن أنت اخترت ما هو مناسب لك تماما ..
قلت : نعم .. هل أستطيع أن أعيد حوارا قديما بصورة أخرى ..
قالت : لا بأس ..
قلت : تعلمين أننى أحببتك ؟
ـ لم أكن أعرف ذلك !
ـ قلت لك .
ـ ليس الاعتراف بالحب دليلا عليه .. فكثيرا ما انفعل الإنسان ، فقال كلاما كثيرا ..
ـ نعم إنفعلت ، ولازلت . فعلا أحبك .
ـ والآن ؟
ـ لا أعرف .
ـ وأنا الآن مثلك تماما لا أعرف . أنا بدأت هذه العلاقة بأننى لا أعرف مشاعرى ، ولست على يقين من مشاعرك . وأنت بدأت على يقين من مشاعرك ، وانتهيت بأنك لا تعرف . إذن نحن فى ذلك سواء .. مع فارق واحد . إنك نادم على ما كان ، وأنا لست نادمة على ما لم يكن !
ـ من علمك هذه الحكمة ؟
ـ أنت الذى قلت أن المرأة تنضج أسرع من الرجل . وتدرك أوضح . ثم أنها رغم دموعها ، أكثر واقعية من الرجل الذى لا يبكى لشىء أو من شىء ..
قلت : وما الذى جعلك هكذا خائفة .. هذا الخوف الرهيب فى عينيك .. من أين جاءك كل ذلك ..
ـ ما سمعت فى أسرتى وما حدث لصديقاتى .
ـ ولكنك لست خائفة رافضة .. وإنما أنت ترغبين وترفضين فى وقت واحد .. إبتسامة تدعو ، ونظرة ترفض .. يدك فى يدى تضغط على أصابعى

وهى ترتجف .. فهى لا ترفض يدى ولكنها ترتجف بسبب ذلك .. إننى أكاد أسمعك ترتجفين .. أكاد أسمع الجذب والشد فى أفكارك .. مشيتك نفسها ..

نصفك العلوى يسحب نصفك السفلى .. والنصف السفلى يقاومه لا يبالى به .. ولكن تعايش النصفان معا .. كما تتعايش إبتسامتك العريضة ، وشكوكك الرهيبة فى عينيك .. أقول لك حاجة .. أريدك أن تتصورى سائقا ركب سيارة : وراح يدوس البنزين والفرامل فى وقت واحد . فالسيارة تحترق ، ولكن الفرامل تمنعها من التقدم شبرا واحدا .. أنت هذه السيارة .. أنت الموتور الصارخ والفرامل العنيفة .. أقول لك حاجة أخرى .. أنت مثل أهل الإسكيمو .. إنهم يبنون بيوتهم من الجليد .. وأنت تخافين أن يقترب منك أحد ، خوفا من أن تؤدى أنفاسه الحارقة وأنفاسك إلى تذويب الجليد فينهار البيت فوقك .. أقول لك حاجة أيضا : أنت مثل حيوان القنفد .. لا تريدين القنافد الأخرى أن تقترب منك حتى لا تنغرس الأشواك بعضها فى بعض .. أقول حاجة أخيرة : أنت هذا القنفد ولكنك نزعت جلدك وارتديت هذا الجلد بالمقلوب .. فالملمس الخارجى ناعم مثل إبتسامتك ، ولكن الشوك مثل نظراتك قد إنغرس فى لحمك فأنت ترتجفين فى صمت .. أنظرى إلى عينيك فى المرآة ..

قالت : يعنى ماذا ؟

قلت : يعنى أنك معذبة ولذلك لا يضايقك أن تعذبى الآخرين .. بل أنت تتعمدين تعذيب الآخرين ..

قالت : أنت مثلا ؟

قلت : خطيبك اليوم وزوجك غدا وأولادك بعد غد ..

قالت : أشكرك على هذه النصيحة سوف أحرص على إسعادهم جميعا ، والاكتفاء بعذابى لنفسى ..

قلت : لا أستبعد ذلك .. فأنت سوف تقومين بنفس الدور ، ولكن على نحو آخر .. سوف تكونين الشجرة التى تحرقها الشمس .. ولكنها سوف تحمل هذا العذاب ما دام الجميع ينعمون بظلها الوارف ..

قالت : هذا صحيح .. ولكنك لم تكن تصلح أن تكون زوجا .

قلت : ولماذا ؟

قالت : أنا لا أحب الرجل الذى يتفانى فى غيره من الناس وينسى نفسه ..

لا تغضب منى .. إننى رأيتك قد تعذبت تماما فى حبك لأمك .. هذا خلق عظيم .. ولكن لا أحب الرجل الذى ينسى نفسه .. ولا أحب الرجل المتواضع .. أحب الرجل المتكبر .. أحب المغرور .. فأنت أشهر تلميذ فى المدرسة .. وأول كل الشهادات .. ولكن عندما التقيت بك كنت أستوضحك إذا كان هذا صحيحا . فكنت تقول : إنه صحيح .. ولكن صوتك وطريقتك وأنت تقول ذلك : كأنك تعتذر عنه .. لا أحب ذلك .. ولا تغضب منى ولا أحب الرجل الخجول .. أحب الجرىء .. الذى يفعل أى شىء ، وبعد ذلك يفكر فيما حدث .. أن يعتذر عنه .. أو لا يعتذر مطلقا ..

قلت : هل تعرفين أننى لم أكن أعرف أن شيئا قد أصاب والدتك . لقد قررت أن أراك . ولهذا جئت .

قالت : أحب هذا ..

قلت : ولم يخطر على بالى أن أناقشك ولا أن أسألك عن الحب .. كل ذلك خطر ببالى الآن .. وإنما جئت أسترجع كتبى .. عشرون كتابا . أريدها الآن فورا قبل سفرى إلى القاهرة .. وأرجو أن تكون نظيفة كما كانت .. ألا ترين أننى مختلف تماما .. أننى شخص آخر غير الذى عرفت من قبل . هل أشكرك .. هل أشكر الشيخ دهليز .. هل أشكر نور الدين .. هل أبوس قدمى ويدى والدى الذى جاءنى منه خطاب طويل يهنئنى بنجاحى ويتمنى مزيدا من النجاح ويدعونى أن أسافر إلى القاهرة وحدى بعض الوقت قبل أن تلحق بى والدتى وإخوتى .. تغيرت الدنيا فجأة .. حتى أنت تغيرت فى عينى ..

قالت : أنا تغيرت .. هل ترانى قبيحة .. هل خاب أملك .. هل كان يعنيك أن نبقى معا .. وأن نتزوج فيما بعد .. أرجوك تقول لى : كيف أبدو الآن .. وكيف كنت أبدو قبل ذلك .. هل تعرف أنك لم تقل كلمة واحدة .. إننى كنت ألاحظ أن عينيك تركزان مرة على شفتى ومرة على عينى ومرة أصابعى .. ومرة أجدك تتابعنى بنظراتك عندما أتركك .. وكنت أتمنى أن أسمع منك كلمة واحدة عن هذه الإحساسات .. ولكنك لم تقل كلمة .. ويوم قلت لى : أن صوتى كله أنوثة وأن نبرات صوتى أصابع ورموش .. كلها تداعبك وتدغدغك وتثيرك وتحرك مواجعك ، لم أنم تلك الليلة .. فلم أسمع كلاما أعمق وأجمل وأصدق وأقوى من هذه المعانى . وتوقعت منك أن تقول شعرا .. ولكنك لم تفعل ..

ما الذى صدك ؟ ما الذى أسكتك ؟ ما الذى صدمك ؟ إذن حدث شيء ما جعل صورتى تتغير وتتبدل فى عينيك .. ماذا حدث قل لى .. لآخر مرة !

ولم أجد ما أقوله .. ولكن تنقلت عيناى بين السجاجيد التى بدت متعفنة .. وحذائها القديم .. الذى خلعته وهى جالسة معى .. فظهر قدماها وأظافرها .. وتراب أو طين هنا وهناك .. ورأيت ذيل فستانها قد خرجت منه خيوط .. ثم إنها لا تستطيع أن تضع ساقا على ساق .. فساقاها ممتلئتان جدا .. وهززت كتفى عندما لاحظت أنها بسرعة قد مسحت دمعة من عينيها .. ورأيت أن وجهها جميل .. وشفتيها جميلتان وعينيها أيضا .. وعنقها مستدير ممدود .. وأذنيها صغيرتان .. وذراعيها متناسقتان .. وخصرها صغير .. ولكن فى استطاعتها أن تضع ساقا على ساق .. فالبالطو هو الذى جعل ساقيها تبدوان كما رأيت .. ثم إن حذاءها ليس قديما .. إن لونه بنى .. وقدميها ورديتان .. فلاتراب ولا طين .. وهذه البقع فى السجاجيد ليست إلا ورودا داكنة .. ونهضت تأتى بالكتب ورأيت الكائن الخرافى الذى نصفه إنسان ونصفه طائر .. وجاءت وقد أسندت الكتب إلى صدرها .. إلى حيث تمنيت يوما أن أجد رأسى .. أن أجد نفسى .. أن أجد حياتى كلها . وكنت صغيرا لا أعرف . ولا أفهم . أصغر منها كثيراً .. فهى أكثر ولمعية وأبرع فى الحساب وأنكى .. فشكرا على أنها أقفلت الباب والنوافذ والطريق فى وجه الحب الرومانسى الساذج ..

ومددت يدى . وحملت الكتب .. وهززت رأسى خارجا . فقالت : ولا كلمة .

قلت : شكرا .

قالت : هذا كل ما عندك .

قلت : أشوفك بخير فى مصر ..

قالت : وإذا كنت أريد أن أراك ؟

قلت : تعالى ..

قالت : سوف أفعل ..

وانشغلت طول الطريق إلى البيت بأننى قلت لها : تعالى .. ولم أحدد لها أين تجىء .. فى شجرة الدر .. أمام المكتبة .. فى بيتنا .. فى مصر ..

وأحسست أننى أخف وزنا .. وأننى استطعت أن أسكت أصواتا كثيرة فى أعماقى .. انتهى .. أو يجب أن ينتهى هذا .. الحب .. أو ما توهمت أنه الحب ..

وعرفت فيما بعد أن الكلمة التى قالها صديقى جمال .. وهو يصف حالتى النفسية والجسمية قد جاءت فى التوراة .. فى سفر « نشيد الانشاد » .. قال لى : أنت مريض حباً !

فعلا مريض . ومرضى لا أعرف مكانه . إنها صاعقة أخذتنى . إنها عاصفة صدمتنى . إنها أمواج صفعتنى .. ولكن أنا الذى لا خبرة لى بالسباحة ، نزلت المحيط ووضعت رأسى تحته .. وهى التى تعرف السباحة ، كانت حريصة على أن يظل رأسها فوق الماء ..

هل هى جميلة حقا ؟ نعم . هل ساحرة حقا ؟ نعم . هل مشغول بها ؟ نعم .. غارق .. هل أنا مهموم القلب موجوع الخطوات ؟ نعم .. هل هى تدرى ؟ نعم .. هل يهمها الأمر ؟ يهمها ولكنها لا تريد .. أو تريد ولكنها تخاف . لأنها سيئة الظن . وهى سيئة الظن لأنها لا تثق فى أحد . وهى لا تثق فى أحد لأنها لا تريد أن تجرب . لا تريد أن تكون طرفا فى قضية . فى مشكلة .. ولذلك قطعت ذراعيها حتى لا تصافح ولا تعانق .. اعتمدت على إبتسامتها لتقوم بتزوير كل هذه المشاعر .. فإذا نظرت إلى إبتسامتها وإلى عينيها معا ، كانت الدوخة من نصيبك .. فإذا دخت هربت منك .. لأنها لا تريد أن تشاركك أو يشاركها أحد .

وعندما جاءت إلى بيتنا لزيارة أمى .. دخلت غرفتى . وطلبت إليها أن تجلس على مقعدى . وأجلس أنا على المكتب . وقلت : لا أعرف أين رأيت هذه الصورة .

قالت : أية صورة ..

قلت : أن أجلس هنا وتجلسين أنت هناك .. فكرت فيك أمس .. وفى خطيبك وضبطت نفسى شامتا فيكما ..

قالت : تشمت فينا . لماذا ؟

قلت : سوف تكونان معا أتعس زوجين . أقول لك لماذا ؟ أنت جميلة جدا ..

وهو غنى جدا .. نموذجان للتعاسة وسوء الاختيار .. فكل امرأة جميلة محرومة من حب الناس .. فالناس يقتربون منها لجمالها .. لا لشخصها أو أفكارها .. أو إنسانيتها .. وكل رجل غنى محروم من الأصدقاء .. فالناس يقتربون منه لفلوسه .. فهو محروم من الصديق الذى يريده لشخصه .. وهو لن يصدقك .. فأنت أيضا تريدينه لفلوسه .. وأنت لن تصدقيه فهو اختارك لجمالك .. لبشرتك .. لا بتسامتك لعينيك . لهذا الذى يراه كل الناس .. فقد خطبك قبل أن يعرفك .. ووافقت قبل أن تعرفيه . فالتقى الكذب فى لحظة واحدة .. وغدا فى فراش واحد ..

وكلام آخر قلته .. وردت هى عليه .. فهل كنت صادقا فيما أقول .. هل أردت أن أفرش طريقها بالشوك .. هل أردت أن أوجعها كما أوجعتنى .. هل أنا حاقد عليها .. عليهما .. إنتهى ما قالت .. ولم يبق إلا كلمات وعناق وقبلات للأصدقاء .

• • •

ومضى وقت طويل .. وكل شىء يمضى ببطء .. فقد لزمت البيت والفراش؛ وغرفتى وأفكارى .. ألملم نفسى وكتبى لكى أنسحب من المنصورة .. من الطفولة والشباب .. والحيرة والدوخة والسذاجة .. وأتجه إلى المدينة الكبرى القاهرة .. وأجدنى أزرر القميص والبنطلون والجاكت كأننى أواجه عاصفة .. فأنا أختصر فى حركاتى .. وفى كلماتى .. وأختصر فى الكتب والملابس التى سآخذها معى إلى القاهرة .. وكأننى أريد أن أتسلل من المنصورة ، حتى لا يرانى أحد .. كأننى ارتكبت جريمة .. وأخشى أن أدور حولها فيضبطنى الناس .. أو كأنى أكره أن أبدو خائفا .. أو أن يرى أحد ترددى .. أو أن تكتشف هى « أننى مريض حبا » ..

وقد اتسمت كل حركاتى بالتطرف .. فأنا أندفع خارجا وداخلا .. أندفع إلى الرفض وأندفع إلى القبول .. خوفا من أن أتردد .. وبعد أن كنت قد قررت أن أسافر فى أقرب وقت ، قررت البقاء وقتا أطول . ما الذى أفعله بهذا الوقت ؟ لا شىء .

وأمام البيت نظرت فى كل الاتجاهات كأننى أبحث عن وجهة . ثم اندفعت .

وكانت الدنيا مظلمة والشوارع ضيقة . والأرض قد بللها الماء والوحل . وتعثرت وسقطت أمام بيتها . وتساندت على الباب . فأحدثت صوتا . وسارعت حتى لا تتصور أنني تعمدت ذلك إثارة لاهتمامها أو لشفقتها .. ووصلت شارع السكة الجديدة .. واتجهت إلى شارع صغير .. ثم إلى الشارع الكبير .. وعند النهاية يوجد مقهى .. واتجهت إلى المكان الذى أعرفه .. إلى ما وراء المقهى . مفاجأة .

لقد وجدت الزملاء . والشيخ دهليز .. وأعجب من كل ذلك : زميلى الشيخ نور الدين .. وابن ناظر المدرسة ومدرس الألعاب الرياضية ..

ونادانى الشيخ دهليز : تعالى يا سيدى .. تعال .. يا خيبة الأمل بدرى يا حبيبى .. تعالى إلى جوار عمك الذى هو الخيبة الكبرى .. يا عدلية .. يا بنت يا عدلية .. تعالى ..

وجاءت عدلية .. إنها راقصة صغيرة .. ريفية جميلة الوجه .. قصيرة القامة ..

ونادى الشيخ دهليز : يا نور .. تعالى يا حبيبى ..

نور الدين ؟ .. الشيخ نور الدين هنا ؟ .. رجل التقى والورع فى هذا المكان .. وسوف يغنى .. لقد ارتبكت أشياء كثيرة فى رأسى ..

وجلست ساهما غائبا . ولكن الشيخ دهليز بحيويته وخفة دمه .. وملابسه الواسعة المتنافرة الألوان .. يخرج من جيبه زجاجة يشرب منها الذى لا أعرف بالضبط . وراح يزعق ويقول : إيه يا سى نور ماذا تريد أن أغنى .. أنا أقول لك .. تحب أغنى لك روحى وروحك .. آه .. وهو كذلك ..

قال الشيخ دهليز وظهرت الطبول والناى والعود فى أيدى أناس جاءوا من داخل المقهى ..

وفجأة وجدتهم معا يقولون :

قل لى يابتاع الفلسفة : سفه
بذمتك ده وش ولا قفا .. قفا
قل لى يا بتاع الجغرافية ..
بذمتك ده شعر ولا قافية ..

وكان الشيخ نور الدين أعلاهم صوتا .. واندمجت أنا أيضا .. ورحت أقول وأقول ..

وتغيرت المقاعد والدكك تحتنا .. فهى قديمة مكسرة .. ثم هبطنا .. وجلسنا على الحصير .. على الأرض .. وأغلقوا علينا الباب ..

وارتفع صوت الشيخ نور الدين يقول فى هدوء ووقار :

روحى وروحك مضموتان فى جسد
يا من رأى جسدا قد ضم جسدين
ويا محرك عينيه ليقتلنى
إنى أخاف عليك العين .. من عينى !
أخاف عليك العين .. أخاف
من عينى .. آه من عينى !

وكان صوت الشيخ نور الدين جميلا محترما .. فهو إذن رجل يحب الشعر ويحب الطرب . ولا يشترك فيما هو أكثر من ذلك ..

وكأنه عرف ما الذى أريد أن أقوله فقال : إننى أعرف الشيخ دهليز من وقت طويل . ولولاه ما اجتزت المصائب التى مررت بها .. صحيح أنه هو شخصيا عنده مصائب ولا يعرف كيف يخلص منها .. ولكننا نساعده بكل ما يحتاج إليه من فلوس وطعام وملابس .. إنه شخصية فريدة .. ليس له مثيل ..

وارتفع صوت الشيخ دهليز : دعونى أغنى أنا .. تحب ماذا يا شيخ نور الدين .. يا من كله نور لا أراه ، ودين لا أعرفه .. هاها .. هاها .. أيوه يا سيدى .. تعالى يا حبيبتى هنا يا عدلية .. التموين .. القزازة .. لم تعد بها قطرة .. ياواد زهيرى .. القزازة ... يا واد .. أغنى يا سيدى .. هذه الأغنيات توجع القلب والله .. الشاعر يريد أن يقول للمحبوبة .. إنها تركت أثرا ساحرا فى أربعة مواضع من جسمه .. لن أقول لكم .. عرفوها انتم .. يا الله يا سيدى سمعنى الطبلة .. آه سمعنى الرق .. آه .. اسحرنى بالناى .. آه .. تطلطنى على العود .. آه يا سيدى .. تعال انت يا قيس .. (يقصدنى) هنا .. إلى جوارى .. إسمع وإتعلم .. إسمع عمك الشيخ دهليز طيب الله ثراه ..

وفى أربع منى خلت منك أربع معناها : فى أربعة أماكن منى أنا ، وجدت حاجات حلوة فيها هى ..

وفى أربع مني حلت منك أربع
فما أنا أدرى أيها هاج لى كربى
أوجهك فى عينى ؟ أم الريق فى فمى ؟
أم النطق فى سمعى أم الحب فى قلبى .

ويصرخ : وفى أربع مني .. آه .. وأربع منك آه .. أوجهك ؟ ..آه .. أريقك ؟ آه .. أصوتك آه .. أحبك آه .. خليك معايا .. إسمع .. يا سيدى ..

إخلع ببغداد العذارا
آه يعنى إكشف وجهك .. خليك على راحتك .. آه
إخلع ببغداد العذارا
ودع التنسك والوقارا
إخلع ..
فلقد بليت بعصبة
ما أن يرون العار عارا
آه ..
لا مسلمين ولا يهود ..
ولا مجوس ولا نصارى !
إخلع ..

آه .. تعالى عندى هنا .. وسمعنى الدربكة على الآخر .. تعالى بالقوى .. اوجع .. أقتل .. إنبح .. معايا يا شيخ نور .. معايا والنبى ساعدنى على بلوتى .. قول يا حبيبى قول .. الله يكرمك .. قول خليك معايا .. سيبك من العيال دول .. بكره يديهم الزمن بالجزمة .. يمكن بعدما تخلص الجزم كلها ، بكره يديهم الزمن بالبرطوشة .. تعال لى .. قول يا حبيبى

إن الزمان زمان « سو ... »
وجميع هذا الخلق بو ..
أى زمان سوء .. والخلق بؤس ..

إن الزمان زمان سو
وجميع هذا الخلق بو
وإذا سألتهم ندى .
فجوابهم عن ذاك هو ..
لو يملكون الضوء بخلا
لم يكن للخلق ضو ..
ذهب الكرام بأسرهم ..
وبقى لنا : ليت ولو

آه يا سيدى آه .. يا ميلة بختك يا دهليز .. بين السوء والبؤس والضوء والهو ..

ووجدت الشيخ نور الدين يتمايل فى نشوة .. ولكنه لم يفعل أكثر من الوقوف والاهتزاز ثم راح يعيد كل أغانى الشيخ دهليز مع شرح للمقامات الموسيقية . وشرح لهذه الأبيات .. ورفض كل الأغنيات الهلس التى كان فى نية الشيخ دهليز أن يغنيها مع الراقصة الصغيرة فى تلك الليلة ..

مفاجأة أخرى لقد وجدت إبن ناظر المدرسة . إنه أطيب مما تصورت . وأكثر أدبا وأكثر انسجاما . وهمس فى أذنى قائلا : والدى يريدنى أن أدخل كلية الهندسة .. ابدا وحياتك .. سوف أتعلم الموسيقى والطرب .. أبى غنى وأمى غنية وأنا أبحث نفسى عن الوظيفة لماذا ؟ وقد اتفقت مع والدى على ذلك .. والدتى تركت والدى وتزوجت رجلا آخر .. وهى لا تحب أبى .. تشرب ؟

قلت : أشرب ماذا ؟

قال مشيرا إلى الزجاجة فى يد الشيخ دهليز قلت : لا . أشكرك .. لا أشرب

قال : إلى متى ؟

قلت : لا أشرب .

قال مخمورا : حدادا على « آ .. » .. لقد رأيتها من يومين فى فرح .. حزموها ورقصت أحسن من العوالم .. وأنت حزين عليها .. يا خويا .. سيبك !

قلت : كل البنات ترقص .. طبيعى !

وقد ضايقنى ذلك . واقتربت من الشيخ دهليز أكثر .. وهمست فى أذنه : أريد أن أسمعك يا شيخ دهليز .

قال : الحمد لله على السلامة .. أين كنت .. لا أسكت الله لك صوتا .. تعال جنب عمك .. تعال يا روح قلبى .. يا حزين الدهر .. آه .. ثانى يا نور الدين من الأول ..



اللهم احمني من فولتير

اللهم احمنى من فولتير

كالأطفال الصغار ، إذا عرفنا اسما جديدا أو تعبيرا غريبا ، فإننا نكرره بمناسبة ومن غير مناسبة ..

لا أعرف متى وقعت عينى على اسم فولتير .. فقد كنت أسرف فى استخدامه حتى أننى فى مناقشة مع والدتى قلت لها : أنت مثل فولتير !

ولم تفهم طبعا ولم أكن أحسنَ حالا منها ..

وكنت أقصد أنه لا يعجبها العجب ولا الصيام فى رجب .. وأن كل من يفعل ذلك فهو مثل الفيلسوف الفرنسى فولتير !

وفى يوم كنا فى زيارة أحد زملائنا فى المدرسة . إنه تلميذ مجتهد . وكان أكثرنا تفوقا فى اللغة الفرنسية . فأمه فرنسية . وفى بيته كل ما ليس فى بيتنا ، أو فى بيت أى أحد أعرفه من أقاربى ، أغنياء أو متوسطى الحال مثلنا . فالبيت له شكل غريب . وله رائحةٌ غريبة لا أعرفُ من أى شيء تتكون . ولا أذكر أننى شممت لها مثيلا .. ثم إن البيت هادىء جدا إلا من أصوات العصافير فى الأقفاص ، صفراء وحمراء ..

باب الشقة مغلق تماما . لا هو مفتوح ولا هو موارب ، كما هى عادة البيوت التى بها أطفال أو التى ليس بها خدم يفتحون الباب ويغلقونه . وزجاج الباب ملون . والشقة ليست مفتوحة النوافذ . وإنما مغلقة وعليها ستائر . ودرجة الحرارة منخفضة .. كأنك تجلس فى ظل شجرة . والشجرة تتساقط منها زهور . والزهور تحملها إليك طيور . والطيور تفتح بمناقيرها عينيك وشفتيك وأنفك لتتذوق معنى غريبا عجيبا للحياة . أما أثاث الشقة فلا أعرف كيف أصفه . ولكنه مختلف تماما عن أى بيت . ولم نجلس إلى جوار الباب .. وإنما فى غرفة بعيدة عن الباب . الغرفة رطبة . وفى جوانبها الورود . شيء

عجيب . وجاءت خادمة بسرعة . الخادمة نظيفة الملابس . ظننتها أول الأمر أخت هذا الزميل .. جاءت بالشاي . والشاى مغطى : البراد .. والحلوى أيضا . وقبل أن تمتد أيدينا إلى الشاى أو الحلوى ظهرت والدة الزميل . طويلة شقراء زرقاء العينين ذهبية الشعر . مدت يدها . صافحتها . لغتها العربية مكسرة . إنها فرنسية . وسألتنى عن أحوالى . ولا أعرف بالضبط ماذا قلت . وقالت إنها تعرفنى من إبنها . وكان إبنها يروى لها كل ما يحدث فى الفصل وفى المدرسة .

ثم قالت :ألم يقل لك ، وجيه ، إبنى أن تجىء فى عيد ميلاده ..

قلت : آه .. نسيت .

قالت : بلهجة الأم المنضبطة : لا تقل نسيت .. قل آسف كانت ماما مريضة .. كان بابا عائدا من السفر .. أو تأخرت عن الموعد . فانكسفت أجىء متأخرا .

قلت : حاضر ..

قالت : لا تقل حاضر .. أنت مش خدام .. أنت مثل وجيه إبنى تماما .. وإنما أحسن أن تقول : متأسف .. أرجوك أن تقبلى عذرى .. كان من الواجب أن أبعث بخطاب اعتذار أو بإرسال وردة أو تقول : كان فى نيتى أن أجىء فى اليوم التالى .. ولكن ..

قلت : حاضر ..

قالت : يبدو أنك خجول جدا ..

قال وجيه : جدا يا ماما .. وعنده اعتقاد أن أى شىء سوف يعطله عن القراءة .. وأن أى بنت تكلمه فى الشارع سوف تعطله عن المذاكرة ..

قالت الأم : تفضل يا إبنى .. ضع الفوطة على رجلك .. اتفضل الشاى .. أو اتفضل الكيك .. سوف أترككما معا لتكونا على راحتكما تماما ..

ثم عادت تقول : إبنى غلباوى .. إنه فولتير الأسرة .. قصير ونحيف ودماغه كبير ولسانه طويل !

وأضفت صفة أخرى إلى معلوماتى عن فولتير هذا : إنه قصير القامة نحيف كبير الرأس طويل اللسان !

وظل اسم فولتير في رأسي ولكن لا أعرف كيف أجمع أية معلومات عنه .. وفي ذلك الوقت من أوائل الأربعينات لم أكن قد رأيت قاموسا أو سمعت عن دائرة معارف ..

وفي إحدى حصص الفلسفة ذكر لنا المدرس واسمه مصطفى خالد متوسط القامة أسمر ، له جبهة عريضة منحنية عبارة واحدة غريبة التكوين لم أستوعب معناها في ذلك الوقت . العبارة تقول : حتى إذا اختلفت معك في الرأى . فسوف أموت دفاعا عن حريتك في التعبير عنه !

وقال إنها للفيلسوف الفرنسى فولتير الذى مهد بأفكاره الجبارة إلى الثورة الفرنسية .. هدم كل الخرافات السياسية والدينية .. وهيأ المسرح في باريس لقيام ثورة ضد الأسرة المالكة الفاسدة ..

وفي حصة التاريخ تحدث المدرس عن الذين مهدوا للثورة الفرنسية فأضاف اسم جان جاك روسو الذى توفى مع فولتير في سنة ١٧٧٨ .

وفي مجلة « الرسالة » قرأت مقالا عن فولتير بقلم زميل لنا يكبرنا في السن اسمه عبد العزيز العجيزى .. كنت أعجب به جدا ، وأراه نموذجا لكل ما في هذه الدنيا : أناقة وثراء ولغة فرنسية عالية ولغة عربية متينة . ثم إنه ينشر مقالات بقلمه في مجلة الرسالة !

ولكنه في الفصل ليس متفوقا .. بل هو دائم الرسوب .. ولم أفهم في ذلك الوقت لماذا ؟ وكنت أحب الجلوس إليه .. وأندهش كيف تتجمع لديه كل هذه المعلومات في الأدب والتاريخ وإن كان زميلي وصديقي خالد حسونة ، هو أكثرنا دراية بالتاريخ وأوسعنا اطلاعا على مذكرات المؤرخين ..

وفجأة ابتعدت عن العجيزى هذا . فقد سمعت أنه يشتم أمه .. وقد يكون هذا الخبر غير صحيح . ولكن ذهبت إلى أبعد من ذلك في خيالى .. فكنت أروى عنه قصصا من اختراعي وأقول إنه يشتمها ويضربها أمام الناس .. وإنه .. وإنه .. كأننى أردت أن أقطع كل صلة بيني وبينه .. وأبرر ذلك لنفسي .. فأنا لا أتصور أن أحدا يشتم أمه ، هذا شيء فظيع .. وكأن العجيزى هذا قد مات في نظرى ودفنته .. أو كأننى أنا الذى قتلته وسرت في جنازته ودفنته ورفضت أن يترحم عليه أحد !!

ورغم حرصى على أن أعرف أي شيء عن هذا الفولتير ، فإننى لم أطق أن أنظر إلى المقال الذى كتبه عبد العزيز العجيزى .. ولكن رغبتى فى أن أعرف انتصرت فى النهاية .. ففتحت المجلة على المقال .. وتجمعت لدى معلومات كثيرة عن هذا الفيلسوف الفرنسى .. وعرفت عددا من مسرحياته ورواياته ودراساته الفلسفية ومعاركه وصداقاته مع الملوك والأمراء ..

ولم أفهم فى ذلك الوقت ما هو الغرض من دراسة العظماء .. هل نتخذهم نموذجا للتفكير - أى مفكر مثلهم ؟ هل نتخذهم نموذجا للسلوك - أى نعيش مثلهم ؟

فالمعلومات التى نجمعها ونحن تلامذة لها هدف واضح : أن نعيدها فى الامتحان لكى ننجح .. هذه هى الدراسة وهذا هو الهدف . وفى هذا المجال يكون التفوق - فى جمع المعلومات . وتنظيمها والاحتفاظ بها .. ثم نسيانها بعد ذلك ..

ولم يعلمنا أحد : أن الدراسة ضرورية حيوية . وأن الاحتفاظ بالمعلومات سوف ينفعنا فيما بعد .. فى حياتنا الأدبية أو الدراسية أو العلمية .. ولكى تبقى هذه المعلومات فى مكانها من العقل ، يجب أن نحصلها بمتعة .. بلذة .. وأن تكون هناك صداقة بيننا وبين الكتب وبين المؤلفين .. ولكن الذى يفسد علينا هذه المتعة : الخوف .. الخوف من الامتحان .. والخوف أن نكون قد نسينا شيئا . مع أن النسيان ضرورى . أى سوف ننسى المعلومات التى لا فائدة منها ، وسوف ننسى المعلومات التى جمعناها ونحن متعبون مرهقون .. تماما كما تتساقط الأشياء من أصابعنا المكدودة .. ولن يحتفظ العقل بكل الذى عرف ورأى .. سوف ينسى أشياء كثيرة ، لتحل محلها معلومات وذكريات جديدة . وإن كان العقل لا ينسى بل وسوف يظل عند حاجتنا إليه ..سوف يبقى كل شيء فى مكانه . الذى حدث فى الطفولة سوف يبقى تحت الأمر لحين استدعائه فى أى وقت .. بل إن ما يحدث للجنين فى بطن أمه يبقى أيضا فى الذاكرة . فلا شيء يضيع !

ومن النادر فى ذلك الوقت أن نفتح كتابا كنا قد أغلقناه .. فالكتب تتمزق أوراقها من المذاكرة الطويلة ولذلك يجب إهمالها ونسيانها ..

أما الكتب التى تبقى ، فهى التى ليست مقررة علينا .. أى التى نشتريها لنقرأها أثناء الاجازة . فنحن نقرؤها لأننا نريد ذلك . وإذا قرأنا فبكامل حريتنا وبلذة .. ونرى فى هذه القراءة تأكيدا للذات وتنمية للشخصية .. وفرصة لأن أتباهى بذلك بين زملائى الذين يقرأون في موضوعات مختلفة . وكان من عادتنا أن يعرض ويستعرض كل واحد منا الذى قرأه . وما المعنى وما الهدف وما الفائدة وما رأيه هو ..

وفى « المكتبة الفاروقية » بالمنصورة وجدت عددا من مجلة « الرسالة » وفيه مقال للأب أنستاس مارى الكرملى يقارن بين طه حسين وفولتير . وكان طه حسين هو الاسم الجديد الذى لم أكن أعرفه .. فكان لابد أن أعرف شيئا عن طه حسين هذا ؟ وبسرعة قيل إنه أزهرى أعمى وتعلم فى فرنسا وعاد أستاذا فى الجامعة يدرس الأدب العربى وهو ضد رجال الدين ، وقيل ضد الدين أيضا ولم أفهم كل هذه العبارات : كيف يكون أى أحد ضد الدين ؟ يعنى ماذا يقول وماذا يفعل ؟ ولماذا ؟ فلم يكن « الدين » قضية فكرية أو وجدانية عندى فى ذلك الوقت .. فالذى أعرفه من دينى قليل .. فيما عدا أننى حفظت القرآن الكريم ، ولكن لم أفهم الكثير من معانيه أو فلسفته ..أما الأستاذ العقاد فقد قرأت له .. ومعلوماتى عن مقالاته لا بأس بها .. ولكن هو الآخر لا أعرف ممن جاء وما الذى تعلمه وما الذى جعله هكذا واسع الأفق والثقافة قوى الحجة ؟ وكيف يكون لى شىء من ذلك ؟

ولم أفهم جيدا مقال الأب الكرملى . ولا كيف يكون أبا وأديبا أو ناقدا فلسفيا هكذا ؟ لا أعرف . أما المقارنة فهى أن فولتير وطه حسين يهاجمان رجال الدين . ويريان أن رجال الدين قد أفسدوا حياة الناس فى كل العصور . وأن مصائب الدنيا كلها بسبب الخلافات بيْن علماء الدين . يقول فولتير : إن الصراعات الدينية قد هدمت من الكرة الأرضية أضعاف ما هدمته الزلازل والبراكين !

وأهم ما فى المقال صورتان : فولتير وطه حسين بالطربوش والمنظار الأسود .. أما فولتير فعلى وجهه ابتسامة ساخرة . نحيف طويل الأنف ضئيل الحجم جبهته عالية . وطه حسين أيضا له ابتسامة ساخرة . وملامحه حادة .

وفى المقال - وأنا أنقل من مذكراتى المتواضعة من سنة ١٩٤١ ويقول

الفيلسوف الفرنسي فولتير : يجب أن تفكر أنت .. فكر لنفسك .. يجب أن تتشكك في كل ما يقال لك .. إذا أنا أخطأت فلأنني حاولت أن أعرف ، إذا عرفت فإنني أخطيء ، لأن الذي عرفته قليل جدا ، والذي لا أعرفه كثير جدا ولأن عقلي صغير ووقتي قصير .. ولكن لا يهم ما الذي فهمت وكيف أخطأت المهم أنني حاولت وسوف أمضي في المحاولة .. وخير لي أن يشنقوني لأنني حاولت فأخطأت من أن يتوجوني لأنني ما طلت وكذبت وانخدعت وخدعت !!

ولا أظن أنني أحطت بكل هذه المعاني الخطيرة التي جاءت بهذه العبارة .. ولكني نقلتها إعجابا بها .. وإن لم يخطر على بالي ، أنني سوف أعاود قراءتها والتفكير في معانيها .

وفي منكراتي عبارات كثيرة وأبيات من الشعر أعجبتني في ذلك الوقت .. ونقلتها وحفظتها ونسيتها أيضا . ولكنها تدل على ما الذي كان يهمني أو يشغلني .

ومن مقال الأب الكرملي نقلت أيضا أنهم اتهموا فولتير . كما اتهموا سقراط من قبل : بتضليل الشباب وإفساد الرأي العام وزلزلة الإيمان في قلوب الناس ..

ووجدت هذه العبارة أيضا : إن فولتير هو الرجل الذي حول الغضب إلى سخرية ، والذي حطم الأصنام .

وقال فولتير أيضا : إن الدولة بكل أجهزتها لا تستطيع أن تقاوم سلاحا شعبيا يطلق النار في كل الاتجاهات وينفجر في كل بيت : النكتة !

وجاء أن فولتير قد دخل السجن مرتين .. سجن الباستيل الذي هدمته الثورة الفرنسية ..

وبعد ذلك بوقت قصير ظهر مقال للأستاذ على أدهم عن فولتير في مجلة « الرسالة » : الفيلسوف السياسي !

الآن فقط أستطيع أن أرى بوضوح من هو هذا الرجل . وما هي الفلسفة ، وما هي السياسة ..ثم ظهر مقال ثالث ورابع ومقال للأستاذ العقاد ومقالان لطه حسين ومقارنة بين « فولتير وروسو » .

إنه فيض من المعلومات عن هذا الشخص الفريد في التاريخ .

ولد يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٦٩٤ . ضعيفا نحيفا وقرر الأطباء أنه سوف يعيش من أربعة إلى ثمانية أيام . وكانوا يضربونه ويقرصونه ويهزونه لكى يدق قلبه .. أو لكى يتأكدوا أنه ما يزال حيا . وعاش فولتير ٨٤ عاما وألف مائة كتاب وبعث بثمانية آلاف خطاب لملوك ورؤساء وأمراء وقساوسة وساسة العالم في زمانه .

أبوه يعمل محاميا ، وقرر أن يكون ابنه كذلك . ولم يفلح الابن فقد اختار أن يكون كاتبا . سافر إلى هولندا وهرب مع فتاة . فأعادوه مفضوحا إلى والده في باريس ..

وضاق به أبوه . ولكن لم يمض سوى سنوات قليلة حتى يكون ابنه مشهورا بعد أن اختار له اسما مستعارا هو فولتير . أما اسمه الحقيقى فهو فرنسوا ماريى أرويه ..

ولم يكد يظهر له أول عمل مسرحى . حتى أمسكته الرقابة ومنعت ظهوره .. وأدى ذلك إلى انتشاره فأصبح هذا الشاب الثائر مشهورا في فرنسا وفي أوروبا كلها ..

ودخل سجن الباستيل عاما .

وشاءت الصدفة أن يسمع قصة حزينة استخدمها وسيلة لضرب الكنيسة بعنف . فقد ماتت ممثلة معروفة إسمها أدرين لوكوفرير .. وهى على فراش الموت جاءها القسيس يطلب إليها أن تعترف بأنها أخطأت عندما احترفت التمثيل .. فرفضت . فتركها القسيس دون أن يكمل الطقوس السابقة على الوفاة والدفن .. وكان معنى ذلك ألا يجرؤ أحد على دفنها .. فدفنها البوليس في مقبرة مجهولة !

وهنا نشط فولتير يهاجم القسوة والعنف التى مارسها أحد رجال الدين باسم الدين ..

وقال : معنى موقف القسيس أنه إذا لم أكن من رأيه فإنه يلقى بى في الشارع ، أو يقتلنى .. إنها جريمة ضد الحرية وضد الصدق وضد كرامة الإنسان .. وضد الدين !

ودخل السجن . وعندما أفرجوا عنه اشترطوا أن يغادر البلاد .

وذهب إلى انجلترا . وشهد جنازة العالم الرياضى الكبير نيوتن .. ورأى الشعب البريطانى كيف يقدس العلماء . وكيف يحترمون القانون والحرية والديمقراطية .. وكيف أنهم فى فرنسا لا يحتفلون هكذا بالعلماء ويمشون فى جنازات مهيبة ويدفنونهم مع الاحترام والأسى ..

وأكثر من ذلك كله كيف يحترمون ويحبون الأسرة المالكة . لأنها تملك ولا تحكم .. ولأنها تحترم الناس ، فاحترمها الناس !

وفى لندن عرفه بعض الانجليز فصرخوا هذا فرنسى .. اقتلوه ..

فوقف فولتير يقول لهم : أنتم تريدون قتلى لأننى فرنسى .. ألا يكفينى عقابا أننى لست انجليزيا ! وأسعدهم ذلك . وتركوه ..

وحصل على إذن بالعودة إلى فرنسا . وعاد وكان فى الخامسة والثلاثين من عمره .

ولم نعرف بالضبط ما هى موارد الفيلسوف فولتير . ولكن من المؤكد أنه كان يحصل على هبات من الملوك والأمراء . وأنه كان يعمل بالربا .. وأنه لم يكسب مالا من طريق مشروع قط ! بل حدث أن أعلنت الحكومة الفرنسية عن يانصيب قومى .. وكانت المفاجأة الكبرى أن فولتير قد أسس جمعية لشراء كل أوراق اليانصيب .. وكسب مالا كثيرا ينفق منه على الملابس الأنيقة والشقق الفخمة والعربات الجميلة التى يستخدمها ..

وحدث فى ذلك الوقت أن شابا شنقه أبوه لأنه أراد أن يغير مذهبه الدينى .. وحاكمت الكنيسة الأب وأعدمته .. وهنا استخدم فولتير كل مواهبه فى الفلسفة والمنطق والسخرية وهاجم القانون الجنائى فى فرنسا .. فلم يكن قانونا بالمعنى الذى أصبح معروفا بعد ذلك عند نابليون .. ولا بالقانون الذى يعرفه الانجليز .. واكتشف أن القسيس يستطيع أن يحاكم وأن ينفذ الحكم ، وليس لديه قانون .. ولا عنده شهود ولا محلفون ولا المتهم يملك أن يوكل أحدا يدافع عنه ..

وطالب بفتح ملف قضية « كالاس » . وهو اسم الأب الذى شنق إبنه ..

ولما جاء الفرنسيون مع نابليون إلى مصر كانوا يحاكمون الناس بالقانون

وبالعدل . وقد ذكر لنا المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى جانبا من هذه المحاكمات .

وعلق المؤرخ البريطانى العظيم توينبى على ما ذكره الجبرتى بأن المؤرخ المصرى هذا يعتبر أعظم المؤرخين فى كل العصور .. أولا : لأنه كان أمينا جدا فى كل ما سجل عن أحداث الثورة الفرنسية .. وثانيا : رغم كراهيته للفرنسيين فإنه قد أشاد بالعدالة فى محاكمهم . فهم يأتون بالمتهم ويعطونه فرصة الدفاع عن نفسه ويوكلون محاميا عنه .. فالجبرتى يكره الاحتلال الفرنسى ولكنه يقدس العدل الفرنسى !

وكان فولتير يتنقل بين العواصم الأوروبية وكان الملوك يجلسون عند قدميه .. وكان يضيق بهم أيضا لأنهم كاذبون فالأمبراطور الألمانى الذى يؤكد إعجابه المطلق بفولتير ، يحشد قوات عسكرية فى كل مكان . وفولتير يرى أن جريمة الجرائم هى الحرب !

وفى آخر أيامه قرر أن يعيش حياة هادئة فى جمهورية جنيف ..

ثم اشترى قطعة أرض بالقرب منها داخل فرنسا .. وأقام لنفسه قصرا عظيما . ولجأ إليها الهاربون من الظلم والقهر .. وبنى لهم بيوتا حوله أيضا . وأنشأ الكنائس والمدارس . وكتب عليها : أنشأها فولتير لله ..

وفى هذه المنطقة المسماة « فرنى » زاره كل عظماء العالم يسألون عن صحته . ويستمعون إليه . وبدلا من أن يبقى الواحد منهم يومين أو ثلاثة ، فإنه يمكث شهورا يمتع الأذن بما تقوله أعظم عقلية فى ذلك العصر ..

واشتاق فولتير إلى ليالى باريس . فقرر السفر . وعلى الحدود وقف رجال الجمارك يفتشون عربته . وفوجىء أحد رجال الجمارك بصوت نحيل يقول له : لا شىء ضد القانون إلا أنا !

فضحك الجندى وتفحص الرجل الخيال الهزيل المريض وقال : آه .. مسيو فولتير تفضل يا سيدى !

هذه العبارة هى التى اقتبسها أوسكار وايلد عندما ذهب إلى أمريكا فسألوه فى الجمارك إن كان يحمل معه شيئا ممنوعا قال نعم .. عبقريتى !

وفى باريس جاءه القسيس يطلب إليه أن يعترف . فرفض فولتير قائلا :

لا أريد أن تكون آخر كلماتي كذبا !

قال له القسيس : جئتك من عند الله .

سأله فولتير : وأين أوراق اعتمادك ؟

ثم أملى على الذين حوله : إنني أموت مؤمنا بالله ، محبا لأصدقائي ، غير كاره لأعدائي ، محتقرا لكل أنواع الخرافات !

وكان لابد من دفنه في مكان آخر .. ولما قامت الثورة الفرنسية أعادوه إلى مقبرة العظماء بعد أن وضعوا نعشه ليلة كاملة فوق أنقاض سجن الباستيل . تكريما وتعظيما للرجل الذي أودع هذا السجن عقابا على أفكاره العظيمة التي مهدت للثورة التي هدمت الباستيل ومعه الظلم والقهر !

وكان قد زاره الرجل الأمريكي الوحيد الذي يعرفه : الفيلسوف بنيامين فرانكلين . وكان معه واحد من أحفاده . ووضع فولتير يده على رأس الطفل وهو يقول له : الله والحرية !

والكلمتان هما خلاصة فلسفة فولتير !

• • •

ومن كل الذي قرأت عن فولتير في ذلك الوقت ، وهو قليل ، لم يبق في ذهني إلا عبارته الشهيرة :

اللهم احمني من أصدقائي ، أما أعدائي فأنا كفيل بهم !

الفقير ليس حرا ، إنه يخدم في كل بيت !

• • •

ثم ملخص إحدى مسرحياته التي موضوعها أن اثنين من سكان الكواكب الأخرى واحد طوله مليون قدم والثاني طوله خمسون ألفا . هبطا معا إلى كوكب الأرض . وراحا يخوضان في بركة اسمها البحر الأبيض المتوسط .. وفي هذه البركة وجدا شيئا صغيرا عائما .. إنها إحدى السفن .. وفي هذه السفينة وجدا ديدانا ضئيلة تتحرك .. فرفع أحدهما السفينة فوق ظفره وأدناها من أذنيه فوجد أن هذه الديدان ليست إلا مجموعة من فلاسفة بني الإنسان . وأن هؤلاء

الفلاسفة يتحدثون عن حرب صليبية .. هذه الحرب سوف يموت فيها الملايين من أجل الاستيلاء على جبل مقدس اسمه فلسطين .. ليس دفاعا عن الدين ، وإنما دفاعا عن الملك هنا والسلطان هناك .. فمن أجل هذين الرجلين سوف يموت الملايين !

وسمع العملاقان من أحد الفلاسفة أن الله قد خلق الملك كله من أجل البشر ..

وضحك العملاقان لذلك حتى سقطت السفينة فى جيب واحد منهما .. فأخرجها وهو يضحك من هذه الديدان .. ثم ألقاها فى الماء !

• • •

نحن الذين نتوهم أننا كائنات ذات أهمية خارقة ، وأن الكون كله قد خلقه الله من أجل هذه الذرة التافهة - الكرة الأرضية - ومن أجل هذه الحشرات الناطقة - نحن البشر - وليس أكثر غرورا منا ولا جهلا ولا إساءة لعظمة الله !

• • •

ولا أظن أن من كل الذى قرأت فى ذلك الوقت وبعد ذلك بسنوات قد ضرب أحد عقلى بالشلوت كما فعل فولتير .. !

لقد أسقط غرورى تماما ، وأوقعه أمامى وطلب منى أن أدوسه بالجزمة .. وأن أجلس إلى جوار الحائط ، وأن أغمض عينى وأن أتذكر دائما قوله تعالى :

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

فهذا العلم ، وهذا الشك فى قدرة العقل الإنسانى ، قد دفعنى إلى الإيمان العميق .. والآن أتذكر كيف كنا فى المدرسة ..

فأنا أول الفصل وأول المدرسة ..

ووجدتنى منعزلا عن التلاميذ .. أجلس وحدى .. ولا أشارك فى النشاط المدرسى .. وحتى إذا حاولت أن أشارك فى الألعاب ، فإن مدرس الألعاب يقول :

اقرأ لك حاجة تنفعك .. أما هؤلاء - أى التلامذة الآخرون - فلا مستقبل لهم .

وكنت أشعر فيما بيني وبين نفسي أن أول المدرسة أفضل كثيرا من أوائل الفصول !

ثم أصبحت أول مصرى فى الثانوية العامة وأول كلية الآداب فى الليسانس ..

ولكن وجدتنى أقول لنفسى .. إيه يعنى .. أول المدرسة .. واحدة من ألوف المدارس .. وأول الثانوية العامة .. وإيه يعنى .. وأول الليسانس وإيه يعنى .. وأول الجامعة . واحدة من ألوف جامعات العالم .. وأول مصر .. يعنى أول دولة من مائة دولة .. وأول الكرة الأرضية مثل أينشتين .. وإيه يعنى .. الأرض كوكب من ملايين ملايين ملايين ملايين الكواكب فى هذا الكون .. وإيه يعنى .. حتى أينشتين أعظم علماء الطبيعة فى زماننا عندما سئل عن الذى يعلمه والذى لا يعلمه قال : هات طابع بريد ثم ضعه فى الهرم الأكبر .. فالذى أعلمه هو طابع البريد والذى لا أعلمه هو الهرم !!

وقال أيضا : أنا طفل يلعب على شاطىء محيط العلم .. وأنا سعيد بالرمال .. ولا أعرف أكثر من ذلك ..

وعندما ذهبت إلى الجامعة درست الفلسفة وتخصصت وتعمقت .. وأسعدنى ذلك .. ولكن فجأة وجدت فولتير هذا ينكد حياتى ..

فالفيلسوف يحصر كل مشاكل الدنيا ويعيد وزنها وحسابها ووصفها والتعمق فيها .. من أول وجديد .. وكل فيلسوف يعيد « تفنيط » أوراق اللعبة الفلسفية . ولعبة الفلاسفة هى دراسة الكون والنفس الانسانية والإنسان والعلاقات بين الإنسان ، وبين الإنسان والله على أساس من الحرية والعدل والصدق .. ثم تفسير معانى الحق والعدل والخير والجمال والفضيلة والحياة والموت والحياة بعد الموت ..

وكل فيلسوف لا يكتفى بما ذكره فلاسفة قبله ، وإنما يعيد النظر فيها كلها .. ومن أول وجديد ..

فالفيلسوف هو صاحب أعظم العقول ، وأوسع النظرات وأشمل النظريات !

وهو يحتوى البناء الكونى فى عقله ويرتبه وينظمه كأنه هو الذى خلق الخلق .. وكأنه هو الله .. أو نصف إله ..

ولذلك نفختنا الفلسفة وجعلت لعقولنا أكراشا .. فكأن الواحد يمشى منفوخ الرأس ، ممدود الأطراف .. يدب الأرض ويناطح السحاب ..

ولكن كان فولتير هو الذى يقوم بتسريب الدبابيس إلى عقلى سرا .. فكلما وجدت نفخة عندى أو عند غيرى أمسكت دبوسا وأنفذته فى الكرش العقلى ..فإذا به هواء .. وإذا بصاحبه جثة هامدة على الأرض .. كأننى أسقطت بالونا .. أو كأننى نزعت جناحى نسر كبير ..

واتجهت من دراسة الفلسفة إلى دراسة الفلك .. إن الفلك هو العلم الذى يجعلك تشعر بضآلة نفسك وعقلك وأرضك وعالمك ..

ولذلك كان الفيلسوف الألمانى كانت يقول : شيئان أشعر أمامهما بالتواضع : الضمير الأخلاقى فى أعماقى ، والكون العظيم من حولى !

وانتابتنى بعد ذلك فترة من الشك العميق .. الشك فى كل ما يقوله الفلاسفة .. والشك فى قدرتهم على الإحاطة بكل شىء . وبقدرتى على الفهم وعلى أن أكون قادرا على الحكم على الأشياء ..

وقد دفعنى الشك إلى كل الاتجاهات الفلسفية والدينية .. كأن مجموعة من اللصوص والمجرمين يطاردوننى فى كل مكان .. فكنت أختبىء فى كل بيت .. تحت كل مظلة .. فى كل نقطة بوليس .. فى كل مسجد ..

واحتجت إلى وقت طويل ، لكى أعرف أن هذا الشك فى داخلى .. فى أعماقى .. وأنه ليس من خارجى !

وأنها غلطتى عندما أحسست أن كل سقف أجلس تحته سوف يقع فوق رأسى .. وكل سلك كهربى وكل عمود نور .. وكل شجرة وكل سيارة .. وكل كوبرى .. سوف ينهار .. ولذلك فقد امتلأت بالخوف والشك والوسوسة ولم أعد قادرا على الثقة بأحد أو فى شىء .. حتى هذه الكلمات أحسست أنها عاجزة عن أن تقول لى ، وأن أقول عن طريقها أى شىء !

واحتجت إلى وقت طويل لكى أتحرر من شيطان فولتير وغيره من الفلاسفة ..

فنحمد الله على سلامة عقلى ، وإيمانى ويقينى والثقة بالنفس والناس وبالله !



تكلم حتى أراك

تكلم .. حتى أراك ..

كنا نجلس كل يوم على سلم مكتبة المنصورة .. وكل واحد منا يلخص الذى قرأه . ولاحظت أن كل زملائى يتحدثون بصورة عادية .. إلا أنا .. فأنا أرفع رأسى وأتراجع إلى الوراء ثم أنظر إلى الأرض .. ولا أقول شيئا . وبعد ذلك أضع يدى على رأسى وأحاول أن أقول .. ولا أعرف ما الذى يستنتجه زملائى . هل كانوا يقولون : هذه هى طبيعة الفلسفة .. أو هذه هى نهاية كل من يدرس الفلسفة .

أما أنا فلم أكن قد فكرت فى شىء من ذلك ..

وفى مرة أخرى وجدتنى أتحدث إلى نفسى بصوت مرتفع قائلا : لابد أن أعرف نفسى .. أعرف قدرتى ومستقبلى لابد أن أعرف ذلك بنفسى !

ثم أجدنى قد سكت . واتجهت إلى شىء آخر ..

وواضح أننى لست فاهما هذا الذى أقوله وإنما أنا أقلد مدرس الفلسفة . فقد كان يدخل من باب الفصل وينشغل عنا نحن الواقفين تحية له. ويظل يروح ويجىء . وقد ينسانا تماما . ثم إذا هو يفيق من انشغاله العميق . وينظر إلى وجوهنا . ونخاف من نظرته النافذة والتى تكتسحنا عموما ، ثم تخترقنا واحدا واحداً . وقد اعتدنا على أن نقف بلا معنى وأن يتحرك هو بلا هدف .

إذن هذه هى الفلسفة . وهذه هى البداية اليومية لحصة الفلسفة . أما بعد ذلك فهو شىء عادى جدا . فيخلع المدرس طربوشه ويضعه فوق أوراقه ويبتسم ويعود يناديناا واحدا واحدا كأنه كان وسيطا فى جلسة تحضير الأرواح ثم انتهى دوره .. وعاد إلينا .. فى غاية اليقظة . وبعد ذلك يتجه إلى السبورة ويكتب أسماء وعبارات . ويدق الجرس وتنتهى الحصة . ولم نفهم أى شىء .

هل كنت أقلد المدرس ؟ نعم . هل الفلاسفة يفعلون ذلك دائما ؟ يجوز .

وفى جلسة لوالدى مع عدد من رجال الدين والشعراء نمت . وصحوت أقول : ولكن يجب أن يعرف الانسان نفسه بنفسه ! ولم يكن أحد قد طلب منى أن أقول شيئا ، ولم تكن هذه العبارة لها أية علاقة بما يقال . وتلفت الجميع بعضهم إلى بعض .. ووضع والدى يده على جبهتى ليعرف إن كنت مريضا . ثم انتقلت يده إلى خدى ثم إلى كتفى قائلا : الله يفتح عليك يا ولدى !

وكنت فى حاجة إلى هذا الدعاء . لعل الله يفتح لى نوافذ العلم ويفتح لى كنوز الصبر وأبواب المستقبل !

وعرفت أولا أن هذه الفلسفة ليست مما يهم كل الناس . وليس من السهل فهمها . ولكن لابد منها .. ووجدت أن عندى استعدادا كبيرا لدراستها . وإن كنت لا أعرف كيف أنجح فى ذلك . فالذى يقوله المدرس ليس واضحا . وإن كانت هناك بعض العبارات الجميلة . فقط عبارات . ولكن لا يوجد أشخاص . وحتى الأشخاص لا أعرف ما معنى مثل هذه الأسماء : سقراط أفلاطون أرسطو .. فيثاغورس .. انكسا غوارس ديموقريطس .. هرقليطس جورجياس .. ليتس بيكون هيوم .. كنت .. هيجل شوبنهور ونيتشه .. ومفروض أن أعرف كل هؤلاء فى سنة واحدة .. وأسماء أخرى عربية : الغزالى وابن سيناء وابن رشد والفارابى والكندى وإخوان الصفا ..

إذن هذه هى الفلسفة ..

وأول الأسماء وأعظمها : سقراط ..

وهناك أكثر من سقراط .. سقراط الذى سمعت عنه فى الفصل ..

هذا الرجل قال : إن الانسان يجب أن يعرف نفسه .. بنفسه .. وعلاقاته بالناس . ضرورى . وأن يعتمد على نفسه فى فهم ذلك .

وأن هذه هى النصيحة التى قالتها قارئة الأفكار - العرافة - وهى فتاة صغيرة تجلس فى كهف ويذهب إليها الناس . فتتنبأ لهم بمستقبلهم . ولما ذهب إليها الفتى سقراط قالت له : إعرف نفسك بنفسك !

وذهب الفتى يحاول أن يعرف ما هو الجسم ما هو العقل ما هو الفكر ما هذا الحوار الذى بينه وبين الناس !

وهناك سقراط آخر ذلك الذى سمعت عنه فى كلية الآداب .. وهو رجل

مشغول بالفكر عن الحياة . وعما يدور في رأسه ، عن الذي يدور في رؤوس الناس - بل إن من واجبه أن يفتح أدمغة الناس وأن يستخرج منها العقل والمخ ويفتح بطونهم وأن يستخرج منها قلوبهم وأن يغسلها وينشرها أمامهم فسقراط يقول : إن أمي « داية » .

وهو الآخر يقوم بنفس العمل فيولد أفكار الناس ..

وكل ذلك بالعقل . فهو يفتش عن كل الأفكار الخفية والظاهرة . ويناقشها . ويظل يناقش والناس مبهورون به حتى يصحح كل أفكارهم . وكان يفعل ذلك وهو يتمشى في الشوارع . أو وهو جالس على سلالم المعابد . تماما كما كنا نجلس على سلالم المكتبة .

وكان سقراط يمشي حافيا ، وهذا ما لم أستطع .. وعاري الصدر شتاء ، وهذا ما لم أستطع صيفا ..

وله تلميذ ذكي بارع عظيم هو أفلاطون . وهو الذي سجل كل محاورات سقراط مع تلامذته .. كيف سجلها ، لا نعرف . هل كل الذي كتبه أفلاطون هو بالضبط ما قاله سقراط أو هكذا تخيله وأضاف إليه الكثير من الجمال والمنطق ؟ لا نعرف . وإنما سقراط لم يكتب حرفا واحدا ، وأفلاطون لم يؤلف حرفا واحدا . وإنما هو سجلّ قدّم لنا ما قاله الأستاذ . فقدّم لنا أستاذين عظيمين في وقت واحد !

وسقراط ثالث هو الذي قرأته على مهلي وبمتعة لا تنتهي . فلم أكن تلميذا يذاكر ، ولا طالبا يبحث ، وإنما كنت قارئا كاتبا يتأمل ويستمتع . هذا هو سقراط الذي أعجبني والذي أحببته ، بلا خوف : أي بلا خوف من الامتحان ، وبلا ضغط من الوقت الضيق ، والأستاذ المتعجل ، وإنما بهرني هذا الأستاذ العظيم والإنسان البسيط ، والعبقرية المتواضعة .. والذي لا يستطيع أحد أن يقلده أو يجاريه ، ولا هذا من الضروري في شيء . إنه هو هكذا ، وهو وحده .. ولا يمكن تكرار ما حدث له أو ما أحدثه ..

في ساعة مبكرة من كل يوم يلاحظ الناس أن سقراط قد خرج مسرعا . حافي القدمين عاري الصدر والرأس . ويخرج من شفتيه صوت معناه : صباح الخير .. ونحن لا نعرف إن كان خيرا أو شرا .

ثم هو يمضي يحدث نفسه : ولكن ما هو الخير .. خيرى أنا أو خيرك أنت .. أو هو خير الناس جميعا .. الخير الذى يريده الأغنياء أو الخير الذى ينشده الفقراء .. وما هو الخير الذى يريده المظلوم ؟ أو الخير الذى يريده الظالم ؟ وهل إذا صنع الانسان سكينا لتقشير الخيار واستخدم فى قتل إنسان فما هو الخير .. ما هو الخير الذى يمكن أن يحققه السكين .. وهل إذا كان السكين مسروقا والخيار ليس مسروقا ؟ فهل من الخير أن تقشره بسكين ليس لك ؟ وهل هذا خير أن يكون السكين مسروقا والخيار أيضا وأنت تفعل ذلك من أجل إنسان جائع ؟

وكثيرا ما سمع الناس سقراط يهمهم ويقول : ولكن لا أعرف الحقيقة ؟ إننى أحاول أن أفهم ولكنى لا أستطيع ..

ثم يخرج سقراط قطعة من الاسفنج وينظف بها التماثيل فى المعابد . فهذه هى وظيفته فالعصافير قد تركت مخلفاتها . ولابد من أن ينظف التماثيل كل يوم .. وكثيرا ما سقط الجير على وجهه . ونسى أن يمسحه . ويقال إن هذا الجير هو الذى ترك البثور الغائرة على وجهه . وبذلك أضاف مزيدا من القبح إلى صاحب العبارة الجميلة . وكان سقراط دميما جدا . لدرجة أن تلامذته كانوا يعتذرون عنه . فحين يقدمه الواحد للناس يقول : ولكنه سقراط أستاذنا العظيم .

أى رغم هذا القبح والدمامة فهو أستاذنا ومعلمنا ..

وكان سقراط يمشى منفرج الساقين . وكأنه ينحنى إلى الأمام ويخيل إلى من يراه أنه يستعد لأن يقفز .. أو للسقوط على الأرض ، لكى يمشى على أربع .. وكان يمد يديه إلى الأمام . كأن يديه كانتا ساقين من قبل ، وأنه حديث العهد بالمشى على رجلين ، وكانت عيناه واسعتين .. وكان تلامذته إذا نظروا إلى عينيه فإنهم يفهمون كل الذى يريد أن يقول . قال واحد من تلامذته : لم أر الأستاذ يأكل قط .

وقال آخر : ولا رأيت لديه أية رغبة فى النوم .

وقال ثالث : كنا ننبهه إلى ضرورة العودة إلى البيت .

وقال رابع : ولا مرض قط ..

وقال خامس : ولا سمعته يجيب عن سؤال إلا بسؤال آخر .. فكل عبارة يقولها تنتهى بسؤال .. فهو السائل إلى الأبد .

وعندما هبطت حمامة فوق رأسه انزعج وقال : كأنني شجرة أو كأنني تمثال .. كأنني ميت .. هل أنا لم أتحرك منذ وقت طويل ؟

فقيل له : منذ ساعة .

فقال : ولا أنتم ؟ .

قالوا : ولا نحن .

قال : ولماذا ؟!

قالوا : ننتظر ردك يا أستاذ .

قال : على ماذا ؟

قالوا : على السؤال .

قال : أي سؤال ؟

قالوا : وهل نسيت يا أستاذ ؟

قال : فما هو النسيان ؟ هل الانسان ينسى الذى كان يعرفه .. هل ننسى شيئا كنا نعرفه .. ثم جاء شيء قد جعلنا ننسى .. فأيهما الأقوى .. وأيهما الأنفع : الذى عرفناه ونسيناه .. أو الذى عرفناه أخيرا فجعلنا ننسى ما كنا نعرفه .. هل النسيان نعمة ؟ هل من الضرورى أن يتذكر الانسان كل شيء ؟ هل هناك أشياء تافهة ولذلك يجب أن ننساها ؟ هل هى ضارة ولذلك يجب أن ننساها ؟ هل نحن ننسى الذى نحب أو ننسى الذى نكره ؟

ويقال إن تلميذة أفلاطون كان غنيا وأنه هو الذى كان ينفق على أستاذه . كما حدث فى القرن التاسع عشر عندما كان إنجلز ينفق على كارل ماركس .

ولا نعرف كثيرا عن الذى كان يحدث فى بيت سقراط .. فقط نعرف أنه متزوج وزوجته اسمها اكزنطيبة . هو الذى حدثنا عنها . وهو الذى قال أن له أولادا . ماذا كانت تقول الزوجة والأولاد ؟ لا نعرف . فقط هو الذى أضحكنا على زوجته . وهو الذى أبكى نساء العالم عشرين قرنا . فقد كان قاسيا على المرأة عظيم الاحتقار لها . وكل فلاسفة الإغريق وأوربا حتى نهاية القرن التاسع عشر .

فما الذى يجعل زوجة سقراط تهجم عليه بالكلام الجارح أمام الناس ؟ فإذا أضحكه ذلك ، إنهالت عليه ضربا ! فإذا أضحكه ذلك عادت إلى البيت بسرعة وملأت وعاء بالماء القذر وألقته على صدره العارى .

فإذا أفاق من هذه الإهانة ، التي تؤكد احتقاره العظيم للمرأة قال : إن زوجتي كالسماء ترعد وتبرق ، ثم تمطر بعد ذلك !

ولم تكن زوجته كالسماء ، وإنما كانت كالأرض يدوسها ويضربها بلسانه ويلفها في أبشع صورة فلسفية عرفها الفكر الانساني !

وطبيعي أن تضيق امرأة برجل من هذا الطراز : عاطل .. لا وظيفة .. ولا مال .. ولاحضور له في البيت .. ولا يدرى من أين جاء أولاده .. ولا من هم أولاده .

فإذا قالت له الزوجة : ألا تشعر أن لك بيتا ؟

فيجيب : لست على يقين من ذلك !

- وأن لك زوجة .

- تمنيت ألا تكون .

- وأولاد ؟

- طبيعي أن يكون هناك أولاد ، ولكن ليس بهذه الكثرة !

- فما الذي تقترحه حلا لذلك ؟

- ما رأيك أنت ؟

- هل نغرقهم أحياء !

- ممكن . ولكن هل هذا يحل مشكلة الأولاد في كل بيت ؟

- لا شأن لي بالبيوت الأخرى . إنني أتحدث عن هذا البيت ..

- ولكني مشغول بالبيوت الأخرى !

- إنهم أحسن حالا .. فهي بيوت لها أزواج .. لها آباء ..

- وأنا ألست زوجا ؟

- ولكني لا أجدك .

- هل أنا زوجك ما دمت في البيت ، فإذا خرجت لم أعد زوجك ؟ .. هل ينبغي لكل زوج أن يسحب زوجته من يدها وأولاده وراءه لكي يؤكد للناس أنه زوج وأنه أب وأن هؤلاء أولاده .. فإذا لم يفعل ذلك فليس زوجا وليس له أولاد ؟ هل إذا جاء أخوك لزيارتك ، هل يكون هو الزوج لأنه موجود في البيت ؟ هل إذا خرج معك إلى الشارع وسحبك وأولادك يكون هو الزوج وأكون أنا العشيق ؟

ولا تملك زوجة سقراط إلا أن تنهض وتحشر قطعة من الاسفنج فى فمه وتحاول أن تخنقه . فهى قد تعبت من مثل هذا الحوار .. تعبت لأنها لا تعرف إن كانت زوجة أو تلميذة فى مدرسته .. تعبت فهى لا تعرف إن كان زوجها يتحدث إليها أو يتحدث إلى نفسه .. ينظر إليها أو ينظر إلى أشباح فى الظلام ..

وفى يوم عاد سقراط إلى بيته فوجد الباب مغلقا . وراح يدق الباب . فلم يفتح أحد . فجلس أمام البيت . وجاءه تلامذته يسألونه : ماذا حدث ؟

فقال سقراط : لعلها خرجت . ولكن لا أعرف إلى أين ؟ فهى عادة لا تذهب إلى السوق ؟ ولا تستطيع أن تذهب إلى أهلها .. ثم أنها ليست من الشجاعة بحيث تقتل نفسها .. ولا من الجنون بحيث تقتل أولادها .. فهى لا تقصد ذلك .. وإنما هى تريد أن تقتلنى ؟ ولا أعرف إن كان هذا هو الحل ؟ فإن قتلت أولادها فلا أعرف ما هو الهدف ؟ وإن قتلت نفسها وتركت أولادها فهل هذا هو حب لأولادها وكراهية لنفسها ! وإذا قتلتهم ثم قتلت نفسها فما هى المشكلة التى انحلت على يديها ؟ وهل الانتحار حل ؟ وأيهما أشجع : القاتل أو القتيل . فإذا كان القاتل هو القتيل ؟ فمن هو المجرم ومن هو الشهيد .. وما هو الفرق بين قاتل نفسه وقاتل غيره ؟

وكان الحل هو أن واحدا من تلامذة سقراط قد انتفض من مكانه ، ونبه سقراط إلى أنه يدق الباب الخطأ . فلم يكن ذلك بيته !

وكانوا إذا قدموا لسقراط تلميذا جديدا يقولون له : يا أستاذنا هذا هو التلميذ الجديد فلان الفلانى .. أبوه .. وأمه .. وطبقته الاجتماعية .. وهو لا يعمل وإنما يريد أن يتعلم على يديك قبل أن يعمل .. الخ .

وهنا تبرق عينا سقراط وتتفجر فى داخله ألوف الأسئلة . وليس من الضرورى أن يجيب عنها التلميذ . فسقراط لا يسأله وإنما هو يتساءل أمامه : ولماذا اخترت الفلسفة ؟

ـ وإنما أنا اخترتك يا أستاذ .

ـ وما الذى اخترته .. إن كان جسمى فهو ملك لى ، ثم إن جسمك أكثر حيوية وشبابا .. وإن كان عقلى فهو ليس ملكا لأحد .. لا لك .. ولا لغيرك .. ثم ما هذا الذى تريد أن تعمله .. إن كنت تريد أن تصبح نجارا ، يجب أن تذهب

إلى النجار .. وإن كنت تريد أن تصبح طبيبا ، فاذهب إلى الطبيب .. ولكن الفلسفة ؟ ما الذى تريده منها ، وما الذى تريد أن تكونه ؟ ثم من الذى قال لك أننى أحسن الناس ، أو من الذى قال لك إنك أحسنت الاختيار ؟ ثم هل أنت اخترت بكامل حريتك .. أو تقليدا لزملائك ، أو هربا من بيتك ، أو عنادا لوالدك الذى لا يحبنى ، أو اتفاقا مع أمك التى تريد أن تغيظ والدك ، وتضحى بمستقبلك .. قل لى بالضبط !

وفى يوم التف التلامذة حول الأستاذ العظيم وسألوه جميعا .. إلا واحدا .. ظل ساكنا . كلما اتجهت إليه عينا سقراط ، جعل ينظر إلى الأرض إلى قدميه .. وكلما حاول سقراط أن يقترب منه ، هرب بعينيه بعيدا عنه .. وأخيرا قال له سقراط كلمته الحكيمة البليغة : تكلم حتى أراك !

أى تكلم لكى أعرف من أنت ؟ ما تفكيرك ما هدفك ؟ ما أملك فى الحياة ، ما الذى يقلقك على نفسك !

• • •

هكذا كان أستاذنا العظيم سقراط . قد علمنا : أنه إذا لم تسأل فلن تعرف . وإذا لم تسأل أكثر ، فلن تعرف أكثر . وإذا لم تندهش فلن تسأل . فالدهشة هى بداية المعرفة لنفسك .. ولنفوس الآخرين .. لعالمك ودنيا الناس ..

وكل أب يبحث عن ابنه فلا يجده ، فإنه يعرف أين هو .. فيذهب إلى أحد ميادين أثينا .. ليجد مجموعة من الشباب قد التفوا حول سقراط .. فالشبان قد تركوا المدارس والوظائف والأعمال والحياة البيتية .. لا يريدون أن يأكلوا ولا أن يشربوا .. ولا أن يسمعوا إلى نصائح الوالدين .. فلا أب إلا سقراط .. ولا حكمة إلا لسقراط .. ولا هدف إلا سقراط ..

ثم ما الذى يقوله لهم ؟

إنه يشكك فى كل شىء . ولا يتقبل كل حقائق الدين والحياة دون بحث ودون مناقشة ..

لقد زلزل سقراط كل أسس الدين والتقاليد والأسرة والأبوة والأمومة .. ثم أنه المحتقر العظيم لكل صاحب سلطة وصاحب مال وصاحب جمال . فكل

شيء فان والانسان ما دام فانيا ، فكل ما له علاقة بالانسان زائل .. أما الباقي فهو الفكر .. فهو الحقائق التي تجيء بعد تأمل : الخير والجمال والحق والعدل والفضيلة التي هي جوهر كل سلوك إنساني !

• • •

وضاق الآباء وقرروا أن يقضوا على سقراط ذلك المفسد العظيم والمحطم لآمال الآباء .. والخائن للوطن والداعية إلى ديانة جديدة . هكذا اتهموه !

وفي مكان عام قرر أحد الآباء أن يحرض الناس على سقراط فأتى بواحد من أبنائه وسأله أمامهم :

ـ أنت تلميذ لسقراط ؟

ـ مع الشرف العظيم .

ـ ولست تلميذا لوالدك الذي يخدم الناس في كل مكان ، والذي سوف يترك لك ثروة عظيمة ولزوجتك وأولادك وأحفادك ..

ـ ليس أعظم من سقراط .

ـ أغنى من أبيك ؟

ـ نعم بأفكاره العظيمة .

ـ وأبوك بلا فكر ؟

ـ لم أجرب الحوار معه .

ـ إذن حاورني الآن ..

ـ موافق .

ـ هل تؤمن بزيوس كبير الآلهة ؟

ـ إنني لا أعرف بالضبط من هو .. ولا معنى أن يكون أحد إلها ، وأن يكون أحد آخر كبيرا للآلهة .. ما فائدة أن يكون هناك إله ؟ فما هي صفاته وما هي قدراته الخارقة ؟ ومن الذي صنعه .. لابد أن أحاوره هو أيضا ؟ فإذا كان هو إلها لك ، فأنا لم أتخذ قراري بعد ..

ـ ما الفرق بين الانسان والآله إذا كان لابد أن يحاوره وأن يزيل الفوارق بينهما ؟

- إننى لا أزيل الفوارق إننى أضيقها فقط .. لكى أراه ويرانى .. لكى أعرف منه بعض المعلومات .

- مثل ماذا ؟

- مثل ما معنى القداسة ؟ وأى فائدة للانسان أن يعترف بها .

- إن الإله لا يتزوج ؟

- ولكنه يعتدى على الزوجات .. فلماذا ؟ هل لكى يؤكد قدرته .. ألا توجد وسائل وصور أخرى يقنعنا بها ؟ إن الذى يحتاج إلى قوة خارقة لكى يكون خارقا ، ليس خارقا .. فالغنى جدا ليس هو الذى يقترض فلوس الآخرين ... وإنما هو الغنى بماله هو ، وبما ملكت يداه ..

- ألا ترى أننى غنى ؟

- أرى ذلك .

- وأنت غنى ؟

- لا أرى ذلك ..

- إن مالى هو مالك .

- ليس صحيحا .

- لا تصدقنى ؟

- لا أفهمك فقط .

- حاول .

- سوف أحاول : أنت تملك مالا كثيرا ؟

- نعم .

- هل أنت أغنى أو عمى ؟

- أنا

- من قال ذلك

- أنا

- ولكنه يقول أنه أغنى منك .

- سوف أكون أغنى منه .

- إذن أنت لست راضيا عن حالك .. كأنك فقير .

- كأننى

ـ إذن أنت لست غنيا . وأنا لست غنيا أيضا .
ـ عندما أموت سوف ترث أموالى ؟
ـ وقد أموت أنا قبلك فترث أنت ما كان يجب أن أرثه .. ولكنك سوف تكون أشد فقرا .. لأنك فقير بمالك ، وسوف تكون بلا ولد .. وسوف تزداد فقرا .. إذن أنت لست غنيا .. ولن تكون غنيا بعد موتى .. هل تكون غنيا إذا مات عمى ..
ـ نعـم ..
ـ ولكن أموال عمى سوف تذهب لأولاده ..
ـ سوف أكون أغنى من كل أولاده .. لأن أمواله سيوزعها عليهم ..
ـ ولكن ما قولك إذا أولاده قد أعطوك هذه الأموال كلها . هل تكون غنيا ؟
ـ أكون غنيا جدا ..
ـ ولكن أنت لا يهمك أن تكون غنيا . أنت يهمك أن تكون أغنى من أخيك وأولاد أخيك .
ـ صحيح .
ـ فإذا لم تجد أحدا تشعر بأنك أغنى منه ، هل تكون سعيدا .
ـ لن أكون سعيدا ؟
ـ إذن أنت لست سعيدا الآن .. ولا سعيد إذا أنا مت .. ولا إذا مات أخوك .. ولا إذا ترك أولاده ثروتهم لك .. فانت لست غنيا إذن !

ولم يكن الآباء فى حاجة إلى ما هو أكثر من ذلك من اجل القضاء على سقراط .. إنقاذا للشباب والأسرة والبلاد والدين والسلطة والمستقبل ..

وكأنما أراد هذا الأب أن يقضى على سقراط بالضربة القاضية الفنية . فسأل ابنه : وأمك ؟
ـ ما لها ؟
ـ أليست أمك !
ـ هى التى تقول ذلك .
ـ وأنا ألست أباك ؟
ـ أنت الذى تقول ذلك .
ـ إذن كيف تتأكد من أنك إبن لى وإبن لأمك !

- لا أعرف الآن . سوف أبحث ذلك مع سقراط ..

- هل هناك شك فى أننى أبوك ؟

- ممكن

- إذن لماذا أحبك ؟

- إن الانسان يحب إناسا كثيرين .. خاتمه وكلبه وزوجته وعشيقته .. وتمثالا ووردة .. والسماء والنجوم ..

- وأنت ألا تشعر بشىء ناحيتى ؟

- بالامتنان

- لأننى أبوك ؟

- لك أيا كانت صفتك .

- فما هى صفتى ؟ .

- لابد أن أتأكد من ذلك .

- إذن أنت لست على يقين من أننى أبوك وأنك ابنى .. وأن أمك هى والدتك ..

- بالضبط .

- وحتى تتأكد

- سوف أحاول ..

- فإذا لم تتأكد هل تبقى فى البيت ؟

- الأمر متروك لك ..

- وليس لك رأى ؟

- سوف يكون لى عندما أتأكد .. لكن إذا أردت أنت أن أترك البيت فورا سوف أفعل .. ونظر الأب إلى بقية الآباء . واتجهوا جميعا إلى القضاء . ووقف سقراط وحوله الشباب . ووجهوا إليه تهمة : تكفير الشباب وإفسادهم ، ودعوتهم إلى إسقاط النظام والحكومة والتقاليد وتحقير كل الآلهة وكل الأديان . ولم تسمع المحكمة لوجهة نظر سقراط فى أجمل وأروع مرافعة فى التاريخ فحكمت بإعدام سقراط .

ونصحه تلامذته بأن يطلب العفو .. رفض . بأن يطلب الرأفة .. رفض . وجاءت زوجته وأولاده يبكون . وانتظر القضاة أن يستعطفهم رفض .

وخيروه بين أن يموت شنقا وأن يموت بالسم . فاختار أن يموت بيده . وسجل لنا تلميذه أفلاطون الساعات السابقة على موت سقراط . وهي صفحات من أروع ما عرفت الفلسفة والأدب وعلم النفس والتربية ..

تذكرت كل ذلك يوم جلسنا حول سرير الأستاذ العقاد مريضا ممددأ شاحبا هامس الصوت متوقد العينين حاضر الذاكرة لا يغيب عنه شيء مما نقول .. وكان هو أيضا يتحدث عن الدين والموت .. وما الذي خرج به من هذه الدنيا .. وما الذي يساويه كل هذا العناء . قلت : هل هذه الدنيا تساوى ؟

قال : تساوى . فنحن لم نعرف غير هذه الدنيا .. لو كانت للواحد منا أكثر من حياة كما تقول الديانة الهندية .. لعرفنا إن كانت حياتنا هذه أفضل من حياة سابقة .. أو من حياة لاحقة .. إذن هذه الحياة تساوى ..

- لو عدت إلى الوراء ..

- لو عدت إلى الوراء لأخذت هذه الحياة بكل ما فيها من قرف .. لأنني عندما أعود فسوف تعود كل ظروفى النفسية والاجتماعية والسياسية .. وسوف أتحول في آلة العصر .. مسمارا ضمن آلة ضخمة .. وتدور الآلة وأدور معها .. وأبلغ هذا الذى بلغته ..

- وهل تأسف على شيء

- وما جدوى الأسف يا سيدى . لقد انتهى كل شيء ..

- والذى تفكر فيه الآن ؟

- أفكر فى أن التفكير لا جدوى منه .. ولن يكون عندى متسع من الوقت لكى أعرف .. ولكن عندى إحساساً غريباً الآن .. هدوء وصفاء .. وأفكار كثيرة ومشاريع أدبية .. كانت كلها نائمة .. ومعنى ذلك أننى عندما كنت مشغولا ، كنت مشغولا عنها .. تماما كما تنصرف إلى عملك ، وتنشغل عن الواقفين على باب مكتبك أو عن الجالسين معك .. أو عن سماعة التليفون التى وضعتها وتركت واحدا على الخط .. أما الآن .. فلا أحد أمام الباب ولا فى المكتب ولا على الخط ، فلم تعد مشغولا عن الذى فى داخلك .. بل أنت لا تستطيع أن تنشغل بهذا الطارق الطارىء الجديد .. لا وقت !

وقال أحد الحاضرين وبسرعة خوفا من أن تخونه الكلمات : إن كانت فى حياتك امرأة يا أستاذ فلماذا لا تتزوجها فورا ؟

وضحك الأستاذ العقاد حتى خشينا عليه أن يموت من شدة الاهتزاز بكل جسمه .. بكل البطاطين والسرير أيضا .. وضحكنا نحن أيضا ، حتى أحسسنا أن البيت سوف يهدم فوق رؤوسنا فنحن أيضا نهتز مجاملة للأستاذ وسعادة لسعادته وتوقعا لشيء سوف يقوله : أنت فقط تريد أن ترى أرملتي : هاها !

ولم نجد ذلك مضحكا . وإنما استرحنا إلى أن الأستاذ العقاد قادر على الضحك ، وعلى تشجيعنا على ذلك ..

وحول سقراط جلس تلامذته أكثر حزنا وأكثر حيرة . ولا يعرفون كيف يقنعون سقراط بألا يموت بالسم .. ولم يفلحوا ..

وجاء من يحمل له السم . وودع سقراط تلامذته . وأوصاهم بالتساؤل ليعرفوا أكثر .. ونصحهم بأن يعمقوا ما يعرفون . وطلب أن يكون وحده عند شرب السم . وأخذ الكأس وأدناها من فمه . وتقلصت أساريره . وأحس بمغص عنيف . ووضع يده على بطنه . وأخفى وجهه . وسحب الغطاء . وتمدد دون أن يظهر الألم على وجهه ..

وتوارى مثلا أعلى ونموذجا رفيعا لحب الحقيقة والسهر عليها . والدعوة لها . والموت في سبيلها بشجاعة وكبرياء !

مات سقراط عن سبعين عاما سنة ٣٩٩ قبل الميلاد واختلف تلامذة سقراط .

أناس حاولوا أن يقلدوه في طريقته في الكلام . وفشلوا . مثلا : يوم ودعوه وقفوا صامتين لا أحد يريد أن يتكلم ولا يعرف . حتى تشجع واحد فقال :

- هل سنقف هنا طويلا ؟
- وهل وقفنا ؟
- إذا لم نكن جالسين ، فنحن واقفون .
- ليس الوقوف والجلوس هما الوصفان الوحيدان للانسان .. فمن الممكن أن ينام واقفا وأن ينام جالسا ..
- هل تريد أن تقول أنك الآن تتكلم أثناء النوم ؟
- بل أنا لا نائم ولا حتى أتكلم .. إنني أكلم نفسي .
- ولكنك تتكلم .
- وأنت سمعتني بالصدفة .. أنا لم أقصدك .. أنا أقصد هذا الكلب القادم نحونا !

ومثل هذا الحوار السخيف جعل التلامذة يهربون من بعضهم البعض . فقد مات الراعى ، فتفرقت الأغنام ..

انقطع الخيط فتفرقت حبات العقد .!

لقد أخذ سقراط المعانى معه ، فأصبحت ألفاظ تلامذته بلا معنى !

وبعض تلامذته اختار أن يمشى عاريا حافيا وأن ينبح .. تماما كالكلاب .. وقالوا : إننا ننبح الرذيلة !

وبعضهم قرر ألا يعود إلى البيت . وأن ينام فى الشارع .. وفى براميل الز [illegible] بعضهم اتجهوا إلى الشذوذ الجنسى احتقارا للمرأة واستغناء عنها ..

أما تلميذه العظيم أفلاطون فقد نشر هذه المحاورات . وحاول أن يطبق آراءه فى السياسة . فأعطوه جزيرة لكى يقيم عليها المجتمع السعيد الذى يتساوى فيه كل الناس . والذى يكون فيه الفيلسوف هو الملك .. فقد كان الفيلسوف هو الصعلوك سقراط ..

وفشل أفلاطون فى تحقيق حلم الفلاسفة فى أن يكونوا ملوكا يطبقون آراءهم .. وتحقيق حلم الملوك فى أن يكونوا فلاسفة أى لهم القوة والحكمة .. لهم السيف والمصباح .. لهم الطريق والطريقة !

• • •

وفى إحدى ليالى الشتاء فى جمعية « الاخوان المسلمين » بامبابة .. وكانت « ليلة القدر » .. وكانت لى قصيدة .. ألقيتها وجلست . وكان فى أذنى صفير وتصفيق وضوضاء .. ولا أدعى أننى عرفت شيئا مما يقال حولى .. ولا رأيت بوضوح . واقترب منى أحد الاخوان وسحبنى إلى ركن فى غرفة مغلقة . وأقفل الباب وقال لى : هل تعرف معنى الذى قلت :

ـ ما الذى قلت ؟

ـ هذه القصيدة .

ـ مفروض أننى أعرف وأننى نظمت وأننى ألقيت .. وأننى مسئول عن كل كلمة . فماذا قلت !

- لا تغضب منى .. أنت صغير .. وأنا فى مقام والدك .. ووالدك لا يرضيه الذى قلت .. فهو رجل متدين متصوف . وأنت شاب مؤمن ما فى ذلك شك .. ولكن هذا الذى جاء فى القصيدة .

- لا أفهم

- كيف تتساءل : ما السماوات .. ما الجنات .. ما النار .. ما الطريق بين المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؟

- ألا يصح أن أتساءل ؟

- يصح . ولكنك تعرف الإجابة .. ثم ما الذى تتوقعه من السامعين إذا قلت لهم : ما عقول بلا سؤال .. ما سؤال بلا تعجب .. ما تعجب بلا عيون .. ما عيون بلا حدقات .. ما حدقات بلا إنسان .. ما إنسان عين لا يرى إنسانا .. ما سماء لا تظل أحدا .. إنك تفزع الناس أنك تشكك فى كل شىء ..

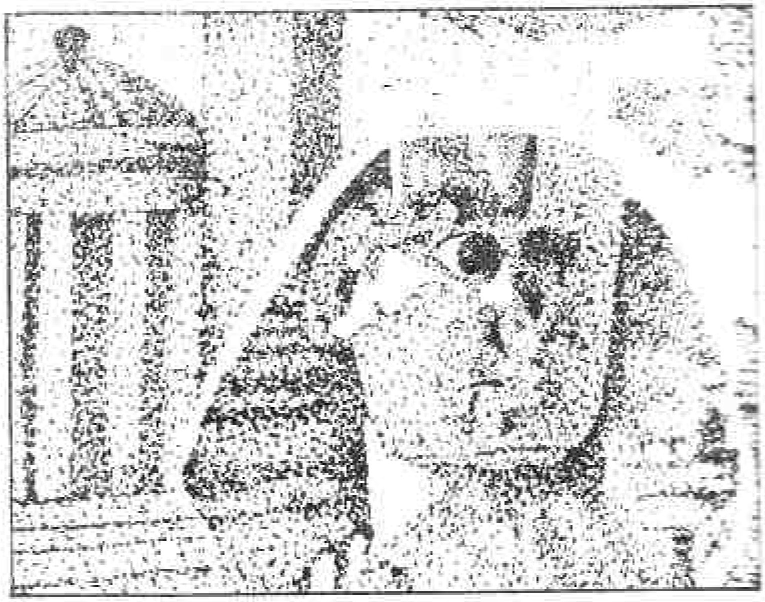
- معك حق ؟

- معى حق فى أنك تشكك فى الدين .

- لا أفهم .

- انتهى كل شىء !

ولم يفهم أننى استسلمت للفيلسوف العظيم سقراط .. ونسيت المناسبة والمكان والزمان .. فقد تخيلت أننى ما زلت جالسا على سلالم المكتبة .. أحنى رأسى وأدور بعينى فى الأرض وفى عيون الناس ، وانقلب بين السماء والنجوم .. وعلى فراشى رسمت علامات الاستفهام والتعجب وعلى مخدتى صورة أستاذ أساتذتى : سقراط !



لكن سقراط لا يعيش في بولاق الدكرور

لكن سقراط لا يعيش فى بولاق الدكرور ..

كان من عادتى وأنا طفل فى المنصورة أن أذهب إلى محل حلوانى فى شارع السكة الجديدة . ولا أعرف السبب .. أما الحلوى فأراها كما هى كل يوم . لا تغيير .. ولكن عرفت فيما بعد أن الذى يشغلنى هو شكل الرجل صاحب المحل .. إنه قرفان دائما .. وإذا تناول طعاما فهو يأكل العيش والملح .. أو العيش والجبن القديم . ولكن لا يذوق الحلوى .. بينما الأطفال سعداء بالذهاب إلى المحل والوقوف عنده .. وإنتظار دورهم فى أن يقدم لهم ما يريدون .

وأحيانا تتسلل أيديهم إلى الحلوى فيراهم ويعطيهم .. أو يشجعهم على ذلك .. والذى يأخذه الأطفال يحذفه من القراطيس التى يعطيها لهم .. واندهش الرجل .. وكذلك لأولاده عندما يجيئون إلى المحل ويبيعون .. إنهم أيضا لا يأكلون شيئا من الحلوى .. ولابد أن يكونوا قد زهقوا منها .. فهى عندهم طول الوقت ..

فقط هذه الملحوظة هى التى أسجلها لنفسى كل يوم .. ولكن لا أذهب فى فهمى أبعد من ذلك : إن بائع الحلوى لا يذوقها .. أو لأنه ذاقها كثيرا ، فقد قرف منها ..

وكنت أرى بائع العرقسوس يضع برميلا زجاجيا على صدره ، فيتراجع إلى الوراء .. وأرى الذى يحمل القربة يضعها على ظهره فينحنى إلى الأمام .. وأرى الذى يعمل فى صباغة الملابس أسود اليدين والأظافر .. وأرى الحداد غليظ الذراعين ..

فكانت المهنة واضحة الأثر فى كل هؤلاء .. فالمهنة تترك أثرا عضويا أو توترا عصبيا ..

وفى الريف كنت أرى المرأة ، المعددة ، التى يستأجرونها لكى تعدد مزايا الميت وتبكى عليه وتثير النساء فيبكين .. إنها تقوم بدور عصير البصل فى العيون ، بدور الشطة على كل لسان : هذه المرأة جامدة .. تذيب النساء دمعا وهى لا تبكى ولا تحزن . إنها احترفت إذابة الدموع ، ورؤية الدموع دون أن يهتز لها جفن ..

ولو تطلعت فى وجوه الناس فترة أطول وأعمق لرأيت العجب .. ولكنى كنت أتوقف بسرعة وألاحظ وأمضى لكتبى .. فلم يكن عندى وقت لكى أتأمل واستسلم وأرتب النتائج وأخرج منها برأى أو نظرية .. فلم يكن الوقت كافيا ، ولا كنت قد تعلمت أن أتأمل وأن أسجل كل ذلك ..

وكلما رأيت أساتذتى فى الفلسفة استعدت كل هذه الصور ..

فالشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية : لطيف رقيق أنيق واضح القلق .. ولكن كل الحزن فى صوته وهو يتلو القرآن والأحاديث ويستعرض النظريات الفلسفية . فبالله ما الذى استفاد ، وكيف يفيدنا ؟

د . عبد الرحمن بدوى أستاذ الفلسفة والمنطق صارم الملامح جاف خشن لا عواطف لا مشاعر جارح الألفاظ قرفان دائما .. فما الذى أعطته الفلسفة وما الذى يستطيعه لنا ؟

د . على عبد الواحد وافى أستاذ علم الاجتماع نحيف جاد ، لا يكن حبا لأحد من زملائه ، ولانحن نكن له شيئا من ذلك . لا هو أفلح فى أن يجعلنا نحبه ، ولا أفلحنا نحن أيضا فى أن نجعله يحبنا ..

د . عبد العزيز عزت أستاذ علم الاجتماع إنه قصير دائرى التكوين لطيف يضحك بصورة عصبية ولكنه لا يكف عن اتهام كل الناس بأنهم جهله . ونحن أيضا .. ولا يضحك ولا يعطى أملا لأحد أو فى شىء ..

د . يوسف مراد أستاذ علم النفس ، إنه هو الآخر فى حالة قرف وملل يتكلم وهو كأنه يخاف أن يقول ، ويخاف أن يسكت .. وهو دائم النظر إلى وجوهنا .. يتوقع أن تسقط عيوننا تحت قدميه ليدوسها ويسحبنا جميعا عميان وراءه فى ظلمات النفس البشرية .. لا هو مستريح ولا هو مريح !

د . عثمان أمين أستاذ الفلسفة الحديثة : إنه فتح أبواب الفلسفة وأقفلها على

فيلسوف واحد هو الفرنسي « ديكارت » .. هو أول التفكير وهو آخر التفكير .. هو البداية ويجب أن يكون النهاية .. وكلّ الفلاسفة قد أخذوا منه ـ كلهم لصوص . أما أساتذة الفلسفة ، أساتذتنا ، فهم جهلاء وهم كذابون وهم أميون جميعا .. وسوف نرى ذلك فيما بعد .. أما الفلسفة الإسلامية فهي أيضا قد بدأت وانتهت بالإمام الشيخ محمد عبده .. وقد تخصص د . عثمان أمين في هذين الرجلين وكتب عنهما أجمل وأوضح ما ظهر في اللغة العربية . ولكنه هو شخصيا قد تجمد تماما عند هذين الرجلين ويريدنا كذلك !

الأستاذ محمد محمود خضيرى أستاذ الفلسفة الإسلامية . فهو رجل لطيف خفيض الصوت له ابتسامة حلوة صافية .. وهو لا يكره أحد ولايحقد على أحد . ولا يعمز ولايلمز .. ولكن المادة التى يدرسها لنا جافة ولغتها جافة جدا .. فهو صورة مختلفة عن الذى يقوله لنا .. وإذا رفع عينه عن الكراسة التى يملى منها ، كان ألطف وأوضح .. وكان هو الوحيد من الأساتذة الذى به أبوة وأخوة .. ولكن هذه الأبوة يفسدها ما يقوله ، وهذه الأخوة تحرقها لغته الجافة ..

د . لامونت رئيس قسم الفلسفة .. رجل انجليزى في غاية الرقة واللطف . وهو إذا تكلم أحسسنا كأنه يمشي على بيض أو على شوك أو على نار .. يمشي بحساب شديد . يريد أن يقول كلاما دقيقا جدا . ولذلك فمن خوفه أن يقع أو يخطيء شديد الكآبة ويقسم بعض الزملاء أنه رآه يضحك مع عميد الكلية . وتمنينا لو رأينا هذا المنظر !

ود . بريستياني أستاذ علم الاجتماع وهو رجل يونانى . وله كتاب مشهور عن بعض القبائل البدائية . وهو يدرس لنا هذا الكتاب . يدرسه فقط لطلبة الامتياز . وكنت أنا طالب الامتياز الوحيد في قسم الفلسفة . وهو رجل لطيف ظريف . وكثيرا ما دعاني إلى بيته بين زوجته وأولاده .. ولكنه يتكلم في موضوع واحد لا يمل تكراره . وقد مللت !

ود . مصطفى حلمى أستاذ التصوف وهو رجل ضرير . وكان أخف الأساتذة دما ، فهو يعلم أن الفلسفة مرهقة للأعصاب ولذلك كان يداعبنا لنضحك . وكان هو يضحك أيضا .. وكان يستخدم النكت والقفشات لتجديد نشاط الطلبة في محاضراته . ولكن فجأة ينقلب غاضبا ساخطا لأتفه الأسباب

ويلعن الطلبة والفلسفة واليوم الذى ، رآنا ، فيه .. ونقول : معذور !

ود . منصور باشا فهمى ، وكان يدرس لى وحدى ، ، علم الجمال ، وكان قد انقطع عن القراءة وقتا طويلا . لقد أصبح من معالم المجتمع المصرى الجامعى والثقافى . ولابد أن يكون الأستاذ العقاد قد ساعدنا على أن نراه فى أسوأ صورة . فقد كان دائم السخرية منه ومن علمه وثقافته .. وكنت أشعر بالتعاسة فى محاضراته . فقد كان يختار أصغر حجرة فى الكلية .. نجلس نحن الاثنين معا .. وكان يدخن البايب . وأنا أختنق . فلم يسألنى مرة إن كنت أضيق برائحة الدخان . وحتى عندما يصاب بالزكام فإنه يظل يسعل ويعطس ويدخن والباب مغلق علينا . ولكنه لا يعتذر ولا يهمه أن تنتقل لى العدوى . وأكثر من ذلك فأنا الذى ترجمت كتابا من الفرنسية إلى العربية عن ، مبادىء علم الجمال ، .. فأنا الذى أقرأ وأنا الذى اشرح وهو يستمع .. ثم فوجئت به يطلب منى هذا الكتاب ، ويلقى منه محاضرات فى الراديو ..

والسيدة برج أستاذة اللغة الألمانية .. إنها سيدة عجوز لها سيارة صغيرة مثلها . وكانت تطلب منى ان أذهب إليها فى بيتها فى منيل الروضة لأركب معها السيارة ونتحدث قبل المحاضرة . وعرفت فيما بعد أنها فى حاجة إلى من ، يزق ، لها السيارة كل يوم . وكنت أفعل . فإذا انتهت المحاضرة حملت لها الشنطة المليئة بالكتب والتى لا تفتحها . ولكنها تأتى بها كل يوم .. فإذا عدت معها إلى البيت ، اجلستنى بعض الوقت لكى تقدم لى الشاى والجاتوه .. ولكن قبل الشاى وبعده لابد من معركة طويلة عريضة بلغة عربية مكسرة مع الخادمة ، التى لا تفهم معظم الذى تقول .

د . ابراهيم بيومى مدكور أستاذ الفلسفة الإسلامية ، وكان عضوا فى البرلمان .. وكان يحاضرنا واقفا مرتجلا . وكان هو أيضا متجهما . كأنه قاض فى محكمة الجنايات . وليس أمامه إلا عشرات الأحكام بالاعدام والسجن .. المؤبد .. وكانت محاضراته نوعا من الخطابة مع ضغط شديد على كل الحروف . وبعد المحاضرة لا نجده .. فهو ألقى خطبته واختفى .. والذين عرفوه عن قرب يقولون .. أنه يسأل الطلبة عن أحوالهم وهو يعنى ما يقول لأنه أب وأخ ..

ولكننا لم نر شيئا من ذلك !

.. باترى سويسرى يدرس لنا اللغة اللاتينية . واللغة جافة . معادلات حسابية ، وهو يدرسها باللغة الفرنسية التى ينطقها هو نطقا غريباً . وهو مثل آلة ناطقة . فنحن فى محاضرة اللغة اللاتينية فى ضيق شديد غير قادرين على استيعابها ، وغير قادرين على فهمه .. ولكننا الذين ندرس اللغة الألمانية نجد تشابه شديداً فى القواعد ، ونستعين باللاتينية على الألمانية ، والعكس أيضا . كنت أجد فى اللاتينية والألمانية لذة مؤكدة . وفى اللغة الألمانية كنا نحفظ الشعر وكذلك الشعر اللاتينى . وكنت استخدم الشعر فى الإجابة عن بعض الأسئلة . ولكن الأستاذ باترى لا يستريح إلى ذلك قائلا : يجب أن تتصرف كطفل .. ولا تكن كالببغاء . معه حق . فقد عانيت من ذلك وأنا فى المدرسة الابتدائية عندما كنت أستشهد بالشعر والآيات القرآنية .. وكان المدرسون يتصورون أننى أغش أو أقتبس من الكتب . حتى عرفوا أننى أحفظ شعرا كثيرا وأننى حفظت القرآن الكريم قبل أن أدخل المدرسة الابتدائية .. ولكن الأستاذ باترى قد نهرنى بصورة قاطعة : إذا كتبت بيتا واحدا من الشعر ، فسوف أعطيك صفرا . هذا نهائى !

وأحيانا كنت أتخيل الأساتذة جميعا فى وجه واحد مثل وجه أبى الهول : حجر جامد أصم أبكم ونحن كالرمال على جانبيه وبين يديه .. وهو لا يدرى بنا ولا يدرى بها !

• • •

ربما كان هذا هو السبب الحقيقى وراء حرصى على أن أذهب إلى دكان الحاج عمران فى بولاق الدكرور .. رغم المسافة الطويلة من إمبابة .. ورغم الوحل والطين والذباب فى الطرقات . ورغم أننا نجلس على الحجارة والرمل .. وإننا ننهض من حين لآخر إذا مرت عربية كارو .. حتى لا يصيبنا رذاذ الوحل .. ولكن كل ذلك يهون عند دهشتى التى لا تنتهى . وعندى سببها : الراحة الهائلة عند هؤلاء الناس : لا هم أساتذة . ولا هم فلاسفة . ولا هم فتحوا مدرسة لمحو التعاسة اليومية .. فقط إن السعادة كالمسبحة يداعبونها بأصابعهم ويستعيرها الواحد من الآخر .. إن كل واحد منهم مرآة لصاحبه .. يرى سعادته فيها .. فهم جميعا سعداء ..

مثلا فى أحد من تلك الأيام ، وكنت قد دفعت سيارة السيدة برج ، ذهاباً وإيابا ثم أربع ساعات فى دراسة عقد قضايا المنطق القديم والحديث .. وزيارة مستشفى الأمراض العقلية ، أوجعت القلب وأتعست العقل ، وأطفأت كل نور فى هذه الدنيا .. بعد هذا اليوم الطويل ذهبت بعد صلاة العشاء إلى دكان الحاج عمران .. وكان هو والإخوان قد عادوا من المسجد ..

لا أعرف أكثرهم .. ولكنهم فى حالة من الانتعاش .. الوجوه مغسولة والنفوس أيضا ، وشهيتهم للكلام مفتوحة دائما ..

قال واحد : بل أعظم الشعر هو الذى قاله أبو الأسود الدؤلى :

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
كيما يصح به ، وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه ، فأنت حكيم
فهناك تعذر إن وعظت ويقتدى
بالقول منك ، ويقبل التعليم
لاتنه عن خلق وتأتى مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

قال آخر : بل هذان البيتان هما أروع ما سمعت :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله
فأجسامهم قبل القبور : قبور
وإن امرأ لم يحى بالعلم ميتا
فليس له حتى النشور ، نشور !

وقال ثالث : بل هذان البيتان :

علمى معى حيثما يممت يتبعنى
قلبى وعاء له لابطن صندوق
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى
أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

أما الحاج عمران فقال : والله أحسن ما قيل هو ما قاله سيدنا وإمامنا علي بن أبي طالب :

قال كرم الله وجهه :

إن المكارم أخلاق مطهرة

فالعقل : أولها والدين : ثانيها

والعلم : ثالثها والحلم : رابعها

والجود : خامسها والعرف : سادسها

والبر : سابعها والصبر : ثامنها

والشكر : تاسعها واللين : عاشيها

والنفس تعلم أنى لا أصدقها

ولست أرشد إلا حين أعصيها

والعين تعلم من عيني محدثها

إن كان من حزبها أو من أعاديها

عيناك قد دلتا عيني منك على

أشياء لولاهما ما كنت تبديها !

الله - الله - كلهم يقولون معا .

أما هذا الرجل الذى لم أره من قبل ذلك اليوم ، فهو أحسنهم نطقا وأقلهم كلاما وأكثرهم انتباها إلى ما يقال ، وإن كان لا يعلق كثيرا .

فقد قال : أما أحسن ما قرأت للقاضى علي بن عبد العزيز :

يقولون : فيك انقباض وإنما

رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من دانهم هان عندهم

وما كل برق لاح لى يستفزنى

ولا كل من لاقيت أرضاه منعما

إذا قيل : هذا منهل قلت : قد أرى

ولكن نفس الحر تحتمل الظما

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى

لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما

أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة
إذن ، فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما !
- وأنت ؟

وكان المقصود أن أقول أنا أيضا شيئا من الشعر أو الأدب - وكأننى لا أجد ما أقول .. أو اكتفيت بما سمعت ، مع دهشتى التى لا تنتهى من هذه البساطة والسهولة والارتياح لما قالوا وقيل لهم .. فلم تسعفنى ذاكرتى ، على كثرة ما أحفظ فقلت : عبارة قديمة تقول : إذا اشتد الكلف - بفتح الكاف - هانت الكلف - بضم الكاف .. أى إذا اشتد حب الناس لشىء ، هانت تكاليفه من التعب والعذاب ..

فضحك الحاج عمران قائلا : يعنى الغاوى ينقط بطاقيته - أى أن الحب بهدلة .. حب الأدب والشعر والفلسفة وحب الناس وحب النفس وحب الدنيا وحب الآخرة - والله اعلم .

* * *

إذن .. إذن ..

إذن هؤلاء الناس الطيبون يتكلمون .. يتحاورون .. ويسمعون لبعضهم البعض .. ويصدقون ما يسمعون .. ويصدقون الذى يقولون .. وعندهم استعداد دائم لأن يقولوا .. وهم يقولون أحلى الكلام ، شعرا ونثرا .

أما نحن - طلبة الفلسفة - فلا حوار بيننا .. فالذى نسمعه لانردده .. وإنما هو عبء ثقيل .. نحاول أن نلقى به من فوق أكتافنا ، ونفرغ منه رؤوسنا . ثم أن الذى نسمعه نهدمه .. أو نتحايل على ذلك .. فكلماتنا إن لم تكن طوبا فهى زلط ، وإن لم تكن زلطا فهى رصاص نطلقه على بعضنا البعض .. فكل فيلسوف هو مدفع يجب أن ينطلق على فيلسوف آخر .. وعلينا نحن أن نجمع الشظايا من هنا وهناك ونصنع منها ملابس وبيوتا للوقاية والعلاج والحياة ..

فلا نحن مرتاحون إلى ما نسمع ولا إلى ما نقول .. ولا نحن نقول .. ولأن معلوماتنا متشابهة ومحدودة ، فليس لدينا استعداد لأن نسمع ما نعرف .. ولذلك فلا كلام بيننا ..

وعلم النفس يقول لنا : أنه لا شيء يريح التعبان إلا أن يقول ويقول .. إلا أن يقذف بما في صدره ..

وكان بعض الفلاسفة عندما يضيق بالناس ، يختار إحدى الأشجار ويحدثها ، وهو يعلم أنها لا تسمع .. ولكنه لايستطيع أن يسكت ، وأن يطوى نفسه على نفسه ..

والأطفال يحدثون أنفسهم والشيوخ أيضا ..

وقد ظهرت المقاهي في التاريخ لأن الناس يريدون أن يقولوا .. أي شيء لأي أحد في أي وقت وفي ذلك راحة لأنفسهم ..

وكذلك اعتراف المذنبين في الكنائس ..

والرهبان الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع يتحدثون بصوت مرتفع ، وبعضهم يتخيل ملائكة وشياطين .. ليكون بينهم حوار أو لعنات .. فهو يخرج هذه الشياطين والملائكة من أعماقه .. يصنعها يخترعها ، لأنه يريد أحدا آخر يتحدث إليه ..

حتى آدم عليه السلام قال شعرا . قاله لنفسه ، فلم تكن البشرية قد انحدرت منه بعد .. فقط أربعة توائم ولد وبنت ثم ولد وبنت .. وأحد الولدين قد قتل أخاه . قال آدم شعرا ، يحدث نفسه ، فآدم عليه السلام هو أكثر المخلوقات شعورا بالوحدة والدهشة في التاريخ .. فقد جاء في كتاب ، مروج الذهب ، للمؤرخ العربي أبي الحسن على بن الحسين بن على المسعودى على لسان أبينا آدم وباللغة العربية (؟!) :

تغيرت البلاد ومن عليها
فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى لون وطعم
وقل بشاشة الوجه الصبيح
وجاورنا عدو ليس ينسى

لعين لا يموت فنستريح
وقتل قابيل هابيل ظلما
فوا أسفا على الوجه المليح
فمالى لا أجود بسكب دمع
وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة على غما
وما أنا من حياتى مستريح !

وسمع آدم عليه السلام صوتا يرد عليه ، لعله صوت الشيطان ، سمعه ولم يره قال أبليس ..

تنح عن البلاد وساكنيها
فقد فى الأرض ضاق بك الفسيح
وكنت وزوجك الحواء فيها
آدم من أذى الدنيا مريح
فمازالت مكايدتى ومكرى
إلى أن فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمة الرحمن أضحت
بكفك من جنان الخلد ريح

ويقال ان آدم سمع صوتا ولم ير شخصا ينشد هذا البيت :

أبا هابيل قد قتلا جميعا
وصار الحي بالميت الذبيح !

فازداد آدم حزنا على أن القاتل سوف يكون قتيلا .. وأن كل من عليها فان .. لقد استراح آدم عندما قال وعندما سمع من يرد عليه .. عندما كان هناك حوار ما ، أو تخيل أن هناك حوارا ..

والذين يترددون على أطباء النفس ليس من الضرورى أن يكونوا مرضى ، وإنما كل ما ينقصهم أن يجدوا أحدا يسمع إليهم .. فقط ينظر إليهم وهم يتكلمون .. وكثيرا ما توهم المريض أن الطبيب مهتم به بصفة شخصية .. فيحب الطبيب .. وتكون مشكلة خطرة عندما تكون مريضة تحكى وتروى والطبيب يستمع باهتمام شديد وتتوهم أنه مهتم بها شخصيا .. أى أنه يحبها ،

فحبه هى أيضا .. وتصبح وتتضح مهمة الطبيب : كيف يخلص المريضة من هذا الوهم .. فقد اختلط الأمر على المريضة .. فقد ظنت « الاهتمام المهنى » اهتماما عاطفيا شخصيا . ولكن المريضة معذورة ، لقد وجدت من يستمع إليها طويلا دون ملل !

وقد ضحكنا كثيرا عندما نشرت الصحف الأمريكية أن « وكالة للمستمعين » قد أنشئت فى أمريكا ، الوكالة أعلنت أن لديها مستمعين من كل نوع .. وأن هؤلاء المستمعين لديهم صبر عظيم .. وهم قادرون على الابتسام ساعات .. وهم قادرون على الإستماع إلى كل أنواع الكلام ؟ فى الرياضيات والفلك والفيزياء والفلسفة والدين واللاهوت .. وأن المستمعين على استعداد لأن يجلسوا إلى من يريد فى أى وقت وفى أى مكان .. وأن يرتدوا من الملابس ما يحبها المتكلم .. وبعضهم يستطيع العزف على البيانو أثناء الكلام ..

والوكالة أعلنت عن استعدادها لتزويد مستمعين قادرين على التحمس والمتابعة .. وأنهم بذلك يؤدون خدمة عظيمة للذين يشعرون بالوحدة واليأس من الحياة ..

وتقول الوكالة أيضا : أن هناك مستمعين قادرين على أن يشاركوا في الحوار إذا أردت .. وقادرين على أن تكون أصواتهم هادئة وخشنة .. وإذا أردت أن يضربوك ، وإذا أردت أن يمسحوا دموعك إذا بكيت ، فلن يترددوا ..

أى أن الوكالة تعلن عن استعدادها لإمداد الناس بكل أنواع الناس ..

وهذه الوكالة قد نشرت جدولا بنوعيات الوجوه والأصوات والملابس وساعات الليل المناسبة لكل إنسان .. وتؤكد أنها أقل تكلفة من التردد على عيادات الأطباء النفسانيين ..

وليس فى استطاعة أساتذة الفلسفة أن يفعلوا مثل سقراط .. أو مثل أرسطو .. فكلاهما يتكلم ماشيا على قدميه : ثم هو يهز الطلبة بالتساؤل .. ويهز عقولهم بتصحيحها والتشكيك فيها . وتشجيعها أيضا .. ثم تقديم معلومات ونظريات جديدة .. إنه يستخرجها من عقولهم .. كما تستخرج « المولدة » المولود من بطن أمه .. وهى تطلب منها أن تساعدها بالصراخ .. لعل صرخة عالية تقذف بالطفل إلى الخارج .. وكان سقراط يقول : إننى مثل والدتى .. هى تستخرج المولود من بطن أمه .. وأنا استخرج المعانى الوليدة من عقول الناس ..

لم يعد أحد من الأساتذة في أى علم قادرا على أن يكون سقراط . ولا نحن قادرون على ان نكون تلاميذه نتمشى فى شوارع الجيزة أو بين الكليات .. ولا الفلسفة هى المادة الوحيدة التى ندرسها ليلا ونهارا . ولا أن مشكلتنا الوحيدة هى الفلسفة .. وإنما المسكن والمأكل والمواصلات والأسرة والمستقبل .. وصعوبات ومخاوف وأوهام وخرافات أخرى لا نهاية لها .

ولو ظهر سقراط فجأة فى بولاق التكرور ورأى هؤلاء الناس الطيبين ينظرون إلى الأرض دون ضيق من الطين والوحل والذباب وإلى السماء فى سعادة ، لكسر الأحجار فوق أدمغتهم وحشرهم فى البراميل التى يجلسون عليها وتدحرجها فى النيل . فهم نماذج لما لا يحب ولمن لا يحب .. للعقول التى لا تعرف القلق ، والنفوس التى لا تعرف العذاب ، والقلوب التى لا تعرف الشقاء .

إنهم لم يذوقوا لظى الفكر الملتهب ، ولم يبهرهم ضياء المعرفة ، ولم تخفهم الهوة السحيقة التى تفصل بين العلم والجهل .. فإن لم يكن سقراط حاقدا على هؤلاء الناس ، فسوف يلقى هو بنفسه فى النيل قتلا أمام هذه السعادة فى الإيمان ، والرضا بالقليل ، والأمل فى الحياة ، واليقين من النجاة ..



كأنها نهاية العالم

كأنها نهاية العالم

جلسنا نحن الثلاثة ..

أنا قلت : هل هناك معنى لهذه الحياة . جوابى : لا معنى ! هل هناك هدف من هذه الحياة ؟ الجواب : لا هدف .. هل هذه الحياة تساوى هذا العذاب .. هذا العناء .. هذا الهوان .. هذا الذل .. هذا الشعور دائما بأننا تافهون جهلاء .. وأنه لا وقت لأن نعرف .. فإذا عرفنا فما قيمة هذا الذى عرفناه .. ثم ما الذى نعرف . أن الأرض أصلها من مادة .. والمادة لا شكل لها .. وأن الله هو الذى شكل هذه المادة .. ثم فلاسفة يقولون بل مادتان .. وآخرون يقولون : بل ثلاث .. وغيرهم يقولون : أربع .. وخمسون يقولون بل أصل الكون ذرات صغيرة .. وكل ذرة روح .. وكل روح فى داخلها برنامج .. فى داخلها عقل الكترونى يقول لها : انضمى إلى هذه المادة .. ادخلى فى حلف معها .. فى عداء .. فى صداقة .. فى عناق .. أو هذا الحيوان المنوى ينفرد بهذه البويضة .. ليكون إنسانا .. أنا وأنت .. ليكن . ما المعنى ؟ ما الفائدة .. ما الحكمة .. لا حكمة نحن فقط نحاول أن نجعل لحياتنا معنى .. أن نجعل لوجودنا أهمية .. قيمة .. مثلا مثلا .. نحن نجيء الى هذا البقال كل يوم .. هل هناك هدف ؟ أبدا .. هل هناك معنى ؟ لا معنى .. ولكن إحساسنا بتفاهة المشوار وهيافة الحديث ، نحاول أن نجعل لأنفسنا قيمة أو ضرورة .. فنحدثه عن الذى سمعناه فى الجوامع وفى جمعية الإخوان المسلمين .. بل أحيانا نحدثه عن الذى قاله الأساتذة فى المحاضرات .. ونحاول أن نجعل كل شيء مفهوما له ومضحكا أيضاً حتى اعتاد الرجل أن يسألنا .. إنه هو أيضاً يريد أن يهون علينا هذا الوضع التافه .. نحن اعتدنا أن نقول ، وهو اعتاد أن يسأل . اتفقنا على أن نجمع له الحكايات وهو ينتظرها وأثناء ذلك يجيء الشاى بالنعناع ونحصل على كراريس المحاضرات بالتقسيط .. هل تظن أنه إذا لم يكن عنده

شاى بالنعناع ، وإذا لم يكن يقبل تقسيط الكراريس ، هل كنا نذهب إليه ونحدثه .. أبدا .. فالرجل جاهل وصحته عليلة وهو يبعث على الحزن والأسى .. والمكان قذر والزبالة والوحل والذباب .. ثم إننا جالسون على قوالب الطوب وعلى مقاعد مكسرة .. والرجل ليس أحسن حالا من بقية أصدقائه الذين جاءوا لأنهم يريدون ذلك .. ولأنهم مرتبطون به عائليا وتجاريا .. ثم إنهم يتدارسون فى حدود ضيقة ، آيات القرآن الكريم والأحاديث .. أكثر من ذلك .. أننا رأينا ثلاثا من بناته .. البنات جميلات .. طالبات مثلنا .. ونتمنى أن يكون بيننا حديث هنا أو حتى فى الجامعة .. لم نتمكن من ذلك إلا لحظات .. ولكننا نريد .. وأنت شخصيا لم تمانع فى الزواج من واحدة منهن .. بل انك اقترحت أن نتزوج نحن الفتيات الثلاث .. ألم يحدث ذلك ؟

قال الثانى : عندنا فى « التلمود » وهو كتاب اليهود الأعظم أن الأسكندر زار أحد الملوك . فأجلسه الملك إلى جواره . وجاء رجلان يتشاجران ويحتكمان للملك . قال الرجل : يا جلالة الملك أنا اشتريت منه بيتا . وفجأة وجدت تحت البيت كنزا فذهبت إليه أرد له الكنز .. لأننى اشتريت البيت فقط .. ولم اشتر الكنز .. وقال الرجل الثانى : أنا بعت له البيت . بما فيه .. بما تحته وما فوقه .. ولذلك فأنا لا أستحق هذا الكنز ...

وضحك الملك : هل لك ولد ؟

قال أحد الرجلين : نعم ..

وسأل الملك الرجل الثانى : هل لك بنت ؟

قال الرجل : نعم ..

قال الملك : إذن ليتزوج الولد والبنت ، فيكون الكنز من نصيبهما !

أما الإسكندر فقال : القانون عندنا أن من يجد كنزا فى أى مكان فهو من نصيب الملك !

فقال الملك للإسكندر : هل تشرق الشمس فى بلادك .. هل تنزل الأمطار ؟

أجاب الإسكندر : نعم .

وسأله الملك : وهل عندكم حيوانات ؟ أجاب الإسكندر : نعم ..

وسأله الملك : إذن هذه الشمس وهذه الأمطار تنبت الزرع لتأكله الحيوانات

..نية .. وليس ليأكله الملك الظالم !

..معنى يا إخواني : أن هذه الحياة لنا .. يجب أن نعيش ، ونحن البسطاء ..، أعظم من كل العظماء .. أعظم من هؤلاء الفلاسفة الذين عذبوكم ..وكم ..

عندنا في التلمود أن الملك سليمان مد يده إلى الأرض فالتقط نملة ، وتركها في ..طن كفه وسمعها تقول له : أنا أعظم منك ! فسألها : كيف ؟ فأجابت : لأن الله بعثك أنت لكي اجلس أنا على كفك !

.. يهمني ، ويجب ألا يهمني من أين جاءت هذه الدنيا .. ولا أين تنتهي .. ..هم أنني هنا ، وأنني حي ويجب أن أعيش حتى نهايتي .. ولا أتعجل ..هاية .. ولا أفسد الطريق إليها ..

هذه هي الدنيا .. هذه هي الحياة .. ولا تسأل نفسك : وما الدنيا ؟ وما الحياة !

عندنا في التلمود أن مدرسا كان يقول لتلميذ صغير : قل ورائي .. ألف .. فرد التلميذ : وكيف أعرف أن هذه ألف ؟

فأمسك المدرس : أذنه وراح يضغط عليها بعنف والتلميذ يصرخ ويقول : ..سي .. فسأله المدرس : وكيف عرفت أنها أذن ؟ فأجاب التلميذ : الناس يقولون ذلك .

وكان رد المدرس وكذلك يقول الناس أن هذه : ألف !

إن فلاسفتكم يتفننون في صناعة الفوازير المعقدة .. وهم يعرفون حلولها مقدما .. ولكنهم يخفون هذه الحلول ليطاردهم الناس يسألونهم عن المعنى وعن الحكمة .. هذا لا يعنيني .. هذه حياتي . انتهى .. نحن أحياء .. انتهى ..

عندنا في التلمود : أن طالبا سأل مدرسا : كيف أفرق بين لبن البقرة السوداء ..ن لبن البقرة البيضاء ..

فأجابه المدرس : عندما تستطيع أن تفرق بين البيضة التي تضعها الدجاجة ..بيضاء والبيضة التي تضعها الدجاجة السوداء ..

هذه بيضة انتهى !

وعندنا في « التلمود » فوازير كثيرة مثلا : أن رجلا ألقى ببيضة فأغرق ستين مدينة .. وأن سيدة مصرية أنجبت ٦٠٠ ألف نسمة ..

حل الفزورة الأولى : أن رجلا كسر بيضة فوق ورقة مكتوب عليها اسم ستين مدينة ..

حل الفزورة الثانية : أن السيدة هي أم موسى عليه السلام : أنه مكتوب عندنا في التلمود أن موسى يساوى الشعب اليهودى كله !

باختصار شديد أتمنى أن اكتب كل الذى قلته الآن فى ورقة وأرمى الورقة في الزبالة .. أو أدفنها فى باطن الأرض فى احتفال مهيب يليق بصداقتنا وأخوتنا ومحبتنا وحرصنا على أن نعيش معا ونموت معا حتى نستريح من وجع الدماغ ونتفرغ للحياة !

قال ثالثنا : أمى مريضة جدا .. شفاها الله .. وهى عندما تفيق من الدوخة تدعو لنا بالنجاح .. وقد تعلمت منها شيئا أشكرها عليه .. فهى ليست لديها قدرة على التركيز .. ولذلك فأنا أحكى لها الحكاية الواحدة عدة مرات .. وإذا حاولت أن أتوقف لأنها غير قادرة على متابعتى ، فإنها تلح فى أن أقول .. وقد تعلمت منها أن « أسرح » إذا جلست إليها .. لأنه لا معنى لأن أقول ، فهى فى حالة غياب مستمر .. ان قدرتها على الفهم ، تشبه أصابع اليد العاجزة عن الاحتفاظ بأى شيء .. فلا هى قادرة على الفهم ، ولا من الضرورى أن أقول لها أى شيء .. ونحن إذا جلسنا معا .. هى تنظر ناحيتى ولا ترانى ، وتصغى ولا تسمع وأنا انتظاهر بأن أقول ، ولكنى لا أقول .. وأتظاهر بأن أسمع ، ولا أسمع وبمنتهى الصراحة أنا لم أسمع شيئا من كل الذى دار بينكما .. ولست اسفا على ذلك .. فقد عرفت الخلاف بينكما منذ سنوات .. ولكن الذى يهمنى جدا أننا أصدقاء رغم هذا الخلاف .. وهذه هى الحياة .. أننا سواء كنا راضين عنها أو ساخطين ، فنحن ما نزال أحياء .. والشيء الوحيد الذى يجعلنى أحتمل هذه الحياة ، أن عندى أملا فى أنها سوف تكون أفضل .. هذا ما كان يقوله أبى ، يرحمه الله .. وقد بدأ حياته صغيرا جدا .. ولكن بالإصرار والشجاعة والتضحية صار أكبر وأغنى ، واتسعت حياته وتألقت .. وكان عنده أمل فى أن يكون أفضل دائما .. وقد ورثت منه ذلك ، كما ورثت تعصبه الدينى .. والمسيح هو الذى علمنا : أقرعوا يفتح لكم .. أى أن الإنسان يجب أن يدق

الباب .. وأن يدق .. فسوف يجد أحدا يفتح .. عن رغبة أو عن رهبة أو عن ضيق .. ولكن لابد أن ينفتح الباب .. ومن ورائه باب ثان وثالث .. ولا شيء يدل على أن حاسة الشم عندك أنت قوية إلا رفضك لهذه المنطقة الكريهة الرائحة .. ثم تصورك أن الدنيا كلها كذلك .. ولا شيء يدل على أن حاستي الشم والنظر عندك أنت ضيقتان إلا عدم إحساسك بقبح هذا المكان وبشاعة لونه ورائحته .. ولو أحسست مثلنا ، لكرهت الدنيا كلها .. ولكنك تقبل الدنيا كما هي .. وتريدنا كذلك !

ونهضنا فجأة فقد مرت سيارة ملاكي بسرعة .. وقذفت بالماء والطين علينا جميعا . ونظر إلينا السائق ولم يعتذر . ومعه حق .. فما الذى يتوقعه أناس جلسوا على حافة بركة في شارع مليء بالحركة ؟

وكأن الماء والطين كرباج لسعنا .. فابتعدنا ..

وعندنا اقتناع صامت بأن الذى أصاب ملابسنا ، ليس أسوأ من الذى اصاب نفوسنا ..

قال أحدنا : الماء والصابون يغسل ملابسنا ، ولكن الذى هنا (وأشار إلى رأسه) والذى هنا (وأشار الى قلبه) والذى هنا (وأشار إلى يديه) ما الذى يغسله ؟

نحن الآن في أواخر سنة ١٩٤٥ وليست في حياتنا أحداث هامة .. فالحياة ليس لها طول ولا عرض ولا وزن .. تذكرت ما كتبه الأستاذ العقاد عن أيامه في السجن .. فكان يقول أنها أحيانا تكون في وزن الحجارة .. وأحيانا تكون ترابا في حاجة إلى كنس .. ولكنها تمر به أو يمر بها .. ولكن أيامنا نعرفها بكثرة السؤال : اليوم ماذا ؟ فيقال : الأربعاء .. اليوم ماذا ؟ فيقال : السابع عشر .. أليس اليوم ١٩ ؟ فيقال : لا .. بل خمسة وعشرون من شهر ماذا ؟ فيقال : من شوال .. أو نوفمبر .. أو برمهات ..

مات لنا مدرس .. ومن بعده مات عم درويش أهم شخصية في بوفيه الكلية .. وهو الرجل الذى يعطى بحساب .. ولكن الحساب يتأخر سداده شهرا بعد شهر ..إنه شخصية محورية في حياتنا .. تبدأ به اليوم بابتسامة مبالغ فيها جدا . فيدرك أنه لا يوجد معنا فلوس .. فاذا دفع واحد منا اندهش الرجل وراح

ينظر إلى ملابسه .. لعله يعرف إن كان قد باع قميصا أو بنطلونا .. ولكنه رجل حنون .. أخ .. أب .. يرحمه الله .. بكيت عليه كثيرا وعملنا جميعا بدفع ما علينا لأولاده .. ومات الشيخ أحمد الأمير . أحد جماعة الإخوان المسلمين وكان صاحب المكتبة المفتوحة .. نأخذ منها ما نشاء المهم أن نعود بالكتب نظيفة وفي موقعها . وكانت المكتبة ذات باب مستقل . وكثيرا ما دخلنا وخرجنا دون أن يدرى بنا ..

وماتت إحدى قريباتي . وكنت أجد فيها شبها غريبا لأكثر ملامح وجهي .. أنا أقول : وجهها وصوتها .. والآخرون يقولون : بل العينان والأنف والشفتان .. مع أن القرابة كانت من الدرجة الثالثة .. وكنت أحب أن أراها وكأنني أنظر في المرآة .. ولكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك . فهي طالبة في كلية الطب . وفي إحدى المرات سمعتها تقول : نتزوج عندما نكبر .. أنت مهندس زراعي .. عندك الأرض وأنا أقيم مستشفى ونعيش في المنصورة ..

وكانت مفاجأة : أنها تتكلم عن الزواج ونحن ما نزال طلبة . وهي التي ترى أن أدخل كلية الزراعة بعد أن أتخرج في كلية الآداب .. على أن تبقى هي في كلية الطب .. شيء غريب .. حاولت أن أفهم ما الذي تقصده .. هل كان من رأيها أن أترك كلية الآداب وأدخل كلية الزراعة .. أو هل أدخل كلية الزراعة بعد ذلك . حتى نتخرج في الجامعة معا هي طبيبة وأنا مهندس زراعي ..

وقد هزني كلامها .. كلام غريب جديد .. واندهشت كيف أنها هكذا واثقة من نفسها ومني . بينما أنا لست واثقا من شيء أو من أحد .. أدهشني جدا أن يكون لديها هذا اليقين . ووجدت أن هذه صفة من صفات الذين يملكون .. يملكون الأرض أو البيت أو المال . وأن صفاتي قد جاءت من أنني من المعدمين .. ليس في يدي شيء . ولا تحت قدمي شيء . ولا في نفسي ولا في عقلي ولا في دنياي .. لا أنا في الدنيا . ولا الدنيا لها أثر في أعماقي فحياتي هي الريح وعالمي هو البلاط .. ولا شيء تأخذه الريح من البلاط .. أنا هذه الصورة من صور العدم !

وماتت أحب خالاتي .. وأجملهن وألطفهن .. هل لأنها تحبني كابنها . أو تحبني لأنني ابنها . كما تقول .. هل لأنه لم يعد لديها أولاد .. ماتوا جميعا . وكانت تقول لي : أنت كل أولادي .. تعال وعش معي .. ولك كل ما عندي ..

وكان عندها مال وأرض ومجوهرات .. وعندها ما هو أجمل من كل ذلك : وجهها .. أجمل الوجوه التى رأيتها ، وصوتها أجمل من وجهها .. أما قلبها فهو أجمل وأكرم وأصدق من كل القلوب ..

رحت أزور المدرسة التى تعلمت فيها وأرى أساتذتى . لم أجدها . احترقت وانهارت بعضها فوق بعض .. انتقل والدى إلى « العوامة » ليجد رعاية أكثر من إخوتى .. بقيت أمى وحدها فى البيت ، أشد مرضا . قررت ألا آكل فى البيت حتى لا تضطر والدتى أن تتحرك من فراشها . وسألتنى فى دهشة بالغة : ولكن لماذا ياولدى .

فقلت : إن الجامعة قد جعلت من حق الطلبة المتفوقين أن يفطروا ويتغدوا ويتعشوا على حسابها ..

ولم تقتنع والدتى .. ولكن هذا قرار .

وفى يوم جاءنى صاحب البيت يسألنى : قولى ياسيدنا الأفندى .. ولماذا لا تعمل فى الجيش الانجليزى ..

- أعمل ماذا ؟
- أى شىء ..
- مثلا ..
- فى الورش ..
- ولكنى ..
- أنا كنت مثلك لا أعرف أى شىء ولكنهم علمونى اللحام بالأكسجين .. وعلمونى الفك والربط .. والآن كما ترى الحمد لله .. الأشيا معدن .. ثم أن هناك كثيرا من طلبة الجامعة يعملون أيضا .. ما رأيك ؟

قلت : دعنى أفكر .

قال : إذن أنت لا تريد أن تعمل .. لأن هذه مسائل لا تحتاج إلى تفكير .. والعمل ليس عيبا .. أول شىء .. أنه سوف يمكنك من أن تترك هذا البيت ، تعيش فى بيت أفضل .. مادام أقاربك الذين يملكون البيوت الحلوة فى الزمالك وفى الأزهر والحسينية لم يضعوا فى عيونهم حصوة ملح ويعطوك شقة .. أنا أرى أن هذا أفضل وأكرم . ماذا تقول ؟

وبعدها بأيام جاءنى صاحب البيت يقول : أريد أن أعرفك بشخص موجود عندنا .. تعال ..

وصاحب البيت كان يسكن فى الدور العلوى . مفاجأة : إنه ضابط فى الجيش الانجليزى .. ويتكلم العربية . وقد أقام له الرجل وليمة : الدجاج المحمر وعلى ترابيزة أخرى بطيخة . وكان الرجل لطيفا وابن نكته . تكلمنا بالانجليزية .. ثم فضلنا اللغة العربية حتى يشاركنا صاحب البيت فى الحوار .

وبادرنى بقوله : إن بعض أصدقائك يعملون معنا فى العباسية ..

ثم ذكر لى أسماء أربعة من الأصدقاء .. وقد فهمت لماذا لم أعد أراهم .. فى معظم أيام الأسبوع . وإذا ذهبت اسأل عنهم قيل لى : سافروا .. خرجوا .. نائمون ..

ولكن أحدا منهم لم يذكر شيئا من ذلك . فلا يزال العمل مع الانجليز مما يخجل منه المواطن المصرى .. أو المثقف .. أو الطالب الجامعى .. فهم يعملون عملا شريفا لا علاقة له بالسياسة .. أو لا علاقة له بالاحتلال البريطاني لمصر .. فالانجليز موجودون .. ولن يطيل أو يقصر أعمارهم ، أن يعاونهم أحد من العمال والفلاحين أو المثقفين ..

ولكنى لست فى حاجة إلى عمل .. فأنا لا أريد أكثر من القليل الذى أملكه من أى شيء ..

وكان عندى كلب مات .. وحزنت عليه . ولا أعرف بالضبط ما الذى أحزننى .. كان هذا الكلب يشم رائحتى قبل أن أصل إلى البيت بوقت طويل .. وكنت أطلق صفارة مستوحاة من موسيقى الموسيقار الروسى بورودين .. من مقطوعة « الراعى » .. فإذا سمعه الكلب راح ينبح ويعوى .. وقد عدلت عن ذلك لأنه يزعج والدتى .. ثم إننى كنت أعود إلى البيت من شوارع عكس اتجاه الريح حتى لا يشم الكلب رائحتى وينبح ويزعج والدتى .. مات .. وكان كل الذى يربطنى به هو الترحيب من بعيد ومن قريب .. ثم أنه يجيء ويتمدد عند قدمى .. فإذا نمت كان عند قدمى .. وأحيانا عند رأسى .. وكان يستغرق فى النوم وله تشخير .. وكان يوقظنى فكنت اترك له السرير وأروح أنام فى غرفة أخرى .. مات وافتقدته أصابعى . وفكرت فى أن آتى بكلب آخر .. ولكن لم

حد .. ولم أجد نفسي تطاوعني أن استبدل به كلبا آخر .. فهو لم يكن كلبا ، وإنما هو صديق زميل .. أحد أفراد الأسرة !

وفي يوم وجدت أمام سريري ثعبانا ميتا كيف ؟ لا أعرف . وقد تكاثر عليه النمل ينهشه ويحوله إلى مسحوق .. هل وقع من السقف .. هل مات وسحبوه في داخل الغرفة .. هل هي نهاية معركة بين الثعبان وبين القطط .. ممكن . فقد اختفى رأس الثعبان ، لقد ابتعلته إحدى القطط .. مات ..

وسمعت من والدتي أنها أحست بمعركة صامتة بين القطط .. ولكن لم تسمع هذا الشجار التقليدي . معركة القطط مع الثعبان !

ونسيت كراسة إحدى الزميلات في الترام .. وتضايقت جدا . وكان لابد أن آتي بكراسة أخرى .. أي لابد أن أعيد نقل كل المحاضرات .. بخط واضح ، ثم أقدمها لها في أقرب وقت مع الاعتذار الذي أرجو أن يكون مقبولا ..

وفي الليل اصطدمت بشيء على منضدة بين الغرف وتحطمت كل الأكواب والأطباق .. وانزعجت وتشاءمت .. وأحسست كأنني في نهاية العالم .. فالناس والكلاب والأشياءحولي تتحطم .. وتختفي .. والأصدقاء يختفون ويتباعدون . ووجدتني اتمشى وحدي بين الكيت كات في امبابه وكازينو الحمام في الجيزة .. وحدي تماما . ولا أعرف كم استغرق من الوقت .. وأمام مستشفى العجوزة نظرت إلى ، العوامة ، التي يملكها واحد من إخوتي وينام فيها أبي مريضا .. ولا أعرف ماذا أقول .. ولا هو في حاجة إلى أن يقول .. إنني حزين وهو مريض وحزين أيضا .. وكثيرا ما أحسست أنني لا أتمشى ، وإنما أنا أمشي في جنازة كل المعاني وكل الناس واليوم والغد .. وحدي .

وأدهشني أنني في بعض الأحيان إذا وجدت جنازة في الطريق ، انضممت إلى المشيعين ورحت أبكي . إنها رغبتي في البكاء ! إنني لا أبكي أحدا . وإنما أبكي أنوب .. اعتصر عيني واعتصر قلبي وعقلي .. إنها الرغبة في التفريج عن النفس ..

وعندما أزداد حزنا وهمًا وغما وقرفا من الدنيا ، فإنني أبحث عن صديق ـ لا يكف عن الضحك . ولا أعرف كيف . بيته يبعد عن بيتنا عشرات الأمتار .. ولكني أشعر أن المسافة بيننا أكبر وأطول وأعرض وأعمق من هذا

بكثير .. من أين يأتي بخفة الدم والنظر إلى الجوانب المضحكة أو الهزلية من كل شيء ؟

وفي إحدى المرات كنا نصلي في مسجد سيدى اسماعيل الإمبابي . فوجدته خرج من الصلاة بسرعة وقد لمحت الضحك على وجهه . وبعد الصلاة وجدته يتساقط من الضحك . وسألته قال : إنه اشترى بعض السمك المقلى ووضعه إلى جوار المنبر بالقرب من إمام المسجد .. وتذكرت أن الإمام يخاف من القطط . وأنه لا يستبعد أن تجيء قطة تبحث عن السمك .. وخشى أن يضحك بصوت عال إذا جاءت القطط وهرب الإمام !

ومضى يضحك ..

ووالدته تدعونا إلى الغداء والعشاء وتحرص على ذلك وهى سيدة لطيفة كريمة . وهى عندما تسألنا عن أحوالنا ، فإنما تعنى ذلك .. وهي تعرف كل شيء عن أصدقاء ابنها .. وهى قد ذهبت إلى بيوتنا جميعا وهى سيدة قوية اختارت له أصدقاءه هكذا :

فلان هذا أحب أن تعرفه . فهو مثقف وعلى خلق . وهو يحبك .. وفلان هذا ليس مثقفا ولكنه متدين نظيف .. وهو يحبك .. وفلان هذا من أسرة كريمة . وله أخوات بنات . ولذلك فهو لا يستطيع أن يؤذى بنات الناس . وهو يحبك .. وفلان هذا عينه مليانة وأمه لا ترفع عينها عنه وعن أخته .. وهى سيدة كاملة وقد رأيتها تربى أولادها بحزم . والكلمة كلمتها . وأعجبنى أن أولادها يقبلون يديها وأحيانا يديها ورأسها . وهى تصر على أن يفعلوا ذلك . هى سعيدة . وهم سعداء ..

وفى أعياد ميلاد أولادها كان لابد من عمل المسابقات التى تنتهي بأن يفوز كل الأصدقاء . هذا ببنطلون وذاك بقميص وثالث بمبلغ من المال ورابع بزجاجة دواء وكانت من نصيبى . وعرفت أنها زارت والدتى . وعرفت حاجتها إلى هذا الدواء ..

وكانت هذه السيدة « مستورة » أو هى غنية جدا .. وكريمة جدا .. وكانت أما لنا جميعا . وكانت تحب أن نناديها بكلمة يا ماما .. وكانت تقول : أنا أم لكل أصدقاء أولادى !

ووجدنا أنها أكثر مرحا من كل أولادها ..

وكانت تضحك وتقول : أنا كنت أريد ابنا هو خليط منك أنت ومن ابنى .. بعض العقل وبعض الهزل !

وفى مذكراتى كتبت :

نحن إذن فى نهاية العام .. انتهت الحرب .. وبدأت تصفيات الحسابات .. ألمانيا استسلمت .. الأمريكان فجروا أول قنبلة ذرية فى الصحراء .. وعرفوا الطاقة التى تنطلق من النواة إذا انشطرت . نجحت التجربة . وأسقطوا أول قنبلة ذرية يوم ٦ أغسطس على هيروشيما .. وقنبلة أخرى يوم ١٣ أغسطس على نجازاكى .. واستسلمت اليابان بعد ذلك بأيام ..

الإيطاليون أعدموا موسولينى .. وبعدها بيومين انتحر هتلر وزوجته ايفا براون .. والفرنسيون أعدموا رئيس وزرائهم لافال الذى كان عميلاً لهتلر .. وحكموا بالموت على قائدهم الجنرال بيتان ، ثم اكتفوا بسجنه مدى الحياة ..

ومات روزفلت ..

والنرويج أعدمت الخائن الأول كويزلنج .

والمصريون قتلوا أحمد ماهر رئيس الوزراء ..

وبدأت محاكمات نورنبرج - محاكمة القادة النازيين ..

ومات فى هذه الحرب أكثر من ثلاثين مليون نسمة !

وفرقعت فى أوروبا وأمريكا والقارات الأخرى ملايين زجاجات الشمبانيا ابتهاجا بيوم النصر : ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ..

ومات الأديب الفرنسى بول فاليرى .

والأديب النمساوى فرانس فرفل .

والفليسوف الألمانى كاسيرر .

والموسيقار الايطالى ماسكانى .

وأصبح تيتو رئيسا ليوغوسلافيا .. وديجول رئيسا لفرنسا .. وطالبت المنظمات اليهودية بضرورة هجرة مليون يهودى إلى فلسطين .. وأعلنت الدول العربية أنها سوف تحارب إذا قامت لليهود دولة . وتأسست الجامعة العربية ، لمواجهة ذلك ..

وتأسست الأمم المتحدة ، عندما وافقت ٢٩ دولة على ميثاقها ..

واكتشف الأطباء : فيتامين أ ..

وأعلنت بريطانيا عن اختراعها العظيم : الرادار ..

واكتشفت أن الزميلة « س م » تحب زميلا غيرى . رأيتها بعينى .. حتى أنت يا .. لكن لم أقل لها شيئا ، ولا هى قالت .. ولا دار بيننا حوار .. ولا صلة .. ولا علاقة .. ولكن إحساسى ، بأن واحدا آخر كان أسرع .. كان أذكى .. انتهز الفرصة .. وصل .. لا أشعر بالحقد عليه ، ولكن عندى الشعور بالخيبة . رغم أننى لم أحاول . شىء مضحك : فلا أنا أحببتها ولا قادر على ذلك ..فالحب ترف .. فالحب كامتلاك سيارة وفيلا وأن يكون فى جيبى مائة جنيه .. كل ذلك ترف .. سابق لأوانه وقد لا يكون له أوان .. ومع ذلك تضايقت وحزنت .. وعلى الرغم من أننى أسخر من نفسى ، ولكن أجد شيئا يوجعنى .. هنا أو هنا .. لا أعرف كيف أحدد مكان الألم ..

حتى ابنة بائع اللب فى امبابة ، لم تعد تكلمنى .. ولم أفهم .. ولكن عرفت أنها شكت لوالدها أننى أحيانا أنظر لها نظرات آثمة .. والحقيقة أننى « أسرح » وتكون نظرتى فى أى اتجاه .. وعلى أى شىء .. ولو عرفت هى ماذا فى داخلى ، ما خطر على بالها شىء .. فأنا لست « هنا » ولا « هناك » .. أنا حائر بين كل الأشياء والناس والمعانى ..

وفى الناس قسوة .. انظر فى عيونهم . إنهم أقسى وأعنف وأكثر شراسة مما تتصور .. رأيت ذلك عند الغضب وعند الحسد . وعند النجاح ..

ولكن أقسى ما صادفنى يوم كنا نصلى فى مسجد سيدنا الحسين ، ولأول مرة . وكنا وراء الإمام ، وإذا برجل عجوز يمسكنى من ملابسى ويطلب منى أن أخرج فورا من المسجد .. سألنى :

الرجل : أنت شارب !

قلت : ماذا ؟

قال : هل شربت ؟

قلت : عصير قصب ؟

قال : بل خمر ..

قلت : أعوذ بالله .. عصير قصب وهؤلاء أيضا .

وأشرت إلى زملائى ..

واقترب الرجل من أفواهنا وراح يشمها ويقطع بأنها خمر ثم يلتفت إلى الناس كأنه يريد رأيا عاما .. وأخرج أحد الأصدقاء زجاجة صغيرة بها عصير قصب كان قد أخفاها فى جيب البالطو ..

واعتذر الرجل .. وخرجنا من المسجد دون صلاة .. آه لو رأيت ما فى عيون الناس .. وما فى عينى هذا الرجل .. منتهى الوحشية .. !

وسألنا المرشد العام الشيخ حسن البنا . فقال : إن بعض الظن إثم .. وهو لا شك رجل آثم .. وعذره مقبول إن شاء الله !

ولم نسترح إلى ذلك ..

وقال صديقنا الذى لا يكف عن الضحك : أحمدوا ربنا .. لو كنت مكانه ضربتكم جميعا بالجزمة وأطلقت عليكم الناس .. ثم اعتذرت لكم بعد ذلك .. لأنى ضربتكم بالجزمة .. فى سبيل الله !

• • •

وفى الليل التف حولى الأصدقاء جادين وقالوا لى : لابد أن نتقاضى أجرا .. لابد .. كلهم يفعلون ذلك !

قلت : ولكن نفرض أن الصوت لم يعجبهم .

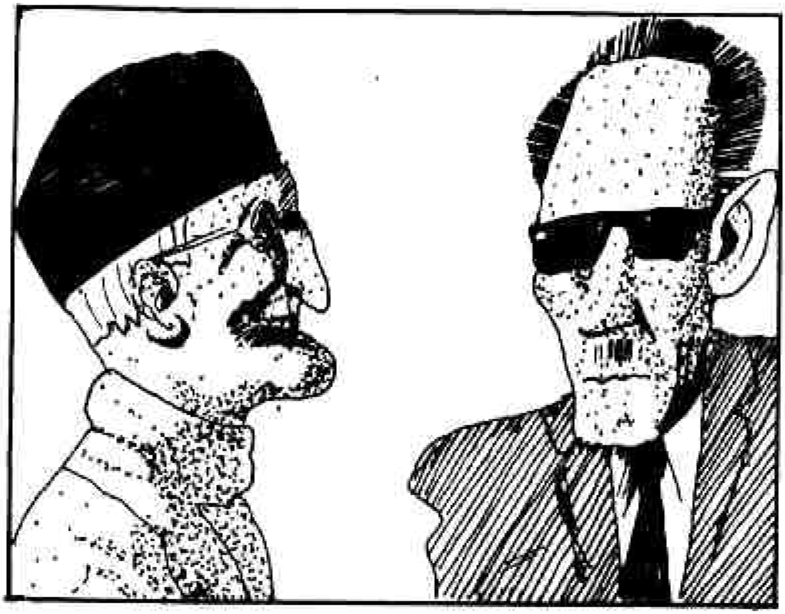
- لا .. صوتك حلو .. لابد أن نتقاضى أجرا ..

وذهبنا إلى حلاق واحد . وارتدينا القمصان والبنطلونات النظيفة . وتعطرنا .. وسرنا على أقدامنا من امبابة إلى مصر الجديدة .. وظللنا نبحث عن العنوان حتى قرب منتصف الليل .. ولما يئسنا قررنا أن نجلس على الرصيف ونغنى لأنفسنا .. وفجأة اكتشف أحدنا أن العنوان قد نسيه فى جيبه ..

ولم يكن البيت بعيدا .

ومرت الليلة بسلام ..

قال أحد الأصدقاء : لم تسألنى إن كانوا قد دفعوا أجرا .. لقد دفعوا فعلا . وها هو الأجر فى مظروف مقفول .. حلال عليك ياعم !



ولا هذا ولا ذاك .. أو الإثنان معاً

ولا هذا ولا ذاك .. أو الاثنان معًا

كل الناس يتكلمون .. ويتحمسون .. ولكن أحدا منهم لا يتحدث معى .. وأنا أشارك في كل القضايا .. ولا أعرف على أى أساس أفعل ذلك . فأنا لا أتابع كل الأحداث السياسية والإقتصادية والأدبية . ولكن يبدو أنه من الضرورى أن أشارك بكلمة .. أو بعبارة .. أو محاولة إنهاء المناقشة .. ولا أدرى بالضبط ما هى القضية .. ولكن الشىء المؤكد هو أن القليل جدا من الذى أسمعه وأشارك فيه ، يبقى فى رأسى ..

وأنا أعترف بأننى لم يكن لى أى اهتمام بالسياسة من أى نوع .. ولذلك لم أكن أقرأ الصحف بانتظام . أو حتى أفكر فى قراءتها .. ما الذى كان يشغلنى فى ذلك الوقت ؟ هو كل ما يشغل الطالب المهموم الذى لا يعرف له وجهة أو طريقا أو غاية .. ولم تكن عندى إجابة من قبل هذا السؤال : وبعد ؟

أى بعد التخرج فى نهاية هذا العام سنة ١٩٤٧ : ما الذى سوف تفعله ؟ ماذا تريد ؟ لابد أن تكون لديك فكرة واضحة . هذا هو السؤال الذى أسمعه من كثيرين مع الضغط الشديد على كلمة « واضحة » . وهى الكلمة الوحيدة التى لا أجد لها معنى عندى .. فليس عندى شىء واضح فى أى مجال لا فى الدين ولا الفلسفة ولا فى نفسى ولا فى العلاقات التى بيننا ..

ورغم ذلك فالوضوح مطلوب دائما .. أى مطلوب أن أقول : ما الذى أريد أن أعمله بعد الليسانس ؟ هل أكمل دراستى وأحصل على الماجستير والدكتوراه وأكون مدرسا فى الجامعة ؟ إن بعض أساتذتى قد أكدوا لى ذلك .. ولكن هل أستطيع أن أظل طالبا خمس سنوات أخرى ؟ ماذا لو مات أبى ؟ ماذا لو عجز عن العمل وظل مريضا وأمى كذلك .. ماذا لو طلب منى والدى أن أعمل .. ماذا لو اختصرت كل هذا العذاب وعاودت التفكير فى الانتحار . لقد فعلتها فى

إحدى المرات . وفشلت خطتى فى أن ألقى بنفسى فى النيل .. إننى مهيأ تماما لهذه الفكرة لسبب بسيط : هوأنه لا شىء يساوى .. ولا شىء له معنى .. ولا شىء له هدف .. ولا حكمة لوجودى وللوجود كله .. ولا راحة أراها اليوم أو غدا .

وفى يوم جاء عدد كبير من أصدقاء والدى . وكانت مفاجأة . فليس من المألوف أن يزورنا مثل هذا العدد من الناس مرة واحدة . واعتدت أن أكره نوعين من الضيوف : الأطباء وبقية الناس .. فالأطباء يدخلون ويخرجون ويتركون الأدوية ويأخذون الفلوس والأمل .. وبقية الناس لا داعى لأن تراهم فأنا لا أصدقهم .. أى لا أصدق ما يقولون ثم أنهم يجيئون فى ضيق شديد ليقولوا كلمة أو ليرهقوا والدتى بأن تعد لهم الطعام والشراب وتتظاهر بأنها فى صحة جيدة ووالدى أيضا .

فى ذلك اليوم قالوا : لا شاى ولا قهوة .. نحن قادمون توا من المقهى .. جئنا للسلام والتحية .. تعال اجلس معنا .. تعال .

أحدهم من حزب الوفد .. رجل سياسى أنيق .. وأظنه من أصل تركى .. لا أعرف بالضبط .. فهو أبيض أحمر له لهجة أجنبية فى الكلام .. هو الذى بدأ المناقشة هكذا : وهل نكسب القضية .. سوف نشكو بريطانيا إلى الأمم المتحدة بعد أن قطعنا العلاقات معها .. وسوف نساعد السودان على الحكم الذاتى .. ثم إننا رفضنا تقسيم فلسطين بين العرب واليهود .. ولكن بريطانيا الملعونة هى التى قسمت الهند إلى دولتين .. الهند وبرأسها نهرو وباكستان وبرأسها على خان .. وشجعت منطقة كشمير على الانضمام إلى الهند لتغضب باكستان ..

وقال آخر وهو ناظر مدرسة سابق : يا سيدى هذه حكايات طويلة جدا .. السياسة حبالها طويلة .. وإذا انقطعت فإنها تلتحم من تلقاء نفسها.. وكما أن الانجليز احتلوا مصر ثمانين عاما فسوف نناقشهم فى السياسة مثل هذه المدة وزيادة .. نحن نريد من يفكر لنا فى حل سريع لانعاش البلاد اقتصاديا ..

الأمريكان اخترعوا مشروع مارشال لانقاذ أوروبا من الدمار والخراب .. وهذا المشروع هو احتلال أمريكى لأوروبا إلى جانب الاحتلال العسكرى .. وأنت ما رأيك ؟

إنه يقصدنى .. رأيى ؟ وهل من الممكن أن يكون لى رأى ؟ وهل أنا فاهم كلمة واحدة مما يقولون ؟ لقد ذهبت من باب الاستطلاع أتفرج على مصطفى النحاس باشا وهو يخطب .. وسمعته ورأيته .. فكأنى لا سمعت ولا رأيت .. إننى مشغول بما هو فى رأسى من أفكار غير واضحة .. هذه الأفكار مثل طيور جارحة تتصايح وتتضارب بالمناقير والمخالب .. معركة . ولا أعرف السبب ؟ هى تريد أن تقضى على بعضها البعض .. هل هى تريد أن تحطم رأسى .. وتهرب منها .. أو تحطمها وتنهشها .. ولماذا ؟

وكان لابد أن أقول .. مثلا : لابد أن يخرج الانجليز من مصر بالقوة .. كل الغزاة بالقوة .. وأن تبقى القوة فى أيدينا . حتى إذا خرجوا . لن يعودوا مرة أخرى .

فقيل لى : ولكن نفرض أنهم يريدون أن يخرجوا بالذوق . فهل لابد من اللجوء إلى القوة .

قلت : لا أحد يخرج بالذوق ..

قيل : نفرض أنك تضايقت من وجودنا فهل لابد أن تضربنا لكى نخرج . حتى لو قلنا لك دقيقة واحدة وبعدها سوف نعود إلى المقهى .. فتصر أنت على ضربنا بالجزمة لأن أصواتنا مرتفعة مزعجة لوالديك ..

قلت : ولكنكم لا تحتلون البيت .. أنتم زوار ولستم غزاة ..

- ولكن افرض أنه خطر لنا أن نحتل البيت ..

- بالقوة .. قوتى وقوة الجيران والبوليس .. وحتى الموت !

- شباب .. ما يزال صغيرا ..

قال ثالث وهو طبيب المركز وهو من أقارب والدى وكثير السؤال عنه .. ولكنه من النادر أن يبدى رأيا فى علاجه .. فهو طبيب أسنان ..قال هو الآخر : من كل أحداث هذا العام أعجبنى قرار البرلمان الهندى .. أنه لا منبوذ بعد اليوم .. ففى الهند طائفة من المنبوذين .. لا يقربهم الناس .. بل لابد أن يمشى الواحد منهم على مسافة أمتار من أى مواطن عادى .. ولهم زى خاص .. ولا يحق لهم أن يأكلوا أو يشربوا إلا بعيدا عن بقية الناس .. البرلمان الهندى أصدر قرارا بأنه لا منبوذ بعد اليوم .. الإسلام قرر ذلك من ١٣ قرنا : « إنما المؤمنون إخوة » .. لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .. الناس سواسية كأسنان المشط ..

- ولكن المسافة كبيرة جدا بين القرار وبين تطبيق الناس لهذا القرار ..

- صحيح .. ولكن القرار قد أصدره مندوبو الشعب للشعب .. ورأوا فى بقاء هذه التفرقة العنصرية إهانة للإنسان ..

- أنا أرى كرجل مشتغل بالعلوم أن أعظم خبر نشرته الصحف هو أن عالما كبيرا اسمه بيكت اكتشف أن كل جسم يدور - كالنجوم والكواكب فى السماء - يخلق مجالا مغناطيسيا .. بل ليس الأجسام المادية وحدها . وإنما البشر أيضا .. فالإنسان الذى يسافر وينتقل له جاذبية ..له سحر خاص .. والناس يلتفون حوله يسمعونه ويكلمونه .. ونحن نلاحظ أننا كنا نتهافت على عم محمد يقصدون والدى - فهو قد رأى الدنيا الواسعة .. وحفظ الشعر والتقى بالشعراء والمطربين والباشوات .. ما رأيك أنت ؟

ولكن لم يكن لى رأى .. وكلما ذكرت لهم أننى سوف أشجع والدى على أن يتحامل ويتساند ليخرج إليهم . منعونى من ذلك . وقالوا : إجلس معنا .. نحن فقط نريد أن يشعر والدك أننا جئنا نسأل عنه .. ولا داعى لأن يرهق نفسه .. إجلس .. ما رأيك ؟

ولا رأى لى .

قال أحدهم : أنا سمعت من والدك أنك تكتب مذكراتك .. صحيح ؟

قلت : محاولات .

- هل تقرأ لنا ماذا كتبت ؟

- ليست مذكرات .. وإنما هو نوع من تسجيل الأحداث .. ولا أعرف إن كنت سأعود إليها وأكتبها بشكل آخر ..

ومددت يدى إلى إحدى كراريس المحاضرات .. وأخرجت منها بضع ورقات صغيرة وقلت : ليست مذكرات .. إنها رصد للأحداث التى تهمنى أو التى يجب أن أعاود التفكير فيها .. مثلا : ظهرت أخيرا رواية « دكتور فاوستوس » للأديب الألمانى توماس مان .. ظهرت رواية « الطاعون » للأديب الوجودى الفرنسى كامى .. ظهر كتاب « الوجودية » للفيلسوف الايطالى روجيرو .. ظهرت مسرحية « عربة اسمها اللذة » للأديب الأمريكى تنسى وليامز ..ظهرت مذكرات الفتاة . « آن فرانك ». التى نجت من مذابح النازيين لليهود فى هولندا .. اكتشف اليهود « لفائف البحر الميت » فى وادى قمران . وهذه اللفائف تتحدث عن حياة اليهود فى القرن الأول قبل الميلاد .. وفاة أعظم عالم فزيائى فى كل العصور اسمه ماكس بلانك .. وفاة فورد مخترع السيارة المعروفة وترك وراءه ثروة بلغت تسعمائة مليون دولار .. استطاع البحار النرويجى هايردال أن يبحر من بيرو إلى جزر بولينيزيا فى ١٠١ يوم على ظهر زورق خشبى ، فى نفس الطريق الذى سارت فيه الهجرات قبل التاريخ .. ظهور الأطباق الطائرة فى أمريكا .. وفاة الفيلسوف الانجليزى هويتهك .. وفاة رجل العصابات الأمريكى الإيطالى الأصل آل كابونى .. وفاة المطربة أسمهان ..

- أسمهان .. ولكنها ماتت غرقا فى النيل منذ ثلاث سنوات ..

- ولكنى لم أسمع بهذا النبأ إلا أخيرا .. وحزنت عليها .. ولم أصدق أغنيتها التى تقول فيها : أنا اللى أستاهل كل اللى يجرى لى .. فهى لا تستاهل أن تموت غرقا فى ريعان شبابها ..

وضحكوا ولم يعلقوا على ما قلت ..

ونظر بعضهم إلى بعض .. وكان ذلك علامة على أنهم يريدون أن يخرجوا .. ولما رأوا دهشتى وحيرتى . قال لى أحدهم : إسمع يا إبنى .. إنما يهمنا أن نعرف ما الذى تريد أن تعمله عندما تتخرج فى الجامعة . فنحن فى غاية القلق على صحة والدك .. والأعمار بيد الله .. والحياة رسالة نتلقفها من بعضنا البعض .. وبعضنا يجد نفسه رجلا مسئولا . وهو ما زال طفلا .. أنا بعد وفاة والدى عملت فى التجارة لكى أنفق على إخوتى الصغار ..ثم أكملت

تعليمى .. والحمد لله .. أنت أكملتَ تعليمك .. وربنا ينجحك إن شاء الله تطلع الأول .. وتعمل مدرسا فى الجامعة .. والبركة فيك .. وأبوك وأمك راضيان عنك تماما .. البركة فيك يا إبنى .. وبعضنا يكبر ومع ذلك يظل طفلا يعتمد على والديه .. وهذا نوع محظوظ من الناس .. ولد فوجد الملعقة والشوكة والسكين من الذهب الخالص .. فليس فى حاجة لأن يتعب .. ولكن الرجال تخلقهم المتاعب والمصائب والتحديات .. والرجولة ليست صفة .. وإنما هى فعل متواصل .. وأنت رجل ..

- إذن أنت يا إبنى قررت .. إن شاء الله أن تكون مدرسا فى الجامعة .. مثل ابن عمتك وابن خالك وعمك .. إنها أنبل مهنة فى التاريخ .. إنها مهنة الأنبياء والمرسلين .. وشوقى يقول :

كاد المعلم أن يكون رسولا

إذن على بركة الله يا ولدى وربنا يوفقك !

كأنهم قد جاءوا ليعرفونى .. ولا بد أن والدى أراد أن يعرف ذلك منهم .. ولم يشأ أن يسألنى .. وهو يعرف تماما أنه لو طلب منى أن أكون مدرسا ما ترددت .. أو أن أعمل فى أى مكان لفعلت . هل لأننى هكذا سلبى ؟ هل لأن حبى لوالدى أقوى من أى رغبة عندى .. فالقرار قراره .. هل لأننى وصلت نهاية اليأس من الحياة .. هل معنى ذلك أنه يستوى عندى أن أعمل أولا أعمل .. أن تكون لى إرادة أو لا تكون .. هل هذا الاستسلام عقاب فرضته على نفسى .. كأنى أقول : لقد درست وتفوقت .. ولكن كل الذى

درسته وتفوقت فيه سوف ألقى به فى الزبالة ؟ هل كنت أفضل أن أدرس فى كلية أخرى .. هل تمنيت أن أكون أى شىء آخر ..

فى ذلك العام كتبت مقالا فى مجلة « كلية الآداب » تمنيت أن أكون فيها شجرة على ترعة .. أن أكون شيئا حيا .. لا كائنا عاقلا حيا .. أى أن أكون

بلا إحساس بلا فكر بلا هم بلا غم .. أكون شجرة تنمو وتزهر .. ثم تموت في مكانها .. فلا أب ولا أم ولا أسرة .. ولا إخوة ولا أخوات ولا خالات ولا عمات .. ولا من عاش ولا من مات إذن هذا هو شعورى الحقيقى .. وهذا هو سر رفضى لأن أكون أى شيء .. فأنا لا أريد أن أكون شيئا .. فإن لم أستطع أن أكون شجرة ، فلماذا لا أكون شيئا قريبا من ذلك ..

وعرفت فيما بعد أن الانسان تتسلط عليه مثل هذه الأفكار إذا كان لا يتحدث إلى أحد .. إذا كان لايحاور أحدا .. إذا كانت أضواء الآخرين تنعكس عليه .. إنها أفكارى قد توارت فكانت لها رائحة المرض والموت .. فلا أحد يكلم أحدا ..

فى الجامعة : محاضرات .. أى أن الأستاذ هو الذى يتكلم . ولا حوار بيننا ..

فى المسجد : الخطيب هو الذى يتكلم ولا حوار بعد الصلاة ..

وفى جمعية الإخوان المسلمين : الإخوة الكبار يخطبون وينصحون ومن النادر أن يكون حوار ..

ونحن الطلبة معا : كلنا نتكلم .. وكلنا يسمع ولا يسمع .. فنحن إما شبان جادون ودمهم ثقيل .. وإما شبان بلا متاعب مادية ولا مشاكل عائلية ودمهم خفيف ولا يقولون شيئا مفيدا ..

وفى الليل حاولت أن أنام . فلم أستطع . لقد أدرت كل الكلام فى رأسى يمينا وشمالا . وقفزت من الفراش . واتجهت إلى سرير والدى ووالدتى . وقلت له : لا تقلق على مستقبلى . سوف أكون عند حسن ظنك ..غالبا ، والله أعلم ، سوف أكون مدرسا فى الكلية .. وسأكمل دراستى ..

وأشار والدى أن أساعده على الجلوس فقال : إنما أريد أن أراك أحسن حالا . سوف يكون بإذن الله يا ولدى ..

وأشارت والدتى أن أساعدها على النهوض . واقتربت منى وقبلتنى على جبينى . ورفعت يديها أقبلهما . لتقول : ربنا يكرمك يا إبنى ..

ورأيت الذى دوخنى : فوالدى شديد الضعف .. أين الوجه الجميل والعينان الخضراوان ..والإبتسامة الدائمة .. ما الذى جعل الرأس الكبير صغيرا .. ما الذى جعل العينين غائرتين .. ما الذى أحنى الرأس على الصدر .. ما الذى جعل البطل الشهم راكب الحصان قد تكور واتخذ شكل الجنين .. أين ذهب الحب والحنان والحيوية والشهامة .. أين القصص والنوادر .. أين الشعر .. أين الذين أحبهم والدى وضحى من أجلهم .. أين هؤلاء الفلاحون البسطاء الذين ناصرهم أبى ضد أصحاب الاقطاع .. ومن بين أصحاب الاقطاع أقاربه .. وقف معهم يدافع عن فقرهم وعجزهم عن سداد الديون .. أين الذين كانوا يطلبون إليه أن يدعو الله لهم ليشفيهم .. فكان يستخرج الأوراق الصغيرة التى كتب عليها آيات من القرآن لشفاء المرضى .. وكانوا يشفون بإذن الله .. فقد كان والدى يؤمن بأن كل كلمة في القرآن لها سر وسحر .. ولا يعرف هذا السر إلا من درس وقرأ واتخذ عهدا بأن يصون الكلمة والسر .. هذه الأصابع الناعمة فى لون الشمع هى التى كانت تمتد إلى الأفاعى ، فتلتف حولها الأفاعى ولا تلدغه .. ويقال إنه تعهد لأحد مشايخ الطرق الرفاعية ألا يؤذى ثعبانا .. فقدم له شيخ الطريقة شرابا خاصا . من يشربه لا يلدغه الثعبان .. وكانت الأفاعى تقترب منه وتنام فى حضنه ولا تلدغه .. أين كل الناس .. أين الذين أحبهم والذين أحبوه .. والذين تطلعوا إليه وهو يلقى الشعر ، وهو يتلو القرآن وهو يخطب وهو يؤم المصلين .. أين الخيول أين العربات .. أين الدنيا .. كل تلك انحسر .. والضوء انحسر .. والصحة والحياة .. حتى اللغة .. حتى الكلمات حتى النظرات .. هكذا تكون نهاية الخير .. تماما كنهاية الشر .. يبقى الإنسان وحده مع المرض وحده .. مع الموت وحده .. فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وامتدت يد والدى تمسح دموعا من عينى وخدى : البركة فيك إنت يا ولدى ..

(٢)

وفى بيت الأستاذ العقاد تمنيت أن يطرح علينا أى موضوع ينتشلنى مما أنا فيه .. يستغرقنى .. يغرقنى ..

وتطلعت إلى أناس آخرين غير الحاضرين .. نخل أصدقاء الأستاذ : الفنان صلاح والشاعر عبد الرحمن صدقي والمفكر على أدهم والموسيقار الشجاعى والمصور خورشيد والسيدة : ل .. والآنسة : ق .

وتمنيت أن أقوم وأضع قطعة من القطن بين شفتى الأستاذ العقاد حتى لا يمضى فيما يقول .. أو أضع هذا القطن فى أذنى ، ويظل الأستاذ العقاد يتحدث لكل الناس إلا أنا ..

فقد أخذ يدافع عن نفسه ، ويتهم الذين يقولون أنه متشائم .. فهو رجل متفائل . يقول الأستاذ : إننى أقول للحياة نعم .. إنى أقبلها .. واستمر فيها .. وأحاول أن أضيف ما استطعت .. وأن أغير وأن أبدل .. إننى أرفض السلبية وأرفض أن أكون متفرجا .. لأننى أومن بأن هناك حكمة من وجودى .. فالله لا يخلق أحدا أو شيئا عبثا . فأنا حكمة .. أو موجود لحكمة . ومن الحكمة ألا أرفض حكمة الله !

وأحسست أننى عندما تسللت وحدى من بيت الأستاذ العقاد ، جعلت أنفض نفسى . حتى لا يبقى فيها شيء من الذى قال ..ما هذه الحياة التى تقول لها : نعم .. حياته هو .. يجوز .. حياتى أنا ؟ أقول : نعم لأى شيء ؟ لهذا القرف والفقر والمرض .. لهذا الغش والكذب .. لهذه المذاهب الفلسفية والدينية التى لم تحقق لى الراحة والأمان .. لهذه الدوخة بين الأرض والسماء .. ألم يحاول الأستاذ أن ينتحر ؟ حاول . فهل عندما انتحر كان يقول للموت نعم .. للفضيحة : نعم .. للفشل : نعم .. لخيبة الأمل : نعم .. هل كان يشفع له عند الناس لو ترك رسالة من ألف صفحة يحاول أن يقنعهم بعمق حكمته فى أنه اختار الموت . إننى لا أصدق ما يقوله الأستاذ .. إنه هو أيضا مثل أساتذة الفلسفة : إنهم شعراء وصفهم القرآن الكريم : **« ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون »** ..

وبعد أن هبطت الدرج .. ووقفت أمام بيت الأستاذ العقاد أشم هواءً منعشاً . هدأت نفسى قليلا . وعدت إلى مكانى من الصالون .. ولم ألاحظ أن الأساتذة الكبار قد نزلوا أيضا . فلم يبق إلا السيدة والآنسة .. وبعض الزملاء الصغار

من الطلبة . قلت : يا أستاذ أنت تقول للحياة نعم .. أى حياة يا أستاذ .. أنت تقول : نعم .. فهل كل انسان يقول : نعم .. هل من الضرورى أن تقول نعم لما تكره .. لما لا تفهم .. لمن يظلم .. لمن يقهر .. هل تقولها للجوع والمرض .. فاذا لم تقتنع ، فكيف تقول : نعم .. أنك لم تكن كذلك من عشر سنوات ولا من عشرين عاما .. فهل تقول ذلك لأنك قاربت الستين يا أستاذ .. إن لك شعرا حزينا فاجعا . فكيف كان ذلك يا أستاذ ؟

فقال : يا مولانا إننى أقول للحياة نعم ، بعد أن جربت ومارست . وأنت تريد منى أن أقول مثلك : لا .. مع أنك لم تجرب .. إن الحياة حدثتنى طويلا وحاورتها .. واقتنعت بها . ولكنك يا مولانا لم تسمعها .. لم تلمسها .. لم تعرفها بعد .. فكيف ، وأنت دارس للفلسفة ، ترفض أن تستمع ثم تصدر حكمك عليها .. الذى هو حكم على نفسك .. أنت لم تظلم الحياة ، وإنما أنت ظالم لنفسك .. أعط نفسك فرصة .. وقتا .. انتظر .. خذ نفسك .. ثم قل ما بدالك بعد ذلك .. أنت يا مولانا مثل قاض وقف أمام باب المحكمة وأدان المتهمين .. فلا هو عقد جلسة .. ولا هو درس القضية .. ولا عرف كل وجهات النظر .. إن مثل هذا القاضي ، قد حكم على نفسه بأنه ليس قاضيا ، وإنما طاغية جاهل !

(٣)

وكما هى العادة عندما تنسد النوافذ والأبواب وتنسحب الشمس من سمائنا نذهب إلى دكتور طه حسين . بادرنا بقوله تعليقا على الذى قلت : وماذا قال عباس ؟ يقصد الأستاذ عباس العقاد .

وقلت وأطلت . وكان يصاحبنى بضحكته الرقيقة الساحرة . ويتراجع فى مقعده ثم يضحك عاليا .

قال طه حسين : أنتم تعرفون أن عباس عصبى المزاج .. وأنه لذلك يسرف على نفسه فى اتخاذ مثل هذه القرارات المفاجئة .. كذلك كان فولتير وأبو العلاء .. ومن المعروف أن فولتير كان قد هاجم الإنجليز بعنف وقسوة ..

لأنه رجل عصبى ، مع أنه من أشد الناس إعجابا بالديمقراطية فى بريطانيا .. (يضحك عاليا) .. وفى يوم وجد نفسه فى لندن .. فى شوارع لندن .. وعرفه الناس وقرروا ضربه أو قتله .. والتفت إليهم يقول : تريدون عقابى .. ألا يكفى عقابا ألا أكون إنجليزيا ؟!

واعتدل طه حسين ليقول : إن عباس أكثرنا جميعا استخداما لكلمة : لا .. فهو قد رفض الكثير من الأفكار والأنظمة القديمة فى التاريخ والنقد الأدبى والشعر .. ولولا ذلك ما اكتسب العقاد سمعته الأدبية الواسعة .. إنه رفض التشاؤم ورفض رقم ١٣ ورفض أن تكون البومة مصدرا للشؤم .. ورفض الفكرة التى تقول أن الموت والخراب والدمار يلحق بكل من يدرس الشاعر ابن الرومى .. وقد درسه العقاد وألف عنه أحسن كتبه .. إنه عصبى المزاج .. ولا بد أنه كان كذلك .. ولا بد أن أحدا قد قال له : إننى أقول للحياة : لا .. فقرر العقاد فى نفس اللحظة أن يقول لها : نعم .. وأن يتراجع عن ذلك مثل كل محام بارع .. فى المرافعة .. وليس من الضرورى أن يكون مقتنعا بما يقول !

* * *

(٤)

- طه .. ماذا قررت ؟

وهو السؤال الذى سمعته كثيرا فى ذلك الوقت من كل الذين أعرفهم ..

وكنت أقول : لا .. ونعم ..

ويسألوننى : ماذا تقصد ؟

هم يسألون : عن الذى سوف أعمله بعد التخرج . وأنا أجيب عن سؤال آخر : ما الذى نقوله للحياة ؟

قبل الجامعة : كانت الحياة بلا كتب .. وفى الجامعة : كتب بلا حياة .. وبعد الجامعة : كتب وحياة .. أو لا كتب ولا حياة .. طه حسين أو العقاد .. ولا هذا ولا ذاك .. أو هما معا ؟!



من هنا بدأت كل
متاعب المستقبل

من هنا بدأت كل متاعب المستقبل !

لم أعرف السلام فى بيتنا .

لم أعرف شيئا واحدا مضمونا . أو شيئا واحدا من الممكن أن يتكرر بصورة منتظمة . فاذا دق الباب ، وهذا يحدث كثيرا ، أصابنى الفزع . مع أننى ، وأننا ، لا نتوقع أحدا مخيفا أو كارثة .. أو حتى إذا كانت كارثة فما معناها .. لا أرض ولا بيت ولا دكان لنا ولا سيارة ولا حتى حمار .. ولكنه الخوف العام ..

فحياة الطفولة التى كانت متنقلة من بلد إلى بلد ، ومن مدرسة إلى مدرسة ومن أصدقاء إلى زملاء آخرين .. والتغير المستمر لوظيفة والدى ، وأننا دائما على سفر .. وأن كل الذى نملكه يوضع فى سيارة واحدة .. ويكون من نصيبى أن أضع ساعة الحائط على ركبتى .. وهى من الخشب كأنها تابوت .. أو نعش مات فيه الزمن ، أو لكى ندفن فيه الزمن .. وإن كنت أتمنى أن أدفن الخوف وألقى به فى النيل .. ولكن عاشت هذه الساعة ولا تزال على حائط البيت الذى تسكنه والدتى ، يرحمها الله .. فلم تكن تابوتا وإنما هى مثل احواض الزهور ، ينمو فيها الخوف إلى جوار اليأس إلى جوار المرارة والعزلة ومزيد من الخوف .

ولا حدث أن رأيت أبى وأمى يجلسان معا ويتحدثان فى أى شىء .. فأمى دائما فى حالة غضب . ولا أعرف سببا لذلك إلا أنها مريضة وإلا أنها شديدة الحساسية ، ولا أجد والدى إلا هادئا معظم الوقت صامتا .. أو يوقف هذا الذى لا أفهم من المناقشات الحادة بالصلاة أو بتلاوة القرآن بصوت مرتفع .. وأحيانا أسمع استئنافا لهذه المناقشة فى الليل .. ولكن لا أفهم . وفى اليوم التالى يختفى والدى . إنه يعمل بعيدا .. وهو دائما يعمل بعيدا حيث لا أعرف .. وأرى وأسمع لأمى وهى تتحدث إلينا بنفس الطريقة .. لا فرق بين الذى تقوله لنا وتقوله لوالدى أو لخادمتنا .. فهى فى حالة غضب ومرض .. غضب بسبب

المرض ، أو مرض بسبب الغضب .. ولم أسمع من والدتى بالضبط ما الذى يعجبها فى أى شىء .. إنما هى الأخرى تتوقع أن أخطىء فى كل الذى أفعل ، حتى فى المذاكرة وهى لا تقرأ ولا تكتب ، لها رأى أيضا ، وأجدنى أطيع أوامرها : اجلس الآن فأجلس . افتح الكتاب أفتحه . لا تنم قبل أن تنتهى من دروسك .. وكنت أنام وأنا أذاكر حتى أنهض كل يوم وقد أحرق المصباح الغازى رموش عينى وشعر رأسى ..

ولم استطع أن انظر إلى وجه والدتى فى تلك الوقت من الدراسة الابتدائية والثانوية لأرى إن كنت قادرا على الضحك أو حتى على الابتسام . ووجدت لها عذرا . فالضحك فى مثل هذه الظروف لا سبيل إليه ..

ومن أنواع المحاورات بين والدتى وبينى وبينها وبين والدى : انت تأخرت فى المدرسة اليوم .

— .. ولكن فى الطريق من المدرسة وقفت مع زملائى نتكلم .

— ولكنك لم تفعل بالأمس .. سوف تكون مثل خالك .. لن تنفع فى شىء !!

وتتركنى إلى أى شىء آخر .. فلا قالت شيئا ولا عندى فرصة لأن أشرح .. أو حتى لا داعى لهذه المناقشة نهائيا فأن أتأخر نصف أو ساعة لا أهمية لذلك .. فليس عندى ما أفعله غير الجلوس فى البيت ، حتى تجىء الساعة الخامسة فأخرج للنزهة مع زملائى .

ومثلا : هل قلت لخالتك شيئا عن الخُناقة مع فلانة ؟

— لم أر خالتى ..

— ومن أين عرفت هى ؟

— وكيف أقول لها إذا كانت قد سافرت إلى القاهرة منذ أسبوعين .. والخناقة حدثت من يومين فقط ..

— يمكن أرسلت لها خطابا ..

— وهل أعرف عنوانها ؟

— وكيف أعرف ؟

وينتهي الحوار .. فاذا انتهى فلا كلمة واحدة تدور بيننا .. هل هي على يقين من أنني كتبت خطابا ، هل لابد أن أكون متهما مهما كانت الظروف .. هل فهمت أنا شيئا .. لا شيء ..

أما هذا الحوار النموذجي بين والدي ووالدتي فلا استطيع أن أنساه . هكذا كان والدي وكانت والدتي وكنا نحن في هذه الحيرة والقلق . مثلا هذا الحوار مع والدي :

قالت : كم يوما ستبقى هذه المرة ؟

ـــ قال : ربما أسبوع وربما أكثر .

ـــ وربما أقل ..

ـــ لا أظن ..

ـــ ولماذا فأنت كل مرة تقول أسبوعا وتبقى يوما أو يومين .. والأولاد يندهشون لذلك .. فلم يحدث في مرة واحدة أن بقيت معنا أسبوعا .. حاول أن تفسر لهم ذلك ..

ـــ أنت تعرفين أنها وظيفة جديدة .

ـــ كل الوظائف جديدة .

ـــ صحيح . ولكن ما الذى أفعله ؟

ـــ لا شيء طبعا .. إنه سوء حظ وقلة بخت ودوخة عيال .. فلا نحن موظفون ولا نحن فلاحون ..

ـــ ....

ـــ إنه في حاجة إلى كتب .

ـــ اشتريت له .. أليس كذلك ؟

فأقول : شكرا ..

والدتي : ولكنك لم تقل أن بابا اشترى لك كتبا .. أخذتها وأخفيتها في غرفتك ..

هو : مبسوط .

أنا : شكرا !

هي : ما دام هو مبسوط خلاص .. ننفلق نحن .. وتستطيع أن تسافر الآن وفى أية لحظة ..

وترتفع نبرة الحوار وتكون مراجعة كاملة لحياتنا معا .. منذ ولادتي وقبلها .. وبعدها .. أما النهاية فهي معروفة : ينهض والدي هادئا ويفتح الباب ويخرج ولا يعود إلا بعد اسبوع .. يأسا من أمل فى حوار هادئ .. أو هدوء .. وعلى الرغم من أن هذا الحوار يتكرر كثيرا . فإن أحدا منهما لم يفلح فى الوصول إلى صيغة معقولة .. أو درجة معقولة من الخلاف .. أو تحديد موضوع يمكن الخلاف أو الاتفاق عليه .. وأرى أبى معذورا .. فهو لا يحمل كل هموم والدتي . فعنده هموم أخرى لا نعرفها ، ولم يجعلنا طرفا فيها .. إنها هموم الأعمال الحرة - الأعمال الزراعية عند أصحاب الإقطاع .. بكلمة يعمل وبكلمة يجد نفسه بلا عمل .. وقد لا تكون كلمة وإنما اشارة بيد .. وقد يكون سبب هذه الاشارة « دسيسة » من أحد .. فوالدي رجل طيب القلب حسن النية ، وقد تعذب كثيرا بسبب حسن ظنه بالناس . ولابد أن يكون والدي رجلا متسامحاً جداً . فهو يقبل كل شيء يجيء . فالناس أشرار . لا علاج . ولا مفر من ذلك . والحياة الزوجية لا هي خير ولا هي شر . وإنما هي كل ذلك ولا مفر لرجل طيب مستقيم من أن يقبل هذا المصير وما يأتي به من أولاد تكبر معهم مشاكلهم أيضا .. ووالدي ، هو الآخر ، لم يتسع وقته ولم يطل عمره ولم تستقر الأرض تحت قدميه ، حتى يكون قادرا على اصلاح الذى فسد ، وتقويم الذى انحرف ، واشاعة السلام فى المكتب والحقل والبيت وبين الأولاد .. فالحياة نفسها لم تنجح فى أن يكون لها مذاق حلو على لسانه .. فالحلاوة فى لسان أبي ، كانت الشعر الذى يرويه والنوادر التى يملكها وصوته الجميل يرتل القرآن ، وعبارة بسم الله الرحمن الرحيم عند بداية أي شيء والحمد لله عند نهاية أي شيء يأكله أو يوجعه .. فباسم الله بداية كل شيء والحمد لله نهاية كل شيء .. وكان الصفاء والرواء والبهاء على وجه والدي معجزة من معجزات علم وظائف الأعضاء وعلم النفس وكيمياء الإيمان بالله .. كيف كل ذلك ؟ لا أعرف .

أما مع والدى فكان الحوار بيننا هكذا ويكون فى الساعة الرابعة صباحا ، قبل صلاة الفجر .. أجدنى نائما إلى جواره أو على ركبته أو على صدره : أنت نمت .. يا راجل أنا أوقظك لكي أتحدث إليك .. ثم ..

وكنت أرى الدموع فى عينيه .. وبسرعة تنتقل دموعه إلى عينى .. لا هو قال شيئا ولا أنا قلت ..

ويسألنى : عامل إيه فى المدرسة ؟ كويس ..

- نعم ..

بارك الله فيك .. أنت تعرف يا ولدى .. يجب أن تكون الأول .. فإذا كبرت كنت شيئا هاما .. أنت تعرف أن أمك تحبك جدا .. ولكن هذا الذى تقوله لك من شدة حبها .. إنها لا تكرهك .. أبدا .. أنت شاغلها الوحيد ..

- أعرف ..

- وهى تحبنى أيضا .. عندما تزوجتها كانت تنظر لى على أنى والدها .. فأنا أكبر منها بعشرين عاما .. ولكن الأيام والظروف وحالتها الصحية وخلافاتها مع إخوتها .. والتنقل من مكان إلى مكان بينما إخوتها جميعا على أرضهم وبين أقاربهم .. يأكلون ويشربون من الحقل وبسهولة .. ولكنها لابد أن تشترى من السوق وتنتظر الماهية حتى أبعث بها .. ثم أنها وحدها مع أولادها وحدهم .. حياتها شاقة .. إننى أعذرها .. ولكنى عاجز عن فعل ما هو أفضل لنا جميعا .. لذلك فأنت وحدك القادر ، عندما تكبر ، على اراحتى وأمك .. وإخوتك .. وكل البيوت بها مثل هذه المشاكل وعندما تكبر سوف تعرف .. وسوف تجد العذر لأمك وأبيك ... أنت نمت يا ولدى ؟

ثم يقول لى : لماذا تبكى .. أنت رجل .. كنت أتحدث عنك .. وكل الناس يريدون أن يروك .. فبعد نهاية العام الدراسى سوف ننتقل إلى هناك لترى الأطفال فى مثل سنك .. وسوف تعود ومعك كتب كثيرة .. وقد اشتريت لك عددا من البط الأبيض والأوز .. وهناك كلب صغير قد ربيته لك .. وهناك أشجار التوت والجميز .. أريدك أن تحفظ هذه الأبيات ..

ثم يلقى أبياتا جميلة . ويكررها . وأرددها وراءه . وقد حفظت ألوف أبيات الشعر قبل أن أدخل المدرسة . تماما كما حفظت القرآن الكريم قبل أن أذهب إلى المدرسة .. وأنا لا أفهم من معانيه وكلماته شيئا . وإنما هى الموسيقى السماوية والقدرة الفائقة على الحفظ عند الأطفال فى مثل سنى - أى فى السابعة ..

ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت كيف البيوت الأخرى .. وكيف الآباء والأمهات . وما الحوار .. وما الخلاف وما الاتفاق وما الأمل واليأس وما المستقبل . لا أعرف . فلا رأيت ولا أحد قال .. ولا عرفت كيف تكون أحسن وأسوأ . فكل واحد قد انطوى على حاله ، ولا أحد يقول شيئا لأحد .. ولا أحد يسأل أحداً . وعرفت فيما بعد أن كل الناس أمام كل الناس ممثلون : يكذبون ويبالغون ويقلبون الحقائق .. حتى لم يعد لمثل هذا التمثيل معنى .. فأنت لا تمثل أمام متفرج ، ولكن تمثل أمام ممثل آخر : لا متعة ولا لذة ولا معنى .. فلا أحد يصدق أحدا .

ولم أعد أجد أمى ، عجبا ، بين الأمهات والزوجات ، فكلهن كذلك .. وكل الآباء والأزواج أيضا !

وعندما كبرت ودرست علم النفس أصبحت هوايتى أن أعود إلى طفولتى ما كان وما لم يكن . وأصبحت متعتى أن أجرى وراء الأحداث الصغيرة وأطاردها وأستوقفها وأستوضحها .. لعلى أعرف كيف حدث ما حدث .. وكلما نظرت إلى نفسى ، رأيت من الضرورى أن أعود إلى الماضى البعيد لكى أرانى طفلا صغيرا فى البيت ، أى بيت ، وفى الشارع وفى المدرسة ، ووجدتنى أذاكر ولا أعرف لماذا أقبلت على الدراسة والقراءة بهذه الصورة الشرهة . لم يقل لى أحد : إفعل ذلك .. دائما وجدتنى وحدى مدفوعا إلى القراءة مدفوعا إلى المذاكرة ..حريصا على أن أكون الأول فى كل مراحل التعليم والشهادات العامة .. لماذا ؟ لا سبب . ما هى المتعة التى كنت أجدها ؟ لا متعة . ما هى المكافأة التى أتلقاها ؟ لا مكافأة .

عندما قرأت فى صحيفة ، الوفد المصرى ، أن ترتيبى الأول فى الابتدائية سارعت إلى البيت .. وجدت الباب مفتوحا .. دخلت وجدت أمى تنزف دما ، فهمت منها أن أستحضر طبيبا ..

وعندما جاء ترتيبى الأول فى الثانوية العامة ، عدت إلى البيت . دفعت الباب فانفتح . وجدت أناسا يرتدون الملابس السوداء . خالاتى وأولادهن . لقد ماتت خالتى . وعندما جاء ترتيبى الأول فى الليسانس ذهبت أنقل هذا النبأ إلى والدى وكان مريضا . سألنى إن كنت الأول قلت : نعم .. إن كان نجاحى بمرتبة الشرف الأولى . فقلت نعم وسمعته يحمد الله على ذلك ويموت !

ويوم عينت رئيسا لتحرير مجلة « آخر ساعة » ذهبت لأمى فى المستشفى فوجدتها فارقت الحياة . فنشرت صحيفة « أخبار اليوم » فى صفحتها الأولى نبأ تعييني رئيسا للتحرير ، وفى صحيفة الوفيات : شيعت جنازة والدتى .. وكنت أتلقى برقيات التعازى والتهانى معا إنها عملية حسابية : أخذ من هنا ، وخصم من هناك !

• • •

وتحيرت النظريات والتفسيرات فى يدى لما حدث زمان ، ولما هو حادث ، ولما يمكن أن يحدث ..

واهتديت بعض الوقت إلى تفسير مريح . ولكنه ليس مضبوطا تماما . ولكنها الصورة الأخرى التي وجدتها .. وهذا يدل على « حيرتى » .. وهذه الحيرة هى التى جعلتنى أختار أى تفسير يريح رأسى من دوامة الدوران حول نفسى ليلا ونهارا وتعذيبى لها أيضا ..

فقد قرأت عن قصة « أسرة برونتى » . وهى أشهر عائلة أدبية فى التاريخ . الأسرة تضم أبا أديبا شاعرا قسيسا اسمه باتريك برونتى .. وخمسا من البنات وولدا .. ماتت اثنتان وبقيت ثلاث بنات أديبات . وابن أديب ورسام أيضا .

الأب القسيس باتريك برونتى (١٧٧٧ ـ ١٨٦١) كان شاعرا غريب الأطوار . كان مزعجا متهوسا . عصبيا . لم يكن حساسا عطوفا رقيقا . وإنما هو رجل عصبى . وهو الذى توهم أنه شاعرى لأنه سريع التأثر والبكاء . والحقيقة أنه ليس كذلك . إنه عصبى عنيف غليظ . وهو يعامل بناته كأنواع من الحشرات والكلاب . وهو يغضب ويسخط ويسقط على الأرض ويلعن الأيام التى أتت بهن .. ثم ينهض ويطلق النار فى الهواء تخويفا ، أو تفريغا لغضبه .. وقد نشر الأب الكبير أشعاره .. ولكن لا قيمة لها . فهى منظومات موزونة .. وهى شعر كنائس أخلاقى . ليس فيها ذوق ولا إحساس . ولذلك كان لابد أن تموت فور ولادتها .. وهى ضرورية للدراسة إذا أردنا أن نعرف الرجل الذى كان أبا لثلاث أديبات مشهورات ..

أما البنات الثلاث فقد نشرن شعرا في ديوان واحد . لم تبق من هذا الديوان إلا نسخة واحدة .. والشعر يدل على الموهبة المبكرة وعلى سمو الحس وجمال الذوق وعلى الإبداع أيضا . والبنات نشرن هذا الشعر بأسماء مستعارة .

البنت الكبرى هي : شارلوت برونتي (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) . وكانت روايتها « جين اير » . وتزوجت وتوفيت بعد زواجها بشهور .

والثانية هي : إميلي برونتي(١٨١٧ ـ ١٨٤٨) وهي التي ألفت رواية « مرتفعات وذرنج » وهي أكثر الثلاثة موهبة . وشخصيتها أقوى . وهي أكثرهن جمالا . وفي روايتها هذه كل صور العذاب والحرمان وقمة الرومانسية ..

ماتت ولم تتزوج ..

والثالثة هي : آن برونتي (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩) وهي أقلهن موهبة . بل هي متوسطة القدر في كل ماكتبت . وروايتها الوحيدة هي « أنيس جراي » .. وهذه الرواية كانت نبوءة لما سوف ينتاب الشخصية الانسانية بعد ذلك بمائة عام .. فالشخصية ليست شخصية ولا ملامح لها .. وإنما يتشابه كل الناس حتى ليصعب على أحد أن يميز واحدا عن واحد .. ثم كانت الدعوة إلى أن يصبح الناس مثل قوالب الطوب .. لا خلاف بينهم ولا معنى للخلاف !

أما الأخ براثول برونتي (١٨٢٧ ـ ١٨٤٨) فقد كان أمل والده . وكان حريصا على أن يجعله هو الأديب وهو الفنان . ولذلك بعث به يدرس الرسم في لندن . وعاد من لندن فاشلا . ونشر شعرا ويقال أنه ساعد أخته في تأليف الصفحات الأولى من « مرتفعات وذرنج » وإن كانت الأخت هذه قد وضعته في روايتها .. ذلك الشاب المشهور المدمن للخمور والمخدرات والذى حطم نفسه في النهاية .. وعاش ومات في غيبوبة تامة لا يدرى بالضبط ما الذى فعله إخوته البنات ..

أما الأم فقد أنجبت هذا العدد الكبير من الأبناء ، ثم ماتت بعد تسع سنوات من الزواج .. وجاءت أختها تساعد في تربية هؤلاء اليتامى ، وتحاول أن تنقذهن من جنون والدهم . فكان الأدب هو الملجأ الوحيد للبنات .. وكان الخيال هو المأوى الأمين من طلقات النار وسورة الغضب وتشنجات الأب من حين

إلى حين .. وتهديده لهن بأنه سوف يترك البيت فيتعلقن به ويتوسلن عند قدميه أن يبقى من أجلهن !

وعلى الرغم من أن هذا الأب قد تزوج عن حب فإنه كان يلعن زوجته ويقول : اللعنة عليها إني تزوجتها .. اللعنة عليها أنها ماتت .. اللعنة عليها أنها أنجبت هذا العدد من الأبناء .. اللعنة عليها أن تركتهم .. اللعنة عليها أن جاءت أختها إلى البيت .. اللعنة على البيت أنى ما أزال حيا أعاني وألعن كل الناس !

• • •

فأى وجه للشبه بين أسرتي وهذه الأسرة .. لم أتساءل كثيرا . وإنما ارتضيت هذه القصة تفسيرا لحياتي ..

لابد أن تكون اللامبالاة والقسوة معا هي وجه الشبه بيننا .. هناك قسوة .. وهناك لا مبالاة .. وهناك خوف من المرض ومن الموت .. ومن كل شيء ومن كل أحد .. وهناك الأبواب المغلقة على صغار هاربين ومن الواقع إلى الخيال .. هناك كتابة المذكرات سرا ، هناك الأمل في الخلاص .. هناك اختفاء الأم ، بعنايتها ورعايتها وحنانها وحضانتها .. وهناك اختفاء الأب .. فالأم وإن كانت موجودة ، فأى وجود هذا ؟ والأب وإن كان موجودا فأى وجود هذا ؟

ولو اخترت لونا يناسب هذا البيت لجعلت السواد هو اللون ..

لو أخذت طعما لهذه الحياة لكانت المرارة ..

لو أخذت رائحة لهذه الأسرة لكان الخل ..

لو أخذت أشجاراً لأجعل سوراً لهذه الأسرة لكان الشوك ..

لو اخترت نهاية لكل شيء لكانت النهاية هي البداية : لا شيء .. فالبداية غامضة . والغاية أكثر غموضا ..

ورجل الدين والشعر لم يفلح في أي شيء .. لا الدين جعله شخصية هامة ولا الأدب .. وإنما هو ضائع بين الدين والدنيا .. بينما الذين لا دين لهم ولا أدب ، هم الذين يملكون ويتحكمون في الذين يعرفون الدين ويتذوقون الأدب ..

وكذلك والدى كان رجلا مؤمنا شاعرا رقيقا يتذوق جمال الكلمة والنغمة ..

ولما كبرت وجدت أن هذه الصورة ليست منطقية تماما .. بعضها فقط .. ووجدت فى حياتى أنبياء وفلاسفة كثيرين ما يطابق حياتى . وبعد ذلك لم أعد فى حاجة إلى البحث عن أناس أكون شبيها بهم .. ولا هو من الضرورى . فكل واحد له حياته وكل واحد صنعته ظروفه .. والظروف سبقتنا إلى الوجود .. فلا أحد قد اختار أباه وأمه .. ولا أحد قد اختار صفاته الوراثية .. ولا أحد قد اختار دينه ولغته ووضعه الطبقى .. وبعد ذلك فإن هذه الظروف هى التى تشكلنا ونحن نسايرها ونتمرد عليها .. ومن المسايرة والتمرد تتكون ملامحنا النفسية والاجتماعية والعقلية أيضا .. فالظروف الواحدة التى عشت فيها مع أخوتى . لم تجعلنا متشابهين . بل إننا مختلفون أشد الاختلاف ..فليس بين إخوتى أحد له علاقة بصناعة الكتابة . ولا أحد اتجه إليها . ولا رغب فيها . رغم تطابق كل الظروف والأحداث ، والمجتمع والإطارات النفسية ..

فليس من الطبيعى أن أبحث لى عن نظير أو شبيه بين أنبياء وفلاسفة عاشوا فى ظروف أخرى وفى أزمات أخرى ، لمجرد أننى أريد تفسيرا ملموسا أستعين به على فهم نفسى وعقلى وآمالى ومخاوفى وكفرى بكثير مما يؤمن به الناس !

* * *

وفى يوم جعلت أتسلى بحياتى .. وتخيلت قلمى سنارة أدلى بها فى طفولتى أستخرج مخاوفى ، أو أسباب مخاوفى . إيمانا منى بأن المخاوف كالسمك . إذا أخرجناها من الماء ماتت ..

ووجدت عجبا ..

وأعجبنى من الذى وجدته ، أنه رغم معرفتى بالأسباب ، فإننى لم أفلح فى أن أعود إلى السلوك الصحيح .. أى لم أفلح فى التغلب على مخاوف الطفولة ..

مثلا : لم أفلح فى إن أتعلم السباحة . حاولت كثيرا . ولكن عقلى لا يطاوعنى . بل أن عقلى أصبح مثل الفرامل التى التصقت بالعجل .. لماذا ؟!

تعبت حتى وجدت السبب الذى كنت قد نسيته ..أى تعمدت نسيانه .. حتى كانت معرفتى به اكتشافا عظيما ..

فقد حدث ونحن أطفال أن نزلنا معا إلى النيل . وأتذكر أننى كنت أعرف السباحة بدليل أننى أفعل ذلك مع أقاربى الصغار كل يوم ..

وفى أحد الأيام غرق إبن خالتى . ولم أستطع أن أعود إلى البيت . فقد ذهبت إلى أحد المساجد ، ونمت فيه . وفى الصباح المبكر وجدت أناسا كثيرين وأطفالا ووجدت والدتى تبكى . ثم رأيت إبن خالتى هذا الذى غرق .. إذن لم يغرق .. فخرجت خائفا. وسمعت إسمي يتردد على شكل صراخ .. لقد ظنوا أننى أنا الذى غرقت . وتوهمت أيضا أن إبن خالتى هو الذى غرق ..

وقد فسر أحد أصدقائى من علماء النفس ما حدث بأننى قد نمت من التعب . وأننى نمت وظللت عائما .. أو أننى خرجت إلى الشاطىء ونمت وظللت هكذا بعض الوقت وأن إبن خالتى بحث عنى فلم يجدنى . وكانت السباحة ليلا . فلما صحوت من النوم لم أجده فظننت أنه هو الذى غرق ..

ولا أذكر أننى نزلت إلى البحر بعد ذلك ، وكنت أقول : أننى لا أعرف السباحة فقط ..

ولم أكن أعرف الأسباب العميقة فى نفسى ..

وعلى الرغم من أننى رأيت أجمل شواطىء الدنيا بعد ذلك . فإننى لم أرتد مايوها ولا وقفت إلى جوار الشاطىء مرة واحدة ..

وأذكر بعد ذلك بسنوات عندما كنت فى جزيرة كابرى .. ودخلت بالزوارق فى المغارة المعروفة باسم « المغارة الزرقاء » أن اصطدم الزورق بالجدار .. وخيل إلى أننى سوف أغرق فصرخت وبكيت بسرعة . واندهش الناس . واندهشت أنا أيضا فادعيت أن شيئا لسعنى فى الماء .. وبسرعة اتجهت العيون إلى يدى التى لم تكن مبللة .. ثم أنه لا توجد حشرات أو أسماك من أى نوع ..

وخجلت من الذى حدث . وانشغلت بالتفكير فى ذلك ..

وعندما ذهبت إلى جزيرة هاواى ، ووجدت الناس يتمددون نصف عراة على الشاطىء .. وينامون فى انتظار مد المحيط الهادى الذى يصل إلى أقدامهم .. ثم أجسادهم فينهضون فى فزع .. هذا الفزع اللذيذ ، هو المطلوب .. !

ووجدت شجرة قريبة من الماء وصعدت عليها .. وكان جذع الشجرة على شكل مصطبة . وتمددت على هذه المصطبة .. وكان المحيط الهادى هادئا ، عسلا .. حصيرة .. حريرا .. وكان القمر فى السماء كبيرا جميلا .. ونمت .. لا أعرف كم من الوقت نمت وعندما صحوت وجدت المد قد زحف إلى منتصف جذع الشجرة .. فتولانى الخوف الشديد .. ونظرت إلى الماء .. ولم أجرؤ أن أقفز من الشجرة لأعود إلى الشاطىء . وإنما ظللت أنظر إلى القمر فى السماء وفى الماء حتى طلع النهار . واكتشفت مع ضوء الشمس أن الماء لا يزيد عمقه عن شبر واحد !

وأول مرة أنزل إلى الماء وبالمايوه كان فى مدينة الحديدة فى اليمن سنة ١٩٦٣ .. فقد كنت ضمن وفد الأدباء : يوسف السباعى ونجيب محفوظ وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل ومهدى علام . ولا أعرف من الذى اقترح أن ننزل إلى الماء . وكانت المايوهات جاهزة . ولم أجرؤ أن أقول إننى أخاف من الماء . ارتديت المايوه ونزلت إلى الماء .. وظللت واقفا .. والماء يصل إلى أعلى الساقين إلى الخصر .. وفجأة وجدت نفسى تحت سطح الماء أشرب أقذر ماء فى العالم .. لقد كان المرحوم صالح جودت يداعبنى ، فدفعنى من الخلف ولم يصدق أحد وأنا أصرخ وأقول كلاما غير مفهوم أننى سوف أغرق .. ولا أعرف كيف خرجت طينا من تحت الطين ..

وبعد ذلك حاولت أن أسبح .. لم أستطع . واقترح الأصدقاء أن يعلمنى السباحة أحد الأساتذة ..

وكان السباح الكبير عبد الباقى حسنين هو أول أستاذ لى . وذهبت إلى حمام المعلمين .. عندما يكون الماء دافئا .. وجلس عبد الباقى حسنين على مقعد عند حافة الحمام . وطلب منى أن أنزل إلى الماء .. وأحاول الطفو وأن أدفع رأسى إلى أعلى .. وأن أحرك ذراعى وساقى .. وأن أجعل رأسى فوق الماء .. ونجحت فى الحركة ولكن تحت الماء ..

ولم أتقدم فى السباحة ..

وأخيرا حاول السباح العالمى أبو هيف أن يقنعنى . ولكن لم أطاوعه ! ولاحظت أننى لا أستحم إلا بالماء الدافىء . ولما كان الماء الدافىء ليس

متوافرا دائما ، ولا كان ضروريا فى معظم أوقات السنة ، كان الحرص عليه رفضا مؤقتا للماء .. فأنا فى أعماقى لا أريد الماء عموما ، والماء البارد خصوصا أى أنه ما تزال محاولة عميقة من داخلى للابتعاد عن الماء !

ولكن أحدا لم يساعدنى على فهم ذلك فى سن مبكرة !

إننى لا أحب الشيكولاته .. ولم أذقها إلا أخيرا وإلا قليلا !

وفتشت فوجدت أن السبب هو أننى عندما كنت تلميذا فى الثالثة الابتدائية كنا ندرس تاريخ الشعوب .. دراسة سريعة .. ففى يوم قال المدرس : إن الأحباش ليسوا سودا .. ولكنهم فى لون الكاكاو ..

ورفعت أصبعى أسأل : يعنى إيه كاكاو ؟

ـ يعنى إيه ؟ لا تعرف الكاكاو ..

قلت : لا ..

قال : ولا شربتها ؟

قلت : لا ..

وضحك التلاميذ ..

وعاد المدرس يقول : أنت طبعا تعرف الشيكولاتة ؟

قلت : لا ..

وضحك التلاميذ ..

ولا أعرف كيف كان وجه المدرس ..

ولم أفهم ما هى العلاقة بين الكاكاو والشيكولاتة ..

وفى اليوم التالى جاء ناظر المدرسة وهو إبن خالتى ، وكان رجلا عنيفا . متعاليا . لا يحبه المدرسون ..

ودخل الفصل وإتجه ناحيتى وقال : أنت قلت أنك لا تعرف الكاكاو .. ولا تعرف الشيكولاتة ..

ثم أخرج من جيبه قطعة من الشيكولاتة ورمانى بها وقال : دى تبلها وتشرب ميتها .. هذه هى الكاكاو !

وخرج . وضحك التلاميذ والمدرس . فلم يجرؤ أحد أن يضحك فى حضوره !

وظللت طول عمرى لا أشرب الكاكاو ولا أذوق الشيكولاتة .. وإن فعلت الآن فالقليل جدا !

أذكر أننى كتبت مجموعة مقالات فى مجلة ، الجيل ، التى كنت رئيسا لتحريرها .. عن التفاؤل والتشاؤم .. ومما قلته : إن سقوط زجاجة العطر فى يدك مقدمة لأحداث سيئة !

ولا أعرف من أين أتيت بهذه المعلومات فى ذلك الوقت من سنة ١٩٦٠ . واستشهدت بحوادث وقعت فى بعض الأفلام ، وفى حياة الناس أيضا ..

ولاحظت أن شركات العطور حريصة على أن تجعل الزجاجات كبيرة غير قابلة للكسر حتى لا يتشاءم أحد من الناس !

ثم اكتشفت أننى كتبت مقالا فى ، آخر ساعة ، بعد ذلك بسنوات أتحدث عن تفاؤل بعض الناس إذا سقطت من يده زجاجة الكولونيا .. وكانوا يقولون : أخذت الشر وتركت عطرها الجميل ، لكى تنسى ما حدث .. أو تنسى الزجاجة ولا تنسى العطر .. ولم يكن ذلك إلا استنتاجا ..

ثم راحت زجاجات الكولونيا تتساقط من يدى .. دون سبب واضح لذلك .. فلا أنا ارتطمت بشىء .. أو أن أحدا دفعنى فسقطت الزجاجة من يدى ..

ويوم سافرت إلى باريس لأول مرة سنة ١٩٥٠ نزلت فى فندق متواضع جدا . وكان لابد أن أحمل ملابسى إلى الحمام العمومى كل يوم .. فاللوكاندة بها حوض لغسيل الأيدى . وليست بها حمامات . وتذكرت حكاية ، السيد ومراته فى باريس ، التى كتبها بيرم التونسى . وكان على زوجة السيد أن تذهب إلى الحمام العمومى وتغسل ملابسها وتبقى بالساعات دون أن تعرف أن دخول الحمام بالساعة ..

ولكن أهم ما اكتشفت فى ذلك الوقت أن الفرنسيين لا يستحمون وإنما يشترون زجاجات الكولونيا الطويلة الرخيصة .. وقطعة من الأسفنج ثم يستحمون بالكولونيا .. وفعلت ذلك يوما ويومين .. ولكن وجدت أننى لا أستطيع أن أمر بالأسفنج على كل جسمى ..

وصدقت في ذلك الوقت ما قيل أن الموسيقار محمد عبد الوهاب يفعل ذلك أيضا ، خوفا من الميكروبات التي في الماء !!

ويوم دخلت الكولونيا في عيني وفي أنفي كدت أموت . ولا أعرف كيف حدث ذلك . ولا كيف سقطت الزجاجة فانكسرت وتناثرت شظاياها على الأرض تحت قدمي العاريتين وعلى جسمي . وفزعت بعد ذلك . وعدلت عن استخدام الكولونيا بدلا من الماء !

وكما هي العادة رحت أفتش في طفولتي عن سبب لكل ذلك .. واهتديت إلى السبب الحقيقي ..

كان ذلك في مدرسة دمنهور الثانوية . وكنت أمتحن للشهادة الابتدائية . وفي مادة الرسم لم أكد أقرأ ورقة الأسئلة حتى رحت أبكي .. وتساقطت دموعي على الورق ..

وجاءني المراقب يسألني :

ماذا يا ولدي ؟

فقلت : لم أر زجاجة كولونيا في حياتي ..

فنظر المدرس إلى الأسئلة فوجد أنه مطلوب مني أن أرسم زجاجة كولونيا ووراءها قرص الشمس ..

وسألني الرجل : لم تر زجاجة كولونيا ؟

قلت : نعم !

قال : أبدا ؟

قلت : أبدا !

واندهش الرجل ونظر إلى الزملاء يستوضحهم فقالوا له : إنه أول المدرسة ..

فسألني الرجل : أي نوع من الزجاجات رأيت يا ولدي ..

فقلت : زجاجة الزيت .. زجاجة الفنيك ..

وظهرت الحيرة على وجه المراقب .

ولا أعرف بالضبط ماذا حدث .. فأخرج زجاجة صغيرة من جيبه وقال : مثل هذه ولكن اجعلها كبيرة يا ولدى .. انظر إليها جيدا ..

ومسحت دموعى . وضحك التلاميذ ..

وذهب هذا الحادث مع حوادث أخرى كثيرة ولكن لا تزال يدى ترتجف إذا أمسكت زجاجة عطر ..

وكان من الممكن أن يكون العكس كأن أقوم بكسر الزجاجة ، بدلا من إلقائها فى سلة المهملات عندما ينتهى استعمالها .. أو أتعمد كسرها ، دفعا لهذا الخوف القديم .. أو أنسى هذا الحادث تماما .. وأسخر من كل ما أصابنى عندما كنت طفلا !

* * *

مرة كنت أعرض نفسى على أحد الأطباء .. وطلب منى أن أفتح فمى وأن أقول آه .. ثم أن أضع الترمومتر تحت لسانى .. وبحركة عصبية ضغطت أسنانى على الترمومتر فتهشم تماما .. وبحركة لا شعورية حاولت أن أتخلص من بقاياه فى فمى .. فأدى ذلك إلى جروح كثيرة فى لسانى وفى حلق الفم ..

وظللت سنوات أجد صعوبة فى وضع الترمومتر فى فمى خوفا من أن يتكرر هذا الذى حدث ..

ثم وجدتنى أرفض أن يضع الطبيب الترمومتر فى فمى .. وإنما كنت آخذه أنا وأضعه تحت لسانى ..

وفى بعض الأحيان يكون حرصى على ذلك عصبيا .. فأخطف الترمومتر من يده ، أو أمنعه من أن يفعل ذلك .. وأحاول أن أتظاهر بالخوف ، كأننى لست خائفا . والطبيب لا يفهم هذه الحركة الطفولية ..

وبعض الأطباء يستخدم ملعقة لكى يضعها على اللسان ليعرف إن كان الحلق ملتهبا . ووضع الملعقة كان مشكلة عويصة .. فأنا لا أطيق ذلك .. ولكن لابد .. وأقاوم كثيرا ، أقاوم شيئا فى داخلى يمنعنى من الاستسلام لرغبة الطبيب ..

وكنت أندهش لهذا السلوك ولا أعرف السبب .. وحاولت . ولم أهتد ..

فقط عندما كنت أخبرا عن علاقتي بجماعات الغجر حين كنت طفلا .. كان من بين أصدقائي طفل من الغجر .. وحاولت الهروب .. وطلبت من إحدى السيدات الغجريات أن تأخذني ابنا لها وزوجا لابنتها . وكنت في السابعة من عمري أو دون ذلك ..

وكنت أحمل الطعام والسكر والشاي إلى هذه البنت الصغيرة التي طلبت يدها من أمها هكذا : أنا ويودينا نريد أن يكون عندنا أولاد صغار مثلنا تلعب معهم !!

ويبدو أن الأم انزعجت من هذا الطلب الغريب .. وبسرعة جرجرت يدي وجرجرت يد إبنتها وطلبت من كل منا أن يشرب من دم الآخر .. فأصبحنا هكذا زوجين !؟

وأذكر أنني مرضت وارتفعت درجة حرارتي وبدلا من أن أعود إلى البيت ذهبت إلى خيام الغجر . وأنا أبكي . وجاءت يودينا وأخذتني إلى أمها .. وبسرعة راحت تدلك لي رأسي .. وفتحت فمي .. وقدمت لي مشروبا من النبت الساخن .. ووضعتني في حضنها وعلى صدرها .. ونمت ولا أعرف كم مضى من الوقت .. ويبدو أنني كنت مصابا بالحمى ، فكنت أهذي فرأيت أبي وأمي وأخوتي وجدي وجدتي .. ونهضت مفزوعا ، ولم أجد أحدا .. فقط يودينا والدموع في عينيها .. ثم جاءت أمها .. وطلبت مني أن أنام .. ثم وضعت منديلا في فمي حتى لا أصرخ وكان في يدها مسمار أخرجته من النار حدث به لتكويني ، علاجا للحمى .. وقاومت ولكنها أحكمت المنديل على فمي حتى لا أصرخ وكوتني بالنار !

لا أعرف ماذا حدث في اليوم التالي . ولكن عرفت من يودينا أن أمي جاءت ورأتني . وتركتني على أن أعود إلى البيت في اليوم التالي ..

ولم ألاحظ الأثر الذي تركه المسمار في رأسي إلا بعد أيام ..

وبعد أن شفيت تماما ، حبستني أمي حبسا إنفراديا ، وكانت تلقي لي بالطعام وتقفل الباب .. وإذا اتسع وقتها ضربتني بالعصا ..

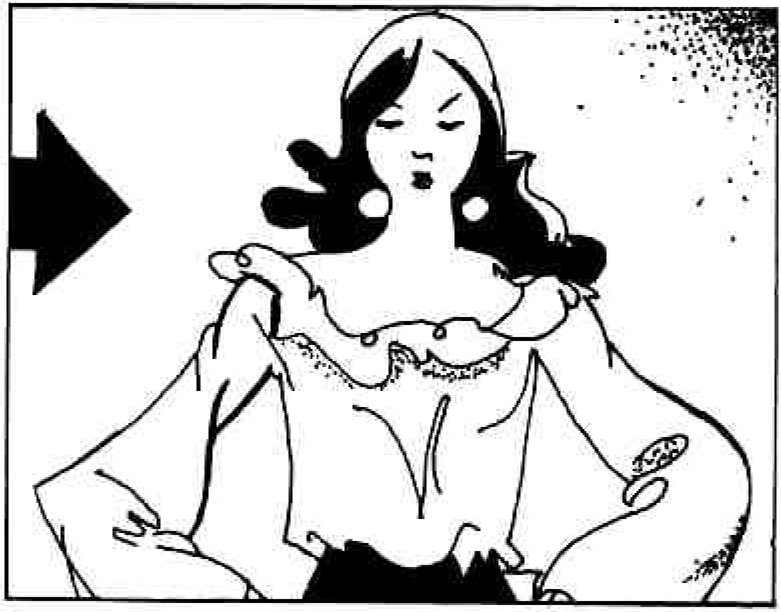
ثم جاء ما هو أقسى من ذلك فقد امتنعت عن الطعام . أو انسدت نفسي ، فأكرهتني أمي على الطعام وكانت هي التي تضع الطعام في فمي بالقوة !

. . فلم يتسع وقت أبي وأمي ، لكي ينبهني أحد إلى ما حدث .. وكيف يمكن التغلب عليه ..

ولم أكن مؤهلا عقليا لدراسة نفسي وإطلاق الأضواء في داخلها لأعرف الجوانب المظلمة والذي يتراكم هناك بعيدا عن متناول ما تعلمته في علم النفس ..

ولكن عندما أصبحت قادرا على الفهم ، لم أجدني قادرا على أن أتخلص نهائيا من المخاوف القديمة .. والقلق القديم .. وافتقاد السلام والأمان .. والنموذج الحسن للحياة الاجتماعية .. وللعلاقات الانسانية ..

ولكن أبناء الطبقة الوسطى ، عندهم كل أحلام أبناء الطبقة الأرستقراطية ، وعندهم كل ويلات ومخاوف وعذاب الطبقة الفقيرة .. ومصيبتهم ثقيلة أنهم يريدون أن يكونوا طبقة أخرى ، لا هي تحت ولا هي فوق .. ولكنها تتسخ بوحل تحت ، وتكتوى بنار فوق .. ومن الدخان والنار والطين ، والأمل واليأس ، تتولد كل شرارات الإبداع عند الانسان . ولكن ما أفدح الثمن !



هؤلاء الصغار.. وآمالهم الكبيرة

هؤلاء الصغار .. وآمالهم الكبيرة

لابد من معجزة لانتشالنا جميعا مما نحن فيه .. فأمس عندما جلسنا معا ، أحسست أن كل واحد منا غرقان فى شىء ما .. وأننا هكذا وقعنا فى أول الطريق ..

هذا غرقان فى القراءة - أى فى الوهم وفى أفكار الآخرين .. وأنه يرى أن الحياة تبدأ بالكتاب وتنتهى به .. وأن الكتاب إذا كان يبدو محيطا فإنه فى نفس الوقت زورق النجاة ..

وأن هذا غرقان فى الجنس وفى الخمر وفى فلوس أبويه ..

وأن هذا غرقان فى الواقع .. فى الواقعية .. وأن الإنسان يجب أن يعيش « على قده » .. بمعنى أننا ما دمنا طلبة فكيف نفكر كأساتذة .. وإذا كنا من أبناء الريف الفقراء ، فلماذا الاصرار على أن نحقد على أبناء المدينة الأغنياء .. الفرق بيننا هو آباؤنا .. فلا نحن سبب فقرنا ولا هم سبب فى ثرائهم .. أى أننا يجب أن نفكر « على قدنا » أيضا .. وأن نؤمن بأن الفقر مرحلة .. والخوف مرحلة .. والتلمذة مرحلة .. وأن أعظم العظماء كانوا مثلنا وأسوأ .. يكفى أن نقرأ ما كتبه طه حسين فى « الأيام » وما كتبه العقاد بصورة رمزية .. ويكفى عذاب العقاد فى حبه وفى كبريائه .. فهو يرى أنه أعظم الناس ، ولكنه لا يلقى من متاع الدنيا إلا ما يجده بواب البيت المتواضع الذى يسكنه . بل إننى رأيت خادم العقاد يمسح الأكواب فى طرف جلبابه .. وليس فى البيت فوطة واحدة غير التى يمسح بها الأستاذ العقاد وجهه ويديه ..

وليس من الضرورى أن نكون أغنياء مثل أفلاطون وشوبنهور ، وإنما فقراء مثل سقراط وأرسطو وألف فيلسوف آخرين ..

وبيننا ثوار لهم دين .. وثوار ليس لهم دين : إلا الماركسية ..

والذين لهم دين يريدون أن تنقلب الدنيا على رؤوسنا جميعا وهم يرون هذا ممكنا . وأن الإسلام قادر على أن يحقق المعجزات . وأنه لا حل غير الإسلام ولا علاج بغيره . وأن الثورة آتية لا ريب فيها .. إنها مسألة وقت وظهور بعض الشخصيات البارزة المكلفة من السماء ، بإصلاح هذا الكون ويومها ..

ويومها سوف يبدأون بشنقنا جميعا فى الميادين العامة :عبرة وعظة لكل الناس .

ولكن لماذا ؟

لأننا انشغلنا بالفلسفة عن ذكر الله ..

وأسأل : كيف ؟ إننا جميعا فى جماعة الإخوان المسلمين .

ويكون الرد : ليس كافيا ما نؤديه من فرائض . يجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنأخذ بأيدى الناس . وألا يكون لنا هدف وغاية غير ذلك . التضحية هى أول المبادىء والشهادة هى المبدأ الثانى .. وراحة الضمير .. والباقى على الله !

والذين يريدون الثورة بلا دين ، لأن الثورة هى الدين ، يطالبوننا بأن ننظر إلى ما فى أيدينا .. ما الذى فيها ؟لا شىء إلا بقايا الحبر ورائحة الطعام .. وقد لاحظ واحد منهم أن الفقراء هم الذين يمشون وأصابعهم مضمومة .. لأنهم يقبضون على الهواء .. أو يتوهمون أنهم يمسكون شيئا فى أيديهم . أو يحبون ذلك .. أما الأغنياء فأصابعهم مفرودة .. فكل شىء عندهم فى البيت .. فى الحقل .. فى البنك .. فليسوا فى حاجة إلى أن يضعوا أصابعهم .. والفقراء فى الدنيا أغلبية .. فهم قوة .. ولكنها قوة عمياء .. فى حاجة إلى عيون ، نحن عيونها ، وفى حاجة إلى جنة ، والجنة هى المستقبل .. المستقبل الممكن وليس المستقبل المستحيل .. ولا يمكن أن نخضع لقانون الصدفة .. فمن الصدف أن والدك تزوج أمك .. ومن الصدف أنك خرجت قصيرا كوالدك .. أو غبيا أو مريضا ، رفيعا أو حقيرا .. متشائما أو متفائلا .. إنها الصدفة التى جعلتك أفقر وجعلتنى أغنى .. ولا بد من أن نفرض العدل فرضاً .. بالقوة .. بالحديد بالنار .. لابد أن تكون هناك أفران .. وقودها الناس .. أعداء الناس هم الحطب

والخشب .. وغضبنا هو الكبريت ومرارتنا هى البنزين .. وسوف ننفخ جميعا .. هذه هى الثورة . ولا تزال الثورات هى أنبل وأطهر ما عرف الانسان ، علاجا للإنسان ، وتقويما للإنحراف ، واندفاعا للجنة الموعودة .. الجنة التى وعدنا بها أنفسنا لأنفسنا ..

وفينا فنانون وشعراء راضون بالقليل من هذه الدنيا .. يكفى أن يكون لدى الانسان إحساس بالجمال والحرية والعدل .. يكفى أن أقف أمام زهرة .. أمام عصفور .. أمام طفل صغير .. أمام فتاة جميلة أو صورة لها .. فالجمال لكل الناس .. والله سبحانه وتعالى قد جعل الهواء مجانا والضوء مجانا والماء مجانا والسير فى الحقول بلا رسوم .. أما السعادة فهى لذة الطعام : طعام العين والأنف والأذن .. وفتاة جميلة واحدة ، مثل زهرة أو وردة أو قطة تكفى .. إن الحياة مدينة للذين أحبوا الحياة ، والذين رأوا أن البناء أروع من الهدم ، والتسامح أعمق من الانتقام ، والسلام أعظم من الحرب ، ورضا النفس أعمق من المرارة .. وحب الوالدين أشرف من إنكارهما والبحث عن آباء آخرين فى الكتب أو فى الشارع .

وفينا من يؤمن بأن هذه الدنيا هى كل ما لدينا لا قبلها ولا بعدها .. هذا يومنا وهذه حياتنا .. فيجب أن نعيش هذه اللحظة . هذه اللقمة .. هذا الفراش هذا البيت .. ويجب ألا نشغل أنفسنا بما لا نعرف من الماضي ومن الغد .. اليوم هو البداية والنهاية .. فإذا صحونا من النوم .. قبلنا أيدينا وجها وظهرا لأننا ما نزال أحياء .. وأننا سوف نعيش يوما آخر .. وأن نرتبط بالشمس ، نصحو معها وننام معها .. وفي ضوئها نجرى ونلهث ، ثم نرتمي ونستريح ، ونحن يجب ألا يكون لدينا أمل فى يوم آخر .. فإن كان يوم آخر ، فلتكن سعادتنا متجددة ..

ومن بيننا أناس أراحوا أنفسهم .. قالوا : نحن لا نعرف شيئا عن هذه الدنيا.. ليس عندنا وقت .. وليست لدينا قدرة على فهم ما حدث وما سوف يحدث .. ممكن أى شىء .. ونحن لا نعرف إن كان هذا الذى نقول أو نسمع صادقا أو كاذبا .. فمعلوماتنا عن أنفسنا ليست دقيقة .. ولذلك فنحن فى شك من كل شىء .. لا نعرف ما البداية وما النهاية .. وهذا الشك عندنا مثل عاهة نعيش بها .. كما يعتاد على الحياة من ضاعت عينه وانسدت أذنه وانكسرت

ساقه أو ذراعه .. أو مات أبوه وهو طفل .. ثم ماتت أمه بعد ذلك وتنقل بين « البدائل » .. بديل الأم والأب والأسرة والإخوة والأقارب .. ولد غريبا وعاش أجنبيا وسوف يموت شريدا .. فليس طبيعيا أن نشعر بالامتنان لأحد من الناس .. فنحن جميعا قد أسقطنا من طائرات مجهولة على هذا الكوكب .. ولا نعرف من أين وإلى أين .. ولا لماذا ولا ما هى الحكمة .. هل نحن ممثلون حقيقيون فى دراما الكون ، أو أننا كومبارس .. أو أننا متفرجون عندما وجدنا الفوضى على المسرح وغياب المعنى وضياع المنطق ، فقزنا إلى المسرح .. فلماذا لا نمثل نحن أيضا ما دام لا فرق بين المتفرجين ، والممثلين ، فكل شىء بلا منطق ولا حكمة !

• • •

وفى يوم خرجنا من بيت دكتور طه حسين بعد أن أسمعنا بالحديث عن الشعر الجاهلى ، وبعد أن أشاع فيه النور والذوق والشجاعة والنبل .. تماما كأنه أقام لنا خيمة فى الصحراء .. ثم أدخل فيها الكهرباء والراديو والثلاجة والمروحة .. إنها خيمة من الخارج ولكن فى داخلها آخر ما وصل إليه العلم فى المعمار والديكور والأثاث .. ثم اننا عن طريق الراديو والتليفون على صلة بالعالم كله .. تلك براعة طه حسين ..

ولكننا أحسسنا بخيبة الأمل ، فهو رجل شاطر ولكنه ليس مفيدا .. إنه رجل قادر على أن يستخرج اللؤلؤ من البحر والماس من الأرض .. ثم ينظم ذلك عقودا وأقراطا .. وبسرعة يلقى بها من النافذة .. أو يسحقها بأصابعه السحرية فتكون ترابا ودخانا .. كأننا فى « ألف ليلة » ..

وجلسنا فى حديقة الأسماك فى الزمالك .. وشغلتنا جريمة نشرتها الصحف .. وكانت هذه الجريمة مثل غزال جميل تكاثرنا عليه كمجموعة من الوحوش والضوارى والكواسر نريد أن نفترسه جميعا . وافترسنا هذه الضحية ..

سؤال : هل كنت ترتكب هذه الجريمة لو ضمنت أن أحدا لن يدرى بك ، وتكسب ألوف الجنيهات والدولارات ؟

قال واحد بلا تردد : نعم .

وكان هذا الجواب السريع أو المتسرع فريسة أخرى . وتساءلنا : كأنك لا تتردد فى أن تكون مجرما ولصا ما دام أحد لن يكتشف أمرك .. كأن الذى يخيفك هو العقاب .. ولكن الجريمة مقبولة ..

فأجاب : نعم ! وكلنا ذلك الرجل . واللص الفاشل والمجرم الغبى هو الذى يقع فى أيدى البوليس !

قال أحدنا : من الصعب أن يتصور الإنسان نفسه قاتلا .. مجرما .. إننى عندما كنت أقرأ رواية « الجريمة والعقاب » لدستوفسكى كان شعر رأسى يقف فى اللحظات التى قرر فيها الطالب أن يقتل صاحبة البيت .. وهذا الطالب اسمه راسكلنيكوف ..

وكان الرد عليه : أنت شعر رأسك يقف لأن طالبا يحاول أن يقتل صاحبة البيت ، تخلصا من دفع الايجار .. ولكن شعر رأسك لا يقف إذا نسفت هذا البيت بمن فيه من الشيوخ والأطفال والحيوانات إذا كانوا يتسترون على أحد أعداء الثورة الحمراء التى ترددها .. شعر رأسك يقف للاصرار والترصد .. ولكنه لا يقف وإنما تصبح أصلع مثل لينين إذا أعدمت كل أصحاب البيوت .. كل أصحاب الأرض والمصانع كل الأغنياء .. يا أخى شىء عجيب .. إننى لا أفهمك !

قال آخر : القتل هو القتل .. وهو جريمة .. حرمها الله .. إلا فى الحرب دفاعا عن الإسلام ، وإلا فى الدفاع عن الوطن .. وعن الشرف .. وإلا فى القصاص .. وإلا فى تنفيذ الحدود التى شرعها الله !

وقلنا كثيرا .. وكانت هذه الجريمة مثل نار اشتعلت تحتنا بسرعة ولم نفلح فى الهرب منها .. فرحنا نخلع ملابسنا .. نتعرى أمامها .. لقد انكشفنا حقا .. إنها مثل جزيرة المغناطيس فى ألف ليلة ، فلا تقترب منها سفينة إلا انخلعت مساميرها ، وأصبحت السفينة ألواحا خشبية طافية ، يعلو بها الموج ويهبط .. فى لحظة واحدة ، وفى جلسة واحدة ، كشفنا أنفسنا ، واكتشفنا أعماقنا مرة أخرى .. لم تكن هذه هى المرة الوحيدة .. وإنما نحن مسلطون على أنفسنا .. لقد رأينا أنفسنا كثيراً فى أضواء كثيرة .. كأننا محبوسون فى صندوق « باندورا » ذلك الصندوق الذى أهدته آلهة الاغريق لأول مرة .. ففى الصندوق كانت كل الرذائل : الجشع والجبن والأنانية والانتقام والغيرة والحسد والكذب

والسرقة والزنا والخيانة .. وفى داخل الصندوق تلاقت كل الشرور وضاقت بنفسها . فلا حياة لها إلا فى الناس ومن الناس تمزقهم وتحرقهم ، وتضربهم بعضهم ببعض ..

وتقول الأسطورة الإغريقية أن الفتاة « بندورا » قد فتحت الصندوق فخرجت كل الشرور . وفى آخر لحظة أغلقت الصندوق . فلم يبق فيه إلا : الأمل .. الأمل فى الخلاص من كل هذه الشرور ..

ولكن صندوقنا الردىء الصنع .. أو صندوقنا المصنوع من الورق ، خرج منه كل شىء .. وأول الخوارج كان : الأمل !

* * *

فى تلك الأيام كانت لنا زميلة « صعلوكة » ـ هى التى تقول عن نفسها ذلك . وتقول : أنها سمعت من والدها ، أنه كان أسعد صعلوك فى باريس .. فأبوها مصرى وأمها فرنسية ألمانية يهودية مسلمة .. ولم نكن نعرف ما معنى الصعلكة . ولكن ننظر إليها ونقول : هكذا الصعلكة .

فهى تمشى بسرعة وتتكلم بسرعة وبصوت مرتفع وهى إذا تحدثت تحرك كل شىء فى فمها .. قامت وقعدت . وأشارت بذراعيها النحيلين وساقيها الجميلتين وحذائها الذى يشبه أحذية الرجال . ثم اخرجت علبة سجائر وأشعلت سيجارة .. وكان تدخين الطالبة شيئا نادرا .. وبهذه الصورة الشرهة شذوذا . ولكنها صعلوكة . أما شعرها الذهبى فكان قصيرا .. وسط بين شعر الرجل وشعر الفتاة .. أو كان « ألاجرسون » ـ أى على طريقة الشبان ـ وكانت تقول : أن تكون الفتاة ألاجرسون ـ غلاما ـ هو نوع من التمرد على فكرة حريم السلطان .. حريم الرجل الشرقى .. فهى تقترب من الرجل وتظل فى نفس الوقت أنثى ..

وكانت هى التى تحدثنا عن لياليها .. ترقص وتشرب .. وليس فى نيتها أن تتزوج .. وكانت ترفع يدها بالتحية لكثير من الطلبة والمدرسين ومن لا تعرف من الناس .. إنها اجتماعية وعلى صلة بكثيرين .. ولكنها طالبة مجتهدة جدا .. تعرف خمس لغات .. وتذاكر وتتفوق على كل زميلاتها ..

فهل الصعلكة هى الحرية المطلقة ؟ أو هى الحرية الأوربية التى تتنافى مع الحرية الشرقية ، أو الحرية التى تضرب حريتنا بالجزمة .

قالت وقد صرنا وحدنا فى حديقة الأورمان : فكرت ؟

- فى أى شيء ؟

- فى الهجرة إلى فرنسا ، كما تناقشنا .

- ما الذى سوف أجده هناك ، ولا أجده هنا .. إننى مرتبط بلغتى العربية .. ثم أسرتى .. مات أبى ، ولا يمكن أن أعتمد على إخوتى الأكبر ، ولا على خالى وخالتى .. وأن قلبى لينقطع فى كل مرة أجد أخى الأصغر يمشى على قدميه حتى يصل إلى الأتوبيس ليعمل فى آخر القاهرة .. إنى أراه يتعذب فى صمت .. لابد أنه يتوقع أن أساعده ، فقد ساعدنى كثيرا جدا .. إن كل ورقة مالية أقبضها منه .. تشبه « قنديل البحر » .. إنها ملساء ناعمة ولكنها تفرز نارا فى يدى وفى جسمى .. إننى أريد أن أنهى هذا العذاب .. عذابنا نحن الاثنين !

- ولكنك غيرت رأيك بسرعة .. ألم تقل أن لك أقارب فى منطقة الالزاس واللورين .. إننى أعرف كثيرين هناك .. وأعرف ما الذى يمكن أن تعمله .. أو نعمله معا .. والذى تراه غريبا هنا فى القاهرة سوف تجده مألوفا هناك .. وسوف تكون مثلى ربما أكثر انطلاقا .. وأول شيء سوف تعمله هو أنك سوف تتخلص منى .

- ومع ذلك تريديننى أن أهاجر إلى فرنسا ..

- نعم .. من أدراك ربما سبقتك أنا إلى الخلاص .. منى ومنك ؟!

- ليس بهذه السهولة .. فلا أنا قادر على الحركة والانتقال مثلك .. فأنت هناك لست غريبة .. وإنما أنا أشعر بالغربة فى بلادى ..

- لأنك تريد أن تبقى غريبا .. لأنك غير قادر على أن ترتبط بأحد أو بهدف .. أنت الذى تقوم بتقطيع العلاقات بين الناس .. هل هناك سبب واحد مقبول أن تصدم زميلتنا : أ .. لا سبب . ولكنك أنت الذى لا تريد أن ترتبط .. لا تريد أن تكون مربوطا بأحد .. ألا تذكر القصة القصيرة التى كتبتها فى مجلة الكلية وكان موضوعها وعنوانها : « ليتنى شجرة على ترعة تعيش وتموت واقفة » .. ليس لها إلا معنى واحد هو أنك ترفض الأبوة والأمومة والأقارب ..

بل ترفض الإنسانية .. وتريد أن تكون شجرة تعيش وحدها وتموت وحدها .. إنك اخترت شجرة .. كأنك اخترت علامة تعجب لها أغصان وأوراق .. إنها علامة تعجب منك ولك .. وأحب أن أطمئنك أن كل الصعاليك بدأوا حياتهم هكذا .. انك تفكر مثل أبى تماما .. والآن تعال واجلس معه .. إنه قد أسرف فى الارتباط بالآخرين حتى أصبح مثل جليفر فى بلاد الأقزام مربوطا بالخيوط والحبال من كل شعرة فى رأسه وشاربه ولحيته .. فلم يعد قادرا على الحركة .. ولكن فى هذه الخيوط سعادته .. تماما كما يجد فقراء الهنود نومهم العميق على المسامير .. وكما يفعل « الرفاعية » فى ريف مصر يضربون أنفسهم بالسيوف ويدخلون المسامير فى وجوههم وبطونهم .. وتقشعر أبداننا لذلك ، أما أبدانهم فقد ودعت الخوف والألم منذ وقت طويل ..

• • •

شىء غريب حقا هل جاء الخريف قبل الأوان .. فالأرض تغطت بأوراق صفراء ذابلة .. كأنها قطعت من كراريس الطلبة بعد الامتحان .. أو كأنها عملات مزورة طارت من أحد أقسام الشرطة .. أو كأنها كلمات فارغة .. أو كأنها بقايا معركة بين السماء والأرض .. فالأرض غطتها جثث لم يدفنها أحد بعد ..

حتى وجوه الناس هى الأخرى ، كأنها قاربت نهايتها .. فالوجوه شاحبة والعيون ذابلة والأصوات كسيرة والخطوات ثقيلة .. والدنيا ، انكتمت ، .. شىء ما كتم أنفاس الكون .. فلا صوت ولا نفس ولا حياة ولا حركة .. وأنا أيضا ، انكتمت ، .. فلا ألتفت حولى ولا أنظر ولا أتأمل ولا أسمع ولا أفكر ولا أريد .. ووجدت الكثير من المقاعد الفارغة .. كأن الناس ، لسبب ما تركوها .. واختفوا .. كأن هجوما مفاجئا وقع على هذه المنطقة من « منيل الروضة » .. كأنهم المماليك البرجية أو المماليك البحرية ظهروا واستولوا على المنطقة ونقلوا الناس مرة أخرى إلى تركيا كأن هذه المنطقة انشقت وابتلعت الناس .. كأن القاهرة كما وصفها هيرودوت تسبح فى نيلها وشوارعها التماسيح فالتهمت الناس .. ولم يبق سوى شاهد على العصر .. والمذبحة .. وعلى تفريغ الشوارع والبيوت والحدائق من الناس ..

وفجأة ظهر الناس .. وصحوت من هذا السرحان أو هذا الإغفاء أو الإغماء أو الإعياء .. لقد ذهبوا جميعا إلى بائع الآيس كريم .. ثم عادوا ولابد أنهم استغرقوا دقيقة أو اثنتين .. ولكن هذا الوقت القصير جدا ، أحسست كأنه أبدية .. شيء غريب وعجيب إحساس الإنسان بالزمن .. إن احساسنا هو الذى يجعل الزمن يكون فى سرعة عقارب الثوانى ، ويكون فى بلادة عقارب الساعة .. فالزمن هنا .. فى داخلى ولا علاقة له بهذه الساعة فى أيدينا ..

ومددت يدى إلى الكتاب الذى تركته ، الصعلوكة ، الفرنسية وهى تقول : إنه يضم مجرد مقترحات رديئة لا تشرفك ولا تساعد أحداً على أى شيء .. ثم إنك لست شيئا بعد .. !

الله يلعنك يا ليليان .. كل شيء فيك ومنك يلسع .. أنت مثل السمك الرعاش ، من يلمسك تصعقينه .. أنت مثل نحل العسل .. إن أعضاءه التى تمتص الرحيق وتفرز العسل هى التى تكوى من يدنو منها .. السم والعسل فى مكان واحد .. كيف أنت هكذا .. أجمل الكلام وأجمل الملامح والحيوية والشباب والشجاعة والانطلاق والمنطق الحديدى والبساطة والنار والنور .. أنت أسطورة ..

ومددت يدى إلى الكتاب الذى هو اقتراحات رديئة لا تشرفنى ولا تسعد أحدا من الناس .. وبسرعة قلبت فيه وضحكت .. ثم أقبلت عليه من بدايته .. أعوذ بالله .. ما هذا إنهم شعراء وأدباء كيف كانت نهايتهم التى وقعوا فيها والتى اختاروها .. الكتاب عنوانه : « نهايتهم العجيبة » :

الشاعر الإغريقى انكاريون الذى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد كان يأكل العنب ، فانحشرت حبات فى حلقه فمات !

• • •

والشاعر تربنادر رماه أحد أصدقائه بحبة من التين ، فاستقرت فى فمه وفى حلقه ، فمات !

• • •

والأديب اسكيلوس كان يجلس أمام بيت عندما حلق نسر يحمل سلحفاة بين مخالبه ، فأسقطها فنزلت على رأس هذا الأديب فمات فوراً .

والمؤلف المسرحي يوربيدس هاجمته الكلاب فمزقته ومات !

• • •

والفيلسوف ديوجانس طلب أن يدفن على رأسه ، إيمانا بأن العالم سوف ينقلب ، فإذا انقلب صار واقفا على قدميه !

• • •

والفيلسوف العظيم أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) ألقى بنفسه في البحر ، عندما عجز عن تفسير سبب التيارات البحرية ولماذا تتغير في اليوم الواحد عشرين مرة !

• • •

والملك الأديب متريداتس (١٣٢ - ٦٣ ق . م) كان يخاف أن يموت مسموما ، فطلب إلى خادمه أن يضع القليل من السموم في طعامه . حتى اعتاد الجسم على ذلك . وفي يوم قرر الانتحار . وأخذ كمية من السم ، ولكنه لم يمت ، فطلب إلى أحد حراسه أن يدق رأسه بحجر !

• • •

والفنان كالخاس مات من الضحك . فقد عاش يوما بعد اليوم الذي حدده العرافون !

• • •

والفيلسوف هرقليطس غطى نفسه بروث البقر ، حتى مات !

• • •

والفيلسوف زينون قطع أحد أصابعه عندما بلغ التسعين .. وراح ينزف ثم يدق الأرض بقدميه ويديه مرددا بيتا من الشعر القديم يقول :

جئت إلى هنا ، فلماذا أتيت بي ؟!

حتى مات !

• • •

والمفكر الروماني الساخر برجرينوس أشعل نارا ضخمة ، وراح يدور حولها وأبدى إعجابه الشديد بألوانها وأصواتها ثم ألقى بنفسه فيها !

والأدباء الرومان : سنكا ولوكان وبترونيوس ، مزق كل منهم عروق يديه وانتظر الموت تنفيذا لأوامر الطاغية نيرون الذى جلس يتفرج على هذه النهاية !

• • •

أما الشاعر هلفنوس سبينا ، فقد ظنته الجماهير واحدا من السفاحين فتكاثروا عليه وقتلوه !

• • •

وأبيوس أول من ألف كتابا عن الطهى فى التاريخ .. فقد استدرجه أصدقاؤه إلى اقامة وليمة ضخمة ، فأقامها . ولما عرف أن الفلوس التى تبقت لديه لاتكفيه شهرا ، ظل يأكل من هذا الطعام حتى مات !

• • •

والشاعر الصينى لى بو (٧٦٢ - ٧٠٠ ق . م) ركب زورقا فى ليلة مقمرة وشرب نبيذا وغنى ونظم شعرا ، وعندما حاول أن يقبل صورة القمر على سطح الماء انقلب وغرق ومات !

• • •

والشاعر الإيطالى بتراركه (١٣٠٤ - ١٣٧٤) تمدد على فراشه وأعلنوا أنه مات وتركوه يوما بناء على وصيته .. وفوجئوا بأنه اعتدل وقام وعاش بعد ذلك ثلاثين عاما !

• • •

والفيلسوف الانجليزى فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) كان يحشو الحيوانات الميتة بالجليد ، لكى يعرف كم من الوقت تظل هذه الطيور بلا عفونة .. فمات من شدة البرد !

• • •

والأديب بن جونسون (١٥٧٣ - ١٦٣٧) طلب أن يدفن واقفا .. فدفنوه تحت كنيسة كانتربرى واقفا !

• • •

والمؤلف الانجليزى روبرت برنز (١٥٩٥ ـ ١٦٤٠) توفى فى نفس اليوم الذى توقعه !

• • •

والشاعر المجرى والزعيم السياسى ميكلوس زرينى قد هاجمه خنزير وقتله !

• • •

ومات شيكسبير والأديب الأسبانى سرفانتس فى يوم واحد ـ ٢٢ أبريل سنة ١٦١٦ !

• • •

وموليير (١٧٢٥ ـ ١٧٨٣) كان يمثل دورا فى إحدى مسرحياته . الدور هو أن يتظاهر بالمرض فظل يسعل وينزف . وعندما نزل الستار مات . المسرحية اسمها « المريض بالوهم » !

• • •

والأديب الأمريكى جيمس أوتس (١٧٢٥ ـ ١٧٩٣) .. تمنى أن يموت فى السماء بأن يحمله أحد النسور ثم يموت بين مخالبه ـ كان يمشى فى الحقول فأصابته صاعقة فمات !

• • •

الشاعر الانجليزى لورد بيرون (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤) مات عندما نقل منه الأطباء أربعة كيلو جرامات من دمه لعلاجه من الملاريا !

• • •

الشاعر الألمانى فون تومل مات أيضا سنة ١٨٢٤ وطلب أن يدفنوه فى جوف شجرة ـ الشجرة ما تزال حية !

• • •

الشاعر البريطانى شيللى (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) مات غرقا . وعندما أحرقوا جثته ، لم يحترق قلبه . فحملته زوجته معها فى كل مكان !

• • •

أمير الشعراء الروسي بوشكن (١٧٩٩ ـ ١٨٣٧) مات في معركة بالسيف والشاعر الروسي لرمنتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤١) نظم قصيدة بعنوان « موت شاعر » هو أيضا مات في معركة بالسيف مع أحد خصومه !

• • •

والأديب الأمريكي هوثورن ولد سنة ١٨٠٤ كان يتشاءم طول حياته من رقم ٦٤ فكان يحذف رقم ٦٤ من كل كتبه ومنكراته . ويكتب بدلا منه ٦٣ مكرر . مات سنة ١٨٦٤ !

الأديب البريطاني ثاكرى (١٨١١ ـ ١٨٦٣) مات من التخمة ! والفيلسوف الإنجليزى بنثام (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) ترك ثروة ووصيته بأن يظل جسمه معروضا على طلبة الجامعة مرة كل سنة .. الجسم معروض الآن بصفة دائمة !

• • •

الساخر الأمريكي مارك توين ولد يوم ظهر المذنب هيلى سنة ١٨٣٥ وأعلن أنه سوف يموت عندما يظهر مرة أخرى . وظهر في سنة ١٩١٠ ومات مارك توين !

قال مارك توين : إن الله سبحانه وتعالى لابد أن يكون قد قال : ظهر هذان المجنونان معا ، وسوف يختفيان معا !!

• • •

والكاتب سلام عليكم (شلومو علينحيم) كان يخاف من رقم ١٣ .. لا يكتبه في كراريسه ولا في كتبه .. وانما كان يكتب « ١٢ مكرر » . مات في نيويورك يوم ١٣ مايو سنة ١٩١٦ .. كتبوا على قبره : توفي يوم ١٢ مكرر مايو سنة ١٩١٦ !

• • •

والشاعر الاسكتلندى دافيسون (١٨٥٧ ـ ١٩٠٩) كان قد اقترض مائتى جنيه من برنارد شو . قرر أن يعيدها بسرعة . فعمل ليلا ونهاراً على إكمال أحد أعماله المسرحية . فشلت المسرحية . فألقى بنفسه في بحر المانش !

• • •

الأديب الانجليزى أرنولد بنيت (١٨٦٧ ـ ١٩٣١) مات بحمى التيفود بعد أن شرب كوبا من ماء نهر السين مباشرة ليدلل على أنها مياه نقية صحية !

• • •

الشاعر الروسى سرجى اسنين (١٨٩٥ ـ ١٩٢٥) قطع عرقا فى ذراعه وكتب قصيدة بدمه ، ثم شنق نفسه !

• • •

الشاعر الانجليزى روبرت بروك (١٨٧٧ ـ ١٩١٥) لدغته بعوضة فمات وترك ثروته لثلاثة من الشعراء هم : جيلمان وابركرومبى ووالتردلامار !

• • •

الكاتب الإيطالى كارلوجويدى مات بالصدمة عندما قدم ترجمة لاتينية للبابا ، اكتشف فجأة أن خطأ مطبعيا لكلمة واحدة تكرر فى كل الكتاب ـ ولها معنى مختلف تماما !

• • •

الأديبة الأمريكية ألين جلاسجو (١٨٧٤ ـ ١٩٤٥) أوصت بأن تدفن مع كلابها .. وأن تنقل رفات هذه الكلاب إلى نعشها بعد ذلك .. وألا تدفن مطلقا على مسافة أقل من ألف كيلو متر من قبر والدها الذى كرهته طول عمرها !

• • •

فى سنة ١٩٣٣ أمر هتلر بأن يبتلع المؤلف أرنست تولر ،كتابه الذى كتبه ضد النازية ـ الكتاب من ٤٧٠ صفحة !
وظل يأكل كتبه حتى مات !

• • •

الفيلسوف أفلاطون فى ٤٥١ ق . م أحرق كل قصائده التى نظمها ، فقد قرر أن يكون تلميذا للفيلسوف سقراط !

• • •

الراهب الإيطالى سافونا رولا أحرق فى سنة ١٤٩٧ كل مؤلفات الشعراء : أوفيد تيرونوريس وبوكاتشيو ودانته ـ هذا الراهب أحرق أيضا !

فى سنة ١٥٥٣ أحرقت فرنسا المؤلف ميشيل سرفيتوس ، مع كل كتبه !

• • •

ولويس الرابع عشر أحرق مؤلفات باسكال فى سنة ١٧٣٤ !

• • •

أكثر الكتب التى أحرقت فى القرن الثامن عشر فى كل الدول الأوروبية هى مؤلفات الفيلسوف الفرنسى فولتير !

• • •

دراسات فى لغة الجنس - للعالم هافيلوك إليس ضبطته جمارك نيويورك ، وأحرقته أمام عينى المؤلف !

• • •

ولاية ميسورى الأمريكية أحرقت رواية « عناقيد الغضب » للكاتب الأمريكى شتاينبيك !

• • •

رواية « عنبر إلى الأبد » للأديبة : كاثلين وينسور ، أحرقتها الجمارك المرضية !

• • •

... كل هؤلاء الناس وكل هذه المصائب .. ومطلوب أن أختار لى نهاية ... بيد غيرى .. ولكن لماذا ؟ لأننى لا أريد أن أهاجر إلى فرنسا .. ولأننى لا أريد أن أنسلى بها ومعها إلى هناك .. حيث نفترق عند أول محطة .. هى فى طريق وأنا فى طريق .. ولكننا هنا فى مصر فى طريقين ... أو لأنها تريد أن آخذ بوجهة نظرها بعض الوقت ، ثم أستحق العقاب الذى يعادل هذه الحماقة !

ولكن من كل الذى قرأت لم يتبق إلا هذا المعنى : يجب أن أقطع صلتى بالماضى .. لا كل الماضى وإنما بعضه .

ووجدت الماضى هو مجموعة من الكتب القديمة التى حرصت على ... وألصقتها بالورق اللاصق والدبابيس .. وهى جميعا كتب مدرسية ... إنها تشبه ملابسى القديمة . ولا قيمة لها ..

واستبعدت أن أحرقها .. أو أن ألقي بها في النيل ، كما فعلت عدة مرات .. واستبعدت أن أبيعها بالأقة . فأنا لا أطيق أن أرى البائع يمزقها ويضع فيها الخيار أو اللب .

وأخيرا تذكرت قصة قديمة سمعتها .. ووضعت كل كتبي في شوال .. وطلب إلى أحد أن يحملها عني . ثم وضعتها على ظهر حمار وذهبنا معا إلى مكان بعيد من إمبابة .. ورحنا نحن الإثنين نحفر في جانب من الأرض ودفنت كل هذه الكتب .. مئات .. وقد يبللها الطين .. ولن يمضي وقت طويل حتى تكون طينا هي الأخرى .. هل نزلت دمعة من عيني ؟ نزلت دموع كثيرة .. كأنني واحد من الجاهلية رزق بنتا ، وهو يكره البنات .. ويراها عارا فراح يدفنها حية .. أما الولد فقط هو المفخرة .. وهي ابنته .. لحمه .. دمه .. ولكن هذا حكم المجتمع البدائي الهمجي العصبي .. دفنت بناتي وأهلت الطين عليها .. واشتريت صمت الطفل الذي كان يقود الحمار ، فأعطيته بعض المال ووعدته بمزيد .. وحمل الحمار كتبا أخرى إلى أماكن متفرقة .. وكان الوأد وكانت الدموع !

واسترحت نفسيا لذلك ، ولأسباب ليست واضحة تماما . ربما كان هذا قرارا مؤجلا يطالعني كل يوم .. أما القرار فهو : لابد من التخلص من الكتب ولكن كيف ؟ وتخلصت منها ..

وانتقلت من امبابة إلى القاهرة إلى بيت في مواجهة مسجد السلطان أبي العلا .. ومع البيت تغير الجيران والزملاء والأصدقاء .. وتغير الطريق ذهابا وإيابا وسط القاهرة .. وتغيرت المشاهد التي أراها من نافذتي فوق الأسطح ..

وتباعدت ـ دون تبرير وتفكير ـ المسافة بين كل الزملاء والأصدقاء .. وكنا نلتقي فيكون اللوم رفيقا .. كأننا قد سلمنا بأن هذا هو الطبيعي .. وكأننا قد قبلنا مقدما ، أننا لا نرى بعضنا البعض . ولا لوم على أحد .. فهذه هي الدنيا الواسعة .. التي امتلأت بأناس كثيرين .. وهذه هي المواقع الجديدة والعلاقات والمشاكل والصداقات الجديدة .

ولا أعرف كم مضى من الوقت .. ولا بالضبط ما الذي أعمله .. وما هو الطريق الذي سوف أسلكه .. وقد انشغلت تماما بالطريق عن نهايته .. المهم

ل أبدأ وأن استغرق وسوف تكون النهاية فيما بعد .. كل شيء سوف يجيء ، بشكل ما ، بدرجة ما ، في وقت ما ..

هل هو استسلام للواقع ؟

نعم .

هل هي تواكلية ؟

نعم .. تماما كما تسافر بطائرة وتستسلم في مقعدك وتنام .. فأنت لا تعرف الطيران ولا علوم الطيران .. وأنت اخترت الطائرة وسيلة للمواصلات .. واخترت معها أن تستسلم ، وليكن ما يكون .

• • •

وفي يوم ظهرت ليليان ، أكثر إشراقا وبريقا وحيوية ولمعانا ومرحا . قلت : كيف حالك ؟

قالت : كما ترى . كيف تراني ؟

قلت : في أروع حال . متى تسافرين ؟

قالت : بل أريد أن أهاجر !!

قلت : وأنا أريد أن أهاجر !

قالت : لا أنصحك . كنت أدعوك إلى الهجرة عندما لم يكن لك عمل .. عندما لم تكن قد بدأت .. أما الآن وقد بدأت ، فمن الجبن أن تهاجر .. ابدأ واستمر وأكمل وغير طريقك وأنت في نفس الطريق .

قلت : ما أعظمك .. ما أروعك .. ما أتعسنا بغير عقلك ..

قالت : أنت ساذج .. أنت صدقتني . إنني قررت ألا أهاجر سوف أبقى .. سوف نلتقي .. ومعنا ثالث : زوجي . فقد قررت أن أتزوج صعلوكا مثلي ومثلك ..

قلت : وأنا أيضا كنت أداعبك . فأنا غارق في عملي الصحفي .. أو عملي الأدبي .. وعندي رغبة قوية أن أعود إلى الفلسفة ..

قالت : اجعلها فاكهة .. لا طعاما أساسيا .

قلت : وكيف كان قرار الزواج هذا ؟

قالت : قرار صعاليك ..

قلت : كيف :

قالت : ولا حاجة .. هو سألنى هل أتزوج ؟ قلت له : لا مانع .. وأتزوجك أنت بالذات .. وتكون العصمة فى يدى .. قال : موافق .. قلت له وأصدقائى ؟ قال : هم أصدقائى أيضا .. ولا أريد أطفالا موافق على ذلك .. وطلبت إليه أن يعيش فى بيت والدى فوافق .. هل تريد أن تعيش معنا أنت أيضا .. عندنا غرفتان فوق السطوح .. إحداهما يسكن فيها رءوف ..

- من رءوف ؟

- صديقنا ..

- رءوف حسان ؟

- مجانا تعال .. سنة أو سنتين حتى تجد لك مكانا مناسبا .. ودع والدتك وحدها واذهب لزيارتها من حين إلى حين . ولدينا مكتبة ضخمة بها ألوف الكتب واللوحات والأسطوانات .. تعال .. كأنها بعثة دراسية فى فرنسا التى تقع فى قلب القاهرة . ما رأيك ؟

- موافق .



موعد في الكباريه

ولكن الملك لم يحضر

موعد في الكباريه .. ولكن الملك لم يحضر

المكان مظلم . إلا من أنوار خافته .. صفراء وحمراء .. وقرقعات الضحك . والموسيقى عالية في كل مكان .. وفتيات كثيرات يجلسن إلى المناضد وحدهن .. ثم ينتقلن إلى مناضد أخرى .. ولم أستطع أن أتابع واحدة منهن . فالدنيا مظلمة . ولا أعرف ماذا يحدث لو جاءت واحدة وجلست معى . مصيبة وقد سمعت أنه من الممكن أن يقال لها : اسف .. إننى أنتظر ضيوفا ..

ويقال إنها لاتجلس ولاتفرض نفسها .. لم تكن مشاعرى واضحة . ولا حتى رغبتى فى أن أجىء إلى هذا المكان . وارتفع الستار .. وأضىء المسرح . وظهرت فرقة موسيقية .. وبعدها راقصة . أول راقصة أراها فى حياتى . لا أعرف إسمها . ولا أعرف جسمها . فقد كتبت عنها كثيرا . قصة وراء قصة حتى نبهنى أحد الزملاء إلى أننى أسرفت . مع أن هناك أشياء أخرى تستحق هذا الاهتمام أو هذا العشق ..

وظهرت راقصات أخريات .. وكل واحدة مثل موجة البحر ، تمسح الموجة التى قبلها . ولم تحتفظ ذاكرتى بملامح كل واحدة . وكان لابد أن أذهب مرة أخرى . وذهبت ولكن بعد أن أصبحت أكثر شجاعة . ورافقنى زميل لا أخجل منه ، فهو الآخر ليس صغيرا . ولكننا معا ، أصبحنا رجلا شجاعا وجريئا أيضا . وكانت الترابيزة التى جلسنا إليها قريبة من المسرح . وجاء الجرسون أكثر بشاشة . فهو قد عرفنا . وقدم لنا المزة من الترمس والجبنة بطماطم والسودانى والبطاطس . ومن تلقاء نفسه أتى بالبيرة لصديقى . أما أنا فقد أتى بشىء غازى ، لأنه لاحظ أننى لا أشرب ..

والتفت ناحيتى وقال : أنت معجب بماريا ؟

- من هى ماريا ؟
- الراقصة ..

وكان ذلك صحيحا . ولكن كيف لاحظ ذلك ؟ وكانت ماريا هذه من أصل إيطالى . وهى تعمل موظفة فى إحدى شركات القطن نهارا . ولكنها فى الليل ترقص . ورقصها أوروبى محترم .. فهى لاتتعرى ولاتتحدث إلى أحد ولاتجلس إلى الزبائن . ويقال أنها تكمل تعليمها فى الجامعة . ويقال أنها عندما تجمع مبلغا من المال سوف تهاجر إلى أمريكا .. ويقال أنها تنفق على والدتها المريضة .

وفيما بعد سمعت مثل هذه القصص كثيرا . فكل راقصة تحاول أن تؤكد أنها أرغمت على هذا العمل . أى أنها لا تحترمه . فالضرورة أقوى من كل الظروف . وماريا كانت مثل كل الراقصات . ولكنها جعلت لنفسها نوعا من « المناعة » أو « درعا » لوقايتها .. هذا الدرع هو هذه القصص التى تحكيها عن نفسها . والحقيقة أنها تحب رجلا ، وهذا الرجل يأتى اليها آخر الليل يأخذها هى وفلوسها ويختفى ..

أما ماريا فكانت تظهر على المسرح سمراء طويلة رشيقة حركاتها انسيابية .. والألوان تتغير على وجهها وجسمها .. ولكن أفضل النظر إلى عينيها . فنظراتها بلا معنى .. خرزتان محايدتان : لاتدعوان أحدا ولاتصدان أحدا .. وليس فيها مايدل على ماتقوم به .. ولاصدى لما تشعله من نار فى المتفرجين عليها .. وجسمها يدور ويتكوم وينفرد مثل أفعى يتحرك مع مزمار هندى .. وبعد ذلك ، يدخل الكيس الذى خرج منه .. وكان يعجبنى أنها تقف على حافة المسرح وتوهمك بأنها سوف تسقط . ولم أفهم لماذا تعجبنى هذه الحركة .. واخيرا عرفت أنها مثلى تماما عندما وقفت على حافة السجن الجامعى أمام الباب .. فهى تمثل لنا خطر الوقوع ولكنها لاتقع .. أما أنا فقد وقعت فى المحيط الذى هو خارج الجامعة .. وليس ذهابى إلى الكباريهات إلا نوعا من حب الاستطلاع والتعرف على معالم الدنيا ليلا ..

وكتبت عن الرقص وانواع الرقص .. القديم والجديد .. والرقص فى المعابد .. والفن والجنس .. والموسيقى .. والقرف من كل ذلك .. فقد كان الذى أشربه ينسونا بالثلج . كما حدث فى أول مرة ذهبت إلى الكباريه . فعندما

ذهبت إلى أول كباريه وجدت واحدا من الجرسونات يعمل ساعيا فى جريدة « الأساس » وقلت له : لا أشرب !

قال ولا يهمك !

وأتى بالينسون ـ الذى هو فى لون الويسكى ـ ووضع فيه الثلج . وقال لى : اشرب .. أو حاول !

وكان طعمه لعينا . وهذا يفسر القرف الذى أصابنى فى أول ليلة ..

وعرفت فيما بعد أنه يمكن أن نشرب الكوكا ـ وأن الخمور ليست إجبارية . وأسعدنى ذلك ..

وعندما حاولت أن أفسر بالضبط ماالذى أصابنى . وجدت أننى تخيلت نفسى مطربا فى أحد الكباريهات . وكنت اتمنى أن أكون مطربا . وليس من المعقول أن أكون محمد عبد الوهاب من أول أغنية .. ولابعد مائة . إذن لو كنت قد جعلت الطرب أسلوبا فى الحياة ، لكان من الممكن أن أكون مطربا متوسط الفن .. وأن يكون الكباريه هو المكان الذى سوف أغنى فيه .. ففيه الناس لايسمعون . وإنما هم مشغولون عن المطربين بالفتيات والخمور .. ووراء هذا العدد الكبير من الفتيات والراقصات صاحب المحل الذى يريد أن يجمع أموالاً بأى شكل وبسرعة .. فهو صاحب هذه السلخانة البشرية .. وسوف يكون مستقبلى محددا برضاه وغضبه .. واستجابة الناس لصوتى .. وأفزعتنى هذه الفكرة وهذه الصورة وهذه النهاية .. فكان التفكير فى ذلك أسوأ طعما من الينسون بالثلج !

وفى يوم اقترحت إحدى موظفات البرنامج الأوربى أن أرافقها إلى كباريه « سكارابيه » ـ وهو كباريه عظيم الاحترام . وقالت : على حسابى .. وسوف نرى الملك فاروق .. والمطلوب هو ألا تنسى الكرافتة !

وقبل الموعد المتفق عليه ذهبت أقف امام الكباريه .. العربات كثيرة .. وهناك منادون وسائقون .. وسفرجية . وموظفون يرتدون اليونيفورم .. وجاء رجال الشرطة .. وأصبح الوقوف أمام الباب صعبا .. ثم إننى لا أعرف إن كانت هناك تذاكر للدخول .. أو كانت هناك ترابيزة محجوزة ولا إن كان من

الممكن أن ادخل وأن انتظرها . ثم من الجائز ألا تجيء في موعدها .. ولا أعرف إن كانت عندها سيارة أو أنها سوف تجيء بالأتوبيس ..

وجاءت بعد ساعة طولها مئات الساعات !

ولم تكد تراني حتى وضعت ذراعها في ذراعي ودخلنا .. ولكن لابد أنه الموقف الذى يحتم أن يكون الناس اثنين اثنين .. ولا أظن أننى قلت شيئا مضحكا أو حتى قلت شيئا يجعلها هكذا تضحك وتتمايل ناحيتي وتخفى رأسها في ذراعي .. هي أمامي وأنا وراءها . وجلسنا . وقالت لى : ياأخى أنت خيبة ثقيلة .. طول الوقت أكلمك وأنت لاترد .. إنت إيه .. ألم تر الحرس الملكى أمام الباب ووراءه .. إن الملك سوف يجيء .. إذن لابد أن ساميه جمال سترقص أو كاريوكا .. حظك من نار .. لقد جئت هنا أكثر من مرة .. فلا جاء الملك ولا واحدة منهما رقصت لنا !

لابد أنها الكرافتة هي التي جعلتني أشعر طول الوقت أننى مخنوق .. ثم إننى لست مستريحاً لأى شيء .. لا المكان ولا الموسيقى الأوربية .. ولا لأنها تشرب كثيرا وتتلفت حولها أكثر .. كأنها في انتظار أحد .. وأنا لست إلا « نمرة » ... ثم إن كثيرين يعرفونها .. ويصافحونها .. وتقدمنى لهم على أننى إبن خالتها ، وأننى غريب عن القاهرة . وكثيرون يحدثونها رمزا . أى أن بينهم حكايات مشتركة وبعضهم ترك بطاقته وكتب رقم تليفونه . وبعضهم طلب إلينا أن ننتقل إلى مائدتهم . وسألتنى إن كنت أحب ذلك . ويبدو أننى رفضت وبقينا وحدنا طول الليل . أو على الأصح بقيت وحدى فهى قد وجدت أشياء تتسلى . فهى في حديث مستمر مع المناضد المجاورة بالايطالية والفرنسية والانجليزية واليونانية .. ودون أن أستأذن منها ، انسحبت وعدت إلى البيت . ولم تسألنى . فلعلها ظنت اننى سوف أذهب إلى دورة المياه ..

وحاولت بعد ذلك أن تنبهنى إلى أنها سكرتيرة إحدى الجمعيات الدينية . وأنها مسئولة عن إقامة حفلها السنوى ، ولذلك فهم جميعا يعرفونها .. وعرفت بعد سنوات أنها كانت مسئولة حقا وصدقا . وعرفت أن ضيقى بها دليل على سذاجتى فليس لى حق عندها . ولا لها عندى . وإنما هي دعوة إلى سهرة . وإذا طلع النهار ، فكأن شيئا لم يكن ...

وبعد ذلك وجدتني أختار الكباريهات التي أذهب إليها . وأدخلها وحدي واثقا مطمئنا تماما . قادرا على أن ارى كل شيء بوضوح . وعندي إجابة عن كل سؤال . وأحيانا أسأل وأستنكر مثلا : ألا يوجد مفرش أنظف ؟ ألا يوجد مقعد ليس مخلوعا !

وكانوا يغيرون المفرش . ويأتون بمقعد سليم . أو أقول : هذا السوداني قديم .. هذه البطاطس لها رائحة الجاز ! أين المدير ؟ أو أين الست صاحبة الكازينو .. مش معقول ؟ !

وجاءت صاحبة الكازينو . وقدموها . وقدمت نفسي . قالت :

- أنت تجيء هنا كثيرا .

- ليس كثيرا .

- ولماذا لا تجيء كثيرا .. هذا أحسن محل .. وأحسن نمر .. إنت إيه ؟

- صحفي .

- تعرف فكري أباظة .. وإحسان .. ومصطفى أمين .. التابعي عرفته زمان قوي ..

- نعم

ولم أكن رأيت واحدا منهم حتى ذلك الوقت . وانما هي أرادت أن تقول أنها تعرف من هم أكبر مني .. وأن وجودها معي ليس إلا تفضلا عظيما منها .. وتشجيعا أو جرجرة لرجلي .. أو مجاملة لصحفي مثلي . دعني أصف لك ملامحي : نحيف جدا .. أرتدي قميصا وبنطلونا .. القميص واسع والبنطلون ضيقا وشعري قصير جدا .. وتراني جالسا يخيل إليك أنني أستعد للخروج .. فأنا أجلس على طرف الكرسي .. وأتحرك يمينا وشمالا .. وإذا نظرت نحيتي ، فأن هذا القلق يضايقك .. وفي إحدى المرات ، هددتني هذه السيدة بأنها سوف تربطني في الكرسي .. حتى لأبدو كأنني شربت وأكلت وأريد أن أهرب قبل أن أدفع !

وفجأة قالت لي : تعرف أنني أحب الكتابة .. لقد كتبت شعرا .. تحب تسمعه ..

ونادت على أحد الجرسونات وأتى بدوسيه من أحد أدراج مكتبها ..

وأخرجت الورقة الأولى . وقرأت ولاحظت أننى أتشكك فى أن يكون ذلك من نظمها . وقالت : معك حق .. فأنا لم أتعلم الشعر .. ولكنى أحس أن عندى رغبة فى أن أقول كلاما موزونا .. أنا عرضته على صالح جودت .. تعرفه .. وعلى مأمون الشناوى .. تعرفه .. أنا عندى لك مفاجأة فقد أحضرت العدد الذى صدر من جريدة « الأساس » وكانت لى قصيدة مترجمة من الأدب الألمانى .. وكانت موزونة ولكن لم تكن لها قافية .. فإذا بها قد جعلت للقصيدة قافية .. نفس القصيدة مع تغيير بعض الكلمات !

ولم أكن أتصور أنها تعرفنى . ولكنهم فى الكباريهات يعرفون كثيرا . وأكثر مما تتصور .. ولم أستبعد أن يكون أحد الجرسونات قد أخبرها بذلك !

وبعد ذلك بسنوات طويلة سألت الشاعرين صالح جودت ومأمون الشناوى عنها ، فأكدا أنها شاعرة ممتازة وأنها اخطأت الطريق إلى المجد .. وأنها لا تريد أن تصحح المسار .. فتختار الشعر والفقر !

وقرأت كثيرا عن علاقة الادباء والشعراء والفنانين بالغانيات . وعن حياة الليل والكباريهات والحانات والمواخير . ووجدت هؤلاء الفنانين سعداء فى هذا الجو البعيد عن عيون الناس .. البعيد عن قيود المجتمع .. على هامش القانون والخروج عليه .. ففى استطاعة كل إنسان أن يفعل ما يريد .. وأخطاؤه كلها مقبوله .. وكل هؤلاء الناس هاربون .. لاجئون .. جاءوا ينسون أنهم آباء وأزواج .. إنهم مسئولون عن شيء أو عن أحد .. مثل الذين يهربون إلى أحد المخابيء أثناء الغارات الجوية .. فهم فى حالة فرار من الخطر .. من الموت .. إنهم مساهمون فى أكذوبة عامة : فلا أحد يرى أحدا على حقيقته .. ولا يريد ذلك .. وكلهم يكذبون .. ولكن الكذب لا يكلف شيئا . وهم بعقولهم .. يدخلون هذه الأماكن ليفقدوا عقولهم تماما كالذى يحب ليفقد عقله .. والذى يدمن ليفقد إرادته .. والذى يستسلم ليفقد كرامته .. انهم جميعا مرضى وأطباء .. والأطباء مرضى .. والدواء هو الداء .. وأكثر من رواد الكباريهات ومن كل الأكواب والزجاجات والفتيات : الوعود الكاذبة .. فالناس يتنفسون وعودا بالتوبة ووعودا بالحب ووعودا بالزواج .. ولكنهم ينسون كل ذلك عندما يطلع النهار .. فإذا طلع النهار ، بدأوا يستعدون لليل ، هربا من النهار ، وقبل أن يطلع عليهم نهار جديد ..

وكنت على يقين من أنني لا أستطيع أن أستمر طويلا في السهر . فلابد أن أصحو مبكرا . وأن أقرأ وأن أكتب . لابد . هذه عادة . وهذا أسلوب حياتي . ثم إنني لا أستطيع أن أكتب كل أسبوع عن مشاعري في الكباريهات .. ثم إن في دنياي أشياء أخرى كثيرة تستحق إهتماما مماثلا أو مضاعفا .

وفي يوم ذهبت مع بعض الأصدقاء إلى هذا الكباريه . وجاءت صاحبته وجلست إلينا وقالت : أنتم ضيوفي ! ثم التفتت ناحيتي : لا مؤاخذة . هذه المرة ضيوفي أنا .. والمرة القادمة أنا معهم ضيوفك !

وكانت هذه السيدة لا تشرب الخمور ، ولا تأكل . واقتربت مني وسألتني :

- هل أنت تحب ؟

- قلت : لا ..

- قالت : أقصد إحدى البنات هنا ؟

- لا ...

- وأنت لا تشرب .. فلماذا تجيء كثيرا . إنني لم ألاحظ أي تطور عليك .. ولا حتى .. الانبساط .. فلماذا تجيء .. تعال فقط عندما تكون مرهقا وتريد أن تفرفش .. لاتعد مرة أخرى !

ولم أعد إلى هذا الكباريه ، ولا إلى أي كباريه آخر . وكتبت هذه التجربة وتعمقتها وحددت مكاني منها .. وبعد سنوات ذهبت أبحث عن هذه السيدة الطيبة التي أدهشتني نصيحتها ، وهزتني أيضا . ويقال إنها فعلت ذلك مع كثير من الشبان الذين توسمت فيهم أن يكونوا أحسن ..

وهذا ما سمعته من الأستاذ محمد التابعي بعد ذلك !

وفي ذلك اليوم أمضينا ليلة ممتعة جميلة . تفرجنا . وتحدثنا معها ومع غيرها . وضحكنا . وعند الفجر عدت إلى البيت .. وعندما ذهبت إلى مكتبي وجدت رئيس التحرير قد ترك لي رسالة عاجلة . وترك أرقام تليفوناته في كل مكان . وأزعجني ذلك . وفي التليفون قال لي : البوليس يبحث عنك . أين كنت بالأمس ؟

ولم أنتبه ونحن في الكباريه إلى أن خناقة نشبت وأنهم بسرعة قد أخمدوها . والتفوا حول أطراف الخناقة بسرعة ، لدرجة أن الزبائن لم ينتبهوا إلى ذلك .

وأن رجال البوليس قد عرفوا أننى كنت أحد الموجودين وأنهم يريدون أن يأخذوا أقوالى .

وفى نقطة بوليس الأزبكية التقيت بأحد الضباط وكان زميلى فى المدرسة .

وهو الذى يريد أن يستوضحنى ما الذى حدث . وكان الحوار هكذا :

- أنت كنت موجوداً ؟

- نعــم .

- بالضبط ماذا رأيت ؟

- لاشىء .

- كيف . إنها الترابيزة المجاورة لك .. وكانوا يلاحظون أنك تتابع كل ما يقولون .. ولما وصلت الخناقة إلى حد التراشق بالزجاجات كنت تنهض .. ولكنك عندما لاحظت أن رجلا جاء من الخارج وألقى ماء النار على إحدى الراقصات الجالسة وراءك إنزعجت وكدت تنهض ..

قلت : هذه أول مرة أسمع فيها وصفا تفصيليا لما كان حولى .. فأنا لاسمعت ولا رأيت .. أنت تعرف من أيام الدراسة أننى أسرح كثيرا .. وأبدو كأننى أسمع وأنا لا أسمع وكأننى أرى ولكنى لا أرى .. وهذا يسبب لى مشاكل كثيرة .. هذه واحدة منها !

- لولا أننا زميلان من أيام الدراسة وأعرف عنك ذلك ما صدقت كلمة واحدة ..

ثم روى لى تفاصيل ما حدث .. وهو أن إحدى الزجاجات كادت تصيبنى فى رأسى .. وأن واحدة استشهدت بأننى كنت أتابع ذلك .. وكأننى أعرف الرجل الذى ارتكب هذه الجريمة البشعة التى قضت على مستقبل هذه الراقصة الجميلة !

هل أردت أن أغرق كل الذى قرأت وتعلمت فى كهوف الليل .. تمنيت ذلك ولكن لم أستطع .. لقد عشت نائما أقرأ ، فهل قررت أن أستانف النوم ولكن بصورة أخرى ؟ ربما !

ثم عندما أطلت الكلام الآن عن تلك الأيام ، أردت أن أغرق ذكراها أيضا ؟ يجوز ..

وعلى مدى كيلو متر واحد من شارع الشواربي توجد دار الأوبرا .. مديرها الفنان الكبير سليمان نجيب .. ووكيلها صديقي الشاعر عبد الرحمن صدقي .. وسكرتيرها الأديب الصديق صلاح ذهني .. ومدير المسرح الصديق شكرى راغب ..

وكان مكاني المفضل وراء الكواليس .. ومن غرفة شكرى راغب نرى ونسمع الأوبرات الإيطالية والباليه الروسي .. والمسرحيات الإنجليزية والفرنسية . ولم يكن هناك سبب من وقوفي وراء الكواليس الا أنني لا أملك بدلة قاتمة . لابد من بدلة ولابد أن تكون قاتمة ...

ولكن المسرح له مذاق خاص من الكواليس .. والممثلون والراقصات كائنات بشرية تضحك وتعرق وتخاف . ولكن إذا ظهر الواحد منهم على المسرح أصبح إنسانا آخر .. أو حيوانا آخر .. وانتقل من هذا العصر إلى عصر المسرحية ، كلاما وحركة .. ولم يعد يملك من أمره شيئا .. فهو أداة أطلقها المخرج بكلمات المؤلف في قيود وقوالب محددة نهائيا ..

وكانت الأوبرا « من أهم أحداث حياتي » .. وأروع أحداثها .. وكانت قصة متصلة تبدأ كل ليلة ولا تنتهي .. قبل العرض المسرحي وأثناءه وبعد أن ينتهي ويبدأ الكلام عنها في غرفة شكرى راغب . وفي المطعم بعد ذلك ...

وفي الأوبرا وجدت راقصة الباليه العالمية تمارا تومانوفا .. أعظم راقصات روسيا في ذلك الوقت . إنها صاحبة أجمل ابتسامة . ولكن عندما تظهر على المسرح فهي إنسان آلي دقيق حساس . ليست فيها أية إنسانة من أي نوع .

وفي إحدى الليالي اكتشفت أن حذاءها قد سرقوه . وهي عادة مألوفة في أوربا . يسرقون حذاء الراقصة التي يعجبون بها .. وأحيانا يضعون فيه النبيذ ويشربونه .. فسارت في شوارع القاهرة حافية القدمين ..

ودخلت تمارا أحد المطاعم اليونانية . وأقسم صاحب المطعم أن يغسل قدميها في طشت بالشمبانيا .. وأن يقدم ذلك لمن يريد من الضيوف . ٩٠ ٪ شربوا !

ورأيت المايسترو الألماني فورتفنجلر أعظم قادة الأوركسترا في أوربا كلها .. وقد أقنعه عبد الرحمن صدقي أن يذهب إلى مقهى الفيشاوي . وقرر

الرجل أن يذهب . ولم أعرف ما الذى أقدمه له . أو ما الذى أقوله .. ولم أكن أعرف أنه إبن نكتة إلا عندما نظر إلى حى سيدنا الحسين ورأى الناس فى حركة متصلة .. وضوضاء . ورائحة الشواء والبخور والشيشة .. وإذا به يتوقف قائلا : لابد أن يكون الكون عند بدء الخليقة هكذا .. ثم إن الله نظمه بعد ذلك !

وعرفت الممثلة الفرنسية ميشيل مورجان .. وجلست إليها . ووجدتها تتكلم فى الأدب كأديبة ، وفى الفلسفة كأستاذة ، وفى النحت والموسيقى وليالى باريس وحياة الكباريهات .. ومن هم الأدباء الذين فضلوا الكباريهات على أرفع الدرجات العلمية .. ومن هن الغانيات اللاتى تركن بصماتهن فى الأدب الفرنسى .. وكم عدد الأدباء الذين تزوجوا غانيات .. وكيف أن الأدباء يولدون مرتين : مرة فى البيت ومرة فى الكباريه .. وأن الأدباء يتناولون الخبز مرتين : مرة يتناولون الخبز المقدس المغموس فى النبيذ من يد الكاهن ، ومرة فى الكباريه من يد الأرتست ..

وقالت : إنه لولا الكنائس والكباريهات ما كان الأدب والفن .. فالكنائس حددت حرية الفن ، فثار عليها .. والكباريهات أكدت هذه الحرية ، فهرب إليها ...

وقالت : إن الأديب اندريه جيد قال إنه كان يستمد أحداث قصصه ورواياته من تحقيقات الجرائم فى الصحف .. لأن هذه الجرائم هى نتيجة الصراع بين القانون وحرية الإنسان . ولم يكن فى استطاعته أن يذهب إلى الكباريهات لأنه يفضل الشبان على النساء .. ولكن كل أدباء فرنسا العظام أمضوا نصف أعمارهم فى ظلمات الحانات .. وفى غياب القانون والعادات والتقاليد والضمير أيضا !

وقالت ميشيل مورجان : إن كل الذين أحببتهم وأخطأت فى فهمهم كانوا جالسين معها فى مقاهى باريس .. وكل الذين أحببتهم كانوا معها فى الكباريهات .. فالقهوة تفسد العقل ، والخمر تصلحه ؟ !

ومن ميشيل مورجان عرفت مالم أكن أعرف من دنيا الليل ومخلوقات الليل وعشاق الظلام الكافرين بالشمس والمنطق وكل المذاهب الفلسفية !

وفى يوم تلقيت بالبريد نسخة من كتاب « العلاقات الخطرة » للأديب الفرنسي لاكلو . أما الاهداء فهو : « إذا لم تكن لديك علاقات خطرة » ميشيل مورجان .

وعلى مدى امتار من الأوبرا : سور الازبكية .. أعظم معرض للكتب المصرية والعربية والأوربية .. وكلها كتب قديمة .. رخيصة الثمن .. كتب من كل لون ونوع وحجم وسعر .. وقواميس ودوائر معارف .. وأمام السور التقى كل أبناء مصر عشاق الكتاب .. عشاق السوق الثقافية .. وأصدقاؤنا الدائمون هم الباعة .. شبان وشيوخ .. يعرفوننا ونحبهم ويحبوننا .. وتربطنا جميعا صلة واحدة : القارىء .. فنحن عندما نذهب إليهم فنحن قراء .. جاءوا يتفرجون على الكتاب .. كم قاموسا اشتريت كم دائرة معارف بقروش .. كم كتب على السور وعليها إهداء المؤلفين .. هل باعها أصحابها ؟ .. هل هي سرقت منهم ؟ .

سألنى الحاج إبراهيم : هل تريد مؤلفات أناتول فرانس كلها جلدة ذهبية ؟

أريدها طبعا . ولكن أن تكون فى جلدة ذهبية سوف يجعلها غالية الثمن .

فقلت : أتمنى لو كانت من غير هذه الجلدة الذهبية .

قال كما يقول كل يوم : ولايهمك .. بكره إن شاء الله كتبك تباع فى جلدة ذهبية .. خذها وإدفع على مهلك !

وكانت هناك بائعة للكتب اسمها « الست أم حنيفة .. زوجها مات عنها وترك لها عددا من الاولاد .. ووجدت صعوبة في أن تعرض كتبها على سور الأزبكية . ولكن كان هناك من يبيع لها كتبها . فكان يقول : أم حنيفة تسلم عليك ...

- الله يسلمها . ماذا عندها ؟

- عندها كتاب « الإمتاع والمؤانسة » لأبى حيان التوحيد فى طبعة بيروت .. ليس غاليا .. عندها « البخلاء » للجاحظ طبعة بغداد .. عندها « سيرة ابن هشام » طبعة بيروت .. وعندها ماكولى وهازليت وكاردوتش ورابليه وسرفانتس مجلدة تجليدا فاخرا .. ولكنها ليست كاملة .. ورخيصة الثمن .. يمكنك أن تذهب إليها فى البيت وتتفرج على مهلك .. كان عندها العقاد والمازنى وعبد الرحمن صدقى ومدام طه حسين ...

وكانت الست أم حنيفة لاتقرأ بأية لغة أجنبية . ولكنها تعرف أشكال الكتب وألوانها .. وتتساهل كثيرا جدا عند الدفع .. وعلى الرغم من أن حالتها المادية صعبة ، فإنها لم تكن تلح في الدفع فورا .. فلا يملك الانسان أمام أدبها ورقتها إلا أن يدفع في أسرع وقت .. ولم يكن ظهور أولادها ونحن نتفرج على الكتب وسيلة للضغط علينا لكي نقدر ظروفها .. وإنما البيت مكون من غرفتين فقط . إحداهما لعرض الكتب ...

ولم أنتبه لوجود تمثال إبراهيم باشا في ميدان الأوبرا ، إلا متأخرا جدا .. ولا رأيت « جروبي » القريب من الميدان أيضا . ولاكباريه بديعة مصابني إلا بعد أن أصبح إسمه كباريه صفيه حلمي .. فقد كان مسارى محددا تماما .. أخرج من البن البرازيلي وأمشي في نفس الشارع إلى نهايته .. فأجدني في دار الأوبرا .. وبعدها عند سور الأزبكية ...

هنا إذن مسرح العمليات الصحفية والادبية في ذلك الوقت .. إنه مستطيل يبدأ من شارع الشواربي والإذاعة والبن البرازيلي ومكتبة سميث ومطعم اكسلسيور ومطعم أرتين بالقرب من الأوبرا أرخص المطاعم وأنظفها وأصغرها أيضا . ثم سور الأزبكية ذهابا وإيابا .. أو وقوفا أو جلوسا .. هذه المساحة الضيقة من الأرض هي المسرح .. هي الورشة هي حقل التجارب .. هي المعمل .. هي « البيت » الذي تتحرك عليه الأفكار المتراقصة .. هذه هي منطقة إنطلاقنا إلى سماء الصحافة والادب والمسئولية من نهاية أربعينات هذا القرن ...

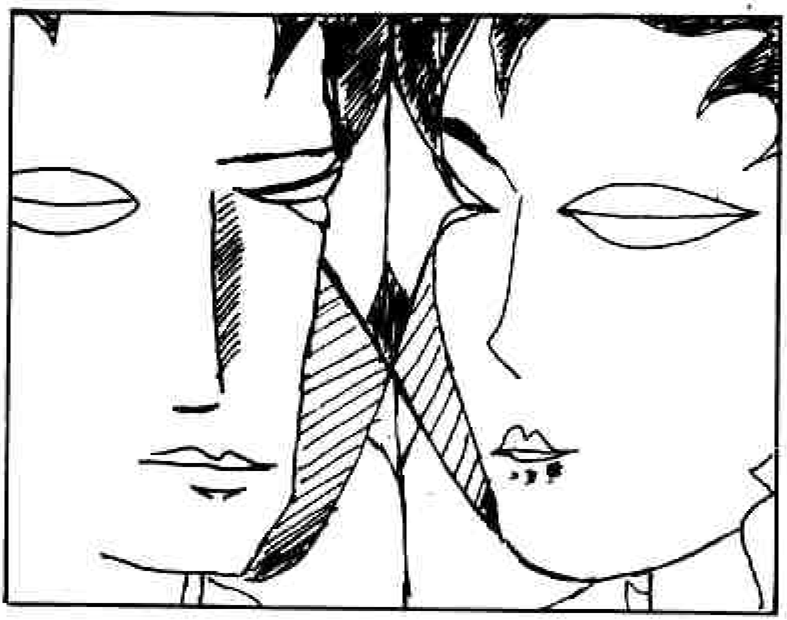
ومع بداية الخمسينات ذهبت إلى العمل في جريدة الأهرام التي تبعد عشرات الأمتار .. ومنها في « روز اليوسف » التي تبعد عنها مئات الأمتار .. ثم إلى « أخبار اليوم » التي تبعد مئات أخرى .. والتي أمضيت فيها ربع قرن وعلى مدى ألف متر من « أخبار اليوم » ذهبت إلى دار المعارف لإصدار مجلة « أكتوبر » ..

وكنت أتعجب كيف أنّ الراقصة تتحرك كأفعى في مسافة صغيرة من الأرض .. تساير الموسيقى وتعانقها .. فإذا مشت في الشارع فهي لاتعرف كيف تمشي ...

رأيت راقصات ينكسرن في الشارع ، وتكاد الواحدة تقع . ماذا حدث ؟ إنها قادرة فقط على الحركة في مسافة صغيرة ، ولكن إذا اتسعت المساحة ، وكان المطلوب ان تمشي لا أن ترقص ، ارتبكت خطواتها وتعثرت جزمتها ...

ونحن أيضا : قادرون على الحركة وعلى النشاط وعلى القراءة والكتابة في هذا المجال وفي هذه المسافة ، فإذا خرجنا منها لم نعد قادرين على فعل شيء آخر .. فقط القراءة والكتابة .. والتعليق على الذي قرأنا والكتابة عن الذي كتبه الآخرون .. فهذا هو عالمنا .. وهذا هو مجالنا .. وهذه القاعدة التي انطلقنا منها كل واحد في اتجاه .. انطلقنا واتخذنا مدارات عالية حول « الكلمة » . كأننا أحرار في كل ذلك ..

والحقيقة أننا مشدودون مجذوبون مجاذيب ، تجاوزنا مرحلة : الإرادة والإختيار .. وإذا حاولنا أن نفلت من الكلمة عدنا بها إليها .. فنحن محكوم علينا بالأفكار الشاقة المؤبدة حتى الموت !



فى البدء كانت كارمن

فى البدء كانت كارمن

عندما رجعت إلى مذكراتى وأنا تلميذ فى المدرسة الثانوية أدهشنى ما كتبت وأدهشنى أكثر أننى كنت حريصا على إخفاء هذه المذكرات عن كل أحد فى البيت أو فى المدرسة مع أنه ليس فيها شىء شخصى . ولو قلبها أى إنسان فلن يلفت نظره شىء .. ولكن حرص الصغار على أن يبدوا كبارا . لهم أسرار . ولهم خصوصيات . وأن هذه « الأمور الشخصية » يجب أن تظل بعيدا عن عيون وآذان وألسنة الناس . ولاحظت أننى كتبت تحليلا لملامح المدرسين . ويبدو أننى كنت فى ذلك الوقت أعتقد أن كل صفات الانسان مكتوبة على وجهه : فالجبهة العريضة دليل على الذكاء .. والرأس الضخم والعينان اللامعتان والشفتان المضمومتان والصوت المليء والأصابع .. ولا أعرف من أين أتيت بهذه المعلومات ، أو حتى على أى أساس أقمت قواعد نفسية لفهم أى إنسان ..

وهى ولا شك أفكار ساذجة .. تدل على أننى إنسان خجول .. فبدلا من أن أجرى حوارا مع أحد ، فإننى أغلق باب غرفتى وأدير هذا الحوار كتابة وتحليلا .. فكأننى أتعامل مع زملائى وفى جيبى « دليل » صغير لسلوكهم ومفتاح أصغر لشخصية كل واحد منهم .. فإذا حدثنى واحد منهم ، فإننى سرعة أضع لما يقول معنى خاصا .. كأن الذى يقال لى عبارة عن أفلام سلبية (نحاتيف) ، وأنا أقوم بتحميضها وتلوينها فى صندوق سرى فى غرفة مظلمة مى عقلى .. فكأننى معهم ولست معهم ..

وبنفس السرعة التى أحكم بها على الناس ، كنت أغير هذا الحكم . لأنه يخالف الواقع .. وهذا يدل أيضا على أنه من السهل التأثير على أحكامى .. فأنا إنسان عاطفى . ولكن محاولة أن أكون منطقيا تحليليا هى حيلة أخفى بها حساسيتى ، وخجلى ..

وفى هذه المذكرات آراء مضحكة وحكايات صغيرة ، حاولت أن أجعل لها معنى كبيرا ، ولكن لم يقع فى حياتى حادث كبير . أو صادفت شخصا باهرا . ولا قرأت كتبا خبطتنى فى رأسى وجعلتنى أفيق مما أنا فيه .. أو غيرت أسلوب حياتى .. أو حولت طريقى من جهة إلى أخرى .. فلم أكن فى ذلك الوقت إلا تلميذا مجتهدا .. دنياه هى الكتب المدرسية ، وآخرته أيضا .. والهدف أن أنجح وأن أكون الأول . لماذا ؟ لا أعرف . ولكن هذا هو السبيل ، وهذه هى الغاية .

وسمعت من زملاء لى أنهم يكتبون مذكراتهم أيضا . ولم أسأل ولم أعترف . فقد كانت هذه المذكرات حوارا خصوصيا . هل هى متعة ؟ هل كان لها أى هدف آخر .. كأن أنشرها يوما ما . أبدا .. إننى أقفل الباب وأخرج الورق وأكتب . وأسجل وأعتب على الزملاء وألعن الأيام . لماذا ؟ وأتحدث عن الحب وأنا لا أعرف ما هو .. ولا أحببت . ولا أعرف كيف أحب لو أردت . ولكن سمعت زملائى يتحدثون عن مغامرات وقصص . ولاحظت أن كل الذين يتحدثون عن الحب هم الذين لهم شوارب وهم الذين يدخنون أيضا .. وهم الأغنياء .. إذن التلميذ الغنى هو الذى يربى شاربه ويدخن ويحب ، وتحبه البنات !!

ووجدتنى أسجل الشعر الذى أحفظه ولا أعرف الشعراء الذين نظموه . وإن كنت قد عرفت فيما بعد .

مثلا كتبت فى مذكراتى وكنت فى الثانية الثانوية بالمنصورة . وأنا الآن أنقل من ورق أصفر صغير . هو ظهر البرقيات ، فقد كان أحد إخوتى يعمل فى التليفونات والتلغرافات ، وكان يمدنى بهذا النوع من الأوراق :

على قدر الهوى يأتى العتاب
ومن عاتبت يفديه الصحاب
ألوم معذبى فألوم نفسى
وأغضبها ، ويرضيها العذاب
ولو أنى استطعت لتبت عنه
ولكن كيف عن روحى المتاب

يلوم اللائمون وما رأوه

وقديماً ضاع فى الناس الصواب

إذا ما اعتضت عن عشق بعشق

أعيد العهد وامتد الشراب

كأن رواية الأشواق عود

على بدء ، وما كمل الكتاب ..

ولا أعرف الهوى ولا أعرف الشراب ولا أعرف لوم اللائمين ولا أدرى ما معنى أن يعجز الانسان أن يتوب عن الحب .. ثم ما هو هذا الحب ؟ ولكن لابد أن أعجبنى الشعر وموسيقاه ، ولا بد أننى كنت أكرر ذلك كالببغاء . فليس المعنى وإنما هى الموسيقى !

وفى صفحة أخرى وجدتنى قد نقلت بعض هذه الحكم ، ولا أعرف من هو صاحبها :

لا تطالب بظلامتى أحدا

عينى وعقلى فى دمى اشتركا

* * *

ولا رأى فى الحب للعاقل !

* * *

والجوع يرضى الأسود بالجيف !

* * *

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى

إن النفيس غريب حيثما كانا !

* * *

وأصبح شعرى منهما فى مكانه

وفى عنق الحسناء يستحسن العقد !

والهجر أقتل فيما أراقبه

أنا الغريق فما خوفي من البلل

* * *

وقنعت بالقليل وأول نظرة

إن القليل من الحبيب كثير !

* * *

إذا ما الناس جربهم لبيب

فانى قد أكلتهم مذاقا

فلم أر ودهم إلا خداعا

ولم أر دينهم إلا نفاقا !

* * *

وصفحات أخرى كثيرة من الشعر الذى له مذاق الحكمة .. ولعلى قد نقلتها من كتب « أدب الدنيا والدين » للماوردى .. لعلى .

ففى ذلك الوقت كنت أرى ، بل كنت أعتقد .. بل كنت دون تفكير منى ، أذهب إلى المدرسة ثم إلى البيت .. ثم من البيت إلى المكتبة والعكس ، هذه هى الدنيا . ولذلك لم أتوقف لحظة أمام إحدى دور السينما .. سينما عدن أو سينما ركس .. ففى مداخل السينما توجد صور للنجوم .. والناس يقفون ويدخلون . ويخرجون . ولم أفكر مرة واحدة أن أدخل السينما . ولا معنى ولا سبب ولا مبرر . ولم أسأل أحدا عن السينما ولا ما الذى رآه . ولا حدثنى أحد . ولا دعانى أحد . وحتى عندما يعلنون عن الأفلام الجديدة بالطبل وحمل صور الجميلات فى الشوارع ، لم أكن أتوقف لأرى . فلا وقفت ولا رأيت ولا فكرت . وهو شىء غريب عجيب . كأن السينما طعام لا أذوقه . كأنها مكان محرم . كأنها لا وجود لها . ولكن لماذا ؟ لم أجد أسبابا واضحة . ولكن هذا ما حدث ..

وفى ذلك الوقت بالصدفة وجدت كتابا اسمه « الحب والدسيسة » للشاعر

الألماني شيلر من ترجمة حسن صادق .. وقرأت القصة في جلسة شغلتني هذه القصة ولم أكن أستوعبها . عدت إلى قراءتها مرة أخرى . وجدت حوارا غريبا بين الأب وإبنته . حفظت جملة أو جملتين جملة تقول : إذا باض الشيطان بيضة أفرخت بنتا جميلة ؟!

وجملة أخرى تقول : إن الشاب الذى يطلب منى أخطب له ابنتى ، لا يلهمنى الثقة به ..

هذا كل ما أذكره من تلك الرواية . فما معنى هاتين الجملتين . وما أثرهما فى نفسى ؟ ولماذا هاتان الجملتان . لا شىء إلا تركيب الجملة وغرابة المعانى . فلا فى حياتى حب ولا دسيسة . ولا أنا ذلك الشاب الخجول الذى ذهب إلى والد الفتاة يطلب مساعدته فى اقناع إبنته بالزواج منى .. لا شىء .. ولكن لابد أننى كنت أتلصص على عالم المرأة من بعيد .. لا عندى فرصة .. ولا وقت ولا عندى شجاعة .. ورغم القصص التى أسمعها ، ورغم الفتيات التى أراهن ، لا أجرؤ على النظر إلى واحدة ، وإذا نظرت لا أعرف ما الذى يمكن أن يحدث بعد النظرة أو الابتسامة أو السلام أو الكلام .. لا شىء من كل ذلك .. ولاحظت أننى أحب الاستماع إلى هذه المغامرات . وأننى عندما أعود إلى البيت أسجلها .. أى أعيشها مرة أخرى .. أو اقترب منها أو أشارك فيها . ولكنى فى ذلك الوقت لم أنفرد بواحدة أو بقصة أو مغامرة .. وإن كنت أتمنى ذلك .. وفى المذكرات وجدت أننى أحكى قصة من خيالى ومن وهمى .. قصة واحدة جارة .. ووجدتنى أصفها هكذا : شعرها أسود وعيناها أيضا . وحاجباها وشفتاها . ومشيتها كأنها بطة أو وزة . إذا تجاوزتنى كأنها لا تعرفنى . فإذا تابعتها استدارت لتنظرنى بسرعة .. ثم يتولاها الخجل . فقد ضبطتها ولذلك تندفع إلى بيتها وتغلق الباب وراءها بشدة . وفى المرة الثانية عندما اقتربت منها وهى تقول : أحبك .. حتى إذا لم تكن تحبنى !

وهى قصة لم تحدث . ولكن أريدها أن تحدث . وأن تكون هى البادئة . وهى التى تحب وأنا أتردد . أو أرفض . والمعنى : أننى أتوهم ما ليس كذلك !

وفى إحدى المرات وجدت هذه الفتاة تقف مع زميلات لها أمام سينما عدن ..

ووجدتها تشير بالتذاكر فى يدها ، أو هكذا توهمت .. أى أنها تقول : تعالى معى .. معنا .. أنا قطعت لك تذكرة !

ووجدتنى أكتب فى مذكراتى . أنها تهجمت ووضعت التذكرة فى يدى وقالت : تعال ..

وتذكرت زليخة زوجة بوطيفار وما فعلته فى النبى يوسف عليه السلام . إنها هى الأخرى قالت له تعال .. القرآن الكريم يقول : « وقالت هيت لك » !

وإننى رفضت .. وهى قصة أيضا لم تقع . وإنما أنا تخيلتها . أى أننى أتمنى لو تحدث .. أى أتمنى أن أرفض الحب والفتاة معا .. ويكون هذا الرفض تعاليا وكبرياء . وهى عقدة أن أحدا لا يكلمنى ولا أكلمه . ولا اقتربت ولا عرضت أنا ولا هى عرضت . لا شىء من ذلك !

والمعنى : أننى أريد ولكن لا أستطيع . لماذا ، لأن هذا يخرجنى بالقوة عن المألوف .. أى عن الذى اعتدت عليه .. وأنا اعتدت على أشياء أخرى غير ذلك .

ولم أناقش نفسى فى ذلك الوقت : ما هذا الذى أعمله أو الذى لا أعمله ؟ فمثل هذا النوع من التأمل ترف عظيم .. فلا وقت للتأمل : إننى أجمع المعلومات وأرتبها وأعيد ترتيبها من حين إلى آخر .. ولا وقت لغير ذلك !

ولما ذهبت إلى القاهرة ، لم يتغير شىء . كنت أمر على دور السينما والمسارح والملاهى . وأرفع رأسى ثم أديرها . وكنت أتمنى لو أن أحدا سجل هذه الصورة : شاب ريفى يمر بكل هذه الأماكن ويرفضها ويزهد فيها ويتعالى عليها . وأنه لذلك شاب مستقيم وأنه أفضل . وأنه قد تفرغ للعلم فقط . ولكن كل هذه أوهام أيضا . فلا أحد فى القاهرة يلتفت لأحد . ولا يدرى به ولا يهمه . ولا يدهشه إذا ذهب إلى السينما ، ولا يعجبه إذا لم يذهب .

حتى تخرجت فى الجامعة وانفتحت الدنيا شوارع وميادين ومطاعم ومسارح وأوبرا وسينما ومطارات وموانىء ورجالا ونساء .. وكانت حيرتى أعظم . ودوختى أكبر . وقلقى أعمق . وفزعى أشد ، وعزلتى مطلقة . ولاحظت أننى اعتدت إذا جلست أن أتساند على المقاعد . وإذا سرت إلى جوار حائط أن أتمسح

فيها .. والمعنى : أننى ازددت ضعفا ، ورغبة فى المشى ولمس الأشياء .. أن أقبض على هذه الدنيا الهائلة فى القاهرة .. وأننى غريق وأنى فى حاجة إلى من ينتشلنى . ولكن أخفيت هذا الشعور عن الأصدقاء .. وربما كان هذا الشعور الكاسح هو الذى دفعنى إلى التردد على الجمعيات الدينية والصوفية والفلسفية .. فإننى أريد أن أرتبط بأحد .. ألا أكون وحدى . ألا تنفرد هذه الدنيا الجبارة بشخصى الضعيف . فأنا أريد أن أستعين عليها بالآخرين .

وفى ذلك الوقت اعتدت أن « أقف » أمام محل البن البرازيلى فى شارع سليمان باشا .. وأقنعت الكثيرين من زملائى أن يفعلوا مثلى . وظللنا سنوات طويلة نقف أمام محل البن صباحا ومساء .. وكان الوقوف مريحا .. فلا نحن « فى » المحل ولا نحن خارجه .. وإنما نحن كأننا كذلك . أى كأننا فى داخله وكأننا خارجون منه .. وندور مع الوجوه التى نراها .. وندور مع الوجوه التى نتحدث إليها ، وعندنا حرية الدخول والخروج والوقوف .. عندنا حرية عدم اتخاذ القرار .. عدم الاختيار .. وفى نفس الوقت لدينا هذه الشجاعة فى مواجهة كل شىء دون أن نرتبط .. دون أن نلتزم . على أمل أن نفعل يوما ما ..

وفى ذلك الوقت أيضا لاحظت أننى أستطيع أن أنظر إلى الناس فى عيونهم . شىء غريب . لم أكن أقدر على ذلك . وأن أفعل ذلك مع الفتيات أيضا .. وكنت أبالغ . ولم يكن المعنى أننى أبحث عن معنى أو أتذوق جمالا . وإنما فقط أن أمارس شيئا لم أكن أجرؤ عليه .. تماما كما يكتشف الطفل كلمة فيظل يكررها .. وخاصة الألفاظ النابية التى تفزع والديه .. وكلما فزع الوالدان بالغ الطفل حتى يضربه أبواه .. وكنت أبالغ حتى سمعت من تقول : إنت إيه .. إنت تبحلق ثم لا تتكلم إيه ده ؟!

وعلى الجانب الآخر من « البن البرازيلى » يوجد فندق « أوتيل دى روز » . وكان اكتشافا مثيرا جدا .. ففى هذا الفندق تعيش فرق الرقص الأجنبية : شقراوات .. صغيرات .. يجئن كل يوم ويشربن البن السادة من « البن البرازيلى » .. يتكلمن الفرنسية والإيطالية والألمانية .. شىء غريب عجيب .. كائنات كأنها هبطت من كواكب أخرى .. لا يكاد الجرسونات يلمحونهن حتى يقدموا القهوة السوداء والقهوة باللبن والشاى .. إنهم يعرفون بالضبط ما يردن كل يوم . ودون كلام تخرج الفتيات يقفزن كأنهن عصافير

على أشجار مليئة بالشوك .. فهن لا يمشين على الأرض وإنما يلمسنها فقط .. ويطرن إلى حيث لا أعرف ..

صدفة فقط أن سحبت واحدة منهن فنجانها فتناثر على قميصي .. وهي شديدة الاضطراب وبالإيطالية : هل تعرف الإيطالية ؟

هززت رأسي وتذكرت الفتاة التي كانت تمسك تذكرة أمام سينما المنصورة . ووضعتها في يدي ولكنني مزقت التذكرة ورفضت أن أجلس إلى جوارها في داخل السينما . وتذكرت قصة زليخة ويوسف عليه السلام .. فلم أشأ أن أقول : إنني أعرف الإيطالية ولا أن أستعرض معرفتي بها .. وإنما هززت رأسي فقط كأنني أرفض أن تنشأ علاقة ما بيننا . مع أنني أتمنى ذلك .. وما دون ذلك ..

فعادت تقول وهي شديدة الخجل : عندنا في إيطاليا يرون أن سقوط البن على الملابس دليل على أن شيئا جديدا سوف ترتديه قريبا . وأعتقد أن عندي شيئا جديدا لك .. قميصا فاخرا إنه لأخي زميلي في الفرقة الراقصة وهو في مثل طولك وعرضك .. لحظة واحدة وأعود إليك ..

واندفعت إلى خارج المحل .. كم مضى من الوقت ؟ ما الذي دار في رأسي .. ما الذي أدارني من أولى لآخرى .. وفجأة عادت ومعها قميص وبسرعة فكت زراير القميص .. وبسرعة نزعته وبسرعة كنت أرتدي القميص الجديد .. وبسرعة اختفت لتغسل قميصي وتعيده في اليوم التالي .. استغرق هذا الحادث دقيقتين . وفي تلك الليلة لم يسعفني كل ما حفظت من شعر . وما قرأت من قصص وخيالات وأحلام وأوهام .

وفي اليوم التالي جاءت ومعها قميص ملفوف في ورقة ملونة .. ودعتني إلى قهوة لأعرف أخاها في فندق « أوتيل دي روز » .. ووافقت وعرفت أن الفرقة سوف تسافر في اليوم التالي . وقد دعتني لأن أتفرج عليهم في « أوبرج الأهرام » وأنا ومن أريد من الأصدقاء ضيوف عليهم . ويسعدهم ذلك ..

ولم أذهب . لماذا ؟ يمكن تفسير ذلك اعتمادا على ما رويت من لحظات .

ولكن ما حدث في محل البن البرازيلي ، ظل يتردد في عيني وفي أذني كل يوم . وبسرعة وجدت شريطا مسجلا في أذني وعيني لا يتوقف عن الدوران ليلا ونهارا .. بل إنني كنت في بعض الأحيان أنظر إلى يدي .. ففي بعض

الأحيان أحس كأنها قد أمسكت يدى .. بل وأصحو من النوم على لمسة من يدها فى يدى ومن شفتيها فى أذنى .. وكنت أسمع اسمها يتردد ألوف المرات فى أذنى . فعندما سألتها قالت : اسمى كارمن ..

ــ وأنت ؟

ــ فلان !

ــ فلانو ؟

ــ نعم ..

وكتبت أول قصة قصيرة .. وكان عنوانها : فى البدء كانت كارمن !

ولم تكن قصة جيدة . فقد كان شكلها عبارة عن مونولوج أتحدث فيه وحدى .. أناجى .. وأتغنى .. وأتمزق وأثير عطف الأشجار والأزهار .. على أفكار مثل فراشات ملونة ضعيفة تحوم بغير هدف .. وظلت هذه الفراشات تنتقل من حديقة إلى حديقة إلى غابة حتى أرهقها الطيران فأوت إلى إحدى الأشجار .. وانفتحت زهور هذه الأشجار واستدرجت الفراشات واعتصرتها وأكلتها .. وانتهت القصة !

والنهاية ليست صحيحة ، فلم تمت هذه الفراشات .. وإنما هذه الفراشات لا تكاد تمر على حديقة بها أزهار حتى تحول الأزهار إلى فراشات .. إلى سحب من الفراشات .. وتنعقد هذه السحب وتهبط مطرا .. دموعا .. طربا .. أسى على الذى لم يكد يبدأ حتى انتهى ! فما هذا الذى بدأ ؟ وما هذا الذى انتهى ؟ أليس الحب .. وإنما هىّ ، لسعة ، نار أو نور ..

وفى ذلك الوقت اعتدت الوقوف على أبواب السينما وأرى الاعلانات والصور .. شىء غريب حقا لقد وجدت ممثلات كثيرات يشبهن « كارمن » .. ووقفت طويلا أتفرج .. وامتدت يدى إلى الصور .. وإلى المجلات الفنية .. كلهن شقراوات .. أو أوروبيات طبعا .. رشيقات .. راقصات .. لهن عيون لا تنظر لأحد .. لهن أجسام تطير إذا سرن على الأرض .. فلا هن يمشين على الأرض ولا هن يطرن فى الجو .. انهن بين الأرض والسماء .. لا سائرات ولا طائرات .. تماما كالواقفين أمام البن البرازيلى . لا هم جالسون ولا هم منطلقون .. إنهم على الحافة بين الجلوس والانطلاق .. وأفكارهم فى السماء أيضا ..

وفجأة مررت على إحدى دور السينما .. ووجدت « كارمن » .. فيلم اسمه « كارمن » .. وكارمن هذه راقصة .. غجرية .. ألوانها وردية ووجهها صارم وعيناها فاجرتان .. وتوقفت أتفرج وأقرأ .. الممثلة هي ريتا هيوارث .. والصور لها فوق الجبال .. وهناك حمير وبغال وخيول وجنود .. ولكن كارمن هذه ترقص في كل الصور .. وقد وضعت رجلها على عنق أحد الرجال !!

المهم أن اسمها كارمن .. ولأول مرة قررت أن أدخل السينما ، وكنت قد تخرجت في الجامعة قبل ذلك بسنتين .. ولم أطلع أحدا على هذا القرار . فلا أحد يتصور أنني لم أعرف ما هي السينما ولا ما الذي يفعله الناس في داخلها ..

وذهبت إلى السينما فلم أجد أحدا أمام شباك التذاكر .. فانتظرت حتى جاء الناس ووقفت في الطابور لأرى ماذا يقولون وماذا يدفعون .. ومشيت وراءهم وجلست إلى جوارهم . ورأيت الفيلم . لم أستوعب تماما ما رأيته . لكن انشغلت به تماما .. وبعد يومين ذهبت مرة أخرى لكي أملأ عيني من كارمن .. وفي هذه المرة خبطتني في نماغي بعض العبارات العميقة ..

وبيني وبين نفسي أحسست أن هذا الفيلم هو « الزلزال » أو هو « البركان » .. فقد هزني بعمق .. وصدعني .. وجعلني أمشي على رأسي .. وأتقلب جالسا ونائما .. لا أعرف بالضبط ما الذي حدث .. ثم ذهبت أتفرج على الفيلم مرة ثالثة .. وكنت حريصا هذه المرة على أن أسمع بوضوح ما قاله البطل . لقد قال شيئا كهربني .. صعقني .. ما هذا الذي يقول ؟ لماذا ؟ كيف ؟ وما علاقتي أنا بذلك ؟ لا أعرف العمليات الكيميائية التي قلبت كياني من داخلي .. أهي كارمن ؟ أبدا .. هو البطل .. هو ما يقول سخطا وغضبا على كارمن .. وليس كل الذي قال .. ولا كل دوره في الفيلم .. ولكن عبارة واحدة ..

وظللت أكتب عن هذا الفيلم وعن هذه العبارة مقالات وقصصا وشعرا .. حتى نبهني أحد الأصدقاء أن أكف عن الكتابة فهناك أفلام أخرى كثيرة . ولم أكن قد لاحظت ذلك !!

هذا الفيلم من قصة أديب فرنسا بروسبير مريميه (١٨٠٣ - ١٨٧٠) . وقد

رأيت هذا الفيلم بعد أن ظهرت قصته منذ مائة عام تماما ..

القصة : مع الموسيقى الفخمة الأبهة والرقص الغجرى المجنون ترى الجندى دون خوسيه .. هو شاب جميل عنده طموح أن يكون شيئا ما يوما ما ..

وعندما وصل إلى مدينة أشبيلية رأى الفتاة الغجرية كارمن .. حلوة .. خمرية شابة .. كلها حيوية وتمرد .. التقى بها وأحبها . وفى إحدى الليالى أقنعته بأن يترك وظيفته كجندى وأن يعيش غجريا .. وكاد أن يقتنع .. ولما علم رؤساؤه عاقبوه بالسهر حارسا طول الليل . ذهبت وألحت عليه . وطلبت منه أن يهرب بها ومعها . وكان قد أحب الغجرية ، وغضب على رؤسائه وعلى حياته العسكرية . فدفعه الغضب والحب إلى الاقتناع ، والاستسلام لها . وهرب معها ..

وبعد أن أحبها راحت تسخر منه وكان يحلو لها ذلك كثيرا . وكلما عذبته يزداد حبا لها .

وفى إحدى الليالى ذهب إليها فى بيتها . وفجأة دخل أحد الضباط . إنه عشيقها . ولمعت السيوف بين الرجلين . وسقط الضابط ميتا ، وأصيب هو بجروح فى رأسه . وظلت كارمن فى غرفتها لا تأبه بالمعركة ولا بمن سوف يموت فى النهاية . ولما خرجت ووجدت الضابط قتيلا ، غضبت ولعنت دون خوسيه واتهمته بالغباوة . لأنهم سوف يطاردونه ويطالبون بدمه ..

ثم أحضرت له بالطو يتنكر فيه ويهرب بجلده .

وارتدى البالطو ، وخلع كل آماله فى أن يكون شيئا مما كان يحلم به .

فقد دفعه الحب إلى أن يكون مجرما .. وكان لابد أن يعيش خارجا على القانون قاطع طريق مع عدد من النشالين ..

وكان لكارمن أصدقاء كثيرون من اللصوص وقطاع الطرق ..

ولم يكن أمامه إلا اختيار واحد : أن يعيش معها لصا غجريا . وأن يجمع حوله عددا من اللصوص ليكونوا قوة . وكانت كارمن تتجسس لهم ..

وأعلنت الحكومة عن جائزة مالية لمن يعثر على دون خوسيه حيا أو ميتا .

وازداد غيظا وإصرارا على أن يكون كما أرادت الظروف مجرما ولصا .

واقتنع بأن الذى يمارسه هو الصحيح وأن الجندية هى السرقة الرسمية ..

صحيح أن هذه الحياة ، ليست هي الحياة التي كان يحلم بها ، ولكن لابد أن يعيش . كان لطيفا وهو الآن عنيف ، كان رقيقا وهو الآن خشن . كان نبيلا وهو الآن سافل .. كانت له كرامة ، ولكنه مع لقمة العيش وكلمة الحب ، بلا كرامة !

وكان على يقين من أن كارمن تخونه ، أو سوف تخونه في أية لحظة ، ولكنه ابتلع هذا الهوان ، المهم أن يجدها ، أن تكون له بعض الوقت . ولكن عندما عرف أنها عشيقة لرجل أعور فقتله . وجاءه أحد أفراد عصابته وقال له : أنت رجل مغفل .. أنك قتلت زوجها .. هذا الزوج كان على استعداد أن يبيعها لك بمبلغ تافه !

وكون دون خوسيه عصابة جديدة .. وقامت كارمن بدور الجاسوسة لهم . فكانت تذهب كل ليلة إلى مدينة غرناطة تجمع الأخبار وتشترى الطعام والسلاح . وهناك قابلت مصارع الثيران لوكاس . وعرف عاشقها ذلك . فنصحها أن تكون له . وأن تعيش معه وأن تهاجر إلى أمريكا . رفضت كل الذى طلب وقالت إنها تفعل ما تريد . الخيانة مع أى عدد من الناس وألا تكون له وألا تهجر الغواية وألا تهاجر من أسبانيا .. ثم إنها لا تتلقى أمرا من أحد .. أى أحد .. وأنها غجرية . عاشت وسوف تبقى غجرية حرة تفعل بنفسها وبالرجال ما تشاء .. فليقبلها هكذا ، أو يتركها فورا .. ولما أحست بأنه ينوى قتلها قالت له : قرأت فى الفنجان أننا سوف نعيش معا ونموت معا ..

ولم يصدقها !

وذهبت إلى لوكاس الذى أصابه أحد الثيران . ووجدها هناك وطلب إليها أن تعود له .. وأن تسافر معه إلى أمريكا . رفضت .

وذهبت إلى أحد الرهبان وطلبت إليه أن يصلى على روح إنسان مهدد بالموت .

وقتلها . وبنفس السكين حفر لها قبرا . وجاء القسيس يصلى على روحها !

انتهى الفيلم على الشاشة ست أو سبع مرات . ولكنه لم ينته فى داخلى فقد استمر العرض والموسيقى والحوار لسنوات طويلة .

أما الذى هزنى فى هذه القصة فليست الأحداث . ولكن بعض العبارات التى

جاءت على لسان البطل . فهناك عبارة تقول : اللعنة على من قال إن الانسان كما يكون !

ومعنى هذه العبارة : إن هذا البطل قاطع طريق . والحقيقة أنه ليس كذلك . وإنما هو قد اضطر إلى ذلك . اضطره الحب ، وكراهيته الاجراءات الانتقامية . أو هو الحب دفعه لأن يكون مجرما وهو ليس كذلك . أى أن الذى يحكم عليه من مظهره يظلمه . فكل حكم عليه ظالم تماما !

ولا أعرف كم عدد المرات التى ذكرت فيها هذه العبارة وعلقت على عمقها وعظمتها .. سخط البطل على كل من يسيء إليه وينظر إليه على أنه مجرم حقيقى .. إنه مجرم ، لكن ليس باختياره .

ومن الغريب أننى عندما شاهدت هذا الفيلم بعد عشرين عاما ، لم أجد هذه العبارة . إذن هذه العبارة قد قفزت من أعماقى . أنا الذى وضعتها على لسان البطل . أنا الذى قلت . أو أنا الذى فهمت الذى أراده البطل والمؤلف معا !

وأعجبنى أيضا أن يخلع الانسان ملابس الجندى أو ملابس القسيس ليكون أى شيء من أجل الحب . المهم أن يفعل ما يشاء باختياره وحريته وأن يكون مسئولا عن هذا القرار . المهم أن يكون حرا . فإذا كان حرا فهو مسئول . ثم إن الانسان لا يولد جنديا أو يولد لصا ، ولكنه يصير كذلك .

ولم أنكر عبارة واحدة على لسان كارمن . ولكن عندما رأيت الفيلم بعد ذلك ، وجدت أن عبارات جميلة وقوية قد جاءت على لسانها السليط .. ولكن لم ألتفت إلى ما تقول . وإنما التفت إليها .. إلى جمالها وحيويتها وتمردها .

فإعجابى بحياة الغجر له تاريخ طويل يرجع إلى طفولتى . يوم تمنيت أن أكون غجريا . وأن أهرب مع جماعات الغجر . ويوم تمنيت أن تتبنانى إحدى الغجريات ويوم شربت من دم غجرية وشربت من دمى . وكنت طفلا . وعندما كبرت أعجبتنى حياة الغجر .. حياة الانطلاق وعدم الارتباط بشيء أو بأحد .. عدم الارتباط بالأسرة .. فقط أن أظل أنتقل من مكان إلى مكان ، وأن أعيش على حافة المدن والحافة بين القانون والخروج عليه .. أن أعيش فى خطر - كما نصحنا الفيلسوف الكبير نيتشه .. أن نبنى بيوتنا على سفوح البراكين وعند فوهاتها .. لم أشعر بهذا المعنى إلا مرة واحدة عندما ذهبت إلى الفلبين وبحثت

عن المطاعم التى وضعت مناضدها فى فوهة البراكين الخامدة .. ولكن الأرض تحت المناضد لا تزال ترتجف .. كأن أحداً يقوم بتدليك ذلك الوحش النائم لعله يصحو .. أو لعله يظل مستغرقا فى نومه .. وكان شعورا عجيبا أن آكل الآيس كريم فى قلب جوزة هند .. الآيس كريم يتجمد .. والأرض من تحتى ساخنة ترتجف .. وأنا أحلم بما قاله الفيلسوف نيتشه .. وفى نفس الوقت أتخيل نفسى وقد قذفنى البركان فى الهواء والتقطنى واحد من النسور التى جاءت فى « ألف ليلة » ويدور بى حول الأرض ولا يهبط إلا ونحن معا - موتى فى فوهة بركان يتدفق بالنار والدخان !

ويوم استأجرت طائرة صغيرة فى جزر هاواى لنتفرج على بركان قد ثار فجأة بعد نوم قرنين من الزمان .. وكانت الطائرة تدور والوهج ينفذ من زجاجها وأنا أذوب عرقا .. أحسست أن اللحظة الفلسفية التاريخية البطولية قد جاءت : الطيران فوق القمم .. وأعظم قمم البراكين . والسقوط فى سعير النور والنار معا !

ولم أفكر فى ذلك الوقت عن معنى هذا الذى نادانا به الفيلسوف الألمانى ! وعن دلالة ذلك ! ماذا أضفت ؟ وماذا أخذت .. وما قيمة أن أموت أنا أو غيرى فى بركان ؟

لابد أن الفيلسوف قد أعجبته الصورة المروعة الرائعة .. فقط الصورة . وإن كانت بلا معنى كبير .

وكذلك صورة الغجرية كارمن .. جمالها ودلالها ووحشيتها وألوانها الوردية ..

وعندما ذهبت بعد ذلك أتفرج على الأماكن التى تم فيها تصوير فيلم « كارمن » لم أجد شيئا مما لخبط عقلى وشوشر على قلبى . وتخاصم الفكر والوجدان . وظللت ضحية لهذه المعركة غير المتكافئة وقتا طويلا ..

واتخذت هذا الفيلم عملا وجوديا كاملا . أنا الذى قلت ذلك . ورحت أتعسف فى تفسير كل حركة وكل عبارة . والبداية والنهاية . فقد كنت فى ذلك الوقت من الخمسينات فى حاجة إلى حجج قوية فنية لتدعيم الفلسفة الوجودية التى أدعو إليها فى الصحف وفى محاضراتى فى الجامعة .

وفجأة وجدتنى أذهب لأتفرج على فيلم آخر اسمه « شمشون ودليلة » البطلة هى هيدى لامار ، نمساوية جميلة . وقصة شمشون ودليلة جاءت فى التوراة . فشمشون رجل قوى . وقوته فى شعره . إذا طال تعاظمت قوة عضلاته . فأصبح قادرا على منازلة جيش وقهره أيضا . وأحبت دليلة هذا البطل الذى تقدم لخطبة أختها . فضايقها ذلك . وقررت أن تستولى عليه بالقوة وأن تقهره انتقاما منه . وتكاثر خصومه ورصدوا مكافأة لدليلة إن هى عرفت سر قوته . وظلت تستدرجه إلى أحضانها حتى عرفت . وقصت شعره . وأصبح رجلا عاديا . وضربوه وعذبوه .. وعلقوه فى الطواحين يديرها لطحن القمح . ولكن دليلة حزنت على حقدها الذى دفعها إلى تعذيب هذا الرجل الذى تحبه .. واشترطت على أعدائه أن يفعلوا به ما يشاؤون إلا إراقة قطرة دم واحدة منه .. ولكنهم أفقدوه البصر بوضع أعواد من الحديد الساخن أمام عينيه .. حتى صار أعمى !

وطال شعره .. وطلب إلى دليلة التى جاءت تساعده أن توقفه بين أعمدة المعبد .. وهدم المعبد على أعدائه وعلى نفسه .

أما هذا الفيلم فقد أعجبتنى دليلة وليس شمشون : جمالها ودلالها .. ولم أجد لها عبارة واحدة تهزنى . ولا وجدت لشمشون .. وبعد سنوات تبينت أن سبب إعجابى بدليلة هو أن جارة لى فى المنصورة كانت شديدة الشبه بها : الأنف والحاجبان والشعر الأسود والثقة بالنفس .. وكنت أراها جميلة من كتفيها التى فوق . فقط .. بينما دليلة كانت كاملة الجمال . فأنا لم أنشغل بشمشون ولكن بدليلة ، ولم أنشغل بكارمن ولكن بدون خوسيه .

وفى الفيلمين : امرأة خادعة شرسة .. شريرة .. وأن الانتقام عندها أقوى من الحب .. وأنه ليس الحب هو الذى يهم المرأة وإنما « التملك » والتسلط .. فهى لا تريد رجلا ، وإنما تريده ذليلا .. فإذا أصبح ذليلا ، اتجهت إلى رجل آخر أقوى .. تعجب بقوته وتستمتع بأضعاف هذه القوة وسحقها وإذلالها . وتتجه إلى ضحية أخرى .. إنه تاريخ الاستعباد والذل والهوان الطويل الذى عاشت به المرأة .. هذا التاريخ جعلها تريد أن تنتقم من سيدها الذى حبسها فى البيت تنتظره يجىء أو لا يجىء .. ومن الممكن أن تبكى المرأة لأنها قتلت

رجلا تحبه . ولكن شرها أقوى من حبها .. فهي تحب الرجل ، وتحب أن يحبها الرجل وأن تخلص له وأن تموت من أجله .. ولكنها تحب أيضا أن تستولى عليه حيا أو ميتا .. فإذا مات بكت عليه .. فهي تحب عذابها معه ، وعذابها من بعده ، وتكره نفسها في الحالتين .. فالمرأة مصاصة للدماء .. وضحيتها هو الرجل ، هكذا كارمن ودليلة !

وفجأة ظهرت في حياتي ، مارلين مونرو ، أجمل من خلق الله وأتعس أيضا ..

لم أنشغل بأفلامها . ولكن بحياتها .. بها هي .. كيف عاشت كيف كانت في الملجأ . من هي أمها ومن أبوها ؟ وكيف تزوجت مصارعا .. كيف تعذبت .. كيف تنقلت بين الأذرع والاستديوهات .. كيف يعرضونها لحما ورديا .. وهي لا تعترض على البائع والمشترى .. ثم كيف آلت في النهاية إلى الزواج من أديب كبير هو آرثر ميلر .. إنه جراح .. إنه سفاح العواطف الانسانية حاول أن يدير رأسها ناحيته لم يستطع . حاول أن يضع رأسه فوق كتفيها ولو بعض الوقت .. لم يستطع ..

ودار حولها الرئيس الأمريكي كنيدى وأخوه وزوج أخته .. وتحالفت المخابرات الأمريكية والعصابات على هذه الجميلة التعسة وقضوا عليها .. وتولى الدفاع عن جمالها وشبابها وبراءتها وجنونها أبناء أكثر جنونا منها ، وأكثر سفالة من آخر أزواجها .

ولا أذكر أنني رأيت لها فيلما خرجت منه ، لكي أكتب سطرا واحدا .. فأنا راض أن أراها .. ولا يهم ما الذى تقوله .. هي تظهر وتروح وتجيء وتحب وتكره وتغنى وترقص وأنا أتولى عنها الحكاية !

وحتى عندما رأيت ريتا هيوارث في القاهرة مع زوجها على خان ، ووقف الاثنان أمام فندق سميراميس القديم ، ولم يجدا سيارة تنقلهما إلى السفارة الأسبانية واستوقفا أحد التاكسيات .. وظن على خان أنني أحد المرافقين فسألني إن كان معي فلوس .. وأعطيته خمسة وعشرين قرشا أخذها وأعطاها للسائق مقدما .. لم أجدها جميلة كما رأيتها في الفيلم .. إنها أكثر نحافة ورقة ولم أجد الوجه الجميل الذى التصق في عيني سنوات . وكنت مثل عقارب الدقائق

والساعات أتحرك ليلا ونهارا في داخل هذا الوجه الذى كان يتسع ويتسع حتى يكون في رحابة السماء .. وأنا حائر دائر دائخ بين ملامحه ..

ولكن انشغلت كثيرا جدا بهيدى لامار ولم أستطع أن أرى لها أى فيلم آخر غير شمشون ودليلة .. ولم تغب عن خيالي . حتى ظهر كتاب عن حياتها .. وأحزنني الكتاب عليها .. فهى تروى كيف أدمنت الخمر والمخدرات .. وكيف أن أحد أصحاب الملايين طلب إليها أن تظهر عارية تماما . مقابل مبلغ من المال . ثم هددها بعرضه على الناس إن هى لم تتزوجه فهددته هى أيضا بأن تروى كيف كانت علاقاتهما الجنسية .. وما هى عيوبه وعجزه .. ثم إنها روت علاقتها بعدد كبير من الناس بأسمائهم .. وهددت في هذا الكتاب بفضح آخرين إن لم يدفعوا لها مقدما . إلى هذه الدرجة ساءت حالتها المادية .

وجمعت قصة حياة عدد كبير من الكواكب .. ربما مائة قصة وأكثر في ثلاثمائة كتاب استعدادا لدراسة نفسية اجتماعية فنية تاريخية لهذه الكائنات شديدة الحساسية من الجميلات .

ولكن النصيب الأكبر من الكتب لمارلين مونرو .. فقد كان أثرها عميقا وموجعا .. وكتبت عن ذلك كثيرا وطويلا ..

ولم أعد أذكر من كل صور مارلين مونرو إلا صوتها في خيالي يوم رأيتها في هوليوود وقد خرجت من الحمام والتدليك وبخار العطور . لامعة براقة فراشة تطير ومن بعيد قالت لى : ازيك يا انت !

ولا يسعفني قلمى أن أصف لك كيف اشترك في هذه التحية : ذراعاها وإحدى ساقيها وعين غمزت بها وشفة ضغطتْ عليها وكتفها .. كل ذلك من أجل واحد جاءها من آخر الدنيا سنة ١٩٥٩ .. كانت هى فرقة راقصة غنائية موسيقية .. أغلبية ساحقة وأنا هناك بعيد أقلية مسحوقة غلبانة !!

في ذلك الوقت كنت قد رأيت الممثلة راقية إبراهيم .. طويلة أنيقة .. فخمة .. ولكن لا أعرف ما معنى هذا الذى تقول وهى تتحدث في الأدب وفى السياسة وفى الاقتصاد .. وكان الناس يستمعون إليها .. وكان صوتها أجمل ما فيها .. وكانت هى تعرف أن الأنوثة في هذا الصوت .. ولذلك تبالغ في تكسير الحروف وتقصيرها وتطويلها .. رأيتها أول مرة في مكتب المرحوم أنور

وحدى .. وقدمتنى لها هكذا : واحد من الشعراء الشبان الجدد .. يعجبك .. يتكلم عدة لغات .. وحاولت أن أقنعه أن يمثل فى السينما ، ولكنه رفض .. ما رأيك أنت !

ولم يعرض أن أظهر على الشاشة ، وإنما هى دعاية !

ونظرت راقية إبراهيم ناحيتى ، لترى إن كان صحيحا ما يقول . ولم تقل شيئا .

ورأيت الممثلة كاميليا ، وكانت تتردد على إحدى محلات الاسطوانات . ولم تعجبنى .. فهى غير مثقفة ولا تحسن الكلام . وإنما تشترك فى أى حديث ، إذا كانت هى موضوعه ..

ولا بد أن يكون سبب عدم إعجابى بها أننى معجب بغيرها تماما : هيدى لامار ومارلين مونرو ..

وهن جميعا بعيدات عنى . لا صلة . ويستحيل أن تكون صلة .. وفضلت الأكثر بعداً واستحالة .. فضلت الخيال الذى أعيشه على الواقع الذى لا أعيشه .

وانتقلت باهتمامى بالسينما إلى نجوم ايطاليا : سيلفانا مانجانو .. وسيلفانا بمبانينى .. واليانورة روسى دراجو .. وصوفيا لورين .. وجينا لولو بريجيدا .. ورأيتهن جميعا وتحدثت إليهن عن قرب .. وقرأت وكتبت كثيرا .. وهزنى فيلم « مرارة الأرز » بطولة سيلفانا مانجانو .. ورأيت فى سيلفانا هذه كارمن ودليلة معا . لولا أن سيلفانا كانت من عمال التراحيل فى ايطاليا . تكشف عن ساقيها طول الوقت .. ولكنها قوية بجمالها الصارخ ..

وأعجبتنى الممثلة الإيطالية اليانورة روسى دراجو .. وهى أجمل جميلات السينما الايطاليا .. أطلقتها السينما تضرب بها سيلفانا وجينا .. ولكن تزوجها أحد أصحاب مئات الملايين .. فلم تظهر إلا فى ثلاثة أفلام واختفت .. وكانت اليانورة هى كارمن + دليلة + مارلين + جينا + حواء الخالدة الأنوثة والغيرة والانتقام والكذب والخداع ..

وهى ليست كذلك إنما هو المؤلف والمخرج والمنتج تعاونوا معا على إطلاق كل طاقاتها الكامنة ووضعوها فى اطارات جميلة مثيرة !

وفى سنة ١٩٥٦ نشرت فى « آخر ساعة » حديثا عن الأدب والفلسفة والحياة

فى إيطاليا بعد الحرب مع اليانورة هذه .. وكان لابد أن يندهش القارىء كيف يمكن أن تكون فتاة جميلة جدا ، مثقفة جدا .. وكيف أن جمال الجسم والفكر قد جعلها واحدة من بنات آلهة الاغريق .. وكيف أن هذا الحديث بعد أن ظهر طلبت ترجمته إلى الإيطالية ثم بعثت لى بصورة من الترجمة ومعها هذه العبارة : كانت متعتى مضاعفة عندما قرأت ما قلناه سويا ! ألا يغرينا هذا بمعاودة الحوار ، إن كثيرين يريدون أن يشتركوا معنا .. مع أصدق وأخلص تحيات واحدة مبتدئة فى كل شىء .. الحياة والأدب والفن ومعرفة مصر .

وقد نشرت هذه العبارة مع صورة اليانورة فى مجلة « آخر ساعة » ..

وكان لابد أن أعرف من هو مؤلف « كارمن » أو « غراميات كارمن » .. إنه الأديب الفرنسى الرومانسى بروسبير مريمية . وقد عاش فى عصر الأدباء الفرنسيين الكبار : هيجو وديكارت واستندال وبلزاك وبودلير وزولا وفلوبير . وكان هادىء النفس . ميالا إلى التأمل حاول أبوه أن يجعله محاميا . واشتغل بالمحاماه بعض الوقت . ولكنه كان ميالا للأدب . واختاروه عضوا بالأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٤٤ . وكان خبيرا فى الأدب الروسى المعاصر .

سافر كثيرا . وفى رحلاته إلى أسبانيا استلهم قصة « كارمن » . ثم انشغلت عن هذا الأديب بمتابعة « كارمن » هذه .. ورأيت أوبرا « كارمن » للموسيقار بيزيه على مسرح الأوبرا فى القاهرة . وكنت أغمض عينى وأنا أسمعها .. فالموسيقى هى الإضافة الجمالية الحقيقية لمعنى القصة وعباراتها المنقوشة بعمق فى أذنى وخيالى ..

وفى مكتب الصديق شكرى راغب مدير مسرح الأوبرا أشار إلى فتاة جالسة أمامنا وقال : هذه كارمن . يقصد بطلة أوبرا كارمن .

فتاة أسبانية خمرية الألوان العينين والشفتين والبشرة وكانت الأقراط مثيرة فى أذنيها وكذلك الخواتم والسلاسل فى عنقها وفى يديها .. والخلاخيل فى ساقيها .. والدخان يخرج من أنفها ومن فمها فى عصبية شديدة ..

هزنى شكرى راغب قائلا : مالك .. أنت عاوز تأكلها !؟

ولم أفلح فى أن أشرح له الأسباب الحقيقية لهذه الفرحة والنشوة أن أرى « كارمن » لحما ودما .. وكلما حاولت أن أقول شيئا يمنعنى قائلا : عارف

ما سوف تقول .. ستقول أنك مشغول بالقصة والإخراج والموسيقى والديكور .. كذب .. أنت وأنا مشغولان بهذه الحلاوة والطعامة طبعا سوف تجيء غدا تتفرج عليها .. لابد من البدلة والكرافتة .. وإلا والله العظيم أنزل أشيلك هيله بيله وأرميك أنت وكمال الملاخ خارج المسرح !

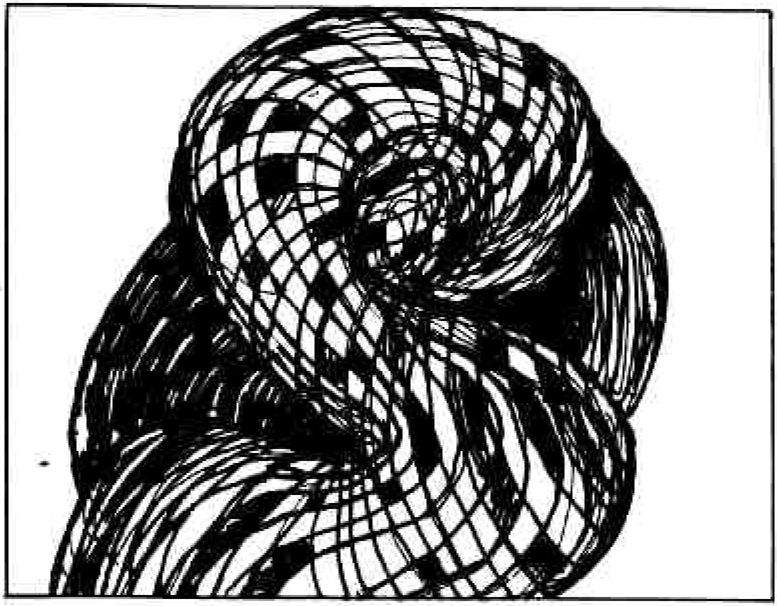
وفى تلك الليلة الساحرة أول مرة أشاهد أوبرا « كارمن » جلست فى الصالة مسحورا مبهورا .. لا أعرف عن أى شىء سوف يرتفع الستار .. وقبل ارتفاعه بلحظات كانت الموسيقى .. زفة عروسة غجرية .. مظاهرة أوركسترالية .. أغمضت عينى أسمع واستسلم للموسيقى وللمغانى فى رأسى .. وعندما ظهرت كارمن بفستانها الدموى الغجرى وورودها وعقودها وأقراطها والصاجات فى يديها .. لم أعد فى حاجة إلى شىء .. يكفينى هذا فى تلك الليلة .. على أن أعود غدا .. ولكن لا أعرف كيف أقوم .. ووجدت أصابع تدق كتفى .. إنه شكرى راغب يقول : قم بلاش فضيحة !

وخرجت معه . فأنا لم أتمكن من العودة إلى البيت واقترح أحد مساعدى شكرى راغب أن ارتدى جلباب أحد السفرجية وعمامة كبيرة ملفوفة بإحكام - أى الزى الوطنى لأبناء النوبة والسودان .

ونحن خارجون قال لى شكرى راغب : لازم النهاردة .. هل تعرف أنه يوجد ثلاثة من زعماء السودان من الحاضرين .. وأنهم فى السودان لا يرتدون هذا الزى .. هذا زى بواب يا أستاذ !!

وأخذنى إلى غرفة الملابس . وطلب منى أن آخذ معى بدلة سموكنج لأن الملك فاروق سوف يشهد الأوبرا غدا !

ورأيت كارمن بعد ذلك على مسارح برلين ولندن وباريس .. جميلات أنيقات متمردات ملعونات . كلهن كارمن !



وقررت إنهاء هذه الطفولة
المتأخرة فكتبت ونشروا

وقررت إنهاء هذه الطفولة المتأخرة فكتبت ونشروا

من المؤكد أن لا ضرورة لوجودنا ـ قلتها لنفسى ألف مرة .. حتى أصبحت أسمعها دون أن أنطق بها !

يعنى لا معنى لأن أولد وأن أكون أى شىء .. فمثلى كثيرون جدا . وليست لى موهبة خارقة . ولا فى إمكانى أن أصنع شيئا هاما للبشرية . إذن وجودى هو استمرار لسوء التقدير واستمرار لحكمة أن يكون من الناس والحيوان والنباتات : شىء زائد عن الحاجة لا ضرورة له .. ونحن واقفون أمام باب الجامعة : كل الوجوه واحدة .. كل العيون .. بل إن قدرا كبيرا من الغباوة والبلادة هى من أهم معالم الجميع .. وكأننى مطالب وحدى بالبحث فى هذه النظرية ومدى صحتها وخطئها ، أخذت أتملى الوجوه .. والعيون والشفاه والأصوات ، وقد لاحظت أن أصواتنا قبيحة وأسلوبنا فى التعبير عن أفكارنا سخيف .. وأننى لم أجد واحدا من زملائى يقول لى : إسمع تعال هنا .. لنذهب إلى حديقة الأورمان ولنفكر فى حالنا .. ما الذى يمكن عمله فى هذه الدنيا ؟ ما الذى تعلمناه ؟ كيف نستفيد من هذا الذى تعلمناه .. هل الذى تعلمناه يكفى لأن يكون الواحد منا إنسانا هاما .. مثلا : أنا أريد أن أذهب إلى المريخ ولكنهم لم يعلمونا إلا ركوب الحمير .. بالله عليك قل لى كيف أرتفع بحمارى إلى السماء .. أو أنهم علمونا كيف نغسل أيدينا قبل وبعد الأكل ، فهل هذه العلاقة اليومية بالماء تجعلنا قادرين على الغوص فى أعماق المحيط لمعرفة أسرار هذه السماوات المصنوعة من الماء .. السماوات التى تحتنا .. فالسماء فوقنا محيط من الغازات ، والمحيطات تحتنا سموات من الماء .. هل تعلمنا مثلا كيف نغير طريقنا وطريقتنا فى الحياة ؟ ما الذى تعلمناه ؟ وإذا كنا لم نتعلم شيئا فعلى

أى أساس نغضب من نصيبنا المتواضع فى هذه الدنيا ؟ تماما كما يعطيك أبوك قرشا وتندب حظك لأنك لا تستطيع أن تشترى به سيارة وفيلا ؟ هل لك الحق فى أن تتمنى ذلك ؟! إن الذى أعطاك القرش، أعطاك فى نفس اللحظة مجالات ضيقة للإختيار .. أنت قادر على أن تشترى اللب والسودانى فقط .. هذه حدود قدرتك .. وهذه حدود قدرة أبيك .. وكذلك الذى تعلمته هي حدود قدرتك .. هى الجنيه الذى تسلمته من الجامعة ؟ هل أنت ضرورى لأحد ؟ لأمك وأبيك مثلا ؟ ماذا لو مت الآن .. ألست مثل هذه الأوراق التى تساقطت من هذه الشجرة .. وسوف تبقى الشجرة لتجدد شبابها وحيويتها فى الربيع القادم .. والشجرة هى المنبع أو هى الانسانية .. وأنت ورقة ذبلت .. سقطت .. أو سقطت قبل أن تذبل .. أو قطفتها إحدى الأيدى قبل أن تكون شيئا .. هل تستطيع أن تتوقف عن الجرى . فنحن نجرى منذ دخلنا المدرسة الابتدائية .. نجرى ونلهث .. فهل عندنا وقت لكى نمد أرجلنا ونسند ظهورنا إلى شجرة أو إلى حائط ونفتح عيوننا وننظر ونفكر فى مستقبلنا ؟ هل علمك أحد كيف تفكر فى مستقبلك ؟ هل فن التفكير الفلسفى والأدبى هو هو نفسه فن التفكير فى لقمة العيش والدور الاجتماعى الذى سوف يكون لنا ؟ هل لأننا تعلمنا السير نستطيع أن نرقص الباليه ؟ هل لأننا تعلمنا الجرى نستطيع أن نسابق القطار ؟

لم أجد أحدا يقول لى : ما رأيك نلقى بأنفسنا فى النيل .. ويكون موتنا المفاجىء رفضا للسماء التى وهبتنا الحياة لحكمة .. ونجىء نحن ونعلن أننا نرفض هذه الحكمة ، لأن وجودنا بلا حكمة ! وأن استمرار حياتنا ، هو تطبيق لنظرية خاطئة وتقول : إننا مخلوقون لحكمة .

ونحن لا نرى هذه الحكمة !

ولا وجدت أحدا يقول لى : لماذا لا ندخل ديرا من الأديرة .. سوف تقول أننا مسلمون .. فليكن .. نقول أننا مسيحيون وندرس الديانة المسيحية ونظل على إسلامنا .. المهم أن نحصل على هذه السكينة النفسية .. وفى نفس الوقت نعلن فيما بيننا وبين أنفسنا : إفلاسنا الفلسفى ..

ولا أحد يقول لى : ما رأيك لو قررنا النسيان .. نسيان كل الذى تعلمناه .. نذهب إلى الخمارة ونشرب ونشرب .. حتى نسقط على الأرض .. كل يوم ..

ويكون السقوط على الأرض سقوطا لكل الذى تعلمناه .. ويكون السكر والعربدة تحريرا للعقل من قيود المنطق الكاذب .. فإذا اعتدنا على ذلك ، رحنا نبحث عن مصادر للمال .. فلا نجدها بما تعلمناه ، فنبحث عن عمل يدوى .. وسوف نجده ..

ووجدتنى وأنا أجرى هذا الحوار فى رأسى أسحب جيوب بنطلونى إلى الخارج ليسقط منها بعض حبات اللب والحمص ..

ومن غير أى تسلسل منطقى وجدتنى أقول لإحدى الزميلات : ما رأيك ..

قالت . ماذا .

قلت : نذهب لسماع محاضرة د . ويفر فى كلية العلوم ..

من هو ؟

- أستاذ جاء من أمريكا يحاضر فى موضوع هام : السلوك الجنسى لذكور وإناث بعض الأسماك والطيور ..

وأدهشها هذا الموضوع وهذا الحديث المفاجىء .. وأدهشها أكثر أننى مصر على ذلك .. وأننى وضعت ذراعى فى ذراعها .. مع أننا لم نكن أصدقاء .. ولكن ابتسامتها الخافية تدل على ارتياح بأن يعرض عليها أحد رأيا أو قرارا أو يرغمها على الذى لا تريد .. وأن ذلك تطور مفاجىء فى سلوك نحوها .. كما أن نظراتى لها تدل على أن شيئا ما فى داخلى قد تولد لصالحها .. ولحسابها .. واستسلمت .. وانتظرت ما الذى سوف أقوله .. ومن العجيب حقا أننى لم أقل شيئا طوال ساعة فى الأتوبيس إلى كلية العلوم .. ولكن دون تفكير واضح كنت حريصا على أن أكون قريبا منها .. ملامسا لها .. إما لأننى أريد ذلك ، أو لأننى أحول بينها وبين ملامسة الركاب الآخرين .. وكانت سعيدة لذلك .. ثم إننى مددت يدى أقفلت حقيبتها التى انفتحت .. وعندما سقط منديلها سارعت بالتقاطه . ولم يكن نظيفا فاعتذرت عن ذلك . ولم أعلق . كأننى راض تماما ، وكأنه لا يهم أن يكون نظيفا أو قذرا .. يكفى أنه منديلها ، وأنها فرصة لكى أنحنى أمامها وأفوز بابتسامة . والحقيقة أننى لم أكن أعنى شيئا من كل ذلك . وإنما لدى شعور بأننى لا أريد أن أذهب وحدى . ولا أريدها أن تفكر لحظة واحدة فى العدول عن المحاضرة ، وعلى الرغم من أنها قد وافقت تماما . ولكن من يدرى ربما جاء واحد أو واحدة ، فى أى وقت ، وأقنعها بغير ذلك ..

وقد حدث كثيرا مع كثيرات . ولو فعلت لا سترحت للمرة المائة إلى نظريتى أن الطالبات تافهات . وهذه لم تفكر فى أن تذهب إلى هذه المحاضرة رغم أنها طالبة فى كلية العلوم ، ولكن الذى أقنعها ، أننى رافقتها ، وأننى عندما عرضت عليها ذلك كنت أبدو كمن يريد أن يستدرجها لكلام آخر أو قرار آخر .. فهى قد وافقت حبا لاستطلاع ماذا أريد .. وليس حبا لمزيد من المعرفة ..

لا يهم . وأقفلت جهاز التفكير في رأسى . وجلست فى الصف الأول . وهى إلى جوارى . وتحولت إلى شخص آخر . لا أتكلم . ولا أرد ولا أصد . وكأنها ليست هناك . ولم يكن شيئا هاما أن تكون هناك .. وكانت تهزنى .. فأتظاهر بأننى دائخ .

ولم تكن القاعة الكبيرة إلا إهانة كبيرة للرجل .. فلم يحضر إلا عشرون طالبا ومدرسا ورجلان أعرفهما .. أحدهما ساعى البوفيه والثانى سائق سيارة البروفيسور ويفر ..

نهض الرجل .. حيانا . شكرنا . تقدم بالإعتذار عن الذين لم يتمكنوا من الحضور لأن الوقت غير مناسب وأن الجو حار . وأن الاعلان عن المحاضرة قد جاء متأخرا . وأنه يرجو للمحاضرة القادمة بعد أسبوع ، أن تلقى من وقت الطلاب وعنايتهم نصيبا أكبر وأوفر .. وأن مثل هذه الموضوعات حتى فى أمريكا لا تلقى عادة أكثر من هذا العدد . ثم روى قصة الفيلسوف الإغريقى الذى فوجىء بتزايد عدد المترددين على بيته .. وفى أحد الأيام وجد زحاما من المعجبين . فقاطعهم متسائلا : ترى ما هو الخطأ العظيم الذى تتوقعون أن أسقط فيه اليوم ؟

وحكى لنا قصة الأديب الفرنسى الذى قاطعه المستمعون بالتصفيق كثيرا فتساءل : هل أخطأت أو أنكم تريدوننى أن أخطىء ؟

إنها بداية مريرة لعالم جليل جاء من آخر الدنيا ليعرض علينا نظريته فى السلوك الجنسى عند بعض الحيوانات ..

قال الرجل فى هدوء ساخر : إن الحياة قد كلفت الذكر بأن يمد الحياة .. وعندما شاءت الحياة أن يكون الذكر هو حامل هذه الحقيبة .. أو ناقل هذه الرسالة ، جعلته قويا .. أكبر حجما أقدر على المطاردة والمنافسة

والمشاجرة .. ففى عالم الأسماك نجد الذكر هو الأكثر حركة .. والأكثر انطلاقا .. وهو الذى يتضخم طولا وعرضا ويطلق أصواتا وألوانا .. تلفت الأنثى ، ويثير غيظ الذكور الأخرى .. إن الحياة قد أودعت فى كل ذكر هذه الحكمة : فتش عن الأنثى أعثر عليها ، عانقها ، تكاثر .. أى أن طريق الذكر ينتهى بالأنثى .. والذكر يطلق حيواناته المنوية التى هى أيضا كثيرة الحركة . ونهاية الحركة أن يستقر هذا الحيوان فى البويضة . وتبدأ دورة جديدة للحياة ..

ونشر الأستاذ أمامنا خرائط وصورا ملونة للأسماك فى البحر .. ولبعض الطيور أيضا . وقال : بعض الذكور تطلق أصواتا معروفة .. وبعضها يطلق الروائح ..

فأصبح ، الذكر ، هو هدف العلماء يتابعونه ويدرسونه ويحللون سلوكه . ويكون ذلك هو السلوك العام لكل الحيوانات والطيور .

أما الأنثى فلا أحد يهتم بها لأنها سلبية . ولأنها فى نهاية الطريق .

وتساءل الرجل : هل تعصب من الرجل الذى هو ذكر ، لهذه الذكور أيضا . فكأن الرجل يريد أن يجد نفسه فى الحيوانات والنباتات والطيور . لتؤكد أن الرجل هو الحياة وأن المرأة هى الجانب السلبى الذى لا دور له ؟ يجوز ..

والعلماء فى مئات السنين قد ركزوا عيونهم وأجهزتهم على سلوك الذكر فقط .. تماما كما تذهب للمسرح وتتفرج على روميو وجولييت ، فلا تنظر إلا إلى روميو ..

وسكت الأستاذ بعض الوقت . وقال : إلى هنا أريد أن أتوقف بضع دقائق . وسوف أعود إليكم بتفسيرى الجديد للسلوك الجنسى عند الذكور والإناث !

أى أن الرجل له رأى آخر فى هذا السلوك .. والرأى الآخر هو أن الأنثى لها دور .. وأن دورها ليس سلبيا ، كما اعتاد العلماء أن يقولوا ..

إن هذا التأصيل قد أنعش تفكيرنا وخيالنا ، وأيقظ روح التحدى عند الذكور .. أو عند الذين استمعوا إلى المحاضرة . ولم يكد يخرج من القاعة حتى بدأت المناقشات بين الحاضرين .. بين مؤيدين له تماما ، ومعارضين ..

وتمنيت لو أن الأستاذ قد تركنا اليوم على أن يحدثنا غدا . فيكون لنا بعض الوقت نفكر ونتأمل ونهضم هذا الذى قال فى ساعتين .. ملأهما بالنوادر

والصور والحكايات التاريخية ورحلات المكتشفين لأستراليا وجزر هاواى ودول أمريكا اللاتينية .. وعن حوادث الطاعون الذى اجتاح أوروبا وعن عمر الإناث والذكور وأقدرها على مقاومة المبيدات . الإناث طبعا . كانت المحاضرة متعة حقيقية .. وهواء مليئا بالأوكسجين الذى فتح كل خلايا العقل والجسم .. بل إنه يكاد يكون قد أخرج أحشاءنا وغسلها ونشرها وعرضها للضوء ثم أعادها إلى جوفنا مليئة بالعافية ومفتوحة الشهية ..

قالت لي جارتي : أنا سمعت كلامك وجئت إلى هذه المحاضرة ..

قلت : آه .. إذن أنت لا تريدين أن تستمعي إلى نصفها الثاني ؟!

وعرفت أن المحاضرة مطبوعة وأنه يمكن قراءتها كاملة .. وأسعدني ذلك .

قلت : إلى أين ؟

قالت : إلى هناك ..

قلت : أين ؟

قالت : حديقة الأسماك .. كما هي العادة !

• • •

هل هذه المحاضرة قد أراحتني ؟ هل كان هناك شك فيما قاله الأستاذ .. هل كانت هذه هي القضية التي تشغلني ؟ لا شيء من ذلك .. وإنما المحاضرة قد أمتعتني . هذه المتعة أراحتني . ولذلك أحسست كأنني في نصف عمري .. وكأنني مضاعف الحيوية والحساسية . فلم أكد أصل إلى حديقة الأسماك حتى لا حظت أن الأعشاب قد ازدادت اخضرارا .. وأن الزهور تناثرت بألوانها المختلفة في كل مكان .. وأن الأطفال الصغار حولنا في غاية الجمال .. وجمالهم ونضارتهم وحيويتهم وبراءتهم وقوتهم وثقتهم في أنفسهم .. وشيء آخر ضروري للسعادة : الإستغراق .. فالطفل الصغير يمسك زهرة أو لعبة أو يتابع فراشة .. فهو كله من أوله إلى آخره قد تابعها وانصرف إليها .. تماما كأحد العلماء أو الرهبان .. وبغير هذا الاستغراق والتركيز لا نجاح في شيء .. ولا سعادة أيضا .. والحب : استغراق وتركيز على شخص واحد .. أو كما قال الأديب الفرنسي استندال : الحب أن تتبلور كل احساساتك حول شخص واحد .. أو حول صفة واحدة في هذا الشخص فتحب هذا الشخص

كله ، من أجل الصفة الواحدة .. كأن تكون عيناها جميلتين .. أو شفتاها .. أو ساقاها .. وبعد ذلك تكتشف أنها غبية أو نفعية أو مغرورة أو متسلطة ..

هذه الزميلة مثلا أصفها لك : متوسطة الطول والعرض والذكاء والجمال . أنا الذى أقول ذلك .. ولكنها ترى نفسها أجمل واحدة فى الكليات النظرية : الآداب والحقوق والتجارة وأجمل من نصف طالبات الزراعة وربع كلية العلوم وخمس طالبات كلية الهندسة .. هى تقول ذلك ولا تسأل كيف حسبتها وكيف انتهت إلى هذه النتيجة وهى ترى أن كل الشبان يحاولون أن يتحدثوا إليها وأن يقدموا لها أية خدمة .. وعندها حكايات ونوادر . وهى لا تتعب من تكرارها . لأن تكرارها عبارة عن حفلة تكريم لشخصها . والمعنى : أنها أجمل الجميلات . وأننى يجب أن أحمد ربنا لأنها تجلس إلى جوارى .. سواء كان ذلك من اختيارها أو من إرغامى لها على ذلك . المهم أنها جالسة إلى جوارى وتتحدث وتغيظ ألوف الطلبة ..

قلت لها : ممكن ؟

قالت : ماذا ؟

قلت : أن يكون بيننا ..

قالت : ممكن .

قلت : ولمدة ؟

قالت : هذا يتوقف علينا .

قلت : واحدة مثلك فى استطاعتها أن تجد ألف معجب ، ما الذى يجعلها تترك كل هؤلاء لتجلس وتتحدث وتفكر مع واحد مثلى .. ليس عنده أمل فى أى شىء . لا فيك ولا فى غيرك فى هذه الحياة ولا ما بعد الحياة .. ما معنى أن تكون علاقة .. صداقة .. حب .. إذا كان الطرف الثانى ليس طرفا ولا يريد .. وإذا أراد فليس قادرا .. وإذا قدر فليس راغبا .. وإذا رغب فليس مصدقا .. وإذا صدق فليس مؤمنا بجدوى هذه العلاقات الانسانية .. لأنها إن لم تكن كذبا فهى مؤقتة .. مقلقة ..

قالت : إننى لم أتعمق فى الفلسفة ولا فى علم النفس .. ولكن ما سمعت يؤكد لى أن مثل هذا النوع من الرجال هم أضعف الناس .. لا أقصد أنه ضعيف ..

ولكن أقصد أنه سوف يقاوم ويعاند حتى يتعب فيسقط عند أول ابتسامة .. مثلا : أنت تناقشنى وترفضنى وتنكرنى وربما صارعتك .. ودافعت عن كبريائى .. وتظل هكذا .. يوما .. شهرا .. فمن المؤكد أننى لن أتعب ، فالمرأة صبورة .. علمها التاريخ أن تنتظر لأنها هى التى سوف تفوز فى النهاية .. أما هذا الرجل فلن يهدأ ولن يستقر . سوف يتعب .. فإذا تعب استسلم . وقد يكون الاستسلام لواحدة أخرى غيرى .. كسيارة نفد بنزينها قبل أن تصل إلى الإسكندرية فوقفت فى الصحراء أمام زريبة بهايم .. لم تقف خارج القاهرة ولا خارج الإسكندرية .. وإنما وقفت عندما نفد البنزين .. وكذلك هذا العنيد .. أنا لا أقول ذلك عن فلسفة ولا عن دراسة ولكن عن منطق بسيط .. وإلا فقل لى ما الذى فعله من هو أكثر عنادا وعداوة للمرأة .. انتقلوا من امرأة إلى امرأة أخرى .. أى استسلموا من واحدة لواحدة .. وأخيرا لزوجة هى أم لأولادهم !

- بايخ !

- تقصد هذا الحوار ؟ فعلا بايخ جدا !

• • •

قلت لها : قولى لى يا آمال

قالت : أنا فاطمة

قلت : يا آمال أى إنسان فى هذه الدنيا ..

قالت : إلا أنت طبعا !

قلت : صح !

قالت : كذاب !

قلت : صح !

وضحكنا نحن الإثنين ..

- تعرف - هى التى تقول بصوت هادىء جميل ناعم - أنا مختلفة عنك تماما . ولكننا نلتقى فى بعض الأحيان ..

- قولى وسوف أسمع لك .. قولى .. فمثلك يجب أن تقول .. وأن يسمعها كل إنسان عنده أمل فى هذه الدنيا .. قولى ..

وأنا أنقل من مذكراتى القديمة التى سجلت جانبا منها فى أواخر سنة ١٩٤٧ بعد أن رحت أمشى فى شوارع سليمان باشا وقصر النيل وشارع الجبلاية فى الزمالك وكنت أسميه شارع التنهدات .. وبعد أن ترددت فى أن أدق باب د . طه حسين .. وبعد أن تسللت من صالون الأستاذ العقاد .. كان يوما طويلا .. وكانت رغبتى فى الكتابة قوية .. وكان عندى ما أقوله .. وقلته .. وتمنيت أن أسمعها .. وسمعتها .. وعدت فكتبت طويلا وكثيرا .

هى تقول : تعرف .. كلما رأيت شجرة .. تمنيت أن أجلس تحتها .. أن ألمسها بأصابعى .. أن أمرر أوراقها على شفتى .. على عنقى .. على صدرى على ساقى .. كثيرا ما تخيلت نفسى أتمرغ عارية على أوراق الشجر .. على أوراق الورد .. وأتخيل هذه الأوراق قد تجمعت على شكل جناحين كبيرين إلى السماء .. أو على شكل مرجيحة تهتز بين الأرض والسماء .. فوق السحاب :. وكنت أترك نفسى أحلم بأن بيتى فى السحاب .. أو هو السحاب .. وأن بيتى له نوافذ كثيرة .. وستائرها شفافة كالسحاب .. وأننى أدفع الستائر يمينا وشمالا .. لكى أطل من فوقها بحثا عنك .. وأجدك .. وأحيانا أضحك وأحيانا أحزن عليك .. ففى كل مرة أنظر إليك أجدك جالسا فى هذا المكان وأجدك تتضاءل قليلا قليلا .. وأندهش لماذا ؟ ولكن أقول لأنك تأكل نفسك .. لأنك تحرق نفسك .. لأنك مفتوح على داخلك .. فأنت تنفق من مدخراتك .. فليست لك موارد خارجيّة .. لأنك قد أغلقت نوافذ وأبواب الإحساس بالغير .. أنت تتكلم من وراء الباب .. أنت تنظر من ثقب المفتاح .. إن أبوابى بلا مفاتيح .. بل وجدرانى بلا أبواب ولا نوافذ .. إنها شفافة .. سألتنى أمى يوما عن فتى أحلامى .. أى الفتى الذى أحلم به .. أو الفتى الذى هو بطل الأفلام والمسرحيات والأوبرات التى أديرها فى رأسى وفى عينى عندما أكون وحدى .. فكنت أقول لها : لا أعرف كيف يكون .. الشكل لا يهم .. وإنما الحنان هو الذى يهمنى .. ليس الذى يملأ العين ، وإنما الذى يملأ القلب .. الذى إذا مر إلى جوارى أحسست أن قلبى يريد أن يقفز من صدرى إلى يديه إلى قدميه .. دون أن يكون لى سلطان على هذا القلب .. إنه الذى أجد لقربه مذاقا خاصا ، وللمسة يديه معنى خاصا .. وحتى إذا لم يكن هناك ، فإننى أحسه وأسمعه وأراه وأتمناه ، كما لو كان إلى جوارى . إنه الذى أشعر أمامه بالحيرة

والأمان .. بالحيرة لأنني لا أعرف لماذا هو وحده الذى أحبه .. لماذا هو ؟ ومن أين جاء وكيف ظهر ؟ إنه الذى لا أقارن بينه وبين أحد من الناس .. فليس في الدنيا سواه .. ولا وجه للمقارنة .. إنه هو وحده وكفى .. والذى أشعر معه بالأمان .. فكل كلمة مخدة من حرير .. وكل نظرة سحابة ناعمة أتمدد عليها .. وكل ما يقوله وما لا يقوله صدق .. وكل ما يؤكده لى ، ليس فى حاجة إلى تأكيد .. إننى صدقته .. إننى وثقت فيه .. إننى أعطيته عقلى وقلبى وما يتبقى منى لا يهم .. إن شاء ، مشكورا ، قبله .. وإن شاء مشكورا ، رفضه .. وأنا السعيدة فى الحالتين ..

أمى قالت : مجنونة .

قلت : مجنونة إن لم أقل ذلك .. أنت لا تعرفين يا أمى .. المرأة فى الحب بدوية .. تماما كبنات البادية .. الحب لا علاقة له بالفيديو .. الحب صحراء ونخلة عند بئر وخيمة صغيرة مربوط بها حصان .. الحب هو الصحراء الشاسعة الواسعة يدق فيها قلبان . والحب مثل النخلة تنبت فى قلبين معا .. والحب هو أن ينفرد الانسان بمن يحب ، ويجد الخيمة جنة تجرى من تحتها الأنهار ... الحب هو أن يحلم الإثنان بأنهما وحدهما ، بعيدان عن الناس .. وأنهما سعيدان بهذه الصحراء .. وأنهما يتمنيان أن يهربا معا على حصان إلى آخر الدنيا .. حتى ولم لم يكن أحد يطاردهما .. وإنما هما يريدان أن يكونا معا .. فى الرمال تحت النخلة فى داخل الخيمة على ظهر حصان .. بلا سبب .. بلا منطق .. ولكن فى اللحظة التى يمسك كل واحد منهما قلما وورقة ويكتب : لماذا ؟ ثم يحاول أن يجد جوابا ، هنا يموت الحب .. تقولين مجنونة .. ليكن .. ولكن جنون الحب هو العقل .. عقل الحب هو جنونه .. صدقينى .. وأنت لن تصدقينى .. ولكنى لا أكذب على نفسى ولا عليك .. تعرف ؟

وقلت : أعرف ماذا ؟

قالت : تعرف هذا ؟

وفتحت ورقة أخرجتها من حقيبتها : تعرف هذا ..

قلت : ما هذا .. إنه قلم ..

قالت : ليس قلما ولكن ربع قلم .. وله ذكرى ..

قلت : لابد أنك كتبت به خطابا إلى الله تشكرينه على نعمة الإحساس الجميل والإحساس بالجمال الذى أعطاه لك ..

قالت : تعرف .. أنت محروم من أشياء كثيرة فى هذه الدنيا .. وأن هذا الحرمان باختيارك .. أنت الذى فعلت بنفسك كل الذى أفسد عليك حياتك .. ليس صحيحا أنك بهذه القسوة .. ولكنك تخاف أن تبدو ضعيفا .. ليس صحيحا أنك لا تدرك المشاعر الصغيرة والأشياء الناعمة .. إننى أراك تتوقف عند الزهرة وتلمسها بأصابعك كأنك تلمس شفتين .. وأراك تمسك الفراشة برفق تخاف أن تموت بين أصابعك .. أراك تفرح للقاء الأطفال الصغار وتقبل أيديهم وخدودهم .. أراك تحب القطط والكلاب .. أراك تعطف على الفقير وتبكى له أيضا .. أراك تحب الصدق والعدل والرحمة والحرية وكرامة الإنسان .. ولا تحقد على الأغنياء ولا تحتقر الفقراء .. ولا تحتقر نفسك لذلك .. بل أنت شديد الاعتزاز بعقلك ، شديد الثقة بنفسك .. وإلا ما الذى أعجبك فى الأستاذ العقاد ؟ علمه وكبرياؤه .. وما الذى أعجبك فى طه حسين ؟ فنه وتمرده .. وما الذى أعجبك فى والدك ؟ سماحته وشاعريته .. وما الذى أعجبك فى أمك ؟ فطرتها وتضحيتها .. إنك حفظت القرآن الكريم ، أجمل وأعظم كلام .. وإنك حفظت الكثير من الشعر .. أى من الكلام الجميل .. وإنك تحفظ الأغانى وترددها .. إنه إذن الجمال والإحساس بالجمال .. أى بموسيقى الكون .. أى بالانسجام .. أى بالعدل والخير والكمال والصفات الباقية فى الأشياء .. ولذلك أنا لا أصدق ما يبدو عليك وما تحاول أن تظهره للناس .. إننا نعرف الأطفال يصرخون وهم خائفون .. يصرخون لأنهم يريدون أن يخيفوا الآخرين .. إننى أذكر أنهم عندما كانوا يتركوننى وحدى فى البيت ، فإننى أضىء كل المصابيح وأفتح الراديو وحنفيات المياه .. وأغنى من غرفة إلى غرفة .. لكى أوهم من يفكر فى السطو على البيت ، أن جميع أفراد الأسرة موجودون .. وأن اقترابه من البيت مخاطرة .. كل ذلك خوفا من أن يكتشف أحد ، إننى وحدى .. وأننى خائفة .. إننى أراك وأسمعك هكذا !

تعرف .. إننى أحس أنك تقول من حين إلى حين مثل رجال الشرطة : مين هناك ؟! تقولها بصوت مرتفع وتقولها بصوت غليظ .. وتقولها بتهديد .. مع

أن أحدا ليس هناك .. ولكن تريد فقط أن تقول للصوص أن رجال الأمن ساهرون .. وأنك رأيت اللص .. وأنك قريب منه وأنك مخيف .. إنني أسمعك من حين إلى حين .. كأنك أحد رجال الشرطة تهدد وتنذر وتخيف .. أنت أولا تريد أن تقول : أنك لا تخاف .. وتريد أن تقول لغيرك : ألا يقترب لأنك مخيف ..

وأنا أضحك لذلك .. وكثيرا ما رأينا فى الأفلام رجل الأمن يصرخ وهو نائم : مين هناك ؟!

إننى أراك وأسمعك هكذا .. ولذلك فإننى لا أطالبك بأن تعتزل المسرح أو تخلع ملابس الشرطة وأن تبحث لك عن « مين هناك » أخرى .. أو لا داعى لها .. ولكن يكفى أن تعرف أننى أعرف .. وأنت أيضا تعرف .. تعرف ..

• • •

لم أجد عندى أى استعداد لأن أعرف أكثر ، لقد فضحتنى أمام نفسى .. ولم أعد أعرف كيف أنظر إليها .. أو أسمعها .. لقد جردتنى من كل ملابسى .. ثم لم تكتف بذلك بل نزعت جلدى وشعر رأسى .. بل أخرجت عقلى وفتحته وطلبت منى أن أقرأ .. وأخرجت قلبى ووضعته فى يدى فقفز إلى يديها .. لا أعرف بالضبط ما الذى فعلته .. لقد كسرت أسنانى وأظافرى .. وألقت بى عاريا فى الهواء .. إذن أنا هكذا .. وهى وحدها التى تعرف ذلك .. فلا عندى بساط الريح ولا خاتم سليمان ولا مال قارون ولا قوة شمشون ولا مزامير داود ولا عيون زرقاء اليمامة ولا قلب روميو ولا عقل سقراط ..

ولكن كلنا كذلك . وكل واحد يحاول أن يرتدى الأزياء التى تناسبه والتى يشعر تحتها بالدفء أو بالقوة أو بالإيمان أو بأنه ملك الملوك وأغنى الأغنياء وأقوى الأقوياء .. وكل ملابسنا مستعارة وكذلك أفكارنا ومشاعرنا .. وحتى كلامها هى الأخرى .. إنها حررتنى لتصفعنى .. لكى أبدو أمامها ضعيفا .. إنها أرادت أن تختصر المقاومة الطويلة .. فأبطلت مفعول كل الألغام التى أحطت بها نفسى وعقلى وقلبى .. كأنها أرادت أن أغرق أمامها ، لكى تنتشلنى .. لكى أطلب إليها أن تنتشلنى .. لكى أرجوها .. لكى أتوسل إليها .. تعبت .. عقلى تعب .. قلبى تعب .. ضقت بها وبكلامها وبأى كلام آخر ..

وكان من عادتى فى ذلك الوقت إذا جلست وحدى أن أجد دموعى على خدى .. وأندهش لهذا السلوك الطفولى .. ولكنه العلاج الطبى الوحيد لشفاء النفس من توتراتها العصبية .. وغسيل للعين من احتقانها المستمر .. وبكيت .. وبكيت ..

ووجدت فى جيبى ورقة مكتوب عليها عنوان .. د . عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب . لقد نصحنى أستاذى د . شوقى ضيف أن أذهب إليه .. ليساعدنى فى العمل فى جريدة « الأساس » .. ولم يكن واضحا عندى ما هو العمل فى صحيفة .. ولا الصحافة ..

ومزقت الورقة ..

وعاودت استخدام كل الملابس والدروع والأسلحة التى اعتدت عليها واسترحت إليها .. محاولا أن أنسى كل الذى سمعت فى هذا اليوم ..

وفى ذلك اليوم وعلى إحدى النواصى ، قررت أن أكون جادا فى أن أجد عملا . وأن يكون هذا العمل قريبا أو مناسبا تماما لاستعدادى .. واستعدادى هو الكتابة والقراءة ..

فى ذلك اليوم ، واختصارا لطفولتى المتأخرة ، وإنهاء لليأس والتشاؤم الفلسفى ، وتسترا على فضيحتى النفسية هذه ، قررت أن أكتب .. وأن أذهب إلى جريدة الأساس وأن أطلب نشر الذى سوف أكتبه ..

وكتبت .. ونشروا !



شاعر الكوخ : لم يلتفت إليه أحد

شاعر الكوخ : لم يلتفت إليه أحد

أول ما حفظت من الشعر الحديث : شعر محمود حسن اسماعيل .. حفظت ديوانه « أغاني الكوخ » لا أعرف سببا واضحا لذلك .. ولكنه أدهشني أعجبني بهرني . واعتدت وأنا طفل على حفظ القرآن الكريم في السابعة من عمري وحفظت « البردة » النبوية وألوف الأبيات من الشعر الصوفي . فقد كان أبي شاعراً متصوفا . ولا أدعي أنني كنت أفهم الذي أحفظه . ولكني أهتز طربا وأتباهى به بين زملائي الصغار الذين لا يروعهم هذا الذي أتلوه طويلا على مسامعهم بل كان يشغلهم أي شيء عن مواصلة الاستماع .. وكان يغيظني ذلك ، فكنت أمسك بشجرة وأكمل لها القصيدة .. أو كنت أصرخ غيظا وأمضي في إلقاء الشعر ..

إنها الصدفة التي جعلتني أشتري ديوان « أغاني الكوخ » الذي نظمه محمود حسن اسماعيل من خمسين عاما ، وكان وقتها طالبا في كلية دار العلوم . وهو شاب أسمر نحيف واسع العينين طويل مجعد الشعر . قادم من الصعيد .. من إحدى قرى الصعيد . أما عالم هذا الشعر فهو الكون كله وقد تجمع في قريته .. أما أهم معالم هذه القرية فهو المقابر والغربان والبوم والساقية والثور والقطن والقمح .. وهو يرى فيها الدنيا .. في غدها وازدهارها . وفي بكائها وعويلها ونحيبها ونعيبها كل ذلك هي دنياه .. ودنيا كل الناس ..

إنه شاعر الكوخ الوحيد في الأدب العربي الحديث .. فالكوخ أي ذلك البيت المصنوع من الطين وأغصان الأشجار .. لا هو بيت ولا هو مقبرة . ولكنه الاثنان معا .. محمود حسن اسماعيل صاحب البرج الخشبي .. أو البرج الطيني .. إنه يحمل هذا البرج معه إلى القاهرة .. تماما كما تحمل السلحفاة أحجارها ، والفيل خرطومه ، وحيوان اللؤلؤ أصدافه ..

ولا أدعى أن هذا الديوان قد أحدث دويا في الشعر الحديث ، ولا في الأدب الحديث .. ولم نعرف في تاريخ الشعر كله ان ديوانا هز مجتمعا أو فتح طريقا أو أصلح كونا .. فالذى يبحث عن صدى ديوان كالذى يلقى بورقة من طائرة ثم يخرج أذنيه من نافذتها ليسمع انفجارها على الأرض .. ولكنه كان بداية المتعة الأدبية ، وبداية الطريق إلى البحث عن الشعراء والشبان .. الشعراء المحدثين في مصر .. وفي كل كتاب عن الشاعر الحديث ، لا أجد سطرا واحدا عن هذا الشاعر محمود حسن اسماعيل ..

وعلى الرغم من أننى ولدت في بلد الشعر والادب والفلسفة والغناء في مصر : المنصورة فلم أجد أحدا من أبنائها يتحدث عن هذا الشاعر الذى اكتشفته لنفسى .. ففى المنصورة ولد الفلاسفة لطفى السيد وعبد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود والأدباء على باشا مبارك ومحمد حسين هيكل باشا وأحمد حسن الزيات ورشاد رشدى والشعراء على محمود طه والهمشرى وكامل الشناوى وصالح جودت وولدت أم كلثوم والموسيقار السنباطى .. وولدت ام الأستاذ العقاد .. ففى هذه البيئة الثقافية كنت أسمع وأنا طفل كل اسماء الأدباء والشعراء .. ولكن لم يذكر لى أحد إسم الشاعر محمود حسن اسماعيل ..

شيء عجيب . ولكنه شاعر ممتاز رغم أن أحدا لا يذكره . بل إننى أحسست أنه شاعرى الخاص ، فأنا الذى أتحدى به الذين لا يحفظون إلا شعر شوقى وحافظ وعلى طه وغيرهم . . وعلى الرغم من ان محمود حسن اسماعيل قد أصدر دواوين أخرى : هكذا أغنى . . ولابد . . وصوت من الله . . وأين المفر . . ولكنى أراه شاعر ، الديوان الواحد ، فقد قال كل مالديه في ديوان واحد . أما بقية الدواوين فهى مذكرات تفسيرية أو بلغة الموسيقى : تنويعات على لحن واحد . أو روافد لنهر واحد . إنه شاعر الكوخ الذى لم يبرحه !

● ● ●

وفى الشعر العالمى ، تجد كثيرين قد أودعوا كتابهم الأول كل ما لديهم من حكمة وملأوا كتابهم الأول بالوعود . وليس من الضرورى أن يفوا بها . يكفى أنهم وعدوا في عبارة جميلة . ولا يهمنا كثيرا شكل الوفاء بالوعد . والأدب الرومانتى ملىء بالتساؤلات ، بلا إجابة .. وبالدهشة وبالأحلام

والرؤى .. إنهم حالمون لما سوف يجيء ثم لا يجيء شيء .. والذى يهمنا هو واقع الأحلام وموسيقاها .. يقول محمود حسن يصف الكوخ :

يعثر عليه الدمع ما صفقت
في قلبك الألحان يا شاعر
واحرق له الأجفان ، ما مسها
برح الضنى ، والحزن يا ساهر
ضمت حواشيه على عابد
محرابه من فاقه داثر
ينعى عليه تحت جنح الدجى
شبح الليالى يومها الصافر
ويشتكى بلواه رأد الضحى
حمامه المسترحم الذاكر
سماره فى الليل أنعامه
والنجم ، والنابح ، والخائر
تبكى سواقى الحقل أشجانه
وما بكاه مرة شاعر !
والبائس الفلاح فى ركنه
عريان يشكو ضنكة خائر !

واقرأ ما يقوله عن زهرة القطن :

حين ذاب الطل فى كاساتها
لؤلؤا يجرى على كف الشعاع
لثمت خد الضحى ، وابتسمت
كابتسام الطفل فى عهد الرضاع .
وبدت صفراء تحكى غادة
نبلت نضرتها يوم الوداع

يا عـروسا لـم تزينهـا يــد
غير كف المبدع الفن ، الصناع
عقدت إكليلهـا مــن سوسن
باهت الأفواف ، تبرى القناع
مستعار من ضنى العشق ، ومن
لوعة الهجر ، ومن لون الوداع
يسجـد الشاعـر مـن فتنتــه
سجدة الفن زها حسنا وراع
عانقت طيف الضحى ، واكتأبت
لأصيل لاح مخنوق الشعـاع
ورنت للشمس يخبو سحرها
بعد ما أذهل أجفان القـلاع
فبـدت حانيـة الــرأس أسى
ترمق الغرب بمض والتيـاع
مثل صوفـى تـراءى خاشعـا
مطرق الرأس بمحراب التلاع !
ذاك تاج النيل ! فانتحب عنده
أمل الفلاح ، والجهد المضاع
نامت النعمـة عنـه ! وجـفت
معدما ، لم يرعه في مصر راع
عـرت ريح الأسى كسرتــه
وطوت نعماءه دنيـا الصراع
رقص القصـر على أكتافــه
وهوجات .. بين ذل واقتنـاع
وسطا البؤس عليه ، فغـدا
زورقا في اليم محطوم الشراع !

أما الفلاحة حاملة الجرة فيصفها :

سارت إلـى جدولها الدافـق
سير الكرى فى مقلة العاشق

وعرفت الشاعر محمود حسن اسماعيل فى الخمسينات . وكان صديقا . وكنت أجد متعة ، ويجد هو أيضا ، عندما ألقى شعره على مسمع منه .. وكان يطلب منى أن أمضى فى ذلك ..

ومحمود حسن اسماعيل متشائم بطبعه . وشعره حزين . ودنياه قاتمة . وهو يشعر ، أنه لم ينل حظه من التقدير .. وكان يدهشه أن دواوينه يشتريها الكثير من الناس - إلا النقاد . وبعض قصائدها غناها محمد عبد الوهاب ، ولكن قصائد اخرى لم يقبل عليها المطربون والمطربات . ولم أجد له حقا فى هذا الغضب .. فشعره جميل ولكنه حزين قاتم الألوان حول محمود حسن اسماعيل : فى الغروب والشروق والزهر والفراشات والطيور ، فإنه لم يكن يستخدم فى رسمها إلا اللون الأسود القاتم والأسود الفاتح والرمادى .

وعندما لحن محمد عبد الوهاب أغنية للشاعر السورى نزار قبانى لتغنيها نجاة الصغيرة ، قال النقاد أن الشاعر السورى هو أول من استخدم كلمة « الفستان » فى الشعر الحديث .. أى أنه شاعر يستخدم الكلمات الاجنبية ، ومع ذلك فشعره جميل . وقابلنى محمود حسن اسماعيل حزينا : ألم أنظم قصيدة عن « الفستان الأحمر » ؟ وكنت قد نسيت ذلك . ونشرت قصيدة محمود حسن اسماعيل التى جاءت فى ديوانه « أغانى الكوخ » يقول :

إن تكن نارا ، فما أشهى خلودى فى سعيرك
أو تكن وردا ، فيالهفة روحى لعبيرك

طـــرفك الهفهـــاف يبـــدى
لوعـــة خلـــف ستـــورك

ولـــهت روحـــى فطـــارت
ترتـــوى مـــن فـــيض نـــورك

تتمنـــى لـــو تهـــادت
موجـــة فـــوق غديـــرك

أو خيـــالا مـــن هواهـــا
سابحـــا طـــى ضميـــرك !

لـــيت يا « فستـــان » لمـــا
لحـــت تزهـــو فـــى حريـــرك !

كنت ذرا نـــــابض الإحساس
يجـــرى فـــى أثيـــرك !
بلنـــم الــــحسن ويهـــوى
فانيـــا بيـــن عطـــورك

ويقول في وصف الساقية :

نـاحت .. فـلا الزهـر علــى عــوده
ألقـى عقـود الـطل مـن جيـده
خـــرساء ، لكـــن صوتهـــا صارخ
يـذيب قلب الصخـر مـن جـده
لهــا طنيــن النــحل فـــى قـــرة
بهمـاء لـم تبـق علـى شهـده
لهـــا عيـــون دائمـــات البكـــا
بمدمــع كــالسيل فــى رفــده
تفنــى دمــوع النــاس مــن فيضهـــا
ودمعهـــا بـــاق علـــى عهـــده
ويزدهـــى الزهـــر إذا ما جـــرى
منهلهـا الصافــى علــى خــده

ثم يصف الثور الذى يجر هذه الساقية :

تؤوبـــة الشكـــوى علــــى راسف
فــى الـذل مفجـوع علـى جـده
دارت بـــه البلـــوى ، فمـــا راعـــه
إلا مـــاء غـــال مـــن رشده
اعمـــى .. رمـــاه البيـــن فـــى داره
لم يدر نحس الخطو من سعده
شدت حبـــال الـــذل فـــى رأسه
وفت صرف الدهـر فـى كبـده

والسائـــق الأبلـــه لا ينثنـــي
عن ضربه العانى وعن كيده
كتبـــوا علـــى آذانـــه سورة
من قسوة السيد على عبده
كأنـــه الدهـــر يزجـــي الـــورى
قسرا إلـى مائد عن وجده

وكان الشاعر محمود حسن اسماعيل عابدا عاشقا لكل ما في هذا الوجود .. وحاول أن ينظم في السياسة ، فضل ضلالا بعيدا - فقد كان مرغما على أن يقول .. ولذلك فإنني أسقط كل الذى قاله في السياسة ، حتى لو تكررت فيه كلمة الحرية ألف مرة .. فقبل هذه الكلمة جاءت أسماء وألقاب .. وعلى الرغم من جمال البناء وروعة الألوان ، فإنها كلها منقوشة على جدران سجن فحم أرغم الشاعر على أن يدخله وأن يتغنى به .. لم يرغمه أحد .. ولكن الجو ، قد أرغمه على ذلك ..

اما شعره الصوفى فهو أيضا مثل شعره السياسي : نوع من الهرب .. فالشاعر فى الستينات قد تقدمت به السن ، ولم يعد قادرا على أن يمضى فى شعره الرومانسي يتغنى ويتعذب ويبكى شعرا جميلا ..

وهو يردد كثيرا ما قاله الشاعر حافظ إبراهيم يائسا من بلده ومن النقاد ومن مهنة الأدب :

حطـــمت اليـــراع فلا تعجبـــى
وعـــفت البيـــان فـــلا تعتبـــى
فمـــا أنت يـــا مصر دار الأديب
ولا أنت بالبلـــد الطـــيب

يقول محمود حسن اسماعيل :

ولـى علـى الدهـر قلب يـائس أبـدا
لهفان !! يصرخ مضنا من عواديه

معـــذب ! كلمـــا رنت مواجعــــه
بكيت إن عز فى دهر مواسيـه
كأنـــه نـــاسك طـــافت بعزلتـــه
سود الذنوب فهاجت حزن ماضيه
تسبيحــه مــن نثــار الدمــع منتظــم
والروح ثورة هم فى أغانيـه ؟
على الصبا كنت يا قلبى تموت أسى
فكيف لو شبت تحيا فى لياليه ؟ !

وحاول محمود حسن اسماعيل كثيرا أن يردد هذه المعانى التى جاءت فى قصيدة له عن « الأنوثة » ولكنه لم يبلغ هذه الروعة التى بلغها فى شبابه يقول :

هـى الخمـر ! ما سكـبت فـى الدنـان
ولا عصرت مـن رحيـق الـعنب
ولا شعشعت جامهــــا فاغتــــدت
عـــروسا مكللــــة بالحـــبب
ولكنهـــا مـــن عبيـــر الجمـــال
ومــن نــوره الساحــر المختلب
لهــا نكهــة مــن جنــون الشبـــاب
وإحساسه الهائـــج المضطـــرب

ويقول :

أنـــــا ظمـــــآن ! فهاتــــــى
خمـــــر عينيـــك الشهيـــــة
أنهلينــــى سحرهـــــا السامـــــى
وروى شفتيــــــــــــــــــه
واسكبـــــى روحك فـــــى
روحـــى بكـــأس الأبديـــة
قـــبل أن تغــــرب شمسي
بيـــن أطبـــاق المنيـــة !

خمـــرة مـــــن هالـــــة

النـــور بعينـــيك رويـــه

نـــمسح الآلام مـــن دنيـــا

بآلامــــــى ثريـــــة

وتنسينـــى ضنـــى عمـــرى

وأيامــــــى الشقيــــــة

أنـــا ظمـــآن فهاتـــــى

خمـــر عينـــيك الشهيـــة

قـــبل أن تغـــرب روحـــى

فـــى سحابـــات المنيـــة !

ويقول فى وصف خصلة من شعرة الذهبى :

كـــم تمنـــيت لـــو أنـــى

بيـــن طيـــاتك ذرة

أنهـــل العطـــر لديهـــا

وأناغـــى كل شعـــره

وفى صدق وسذاجة ورومانسية وغضب يروى ما الذى أصاب فتاة تركت الريف ثم ذهبت إلى المدينة وراحت ضحية . يقول :

واها على دنياى .. ما صنعت

بالحسن فى كنف الصبا الفانى ؟

فتكت بعصمته !.. ولو عدلت

فتكت بقلب الآثم الجانى !

فى الريف فتح للورى زهرى

وسرى بطهرى فى مغانيه

كحاتم البستان ، لا أدرى

من سفره أو هى معانيه

عذراء كم لوعت مشتاقا

فنيت حشاشة قلبه الدامى !

ولكم مررت بعابد لاقى
وضح الهدى بعفافىْ السامى !
ونزلت فى بلد شهدت له
قدس الحجاب ممزق الستر
مشت الفضيلة من كواعبه
مشى الذليل بربقة الأسر
يمررن والأجسام عارية
تغرى بحسن القد والقامة
فضحت معاطفهن أردية
كحبائل الصياد .. نمامة
وشبابه غاو .. قصاراه
من عيشه لهو وتجميل
سلب الأنوثة من عذاراه
ومشى ..عليه العار مسدول !
وجرت على حسنى المقادير
فوقعت فيما كنت أخشاه
عبثت بفتنتى القوارير
وصبابة الشاكى ونجواه
سرق الأثيم قداستى ومضى ..
ومضيت أندب حظى الكابى
حيرى ! أروم القبر لى عوضا
عن خسة الدنيا ، وأوصابى ..
فأبى التراب لما يدنسه
من لوثة الآثام والعار
فنزلت .. ما أقذى وأرجسه !
ببيت الفجور ، وعش أوزارى !
أفتر فيه لمن يساومنى
عرضى .. بما يلهى الطوى شبعا

وبـد تصافـح مـن يكلمنـي
ويد تصون القلب أن يفعـا !
ورد جنـاه المـرء من كمـه
واستاف منـه الـروح للـقلب
حتـى اذا اضوع مـن شمـه
القـاه مبتـذلا علـى التـرب
ويقال فى حكم الهوى : سقطت !
ونعـم ! ولكـن مـن خداعكـم
ولـولا أذى الإنسان ما حـملت
إثم الهـوى عـذراء .. ويحكم !

وكان كوخ الشاعر محمود حسن اسماعيل قريبا من المقابر فى قرية « النخلة » . واحدة من ألوف القرى المصرية الحزينة الكئيبة . ولذلك فالموت والنعش والغربان والبوم مفردات لا يمل تكرارها فى كل قصائده بعد ذلك .. يصف الغروب فيقول :

مات النهار وهذى الشمس جازعة
عليه تخطر فى دامى الجلابيب
كأنها نعش (خوفو) مال منكنا
على سرير بذوب النور مخضوب
أهرامة الأفق ، يجرى فوق ساحله
على دم من عيون الشرق مسكوب
رايات مصر تهادت كى تشيعه
بلاعج من أساها جد مشبوب !

ويقول فى وصف النعش :

يازورق الموت ماذا
دهـاك مـن ذى الحيـاة
فـرحت عجـلان تجـرى
لضجعـة فـى فـلاه !

غادرت دنياك لم تحفل بضجتها
حول الركاب ، ولا بالمدمع الجارى
يمشى اليتامى بأكباد ممزقة
من الجوى !ورحيل الموكب السارى
وللارامل صرخات لها ضرم
تحت الاضالع مشبوب من النار
لاحت مناديلهن السود خافقة
كأنما فصلت من حالك القار
كأنها فى سماء الحزن أغربة
تنعي حياتك فى لهف وانذار
يا حامل النعش لا تعجل .. فان اسى
من حيرة الموت أعيى بطش أفكارى
هذا الذى ضاقت الدنيا بمطمعه
نصيبه كان منها عشر أشبار !!

★ ★ ★

وتستوى إن تردت
فى هاويات الحتوف
جماجم البله فيها
ومخة الفيلسوف

ولم أعرف فى أدبنا العربى الحديث شاعرا كان لديه الحساسية اللغوية مثل محمود حسن اسماعيل ، ولا أديبا مثل مصطفى صادق الرافعى .. حتى لقد تخيلت أول الأمر أن الشاعر قد تأثر بالأديب العالم الشاعر الرافعى .. ولكن أغلب الظن أنهما يشربان من ماء واحد .. ومن الماء كل شىء حى ، زهرة القطن وزهرة البنفسج .. ومنه شجرة التفاح وشجرة الصبار .

والرجلان عاشقان لجمال الطبيعة ، وعاشقان لعبقرية اللغة العربية ..

ومحمود حسن اسماعيل يمتاز شعره بالصورة الرقيقة الشديدة التعقيد أيضا ولكنه ينفجر بالشعر أو يفيض بالمعنى .. يتدفق بالخيال .. وحتى عندما يتكلم محمود حسن اسماعيل فهو يهتز .. فجسمه النحيف النحيل لا يقوى على تحمل هذه المعانى التى تهبط عليه . . أو التى تتزاحم فى فمه .. ولذلك كانت عباراته متقطعة ، ومعانيه ضخمة .. ولو أراد أن يكون سهل العبارة فإنه لا يستطيع .. فالشعر لا ينساب منه كما ينساب الماء من الحنفية ، او كما ينزل المطر من السماء .. وإنما هو أمواج وهدير وعواصف .. وهو قادر بموهبته العظيمة على أن يجعل لها هذه الموسيقى القوية الحزينة ..

وليست لمحمود حسن اسماعيل قضية .. إنه شاعر يتغنى . ثم يلتفت حوله ينظر إلى عيون الذين يسمعونه .. ومع الأسف الشديد لم يجد كثيرين يبهرهم هذا الذى قال وهذا الذى أبدع ..

وهكذا انضم محمود حسن اسماعيل إلى عدد من الشعراء الذين مروا بعالم الأدب ، لم يلتفت إليهم أحد .. ولابد أنه فى ذلك مثل الشاعر الحضرمى على أحمد باكثير : فقد كان أديبا مفكرا شاعرا ومؤلفا مسرحيا ورائداً للشعر الحر أيضا . ولا صدى له !



موم : واحد من العظماء

موم : واحد من العظماء

اذا احتفظت بهذه العبارة وأنت تقرأ هذا المقال كان من السهل عليك أن تعرف من هو هذا الأديب العالمى الإنجليزى سومرست موم . العبارة : أروع ما فى الحياة : حرية القول وحرية العمل .

وهو نموذج لما تفعله القسوة الاجتماعية فى طفل شديد الحساسية . أى ما تفعله النار والجليد بلوح الزجاج الشفاف الرقيق .

أبوه كان سفير بريطانيا فى فرنسا . فهو ولد فى فرنسا . وكانت اللغة الفرنسية هى لغته الأولى . وتوفيت أمه وهو فى الثانية من العمر . وأبوه توفى بعد ذلك بثلاث سنوات . فانتقل إلى لندن ليكفله عمه . وهو من رجال الدين المتزمتين . أى انتقل من باريس إلى القسيس !

وأصبحت دنياه خالية تماما من العطف والحنان والأصدقاء . ولم يستطع موم الصغير أن يعترف لعمه بأنه يريد أن يتفرغ للقراءة والكتابة وأنه لا يريد أن يكمل تعليمه . وانشغل عنه عمه تماما . ورأى أن يبعث به إلى ألمانيا . وسافر إلى ألمانيا . وكان على حريته تماما . وعرف أشكالا وألوانا من العلاقات الجنسية .. العادية والشاذة . وكان يميل إلى غير العادية .

وبعد سنوات عاد إلى بريطانيا . وقرر عمه أن يدخله كلية الطب . ودخل وخرج طبيبا . ولكنه قرر فى نفس الوقت أن يكون أديبا .. وفى الثالثة والعشرين من عمره ظهر له أول عمل أدبى .

وبعد عشر سنوات كانت له أربع مسرحيات على مسارح لندن . وأصبح ظاهرة أدبية . وتوالت قصصه الصغيرة ورواياته ، ولم تعرف اللغة الإنجليزية أديبا له هذه الشعبية بعد الروائى العظيم تشارلز ديكنز .

وهذا حوار خاطف بينه وبين عمه القسيس كان كافيا لأن يفترق الرجلان ، فلا يرى أحدهما الآخر .. حتى الموت - موتهما :

- قال القسيس : إنك لا تذهب إلى الكنيسة .

- قال ابن الأخ : وأنت لا تذهب إلى المكتبات العامة .

- قال القسيس : وأين تذهب من الله ؟

- وأنت أين تذهب من الناس !

- لماذا لا تتزوج ؟

- لو وجدت شابا مناسبا لتزوجته .

- تقول شاب مناسب ؟

- إنني أمزح معك .

- وهل تمزح مع من هو فى مثل سنى ومكانى ، بهذه الصورة النابية ؟

- المزاح الذى يبعث على الضحك هو الذى يكون نابيا .

- ما كان من الواجب أن يموت أبوك فى هذه السن المبكرة .. فماتزال فى حاجة إلى رعايته !

- كنت أحتاج إلى رعايته لأكون فى غنى عن رعايتك !

واندفع القسيس ووراءه الباب .. وخرج ولم يعد - بل لا أحد قد عاد بعد ذلك : لا موم الصغير ولا عمه . وانقطعت هذه العلاقة . وسافر موم إلى فرنسا يتنقل بين أركان الأرض .. فنانا غنيا شديد الحساسية واسع الخيال . لديه هذه القدرة الهائلة على أن يلتهم أعقد المشاكل ، وأن يحولها إلى خيوط حريرية معقدة . فأنت تقرأ ما كتبه عن الهند وآسيا والديانات القديمة ، وتسمع فى سطوره ، سجع الكهان ، ويخيل إليه أنه راهب عريان وأنه خالى الجوف حتى يكون لكلماته رنين فى أعماقه .. كيف ؟ هذه ميزته العظمى .

وهو يصف نفسه قائلا : جلست طويلا .. وتساقطت الكتب من يدى كأوراق الشجر .. أى أنه قرأ كثيرا من الكتب الواحد بعد الآخر . وكان من عاداته إذا قرأ كتابا ألقى به على الأرض .. وكان يجد متعة فى أن يرى الكتب قد افترشت غرف الفيلا الأنيقة التى كان يملكها على ساحل الريفيرا الفرنسية .

وعلى الرغم من أنه كان يجد لذة كبرى في أن يتكلم . فهو يتكلم لكي يفكر أيضا ، وأعظم أعماله الأدبية هى التى رواها مرة ومرة لزواره ، فهو لا يروى ، ولكنه يتهيأ للكتابة . فقد كان يتلعثم فى النطق . وقد أصابته ، التأتأة ، بسبب اضطراباته النفسية ومنازعاته مع عمه ومع الظروف الاجتماعية القاسية .. وشعوره العميق بالخجل .. وتحدث الناس عن ذلك .. وتعمق لديه الشعور بالخجل . ودفعه الخجل إلى العجز عن الكلام .. والاضطراب النفسى وتلعثم لسانه وحركته أيضا .

وكان غنيا جدا وبخيلا جدا أيضا . وهو الذى يقول : إن الفلوس مثل الحاسة السادسة ، لا غنى لها عن بقية الحواس الخمس .

ويقول : أن تدعو إنسانا إلى بيتك ، وأن تدعوه إلى العشاء وأن تحدثه عن تجاربك فى الحياة والفكر ، كيف لا تستحق الأجر عن كل ذلك ؟!

وهذا الرجل الخجول جدا الهادىء جدا ، رجل شجاع جدا . فقد سقطت به سيارة . وتحطمت وخرج منها ينفض التراب والهباب فسألوه إن كان مخمورا ؟ فأجاب : لا . سألوه إن كان قد تعاطى حشيشا مخدرا ؟ وكان رده : لا . إذن كيف لم يضطرب .. كيف لم يقلق ؟ لا شىء .. وإنما خرجت منه هذه العبارة : الموت كالإمساك ، من ضمن متاعب الجسد .. فلماذا الخوف ؟

وهو لم يخف من الموت . وإنما هو صفى حسابه مع كل متاعب الحياة . واستعد لاستقبالها لأنها قدر ، ولأنه لابد أن يجد ما يكتبه !

وفى حياته غراميات نسائية معروفة . فهو أحب إبنة الفيلسوف الروسى الفوضوى كروباكتين . وكان لاجئا فى لندن . وتقدم للزواج منها فرفضت ، وعرف فتاة يهودية ، زوجة لرجل غنى جدا . وكان زوجها المليونير ولكوم يبعث وراءها بمن يتقصى أخبارها ، وعرف أنها على علاقة بالأديب موم . فأكرهها على الطلاق .

وكانت هذه الزوجة نموذجا لمن لا يحب أن يتزوجها الأديب أو الفنان : عالمها محدود لا يشغلها شىء إلا الأكل والشرب والضيوف . وهى لا تعرف بالضبط ما هو عمله . ما هو همه . ما الذى تستطيع أن تعمله له . أن تقوله . إنها إذا أضاءت مصباحا فى غرفة النوم . وإذا نامت فلابد أن يكون فى أحضانها .. فهى لا تطيق أن تراه يكتب . ولا تطيق أن تنام وحدها .

كان يصفها فيقول : إنها شهية مفتوحة . شباب وحيوية .. وفراغ شديد !

ولما وجدت الإبنة اليزابيث أن والدها يسرف في الإنفاق على الشبان في جميع أنحاء العالم ، رفعت أمرها إلى القضاء . وكان الأب موم قد حرمها من الميراث وأنكر بنوتها ، وتبنى شابا أمريكيا .. وحكمت لها المحكمة . فألغى الأب موم بنوته لهذا الشاب !

وفي إحدى روايات موم يصف هذا الذي بينه وبين إبنته فيقول : فيها كثير من الشبه منى ومن أمها .. وهي مثل أمها تحب الزواج . وهي مثلنا نحن الإثنين : لا يطيق أحدنا الآخر .. وكما انها أسوأ إبنة ، فسوف تكون أسوأ زوجة .. وإذا كنت لا أعرف كيف جمعت مالي ، فهي تعرف كيف تبدده .. وإذا كان عمري قد طال ، فلم يعد عندي وقت للندم ، فسوف يطول عمرها لتستمتع بكل ما تركت لها .. هي حاقدة علي ، وأنا أكثر !

● ● ●

كان ذلك في سنة ١٩٥٤ وكان سومرست موم قد بلغ الثمانين من عمره . ولم أكن أعرف ذلك . وإنما فقط وجدت إحدى المجلات النسائية تحتفل بعيد ميلاد الكاتب العالمي . وقرأت المقال . ووجدت شيئا غريبا . كان غريبا في ذلك الوقت فقد كنت في العشرينات من عمري ، حديث العهد بأشياء كثيرة . أما هذا الشيء الذي أدهشني فهو أن الأديب موم كان يعمل جاسوسا لبلاده في سويسرا وفي روسيا . ووجدت أنه هو الذي يقول ذلك . وقرأت العبارة ولم أجد علامة استفهام أو علامة تعجب . شيء غريب ألا يعتذر عن ذلك ، أو ألا يتوقع استنكارا من أحد القراء !

وفجأة نشرت وكالات الأنباء أن الأديب موم في طريقه إلى القاهرة . وجاء ونزل في فندق « سميراميس » . واتصلت تليفونيا . وردت سكرتيرته . وقدمت لها نفسي على أنني أديب شاب ، ومن أشد الناس إعجابا بالكاتب الكبير .

أما أنني أديب شاب فصحيح ، أما أنني من أشد المعجبين به فليس صحيحا . فلم أكن أعرفه جيدا . ولم أقرأ حتى ذلك الحين إلا كتابه الرائع « عشرة روائيين » اختارهم كأحسن مؤلفي الرواية في الأدب العالمي وهم : تولستوي

فى روايته « الحرب والسلام » ودستوفسكى فى روايته « الإخوة كرامازوف » وفلوبير فى روايته « مدام بوفارى » وبلزاك فى روايته « الأب جوريو » واستندال فى روايته « الأحمر والأسود » وسرفانتس فى روايته « دون كخوته » .

وفكرت فى ترجمة هذا الكتاب . وجلست أنقل المقدمة وفوجئت بأديب آخر قد أعلن أنه شرع فى ذلك . وأنه بلغ نصف الكتاب . فتوقفت . وسارعت أقرأ عن سومرست موم فى الكتب التى عندى . وتجمع لدى قدر كبير من المعلومات عن الرجل وأعماله .

- وقالت لى السكرتيرة : ولكنه مريض .

- قلت : إذن أراه . وألتقط صورة معه ، وأكون عظيم الامتنان .

ولحظات من الصمت . لابد أنها كانت تتحدث إليه فى ذلك . ثم عادت تقول : غدا فى الثانية عشرة !

إنه إذن أول أديب عالمى ألقاه . لقد ذهبت إلى بيوت أدباء وشعراء عالميين كثيرين ، ولكن لم أر منهم واحدا . رأيت بيت وقبر الشاعر الإيطالى دانتى .. ورأيت بيت الفيلسوف الإيطالى كروفشه . وكان لى حديث مع ابنته فى نابلى ، ورأيت بيت الشاعر الألمانى جيته فى فرانكفورت ورأيت بيت الفيلسوف الألمانى هيجل فى تيبنجن . وتغديت فى المطعم الذى كان بيتا للشاعر الألمانى هينى ، ورأيت البيت المتواضع الذى أقام فيه الشاعر الألمانى هيلدرلين على نهر السالزاج . أقام فيه أربعين عاما . ثم دخل مستشفى الأمراض العقلية أربعين عاما أخرى . ورأيت البيت الذى أقام فيه الشاعر هيجو . والمقهى الذى جلس عليه وإليه وفيه الفيلسوف الفرنسى سارتر وصديقته سيمون دى بوفوار ورأيته عن بعد ، ولم أجد فى وجهه وعينيه المتخاصمتين ، كل واحدة تنظر إلى ناحية ، وقامته القصيرة جدا لم أجد روعة العبارة والإبداعات الفكرية التى أجدها فى رواياته وكتبه .

إذن هذا هو لقاء مع شخصية عالمية .. أنا أراه عظيما . ولا أعرف كيف دخلت إلى غرفة نومه . ولكن جاءت فتاة رشيقة جميلة لامعة تصافحنى .

وتقول لي أنه مريض .. وهو قد أسعده أن يرى أديبا شابا من مصر ..

- فقلت : شكرا لك .. وله .

وتقدمتني . ووجدت الأديب موم .. دعني أصفه لك ..

انه مكوم في مقعد كبير .. الوجه مكرمش والعينان مرهقتان .. خفيف شعر الرأس كبير الذقن . ممطوط الشفتين . وقد ملأ النمش وجهه ويديه المرتعشتين .. مد يده فصافحته . وشكرته . وكأنه كان يتوقع مني كل ذلك . وقلت له : أشكرك سيدي الكاتب العظيم على أنك وافقت على هذا اللقاء .. فأنت أول أديب عظيم أقابله في حياتي .

ثم حاولت أن أبدو كبيرا في نظره .. أي أن أضيف إلى نفسي شبرا في الطول ، وشبرا آخر في العرض .. وأعلو على الأرض شبرا ثالثا فقلت : إنني الناقد الأدبي لأكبر صحيفة في العالم العربي .. وأنا تخصصت في الفلسفة الوجودية وأقوم بتدريسها في الجامعة .. ولكن هوايتي وحرفتي الأدب .. وكنت أنظم الشعر ، ولم أمض في ذلك طويلا .. وكان والدي شاعرا .. الخ .

ولا أظن أن شيئا من رد الفعل قد بدا على وجه الرجل : فمن أكون أنا في دنياه ؟!

ونظرت عيناه تتطلعان ناحيتي وتنتظران السؤال أو الهدف من هذه المقابلة .. وفجأة وجدت المناسبة قلت : سيدي الأستاذ الكبير لقد قرأت في مجلة « المرأة اليوم » البريطانية أنك كنت جاسوسا في الحرب العالمية الأولى فكيف ذلك ؟

وكأنني لم أقل شيئا .. أو عندما قلت خرج الهواء من فمي وضاعت الحروف وتاهت الكلمات وتوارى المعنى خجلا .. نظر ناحيتي كأنه يريدني أن أوضح نفسي .. وحاولت مرة أخرى .

ولابد أن هذا السؤال قد أعطاه الحجم الحقيقي لأفكاري ، والوزن الدقيق لقيمتي عنده فتحرك وجهه قليلا .. وعرفت فيما بعد أن هذه ابتسامة ساخرة .. وقال : ... (هذه النقط للدلالة على التأتأة ، وأنه لم ينطق بعد) .. أنت .. صغير .

يقصد أنني شاب ..

ثم قال : هل إذا كان الطاعون فى بلد من البلاد ، وأرادت دولتك أن تعرف ما هو فهل تبعث لذلك محاميا أو مدرسا .

- قلت : تبعث طبيبا .

- قال : أصبت . وهل إذا كانت هناك فيضانات فى الهند أغرقت البيوت والمزارع وأهلكت الحيوانات فهل حكومتك تبعث بموسيقار أو قارىء كف ؟

- قلت : تبعث بمهندس زراعى .

- قال : أصبت .. إذن لو أرادت حكومتى أن تبعث بمن يجمع لها المعلومات ويقيس لها الرأى العام ويحلل ذلك ويهديها لاتخاذ القرار ، فهل تبعث بمهندس زراعى أو طبيب .. لاشك أنها سوف تبعث بأديب . وقد حدث .. فقد كنا جنودا فى خدمة الوطن ، وهو كلام منطقى تماما .

ثم عاد يقول : إذا كان شعب من الشعوب يرى أن هناك ما هو أهم من الحرية فسوف يفقدها .. ونحن كنا نعمل من أجل تحرير أنفسنا وعالمنا من الإرهاب والطغيان !

ورأيت فى نظرته الثابتة وقلقه الهادىء وحركة السكرتيرة بالقرب منى ما يدعونى إلى أن أنهض . فقلت : سؤال أخير من فضلك !

وكان صمته وهدوؤه دليلا على الموافقة . فقلت : هل قرأت شيئا للعقاد .

- لا .

- أو لتوفيق الحكيم الذى ترجمت أعماله إلى لغات كثيرة .

- لا .

- إذن لابد أنك قرأت لطه حسين الذى ترجمت بعض مؤلفاته إلى اللغة الفرنسية التى هى لغتك الأولى .

- لا .

- إذن ما الذى قرأته فى الأدب العربى الحديث ؟

- « ألف ليلة وليلة » !!

وشكرته . واعتذرت له . وشكرت السكرتيرة وكان من الواجب أن أطيل الحديث معها :

ولكنى لم أفعل . وفكرت فى أن أعود إليها أستوضحها . ولكن لم أكن صادقا فى هذه الرغبة . ولذلك عدلت ونزلت . وجلست أكتب . وكتبت . ونشرت .

وبعد يومين فوجئت بمقال للأستاذ العقاد يهاجمنى بقسوة . وأدهشنى أنه يفعل ذلك ، مع واحد مثلى .. أى واحد من أشد المعجبين به والمترددين على صالونه بانتظام عشر سنوات .

وكان مقال العقاد صدمة . فهو قد أساء فهمى ، وهو لم يجد لى عذرا . فهو قد هاجم سومرست موم . وقال : إذا نظر شخص إلى الشمس ولم يرها ، فليس معنى ذلك أن الشمس ليست هناك .. وإنما هو أعمى !

أى أن موم هو الأعمى وهو الجاهل بالأدب المصرى الحديث . والعيب فيه هو ، وليس فى أدباء مصر !

هذا ممكن . ولكن الذى قاله عنى هو الذى أذهلنى . فهو قال أننى تعمدت أن أسأله هذا السؤال بالذات ، لكى أهين العقاد ، ولكى أؤكد للقراء ، أنه لا يتجاوز حدود البحر أو مصر أو العالم العربى . وأننى لابد أن أكون قد تأثرت بما يقوله توفيق الحكيم وطه حسين ومحمود تيمور وغيرهم !

ولم يخطر على بالى شىء من كل ذلك . وكل ما حدث هو أن الرجل لم يقرأ إلا « ألف ليلة وليلة » التى ترجمها إلى اللغة الإنجليزية المستشرق المعروف ريتشارد برتون .. ثم إنه ليس من كتب العقاد واحد قد ترجم إلى اللغة الإنجليزية ، وإذا كانت كتب الحكيم وطه حسين وتيمور قد ترجمت إلى أية لغة ، فإنه لم يقرأها .. كما لم يقرأ أدباء كثيرين فى العالم كله !

● ● ●

وشعرت فى أعماقى بامتنان عظيم للأديب العالمى سومرست موم ، فقد أثار العقاد ليكتب مقالا يهزنى ، فلم أكن أتصور أن العقاد هكذا عصبى .. أو هكذا مغرور ، وأننى اصطدمت بكبريائه ، وأن العقاد هكذا ليست لديه أبوة . وأن العقاد الذى يبدو منطقيا ليس كذلك إذا كانت القضية هى « عظمة العقاد » ، وأننا ، وأى أحد ، لا يساوى عنده شيئا .. إذن فالعقاد عندما يجلس إلينا ، فليس

لأننا نساوى شيئا ، بل لأنه لا يحب أن يتكلم وحده ، وإنما على مسمع من الناس ، فنحن مجرد آذان . أو ميكروفونات . وأننا ، معه ، هذا صحيح ، ولكنه ليس ، معنا ، ولا مع واحد منا ؟

وأقبلت على روايات سومرست موم أقرؤها . إمتنانا له ، وإعجابا بهذه الموهبة الأدبية العظيمة .

وحاولت بعد ذلك أن أفتعل أعماقا لهذا اللقاء ، ولكن لم أفلح .. فهو ليس الأديب النموذجى الذى أحبه . ولكنه واحد من العظماء !



كامل الشناوى : شاعر الشظايا

كامل الشناوي : شاعر الشظايا

لم أر البهاء زهير وحافظ ابراهيم وعبد العزيز البشرى وإمام العبد وعبد الحميد الديب ، ولكنى رأيت وسمعت وأحببت كامل الشناوى ..

لم أعرفه شاعرا ولا محدثا ظريفا .. ولكن الصدفة جعلتنى أعرفه صحفيا ـ أهون ما فيه ..

فقد كان كامل الشناوى محدثا ممتعا .. تعرفه لحظة واحدة ، فكأنك عرفته طول حياتك .. هو الذى يختصر المسافة ويدخل فى حياتك .. فى عقلك وقلبك .. فإذا به جزء منك وأنت جزء منه .. هو ضرورى لك ، وأنت ضرورى له ـ هو يعطيك هذا الاحساس ..

ومع كامل الشناوى لا تملك إلا أن تحبه جدا أو تحبه بحساب .. أو تحبه على حذر .. ولكن أنت تحبه .. أما حبه لك فهو ، جاهز ، موجود دائما . سواء عرفته يوما أو ألف يوم .

عرفت كامل الشناوى سنة ١٩٥٠ ..

وعملت معه محررا فى ، الجريدة المسائية ، التى عاشت ٤٤ يوما . وبعدها انتقلنا معا إلى ، الأهرام ، وإلى مجلة ، النداء ، وعندما ترك الأهرام ذهبنا معه إلى ، أخبار اليوم ، ونسينا أن نقدم استقالتنا أو شكرنا للأهرام . فعلنا ذلك فيما بعد . فقد كان يكفى أن يتقدمنا كامل الشناوى لنكون معه أو وراءه .. إنه كامل الشناوى . صديقك وأخوك الأكبر المتحدث بلسانك .. هو الذى يحدد لك المرتب ، وهو الذى يطلب لنا الإجازة والعلاوة ..

وأنا وغيرى وكثيرون يدينون له بكثير من الفضل . تشجيعه الأدبى فى كل وقت ..

وأنا لم أر كامل الشناوى طالبا أزهريا .. لم أره بالعمامة .. بعض الزملاء عرفوه وزاملوه . ورأوا شخصية قلقة فى الجبة والقفطان .أما نحن فقد رأيناه أكثر قلقا فى الجاكته والبنطلون . وأشد قلقا فى الجلباب .. وكان بدينا يأكل كثيرا ويشرب كثيرا وينام طويلا ويصحو أطول .. كل شىء عنده بإسراف .. يشرب القهوة طوال النهار ، ويبلع كميات من الحبوب المنومة ليقضى على مفعول القهوة .. فإذا صحا من نومه راح يصب القهوة ليزيل أثر المنومات .. فهو - هكذا - يصحو بالقوة وينام بالقوة .. وهو مشدود دائما إلى اليقظة التى يحبها والنوم الذى يعشقه ..

وكل لحظة عنده هى لحظة يقظة ولحظة نوم أيضا .. فقد ينام بعمق وأنت تتحدث إليه ، ويصحو تماما بعد لحظات .. إنه يتقلب على حافة سيف يفصل بين عالم النور وعالم اليقظة .. وهو وحده القادر على أن يحقق هذه المعجزة اليومية ..

وكان أنيقا فى ملابسه .. فهو يرتدى أحدث القمصان والكرافتات ، وفى جيبه أفخم الولاعات .. وكل ما يملكه كامل الشناوى من الممكن أن يهديه لأى أحد فى أى وقت .. وهو حريص على العملات الورقية الجديدة .. والأقلام الباركر الذهبية التى لم يكن أحد يعرفها .. وكان يكتب على ورق صغير .. وكان خطه رديئا .. وكان يستطيع أن يكتب وسط الضجيج . وكان يتعب فى الكتابة ، نثرا أو شعرا .. بل كان شاعرى التعبير دائما . أنيق العبارة النثرية فخم التراكيب الشعرية ..

وهو مثل كل الشعراء الذين ينظمون قليلا ، لا نعرف له مقدمات ..

فلا نعرف أين بدأ ولا كيف ؟ فهو من أسرة من علماء الأزهر . وكان المقدر له أن يكون واحدا منهم . ولكن روحه القلقة وموهبته الإبداعية ، وخفة دمه ، وزحمة الناس حوله وحرصه على أن يكون حديث الناس ، وأن يكون الناس حديثه ، جعله يتجه إلى العمل الأدبى والصحفى .. ثم الصحفى والفنى والإذاعى والغنائى ..

وأنا لا أصدق الكثير مما يقوله الشعراء .. لأنهم يتغنون بالعذاب والهوان ، ويجدون لذة فى ذلك . ولو حاولت أن تمد يدك لواحد منهم . فإنه لن يطاوعك .. وسوف يسخر منك . لأن الشاعر لا يريد علاجا لعذابه ، بل عذابه

هو العلاج . وشقاؤه هو الشفاء . ولذلك فأنا أصدق كامل الشناوى ألف مرة عندما يقول :

أنا عمر بلا شباب !!
وحياة بلا ربيع !!
أشترى الحب بالعذاب
أشتريه فمن يبيع ؟!

ويتردد هذا المعنى فى كل قصائده القليلة القصيرة ، وهو الخيط الذهبى فى تأملاته النثرية . وإذا عرفته عن قرب . أيقنت أنه لم يقل إلا الحق وكل الحق ولا شىء إلا الحق ..

وكان يرهقنا بالسهر الطويل .. وكان يغضب إذا نحن تركناه وحده أى تركناه مع عشرين آخرين . فهو حريص علينا جميعا .. ينتقل بنا من مطعم إلى فندق إلى كباريه إلى بيت أحد الفنانين : من عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش أو غيرهم من الفنانين والممثلين الكثيرين . ولكنه يفضل أن يكون على راحته فى أى مكان آخر ..

فيكون هو المتحدث الوحيد .. أو يكون هو الساخر الأوحد .. ويكون ضحاياه واحدا منا . أو نحن جميعا .. وكان يعيش الليالى الطويلة بالمقالب التى هى حديث المدينة .

فى إحدى الليالى كان موعدنا أن نتناول العشاء فى بيت محمد عبد الوهاب ، وتوقفت السيارات عند أحد المحلات . ونزل كامل الشناوى واشترى لنا جميعا علب سجائر صغيرة . وبعد العشاء تحدث كامل الشناوى عن انعدام الشخصية عند الشباب وضرب مثلا لذلك : إننا ندخن نوعا واحدا من السجائر .. مع أن هناك ألف صنف !

ويظل يضحك وتضحك . وفى اليوم التالى . تتجدد المقالب ..

□ □ □

وكامل الشناوى هو الذى أحيا ليالى هيلتون . كافتيريا هيلتون .. فقد كانت

هذه الكافيتريا هى الغرفة الوحيدة المضاءة ٢٤ ساعة . واتجهت جميع أقلام مصر إلى هذه الغرفة تتحدث عن المجتمع الجديد وعن الفتيات الجامعيات اللاتى يعملن جرسونات .. ويتقاضين بقشيشا كبيرا .. ثم اختفين . فقد تزوجن .. وكل الصحف تتحدث عن الجرسونة الجميلة التى تعثرت وسقطت منها الأكواب .. أو تعثرت فوقعت هى على صدر أحد أصحاب الملايين الذى تزوجها بعد ذلك ..

والناس فى الكافيتريا أشكال وألوان ولغات وأحجام ومن كل الدنيا . وكامل الشناوى هو صياد الليالى وغطاس هذا المحيط .

أعجبته فتاة لها عينان جميلتان فكان يقول لها : عينك توجعنى !

ولم تفهم الفتاة هذا المعنى . فكانت تقول له ، مفسدة المعنى الجميل : إنها عينى أنا ولابد ان توجعنى أنا ..

فيقول لها : ولكنها توجعنى أكثر !

فلا تفهم . فيرد عليها : إن الله سبحانه وتعالى وضع كل عظمته فى عينيك ولم يترك فى رأسك عقلا يفهم هذه الحكمة !

ولكنها لم تفهم ..

يقول كامل الشناوى مرة أخرى :

مرت بنا كالطيف تسألنا .
ماذا نريد ، فلذنا بالصمت .
ودنت لتسألنى على حدة .
عما أريد .. فقلتها : أنت !!

● ● ●

غضبت وألقت نظرة نزعت
قلبى وشدته إلى فمها
ياليته يبقى بقلبها .
..ياليته ينساب فى دمها !!
وأردت أرضيها ، فقلت : لها :

هل تعرفين .. ومن أكون أنا ؟
أنا يا صبية شاعر هرم
قد جاء يستوحى الشباب هنا ..!!

● ● ●

أريـــد الهامـــة جديـــدة
بقـدر ما أنظـم القصيـــدة

● ● ●

فافتـــر ناظرهـــا ومبسمهـــا
وقصيدتـــى مـــازلت أنظمهـــا
..وأظل طـول العمـر أنظمهـــا !!

حتى الأستاذ العقاد الجاد الصارم كتب عن كافيتريا هيلتون التى غيرت وجه الحياة الليلية فى مصر ..

وكان كامل الشناوى يتندر قائلا : إن أول مكالمة تليفونية بين الرئيس السوفيتى والرئيس المصرى قد تمت بشأن هذه الفتاة الجميلة .. فقد وجد رواد الفضاء السوفيت صعوبة فى الهبوط إلى الأرض .. فطلب إلى الرئيس عبد الناصر .. أن يستأذن هذه الحسناء فتنظر إلى السماء . وعلى ضوء عينيها هبط رواد الفضاء إلى الأرض سالمين !

وكان يقول عنها : من شدة أدبها إذا فتحت درج مكتبها ، فإنها تدق عليه أولا !

وكان يشغلنا وينشغل كثيرا بكل وجه جديد .. وحب جديد .. وكامل الشناوى كان شاعرا طول الوقت ، صحفيا بعض الوقت ، سياسيا نادرا .. فهو رومانسى متمرد ..

ونحن نعرف كل اللاتى أحبهن كامل الشناوى ، ولكننا لم نناقش فى ذلك الوقت هل واحدة منهن فى وزن وجمال وروعة الذى قال ؟

هل نجاة الصغيرة وفايزة أحمد ونور الهدى ؟

إن أحدا لا يسأل الشاعر من هى التى أحبها ، ولا ما اسمها ورسمها ؟

أو هل مديحة يسرى فى جمال الشعر الذى قاله العقاد .. أو « مى زيادة » فى روعة ما أبدع مصطفى صادق الرافعى نثرا وشعرا ..

لكن التى أحبها العقاد وطه حسين ولطفى السيد وسلامة موسى وجبران خليل جبران ومصطفى عبد الرازق ومحمد عبد القادر حمزة . لا أظن مى زيادة هذه السمراء الفلسطينية السورية اللبنانية الأوربية جميلة إلى هذا الحد الذى يسحر أكبر عقول زمانها . ولكنها وحدها تعذبت بهم ودخلت مستشفى « العصفورية » للأمراض العقلية فى لبنان .

ولا كانت ليلى العامرية ولا دوقة وندسور ولا إيفا بيرون عشيقة وزوجة رئيس الأرجنتين ثم رئيسة الأرجنتين .. ولم ير واحد منا شيئا واحدا مما وصفه الشعراء :

ولا رأينا الأقمار التى يصنعونها .. ولا الجبال ولا الأنهار .. ولا الأسود ابتداء من الشاعر عنترة العبسى حتى الشاعر شوقى أمير الشعراء ..

ولا يصح أن تطلب إلى الشعراء أن يقدموا لنا صور معشوقاتهم . فنحن نطلب منهم المستحيل . فالمعشوقة من صنعه ومن خياله .. هو يصنعها ويتعذب بها ويعبدها .. وإذا رآها فى الطريق ، فلن يعرفها .. لقد عايشها فى خياله . ولكنه لم يجلس إليها ، لا أكل ولا شرب ولانام .. وإنما هو نحتها صنما ثم خر ساجداً لها .. وهو فى الحقيقة عاشق لفنه ، ساجد لنفسه ..

يقول جميلا جدا كامل الشناوى :

كونى كما تبغين .

لكن لن تكونى .. !!

فأنا صنعتك من هواى ، ومن جنونى .. !!

ولقد برئت من الهوى ومن الجنون ..!!

أما أنه صنعها ، فهذا صحيح .. وأما أنه قد شفى بعد ذلك فليس صحيحا . لأن الشاعر لا يريد أن يبرأ من الشعر أى يكون بريئا من تهمة الشعر ، وأن يشفى عذابه أيضا !

ويقول كامل الشناوى أيضا :

فرأيت أنك كنت لي قيدا
حرصت العمر ألا أكسره
فكسرته !

إن كان الحب ذنبا ، فإنه لا يطلب من الله أن يغفر له هذا الذنب .. ولكن المحبوبة غفرت ذنبه .. وهذا ذنب وجريمة ، لن يغفرها !

وأنا لا أصدق كامل الشناوى حينما يقول ويعيد ويزيد هذا المعنى :

دمرتني لأنني
كنت يومـــــــا أحبهــــــــا
وإلـــــى الآن لــــم يــــزل
نـــــابضا فـــيك حبهـــا !؟
لست قلبـــى أنـــا إذن !!
..إنمـــــا أنت قلبهـــــا !!

• • •

..لأنه ما يزال وسوف يبقى يحبها ، ويحب العذاب من أجلها .. ولا أصدقه أيضا حين يقول :

لست أشكو منك
فالشكوى عذاب الأبرياء !!
وهى قد ترسف العزة فيه والإباء !!
أنا لا أشكو
ففي الشكوى انحناء !!
وأنا نبض عروقي كبرياء !!
جرأتي راحت ولا أعرف أين ؟
بسمتي ضاعت ودمعي بين بين !

..الهوى خجلان دامى الوجنتين !
وحنيني لك مكتوف اليدين ! أنا لا أشكو .
..ففى الشكوى انحناء ..
وأنا نبض عروقى كبرياء !
ولكني أصدقه وهو يقول :
لا وعينك ما سلوتك عمرى
فاستريحى وحاشى أن تريحى
وهو يقول أيضا :
..أنا لم أدرك مداها !
آه منها
.. هى لم تدرك مدايا !!
حطمتنى مثلما حطمتها
..فهى منى .. وأنا منها .. شظايا !!

أما أنه كان شظايا فصحيح ، أما أنها أو أنهن ، كانت شظايا ، فليس صحيحا !

ولكنه هو الذى توهم ذلك !

ويعود إلى هذا المعنى مرة أخرى فيقول :
قد خلت منك حياتى
وخلت منى حياتك
ماتراه منك .
أو منى
رفاتى ، ورفاتك !!

• • •

ولا حتى هذا المعنى .. فهو شظايا ورفات كامل الشناوى ، لا شك فى ذلك ، بينما كل واحدة من التى أحبهن كامل الشناوى عاشت فى صحة وعافية . وكانت تروى من نوادر كامل الشناوى على أنها جزء من الزحام فى موكبها ..

فأضاعت الرجل ، الذى كان وحده موكبا .. وكان هو المشاة والمحتفى به .. فهو الذى صنع الموكب ، شكله وموضوعه ثم صدفه وإن لم يكن له أى هدف ، يكفى أن يحتشد ويتزاحم ويدور حول كامل الشناوى شاعراً معذباً باليقظة والنوم ، معذباً للناس ومعذبا بهم ..

وكان كامل الشناوى حاد اللسان جارح النكته . وهو ضحية الناس .. فهم يريدونه أن يضحك ويثير ويهز ويوجع ولذلك أوجعنا بقدر ما أضحكنا ..

وأذكر أننى كتبت عنه مقالا قلت فيه : إن كامل الشناوى يدغدغ أصدقاءه بسكين !

ووجدت الأستاذ محمد حسنين هيكل يقرأ المقال للرئيس جمال عبد الناصر ، ويضحك ..

ولما عرف كامل الشناوى .. كانت أول قطيعة بينه وبينى ..

وقد أحزننى ذلك . مع أننى لم أفعل أكثر من أننى استعرت أسلوبه فى مداعبة الناس .. ولكنه لم يطق أن يفعل به أحد ذلك .. وفى إحدى الليالى شرب كامل الشناوى كثيرا وراح يبكى على الوفاء والاخلاص . وكنت المقصود بذلك . مع أننى لم أنزع من قلبى مثقال ذرة من حبه والامتنان له . ولكن أكثر الساخرين الجارحين ، لا يحتملون أن يفعل بهم أحد ذلك .. فمثل هذه الأسلحة يجب أن تكون حكرا عليهم !

وقد تعبت كثيرا من الاعتذار له ، مع أن الذى قلته ليس شيئا خارجا ولا تجاوزت حدود الأدب .. ولا حتى الحقيقة . ولكن أن يضحك جمال عبد الناصر لذلك ، وأن يكون هو نكتة رئيس الوزراء . هذا كثير .. وأن أكون أنا السبب . هذا كثير جدا .

مع أن نصيبى من مداعبات كامل الشناوى كان كثيرا جدا .. فهو قال عنى :

أننى إذا ذهبت لدورة المياه دقيقة فلكى أقرأ ثلاثة كتب !

وكان يسألنى عن سيارتى فأقول له : إنها عند الميكانيكى !

فيعود يسألنى : كم تكلفك من التاكسيات !

وكان يقول إننى أبحث عن سيارتى كل صباح ، فأجدها تلعق البنزين من السيارات الأخرى !

وكان لكامل الشناوى شعر سياسى مثل مقالاته السياسية ، يجب ألا ننظر إليها بجدية . وإنما هى رائعة فى النظم وفخامة فى الصياغة ولكن كامل الشناوى كان سياسيا مضطرا ، وكان كثيرون كذلك .

وكما أننا لا نسأل الشاعر عن معشوقته ولا أن يعرض علينا صورتها ، فكذلك قصائده السياسية مثل مطلع ، نشيد الحرية ، يقول :

كنت فى صمتك مرغم
كنت فى حبك مكره
فتكلم ، وتألم
وتعلم كيف تكره

فقد كنت أروى لكامل الشناوى حكاية كنت مرغما على سماعها وروايتها وأن أكون طرفا فيها .. ولم تكن معا يسعد كامل الشناوى . فقد كان يعمل فى جريدة الأهرام فى سنة ١٩٥٠ ولم يكن على وفاق مع بعض الزملاء الكبار . وكانوا يحاولون إبعادنا عنه ، والتفافنا حوله . وفى إحدى المرات كان لابد أن أذهب وآخرون معهم إلى غداء خارج القاهرة .. وفوجىء كامل الشناوى بأننا سوف نتركه وحده .

ودار حوار طويل . ولم يكن كامل الشناوى يقبل المرونة . ولا أن يمسك أحد العصا من وسطها . فأنا إما معه وإما عليه .. إماهم وإما هو ..

فقلت مداعبا : أتكلم .. أتألم .. أتألم ! أتكلم .. أتكلم وأتألم من جديد ..

وبسرعة البرق غاب كامل الشناوى عن الوعى ليمسك ورقة وقلما ويكتب مطلع نشيد حرية مصر كلها ، لا حرية واحد من موقف حرج !

وكذلك كل قصائد الشعراء فى الغزل والصداقة والكفر بالحياة والحياة والسياسة .. إنها تجيء مثل أكبر الحرائق من عود كبريت صغير !

وكان الشاعر الألمانى ريلكه يقول : إن المعانى تسقط عليه كما تسقط الأمطار من السحب .. هذه السحب تكونت قطرة قطرة من بلاد بعيدة .. ومرت على الجبال وعلى الوديان وعلى المدن .. وتزاحمت فيها القطرات .. ثم سقطت على شاعر ما فى مكان ما .. كيف حدث ذلك ؟ إن هذا ما يحدث !

○ ○ ○

وكامل الشناوى مثل كل الشعراء الرومانسيين ، ولا يريد إلا أن يقول بل ليس بحاجة إلى أن يجد سببا . إنه كالبلبل يغنى بالغريزة ويبكى بالغريزة ..

فهل لو ظهرت حبوب ، منع الحمل ، فى القرن السابع عشر فى أوروبا وفى الجاهلية عند العرب لكان قد اختفى الرومانسيون وشعراء الغزل ، والأدب العذرى !

لا أظن ذلك . فليس جنسيا ما يريده الشعراء . فما أيسر الجنس . ولكنه الجمال . الجمال يرونه ويلمسونه بعيونهم .. ثم الجمال الذى يصنعونه لأنفسهم .. أى الإبداع والخلق .. فالشاعر ليس صحيحا أنه عابد لغيره ، وإنما هو عابد لنفسه .. فالشعر لا يرى جميلة أروع من جميلاته .. ولا يرى مخلوقا أعظم من مخلوقاته .. فإن لم يكن ذلك عبادة لذاته ، فهى شىء من ذلك ..

بل إن الشاعر يحتضن حبيبته ويذوب ويذيب .. ولكنه يتغنى بالتى بين يديه كأنها ليست هناك .. أو يستشعر غيابها ، ليشتاق إليها .. ويبكى على بعدها .. مع أنها لحم ودم وأنفاس وعطور بين ذراعيه ..

ولو استبعد شاعر واحد كلمة ، أنا ، من قصائده ، لم يكن شاعرا .

فالشعر ، ترجمة ذاتية ، كتبها عاشق لنفسه ، يريدنا أن نصدقه . ولكننا لا نصدقه . ولكن عندما نصدقه أو لا نفعل ذلك . فإننا نصفق له .. فما أجمله كاذبا وما أروعه صادقا ، وليس من الأدب ولا من الفن ولا من الشعر ان نقول له : قف من أنتَ .

وكلنا أصدقاء كامل الشناوى يعرف من التى يحبها .. بل كان هو يدلنا عليها .. ولم تكن تطابق بين ما نراه فى الحقيقة وما نراه فى الخيال . ولكنه يراها هكذا .. ويعبر عنها هكذا .. وهذا هو الفن !



الحكيم ثائرا

الحكيم ثائراً ..

لابد أن يكون هذا الرجل ضحية لنكتة أطلقها على نفسه ، فتمسك بها الناس ، حبا للنكتة ، أو حبا للتعالى على شخصية عظيمة . هذا الرجل هو : توفيق الحكيم . ففى العام الماضى احتفل التليفزيون بعيد ميلاده . فكانت جلسة فى مكتبه بجريدة « الأهرام » .

وبدأ الكلام عن مناقب الأستاذ الحكيم فكانت البداية نكتة ونادرة ، وتوالت القفشات . وكل واحد منا يحكى قصة ويضحك ويضحك والتلفزيون يسجل كيف عاش الحكيم بخيلا . وكيف أن الفتيات الصغيرات يدرن حوله . وكيف هو سعيد بذلك .. ساعة .. ساعتين .

وتقدمت أنا إلى التليفزيون أطالب بإلغاء هذا البرنامج . وألغى . فلم يكن ذلك تكريما لأديب كبير ، وإنما كان تهريجا فى حضرة أديب كبير . اشترك فيه عدد من الأدباء . ولم ينتبهوا إلى أن هذا الذى حدث إهانة للرجل ، وإهانة لأنفسنا . فالمطلوب أن نكون جادين ، فلم نكن .. وأن نؤرخ للرجل ، فكان ذلك هروبا من التاريخ ، وتحقيرا وتصغيرا للرجل وظلما لأنفسنا . فنحن نضحك أحيانا ، ولكن ليس فى مواقف الجد ، ونحن نهرج ولكن ليس فى هذه المناسبة الأدبية !

ولايزال توفيق الحكيم يعانى من هذا الموقف ، فلا تكاد تذكر إسمه حتى يتوقع الناس أن تروى لهم نكتة . فإذا تكلم هو ، فأنت على استعداد لأن تضحك . وهنا تشعر بنوع من الإحباط ، كأنه قد وعدك بنكتة ، فاذا به يقرأ عليك دفتر التليفونات أو ميزانية البنك المركزى أو صفحة الوفيات . لماذا ؟

أنكر أننى تناقشت مع د . طه حسن فى هذه الصورة التى علقناها لتوفيق الحكيم ، فكان رد طه حسين : أن الحكيم هو المسئول عن ذلك . فهو قد ارتدى

« البيريه » ليلفت النظر ، وأطال شعره وأمسك العصا وسحب وراءه حمارا . وأضاف إلى ذلك أسطورة : أنه رجل بخيل .. ولا يهمه فى هذه الدنيا إلا الفلوس !

وكتبت هذا الرأى فقال لى الأستاذ العقاد : ولكنى لبست البيريه قبل أن يلبسه الحكيم ود . حسين فوزى !

إذن .. لقد ارتدى العقاد البيريه ، ثم عدل عنه . ولكن الحكيم تمسك به حتى عرف به !

ولكن الأستاذ الحكيم يفضل أن يكون إنسانا محبوبا لطيفا ظريفا . وهو يجد متعة فى الحديث إلى الناس ، والناس يجدون ذلك أيضا . وهو بالفعل من أمتع المتحدثين . فإذا تحدث فإنه يتدفق بالتاريخ والأدب والنوادر والذكريات . ولابد أن تضحك . ولكن ليس كل ما يقوله مضحكا أو يبعث على الضحك ، أو من أجل أن تضحك !

والحكيم له مقالات بعنوان « حمارى قال لى » . وله مقالات بعنوان « قالت لى العصا » . حتى هذا الحمار قيل أنه اقتبسه من الكاتب الأسبانى « خاثنته بنافنته » الذى كان له كتاب بعنوان « بلاتيرو وأنا » . وبلاتيرو هذا هو إسم حمار الأديب العظيم الفائز بجائزة نوبل فى الأدب . وقد ترجم الأستاذ العقاد هذا الكتاب .

وقد حدث أن عرضت مجلة « الإثنين » القديمة صورة للحكيم مع حماره . وطلبت المجلة إلى عدد من الكتاب أن يعلقوا على هذه الصورة .

- فقال كامل الشناوى : إنه إعلان عن كتاب توفيق الحكيم .
- وقال العقاد : ياحمارة الحكيم روحى لحماره !
- وقال مصطفى أمين : اختبر ذكاءك .. أيهما توفيق الحكيم ؟ !

وضحك الحكيم ، ومن بعده ضحك الناس . واحتفظ الحكيم بالحمار ، واحتفظ بهما الناس صورة مضحكة إلى غير نهاية .

ولكن هذه الصورة التى تجعل الناس يحبون الحكيم ويشعرون بأنه مثلهم ، أو أنه دونهم فى الطيبة والسذاجة ، وأنه أضعف منهم أمام الفلوس ، قد أخفت الجوانب الهامة فى حياة الرجل وفى فكره وفى أثره على الأدب العربى الحديث .

فالحكيم مثل طه حسين من أبناء الثقافة الفرنسية . طه حسين قد اختار « المنهج » الفرنسي في الوضوح . . في التحليل والنقد . والحكيم اختار العبارة السهلة واتجه إلى المسرح الفرنسي والموسيقى والفن .

وإذا كان رفاعة الطهطاوى أول أزهرى سافر إلى باريس وبهرته الحضارة الفرنسية وعاد يتمنى لمصر كل شوارع وميادين وحرية وعدالة وعبقرية فرنسا ـ إلا نساءها طبعا ! فإن طه حسين والحكيم كان إشعاعهما الأدبى والفنى على مصر عميقا . فقد حملا المشاعل وأقاما الجسور وضربا المثل الأعلى ، وأرسيا القواعد ثم مضى كل منهما يبدع ويضيف جديدا إلى الأدب والفن .

وتوفيق الحكيم قد جرب كل الأشكال الأدبية : الرواية والقصة والمسرحية و « المسرواية » أى ـ المسرحية والرواية معا ـ والمقالة ، ونظم شعرا أحيانا .

وإذا كانت النكتة أو الفكاهة قد أفسدت علينا أن نرى توفيق الحكيم بأبعاده وأعماقه ، فإن اهتمامنا بمسرحياته وقصصه ، قد أخفى عنا براعته فى كتابة المقال . فهو من أحسن من كتب المقال القصير .

والسهولة والوضوح كثيرا ما كان جناية على الكاتب فكل أصحاب العبارات السهلة والجمل القصيرة كانوا ضحايا هذا الأسلوب : الحكيم فى الأدب المصرى و« ألان » فى الأدب الفرنسى ، و « إدمون ويلسون » فى الأدب الأمريكى ، و « رجيرو » فى الأدب الإيطالى ، و « أونامونو » فى الأدب الأسبانى ، و « هكسلى » فى الأدب الإنجليزى . فالذى يرى دودة القز تأكل أوراق التوت وتجعلها خيوطا من حرير ، يخيل إليه أن هذه عملية سهلة .. فالورق يدخل من ناحية فى هذا الكائن الهلامى ، ويخرج من الناحية الأخرى .. إنها عملية كيميائية شديدة التعقيد . إنها معجزة من معجزات الله . وكذلك من يرى نحل العسل يمتص الرحيق من هذه الجهة ويخرجه عسلا شهدا من الناحية الأخرى ـ سبحان الله ! ومن يرى حيوان اللؤلؤ وهو يفرز هذه المادة اللامعة حول ذرة من الرمل دخلت إلى جسمه فأوجعته .. فراح يعزلها عن جسمه طبقة من الفضة بعد طبقة ، حتى تتكون حبة اللؤلؤ ـ إنها دمعة كبيرة لفنان عبقرى ، بدلا من أن يبكى دمعا بكى لؤلؤا !

وكذلك من ينظر إلى العبارة السهلة ، والمعنى الواضح ، والمنطق المقنع

يخيل إليه أن المعانى هكذا واضحة ، وأن التعبير عنها هكذا سهل .. ولكن الحقيقة أنها ليست كذلك . وإنما هو الفنان استطاع بالموهبة والممارسة والمجاهدة أن يجعلها كذلك . ولذلك لم يلتفت أحد إلى مقالات وأبحاث الحكيم . وإنما اتجهوا إلى النكت المسرحية ، وإلى الإيماءات الإصلاحية والثورية فى رواياته .

والحكيم يعتز كثيرا برواية « عودة الروح » ، ويرى أنها هى البداية لكل ثورات الغضب ، وكل مقدمات الإصلاح فى مصر . ولكن من يقرأ هذه الرواية الآن ، لا يجدها كذلك . فقد تجاوز المجتمع بتغيراته وتقلباته ما كان يحلم به الحكيم من خمسين عاما . ثم إن الحكيم عندما أصدر روايته هذه ، لم يكن قادرا على التصريح ، وإنما اكتفى بالإشارة .. بالتلميح . ولذلك عندما أدرك الأستاذ الحكيم بعد ذلك أن « عودة الروح » قد حققت ما كان يتمناه ، وأن المجتمع فى حاجة إلى يقظة جديدة ، وإلى نهضة .. أصدر كتابا غاضبا بعنوان « عودة الوعى » .. أى عودة الوعى بضرورة عودة الروح !

ولم يكن ضروريا أن يتابع الأستاذ الحكيم الآثار الكاملة لروايته . فهو قد قال كلمته ومشى - أى أنه كأديب ومفكر التزم بقضايا المجتمع ، ولم يسكت . وإنما درس وحلل وقفز إلى الأمام وطلب من الناس أن تلحق به . انتهى دوره . انتهى دور الأديب ، وبدأ دور المصلح الاجتماعى والسياسى . وليس من الضرورى أن يكون الأديب مصلحا سياسيا ، أو ثوريا ، وإنما هو يحس ويعبر . وبعد ذلك تبدأ مهمة القادرين على تحويل الآمال إلى أعمال ، والأفكار إلى آبار ، والأحلام إلى واقع . ثم عاد الأستاذ الحكيم واستأنف الحكم فى كل قضايا العصر .. قضايا مصر والأمة العربية فى كتابه « مصر بين عهدين » . وكان قاسيا على مصر وعلى العرب عندما قارن بيننا وبين الحضارات الأوروبية والأمريكية . والكتاب نظرة إلى الوراء وأخرى إلى الأمام : إلى الوراء فى غضب ، وإلى الأمام فى يأس !

وكان هذا آخر ما أصدر الحكيم . وهو حريص على أن يؤكد أن هذا الكتاب قد صدر أخيرا وآخرا . فلم يعد لديه ما يقوله . انتهى دوره فى الفكر المصرى والعربى . فقد قال كل ما لديه . ولم يعد لديه ما يضيفه .

وهذا طبيعي . فهناك عمران لكل أديب أو مفكر : عمره النفسي وعمره الجسمي .. فهو جسميا قد تجاوز الثمانين . وهو نفسيا وعقليا قد وقف عند الخمسين أو الستين .

وفي التاريخ أدباء وشعراء قالوا كل ما عندهم في العشرين أو بعدها بقليل . ثم لم يقولوا شيئا هاما بعد ذلك . فالشاعر الفرنسي « رامبو » قد نظم كل دواوينه دون العشرين . وبعدها لم يقل شيئا . والشاعر الفرنسي « لوتريومون » قد نظم كل شعره في السابعة عشرة وبعد ذلك لم يقل شيئا له معنى ، وكذلك الشاعر الألماني « نوفالس » .

ومن الممكن أن تكون للأستاذ الحكيم تعليقات على الأحداث . ولكن لن تكون لديه نظرية جديدة . فالنظرية قد جاءت في كتبه . وهو قد أغلق على نفسه باب البرج العالي الذي اتخذه مرصدا لدراسته الناس والتاريخ . والآن بدأ يطل من النافذة أو يسمع منها .. والذي يراه مكرر ، والذي يسمعه أيضا .. ثم إنه لا يريد أن يكرر نفسه .

ولكن من الصعب أن يتوقف .. من الصعب ألا يغضب ، وإذا غضب ألا يشير . وإذا أشار ألا يقول . وإذا قال ألا ينتظر الصدى . وإذا جاء الصدى ألا يرد عليه .

أذكر أنني كتبت مقالا موجها بصورة غير مباشرة إلى أم كلثوم أملا في أن تكف عن الغناء في أيامها الأخيرة . وطلبت إليها أن تقرأه . وكان طلبا غريبا . أما تعليق أم كلثوم فقد كان أغرب . المقال موضوعه : ماذا لوكان الأستاذ العقاد قد توقف عن الكتابة من عشرين عاما وطه حسين والحكيم ، ومحمد عبد الوهاب توقف عن الغناء ، وصلاح طاهر عن الرسم ؟ وقلت : إن الذي قدموه لنا قبل ذلك يكفي جدا أن ننظر إليهم على أنهم ممتازون ، وأنهم من معالم الفكر المصري .. أما المهم وماذا يحدث لو أن أم كلثوم توقفت عن الغناء منذ سنوات .. خمس سنوات ، أو سنتين أو هذا العام ؟ فالذي قدمته قبل ذلك كثيرٌ جدا . وهذا الكثير يجعلها تنفرد بالعظمة في الأداء والغناء . ولكن أم كلثوم لم تفهم هذا المعنى البعيد .

ولابد أن كثيرين قد بكوا على أم كلثوم في آخر حفلاتها ، فقد تقطع صوتها ، وما زالت تتعثر على السلم الموسيقي طالعة نازلة حتى تدحرجت الدموع من

كل العيون .. ولكنها لا تريد أن تتوقف . ولا تتصور أنها لو كانت قد توقفت من عام أو عامين . أو عبد الحليم حافظ أيضا . فالذى قدمته يكفيها عظمة وأبهة . وكذلك توفيق الحكيم .

وفى الخمسينات عندما انتعش مسرح « اللامعقول » أو مسرح « العبث » فى فرنسا ، كان الحكيم أسبق وأشجع جميع المؤلفين إلى « تمصير » « اللا معقول » . فكانت مسرحية « يا طالع الشجرة » ومسرحية « الطعام لكل فم » . وعلى الرغم من أن مقدمات هذا المسرح فى أوروبا مختلفة عنا تماما ، فإن الحكيم لم يفته أن يرتبط بالحضارة الأوروبية ، أو بالإفلاس الروحى فى أوروبا ، وحتى لو كان هناك إفلاس روحى ، فلا يصح أن يكون هناك إفلاس فى التعبير عن ذلك .

ولا شيء يجعل الحكيم أقرب إلى طبيعته وإلى ما انتهى إليه منذ وقت طويل ، مثل مسرح العبث : أى أنه لا معنى للكلام ، ولا للحوار بين الممثل والمتفرج . أو بين المؤلف والناقد ، أو بينهم جميعا وعصرهم . فقد انقطعت كل وسائل المواصلات بيننا ، وليس بيننا إلا الكلمات جسور المعانى .

ولكن لابد أن نمضى ، مهما كان المعنى تافها .. إننا فى نفس موقف طارق بن زياد عند تحوله الأندلس حين قال : البحر خلفى والعدو أمامى .. أى لا عودة إلى الوراء ، وكذلك مسرح اللامعنى واليأس والتشاؤم . لابد أن نمضى فى ذلك ، مهما كان الثمن !

* * *

وقد تأخرت فى معرفة الأستاذ توفيق الحكيم وكذلك طه حسين . فقد انشغلت بالأستاذ العقاد والفلسفة والتحليل النفسى والمنطقى لهذه الدنيا ، وانشغلت بنفسى : أى بالدنيا من خلالى أنا . من خلال ما قرأت وما فهمت . وعرفت الأستاذ الحكيم من بعيد . ثم من قريب . وأحببته وتابعته وأعجبت به . ولكنى لم أتأثر به . لم أدر فى فلكه . ولم تسحبنى جاذبيته الشخصية أو الأدبية . ولما عرفته ، تغيرت « المعلومات الجاهزة » التى جمعتها عنه من الصحف ومن المجلات . ثم أقبلت على قراءته . وعلى فهمه أكثر وأعمق .. وعلى احترامه العظيم .

ومن الصعب أن يكون الحكيم أستاذا لأحد ، فهو ليس صاحب « نظرية » ، وإنما نظريته يطبعها سرا في أعماله ، دون أن يفصح عنها .. فهو مشغول بتوفيق الحكيم . وليس مشغولا بمن يمشي وراءه أو يلتف حوله . فهو فنان وحيد .. أو كما يقول « أندريه مالرو » أديب فرنسا العظيم : إن الفنان يجب أن يكون غازيا مفردا يحمل سلاحه وعلم بلاده ، ويضعه في أى أرض .. ثم يقف مدافعا عنه حتى الموت !

والحكيم لم يحمل سلاحا ، وإنما كان يحمل أعلاما ، يغرسها في الأرض ، ويتركها متجها إلى أرض جديدة .

أما معنى ذلك فمتروك للمؤرخين والنقاد .. وأساتذة الجامعات كلهم أصحاب نظريات ، ولكن ليست لهم تلامذة .. أى ليس لهم حواريون يمشون وراءهم . وإنما الدراسة الجامعية تغرى التلاميذ بالثورة عليها .. على جمودها وعلى قوالبها الجافة . كذلك فعل طه حسين في ثورته على الدراسة الأزهرية ، وكذلك فعل الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني والزعيم السياسي سعد زغلول ومن قبلهم رفاعة الطهطاوى ..

والحكيم كان ثائرا على « التقنين » .. فقد درس القانون وكان وكيلا للنيابة ، ولكنه كان مشغولا بالواقفين أمامه ، أكثر من انشغاله بتطبيق القانون عليهم .. فالمتهمون أمامه هم ضحايا قوى اجتماعية وسياسية ونفسية متضاربة . ومن تضاربها يتطاير الشرر الذى يلتقطه الحكيم ليضىء به المسرح والقصة والرواية !

مرة واحدة جمعت العقاد وطه حسين والحكيم على خط تليفوني واحد . أسأل الواحد ، ثم أعود فأسأل الثاني ، وأسأل الثالث عن رأيه في الإثنين . ونشرت هذا الحديث من عشرين عاما . ثم طبعته في كتاب لي بعنوان « يسقط الحائط الرابع » ... ومن هذا الحديث الفريد في الأدب الحديث ، عرفت كم هي شاسعة المسافة بين هؤلاء الثلاثة المعاصرين ، وكيف أن الحرب والاحترام والتقدير مفقود بينهم جميعا . فكل منهم ينظر إلى الآخر من فوق .. من بعيد ، فيراه صغيرا جدا . فهم جميعا يمثلون قوى متنافرة .. وقد عرفت ثلاثتهم عن قرب وعن حب وعن امتنان عظيم لهم . ولكن أحبهم الحكيم ، وأرقهم طه حسين ، وأعمقهم العقاد . .

والحكيم فنان ، وطه حسين مؤرخ ، والعقاد ناقد .

والحكيم يغنى لك ، وطه حسين يحدثك ، والعقاد ينصحك !

ولا يبقى من ثلاثتهم إلا الفن .. إلا ما هو إنسانى : « شعر » العقاد و « أيام » طه حسين و « سجن عمر » توفيق الحكيم .

ولابد أن المرارة على شفتى توفيق الحكيم سببها أن أحدا لم يقدر دوره التاريخى ، وأن النقاد قد اكتفوا بأنه « رائد » القصة والرواية والمسرحية ، والأستاذ الحكيم يعلم أكثر من غيره أن الأديب يصبح عظيما فقط بعد أن يذهب - مع الأسف - أى بعد أن لا يكون فيسمع ما يقال عنه ، وإن كان الحكيم قد حظى بكل أنواع التقدير والامتنان من الدولة ومن الهيئات الأدبية .. ولكن كل ما قدمته مصر فى السياسة وفى المجالات الدولية ، لم تشفع لها عند مؤسسة « نوبل » فيفوز الحكيم بما فاز به أدباء دونه فى القيمة والوزن .

إنه ليس الأدب هذه المرة ، وإنما هى السياسة !

مرة واحدة أفزعنى الأستاذ الحكيم . كان ذلك من عشرين عاما . فقد عرضت ولخصت واحدا من كتب الأستاذ العقاد . فقال لى الحكيم : ولماذا لا تتخصص فى عرض الكتب الصعبة للعقاد ؟!

تماما كما فزع الشاعر كامل الشناوى عندما كانوا يطلبون إليه دائما أن يلقى قصائد شوقى .. لقد انزعج كامل الشناوى الذى هو شاعر رقيق عميق أن يكون « قارئا » أو « منشدا » لقصائد شوقى ، كأنه ميكرفون ، وكأنه ليس شيئا !

وكأننى أيضا لست إلا قارئا فاهما لمؤلفات العقاد . وتوقفت عن هذه التجربة . وبعملية حسابية قلت لنفسى : مستحيل أن آخذ من عمرى وأضيف إلى عمر العقاد !

وكان امتنانى للأستاذ الحكيم عميقا . فقد ضربنى وفتح رأسى على حقيقة : أننى كاتب أيضا .. أو سوف أكون كذلك !



قال توفيق الحكيم وقلت

قال توفيق الحكيم وقلت..

كانت غرفة الأستاذ توفيق الحكيم مثل « طفاية السجاير » فيها بقايا كل شيء وبقايا الحكيم . فقد تضاءل جسمه ، وانسحب الدم من وجهه ، والبريق من عينيه ، والصوت من حنجرته .. وهذا الذى من فمه يخرج ليس إلا تنفساً يحمل ما يقدر عليه من المعانى .. فالعقل لا يزال يفكر .

ولكن الأستاذ الحكيم ـ بعض الأستاذ الحكيم ـ بعض السرير .. سبحان الله كل هذه العظمة الفكرية والبراعة الفنية والمفخرة القومية ـ كلها تكومت .. تهيأت لأن تكون شيئاً آخر .. لم يبق من وهج الحكيم إلا الشرارة الأولى .. لم يبق إلا ما يدل على أنه كان هنا ، وصار هناك ، أو لم يعد هنا ، ولم يرحل إلى هناك .. شيء فظيع أن ترى عزيزاً عليك يتهيأ للرحيل .. يرحل بعضه وراء بعضه .. رأيت أبى وأمى وأختى والعقاد وطه حسين وعلى أمين وعبد الحليم حافظ والسادات .

كان الأستاذ العظيم عباس العقاد ممدداً على سريره .. كنا نراه أكبر من السرير أكبر من الغرفة .. من البيت .. من مصر الجديدة .. كنا نراه يحتاج إلى جيش من الملائكة : لنقله إلى السماء .. بل كنا نرى السرير نسراً قد ضم جناحيه .. وماهى إلا لحظات حتى يطير بالأستاذ .. ولكنه انتظره حتى يكمل الحديث عن آماله العريضة . قال يرحمه الله : أملى أن أشرح القرآن الكريم شرحا حديثاً .. وسوف أبدأ بسورة الرحمن !

أما المرحوم على أمين فقد قرر كما قال كثيراً : « أن أموت واقفا ! » وحتى عندما كان عاجزاً عن الوقوف كان يستعد لإصدار صحف ومجلات من كل نوع .. وكان يضع مشاريع المجلات والصحف على الأرض ، وينظر إليها نائماً من فوق السرير .. وكان يقول لى : لا تترك أخبار اليوم .. سوف نصدر مجلة « أكتوبر » معاً .. كما أصدرنا مجلة (هى) معاً .. انتظرنى !

وكان الأديب الفرنسى مارسيل بروست يستعجل سكرتيره أن يعيد إليه الصفحات الأخيرة من كتاب فرغ من تأليفه .. وظل يصححها ويعيد كتابتها بسرعة جنونية .. والورق يتساقط مكتوبا على الأرض حتى كانت النقطة الأخيرة من آخر عبارة فى آخر الكتاب .. مع آخر أنفاسه !

والرسام الكبير بليك أمسك لوحته الأخيرة واسمها « أيام زمان » وراح يرسم خطا هنا ، وبقعة هناك .. ويمد ذراعيه باللوحة ليراها أوضح .. وعندما

رأى زوجته تبكي قال : الله .. لم أرك أجمل من اليوم .. قفي مكانك لكي أسجل هذه الصورة الملائكية ..

ورسمها .. ودخل في إغماءة طويلة .. وأفاق ليجد زوجته مازال تبكي .. فقال لها : هات اللوحة .. هات اللوحة .. لقد نسيت أن أوقع عليها !

ووقعها .. ووقع من فوق السرير !

والكاتب الساخر برناردشو عندما زاره الطبيب لآخر مرة ، قال له الطبيب : ولكن صوتك يامستر شو أحسن .. إنك تسعل سعالاً رقيقا .. أنت اليوم أفضل من الأمس ..

قال شو : بل اليوم أسوأ من كل يوم .. أما السعال فقد تدربت عليه طول الليل ..

والشاعر الألماني هينريش هينه فقد كان فقيرا تعيساً . مات وحده في غرفة حقيرة في باريس . وتخلى عنه كل الناس إلا الموسيقار هكتور برليوز .. وبعد مناقشة طويلة في الفن والجمال والشعر والسياسة والمرأة ، التفت هينه فسأل صديقه برليوز : هل خرجوا ؟ فرد عليه : من هم ؟ إن أحداً لم يحضر إليك منذ ثلاثة شهور !..

وكان تعليق هينه : لقد آمنت دائماً . أنك فنان فريد في كل شيء !..

وفي مثل سن توفيق الحكيم أعلن الكاتب الفرنسي شارل سانت . أفرمون : أظن أنني سوف أعيش عشر سنوات أخرى .. فأنا آكل الكافيار صباحاً والاستاكوزا ظهراً وأشرب الشمبانيا ليلاً .. وأنام بعد العمل .. لقد كان شعاري : أن أضحك دائما وأن أكسب كل يوم صديقاً !

أما أبو الفلاسفة جميعاً أستاذنا العظيم سقراط فبعد أن دارت مناقشات طويلة مع تلامذته ، استأذنه واحد منهم لأمر هام . فتساءل سقراط : ما هذا الأمر الهام ؟

قالوا له : إنه ذاهب ليتزوج يا أستاذ .

قال سقراط ، وقد أدار وجهه بعيداً عنهم : من الضروري أن تتزوجوا .. فإن كانت الزوجة طيبة ، فسوف تجعلكم سعداء ، وإن كانت شريرة فستجعلكم فلاسفة !

اقتربت من فم الأستاذ توفيق الحكيم لأسمع ما يقول ، رغم أن فمه امتلأ بالطعام المسلوق ، قال لي : من أنت ؟ ! قلت له . فعبرت وجهه إبتسامة إلى غير رجعة . قلت له : في أي شيء تفكر يا أستاذ ؟ !

قال : آه .. عندما يسألونني .. أنت تعرف أين .. سوف أقول : وأنا أيضا عندى بعض الأسئلة .. إننى لم أعرف ما هى الحكمة من هذا الوجود .. ما معنى هذه الخليقة .. لم تكن كلها خيراً .. ولم يكن الإنسان مؤهلاً لأن يفعل الخير . فالإنسان ناقص التكوين . غير قادر على أن يكون خيرا دائما نافعاً مبدعاً دائماً ، فقد ولد والفشل معه .. ولد والشر معه والضعف معه .. والموت فى دمه ، وكل ما أريده ، ولآخر مرة هو أن أفهم معنى الخليقة .. معنى هذا العمل الفنى الناقص .. ولا إيه رأيك أنت ؟

قلت : إن شاء الله سوف تدخل الجنة يا أستاذ ، إن كتابك عن الرسول عليه الصلاة والسلام يكفى ثمناً لتذكرة الدخول !

وتحولت ضحكته إلى غضب مهزوم ليقول : ومن الذى قال لك إننى أستحق عليه الجنة ؟ ! أنت تقول بمقاييسنا وحساباتنا نحن .. ولكن من يدرى أن هذا الكتاب بالذات هو الذى سوف أدخل به النار جالساً فوق خازوق عظيم !

قلت : إسمح لي أن أتكلم أنا يا أستاذ .. لا داعى لأن ترهق نفسك يا أستاذ . أنا سوف أتكلم بعض الوقت .. أرجوك .. أو إذا كنت تصر على الكلام فسوف أخرج وأتركك للدكاترة ..

وأشار الأستاذ الحكيم بيده بما معناه أن أبقى وأن أمضى فى الكلام . قلت له : الأستاذ العقاد هو الآخر كان مشغولاً بمثل هذا المعنى ..

وكان الاستاذ العقاد يعتقد ان الناس البسطاء جميعا سوف يدخلون الجنة .. أما المثقفون فيدخلون النار .. بعض النار .. اما العلماء والفلاسفة فالنار مثواهم جميعا .. لانهم درسوا وتعلموا وعرفوا .. ولكنهم ضعاف الايمان .. وكان الاستاذ العقاد يقول لنا عندما يعتزم السفر الى الاسكندرية فى الصيف : ان لم نلتق فى هذا البيت ، فالنار مثوانا جميعا ان شاء الله !

وكنا نحن طلبة الفلسفة نضحك لهذه العبارات التى تدل على غضب العقاد وعلى سخريته .

وحاول الأستاذ الحكيم أن يرد أو يعلق ، ولكن اقتربت منه لكى يسكت حتى أكمل عبارتى قلت له : ولكن رحمة الله لن تضيق بك أنت والأستاذ العقاد .. ولا بأحد .. هل تذكر يا أستاذ النكتة التى أطلقها المرحوم كامل الشناوى عندما قال أن العقاد وطه حسين والحكيم وهيكل باشا لن يدخلوا الجنة ، فقد ألف كل منهم كتاباً عن الرسول عليه الصلاة والسلام وكسبوا من ورائه

الكثير فى الدنيا ، فلا مكافأة لهم فى الآخرة .. هل تتذكر يا أستاذ مسرحية الشاعر الإيطالى جيوفانى بابينى التي عنوانها ، غواية الشيطان ، والتى ترجمتها أنا ونشرتها فسرقها بالكامل أحد الوزراء السابقين وجعل عنوانها ، دموع إبليس ، وكتبت مقالاً فضحت فيه دموع السيد الوزير ! فى هذه المسرحية يطلب الشاعر بابينى الرحمة لإبليس .. فقد كان إبليس كبير الملائكة . ولكنه عصا الله . فحكم عليه بالطرد من السماء ، وتساءل الشاعر : هل معقول أن تضيق رحمة الله بواحد من مخلوقاته ، بواحد من ملائكته لمجرد أنه ارتكب معصية !

بل سيعفو الله عنه وسوف يدخله أوسع جناته .. وهاجت الكنيسة على الشاعر وحرمته من دخول الجنة فقد رأته شيطاناً أسوأ من كل شيطان .. فلا خوف عليكم أنتم الأربعة يا أستاذ ..

واختفى الدكاترة وعادوا ومعهم جهاز تسجيل لهذا الحوار مع الأستاذ الحكيم . وكان لابد أن أسكت فقد قرر الأستاذ الحكيم أن يتكلم .. وكان صوته ينطلق مبحوحاً بلا معالم ، مثل نظراته ولفتاته .. إنه مثل مصنع كبير انطفأت فيه الأضواء وسكتت كل الآلات الدقيقة .. ولم يبق إلا حارس المصنع يحاورنى بما لديه من معلومات ضئيلة وصلاحيات قليلة وبما سمع من الأستاذ طالعاً ونازلاً مفكراً ومبدعاً قلقاً ضاحكاً متأملاً غاضباً من ماضينا يائساً من مستقبلنا .. قلت : يا أستاذ ومضى الحكيم يتكلم وكأننى لم أقاطعه : يتبقى هذا السؤال : ما معنى هذه الخليقة .. هذه المقالة .. هذه المقولة .. هذه القصيدة .. هذه اللوحة ؟ ! إننا عشنا وقرأنا ما عاشه غيرنا .. ولكن لم نصل الى فهم دقيق .. فنحن لم نفهم : ما معنى ما جدوى .. ما ضرورة كل ذلك ؟! هذا هو السؤال الذى يسد كل الأبواب والنوافذ .. إنه السؤال الذى يعترضنا .. ويقف فى زورى وأنا سأظل واقفاً فى زوره .. هه والا إيه رأيك أنت .. طبعاً الذى سوف أقابله هو أحد الملائكة .. فأنا أصغر من أقابل الله وربما استطاع هذا الملاك الصغير أن يرد على سؤال الأصغر .. فاذا أجاب وأقنعنى فسوف أشعر بحقارتى أكثر .. لأننى فى مرتبة أقل من أن أكون جديراً بأن أسأل الله سبحانه وتعالى .. أما إذا لم يقنعنى الملاك فماذا أفعل به ؟ هه .. ما رأيك ؟

قلت : يا أستاذ دعنى أكلمك أنا بعض الوقت .. أليس هذا حواراً يا ملك الحوار ؟

واقترب جهاز التسجيل من أنفاس الأستاذ الحكيم .. وتقدمت أنا إلى الأمام : إسمع .. يا أستاذ طبعاً أنت تذكر رواية ، الإخوة كرامازوف ، تأليف دستويفسكي .. في الجزء الثاني منها تقرأ هذه القصة الطريفة البليغة . يحكي أن الناس في مدينة أشبيلية فوجئوا بأن السيد المسيح عليه السلام يتمشى في الشوارع .. المسيح شخصياً .. فخرج الناس من الكنيسة وتركوا الكاردينال الفخم الضخم يصلي وحده .. وغضب الكاردينال وخرج يرى . إنه المسيح فعلاً بثوبه الأبيض حافي القدمين .. مرفوع الهامة .. والناس في ذهول من رؤيته عليه السلام . واقترب منه الكاردينال وقال له في جرأة وغضب : سيدي أنت تعلم أننا تعذبنا كثيراً من أجل نشر دينك .. مات منا الألوف وأحرق كثيرون . ولا نستطيع اليوم أن نطبق تعاليمك التي تقول فيها : لن يدخل الجنة غني ، إلا إذا دخل الجمل من خرم الإبرة .. لا نستطيع .. إن الأغنياء هم الذين بنوا الكنيسة .. ولا أستطيع أن أمشي حافياً وأن ألقي كل مسوحي الذهبية والصليب الذهبي .. أرجوك ياسيدي أن تخرج .. أخرج من المدينه فوراً .. أخرج وإلا ألقيت القبض عليك وحاكمتك بتهمة الخروج على المسيحية .. ثم صلبتك من جديد .. أخرج .

وقال الحكيم وقد عجزت قواه عن رسم مشاعره على وجهه : وأنا أستطيع أن أفعل شيئاً من ذلك مع أحد من الملائكة بالذوق .. سؤال والرد غطاؤه . سوف أقوله له : من فضلك ما معنى هذه الخليقة ، ممكن أن يضعني في النار حتى يتبخر مخي وتتبخر معالم هذا السؤال والأسئله الأخرى .. وبهذا الشكل أتحول إلى ملاك مثله .. ولا عندي أسئلة ولا مشاكل وربما أصبحت أشد سخرية من البلهاء أمثالنا الذين يسألون ولا يتوقعون الإجابة حتى لو لم تكن لها أي معنى .. صحيح ما معنى هذا السؤال ما فائدته ؟! لا معنى له إلا عندنا .. ولكن بعد ذلك فلا أنا سأكون كما أنا .. ولا دنيانا هي الدنيا التي فوق .. تماماً كما تكون مشغولاً بأسعار الخضروات والدولار ، ولكن فوق : لا خضروات ولا دولارات .. وأشار بيده أن أقترب منه جداً ثم قال :..؟!

وسألته : ولمن تقول هذه الكلمة ؟! فأجاب : لله . وضحكت لخفة دم الحكيم حتى في هذه اللحظات التي يختفي فيها الدم والجسم والدنيا ليتحول كل شيء إلى لا شيء ..

قلت : يا أستاذ أنا عندى حل .. وهو أن نعرض قضيتك وهى قضية فلسفية وجودية على محكمة « القاضى ساج » هل تتذكر هذه المسرحية التى عنوانها « وحكم القاضي ساج » للأديب الأسبانى الساخر أرنولدو دياث ؟ أنا أذكرك بها يا أستاذ .. هى مشكلة عمدة طيب مات فقوجىء بأنه ألقى فى النار .. واستطاع أن يظهر فى النوم لزوجته .. وطلب إليها استئناف الحكم فى محكمة القاضى ساج وهو أحكم الناس فى زمانه .. وذهبت الزوجة والأولاد والأحفاد إلى المحكمة .. وترافع أحد المحامين عن العمدة الذى عمل الخيرات وأقام الكنائس وتبرع للفقراء وعالج المرضى مجاناً .. ولم يكذب ولم يسرق .. ولم يغضب من أحد ولا أغضب أحداً . وحكم القاضى بضرورة دخول العمدة الجنة فوراً . وذهب موظف إلى السماء ومعه صورة من حكم المحكمة .. ودق أبواب الجنة . ورد عليه سيدنا رضوان : مين ؟ قال : أنا معى حكم واجب النفاذ أنت تعلمه طبعا .. أو فى استطاعتك لو أردت . قال له رضوان : إنتظر حتى أسأل ..

ثم عاد رضوان ليقول له : الحكم صحيح ، ولكن سوف يتم بعد ألف مليون مليون سنة يقضيها فى جهنم .. ويقول الموظف : ولكن الحكم شامل النفاذ الآن .. ويقول رضوان : « الآن » عندكم غير « الآن » عندنا .. يقول الموظف : الآن عندنا هو الآن عندكم .. أى فى نفس اللحظة التى أقرأ لك فيها الحكم .. قال رضوان : هذا صحيح .. ولكنى محتاج إلى كل هذه الملايين من

السنين لكى أصل إلى مكانه من النار .. وفجأة ظهر موظف آخر من نفس المحكمة بضرورة تغيير بواب الجنة رضوان لأنه يعطل سير العدالة بين الأرض والسماء .. وفجأة ظهر موظف ثالث يطالب بسحب الحكمين معاً فقد انتحر القاضى .. هنا قال رضوان : الحمد لله سوف يجلس القاضى على يمين العمدة فى جهنم .. إنزلوا .. إنزلوا .. وأغلق الباب !

وأشار الأستاذ الحكيم بيده أن إقترب أكثر . واقتربت وهمس فى أذنى وضحكت . وقال : هذا ما سوف أقوله .. أريد أن أرى ما الذى سوف تقوله أنت .. طبعاً كلنا فوق سوف نعرف ما الذى ستقول . وسنعرف إن كان العقاد أو طه حسين أو حسين هيكل قد أعلنوا فوق ما كانوا يرددونه تحت !!

قلت للأستاذ الحكيم : هل تتذكر يا أستاذ أنك أعطيتنى النسخة الوحيدة من كتاب مسرحية « فاوست الثالث » عندما كنت مريضاً فى مستشفى المقاولين العرب .. قال : نعم .. لماذا

قلت : هذه المسرحية التى هى من تأليف شاب مصرى صعيدى من الفيوم وحفيد غير شرعى لشاعر فرنسى هو إبن غير شرعى للشاعر الألمانى جيته .. إن هذه المسرحية تضم محاكمة بين الطبيب فاوست والشيطان مفيستوفلس .. وعندما يتعالى صوت الطبيب والشيطان ينزل أحد الملائكة ليتوسط بينهما ويوقف هذه المعركة التى تسامعت بها السماوات وسكان جهنم والجنة .. هنا يتهجم الإثنان على هذا الملاك ويسألانه ؟ إنه نفس سؤالك يا أستاذ : إشرح لنا من فضلك ما معنى هذا الكون .. ما حكمة هذه الكائنات .. ومتى ينتهى العالم . وكيف تكون هيئة الإنسان بعد ألوف ألوف ملايين السنين .. وهل الإنسان بعد هذه السنين الطويلة سوف يحاسبه الله كما يحاسبه هذه الأيام .. بنفس المقاييس والموازين .. أو هل لكل زمان حساب من نوع خاص .. فالطفل له حساب والرجل له حساب من نوع خاص .. ولما اكتشف الإثنان أن الملاك ليست لديه معلومات إقترحا عليه أن ينتحر معهما .. ويكون هذا الانتحار الجماعى إحتجاجا على ضخامة الأسئلة وضآلة العقل .. أى كيف تصدر عن العقل الصغير مثل هذه الأسئلة العويصة .. ثم كيف يكون الحساب عنها ؟

وسألت الطبيبة التى أمسك الأستاذ الحكيم بيدها : لماذا لم يتوقف عن المضغ مع أنه ليس فى فمه طعام ؟!

فقالت : ولكنه لا يريد أن يبتلع الطعام ..

وعاد الأستاذ الحكيم يردد السؤال الذى لم يجد له حلاً .. هنا أدركت أنه ليس طعاما هذا الذى فى فمه ، وإنما هو سؤال يحاول مضغه أو استحلابه .. ولكن السؤال لاينزل له من حلق .. كما أن الأستاذ الحكيم ما يزال واقفاً فى « زورق » الكون يسحب وراءه كائناً غريباً على شكل علامة استفهام .

وتصدق على الأستاذ الحكيم حكمة بوذا : وراء هذا الأفق كل شىء يقين .. أبدى .. الأسئلة هنا والإجابات هناك !

إننا ندعو الله أن تتوالد أسئلة الأستاذ الحكيم فتكون طابوراً طويلاً يمشى وراءه .. لعله يبقى بيننا أطول ، وفينا أعمق ، ولنا أمتع ، يا أرحم الراحمين !



الذى هو توفيق الحكيم

الذى هو توفيق الحكيم

من السهل أن تكرهه : العقاد .
من الصعب : طه حسين .
من المستحيل : توفيق الحكيم .
فليس له أعداء .. حتى أعداؤه يحبونه فالعقاد يصدمك . وطه حسين يراودك .. والحكيم يضحك على نفسه وعلى الناس .. فهو يضع الطاقية على دماغه ، والعصا فى يده ، ويسحب وراءه حماراً .. وأحياناً يطيل لحيته ، وأحياناً يطيل شعره .. ثم إنه يخفى يديه فى جيوبه دائماً ، خوفاً من أن يراها أحد فيطلب منه مساعدة !
ونحن أسعد حظاً ، فقد عرفنا الثلاثة العمالقة .. أما المفكر فهو العقاد والأديب : طه حسين ، والفنان الحكيم ..
وقد اختلفوا فى كل شىء ..
ولكنهم جربوا المقال وترجمة حياة « محمد » عليه الصلاة والسلام ..
أما العقاد فقد صنع من تاريخ الرسول درعاً محكمة من الحديد ..
وطه حسين جعله عباءة من الحرير ..
والحكيم جعله من التريكو ..
والعقاد إذا كتب عن العظماء ، فهو يتقدمهم ويسحب تاريخهم وراءه . وطه حسين يمشى إلى جوارهم يحادثهم ويجادلهم ..
والحكيم يمشى وراءهم ويدور حولهم ثم يختفى .. وأذكر أننى جمعت العقاد وطه حسين والحكيم على خط تليفونى واحد ، ونشرت مادار بيننا فى صفحة كاملة من « الأخبار » وكان ذلك من ٢٥ عاما ..

أما العقاد فيرى أن طه حسين أفكاره قصيرة وعباراته طويلة ..

وطه حسين يرى أن العقاد إذا تحدث عنك نزع لسانك ووضع لسانه هو ..

أما الحكيم فيرى أن العقاد جسر إلى الثقافة الإنجليزية ، وطه حسين كوبرى الثقافة اللاتينية . أى أنهما ناقلان للحضارة الغربية ..

ويرى العقاد أن الحكيم فنان ، وناقد ، ولكنه اختار أن يكون أراجوزاً .

وطه حسين يرى أن الحكيم يريد أن يتحدث عنه الناس ، ولذلك كانت أفكاره الشاذة .. إنهم ثلاث قمم متقاربة .. إذا نظرت من الواحدة إلى الأخرى لم تجدها بعيدة عنك ، ولا عالية فوقك .. ولكننا نحن نراهم عظماء .. وقد أسعدنا التاريخ بهم .. فبهرنا العقاد ، وحدثنا طه حسين وأمتعنا الحكيم ..

★ ★ ★

وتوفيق الحكيم هو « أبو » القصة القصيرة والرواية والمسرحية والمسرواية . التى هى نوع من الرواية والمسرحية ..

وتوفيق الحكيم هو صاحب أجمل مقال فى الأدب العربى الحديث . وإن لم يكن مشهوراً بذلك !

ولم يشتغل الحكيم بالسياسة مثل العقاد وطه حسين . ولكنه انشغل بالفكر السياسى .. ولذلك كان مسرحه اجتماعياً ، وكانت روايته « عودة الروح » هى أم الثورة المصرية .. ففيها رسم خطوطاً وأطلق نبوءات .. وألقى بذوراً ، وانتظر النتيجة .. وأسعده أن كانت ثورة يوليو تحقيقاً لآماله البعيدة ..

وعندما انحرفت الثورة ، وتحول الثوار إلى طغاة وعاد الشعب المصرى إلى الهوان والذلة والمسكنة ، ثار الحكيم ومعه الأدباء وكتب « عودة الوعى » .. ورأى العالم كله ثلاثة من الأدباء العظماء يتقدمون طوابير الساخطين على أوطانهم : برتراند رسل فى بريطانيا ، وسارتر فى فرنسا ، والحكيم فى مصر .

وحاول الحكيم أن يفعل شيئاً ، فأمسك المقشة وكنس شوارع القاهرة ، أملاً فى أن يكون رمزاً لنظافة الأرض واليد والضمير .. ولم يمسك المقشة أحد من بعده !

وجاءت كتبه فى السنوات الأخيرة دليلاً على قمة اليأس من النجاة والإصلاح .. فقد لخص كل فلسفته فى هذه العبارة : أنظر وراءك فى غضب ، وتمعن فى يأس !

ولكنه لم يتوقف عن المحاولة .. فكان أسبق الأدباء إلى نقل « مسرح اللامعقول » إلى مصر ، فكانت مسرحياته العبثية التى بدأها بمسرحية : « يا طالع الشجرة » .. فغرق المسرح المصرى بمحاولات لا معقولة .. حتى ضاق المثقف المصرى بهذا العبث الذى لا معنى له ، سوى تقليد الحكيم وتقليد الغرب أيضاً

وفى مواجهة الطوفان الدينى حاول الحكيم ما حاوله ابن نوح عليه السلام فألقى بنفسه من السفينة يأوى إلى جبل يعصمه من الماء . وكاد الحكيم يغرق لولا مكانته العظيمة عندنا ، ولولا صدق نيته .. وكان ذلك دليلاً على أن الطوفان أكبر من الحكيم ، والعواصف أعنف من غضب الحكيم ، فقد ذهبت أصداء هذا الحدث ولكن الحدث دليل فى التاريخ ، على أن الحكيم حاول أن يحتفظ بشمعة مضاءة فى قلب العاصفة . فأحرق أصابعه حتى لا تنطفىء الشمعة ولم تنطفىء !

★ ★ ★

لقد أحب الناس توفيق الحكيم ، لبساطته ولأنه قريب منهم ، وبسرعة يكون لك أخاً وأستاذاً وابناً ، فلا هو العقاد قد ارتدى ملابس مدرعة وأمسك سيفاً ، ولا هو طه حسين إمبراطور الأدب . وإنما هو الذى يقبل أن يمتحن مدى بخله وحرصه على الفلوس .. وكيف أنه يساومك حتى لا تشرب عنده فنجاناً من القهوة ، ثم إنه « الموسوس » الذى يخاف من الهواء والأمراض . أى هو الإنسان الضعيف مثلك ، بل أضعف ، مما يجعلك تشعر أنك أقوى وأنك أعلى .. وهو الذى يحب أن يتحدث عن الفلوس !

قال طه حسين : إن الحكيم يحب أن يكون حديث الناس ..

ولكن الحكيم ليس بخيلاً ، وإنما هو رجل فقير دخله محدود .. وهو قد جعل هذا العيب المادى موضوعاً للفكاهة ..

وعندما كان له مكتب فى المجلس الأعلى للفنون ، كان إذا رأى ضيفا نهض واستقبله عند الباب وقال : إشرب قهوة عند يوسف السباعى ، وبعد ذلك أنا فى انتظارك !

وعندما يزوره أحد فى مكتبه فى ، الأهرام ، يبادره بقوله : إشرب قهوه عند ثروت أباظة ، أو صلاح طاهر وسوف تجدنى فى انتظارك !

أذكر أننى سألت إبنه الفنان المرحوم إسماعيل الحكيم : كيف حال والدك ؟ فقال إسماعيل : أدفع له الديون بانتظام !

سألت الحكيم تعليقا على ما قاله إسماعيل فقال : فعلاً .. أنا أجلس أمام باب غرفته ، حتى إذا صحا من النوم طلبت منه أن يدفع الكمبيالات التى عليه وهو يدفعها بانتظام !

أما حكاية الديون هذه ، فهو أن المرحوم إسماعيل الحكيم قد طلب من والده قرضاً ثلاثة آلاف جنيه ليشترى آلة موسيقية .. فوافق الأب بشرط أن يدفع عنه ثلاثمائة جنيه كل شهر .

وكان إسماعيل الحكيم يضحك قائلا : ولكن والدى لا يعرف أننى دفعت القسط مرة واحدة . أنا أعطيه المبلغ وهو يعطيه لوالدتى ، ووالدتى تعيده لى .. ولو نظر والدى إلى الفلوس وأرقامها لعرف أنها هى هى !

وكان الحكيم إذا شرب قهوة على حسابه - ومن النادر أن يحدث ذلك - فإنه يدفعها عند نهاية الشهر ، ويرفض أن يدفعها يوما بيوم .. لماذا ؟! يقول الحكيم : عذاب يوم ولا كل يوم !

وعندما إحتفل الأهرام بعيد ميلاده أخيراً ، إلتف حوله الأدباء يتحدثون عن شخص الحكيم ، وكان تسجيلاً لا يستحق أن يذاع ، فقد وقعنا جميعاً فى مصيدة مداعبة من الحكيم

ولم نتحدث إلا عن بخله وخفة دمه ومداعبة الفتيات الصغيرات له وتهديدهن له بالزواج بالإكراه - كأنه لم يكن أديباً كبيراً ولا ناقداً نافذاً ولا مؤلفاً مسرحياً وروائياً ولا أستاذا للجميع ، ولا ملهماً لجيل كامل من المثقفين ..!

★ ★ ★

أذكر أنني حاولت إغراءه بأن يكتب لمجلة ، آخر ساعة ، وكنت رئيساً لتحريرها فوافق إلا قليلاً ، وعرفت أن السبب هو الفلوس .. فأغريته بمبلغ كبير فوافق .. ثم عدل .. واتفقت مع السيدة صفية المهندس على أن أسجل الحوار التليفوني بيني وبين الحكيم دون أن يدرى . ويفاجأ بإذاعته .. فلم يسمع أحد صوت توفيق الحكيم وكان يعلم أنه ليس محترفاً ، فلا هو مثل طه حسين ولا هو مثل العقاد ، ثم إنه مثل الشاعرين شوقي وإبراهيم ناجي يتهته ، واتصلت بالحكيم واستأنفت المناقشة والمساومة لكى أسجل له الحديث .. وطال الحديث الظريف الممتع . ولكن أجمل ما فيه بعض الجمل والعبارات الساخرة اللاذعة التى لا يمكن إذاعتها ! ثم وافق بشرط أن أدفع له مقدماً ، وأنه لا يتقاضى شيكات . وإنما عشرات الجنيهات يراها ويعدها واحدة واحدة ، وكنت أذهب إليه بالفلوس يعدها أمامي ويضعها في درج مكتبه ويغلق الدرج ثم يعطيني المقال ! ثم ساومته مرة أخرى على أن يكتب مذكراته في مجلة أكتوبر ووافق بشرط أن أدفع له ضعف ما يتقاضاه من الأهرام ووافقت . وقال : مقدما ؟ قلت : مقدماً !

وكنت في حفلة فوجدت إلى يسارى السيدة سميحة أيوب وإلى يميني د . النمر وزير الأوقاف .. وفتحت سميحة أيوب حقيبتها وأخرجت المبلغ .. وقدمته للحكيم وراح يقلب فى الفلوس ويتأكد من أنها ليست مزيفة .. أعادها إليها .. فقد تأكد من صدق النية . ولكنه عاد يسألني : إذا كانت سميحة معها مثل هذا المبلغ فكم يكون عندها من فلوس في البيت ؟.. ثم افرض أنني أخذت الفلوس ولم أكتب ولم أردها لك فماذا تفعل أنت ؟ أو افرض أنك أنكرت وأنا لم أنكر أنني أخذت منك فلوساً لكن فى نفس الوقت أنكرت أننى رأيت سميحة تعطيك هذا المبلغ ؟ ثم ما مصلحتها هي في أن تبادر ؟ وافترض أن الشيخ النمر رأى سميحة تعطيك المبلغ ولكنه لا يعلم أن هذا المبلغ من أجلى ؟ وافرض أن وزير الثقافة منصور حسن رأى سميحة تعطى الفلوس للشيخ النمر ، ولم يرك ولم يرنى . ووقفنا جميعاً وحلفنا أمام القاضى .. وقلت أنا : لم أتقاض وقلت أنت : ولا أنا .. والشيخ النمر قال : ولا أنا وقالت سميحة على سبيل تعقيد الموقف والدعابة : ولا أنا دفعت ! ثم جاءت ممثلة مغمورة تريد أن تكون حديثاً

للصحف والإذاعة والتليفزيون وقالت : إننى تعمدت أن أضعها عند قدمى سميحة أيوب .. فهل من حق رجال الأمن فى فندق هيلتون هذا أن يطالبونا برد هذا المبلغ إلى أن يظهر له صاحب ؟!..

توخنى توفيق الحكيم .. ولكنه كتب عدداً من المقالات فى مجلة « أكتوبر » وبنفس الشروط وبنفس الطريقة التى حددها .. ثم اتصل بى الحكيم وقال لى : الآن يجب أن أتوقف ..

فقلت : لماذا ؟!

قال : أنت الآن تكتب سلسلة فى صالون العقاد وتهيىء الجو الأدبى والفلسفى لقضايا كبرى تصنع منها التاج والصولجان وتنصب العرش للعقاد وأنا أجعل من نفسى بهلواناً ليضحك الناس ؟! كفى !

وانضم توفيق الحكيم إلى هؤلاء العباقرة الذين لم يحصلوا على جائزة نوبل فى الأدب : تولستوى وتشيخوف وجوركى ومارك توين وأبسن وهاردى وريلكه وشرندبرج وبروست وبرشت وفاليرى وأوكيشي وكازانتزاكس ومورافيا ..

والحكيم مثل العقاد يكتب على ورق صغير وله خط دائرى واضح .. ويكتب بالحبر الأزرق وكان العقاد يكتب بالحبر الأخضر ثم الأحمر .

والحكيم يقول : لقد كان العقاد احكمنا جميعاً .. كان يأكل الطعام المسلوق وطه حسين يأكله نصف مسلوق ..

ومات العقاد آكل المسلوق من ٢٣ عاماً ، ومات طه حسين آكل نصف المسلوق من ١٤ عاماً .. مات الحكيم سنة ١٩٨٧ .

وقد نصح الأطباء توفيق الحكيم بأن يمسك عصا .. لتكون خطوته منضبطة وبذلك ينتظم التنفس والدورة الدموية وتكون خطوته أبطأ فلا يعرق كثيراً ، لأنه يتعاطى قرصين من الأسبرين يومياً .. والحكيم يسخر من الأطباء قائلا : الآن لا أستطيع أن أحمل العصا ، ولكن أعطيها لمن يمشى إلى جوارى .. فإذا رأيت الطبيب من بعيد ، سارعت وأمسكت العصا ..

وكان الأديب الفرنسى الكسندر ديماس يشكو من الأرق فنصحه الأطباء أن يأكل تفاحة فى الساعة السابعة صباحاً تحت قوس النصر .. لكى يصحو

فى مواعيد محددة ويأكل طعاماً واحداً وفى مكان واحد . تنظيماً لليقظة والمشى والأكل والهضم والتنفس .. وكان ديماس ينفذ تعليمات الأطباء حرفياً ، يأكل التفاحة فى الساعة السابعة وقد وضع صورة لقوس النصر فوق رأسه ، ثم يدير ساعته إلى السابعة ويكمل الأرق حتى الصباح !!

هل تعرف ما الذى قاله توفيق الحكيم عندما زرته فى مستشفى المقاولين العرب .. وكان مريضاً .. سوف أقول لك ..

وبالمناسبة فهذه هى أيضا آخر كلمات هؤلاء النابهين .. قالوها عندما اشتد عليهم المرض . وعاشوا أيضا بعدها : كانت آخر كلمات العالم دارون : لا أظن أننى أخاف الموت ..

والشاعر جيته : مزيداً من الضوء ..

أوسكار وايلد : مزيداً من الشمبانيا فسوف أموت كما عشت فادح التكاليف .

برنارد شو للأطباء : يحاولون أن أعيش أطول .. لا داعى .. أتمنى أنا .. سوف أموت حالاً .

لورد بيرون : يجب أن أنام الآن !

أبسن : أنا لا أتحسن .. انتهى ..

تولستوى : ولكن كيف يموت الفلاحون يا ترى !

سقراط : أنا مدين بديك نذرت أن أذبحه .. لا تنسوا الوفاء بالنذر .

روسو : أريد أن أرى الشمس لآخر مرة ..

رابليه : أنزلوا الستار .. لقد انتهت المهزلة .

فولتير : دعونى أمت فى هدوء

الشاعر هينه : أترك ثروتى لزوجتى بشرط أن تتزوج فتأتى برجل يرثى لحالى .

نيوتن : لا أعرف ما الذى سوف يقوله العالم عنى ، ولكنى أرى نفسى مثل طفل صغير كان يلعب على الشاطىء فيعثر على ظلطة ناعمة من حين إلى حين ويسعده ذلك .. بينما المحيط الشاسع الواسع يظل مجهولاً ..

أفلاطون : إني أحمد الله أن ولدت رجلاً ولست امرأة ، إغريقياً ولست همجياً ، وإنني عشت في عصر سقراط ..

أما الذي قاله توفيق الحكيم وكان شاحب الوجه مرتجف اليد منطفيء العينين ، تخلى عنه لحمه وشحمه حتى صار الهيكل العظمي لتوفيق الحكيم : من الذي سيدفع تكاليف العلاج ..

وقبل أن أضحك وجدت شعاعاً خافتاً من شفتي الحكيم وعينيه .. إنه مشروع إشارة مرور إلى الطريق إلى قلبك .. إن الحكيم ما يزال يضحك أو يحاول ذلك رغم صعوبة الموقف !



توفيق الحكيم ينظر
وراءه راضيا وأمامه يائسا

توفيق الحكيم ينظر وراءه راضيًا وأمامه يائسًا..

لن يكون الأستاذ توفيق الحكيم سعيدا ، إذا وصفت كتابه الأخير ، مصر بين عهدين ، بأنه أروع الدراسات الحضارية التى كتبها . وسوف يكون غضبه لا بسبب أننى امتدحت كتابا يستحق عظيم التقدير ، ولكن لأننى وصفته بأنه ، دراسة ، . فالحكيم لا يحب أن يوصف بأنه باحث أو دارس أو أنه قرأ مئات الكتب . فهو يخاف أن يوصف بأنه قد تأثر بأحد . إنما هو فنان . أى مبدع .

بعض النقاد يخنقون مجال ، الإبداع ، فيتوهمون أنه خاص بالقصة والقصيدة . وما عدا ذلك من أشكال الأدب ليس إبداعا . فالذى كتبه طه حسين عن السيرة النبوية وعن أبى العلاء والمتنبى إبداع فى الشكل والتناول والأسلوب . وما كتبه العقاد عن العبقريات وعن ابن الرومى ودواوينه ودراساته النفسية والجمالية إبداع أيضا . والقصة أو المسرحية لا تختلف عن ذلك ، فهى تلتقط من الواقع وتعيد صياغته . وتكون زاوية الالتقاط والأسلوب هما الإبداع . وكذلك كل اللوحات الفنية والتماثيل والموسيقى : من الواقع الإنسانى أو الواقع الشخصى ثم ننقلها إلى الناس .

وهذا الرأى للحكيم هو الذى جعله يضع طه حسين دونه بقليل ، ويضع العقاد دونهما بكثير . فالحكيم عندما يتحدث عن حركة التنوير فى العشرينات يرى أنه تزعم التنوير فى الفن ، وطه حسين فى الجامعة ، والعقاد فى المطالعات . مع أن طه حسين لو يدخل الجامعة لكان قد زلزلها من خارجها . ومع أن العقاد لم يلتحق بالجامعة ، فإنه هو الآخر قد هز أركان النقد الأدبى والفكر الجامد ، وأدخل منهجا جديدا فى نظريات الشعر ودراسة الشخصية الإنسانية وفهم التاريخ .. ولذلك لا يعتز الحكيم كثيرا بما كتبه هو من دراسات ومقالات . مع أنه من أحسن وأبرع من كتب المقال فى الأدب العربى الحديث . فعبارته سريعة رشيقة شفافة قاطعة .

وكتاب « مصر بين عهدين » أجمل وأمتع وأعمق ما كتب توفيق الحكيم . ففي هذا الكتاب (٢٤٠ صفحة) خلاصة نظرته الطويلة العميقة إلى مصر والمصريين والحضارات الفرعونية والهندية والإغريقية والعربية . والحكيم بنظرته الشاملة إلى الأدب واللوحات والتماثيل والأهرامات والمعابد والكنائس والموسيقى ، يؤكد لك اقتداره على استخلاص المعنى الواحد من أشياء كثيرة مختلفة . منتهى الذكاء والبراعة : فقد ارتفع كعصفور يلقي نظرة قريبة من مصر ، ثم تحول إلى نسر يدير عينيه فوق الحضارات . ومن كل ذلك يتأكد لديه : أن مصر القديمة أقوى وأرسخ وأعمق .

وقد لاحظ في شبابه في محافظة البحيرة أن في مصر ثلاثة أنواع من الناس : الأتراك والبدو والفلاحون . التركي العثماني هو الحاكم السيد ، والبدوي هو الذي يعيش على الحدود المصرية يحميها ، وفي نفس الوقت لا يخضع لقانونها .. ثم الفلاح « المصري » الذي يزرع الأرض ويقدم الطعام للذين يتعالون عليه ويحتقرونه . فالبدوي يرمي إبنته للتمساح ولا يزوجها لفلاح . كما يقول المثل . والتركي يرى الفلاح إنسانا قذرا ..

ولم يسأل المصريون عن هويتهم ، ومن هم ؟ . وما هو المصري ومن هو المصري ؟ . وأين هو ؟ . إلا بعد ثورة ١٩١٩ ، وإلا بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى . ذهب الوفد المصري يطالب بمصر للمصريين . أي باستقلال مصر ، وهذا ما أراده توفيق الحكيم في روايته « عودة الروح » سنة ١٩٢٦ . أراد أن يبين : أين الروح المصرية ؟ . وكيف تظهر ؟ . وما شكلها ولونها وحجمها ؟ .. وما رائحتها ؟ . والروح والريحان والرائحة بمعنى واحد . والحكيم لذلك لا يتقدم « بدراسة » عن الشخصية المصرية ، إنما هو يشم رائحة مصر . أي يشم روح مصر .. معتمدا في ذلك على تجربته الشخصية والفنية في مصر وبعيدا عن مصر .. في باريس كما فعل رفاعة الطهطاوي قبله بمائة عام . والحكيم قد سمع كلمة « الفن » ولايزال يردد ذلك ، من عوالم الأفراح والمزيكاتية والمشخصاتية والصعاليك ، من دراويش الفنون الشعبية والمسرحية ..

وأول شيء بهر رفاعة الطهطاوي في فرنسا : مائدة الطعام ونظافة الشوارع .. فقد لاحظ أن الناس يجلسون على مقاعد وليس على

الأرض . وأن « طبلية » عالية يضعونها أمامهم . وأمام كل واحد طبق خاص وكوب خاص . وشوكة وسكينة وملعقة . وأن كل واحد يغرف لنفسه من طبق كبير .. أما الشوارع فيستخدمون عربات الرش التى لها ثقوب يخرج منها الماء بقوة وتجرها الخيول .. وأما المرأة فى المقاهى فالإنسان إذا وقف إلى جوارها فإنه لا يبدو منبعجا .. إنما يظهر كما هو . أما الحكيم فقد بهرته المسارح والمتاحف وقاعات الموسيقى والكتب على الأرصفة ودور السينما وبائعات التذاكر .. ولاحظ أن الفرنسيين إذا شاهدوا فيلما للعمليات الجنسية فإنهم ينظرون إلى ذلك بجد : لا حركة .. لا همس .. لا ضحك . إنهم جادون . يريدون أن يعرفوا . وإذا عرفوا بحثوا . وإذا بحثوا طبقوا . وإذا طبقوا أتقنوا . ونحن لا نعرف الإتقان فى شىء . وإذا كانت المرأة الأوروبية قد رفعت الحجاب ، فإن المرأة المصرية مازالت تضعه على وجهها ، والرجل مايزال يضعه على عقله .

أيضا لا نعرف « الصيانة » . فالفرنسيون إذا أنشأوا عمارة ، جعلوها متينة كأنهم سيعيشون أبدا . أما نحن فنجعلها من الطين كأننا سنموت غدا . ولذلك فهم

لا يرممون عماراتهم القوية ، ونحن لا نرمم عماراتنا المنهارة !

ومضى توفيق الحكيم يرقب ويحلل وينفذ إلى ما هو أبعد وأشمل وفى عينه مصر وفى خياله وآماله .

واهتدى الحكيم إلى أن ملامح الروح المصرية : العلم والإيمان والفن معا . فالأهرامات الفرعونية : عمارة وهندسة وفلك وكهانة وإيمان وأسرار .. وفى العهد المسيحى : كانت الأديرة والكنائس والمكتبات واللوحات والأيقونات .. وفى العهد الإسلامى : المساجد وأعمدتها وزخرفتها وحلقات لدراسة الدين والطب والفلك ..

ومن مظاهر الحضارة المصرية : الشمول والاستقرار .. بينما الحضارة الأوروبية تجىء على شكل موجات : موجة إيمان وتعصب .. وموجة إلحاد وكفر .. وموجة تطور صناعى مادى .. وموجة تمرد على الآلة والصناعة ورفض لكل شىء .

ولم يكن الحكيم فى حاجة إلى أن يسافر إلى مصر من حين إلى حين ، إنما

كان له صديق إسمه د . سعيد .. هو مصر كلها . فهو يضع المصحف إلى جوار الميكروسكوب ولا يقرب الخمر ولا يبعد عن النساء ! . وعندما عاد د . سعيد إلى مصر أقام فى بيت به عدد من قوات الاحتلال البريطانى . وكانوا يصرخون كلما فتح الراديو على القرآن الكريم وكانوا يقولون له : كفى موسيقى ! . فبعث بخطاب إلى السفير البريطانى . وانزعج السفير . وخشى أن يؤدى ذلك إلى ثورة دينية . إلى هذه الدرجة كان متمسكا بالدين والعلم معا .

وكان د . سعيد هذا لا يفهم كيف يكون الحكيم مؤمنا ومتفلسفا أيضا ؟. أى كيف يؤمن بالله ويتساءل عن معنى ذلك ؟. ويكون رد الحكيم معناه : أنه ولد وفى داخله هذا الجهاز الدقيق الذى لا يكف عن التساؤل .. أو أن فى داخله زرارين . واحد إذا ضغطت عليه سمعت من يقول : أؤمن بالله .. وزرار آخر إذا ضغطت عليه سمعت من يقول : ولكن لماذا ؟

ومن ملامح الروح المصرية : التسامح . فلم تعرف مصر المذابح الدموية بين أبناء الديانات المختلفة ولا بين أبناء المذاهب فى الدين الواحد . وفى أوروبا مازال الحرب دموية بين أبناء الدين الواحد ، وبسرعة انزلق المصريون من التسامح إلى التساهل .. « والتساهل هو الوجه القبيح للتسامح » .. فلم يعد أحد يهتم كثيرا بالحقوق والواجبات ، أو بالبحث والمعرفة والدقة الواجبة والصيانة اللازمة ، أو التنوير والتطوير .. ويكون الرد على التساهل هو : معلهش . ومعناها ما عليه شىء .. ما على أحد شىء إن لم يفعل ، وبذلك تدهورت وتدحرجت مصر إلى حفر التخلف وكهوف الجهل !

وكان بعض الناس يعتقد أن الغيبيات والإيمان بها ، من ملامح الشخصية المصرية وحدها . ولكن صحف باريس تنشر « البخت » وفى شوارعها من يقرأ الكف والطالع . فهل حدث ذلك لأن اضطرابا ما قد أصاب العقلية الأوروبية بعد الحرب العالمية الأولى ؟ . أو هل السبب أن العقلية الأوروبية تبحث عن مسالك أخرى لما وراء الحياة والعقل ، أو أنهما معا ؟ . ومع ذلك ففى فرنسا كانوا ينظرون إلى هذه الغيبيات ، وإلى القوى الخفية كالحاسة السادسة ، نظرة علمية . إنهم يريدون أن يعرفوا . ولذلك فتناولهم لمثل هذه القضايا علمى فى الدرجة الأولى . وليس تصديقا كاملا ، كما هو عندنا .

وقد أثرت الحضارة المصرية فى الحضارة الأوروبية . لاشك فى ذلك . بتداء من اكتشاف الفرنسيين لحجر رشيد . فبعد ذلك إنفتحت لهم وعليهم كنوز لحضارة الفرعونية القديمة . وظهر ذلك واضحا فى الفن . وبعد الحضارة الفرعونية إتجهوا إلى الحضارة الإفريقية السحرية ، والأساطير القديمة . وقد ظهرت وقامت الرومانسية الأوروبية كلها على الهجرة إلى بعيد والاختفاء فى لقارة السوداء والاعتصام بالسحر القديم ..

ومن خصائص الروح المصرية أيضا : الشعور بالبقاء . أى بالإستقرار والإستمرار . فالمصريون على أرضهم هذه من ألوف السنين ، تغيرت الدنيا حولهم ، وبقوا كما هم . جاء غزاة وخرجوا . وظلوا على أرضهم . والفراعنة قد اكتشفوا نوعين من الكتل : الحجارة والشعب . وإذا كانت الأحجار تآكلت واحتاجت إلى من يرممها ، فالشعب أيضا .

(وفى الحضارة الهندية اكتشف الزعيم غاندى أن أعظم قوة هى التكتل الشعبى .. يضعه أمام سيارات الإنجليز وقطاراتهم وجيوشهم .. فيجدون أنفسهم عاجزين عن تحطيم هذه الكتلة البشرية .. وإذا أمسك كل هندى حبة ملح من ، ملاحات الإنجليز ، أفلست الملاحات ، وهذه هى المقاومة الشعبية . كلام جميل قرأته أخيرا للكاتب الكبير كامل زهيرى) .

وكلما مضيت فى كتاب الحكيم بهرتك روعة التحليل وإشراقة العبارة ونفاذ النظرة ، وارتفاعه الشاهق فوق الحضارات ، والتصاقه الدائم بمصر .

وأجمل صفحات الكتاب جميعا هى العشرون الأخيرة . فقد إستطاع الحكيم بخطوط سريعة وأحكام قاطعة أن يفصل بين الحضارات المصرية والإغريقية والهندية .. والعربية . فالذى كتبه هنا فى عشرين صفحة من الممكن أن يكون ممتعا فى ألف صفحة . وهو أكبر دليل على الإطلاع الواسع والتأمل الطويل والتذوق السليم .

ويختار الحكيم التمثال شاهدا على الفرق بين حضارة مصر وحضارة الإغريق . فالتمثال الإغريقى عريان دائما . والتمثال المصرى يضع قماشا خفيفا . والسبب هو أن المصرى يجب أن يكون خفيفاً مثل الروح ، والإغريقى يجب أن يكون واضحا مثل المنطق .. والفنان المصرى لا يهمه جمال الشكل

ولا جمال الطبيعة ، ولكن تهمه الفكرة . وهو لذلك ترك الحجر يقول كلاما كثيرا . والمصرى إلهى سماوى . وكل شيء عنده قد هبط من السماء ، وهو لذلك لا يجد ضرورة للكفاح . وكل شيء متوافر عنده . ولذلك فهو آمن على يومه وعلى غده . ولذلك نام أبناء الحضارة المصرية والهندية تحت الأشجار المقدسة ، يحلمون بما وراء الحياة .

وقد قامت حضارة مصر على الروح لأنها شبعت من المادة . أما حضارة الإغريق فهى لم تشبع من المادة . فبلادهم جافة . والحياة قاسية . وصراعهم مع الجبال والبحار طويل . ولذلك حاربوا وكانت لهم غزوات فى كل القارات . فلا عرفوا الأمان ، ولا وجدوا الإستقرار .

أما المصريون فلم يعرفوا إلا الإستقرار . بل إنهم جاءوا من بعيد . بل لا أحد يعرف من أين جاء المصريون ؟ . ولا كيف ظهرت الحضارة الفرعونية هكذا متكاملة مرة واحدة ؟، كما يظهر قرص الشمس كاملا عند الشروق ..

والحضارة العربية تشبه الحضارة الإغريقية : ففيها قلق وحركة والبحث عن المادة واللذة وزخرف الحياة . وعرف العرب الحروب والغزوات .. بل كانوا أسرع الغزاة في التاريخ . ولأنهم لم يعرفوا الإستقرار فلم يعرفوا التأمل ، ولأنهم لم يعرفوا التأمل لم يعرفوا فنون الأساطير .. ولم يعرفوا أيضا البناء . إنما عرفوا زخارف البناء ، وزخارف النثر والشعر . فالفن فسيفساء . والشعر أرابسك . والغناء تموجات وإنحناءات وإنكسارات وتقاسيم .. وسيد درويش ذلك الفنان العبقرى هو أول من أدرك أنه فى حاجة إلى الدراسة لكى يغير شكل الأغنية والموسيقى . ولذلك تمنى أن يسافر إلى إيطاليا ، ولكن أحدا لم يتنبه إلى هذا .. إلى أحلام هذا الرجل !

وبعض المؤرخين يرى أن الدين هو الذى منع العرب من أن تكون لهم لوحات وتماثيل وعمائر . ولكن العرب لم يكونوا هكذا متمسكين بالدين ، فقصور الخلفاء والوزراء عرفت المجون والخمر وكل المحرمات . والشعر العربى يصف لنا كل ذلك فى أروع وأجمل صور البديع .. وإنما الرسم والنحت والعمارة فى حاجة إلى فهم شامل وتأمل طويل وتذوق جمالى مختلف ووعى وإنسجام داخلى .. بل إننا لم نجد بين الكتب العربية كتابا واحداً عن موضوع واحد ، فكل الكتب فهارس وكشاكيل ! .

ويرى الأستاذ توفيق الحكيم : أن مصر والعرب متناقضان . فمصر هي الروح والسكون والإستقرار والبناء . أما العرب فهم : المادة والسرعة والزخرف .

وتمنى الأستاذ الحكيم لمصر والعرب أن يتزاوجوا : روحا ومادة وقلقا وسكونا . . وقد استطاعت الحضارة الإغريقية أن تحقق ذلك مرة واحدة !

ولابد أن تقرأ كتاب الأستاذ توفيق الحكيم مرة أخرى . لأنه قد سحرك وبهرك وشغلك عن مناقشة كل أحكامه المطلقة . وأنا قرأت المقدمة والفصل الأخير مرة أخرى . وقد أمتعني الأستاذ الحكيم وأسعدني ، ولكن لابد أن أختلف معه في كثير من أحكامه ومقارناته الخاطفة ..

• • •

ومن ستين عاما لم يكن الأستاذ الحكيم متفائلا ، فقد جاء في رسالة له من الإسكندرية يقول :

« أود لو أكتب إليك بأخباري ومشاعري ، ولكني أراها لا تساوي شيئا كلها ، أهي شيء غير إطراق طويل وابتسامة حزينة ، كلها رأفة ورثاء لكل ما يقع أمامي هاهنا ، ويأس قاتل وتمزق دائم ، وأيام تجري كالدموع الباردة ، وحياة أتمنى ردها لخالقها إن لم يعطني حق استعمالها كما أريد ؟.. هل تراني مستطيعا أن أكون شيئا غير ذلك الآن ؟ » .

ولكنه بعد ذلك قام بحركة « التنوير » التي أرضته وأسعدته وأسعدتنا ..

أما في نهاية الكتاب وفي الثمانينات يزداد الأستاذ الحكيم تشاؤما . فهو قد اختلف مع طه حسين في أن « التعليم كالماء والهواء » . أي يشمه الناس ويشربونه ، ولكنهم لا يستطعمونه أو يتعمقونه . وكان من نتيجة ذلك : محو الأمية على أوسع نطاق ، وتوزيع الشهادات على عشرات الألوف ، دون أن يؤدي ذلك إلى تنوير مصر وتكوين شخصيتها ، ودفعها إلى الأمام ..

« فمصر الخالدة قد تكونت شخصيتها على مدى العصور ، من العهد الوثني إلى العهد الإلهي بأديانه الثلاثة الموسوية والمسيحية والإسلام ، فترسبت في قلبها كل حضارة الإنسانية ، وعرفت في عهد من عهودها ما شاهدته أنا في

« الكوليج دى فرانس » من دخول أى شخص إلى الأزهر الشريف ، يستمع إلى عالم جليل يستند إلى عمود المسجد ويلقى علمه على الناس المجتمعين حوله ، ولا هدف لهم من شهادة أو وظيفة أو أى مطلب من مطالب الحياة المادية ـ لا شىء إلا تلقى الضوء الذى ينير عقولهم وقلوبهم .. لم يعد هذا موجودا اليوم . فالعلم والتعليم للحصول على الشهادات والدرجات .. أما التنوير الروحى والعقلى لتكوين الشخصية ، فلا نفكر فيه .. حتى الجامعة العصرية التى تدخل كل بيت واسمها « التليفزيون » ، إن هى إلا أداة تنوير وتكوين .. ويرحم الله الشخصية المصرية والأسرة العربية الكبيرة .. »

ولكى يؤكد لنا الأستاذ الحكيم من أين بدأ وإلى أين انتهى ، فإنه يضع فى فصول الكتاب فصلا بعنوان « العوالم » .. هذا الفصل الذى يراه « إبداعا » فنيا هو : مطب .. بركة .. مستنقع .. حظيرة فى طريقك إلى القبة السماوية .. إن الأستاذ الحكيم قد مسح بالقارىء أرصفة القاهرة وقليوب وطنطا ورصيف سيدى جابر ليؤكد لك بالكلمة العامية والإشارات الشعبية .. أن هذا هو « المزود » الذى ولد فيه .. وأنه بعد ذلك قد ارتفع إلى سماوات باريس وأثينا ومنف .. أو أنه أراد أن يقنعك « عمليا » أنه من هذا الوحل أو هذه الأسمدة العضوية التى تنمو منها أجمل أشجار التفاح ـ ممكن .

ولكن يستحيل أن يخرج الأستاذ توفيق الحكيم بشىء من وحل شارع محمد على إلى « شارع الشانزليزيه الفكرى » دون علم وثقافة ودراسة ودون موهبة ـ فقد استعان الأستاذ الحكيم على « العوالم » بالعلم والفن ..



اصبحت من اهل الكهف

أصبحت من أهل الكهف ..

لقاؤنا كان منذ ثلاثة شهور ، على أن يجيء فصلا فى كتاب جديد يصدر قريبا .. وقد رأى الأستاذ الحكيم أن أنشره فورا .

كل الذين زاروا الحكيم جاءوا يقولون لى عبارة واحدة : يا أخى إن الرجل يسأل عنك . إذهب لزيارته !

أى أننى مقصر فى أداء هذا الواجب لأستاذ وصديق عزيز .. فكأننى لم أقصر فقط ، بل إن الحكيم قد غضب ، ثم إنه نبهنى إلى ما هو واجب .. وهو يشهد كثيرين على ذلك .. وعندى أسباب . فكل الذين رأوه يصفون عوده الذى إلتوى وإنكسر .. يحزنون على أستاذ الحوار كيف أنه أصبح عاجزا عن الكلام .. وأنه يتعذب بسماع الناس يتكلمون وهو غير قادر على ملاحقة ذلك .. وأنه لا يرى أحدا أو لا يصح أن يرى ويسمع .. فانسحب الناس ، كما انسحبت كل الألوان ، فلم يبق إلا اللون الأصفر لوجهه وعينيه ..

ولابد أن أراه .. وأن أنعش كل أنواع العذاب والوجع لقلبى ورأسى .. فأبى عندما مات طلب أن أراه .. ورأيته وهمست فى أذنه أننى نجحت فى الليسانس وكان ترتيبى الأول ليقول أبى : مبروك ياولدى ..

وبعدها يموت !

وأمى كنت مسئولا عن أن تفقد الوعى بى وبالدنيا .. وكل ما أذكره قبل وفاتها بأيام أنها أوصتنى بمكان أدفنها فيه .. بعيدا عن كذا وعن فلان .. وألا يمشى فى جنازتها فلان وعلان .. وشكرت الأطباء فقد خدروها حتى ماتت ، وهى لا تعرف ذلك !

ويوم رأيت الأستاذ العقاد مريضا وميتا ..

ويوم زرنا طه حسين لآخر مرة نناقشه فى التليفزيون ، ويوم حملته مع سكرتيره على مقعد من الطابق العلوى إلى الطابق الأرضى .. وهمست فى أذن المخرج التليفزيونى أنه لو مات طه حسين وهو يتحدث إلينا ، فيجب ألا يهزه ذلك ، بل يمضى فى تصوير هذه اللحظة التاريخية . أى أننى لن أسارع إلى إنقاذ طه حسين أو محاولة ذلك ، وإنما سوف أمنع الآخرين من التزاحم حول طه حسين حتى يموت واضحا على الشاشة ! وقد أخجلنى هذا الموقف اللا إنسانى بعد ذلك !

ويوم سافرت إلى الاسكندرية عندما عرفت أن الشاعر عبد الرحمن شكرى الذى قيل أنه مات فى بورسعيد من عشرين عاما ، ما يزال حيا ، قابلت الشاعر الكبير . وكان ينتظرنى بطربوشه ومنظاره .. الرجل نحيف هزيل . الغرفة ألوانها فى لون بشرته وجزمته وملابسه وشفتيه : باهتة .. ميتة .. وعلى استعداد لذلك فى أية لحظة !

وكتبت عنه ..

وبعدها بأيام مات الرجل . فكأن الرجل عاش سرا عشرين عاما ، وأنا الذى جعلت وفاته علنا !

ونقلت للأستاذ العقاد نبأ العثور عليه ، ثم نبأ وفاته .. وسمع النبأ وبكى فى التليفون ، فأحزننى حزن العملاق فبكيت لبكائه !

ويوم ذهبت للقاء شاه إيران فى قصر القبة بالقاهرة ، كنت آخر من أجرى معه حديثا وآخر من رآه .. كان الشاه كما رأيته قبل ذلك فى مهرجان قورش ، مشدود القامة .. كل شىء فيه مشدود .. القوام والعنق وشعر الرأس .. والأنف .. قال لى الشاه : أنا أعرف أننى سوف أموت .. هذه حقيقة علمية .. ولعلك تلاحظ أن شعرى يتساقط .. وأننى أتساقط من الداخل .. تماما كأننى إيران .. وكأن السرطان خومينى !.. وأحزننى الذى رأيته ، فلم يكن فردا ولا إمبراطورا وإنما إمبراطورية !

ويوم ذهبت إلى مستشفى المعادى لأرى كيف يتمكن الأطباء من إنقاذ الرئيس السادات بعد إطلاق الرصاص عليه . وفى المستشفى وجدت الرئيس مبارك . سألته قال : ربنا كريم ..

ولقيت السيدة جيهان السادات قالت : ربنا كريم ..

لم أسأل ممدوح سالم : كان قد ذاب دمعا . سألت الأطباء .. قال لى صديق : أنه يحتاج إلى معجزة .. ولم يرد عندما قلت له : هل أستطيع أن أراه ؟..

دخلت ورأيت ما لا أزال أندم عليه .. لم أجد إلا ملابس ودما وقلبا يمزق أى قلب ..

ويوم رأيت المطربة فايزة أحمد فى ساعاتها الأخيرة ، أجمل وآخر الأصوات الجميلة .. وقد تساقط شعرها وغاب لونها وتقطعت حبالها الصوتية ..

لقد أخرسها الموت ..

أما الأستاذ الحكيم فقد عاودته الحيوية .. أي المرح والكلام والجلوس طويلاً مع الضيوف .. ذهبت صافحت إبنته .. إنها سمراء اللون ملامحها حادة : الحاجبان والأنف والعينان والشفتان .. وفيها عصبية الحكيم ..

ثم رأيت عصا تخرج من دورة المياه ووراءها توفيق الحكيم : الطاقية بيضاء مشدودة كطاقية الممرضين وبعض الأطباء .. البيجاما صفراء مزمومة الزراير . وهو وقف بعيدا يقول : ياأخي إنني أبحث عنك . وقلت لنفسي لابد أنك سوف تجيء .. لابد أن تراني في آخر أيامي . لابد أنك تريد أن تعرف هذه النهاية .. فهي نهاية فعلا . تمنيت ذلك .. ولكن الأطباء هنا دبروا لي هذا المقلب : أن أعيش مرة أخرى .. أي أن أستأنف الحياة والفكر والإحساس بالهوان .. فأنا لم يعد لي دور .. إنتهى دوري .. إنتهيت عند الثلاثينات . فلا عندي كلام ولا رأي . ولا موقف . ولا مطلوب مني أي شيء . الدنيا تغيرت . اللغة المطلوبة ليست هي لغتي . أنا كالسمك في الماء .. أنا لم أتغير .. ولكن الماء كان حلوا فأصبح ملحا ، والذي كان ملحاً أصبح عذباً .. تغيرت الظروف والبيئة وأصبحت ناشزا شاذا .. لا مبرر لي ..

قلت : أهلا وسهلا .. حمدا لله على سلامتك .. أنت أحسن كثيرا جدا ..

قال : مع الأسف .. لقد رتبت نفسي على الموت .. فعندما وجدت صدري يضيق وقلبي لا يطيق أن أكون حيا ، رفعت رأسي إلى السماء وقلت : يارب .. هذه هي اللحظة .. أوقف تنفسي ، وسوف تجدني بسرعة إلى جوارك .. أنا أريد أن أكون إلى جوارك ، ولكن لا أعرف إن كنت تريد ذلك .. وعندي بضعة أسئلة أود أن أسمع منك جوابا عنها لو سمحت ..

واقترب الأستاذ الحكيم ، ونسي أن يصافحني ، وجلس ، وطلب عصير البرتقال ، وسأل إن كان الأسبرين الذي يناسبه هو نفس النوع الذي يتعاطاه ، أو أنه يحتاج إلى نوع آخر .. وكلها علامات تدل على أنه يريد أن يكون أفضل ، أن يكون أصح .. اليوم وغدا .. أن يتكلم بلغة الصحة التي معناها أن العمر طال أو سوف يطول ، وليس بلغة من يرفض الطعام والشراب والدواء ، لأنه إنتهى أو قرر ذلك .. أو أحس أن هذا هو القرار ..

وأسعدني أن أجد الحكيم قد استسلم للصحة والرغبة في الحياة .

قلت : يا أستاذ هل تنسى يوم الاحتفال بعيد ميلادك أن اقترح أحد الأصدقاء أن يختار لك عروسا .. واختلفا في عمر هذه العروس .. وكان إصرارك على أن تكون فتاة صغيرة .. ولم تسأل إن كانت سوف ترضى بك ؟

فضحك . وأسعدني ذلك .

وقال : صحيح . غرور . لم أسأل إن كان قراري هو قرارها .. هل قلت أنني سوف أتزوجها ؟ أظن أنني قلت أنها سوف تتزوجني إعجابا أو عطفا أو شماته .. هل تعرف أنني فكرت في هذا الموضوع ، وفكرت في الرجل الذي يختار عروسا صغيرة .. ثم يتوهم أنها تزوجته لشخصه .. أي لشيخوخته وليس لفلوسه .. أو تزوجته للإعجاب به .. إنها تخاريف الشيخوخة .. شيخوختكم أنتم .. فأنا لم أفكر في هذا الموضوع قط !

وضحك مرة أخرى ، واسترد عصاه ووضعها أمامه . وأسند رأسه إليها ، وراحت عيناه تتحركان في قلق شديد ..

وانفتحت شهيته للحديث ، وقال لي : أنا نسيت أن أسألك .. لقد كنت أبحث عنك . وطلبت إلى كل الذين زاروني أن يأتوا بك من تحت الأرض .. أريد أن أسألك هل كتبت في كتابك « صالون العقاد » عن إنتحار العقاد ؟

قلت : نعم ..

قال غريبة . أنا قرأت الكتاب نسيت ذلك .. هل كتبت أن العقاد حاول الانتحار لأنه عندما أصدر كتابه عن « سعد زغلول » قاطعه الوفديون ؟ قاطعوا العقاد وقاطعوا الكتاب .. وهو أحسن كتاب عن الزعيم سعد زغلول .. في ذلك الوقت كان العقاد فقيرا تماما لا يملك مليما واحدا .. وكان يتوقع أن يعود عليه الكتاب بمال وفير .. فقرر العقاد أن ينتحر وعاد إلى بيته . واستعد لهذه اللحظة الفاصلة . ولكن عندما أغلق الباب ، سمع طرقا .. إنه زائر يرجوه أن يبيعه كتاب « أبو الشهداء » على أن يدفع الثمن مقدما .. ودفع للعقاد مائتي جنيه .. وهذا مبلغ يكفي أن يعيش به العقاد سنه على الأقل .. إنها إرادة الله .. منعني من ذلك .. ولولا أنني لم أجد عندي هذه القدرة على أن أخنق نفسي . ولا أن أتعلق من السقف .. فأنا في حاجة إلى قوة لكي أقف وأربط الحبل وأتدلى منه ..

ولا أعرف وسيلة للحصول على السموم .. فأنا هنا تحت رقابة شديدة .. ولا أعرف كيف يكون أثر انتحارى أمام هذا الحشد من الأطباء والممرضات الذين يهتمون بى اهتماما فائقا .. إن هذا الانتحار إهانة لهم جميعا .. لم أستطع .. أنت حاولت الانتحار ؟ أنا قرأت لك ذلك .. كيف قررت ذلك ؟ هل تأثرت بالعقاد ؟ قل لى كيف !

قلت : فى ذلك الوقت لم أكن أعرف العقاد .. فقد كنت طالبا متفوقا .. كنت الأول فى كل مراحل التعليم .. لا الأول على المدرسة وإنما على طلبة مصر .. وفى التوجيهية كان ترتيبى الأول .. وكنت أول الفائزين فى مسابقة الفلسفة .. وظهر الخبر فى الصفحة الأولى من جريدة « الوفد المصرى ».. واشتريت الجريدة .. وعدت إلى البيت ، لأجد أمى مريضة تنزف دما .. أما إخوتى ، فلم يكن منهم أحد بالبيت .. ووجدت أمى قد سقطت على الأرض . ولم أعرف ما الذى يمكن عمله .. وأنا إنسان عاطفى جدا ، رغم أنى لا أبدو كذلك . فمن الممكن أن يذوب منطقى وفلسفتى أمام هزة عاطفية .. ورحت أجرى فى كل مكان .. بحثا عن أى طبيب لم أجد أحدا.. عدت إلى البيت .. وجدت الباب مفتوحا ... لقد نسيته كذلك .. ووجدت قطه تلعق دم أمى ، التى تساندت على الجدران واستقرت على السرير .. ولقد تعذبت بحب أمى كثيرا .. وتمنيت لها الموت قبلى .. حتى لا تتعذب بوفاتى .. فقد كانت تعتقد أنى إبنها الوحيد مع أننا أحد عشر .. وبعد أيام تحسنت صحة أمى .. وبدأت تستأنف عملها فى البيت .. ولم تسألنى إن كنت نجحت . ولا أحد سألنى . وفى ذلك الوقت جاءت سيدة غنية وعرضت على أمى أن تتبنانى . ووافقت أمى . وهى لا تعرف إلا أننى سوف أعيش أفضل وآكل وأشرب أحسن ، وأنام أهدأ ، وأذاكر أطول .. وبالانتقال إلى بيت هذه السيدة الغنية عرفت كل آلام المصران الغليظ وتشنجات المعدة .. فقد كان ذلك إغتصابا إجتماعيا ونفسيا ، وأحسست أننى شخص غير مرغوب فيه .. غير مطلوب .. فى غير موقعى . وقررت أن ألقى بنفسى فى النيل . وذهبت إلى كوبرى المنصورة ، إلى الماء . وفى حالة من اللاوعى ، رفعت ساقى لكى أقف على السور .. عندما شدتنى يد .. إنها يد السيدة التى تعطى والدتى الحقن .. وقد ظنت أنى أريد أن أسبح فى الماء ، فعاتبتنى قائلة : يا إبنى إخلع ملابسك بدلا من إرهاق والدتك بغسلها وكيها بعد ذلك .

قال توفيق الحكيم : لأن لك دورا فى الحياة الأدبية والفكرية .. إنها إرادة الله .. لك دور ولا تزال فى مكانك وموقعك .. لا تزال مستعدا لأن تعطى .. ولكن أنا بلا دور الآن ، لذلك كان من الواجب أن أموت ، لم تعد هناك القيم التى عشنا من أجلها .. الآن كل شيء بالفلوس ومن أجل الفلوس .. لا أحد عنده الإستعداد الذى كان عندنا للتضحية من أجل الرأى .. من أجل الإصلاح .. أنت الآن تجد لاعب الكرة يتقاضى ثلاثين ألف جنيه إذا أصاب هدف الخصم .. تصور لكى يتفوق الإنسان فى اللعب ، يجب أن تعطيه مكافأة مادية لذلك .. إن جمال عبد الناصر أراد مكافأتى على إعجابه لما كتبته فأعطانى نيشانا رفيعا .. لم يعطنى مكافأة مالية .. ولو أعطانى لفضلت النيشان .. أى اخترت التقدير الأدبى .. أى اخترت القيمة وليس الثمن !

قلت لتوفيق الحكيم : عندى مثل أذكره كثيرا .. لقد نشرت سلسلة من الكتب للأدباء الشبان .. والذى أدهشنى ليس فرحة الشبان بصدور كتاب لهم . وإنما حرصهم على أن يتقاضوا مكافأة عن ذلك .. فأنا مثلا عندما أصدرت كتابى الأول « وحدى مع الآخرين » سنة ١٩٤٩ نسيت أن أتقاضى أجرى عنه .. وإنما رحت أشترى من هذا الكتاب كل ما أستطيع لكى أهديه إلى الأصدقاء والزملاء .. وعندما أخذت مكافأتى عن الكتاب إشتريت بها مئات النسخ لكى أعطيها لمن يطلبها .. وأذكر أننى كنت أتفرج على المكتبات فى بيروت فوجدت كتابا جديدا من تأليفى .. إنه (ألوان من الحب) إشتريت منه كثيرا .. وبعد ذلك رحت أبحث عن الناشر الذى أعطانى مائة نسخة .. وخرجت سعيدا ونسيت أن أطلب أجرى عن الكتاب .. إنما الفرحة : هى أن كتابا لى صدر .. عملا أدبيا ظهر .

وضحك توفيق الحكيم واعتدل فى جلسته ، ولما جاءه عصير البرتقال أمسك الكوب فى يد والعصا فى يد .. ومال إلى الأمام واستأنف الكلام .

قال بل إننى لم أفكر لحظة فى أن أتقاضى أجرا عن كتاب .. بل ترددت فى النشر .. فأنا كتبت « أهل الكهف » وتركتها فى البيت .. ولما جاء أحد أصدقائى ليبيت عندنا ، سألنى إن كان عندى كتاب يتسلى به قبل أن ينام فلم أجد ما أعطيه له ، فاقترح والدى أن أعطيه « أهل الكهف » وكانت مكتوبة بخطى .. وفى الصباح فوجئت بأنه ترك لى ورقة يقول فيها « أعجبنى الكتاب وسوف أعمل

على نشره فى مصر .. وأزعجنى ذلك .. فقد كنت وكيل نيابة محترما .. ولا أريد أن تفسد سمعتى بهذا الكتاب .. ولكن صديقى أصر على نشره .. وقد كلف النشر عشرين جنيها على أن أدفعها بالتقسيط بعد ذلك .. وهو مبلغ كبير جدا فى ذلك الوقت . وتحيرت بين أن أدفع وأن أشترى بذلة جديدة ، وقال صديقى لى : بل شراء بذلة وجزمة أفضل .. فأنا لم أفكر إلا فى الكتابة ، وإذا نشرت فعلى نفقتى .. فلم تكن الفلوس هى الدافع الأول .. ويوم كتبت ، عودة الروح ، ثار الناس على أنها بالعامية .. وقالوا إننى سوف أفسد اللغة العربية .. واتصلت بالناشر أطلب إليه أن يمنع صدور الكتاب . ورحت أفكر فى الاحتمالات الجديدة .. إن كان الكتاب قد صدر فلابد أن أحصل عليه وأن ألقى به فى النيل .. ولكن لنفرض أننى فعلت ذلك ، ونزل الكتاب على رأس أحد المراكبية ومات .. أو لنفرض أننى أحرقت الكتاب فى ميدان عام ، فما الذى يقوله الناس ، ولكن الناشر أصر على أن يصدر كما هو ، وليكن رأى الناس ما يكون .. وصدر الكتاب وأصابنى فزع شديد .. ولكن جاءنى الأستاذ أحمد حسين زعيم مصر الفتاة ، وزميله الأستاذ فتحى رضوان ، وجاءتنى الدكتورة سهير القلماوى . وقالوا : إن الكتاب يعبر عن قلقهم وعن شبابهم وعن أملهم فى الحل والخلاص .. من أجل هذه المعانى ، ورد الفعل هذا ، كانت كل متاعب الدنيا تهون .. فقد كانت لنا قضية .. الكاتب والقارىء .. والقضية واضحة .. والقيم ظاهرة .. هل تعرف أننى أصبحت الآن من أهل الكهف ؟

هؤلاء الذين كانوا قديسين فقال لهم الناس نحن لا نريد القديسين .. إذهبوا عنا .. فذهبوا بعيدا ، وتواروا فى الكهف ومعهم إيمانهم العميق .. وناموا .. وعندما قاموا كانت الدنيا تغيرت ، لقد بعثوا إلى الحياة فى زمن غير زمانهم .. فقد نبذهم المجتمع ..

قلت أو لعلهم هم الذين نبذوا المجتمع ، فعادوا إلى النوم إلى الموت .. كأنهم خرجوا من الكهف فلم يجدوا أحداً .. تماما كما يختبىء الناس فى الكهوف خوفا من الغارات الذرية .. ثم يخرجون ليجدوا أن الأرض قد خلت من الحياة ، إلا منهم ، فيقرروا أن يموتوا باختيارهم ، أو يعيشوا كأنهم موتى باختيارهم أيضا .. فهم الذين رفضوا الحياة .. وهذا يذكرنى بمسرحية كتبها الكاتب السويسرى ديرنمات ..

قاطعني الحكيم قائلا : صديقك الذي ترجمت له عشر مسرحيات .. في غاية الروعة ..

قلت إن مسرحية ديرنمات هذه تحكي أن طبيبا سمع عن جماعة من السويسريين يعيشون في أحد الوديان حول مستنقع . في ظروف سيئة جدا فأحس بأن هذه إهانة للإنسانية كلها .. ولسويسرا بوصف خاص ، وهي الدولة التي تضم هيئات تحارب من أجل حقوق الإنسان وسلامة الإنسان وشفاء الإنسان .. ولذلك قرر أن يذهب إلى هناك ، واستعد للدخول في هذه المنطقة الموبوءة ، فأعطى لنفسه العقاقير الواقية من كل الأمراض ، وأخذ معه سيارات ومستشفيات متنقلة وعددا من الأطباء والممرضات . فوجد الأطفال في صحة جيدة ، يسبحون في المياه الراكدة العفنة ويشربون منها .. الوجوه وردية والقوام ممدود والشعور ذهبية .. وفي الجو بعض الحشرات والهوام .. وظهر الآباء والأمهات .. إنهم يملأون الأكواب من الماء الراكد ، ويشربون ويغسلون الأطباق والأكواب .. ثم يسبحون .. شيء عجيب . واقترب الطبيب منهم ، وسألهم عن متاعبهم .. فقالوا له : لا شكوى لنا . والأطفال أصحاء .. والأزواج سعداء . وفي الليل يذهبون إلى الكهوف المظلمة الفاسدة الهواء وينامون .. لا شكوى ولا أمراض القلب ولا سكر ولا تسوس الأسنان ، والوفاة في التسعين وما فوقها .. وأنهم يعيشون في هذا المكان من مئات السنين .. راح الطبيب يحلل دماء الأطفال والآباء والأمهات .. لا مرض .. وعندما عطس أحد الأطفال فزع الآباء والأمهات ، وقالوا هذه هي المرة الثانية التي يعطس فيها مواطن منذ مائتي سنة .. وعادت القافلة الطبية .. لأنها لم تجد مبررا للبقاء .. فأهل الكهف هم الذين رفضوا ونبذوا الحضارة الإنسانية .. فلا هي حضارة ولا هي إنسانية !

وسألني توفيق الحكيم إن كنت أحب أن أشرب قهوة أو شايا أو عصير برتقال أو نسكافيه ، وكان جادا . وهو عادة كذلك عندما يكون الدافع أحدا آخر غير توفيق الحكيم . ولذلك لم أشأ أن أطلب شيئا . فلا متعة هناك ، إنما المتعة هي أن تكون على حساب توفيق الحكيم ، وهو يحاول أن يقنعك بألا تشربه على حسابه !

عاد الحكيم يقول : على أيامنا في الثلاثينات والأربعينات كانت لنا قضية ، والقضية هي مصر ، أن ننشغل بالأدب المصري وليس بالأدب العربي ، فتكون

القصة المصرية .. والمسرحية .. وأن ننقل إلى مصر تجارب الآخرين .. فطه حسين فتح نافذة على فرنسا ، والعقاد فتح نافذة على انجلترا . واتجهنا جميعا من أجل نهضة مصر .. هذه هي القضية .. من أجل ذلك كانت ، عودة الروح ، وكان المسرح اجتماعيا مصريا .. كل ذلك فيما مضى .. أما الآن فليس عندى شيء أقوله ، أو أضيفه .. ولست مطلوبا ..

فضحكت لأقول نحن الآن أيضا عندنا قضية هي : مصر .. يكفى أن تفتح التليفزيون لتجد عشرات الأغاني لمصر .. حياة مصر .. وأمن مصر .. وجمال مصر .. وحبيبتي يا مصر وأمي يا مصر .. لا مانع من أن يكون ذلك موزعا بين البرامج وبين الأيام ، ولكن كل ذلك في وقت واحد وميكروفون واحد شيء عجيب ، فلا أحد قد هدد مصر ، ولا أحد قد خطف أمنها ، ولا أحد قد حذف إسم مصر .. لا شيء .. وإنما الأغاني تريد أن تدفعنا إلى أن نتوهم ذلك فهي قد افتعلت قضية .. أما السبب الحقيقي فهو أن أحد المطربين قد غنى لمصر ، وبسرعة سار وراءه مطرب آخر ، حتى لا يتهمه أحد بالتقصير ، ولا أعرف معنى التقصير هذا ، فلا أحد يشك في وطنية أحد ، ولا في إخلاصه ، ولكن هذا الإسراف يجعلنا نتشكك في ذلك ، وتكرار هذه الأغاني يجعلنا أقل إحساسا بها ، وأكثر ضيقا بذكر مصر والتغني بها ، فمصر لم تعد قضية أدبية سياسية ، وإنما أصبحت قضية غنائية مزورة . والمشكلة الآن هي مشكلة أننا بلا قضية واضحة ، ونحن بلا قضية لأن هذا الجيل ليس واضح الطريق واعي النظرة . إنه مضطرب مرتبك ، وسوف يبقى طويلا حتى يحدث شيء ما ، أو يظهر كتاب ما ، أو شخص ما يكون محوريا .. عليه وأمامه وبسببه يختلف ويتفق الناس .. ويجدون أنفسهم أمام قضية الخلاص من هذا الشخص أو الإخلاص له .. وأتذكر موقفا مسرحيا للكاتب الأسباني ارابال .. عندما وقف الناس حول شخص . هم قصار القامة وهو طويل .. ثم هو واقف على أحد المقاعد ، فكان أطول .. وهو يمسك مسدسا وكتابا ومصباحا ومفتاحا .. قالوا له : نحن نمشي وراءك .. نحن انتظرناك ، ولكن ساعدنا على أن نفهمك . وهنا قال الرجل : إذا كنتم ما تزالون في حاجة إلي أن أساعدكم ، فقد جئت سابقا لأواني .. ولذلك يجب أن يتخلص أحدنا من الآخر .. وسوف أساعدكم . خذوا المسدس .. واقتلوا أنفسكم أو اقتلوني .. ولم يترددوا لحظة

فى أن يقتلوه ! فهم لم يبلغوا درجة النضج ، ولا الرؤية الواضحة أو الرؤيا الصادقة ، ولذلك فقد اخطأوا فهم الرجل ، وسبقوا زمانهم .. كأنهم عاشوا فى زمان غير زمانهم ، ونصبوا عليهم بطلا خرافيا .. وبدلا من أن يقتلوا أنفسهم ، قتلوه .. فاختفى الرجل ، وظلوا فى أماكنهم .. فى زمانهم .. بلا قضية !

وأتذكر أننى كنت فى أسوان مع الشاعر الروسى يفتشنكو وهو « دلوعة » الإتحاد السوفيتى ، كنا ثلاثة : الأستاذان كامل زهيرى ورجاء النقاش وأنا .. وكان الذى دعانا إلى مصاحبة الشاعر الروسى هو الأستاذ أحمد بهاء الدين .. كان الليل فى أسوان هادئا قمريا ، وتمدد الشاعر فى زورق واستدار يسألنا : ما الذى يشغل المفكرين والأدباء فى مصر هذه الأيام ؟..

ما هى قضيتكم ؟.. ولم نكن جاهزين للإجابة .. فذهبنا فى كل اتجاه .. وأخيراً قلت له : إننا نناقش قضية « الواقعية الاشتراكية » ، ولم يفهم الشاعر يفتشنكو ، وقال : الواقعية هى الواقعية . فإما واقعية وإما خرافية .. وأثار عددا من الاعتراضات ، لم نجد لها إجابة .

وقال : أنتم إذن تتحايلون على المشاكل أو تهربون منها ، أو تهربونها أو تزورونها .. ثم قال : عندنا فى روسيا نكتة .. يقال أن أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى طلب فنانا ليرسمه .. جاء الفنان فوجد عضو اللجنة المركزية أعور فارتبك الفنان : إن رسمه كما هو فهذه هى الواقعية ، ولكنه لا يعرف كيف يكون أثرها على نفسية الرجل .. وإن أضاف له عينا فهذا أجمل ، ولكنه تزوير للواقع .. وإن فقأ العين الأخرى فهو أسوأ ، وهو تزوير للواقعية .. أما كيف خرج من هذا المأزق ، فقد رسم للرجل « بروفيل » - أى صورة جانبية .

وكان الذى قاله يفتشنكو أقرب إلى الواقع الأدبى والفكرى فى مصر فى الستينات !

وجاء شاب أسمر نحيف . إنه إبن ناشر كتب توفيق الحكيم . وقد علمت أن توفيق الحكيم قد نصح هذا الشاب بأن ينشر كتابين . أحدهما إسمه « ثورة الشباب » من تأليف إبراهيم ناجى واسماعيل أدهم ..

وقال لى الحكيم : عندما قرأت هذا الكتاب إندهشت كيف كان هناك علماء مصريون يفكرون بهذا العمق وهذه الجرأة ونحن لا ندرى بهم .. إن صدور

هذا الكتاب الآن ، يؤكد أنهما كانا متقدمين على عصرهما كثيرا .. إنهما يتحدثان بلغة العصر .. لغة هذه الأيام التى لم أعد أعرفها ..

ثم طلب توفيق الحكيم من هذا الشاب الأسمر النحيف الذى يبدو كأنه إبنّ توفيق الحكيم ، وفيه شبه كبير من إبنه الفنان المرحوم إسماعيل الحكيم ، أن يحضر لى كتابا بالفرنسية .

وهذا هو الكتاب الثانى الذى نصحه توفيق الحكيم بطبعه ، وليس بنشره !! وأكد لى الحكيم أنه ليس مسئولا .. لأنه كتاب ملىء بالإلحاد !

وفتح الشاب « درجا » إلى جوار سرير الحكيم وأعطانى الكتاب .. الكتاب صغير عنوانه « فاوست الثالث » ـ من تأليف « جيته الابن » أى الجزء الثالث من فاوست . فالشاعر الألمانى جيته قد نظم فاوست فى جزءين .. الجزء الأول من نظمه هو ، والجزء الثانى وهو غير مفهوم ، إشترك فيه مع الشاعر شيلر .. وهذا هو الجزء الثالث .

أو لعله الثالث ، لأن الشاعر الانجليزى مارلو قد أصدر فاوست الأول وجيته أصدر « فاوست » الثانى .. وهذا هو الثالث .

ثم صدر « فاوست » الرابع للأديب الألمانى توماس مان ـ من ثلاثين عاماً ..

أما مؤلف هذا الكتاب فهو حفيد الشاعر جيته ؟!

يقول الناشر المصرى على حسن فى مقدمة هذا الكتاب أن عالم الآثار الفرنسى جاستون فيت قد جاء إليه وقدم له هذا الكتاب الذى ألفه شاب مصرى أمه مصرية كانت عشيقة للشاعر الفرنسى جيرار دى نرفال الذى كان واحدا من أحفاد الشاعر الألمانى جيته .

وهذا الحفيد المصرى كان اسمه يوهان اوحنا المصرى . وقد كتبه باللغة الفرنسية الرقيقة الجميلة الساحرة العنيفة السخرية .. والالحاد ..!

وقال لى توفيق الحكيم وأنا أقرأ مقدمة الكتاب المكون من ثلاثة فصول وفى ٤٤ صفحة : أنا لست مسئولا عن هذا الكتاب .. فالكتاب مطبوع منه خمس وعشرون نسخة ، وهذا لمعلوماتك فقط ، فأنا لا أستطيع ، ولا الناشر أن نتحمل ما به من زندقة صارخة وإلحاد عميق .. ولكنه أثر أدبى لا يصح أن يموت .. وقد يستعين به الباحثون يوما ما ..

ولما بدأ صوت توفيق الحكيم يخفت قليلا التفت أنا إلى إبنته وقلت لها : أستطيع أن أتكلم أنا ويسكت هو إذا كان الأستاذ الحكيم لا يزال راغبا فى بقائى ..

ولكنه أصر على أن أبقى وعلى أن أتكلم وأن يتكلم هو أيضا .

وكأنما أراد أن يلخص هذا اللقاء الطويل فقال : وهكذا ترى أننى ازددت حيرة عن ذى قبل .. فالله قد أطال فى عمرى .. ولا أعرف ما الذى اعمله له .. فليس عندي ما أقوله ، فلو أنني مت لكان ذلك أمرا متوقعا .. ولكن الذى لم أتوقعه هو أن أعيش .. والآن أنا أعرف أنى حى ، وفى نفس الوقت أعرف أنى حى متوقف عن الحياة ، ممنوع من الحياة .

وكان يجلس معنا د . عبد المنعم حسب الله مدير مستشفى « المقاولون العرب » الذى أعد لوحة فنية جميلة لتوفيق الحكيم ليضعها فى هذا الجناح الذى سوف يطلق عليه اسم « توفيق الحكيم » ..

فقال الطبيب : عندك فرصة يا أستاذ أن تكتب عن تجربة المرض والعلاج .. عن تجربة المستشفى ..

فأجاب الحكيم : أن أكتب .. من المؤكد أننى لن أفعل .. ولكن أمامكم أنتم فرصة لكي تتحدثوا عن هذا المريض الذى جاء ليموت ، فصدر ضده حكم بالحياة .. أنا الآن أعرف بالضبط شعور الذى حكم عليه بالإعدام ، ثم صدر الحكم بالبراءة بعد أن كان حبل المشنقة قد إلتف حول عنقه ..

أو بعد أن استقر رأسه تحت سكين الجيوتين .. لا عندى شجاعة سقراط ولا شجاعة العقاد .. وإنما أنا تجاوزت عمرى الإفتراضى ، وأنا الآن ألعب في الوقت الضائع - بلغة الكرة التى هى أحسن وأروع وأرقى اللغات .. إنها لغة العصر الهزيلة ؟!! « لغة القدم » لا « لغة القلم » كما كتبت إليك فى خطابى أشكرك على مقالك الرائع الذى كتبته عن كتابي .. أنت عندك ميزة فريدة أنت تعيش هذا العصر وتكتب له ولكن عندك قيم العصر الذى مضى .. أنت تقرأ وتتعب وأنت جاد .. ومع ذلك لم تنهزم أمام الزحف الجاهل لهذا العصر .. ولذلك كان لابد أن يؤجل الله وفاتك .. فيوم قررت الإنتحار ، كان الله قد قرر لك دورا « مستمرا » ووظيفة متجددة .. وهذا الطراز من الأدباء والمفكرين قليل بيننا .. لأن الموهوبين قلائل ولأن المجتمع يصنع « مثلا » عليا أخرى

تتفق مع لغته وهدفه واحتياجاته .. بل أنا أشك كثيرا في وجود مثل عليا لهذا الجيل .. وإنما مثله العليا : لاعبو كرة القدم والمطربون اى اللعب والأداء .. وليس الإبداع او الخلق ..

ومددت يدى ولكنه لم ينتبه إلى ذلك وظل يفكر فقلت له : لا تشغل بالك يا أستاذ سوف نمشي وراءك كما سار الناس وراء المسيح فى مدينة أشبيلية فى رواية « الإخوة كرامازوف » لدستويفسكى .. أنت طبعاً تذكر ما حدث فى ذلك اليوم .. كان أحد أيام الآحاد .. الناس فى الكنيسة يصلى بهم الكاردينال .. وفجأة تهامس الناس .. وتسربوا إلى خارج الكنيسة .. لقد تسامعوا بأن المسيح عليه السلام قد هبط المدينة .. وكان المسيح نحيفا أسمر طويل شعر الرأس واللحية والشارب .. يمشى حافيا عارى الصدر .. ولم يكد الناس يرونه حتى اتجهوا إليه .. التفوا حوله ومشوا وراءه .. وكان المسيح يتجه بعينيه إلى السماء .. وفى الكنيسة وجد الكاردينال نفسه وحيدا فخرج ليرى .. ورأى المسيح فضايقه أن ينصرف الناس عنه .. فاقترب من السيد المسيح يقول له : هل أنت سعيد بما أحدثته من فرقة وإنشقاق بين المؤمنين بك ؟.. هل هذا ماجئت من أجله ؟ هل تقبل هذه الإهانة التى وجهت إلى رجل مثلى يدعو إليك ؟.. وكان الكاردينال قد ارتدى المسوح الحمراء والحزام الذهبى فوق كرشه الضخمة .. وارتدى حذاء لامعا .. ووضع خاتما أنيقا .. وتدلت السلاسل الذهبية من عنقه .. وكذلك الصليب الضخم وعليه المسيح مصلوبا .. ثم استوقف المسيح بقوة قائلا : إسمع إذا لم تخرج الآن من المدينة فورا فسوف أصلبك بتهمة الخروج على المسيحية .. إننا قد تعذبنا كثيرا من أجلك .. كانت الحروب الصليبية مئات السنين .. لقد أحرق الرومان عشرات الألوف من المسيحيين و .. أحرقوا الرهبان والقساوسة والقديسين كل ذلك دفاعا عن دينك .. ثم تجىء اليوم وتريدنا أن نمشى حفاة مثلك وعراة الصدور ونزهد فى الحياة .. عملا بقولك : لن يدخل الجنة غنى إلا إذا دخل الجمل من سم الخياط .. إذا لم يكن فى الدنيا أغنياء ، فمن الذى يبنى لك الكنائس والمدارس وينفق على التبشير بدينك .. وتريدنا أن نستسلم عملا بقولك : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر .. وتريد ان ننظر إلى السماء مثلك عملا بقولك : من نظر إلى امرأة فاشتهاها فكأنه زنى بها .. من الخير لك أن تعود من حيث أتيت ،

وإلا وضعتك فى السجن .. أخرج فورا حتى لا يكفر شعبك المسيحى .. أخرج أحسن لك !

وضحك الحكيم قائلاً : يا سيدى إنه المسيح .. أما أنا فسوف أجد ألف واحد يضع قلمى وقلمه فى عينى .. ويملأ فمى بالماء .. ومعدتى بالورق .. أو أمشى أنا وراء الناس ونهتف جميعا : يسقط توفيق الحكيم .. هل تتذكر قصة « نهر الجنون » .. إنها قصتى كما تعلم .. الناس جميعا أصابهم الجنون لأنهم شربوا من نهر الجنون .. فكان على حاكم المدينة إما أن يحاربهم وإما أن يقتلوه .. فشرب هو الآخر من نهر الجنون .. وأصبح الجميع مجانين .. وهذا ما يجب أن أفعله أنا !

قلت ليس هذا هو الموقف الذى يناسبك .. لأنك فى قصة نهر الجنون قررت أن تساير الناس .. أن تكون مجنونا مثلهم .. ولكن هذا إستسلام للناس .. وأنت اعتدت أن تتقدم الناس وتهديهم .. والناس يسعدهم أن يتكاثروا عليك .. أن يهزموك .. وهكذا يكونون جميعا توفيق الحكيم . أما الآن فأنت تقوم بدور الإنسان المنحرف الذى يحتاج إلى علاج جماعى .. أى تكون تلميذا فى مدرسة بها ألف مدرس .. أى التلميذ الوحيد .. كما تكون المريض الوحيد فى مستشفى به ألف طبيب .. هل تتذكر ما حدث للسيدة لوكريسيا الجميلة فى مسرحية « من أجل سواد عينيها » للكاتب الفرنسى جيرودو .

قاطعنى الحكيم : آه .. أنت ترجمت هذه المسرحية .. جميلة .. هل تتذكر تفاصيلها .. أريد أن أعرف ..

قلت أن لوكريسيا زوجة أحد القضاة .. المدينة كلها منحلة .. الرجال والنساء إلا هى .. فهى رمز الفضيلة والطهارة والصفاء .. أى رمز القوة .. قوة مواجهة الإنحراف والبقاء كما هى .. الجميع حولها يتهاوون سفالة ونذالة وعقوقا وكفرا .. الرجال يتغنون بالجمال والفضيلة فى شخص لوكريسيا .. والنساء يضقن بهذه المرأة التى تحتقرهن وتتعالى عليهن .. وأخيرا كان لابد من إسقاطها فأقامت النساء حفلة غداء بعيدا عن المدينة .. دعت إليها كل الرجال .. وتآمرن على أن يذهب أحد الرجال إلى حيث لوكريسيا ويعتدى عليها بالقوة ، ليرى زوجها بنفسه أن أمرأته ليست كما كان يتوهم .. وتتم المؤامرة . ويرى الزوج وكل الرجال ما حدث للسيدة الفاضلة .. وتسعد كل النساء .. لقد سقطت كما سقطن وأصبح الجميع سواء فى الوحل !

ونهض الحكيم واقفا قائلا : وهل تظن أننى قادر حتى على مقاومة الرذيلة ؟.. أبدا ليست عندى قوة ولا رغبة إننى ساقط تماما .. بل إننى لم أعد لا هنا ولا هناك ، ولذلك أستطيع أن أتدحرج إلى الهاوية .. وبذلك أوفر على الناس أى مجهود .. بل إننى أدعوهم إلى إستخدام طاقاتهم فيما ينفع الناس ..

ثم سكت طويلا وعاد ليقول : إلا محمد عبد الوهاب .. محمد عبد الوهاب من جيلى وهو لا يزال مستمرا .. إنه استطاع أن يعيش حتى اليوم .. وحياته سهلة ممتعة .. فهو فى كل سنة يسافر إلى الخارج ويعيش ثلاثة شهور أو أربعة .. يعيش ويتمتع ويعالج نفسه فيكون أصح وأقدر على العطاء .. وعنده الصحة والمال والجمال .. فهو الوحيد بين جيلنا الذى يتكلم لغة العصر ويعطى .. والعصر يعطيه بلغة العصر : الشهرة والفلوس .. فقط محمد عبد الوهاب .. هو الوحيد الذى عنده فلوس !

وكان لابد أن أنهض .. وصافحت الأستاذ توفيق الحكيم .. فشكراً لله أنه أحسن حالا وأصح بدنا . ومن المؤكد أنه يفكر بصوت عال فى عمل سوف يكتبه بعد ذلك .. ولابد أنه قال كل الذى سمعته منه لزواره حتى حفظه تماما ، ولا يبقى إلا أن يسجله على الورق بقلمه .. وسوف يتأكد لدينا أنه قادر على أن يكتب وأن يفكر وأن يسخر من الكتاب والمفكرين والقراء ، وسوف يقول للقراء : إنه كان وما يزال يقول كلاما معقولا ، فشكراً لله ولهم إن كان يقول كلاما لا معنى له ، فاللوم على الأطباء .. فقد ذهب ليموت ولكنهم قرروا أن يخلوا سريره لشخص آخر ، وأنهم سوف يندمون على ذلك !

ومن تحت .. من بعيد كان يجيء صدى صرخات النساء ، فقد مات لهن أحد .. ولابد أن الأستاذ الحكيم يستمع إلى ذلك كل يوم .. ولكنه لم يفزع .. فقد إعتاد على التفكير فى الموت وإعتاد على رؤية الحزن فى وجوه وعيون ضيوفه .. ولم يعد يخاف الموت ، ولا ما بعد الموت فقد ماتت زوجته ، ومات إبنه الوحيد .. قال توفيق الحكيم للدكتور حسين مؤنس وهو يمشى إلى جواره فى جنازة إبنه : لقد وجدت تفسيرا مريحا .. بعد وفاة إبنى أصبحت كالذى أصيب بعاهة دائمة : ذراع مقطوعة ، ساق مبتورة ، وسوف أعيش بهذه العاهة حتى الموت .. ولذلك يجب أن أعتاد على ذلك .. فلا أمل فى استعادة الذراع أو الساق أو الإبن .

ولا أمل عند الحكيم الآن فى استعادة الحياة .. لقد ذهب يموت ، وقرر أنه مات .. وأن زواره هم زوار لقبره ، وليس لغرفته فى المستشفى .. وأنه هو وحده الذى يتكلم ، أما ضيوفه فلا يتكلمون .. فهو الميت الأكثر حياة من الأحياء ، وهم الأحياء الأكثر إغراقا فى الموت من توفيق الحكيم ..!

ثم إستأذنته فى أن أكتب هذه الأبيات التى أضحكته وجعلته ينسى أن يصافحنى وأن يلقى بالعصا على السرير .. وأن يتجه إلى المقعد ويجلس كأنما كان يتحدث إلى نفسه وليس إلى أحد على مسمع من أحد . قال توفيق الحكيم : لا أعرف من هو الذى قال هذه الأبيات .. إنها أقرب إلى حالى . مع فارق واحد .. هذا الفارق سوف أقوله لك بعد أن تكتبها ..

إن لله عبـــادا فطنـــا
طلقوا الدنيا وخافوا الفتنـا
نظـروا فيها فلما علمـوا
أنها ليست لحـى وطنـــا
جعلوهـا لجـة واتخـذوا
صالح الأعمال لها سفنـا

أى أن الإنسان لن ينجو من بحار هذه الدنيا إلا بالسفن .. وهذه السفن هى الأعمال الصالحة .. فأين هى هذه الأعمال الصالحة التى أركبها لكى أنجو من طوفان التفاهة دعنى .. أغرق .. أغرق كتب الله لك النجاة .. وان كنت لا أعرف كيف ؟..

قلت للحكيم هناك حديث نبوى يقول : لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى ..

ولما نظرت ورائى وجدت الأستاذ توفيق الحكيم قد إعتدل فى مقعده ، وضم ساقيه وأسند ظهره وسوى ملابسه .. وأرخى ذراعيه ..

إنه يستريح من الحوار ويسحب ما تبقى من الأوكسجين فى الغرفه .. كأنه ينفذ التعاليم التى جاءت فى أحد كتب اليوجا . إنها تمرينات الراغبين فى الحياة السليمة وبعد ذلك فى التفكير السليم ..

فانتظروا معى ما سوف يقوله الحكيم فى كتاب جديد . سيكون عجبا !



ثلاثة مؤلفين يبحثون عن مخرج

ثلاثة مؤلفين يبحثون عن مخرج !

ذهبنا إلى الأستاذ توفيق الحكيم في المستشفى . فتحنا الباب . وجدنا ممرضة ومن ورائها ممرضة .. أما الحكيم فكان جالساً فى سريره ، ولم يكد يشعر بوجودنا حتى أرجع الطاقية البيضاء إلى الوراء ..

قلنا : سلام عليكم .

قال : أنتم مين ؟ أنتم مين ؟ دكاترة ؟!

أنيس منصور : أنا ياتوفيق بك

صلاح طاهر : أنا يا أستاذ توفيق .. ما شاء الله . أنت اليوم أحسن ..

الحكيم : أحسن ؟ فى إيه ؟

ص .ط : جالس ومستعد للكلام .. قبل ذلك لم تكن تدرى بأحد .. دخلنا وخرجنا .. وأنت ولا أنت هنا .

ت ا : أنت أيضا تتكلم كالدكاترة .. كل يوم يلتفون حول السرير ويتناقشون بالإنجليزية واللاتينية ، كما في الأفلام العربية .. ويتخذون قراراً واضحاً أننى زى الفل .. وألتمس رجلى فأجدها فى مكانها منذ أيام .. وأنا غير قادر على الحركة .. وكأننى تمثال قد أقاموه على مرتبة ، تمهيداً لإلقائه فى أحد مخازن مصلحة الآثار ..

كل يوم الدكاترة يقولون لك أنت زى الفل .. مع أنك زى الزفت والطين .. الفل بتاعهم هو البصل بتاعنا .

أ .م : أنت اليوم تقول وتفكر وتحلل وتسخر من الدكاترة ..

ت ا(مقاطعاً) : كويس قوى .. لكن ما هى الفائدة من الكلام ؟.. أنت تعرف يابتاع الفلسفة أننا من أسوأ الناس حظاً فى هذه الدنيا .. نحن صدقنا أن الكلمة ، مقدسة ، الكلمات المقدسة .. عشنا فى الكلمات .. نقرأ ونكتب وندعو الناس إلى إحترامنا .. واحترمونا لأنهم مغفلون مثلنا تماماً .. ومن غباوتنا وغرورنا أيضا صدقنا أن القراءة والكتابة هي أعظم ما أعطانا الله ..

أ . م : إسمع ياتوفيق بك .. نحن مثل دود القز نأكل ورق التوت ونجعله حريراً .. وليس ورق التوت هو ألذ الأطعمة .. ولكن هذا النوع من الحشرات لا يأكل إلا هذا النوع من الورق .. ولو وضعنا ورق التوت أمام الأسود والذئاب لنامت عليها .. ولو وضعنا اللحم والشحم أمام دود القز فسيمر بجواره .. إنتهى .. هذا نظام .. أو هذا قضاء وقدر ياتوفيق بك .. عندك ، شغلانه ، أخرى تأكل منها عيش ؟..

ت .ا : آه لو أطال الله عمرى سنتين فقط .. آه

قلنا : أطال الله عمرك عشرين سنة ..

فظهرت البهجة على وجه الحكيم كأن هذه الأمنية تحققت فوراً . واعتدل فى جلسته ، وسارعنا نضع المخدات وراءه ليكون قادراً على التفكير فى هذا المستقبل المفاجىء ..

ثم أرجع الطاقية إلى الوراء .. وعاد فأمالها إلى الأمام ..

ت .ا : فعلاً .. نحن أقمنا تمثالاً للكلمات .. وأخذنا ندور كالفراش حول النار .. أو كالبدائيين حول الذبيحة المقدسة .. حلقات ذكر .. وطبل وزمر ودروشة .. الله حى .. الكلمات المقدسة .. نحن أناس مقدسون أيضاً .. كهنة فكر .. سعداء بما نقول وما يردده الناس لما نقول .. عشنا فقراء وسوف نموت فقراء .. بينما الذين صناعتهم اللعب بالكلمات على المسرح .. قد أضحكونا على الناس .. وكسبوا الدنيا .. ومن يدرى ربما كسبوا الآخرة أيضاً . لأنهم أدخلوا السعادة على المغفلين من أمثالنا .

أ .م : ومن يدرى ربما دخلت أنت الجنة ياتوفيق بك فقد أضحكتنا وضحكت علينا ولا تزال .

ت .ا : ممثل خايب .. لأننى أضحكت الناس .. ولكن الناس ضحكوا على ولم يعطونى شيئاً ..

ص .ط : عندنا حل .

ت .ا : فعلاً أنت الذى وجدت الحل .. أنت أحسن منا جميعاً .. طول عمرك واقف على دماغك .. إسمها إيه البتاعة اللى بتعملها كل يوم ياصلاح ؟..

ص .ط : اليوجا ..

ت .ا : آه اليوجا .. أحسن والله .. كل يوم يقف على دماغه .. صحة وحيوية

وشاب ويعجب الفتيات الصغيرات .. أنا ونجيب محفوظ فوضناك فى حكاية البنات الصغيرة .. والمرأة عموماً .. وأنا وأنت يائيس .. طلعنا حمير .. طول النهار قراءة وكتابة .. خيبة كبيرة قوى .. مش أنت بتقول إنى أنا يمكن أدخل الجنة علشان أضحكت الناس .. الخيبة الكبيرة هى العقاد وطه حسين .. لم يعرفا الضحك إلا فى جلساتهما الخاصة . أما فى كتبهما فالجدية والكآبة ووجع القلب .. الاتنين دول على النار حدف إن شاء الله .

أ.م : عندى حل .. أنت جربت أن تكون مؤلفاً ، فلماذا لانجرب معاً أن نكون ممثلين . كل ما ينقصنا هو المخرج .. الكتابة سهلة .. أنت تكتب وأنا أيضا .. وصلاح طاهر يرسم ويكتب .. وأنت بطبعك ممثل يا توفيق بك .. لو نظرت فى المرآة الآن لوجدت أنك تحرك يديك وطاقيتك وحواجبك ، وعيناك قلقتان كما هما .. والضحك ينفجر منك ويهزنا أيضاً .. وكلنا نضحك ونقوم ونقعد .. وعندنا كلام .. لكن إخراجنا لهذه المعانى ليس جيداً ..

ت.ا : وأنا أقوم بدور إيه بقى ؟ عندى حل .. أنا عندى بيريه .. والبيريه أنا لبسته من زمان .. والناس عرفونى به .. وبعدى حسين فوزى ارتدى البيريه أيضاً ، كما كنا نفعل فى باريس ..

أ.م : هذا البيريه أنت اقتبسته من الأستاذ العقاد ..

ت.ا : صحيح أنا كتبت هذا على لسان العقاد .. صحيح أنا متنازل عن البيريه للعقاد .. أو دعنى ألبس البيريه مع الإعتراف المؤقت بأنه ملك خاص بالعقاد وأنا اقتبسته .. ياسيدى سرقته .. حلو قوى .. أطلع على المسرح وقد أمسكت العصا ووضعت فوقها البيريه .. وفجأة يظهر العقاد ويطاردنى ويطالب بالبيريه ويقول : يالص .. وأنا أقول : أنت أطول لص .. وهو يقول لى : وأنت أقصر لص .. وأنا أجرى أمامه وأرفع العصا لفوق .. تفتكر المنظر ده يضحك الناس ؟.. المهم كم يدفع الناس لو رأونا هكذا على المسرح ؟

أ.م : أما نحن فنطلق عليكما الرصاص .. لأننا آمنا بأنكما من العقلاء ، فإذا بنا نكتشف أنكما من المجانين .. وأن هذه صدمة ثقافية .. وسوف ننشغل طويلاً بالبحث عن مقدمات هذا الجنون .

ت.ا : فعلا هذه بداية جيدة لعمل مسرحى . أنا سوف أساهم فى الكشف عن جنون توفيق الحكيم .. آه من الممكن أن يقال إننى دخلت فى مرحلة الجنون

عندما كتبت مسرحية ، ياطالع الشجرة ، وقد أخذت إسم المسرحية من أغنية شعبية تقول :

ياطالع الشجرة ..
هات لى معاك بقرة ..
تحلب وتدينى ..
بالمعلقة الصينى ..

صحيح منتهى الجنون أن أطلع الشجرة بحثا عن بقرة .. وأنت متى تجننت يا أنيس ؟

أ .م : لابد أن يكون ذلك عندما درست الفلسفة .. والفلسفة دفعتنى لدراسة ٢٨ دينا لأختار لى من بينها دينا خاصا .. وترددت على الكنائس والمعابد اليهودية والبوذية والبهائية والخلايا الشيوعية والإخوان المسلمين . ثم اتجهت إلى الوجودية .. وقبل ذلك وأنا طفل قررت أن أهرب إلى خيام الغجر .. وأن أعيش بينهم .. ولم أكن أعرف بالضبط ما هذه المعانى التى تدور فى داخلى ؟.. ولما كبرت إكتشفت أننى مثل واحد دخل أحد المتاحف وتنقل بين لوحات وتماثيل الأموات وأشباحهم وأرواحهم ، وتوهم أنه انتقل إلى العالم الآخر .. وأنه مات .. ولكن فجأة قامت عاصفة فأطاحت بإحدى النوافذ . ودخل الهواء والنور والشمس .. وانفتحت الدنيا على شوارع وميادين .. وانطلقت سعيداً بحريتى .. ضائعاً بين الميادين والشوارع وكل أنواع المواصلات .. ووجدت أن العالم الواسع ليس إلا سجنا واسعا .. وأنا ضائع مرة أخرى .. أما أقصى درجات الجنون فهى محاولتى المستمرة أن أفهم ماذا حدث لى ولغيرى من الناس .. وتوهمت أن هذه هى الفلسفة وأن الفلسفة حياة ، وأن الفلس والإفلاس من طبيعة المفكرين .. فمن عاش فيلسوفا عاش مفلسا . فثروته ورق مطبوع .. كتب .. لا بنكنوت ..

ت ا : والحكاية دى عرفتها امتى ؟

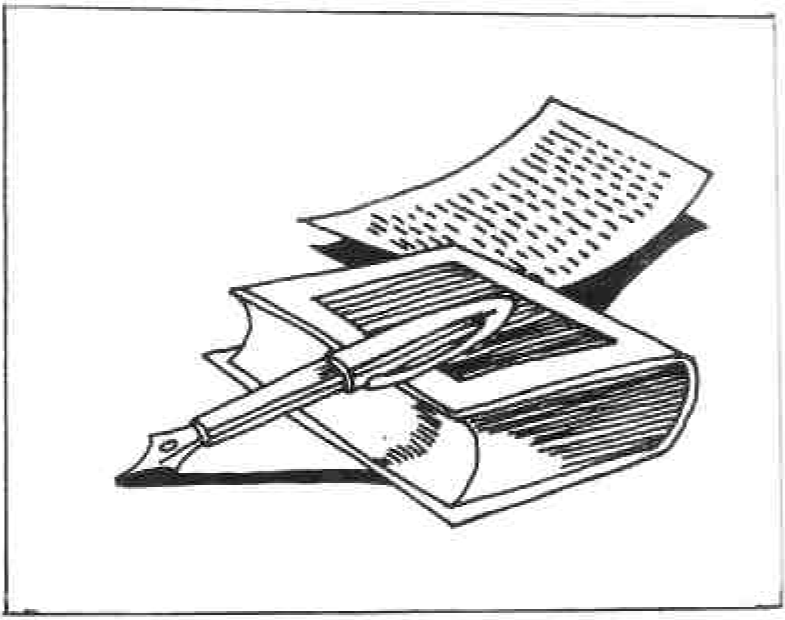
أ .م : اليوم فقط .

ت .ا : يابختك والله .. أنا بقى مش عارف أوصل للنتيجة دى .. كل ما أطلبه من الله سنتان .. وفى هاتين السنتين سوف أغير كل شىء .. وأجرب أسلوبا جديدا فى الإقبال على الحياة وضرب الكتب بالجزمة وطرد جميع المؤلفين من

حياتي .. ولن أسمح لكما بدخول مكتبي أو الحديث معي .. فأنا لم أعرف بكما ومعكما إلا الفقر !

م : يانوفيق بك .. أنت لاتصلح أن تكون ممثلا .. لأنك سوف تؤلف وتخرج على النص .. وممكن جدا تطلع على المسرح ولاتنطق بكلمة واحدة .. لا تعرف بالضبط ما الذى تفعله .

ت .أ : ممكن أطلع على المسرح وأسكت نهائيا .. لأنني تعبت من الكلام .. وأنا لاجيء إلى المسرح .. جئت لكي أستريح .. وأملى ألا أنطق .. وإذا حدث ذلك فسوف تكون أول من يكتب أنني حرامي .. وأنني سرقت هذا الموقف من مسرحية ، الكراسي ، للكاتب يونسكو .. ففى هذه المسرحية رجل وامرأته .. يرتبان المقاعد ويدعوان الضيوف الوهمية إلى الجلوس ولا يتكلمان حتى ينزل الستار . وسوف تتخلى عني ..



توفيق الحكيم

قديما مايزال جديدا ايضا

توفيق الحكيم قديما ما يزال جديدا أيضا

لم أسأل نفسي هذا السؤال قط : ولماذا أقرأ هذا الكتاب ؟

فأنا أمد يدي إلى كتاب وأقلب في صفحاته . وأقرأ سطرا هنا وسطرا هناك . ثم أجد عندي استعدادا للاستمرار . هذا الاستعداد هو : رغبة في المتعة . فالقراءة متعة . هذا هو الهدف من القراءة . ففي كل لحظة أجد شيئا جديدا . أعرف . أكتشف . أحب . أصادق المؤلف . وأمضي في القراءة . وإذا أحسست أنني ضقت أو مللت أو سرحت .. أو أجد مشقة في الاستمرار أو صعوبة في ابتلاع أو هضم ما أجد ، فإنني أتوقف فورا . فلم تعد القراءة ممتعة . وإذا أرغمت نفسي على تجرع الصفحات . فقد انتفى الهدف من القراءة . ولذلك فمتعتي الكبرى هي البحث عن الكتاب الذي يمتعني .. فإذا لم أجد هذا الكتاب اتجهت إلى غيره .. وإذا لم أصادف مؤلفا فإنني ألجأ إلى عشرات المؤلفين .. وتكون متعتي أن انتقل بين المؤلفين وبين جنات أفكارهم أو غاباتها .. فبعض المؤلفين يقف على أطراف أصابعه ويقطف المعنى من شجرة عالية .. وبعض المؤلفين يتسلق الأشجار ويتصيد المعاني .. وبعض المؤلفين يسليك وهو يمد يده ويدك لكي يجد المعنى .. فليكن . المهم ألا يرهقني ولا يكرهني . أن تكون الصداقة بيننا سببا قويا في أن أنشغل به وأنصرف إليه ، وأجد له العذر إن وجد قليلا أو لم يجد . ولكن يجب أن يشيع السرور في نفسي .

مددت يدي إلى الكتب أمامي .. وكان كتاب أستاذنا العظيم توفيق الحكيم . عنوانه « يقظة الفكر » .. فكره هو . يقول في أول صفحات كتابه « صرير القلم اليوم ، نفير الإصلاح غدا .. قالها يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٢٩ .

وبقية الكتاب مقالات قصيرة نشرها فى أخبار اليوم وآخر ساعة والأخبار فى الأربعينات . وكلها تدل على أن أزياء الحكيم القديمة ، هى موضة هذا العصر .

وكلها تؤكد معنى اهتديت إليه وهو أن توفيق الحكيم الروائى والقصصى والمسرحى يجىء فى المقام الثانى بعد توفيق الحكيم كاتب المقال فهو من أحسن كتاب المقال القصير فى أدبنا الحديث . وعبارته قوية سريعة شفافة بليغة . روح المرح والسخرية عند الحكيم ، واضحة فى مقالاته أكثر منها فى قصصه أو مسرحياته .

وقد استهل الأستاذ الحكيم كتابه بموضوع « قصة الفن القصصى فى القرآن » وهى رسالة جامعية للأستاذ محمد خلف الله وقد طالب كثيرون بإحراقها أمام الأساتذة والطلبة .. وطالب آخرون بفصل صاحب الرسالة .. وأعلنت بعض الصحف أن صاحب الرسالة قد ارتد عن الإسلام ولابد أن يعلن رجوعه إلى الإسلام وأن يجدد عقد زواجه على زوجته إن كان متزوجا وأن يتوب إلى الله توبة نصوحا ..

وقبل ذلك ألف الأستاذ على عبد الرازق وزير الأوقاف كتابا « عن الإسلام وأصول الحكم » فقامت قيامة الأزهر وفصلته هيئة كبار العلماء واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون من وزارة زيوار باشا احتجاجا عليه . وأقيل وزير العدل من منصبه وكان عبد العزيز فهمى باشا .

وعندما ألف د . طه حسين كتابا عن « الشعر الجاهلى » فشكك فى بعض المعتقدات وقامت قيامة البرلمان وأراد مجلس النواب إخراجه من منصبه فهدد عدلى باشا يكن بالاستقالة من منصبه كرئيس للوزراء ، حماية لحرية البحث العلمى .

ويبعث الأستاذ محمد خلف الله رسالة إلى الأستاذ الحكيم يقول فيها أنه فى مايو سنة ١٩٤٧ قدم رسالة لنيل الدكتوراه فى الأدب . وأحالها عميد الكلية إلى لجنة . فامتدحها بعض ، وأنكرها بعض .. وأفتى أحد الأساتذة بأن صاحب الرسالة قد كفر . وأما الشيخ محمود شلتوت فقد توقف حتى يتثبت من حكم الله فى تفسير كتاب الله .. ويقول الأستاذ خلف الله وهو يطلب رأى الأستاذ الحكيم : إن الدراسة الجامعية لا تستقيم إلا مع الحرية ، وإنا لنعجب كيف يكون

الأساتذة الجامعيون قادة الرجعية فى البيئات العلمية ، وكيف لا يشعرون بأن فى ذلك الخطر كل الخطر على التقدم العلمى فى هذه الديار .. هذه هى قضية النكسة الجامعية عرضتها عليكم وعلى القراء ..

أما جوهر القضية فهو : أن قصص القرآن لم تعتمد على أصل من واقع الحياة ، أو من التاريخ بل قد يكون ذلك من عمل الفن الذى لا يعنيه الواقع التاريخى ، وإنما ينتج عمله ويبرز صورته على أساس الحقيقة الفنية والقدرة على الابتكار والتبديل .

وكتب الأستاذ أمين الخولى إلى الأستاذ الحكيم يقول : إن الأستاذ محمد خلف الله يرى أن قصص القرآن ليس لتعليم التاريخ ، ولا سرد وقائعه مرتبة مستوفاة تعرف منها الحقائق التاريخية ، ولذلك لا يلزم أن تكون كل حوادث القصص القرآنى قد وقعت ، بل ما هو تصوير وتمثيل للمعانى ، واطمأن لهذه النتيجة بالاعتماد على مقررات دينية .. وبحسبى أن أقرر لك أنها مقررات فرغ منها الأستاذ الإمام محمد عبده منذ أكثر من أربعين عاما من تقرير ما هو أوسع منها وأبعد مدى ، إذ انتهى من أن القصص القرآنى فيه ما هو مثل لا قصة واقعية ، ومن أن للمؤمنين حق تأويل هذه القصص على أساس أن القرآن يعبر عن المعانى ويصورها بالحكاية وأسلوب الحوار . كما فرغ من أن وجود شيء فى قصص القرآن لا تقتضى صحته لأنه يحكى عن حال الأقدمين الصحيح والفاسد ، والصادق والكاذب . ولأنه يجرى تعبيراته على معروفهم ومنظورهم . ولو كان خرافيا لوصف الشيطان فى قوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » .. ومس الشيطان فى قوله تعالى : « الذين يأكلون الربا ، لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » فليس فى هذا وصف صحيح من أمر الشيطان أو مسه .. بل إن الأستاذ الإمام قد أول الملائكة بالأرواح والقوى ، والشياطين وإبليس بدواعى الشر ، وعرض فى بيان طويل لتأويل قصة آدم كلها فى سورة البقرة .. ثم فضل التأويل على التسليم بحقيقة هذه الأشياء والأحداث ، مقررا أن الذى يؤول أعلى كعبا فى الإيمان من الذى يسلم ، لأنه أكثر اطمئنانا ، وأقل تعرضا للشكوك ..

وفى حالة من الفزع والغضب يتوجه الأستاذ الحكيم إلى رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا قائلا : كل ما أستطيع أن أفعل هو أن أرجو رئيس هذه الحكومة أن يتكلم أو يأذن بالكلام .. وألا يستصغر الأمر .. وأن يعلم أنه ليس هو الذى يخيف الإنجليز بصوته فى مجلس الأمن وبصمته فى مجلس الوزراء ، ولكن الذى يخيف الانجليز هو هذه النهضة الفكرية التى اعتقدوا أنها تضىء من الجامعة ، وهذه النهضة الروحية التى اعتقدوا أنها سرت فى الشرق من مصباح الأستاذ الإمام محمد عبده .. التقدم الفكرى والروحى فى مصر هو وحده مفتاح القضية المصرية .. وإذا جلت جيوش الاحتلال عن أرضنا ، فلأنها لا تستطيع البقاء طويلا أمام أشعة من الفكر والعرفان تعمى أبصارها . وإذا حسب المستعمرون حساب مصر فلأنهم يخشون تلك المنارة الفكرية والروحية أن تلاحقهم بأشعتها فى العالم العربى . فالأمر خطير يا رئيس الحكومة إلى حد أطالبك معه بواحد من أمرين لا ثالث لهما : إما أن تدرأ فى الحال هذا الخطر المحيق بهذه المنارة الفكرية والروحية ، وإما أن تستقيل !

وقد فزع رئيس الحكومة النقراشى باشا من كلمة « الاستقالة » واتصل بالأستاذ مصطفى أمين رئيس تحرير أخبار اليوم ، غاضبا . فكان رد مصطفى أمين أنه يحترم حرية الرأى فليس فى استطاعته أن يحذف من مقال الحكيم كلمة واحدة !

• • •

ويتوقف الأستاذ الحكيم عند نهاية كتابه عند الآيات الكريمة : « ... ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون .. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون ... » .

وتخيل أن الله قد أحيا شخصيات قصصه ومسرحياته وأطلقها على المؤلف يطالبونه بأن يطعمهم ويكسوهم .. وتخيل هذا الزحام من شخصياته التى بلغت

انمثات ولكنه لا يدرى ماذا يفعل فيقولون له : أنت الذى خلقتنا أنت الذى تطعمنا .

ووجد من السهل أن يجد عملا للأطباء والمهندسين والعاطلين ، ولكن كيف يجد عملا للملوك والوزراء . وأخيرا طلب من الذين يجدون عملا أن يتصدقوا على الملوك والوزراء .

ثم يسألهم الحكيم : وما الفائدة التى تعود عليه هو من تشغيلهم . فاتفقوا على أن يعطوه « عمولة » ، ولا شك أن تشغيل هذه الشخصيات أكسب له من صناعة التأليف التى لا تعود على المؤلف إلا بالملاليم - إن عادت !

ثم طلب من الله أن يكفيه شر هذه المخلوقات وأن يصرفهم عنه فلا يعرفوا عنوانه !

الشاعر الجارم

كتب الأستاذ العقاد فى مقدمة « ديوان على الجارم » أن الأستاذ ينتسب إلى مدرسة دار العلوم « المدرسة الدرعمية » وأن الجارم ركن من أركانها وهذه المدرسة تتسم بأنها لغوية عربية سلفية عصرية .. وهى أسرة فكرية نفسية خلقتها طبيعة الدراسة التى انفردت بها دار العلوم ولم تشبهها دراسة من قبلها فى لغتنا ولا فى لغة أخرى من لغات الثقافة المعروفة لدينا .

ويقول الأستاذ العقاد أن هذه المدرسة قد انقسمت مدرستين لابسو الطربوش ولابسوا العمامة .. يقول الجارم بروحه الظريفة يصف حاله فى أوربا .

لبست الآن قبعة بعيدا
عن الأوطان معتاد الشجون
فإن غيرت شكلى فإنى
متى أضع العمامة تعرفونى

والشاعر الجارم (١٨٨٢ - ١٩٤٩) من أبناء رشيد .. التحق بالأزهر تلميذا للإمام محمد عبده والشيخ عبد العزيز جاويش .. ثم درس فى دار العلوم

وأوفد فى بعثة إلى انجلترا أربع سنوات وعاد ليعمل مفتشا للغة العربية وعضوا بالمجمع اللغوى وعميدا لدار العلوم .

ولا أزال أذكر صوت الشاعر الجارم فى الإذاعة يلقى قصائده : الصوت كان مليئا واضحا خشنا وكان لنا زميل فى مدرسة المنصورة الثانوية يشبهه طولا وصوتا وأداء أيضا هو الزميل ماهر قنديل مدير تحرير « حواء » وكنا نحب الاستماع إليه .

وقد حفظت للشاعر الجارم أبياتا مفردة فى مدح الملك فاروق وعرشه والترحيب به ذهابا وإيابا ... مثلا يقول الجارم فى قصيدته « الناجية الكبرى » يوم تولى الملك فاروق سلطته الدستورية يوم الخميس ٣١ جمادى الأولى ١٣٥٦ (٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧) :

خشعت لفيض جلالك الأبصار
وذكت بمسك خلالك الأشعار
وتوسمت مصر العلا فى طلعة
قد حفها الإجلال والإكبار
ملك تغار النيرات إذا بدا
أسمعت أن النيرات تغار ؟
غضى جفونك يانجوم فدونه
تتضاءل الآمال والأقدار
يوم تمناه الزمان وطالما
مدت إليه رؤوسها الاعصار
يوم جثا التاريخ فيه مدونا
على ما قد ضمت الأشعار
يوم كان ضياؤه من أعين
من طول ما اتجهت له الأنظار
فاروق : تاجك رحمة وسعادة
للواديين وعزة وفخار
فانعم بما أوتيت واهنأ شاكرا
لا زلت بالنصر المبين متوجا

نحيا بك الأوطان والأوطار

وقال فى حفل أقيم له فى الخرطوم سنة ١٩٤١ :

يانسمة رنحت أعطاف وادينا
قفى نحييك ، أو عوجى فحيينا
وإنا على العهد لابعد يحولنا
عن الوداد ، ولا الأيام تنسينا
وقد بدت صفحة الخرطوم مشرقة
كما تجلى جلال النور فى سينا
جئنا إليها وفى أكبادنا ظمأ
يكاد يقتلنا لولا تلاقينا
جئنا إليها فمن دار إلى وطن
ومن منازل أهلينا لأهلينا
ياساقى الحى جدد نشوة سلفت
وأنت ، بالجنبات ، الحمر تسقينا
واصدع بنونية لما هتفت بها
تشرق السمع ، شوقى ، وابن ، زيدونا ،
وأحكم اللحن ياساقى وغنى لنا
إنا محبوك ياسلمى فحيينا

شرح الكلمات والمعانى فى هذه الأبيات
أما « الجنبات » فناجين من الفخار يستخدمونها فى السودان للقهوة .
والجارم يشير إلى قصيدتين قافيتهما نون .. الأولى لأمير الشعراء شوقى تقول :

يانائح الطلح أشباه عوادينا
نأسى لواديك أم نأسى لوادينا

وشوقى يعارض بها قصيدة للشاعر الأندلسى بن زيدون الذى قال :

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

أما نصف البيت الذى جاء فى هذه القصيدة فالشاعر عمرو بن سعد بن مالك وهو شاعر جاهلي كان يلقب بالمرقش الأكبر .. أما البيت كاملا فهو :

إنا محيوك ياسلمى فحيينا
وإن سقيت كرام الحى فاسقينا

أما الذى ليس واضحا فى هذا الديوان فهى خفة دم الشاعر الجارم فالذين يعرفونه يجدونه ظريفا يعرف ما لا نهاية له من النكت الأدبية والنوادر التاريخية ..

وقد اختار الجارم علم النحو ليتفوق فيه وبكتابه ، النحو الواضح ، قد أرسى القواعد السهلة لعلم النحو .. وفى هذا الكتاب اختفى وراء القواعد والأصول ، ولم تظهر روحه الفكاهية .

ويقولون : إنه كان من أظرف أدباء العصر .

وكان أيضا من فحول الشعراء التقليديين ..

وأخيرا صدر ، ديوان على الجارم ، جزأين فى مجلد واحد

التحدى الحضارى والغزو الفكرى

هذا عنوان كتاب صدر أخيرا وكان محاضرة ألقاها الأديب العراقى الكبير د . يوسف عز الدين الأستاذ بآداب جامعة الملك سعود . فى يونيو سنة ١٩٨٢ .

وقد قدم لهذه المحاضرة الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية بقوله : سوف يتعرض الجيل الناشىء للمؤثرات التى ترد مع وسائل التطور الخارجى . لذا فإن مسئولية المؤسسات التربوية والإعلامية أن تعمل على توجيه الفرد فى الاتجاه الصحيح من حيث بناء الشخصية الوطنية المؤمنة ومقاومة المؤثرات الخارجية وبناء عوامل المناعة الذاتية ..

يقول د . يوسف عزالدين : بعد أن خسر الاستعمار مواقعه القديمة التى حصل عليها بالسلاح والقوة الغاشمة بقيت مصالحه المادية تلح عليه بضرورة العودة إلى تلك المواقع التى جلبت له الرفاهية والخير .. ولم يجد أمامه أسهل من الغزو الفكرى والسيطرة الثقافية وفيها تأمين لمصالحه وعودة تدفق بضائعه فى أسواقنا .. ولما قابل ثبات العقل العربى والأصالة الإسلامية ومتانة الفكر الشرقى وهى جميعا تحول دون تسلل هذا الفكر ، فانساب إلى القاعدة الخلقية وإلى بنائها التراثى وشموخها الحضارى بعد أن رسخت تقاليدنا الاجتماعية وأصبحت قوية واثقة من أصالتها وتراثها .

ومحاضرة د . يوسف عز الدين أعمق وأروع نداء وجهه مفكر عربى إلى زملائه من الأدباء وأساتذة الجامعات ورجال الدين إنه لم يطلب إلى أحد المستحيل لكى يوقف « غزو » الغرب لعالمنا العربى الإسلامى .. إنه فقط يرسم لنا بسهولة وبسرعة ماذا حدث لنا جميعا . ثم كيف نتحلل ونتخلص من هذا الإعجاب العميق ، إذا نحن عدنا إلى حضارتنا العربية الإسلامية ، بعيون جديدة ومفهوم مختلف وليس كل ما هو عربى ، قديما يصلح الآن .. مهما حاولنا إعادة صياغته وتطويره .. ولكن يجب أن يكون الإنسان نفسه ـ أى يكون مخلصا لنفسه ، صادقا مع وطنه ، واعيا لرسالته .. فلا يرفض الغربى لأنه غربى ، ولا يفضل العربى لأنه عربى ..

وقد مشينا عميانا جميعا وراء الحضارة الغربية الباهرة جذبتنا أخذتنا استولت علينا فنسينا أصولنا .. قلدناها ورددنا ما أعجبنا به .. فكانت مذاهبنا الأدبية والفلسفية الغامضة المشوشة نقلناها إلى لغتنا وتراثنا .. وأضفنا إلى إفلاسنا الروحى مزيدا من الغموض .. وتحولنا هاربين من ماضينا لاجئين إلى حاضرهم متعلقين بمستقبلهم .. وترجمنا آثارهم .. ونوهنا بها أو رفضناها ومن الجنون بها والجنون ضدها ، انهارت الشخصية العربية ضحية سائغة للأفكار الغربية من كل لون وطعم .. وكان الخضوع لها أيسر وأجمل . واستسلم كثيرون وتفرقنا فيما بيننا معها وضدها .. ومعنا وضدنا .. أما كيف نصد التيار ؟

وأنا هنا أختلف مع صديقى د . يوسف عز الدين .. فالتيار كله ليس شراً .. فالتطور العلمى الباهر ليس موجها ضد العرب . بل إننا نستفيد من كل وسائل

المواصلات مثلا . ونحن لا ننام ونصحو فنجد أنفسنا هكذا خواجات لا نؤمن لا بالعروبة ولا بالإسلام .. وإنما نحن نقرأ ونتفرج ونختار ما يعجبنا .. تماما كما أنك سافرت وتأثرت واستمعت وتدعونا جميعا أن نقف سدا منيعا ضد التسلل الفكرى الذى يهدم تاريخنا ويمزق وحدتنا وقيمنا الأخلاقية .

لا أجد صعوبة فى أن يكون الإنسان مسلما وقارئا لكل الأفكار المعادية للإسلام ، وأن يكون عربيا ويقرأ بعشر لغات .. ويتكلمها أيضا .. فليست الحضارة عواصف لا تصد ولا ترد .. ولا هى وباء لا علاج له .. ولا هم آلهة ونحن بشر .. وإنما هم بشر مثلنا .. ونحن نأخذ منهم ما نريد ، ونعطى ما نستطيع . ثم إننا لا نستطيع إلا أن تبهرنا حريتهم المقدسة وكيف يمارسونها .. ونعجب بذكائهم ضدنا أو فى خدمتنا ..

وأنا أوافق د . يوسف عز الدين فى بعض تخوفاته وأمله أيضا على ضرورة فهم حضارتنا العربية فلا ننسى الماضى ولا نستغرق فى الحاضر ولكن الاعتدال - وهو صعب - هو ما يجب أن نحرص عليه لنا وللأجيال الصاعدة من بعدنا ..

وأما الداء الحقيقى فهو الذى شخصه د . يوسف عز الدين بقوله :

« الغرب يحتضن صاحب الرأى ولو كان معارضا ، وفى الوطن العربى تحرق يد المعارض ويصفى جسديا حتى وإن ترك وطنه إلى بلاد بعيدة وسكن بلاد الغرب .. أو الوطن العربى .. فما يكون رد فعل ما قرأ ؟ إنها الحيرة والضياع والغربة ؟! ..

فقط ؟

فقط !

فقط ؟!

ماذا حدث ولماذا وكيف حدث ؟

لا إجابة عند الأديب السعودى عبد الله الجفرى . لأنه لا شىء حدث . وإنما هو يكتب ويتوجع ويلهو بعذابه وعذاب الآخريات .. إنها لذة الفن للفن !

وكتابه الأخير اسمه « فقط .. » وهو نموذج لأسلوبه الذى هو حياته فكتاب : لوحات .. اسطوانات .. حوار بينه وبين التى يحبها ، والتى يكويها وتشويه .. أو يتوهمان ذلك ..

وعبد الله الجفرى صحفى لامع . ولكنه اختار « الظلال » مقرا ومستقرا وأسلوبا وهدفا لحياته الأدبية .. فهو لا يفتح عينه فى النور ثم إنه لا ينام فى الظلام وإنما هو يتحسس يتلمس يتصنت .. وإذا كانت الصحافة شمسا فهو إحدى البقع الشمسية .. فقد اختار خيمة من حرير شفاف فوق الرمال بالقرب من نخلة فى واحة صناعية .. ومن حين إلى حين يطل القمر وينزل المطر دمعا ، أو الدمع مطرا من عينى حبيبته .

والحوار معها أو عنها يشعل النار فيه .. فلا تزال يده تزحف تلامس يدها . فإذا حدث . وهذا هو الحدث الوحيد فى كل الكتاب . فلابد أن يضيء القمر وجهها .. والكون كله ! .. أو تعلن الساعة انتصاف الليل !

كلام فى سلام فى كلام فى حرير فى دخان فى ضباب فى آهات فى توسلات وحسرات .. ولعنات لليوم الأسود الذى أحب فيه ..

وأنت غارق معه فى هذا الهباء الرومانسى يسألها : ومن هو ابن الكلب الذى أغضبك ؟ .. فترد عليه أنت !

ولا يضحكان . ولكنك أنت القارىء تشعر بأنك أعطيته رأسك فشجها بسرعة وأعادها لك نصفين .

يقول لها : إن نفسى فى حاجة إلى مطر يغسلها .. ولكن نفسى تشبه مدينة « جدة » قليلة المطر .

لقد كذب عليها .. إن حياته تشبه مدينة جدة ولكن ليس فى نقص المطر وإنما فى أشياء أخرى كثيرة ..

وإذا كانت الحياة « جدة » فإن الحب « مكة » ..

والأستاذ عبد الله الجفرى حريص على أن يظل آخر الرومانسيين فى بلاده ، إحياء لتقاليد أدبية اجتماعية نفسية كانت مزدهرة من عشرة قرون ..

فهو حامل اللواء المتقدم بالعشاق إلى النار .. ليس وحده - طبعا - وإنما رجله على رجلها ورجلها رقبته - آمين !

ومن الإنصاف للأستاذ عبد الله الجفرى أن نعترف بأنه عاشق برىء فنان .. بياع كلام شعاره : ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان التليفون ثالثهما !



موراڤيا: الطريق الى النار

مورافيا : الطريق إلى النار ..

فى حياة كل واحد منا حادثتان : حادثة تصطدم بها ، أو تتعثر بها .. وحادثة تؤدى إلى تغيير مسار حياتك !

الأولى هى الحادثة « الصدفة » .

والثانية هى الحادثة « القدر » .

وكان لقائى بالأديب الإيطالى العظيم ألبرتو مورافيا من حوادث القدر .. فقد جاء هذا اللقاء فى الوقت غير المناسب لى تماما ..

كنت حديث تخرج فى الجامعة .. وحديث العهد بالعمل الصحفى .. وكانت ما تزال المصطلحات الفلسفية عالقة بقلمى .. فكان من الصعب إذا كتبت ، ألا أجدنى قد استخدمت بعض التراكيب غير المفهومة إلا للمختصين .. وأحسست أن هذه « عورة » بلاغية .. وأننى كالذى يستخدم كلمات أجنبية كثيرا فى حديثه أو كتابته .. أى أنا لست مفهوما .. وفى نفس الوقت انفتحت أمامى أبواب الحياة وشوارعها وملاهيها ..

والمطلوب منى هو أن أعمل جادا ، وأن أؤكد وجودى الأدبى .. وأن أستدرك ما فاتنى من ملذات الحياة ..

وفى ذلك الوقت رأيت أول فيلم سينمائى فى حياتى فلم أكن قد دخلت السينما قط .. فقد تفرغت تماما للدراسة والتفوق فيها وفاتنى أن أرى السينما والمسرح أو الملاهى .. أما هذا الفيلم فهو « غراميات كارمن » بطولة ريتا هيوارث وجلين فورد .. والقصة معروفة للشاعر الفرنسى مسريميه .

وكان هذا الفيلم هو « الفيلم القدر » فقد غير حياتى ومسار أفكارى الفلسفية .. أما الذى فى هذا الفيلم هو أنى رأيت الغجر .. حياة الغجر .. وقد كتبت عن الغجر كثيرا جدا .. وأحدث كتاب صدر لى عنوانه « إلا قليلا » .. كتبت فيه فصلا طويلا عن علاقتى بالغجر .. وقبل ذلك أصدرت كتابا بعنوان « نحن أولاد الغجر » .. وفى كتاب صدر لى من عشرين عاما « وداعا أيها الملل » فيه فصل بعنوان « نحن أولاد الغجر » .. فالكاتب والفنان والفيلسوف والشاعر والصعلوك كلهم مثل أولاد الغجر .. جماعات .. شرائح .. تعيش على الحافة بين القانون والخروج عليه .. نعيش « كأننا » منبوذون من المجتمع .. والحقيقة أننا أخترنا أن نكون كذلك .. وأن صفاتنا وموهبتنا ومزاجنا النفسى ، قد جعلنا منعزلين منفصلين .. إنفصال الرهبان فى الصوامع ، والعلماء فى المعامل ، ورواد الفضاء .. والمحكوم عليه بالإعدام فنحن أيضا محكوم علينا بالأفكار الشاقة المؤبدة .. ونحن نحمل أكفاننا التى سندفن فيها ، وصلباننا التى نموت عليها .. أو هكذا تصورت .. وتصورنا ..

وفى ذلك الوقت ذهبت لأول مرة فى حياتى إلى كباريه .. ورأيت راقصة .. أول راقصة شرقية أراها شحما ولحما وابتساما عاما ، ظننته شخصياً .. وكتبت قصصا ونظمت شعرا ، وبسرعة جاءت خيبة أملى عميقة .

وكانت هذه الراقصة .. هى « الراقصة القدر » ..

• • •

والتقيت بالأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا بالصدفة فى فندق سميراميس بالقاهرة .. وكنت قد قرأت له عملا أدبيا واحدا وكتبت عنه كثيرا جدا ، وأنا لا أعرفه .. ثم رأيته . وكان هو وزوجته الأديبة إلزه مورانته .

دعنى أصف لك ألبرتو مورافيا .. إنه نحيف طويل رشيق . سريع الحركة أصلع حاد الحاجبين والأنف جامد النظرة ، وزوجته قد أشار هو إليها ، فنهضت وسلمت عليها ، ولم أكن أعرف أن أصابعى مثل أنياب الحية أو ذيل التمساح .. فلم أكد ألمس يدها حتى خطفتها منى وأخفتها فى ملابسها ، وظهر عليها الألم ، وقال لى مورافيا : إنها مرهفة .. وعرفت فيما بعد أنها عصبية جداً ،

أو مجنونة إلا قليلا . وأنها معذورة فى ذلك ، فهى دميمة . وهو نجم الأدب الواقعى الإيطالى اللامع الذى تدور فى فلكه جميلات كثيرات ..

أما الرواية التى كنت قد قرأتها له فهى ، فتاة من روما ، الفتاة إسمها أدريانا .. جميلة والحياة بعد الحرب العالمية الثانية قاسية شاقة . وكان من نصيب أدريانا هذه أن تصور كل ما يلقاه الناس من هوان وبيع وشراء . والسبب الحرب .. والسبب : الفاشية الدكتاتورية فى إيطاليا ..

وكانت رواية ، فتاة روما ، أول رواية أقرؤها فى حياتى بلغتها الأصلية . الأسلوب جميل . العبارة سهلة قاطعة صفحات الجنس تشعل النار ، حتى لقد ضبطت نفسى مرة بدلا من أن أقلب الصفحات ، فإننى أنفخ فيها !

قلت لألبرتو مورافيا : إن رواية فتاة روما قد أوقعتنى فى كارثة عاطفية .. فقد وصفت فتاة إيطاليا بأنها مثل أدريانا .. ولم أكن قد قرأت هذه الرواية بعد ، وإنما قرأت عنها .. أما هى فقد قرأت الرواية ، وغضبت . وانفصلنا وحاولت بعد ذلك أن أعتذر ولكن لم أفلح .

قال مورافيا : حدث ذلك للأديب الإيطالى بيراندللو .. فقد إدعى فى إحدى المرات أنه قرأ الخطاب الذى بعثت به محبوبته .. وتشاجر معها . وانفصلا . ولما عاد إلى البيت يقرأ الخطاب وجد أنها قد وافقت على كل شروطه : أن تترك زوجها وأن تعيش معه .. وأن تبيع أرضها . ولكنه لم يكن قد قرأ إلا خطابا قديما لها ..

وعندما حاول أن يعود إليها معتذرا وجد خطابا تحت الباب تقول فيه : إن الأدباء المجانين لا يعرفون إلا البكاء على الماضى .. فإن كان عندك متسع من الوقت لتبكى فهذه هى الفرصة .. لقد انتحرت !

ثم قابلت ألبرتو مورافيا بعد ذلك فى برلين ..

وقابلته هو وزوجته الجديدة الأديبة الجميلة داشيا ماريانى التى كتبت رواية واحدة هى ، زمن المرارة ، وكان ذلك فى هافانا عاصمة كوبا ..

ثم انفصل عنها . وقابلته مع الصديقة الجديدة ماتيلاجاللى فى بيته فى روما ..

وبعد ذلك توالت روايات مورافيا : زمن اللامبالاة .. والإمرأتان .. والحب الزوجى .. والملل .. وعشرات القصص القصيرة .. وروايته « ١٩٣٤ » .. وكتب الرحلات فى الصين وروسيا وأفريقيا .. وترجمت له أربعون قصة قصيرة .. واكتشفت جانبا مجهولا لنا فى حياته : المقالات الأدبية الممتعة التى كان ينشرها فى الصحف . والتى جمعها فى كتاب بعنوان « الإنسان غاية » .

وعندما قرأت رواية « فتاة روما » .. إهتزت حياتى وانفتحت أمامى سراديب الليل فى القاهرة والعواصم الأوروبية ..

وعندما ذهبت إلى روما مشيت فى نفس الشوارع التى كانت تمشى فيها أدريانا .. وظننت أننى قابلتها .. فى ميدان البندقية وإنطلقت إلى شارع دلكورسو - أى شارع السباق ، حتى ميدان الشعب .. (بياتسادل بوبولو) .. وصعدت إلى حديقة بورجيزة .. إلى كباريه فيلا فرانكا .. ودخلت ، وكما دخلت خرجت بسرعة ، فقد وجدت الملك فاروق ، وكان قد خرج من مصر منذ أيام .. وكانت السماء ممطرة .. ومشيت .. ومشيت .. حتى وصلت إلى ميدان بربريتى . واتجهت إلى أول مطعم . وكان المطعم صغيرا . وفى أحد الأركان أشرت إلى أننى أريد أن آكل أى طعام . ولم أر بوضوح من الذى وقف أمامى .. إنها فتاة جميلة .. سوداء الشعر والعينين .. وقد استندت بجسمها على المنضدة وانحنت إلى الوراء فأبرزت نهديها وسحبت خصرها . واعتدلت أنا لأرى فقلت : أنت أدريانا !

فهزت رأسها : نعم

قلت : شيء عجيب حقاً !

قالت : ماهو العجب .. إسمى أدريانا وأنت سألتنى بالأمس فقلت لك ..

ولم أكن أعرف أننى جئت إلى هذا المكان بالأمس .. وأحسست فجأة أننى مجنون أدريانا ..

وبقية القصة عادية .. ولكن الأثر الذى تركته هذه الرواية فى حياتى كان عجيبا . فقد أحسست فى ذلك الوقت أننى مثل عربة يجرها حصان وحمار ..

أما الحمار فهو المشتغل بالفلسفة أما الحصان فهو الذى يريد أن يخوض الحياة ويلقى بنفسه فى النار أو يرمى بقلبه على أنياب وأظافر الليل ليتبدد دمه بين قتلى الهوى والشباب .

واخترت أن أحتفظ بالحمار ، إحتياطيا ، فجعلت الحصان يجر عربتى .. أما الحمار فقد ربط فى مؤخرة العربة . ربما احتجت إليه . ولا أنكر أننى احتجت إليه .. وإنما أحسست كثيرا أننى وضعت الحمار فوق العربة ورحت أدفعها من الخلف فقد أحسست أن الحصان بطىء .. ولم أفكر لحظة واحدة : ولماذا لا أترك العربة والحصان والحمار، وأنطلق وحدى هائما على وجهى !!

وحدث . وكان ألبرتو مورافيا يدفعنى رواية وراء رواية وقصة وراء قصة إلى ماهو أعمق لكى أرى وأن أحس .

وربما كان مورافيا هو الذى أسلمنى إلى الإهتمام الشديد بالكاتب الأمريكى تنسى وليامز .. لولا أن تنسى وليامز هو أديب الجنس المريض ، أما مورافيا فهو أديب الجنس الذى هو صحة وعافية وفن !

سألنى مورافيا فى لقائنا الأول فى القاهرة : ولماذا أدريانا بالذات ..

قلت : إنها أول عمل أقرؤه لك .. وأنا أول من قدمك إلى اللغة العربية .. ولو نزلت إلى المكتبات فسوف تجد هذه الرواية وحدها ..

سألنى : وهل الحياة فى هذه الرواية قريبة الشبه بالحياة فى مصر الآن .

قلت بعد الحرب العالمية الثانية : كانت القاهرة مثل روما .. لولا أن القاهرة لم تتهدم ، ولا مصر كلها .. كما حدث فى روما أو فى إيطاليا .. ولكنى لا أستطيع أن أعرف ما الذى حدث فى مصر فى تلك الوقت فقد كنت طفلا ..

قال مورافيا : إذن أنت أقرب إلى الفلسفة الوجودية منك إلى الواقعية الأدبية .

قلت : صحيح . فأنا اشتغل بالفلسفة الوجودية .. أدرسها وأقوم بتدريسها فى الجامعة ..

قال مورافيا وكان يتقلب كثيرا فى جلسته .. ويرفع ساقا ويضع ساقا وعرفت فيما بعد أنه أعرج بسبب شلل الأطفال الذى أصابه وهو طفل .

فهمت .. إذن أنت مبهور بالألوان الصارخة فى الرواية وفى الحياة .. وأنت سعيد بتقلب الألوان . ولكن فى نفس الوقت لا تهتم كثيرا بالعلاج الإجتماعى أو السياسى .. فأنت إذن مستعد أن ترى أدريانا تنتقل من حضن رجل يحبها إلى رجل يعذبها ، وآخر يذبحها ، ورابع تذبحه ، دون أن تتدخل .. ودون أن تثير شفقتك .. ألا ترى أن الفلسفة هنا مظهر من مظاهر القسوة أو البلادة .. فالطبيب الذى يرى مشاهد القتل وصراخ المرضى ولا يهتز ، ليس لأنه بليد الحس ، ولكنه إعتاد على ذلك .. بينما أهل المريض يصرخون ويذوبون دمعا .. ألا ترى أن الفلسفة ليست إنسانية .. فقط أن ترى وتتفرج وتحلل وتكون سعيدا بالذى إهتديت إليه فى النهاية .. ثم إن هناك قدرا من الأنانية .. فأنت تريد أن تكون أدريانا فتاتك وحدك . دون أن تمر بهذه التجارب ودون أن تكشف لك المجتمع الإيطالى بعد الحرب .. فهمت .. أنت مازلت شابا . وأنا عندما كتبت رواية « زمان اللامبالاة » كنت أتحدث عن شبابى فى ظل الحياة « الفاشية » فى عهد موسوليني .. ورأيت أن اللامبالاة علاج .. وفى نفس الوقت جريمة .. وأنه في ظل الأزمات الكبرى تجد الناس : مندفعين بالكراهية والرغبة فى الإنتقام .. أو لامبالين كأن الأمر لا يعنيهم .. وفى الحالتين فإن المجتمع يخسر القوة التى من الممكن أن تنقذه مما هو فيه .. ولذلك لا يكون الخلاص إلا بعد ذلك .. أى بعد أن تنخفض درجة حرارة الناس .. ويرون أوضح .. أى بعد أن تكون البيوت قد سويت بالأرض .. ويكون الناس أنفسهم خرائب نفسية وعقلية .. ومن هذه الخرائب وعليها ، أقيمت أعمالى الأدبية : فنا وتشريحا ودعوة لإصلاح شيء !

لم يكن الحديث مع ألبرتو مورافيا إلا سحرًا متدفقا .. هل كنت أكتب كل الذى يقول ؟.. كنت أفعل ذلك وفى نفس الوقت أنظر إليه .. إن الكلام يخرج جاهزا .. فليس على وجهه أى مجهود فى إخراجه أو تنسيقه ..

وجاءه من يناديه .. ووقف مورافيا لأجده يعرج بشدة .. ونظرت إلى زوجته لقد لفت رأسها بمنديل أحمر . وأخفت وجهها فى يديها ثم اختفت هى فى بالطو ثقيل .. وكان الفزع والقرف والقسوة هى إسم الشعاعات التى تخرج

من عينين في لون الخرز وفي حجمه أيضا . وعندما حاولت أن أحييها . نظرت إلى الناحية الأخرى . فمات الكلام في حلقي .

وجاء مورافيا وجلس يقول . وكأنه رأى دهشتي لأنه أعرج فقال : أنا لم أذهب إلى مدرسة . تعلمت كل شيء في السرير . فقد أصابني شلل الأطفال . وتعلمت اللغة الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والآلة الكاتبة على السرير . وسمعت من أمي نصيحة واحدة مضحكة . ولكنها في غاية القسوة والصدق . قالت أمي : لم أستطع أن أفعل أكثر مما فعلت . حملت وولدت .. ولم أستطع أن أجعلك أكثر قوة .. هذا كل الذي استطعت . وعليك الباقي ! وفعلا كان الباقي هو العبء الأكبر .. ولا أعرف كيف قررت أن أكون كاتبا . فليس أمام المقعد المشلول إلا أن يقرأ وإلا أن يقرأ وإلا أن يفكر .. أما أثر هذه القراءة في نفسه ، فليس مضمونا من البداية .. وكل الذي تمنيت أن أحققه ، جعلته في أبطال رواياتي .. فقد فعلت كل الذي لا أستطيعه ..

وسألت مورافيا إن كان قد قرأ شيئا من الأدب العربي الحديث .. لم يقرأ شيئا ولكنه سوف يحاول ذلك ، فلا يمكن إغفال الحضارة العربية أو ما تبقى منها .. ولكنه ذكر بعض الأسماء التي أعرفها في الأدب اللبناني الذي ترجم إلى الفرنسية ..

وفي يوم جاء ألبرتو مورافيا إلى القاهرة .. وقابلته قائلا : من محاسن الصدف أن ظهرت لك اليوم روايتان مترجمتان ..

وكانت يده قد امتدت إلى جيبه وأخرج ورقة وقلما ، قبل أن أكمل هذه العبارة ، وقبل أن تظهر على وجهه معالم السعادة . إن كان يسعده ذلك . أو الغضب . فسألني عن إسم الناشر وإسم المترجم . فقلت : لا تحاول أن تكتب .. فنحن لم نوقع على « إتفاقية برن » فليس لك أية حقوق مادية عند الناشر أو المترجم ..

ووضع الورقة والقلم في جيبه . ولم أجده سعيدا بأن تكون كتبه قد نقلت إلى العربية . وطلب مني أن أحضر له نسخة من كل من الكتابين . وفعلت . ولم يعلق بشيء !

وسألني : ما هي قضاياكم الأدبية .. أو ما هي قضاياكم السياسية الآن .. وكنا في سنة ١٩٥٥ ..

فقلت : لاشيء أكثر مما تعرفه عن الأحداث التي طرأت على مصر والعالم العربي بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ .. ويمكن أن يقال أن المجتمع قد وجد « الصيغة » و « المعلم » .

فاعتدل في جلسته واتجه ناحيتي باهتمام شديد قائلا : أنت قلت شيئا هاما جدا .. وشيئا عميقا جدا .. وقد شغلني ذلك في العشرين عاما الماضية .. الصيغة .. والمعلم .. هل تعرف أنه من الممكن أن يجد مجتمع من المجتمعات صيغة جديدة لتفكيره وحياته .. وتكون الصيغة قوية مقنعة .. ولكنه يتخبط في تطبيقها لماذا لأنه لايجد من يعلمه كيف يفعل ذلك . ومن الممكن أن يوجد « المعلم » ويكون قوى الشخصية قادرا على الإقناع . ويكون قدوة ومثلا أعلى .. ولكن بلا صيغة .. أي بلا نظرية تعيد ترتيب وتنسيق وتطوير أدوات العمل في أي بلد .. ويمكن تطبيق ذلك في عالم الأدب أيضا .. فهناك أدباء عندهم صيغة جميلة . كما وجدت أنت مثلا في رواية « فتاة روما » هذه هي الصيغة .. ولست أنا المعلم .. ولكنك أنت الذى علمت نفسك بنفسك كيف تعيش على ضوء أدريانا وإلى جوارها وفي ظلالها وعلى صداها .. وكذلك من الممكن أن تجد شخصية أدبية بارزة باهرة . يلتف حولها الناس . ويكون له صالون أدبي ويقوم هو بصناعة سلوك وحياة المترددين عليه .. ولكنه يعجز عن صياغة الفكر الاجتماعي والسياسي في بلده كلها .. ولكن إذا كان المعلم هو صاحب الصيغة ، فأنت أمام ثورة كبرى في كل شيء .

قلت هل أنتقل إلى الفلسفة ..

قال : أحبها .. ودرستها ..

قلت : أستاذنا العظيم أفلاطون قد كتب محاوراته الشهيرة « الجمهورية » ووضع فيها الصورة المثالية للحياة في زمانه وكل زمان .. فهو صاحب « صيغة » صاحب « نظرية » .. ولكن عندما طلبوا إليه أن يطبق نظريته هذه في إحدى الجزر فشل .. أي نجح فيلسوفا وفشل سياسيا .. أي نجح نظريا وفشل عمليا ..

فهو صاحب أكبر نظرية ناجحة ، وصاحب أكبر تجربة فاشلة .

وبسرعة واختصارا لحوار من الممكن أن يكون طويلا جدا قال : وأين يقف الناس في مصر ..

قلت : نحن في عصر المعلم الذي يبحث له عن نظرية .. ولذلك ليس غريبا أن يعلن جمال عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » أنه هو وزملاؤه من الثوار كانوا من « ست شخصيات تبحث عن مؤلف ».. وهو إسم مسرحية الأديب الإيطالي بيراندللو وقد أخطأ عبد الناصر فقال أنها « رواية » .

ومعنى ذلك إنه موجود وعنده رغبة وعنده استعداد لأن يفعل . ولكن ليست عنده نظرية ولاخطة عمل .. إنه قام والتف حوله الناس . ولكنه لا يجد ما يقول .. أو سوف يجد ما يقول بعد ذلك ..

وهز موارافيا رأسه وقال : أعرف ذلك في التاريخ .. إذن أمامكم مرحلة من حكم الفرد والدكتاتورية الطويلة .. أي سيظل هو المعلم الذي يبحث عن نظرية .. أي الشخص الذي يبحث عن مؤلف يلقنه ما يقول .. أنتم في المرحلة التي دخلتها إيطاليا وعلى رأسها موسوليني .. فقد كان موسوليني هو « المعلم » أما النظرية فهي التي وضعها له صديقه الشاعر الإيطالي « دانتسوا » ..

وكأنني وضعت في فم موارافيا قطعة من العجين المليء بالدبابيس . فأطبق فمه على مضض .. وانسدت نفسه عن الكلام ..

إنني أعرف هذه الحالة .. وقد مررت بها . ولاأزال من حين إلى حين ..

ولكن أصبح موارافيا صديقي .. ومن متع الحياة ولذاتها أن أقرأ له كل ما يكتب .. وأن أبحث عنه .. وألتقي به .. وأسأله : أين هو ..؟ وأين نحن ..؟

وأعترف أنه من أعظم الروائيين في العالم وأكثرهم عمقا وأطولهم أظافر وأنيابا ..

وأقدرهم على أن يهتدي إلى المعنى وراء كل الفوضى والتناقضات ..

إنه في مكان رفيع من نفسي .



من الذى ليس عدوا للمرأة ؟

من الذي ليس عدوا للمرأة ؟

« عبيط مغفل حمار . وحيوانات أخرى ! »

قلتها في غضب وخجل من نفسي !

ما هذا الذي قلت . ما هذا الذي صدقت . ما هذا الذي استرحت إليه . وكيف ؟ وبهذه السرعة . وما الذي تعلمته ؟ أين العقل ؟ .. أين المنطق ؟ .. أين التحليل أين البحث في أعماقي ..

ما الذي جعلني أتعلق بهذه الزميلة ..

هل هذا هو الحب ؟

كنت أقول لنفسي ذلك . ولكني لا أصدق نفسي . فأنا مندفع . وبعد ذلك أنسحب بسرعة ، فليست عندي هذه القدرة على أن أندفع وأظل هكذا .. مهما كانت النتيجة . فأنا إنسان عاطفي . ولذلك فكثير من أحكامي على الناس خاطئة . هذا مؤكد . ولذلك يكون الابتعاد عن الناس سريعا . ويكون السبب أنني اكتشفت خطئي بسرعة .. فالفتيات كثيرات حولنا ..

وأصبح من المألوف أن نجد الزملاء : واحدا وواحدة .. يجلسون معا . يتكلمون يخرجون . يلتقون . والذي ليست معه واحدة ، يشعر كأنه دون الآخرين .. وكذلك الفتيات . هل هذا هو الحب ؟ لم يتسع وقتي لكي أفكر في طبيعة هذه العلاقة .. وإنما هو نوع من « التلازم » فقط .

ولا أعرف إن كان الحب ضروريا في هذا الوقت ، أو في أي وقت .. أما معناه : أن هذا الطالب لا يستطيع أن يبتعد عن هذه الطالبة . وأن اتفاقا سريا بينهما بالزواج بعد ذلك .. أي بعد التخرج . وليس واضحا لدينا جميعا : معنى التخرج ولا معنى « بعد » التخرج .. ولا ما الذي سوف يجرى بعد ذلك .. ولكن بعض الطلبة يرون أن الشيء المؤكد هو الزواج من هذه الزميلة .. ويحدث هذا الزواج .

ولم أكن أرى في هذا « التلازم » شيئا هاما . فما الذي يحدث ؟ يجلس إثنان يتكلمان ..يقوم الطالب بمساعدة الطالبة في نقل المحاضرات في المكتبة العامة وأحيانا في البيت .. ويرى في المساعدة لها « عربونا » للصداقة أو الحب .. ولكن المهم أنها ارتبطت به بشكل ما ..

وقد فعلت ذلك كثيرا . فبعد مساعدة زميلات وأمليت عليهن أبحاثا كاملة .. قرأت ولخصت وتعبت ثم أمليت ذلك عليهن . لماذا ؟ ربما كان إظهارا للقدرة وحرصا على أن تبقى الزميلة ملازمة أو صديقة .. أو حرصا على المظهر العام . وفوجئت بأن إحدى الزميلات قد أهدتني « أباجورة » ملفوفة في ورق بشريط أحمر . وكانت مشكلة ، فأنا لا أعرف أين أضعها في البيت . وقد بقيت هذه الأباجورة ملفوفة في ورقها أكثر من عشر سنوات . ولم أفكر في مدلول هذه الهدية .. ولا معناها .. ولكن صاحبة الهدية حاولت أن تقول : أنها لم تفعل ذلك من قبل .. ولكن إحساسها .. وعمق العلاقة التي بيننا .. ولم تترك هذه الهدية أو هذه العلاقة أي أثر أو أي معنى في حياتي بعد ذلك .. فكل هذه المشاعر «ترف» ليست هي المشاعر الضرورية التي هي : الامتحان .. والمذاكرة والنجاح والتفوق .. والعمل بعد ذلك ..

وفي يوم جلست في حالة قرف من حياتي وندم على التفاهات التي أرتكبها بانتظام . ولا أعرف دافعا حقيقيا لذلك . مثلا : ذهبت أهنىء أحد الزملاء بزواجه ولم أحمل معي هدية لذلك !

ولم أفكر في معنى هذه الزيارة . وقلت لنفسي : ربما أردت أن أعرف ما الذي يطرأ على الناس بعد الزواج . وما هو الفرق بين ما قبل وما بعد الزواج . وإن كانت هذه العلاقة ضرورية . صحيح أن الزواج عادة قديمة مستمرة ، ولكن إستمرارها لا يدل على نجاحها ولا حتى ضرورتها . إنها مستمرة والناس يحرصون على الزواج السريع ، ليندموا بعد ذلك على مهل . وقد أدهشني أن زميلي هذا قال لي ما كنت أتوقعه : مقلب !

فسألته : ماذا ؟

قال : هذا !

سألت : هذا ؟
قال : الزواج .
ولم يكن قد تزوج أكثر من شهرين !

• • •

وعندما ذهبت أزور أحد أقاربى فى المستشفى .. لم يكن هو المريض .. وإنما هى زوجته قد وضعت طفلها الثانى بصعوبة . وكانت المرة الأولى فى حياتى الاجتماعية . قال : أكبر غلطة فى حياة أى إنسان أن يكون له أولاد .. فهو إبتداء من هذه اللحظة سوف يكون كلبا ذليلا .. سوف يجعل حياته من أجل هذا « المفعوص » - وأشار إلى المولود .

كأننى لم أفهم بوضوح فقلت : أرجو أن تشرح ذلك . فأنا أعرف تماما معنى أن يكون الإنسان إبنا . معذبا بوالديه .. ولا أعرف كيف يكون أبا ..

قال : أعرف ماذا تقصد . ولكن عذاب الإبن بأبويه ، ليس إلا واحدا على ألف من عذاب الأب بأبنائه .. إن هذا هو الإبن الثانى .. ولا تصدق زوجتك إذا قالت أن هذا الطفل جاء خطأ .. إنها كاذبة .. فهى تريد الأول والثانى والعاشر . ومهما تعذبت فى الولادة والحمل والرضاعة فهى كاذبة .. فهى على استعداد أن تفعل ذلك ألف مرة . فهى ترى أن الأولاد قيود تلتف حول عنق الرجل . وأنها لا تستريح إلا إذا وضعت الرجل فى سلسلة من الحديد والنار .. فلا يوجد رجل يريد أن يكون أبا ، ولكن لا توجد امرأة لا تريد أن تكون أما من الشيطان أو من ملاك الموت .. وعلى قدر فرحتها بأولادها ، تقاسى بذلك .. فالأب لا يتولد عنده الشعور بالأبوة وإنما هذا الشعور تغرسه المرأة فيه يوما بعد يوم .. وتربطه بأولاده ساعة بعد ساعة بقدرة فائقة وصبر عجيب .. فقد تكون المرأة جاهلة أمية .. ولكن الغريزة قد أعطتها كل الأسلحة القوية لحماية نفسها وأولادها .. ويكون الرجل هو الضحية .. هو الحمار !

قلت : لا أفهم .. هل تقصد أنك نادم على ذلك !

- بل أرجوك أن تقلع الجزمة وتضربنى بها ألف مرة .. ثم تبصق على وجهى بعد ذلك !

ذهبت أخطب إحدى الزميلات لصديق لنا . هو يحبها . لا شك . وكلنا يعرف ذلك . ونتوقع لهما زواجا قريبا سعيدا . زارها فى بيتها وزارت أمه . وزارت العزبة وعرفت مساحة الأرض التى يملكها .. إنها على يقين من كل شيء . ولكنه خجول . وهو خجول لأنه ريفى مؤمن بالله . ولا يعرف كيف يعبر لها عن حبه . إنما يترك ذلك للصديقات والأصدقاء . وكان من نصيبى أن أذهب لأخطبها له .

كان ذلك فى الصباح الباكر . ولابد أنني تحدثت مع والدتها عن مزاياه وعن أخلاقه وعن صدقه . وأنهما حديثا كلية الآداب . وإستأذنت الأم ، لتجيء إبنتها زميلتنا الحسناء . ولم أجد سببا لأن أعيد على مسامعها ما قلته لأمها . فهى تعرف .

وغابت الزميلة وجاءت الأم بالشاى والكيك . وقالت لى : أنا موافقة على أنك .. تتزوجها !

ووقف الشاى فى حلقى .. ونظرت إليها أستوضح . فأعادت ما قالته . واندهشت وقلت لها : وهل هذا رأيها أيضا ؟

قالت : طبعا !

قلت : ولكنها تحبه !

قالت : هو الذى يحبها .

قلت : بل هى أيضا . أنا على يقين من ذلك . إنها اعترفت بذلك .

قالت : أعرف . ولكنها غيرت رأيها ؟

ـ كيف ؟ متى ؟ لماذا ؟ ولكنه أحسن مني كثيرا جدا ، إنه غنى . وهو يحبها . وهذا المهم . وهى أيضا تحبه وهو الأهم . والإثنان متحابان وهذه هى البداية !

ـ كما قلت لك . إنه هو الذى يقول أنها تحبه . ولكنها لم تقل ذلك قط .. صدقنى !

ولا أدرى كيف انتهى هذا الحوار ولا ماذا قلت .. وصافحتها نصف دائخ . وخرجت .

وقلت لصاحبي عندما قابلته : إنها كاذبة .. إنها مخطوبة لشاب آخر ، من أقاربها . وهي كاذبة . وأمها أكذب .. يا أخي ألم تجد غير هذه الفتاة ؟

- ماذا تقصد ؟

- أقصد كل الذي قلته لك . وأن كل الصديقات والأصدقاء قد كذبوا عليك . فلا هي تحبك . ولا هي تريد الزواج منك .

- وما قالته على مسمع من فلان وفلان .. وخطاباتها التي تقول : أن الحياة سعيدة : إثنان أنا وأنت .. والدنيا إثنان : أنا أولها وهي آخرها .. كل هذا ما معناه ؟ لم أضربها على يدها لتقول كل ذلك وبخطها وبإمضائها ..

- في الزبالة !

- أية زبالة ؟

- هي وأنت والخطابات !

• • •

إنها زميلة متوسطة القامة نحيفة سمراء .. بقية الصفات الأخرى لا تهم .. لأنني لست مهتما إلا بوجودها معي . أو بأن هناك مسافة أمامي تشغلها هذه الزميلة . مثقفة ؟ نعم . تقرأ ؟ نعم . تعجب بي كطالب مجتهد ؟ نعم . من الذي تحدث عن الحب . هي ؟ لا .. أنا ؟ نعم . أنا الذي قلت أن الذي بيننا حب . وأنها علاقة قوية . ضرورية . وأنها أدخلت الدفء وألوان الزهور ولمعان النجوم في حياتي الراكدة .. وأنها تعويض عن أيام باردة وليال قلقة . وأنني أجد الراحة إلى جوارها ..

ولكني أكتشفت مع الأسف أنها لم تقل ذلك . وإنما أنا الذي طلبت إليها أن تقول ، فقالت . إنها لم تبادر بأي تعبير عن الذي بيننا . وإنما أنا طلبت إليها أن تقول ، فقالت . وأن تنفعل فانفعلت .

وأحسست أنها لم تكذب في شيء لأنها لم تقل شيئا .

وأنني مثل ملحن وهي مطربة .. وأنا الذي لقنتها اللحن . وكلما وجدتها

تؤدى اللحن كما علمته لها ، أسعدنى ذلك . فاللحن من عندى ، والأداء من عندها ، وسعادتى أنها حفظت اللحن وأنها تنطقه ورائى ، تماما كما أنطقه أنا ..

أو أنها ممثلة وأنا المخرج وأنا الذى لقنتها الحركة المسرحية والأداء : الجد والهزل والضحك والبكاء . وأسعدنى ، مثل أى مخرج ، أن يتطابق أداؤها مع تعليماتى . فهى إذن مطربة مطيعة وممثلة ملتزمة .

أما غلطتى فهى أننى نسيت أننى أنا الذى طلبت . أمرت .. أننى أنا رسمت الأداء . والحركة المسرحية !

فلا هى أحبت ، ولا هى قالت ذلك ، وإنما أنا الذى توهمت . إنها غلطتى إذن .. إنها وهمى ..

قلت : هل تعرفين أننى إزددت إحتراما لك .

قالت : لماذا !

قلت : لم تكذبى فى شىء . لم تصارحينى بشعورك نحوى . وإنما أنت رددت بالضبط ما كنت أقوله لك .. طلبت أن تقولى أنك تحبيننى فقلت . وأعجبنى صدقك . ونسيت أن صوتك هذا من تلحينى من إخراجى .. من صنعى .. كما أن حبك لى هو من صميم وهمى .. واكتشفت أننى موهوم مرة أخرى .. فقد أحببتك أيضا عندما وجدت هذا الحب الحار العميق الذى صارحتنى به . فكأننى كنت أتكلم بصوتك ، ثم أرد عليك بصوتى .. فأنا أرد على نفسى . إننى أضاعف وهمى بتصديق وهمك ..

- ولكنى أحببتك ..

- بصراحة لا أظن أنك الحب الذى أحتاج إليه .. فهو كائن غريب يولد فى ظروف أكثر غرابة .. بالله عليك كيف يكون حب بين أناس حفاة عراة جياع خائفين مثلنا .. إن الذين يحبونه هو الرغيف والقرش والشهادة . ويخطئون فى قراءة هذه الأسماء ويظنون أنه الحب العاطفى .. أو هو المرأة هو الذى ينقصنا .. إن المرأة لا تحل لنا مشكلة .. بل هى مشكلة .. هى عبء .. كما أن الموت يواجهه الإنسان وحده .. فكذلك النجاح والفشل : قدر شخص .. وإلا ما الذى يمكنك عمله لكى أنجح .. وما الذى يمكنك فعله إذا رسبت ؟ ..

لا شيء .. ولا أنت ولا أحد يستطيع عمل شيء إذن أنا لم أحبك وإنما أحببت نفسي .. أحببت أن أجد نفسي قد تكرر .. قد زاد واحدا .. أنا الملحن وأنت المطربة .. إن صوتك هو صوت أضيف إلى صوتي .. أنا المخرج وأنت الممثلة ـ فحركاتك وأداؤك وصوتك وضحكك وبكاؤك . هو صدى لقدراتي كمخرج .. فليس هذا الحب الذي توهمته إلا حبا لنفسي .. حبي لنفسي .. حتى هذا الحب . ليس حقيقيا .. إنه وهم .. إنه الصوت والصدى .. إنه الضوء والظل .. إنه جهل قد أضيف إلى جهلك أنت أيضا . وأي مستقبل ينتظرنا نحن الإثنين .. إن الزواج ليس مؤهلا علميا ولا اجتماعيا . إنني بك ومعك لا أستطيع أن أخرق الأرض وأبلغ الجبال طولا ..

ـ يعني ماذا ؟

ـ يعني أن كل الذي قلت لك هو إغلاق لكتاب مليء بالهذيان .

ـ يعني ماذا ؟

ـ لا أنا ضروري لك .. ولا أنت .. وأنا لست ضروريا لأي أحد ..

ـ أنت خدعتني إذن ؟

ـ بل خدعت نفسي .. أنا لم أقل لك شيئا إلا لكي أسمعه منك .. دون أن أتساءل عن مدى تصديقك لما أقول .. لقد كانت علاقة « فنية » ويجب أن تنتهي كما ينتهي دور الملحن والمخرج عند ظهور المطرب والممثل على المسرح . وظهرت على المسرح وجلست أنا في مقعده الوحيد .. أنت غنيت وأنا سمعت ، أنت مثلت وأنا أعجبت .. إنتهى الدور . الستار يجب أن ينزل والأضواء يجب أن تنطفيء . فقد تعانق نجاحي وفشلي في شخص واحد في لحظة واحدة . وأنا لن أصفق لك بيد على يد .. وإنما أصفق لك بيد على خدي .. ألطم .. يد تصفق وخد يتلقى اللطمات . وإذا نزلت من عيني دمعة ، فهي دودة أسحقها بحذائي . إنتهى كل شيء أيتها الزميلة .. لقد كنت عبيطا .. أو كنت مغرورا .. وقد جعلني الغرور حيوانا له أذنان طويلتان .. ولكنه لم يعرف إلا عندما نظر إلى نفسه في المرآة .. وقد كنت المرآة !

• • •

ووجدتنى عدوا للمرأة .. ووجدتنى أمسك سلاحا سريا أحاول أن أملاه بالقرف والضيق والاحتقار للمرأة .. أما الذخيرة التى وضعتها فى السلاح فقد استخرجتها من مناقشة الفيلسوف الألمانى شوبنهور .. الذى رأى أن المرأة ليست من فصيلة الرجل .. إنها مختلفة عنه تماما .. وإنما هى من فصيلة إستولت فيها النساء على الرجال .. وقضت على الرجال ووجدت ذكر الإنسان أقرب شبها بالذكور التى قضت عليها . فكانت هذه العلاقة الشاذة بين الرجل والمرأة ..

والمرأة حيوان معقد شديد الحساسية ، شديد القلق ، ليس لديه شعور بالأمان ..

ولأن المرأة اعتادت على أن تنتظر فى بيتها حتى يدق الرجل بابها ، فإن إنتظارها عادة .. غريزة .. ولكنها فى هذا الانتظار تتربص بالرجل وتتآمر عليه ..

ويرى شوبنهور أن المرأة حيوان يلد فقط . فهى مكلفة من الطبيعة باستمرار الحياة . فهى أم أولا .. وأى شيء آخر بعد ذلك .. فهي أم أولا وزوجة ثانيا وأخت ثالثا . وهى من أجل أن تكون أما ، مستعدة أن تأكل الزوج والإخوة .. العقارب والعناكب تفعل ذلك . فهذه الحشرات بعد الإخصاب تأكل ذكورها ، لتعيش بما فيها من مواد ضرورية لتغذية الصغار .. والمرأة هى هذا العقرب !

والمرأة كما يقول شوبنهور طويلة الشعر طويلة اللسان ضيقة الكتفين ضيقة الأفق .

المرأة إذا ساويتها بك ، تسلطت عليك !

لا توجد امرأة موسيقارة ، ولن تكون !

السؤال الذى لم يلق إجابة حتى الآن ، إن كانت المرأة إنسانا !

لم أجد كتابا احتقر المرأة مثل الكتاب المقدس !

لم أعرف للمرأة صديقا ، أكثر أعدائها بنات جنسها !

المرأة حيوان ، ولكنها ليست من الحيوانات الراقية !

المرأة فاضلة ، لأنها لم تعط فرصة أخرى لتكون شريرة !

الرجل يغار لأن له كرامة ، المرأة تغار لأنها بلا كرامة !

جمال المرأة وفضائلها كلها من صنع الرجل !

وعشرات من العبارات حفظتها للشعراء الكافرين بالمرأة .. أو المحتقرين لشأنها .. وكنت أضع بعض هذه العبارات في مقدمة كراريس المحاضرات التي تتبادلها وتتناوبها الزميلات . ووجدتني في المعسكر الذي يعادي المرأة . مع أن تجربتي مع المرأة قليلة . أو لم تكن عندي تجربة صدمتني منها .. فلا أنا أحببت . ولا كنت حريصا على هذا الشعور . وإنما توهمت أنني كذلك . فلا المرأة ولا أية علاقة بها . كان مما يشغلني .. وكلما راودتني فكرة عنها ، طردتها ..

ولا أعرف كيف فوجئت بأفكار كثيرة عن المرأة في وقت واحد .

ولا كيف انفتحت عيني عليها ..

ولا كيف إنشغلت بها أو إبعادها عن رأسي .. ولا كيف كنت أنظر إليها في وجهها وأتفحص ملامحها ولا كيف أستدرج الزملاء ليحدثوني عنها .. عن تجاربهم الناجحة والفاشلة ..

ولكن يحدث عادة عندما يضعف الإنسان أن تطارده الأفكار التي طردها .. أو تتغلب عليه الأفكار التي تغلب هو عليها ..

يقول شوبنهور : إنها مثل ثعبان وضعنا أحذيتنا على رأسه .. فلما تعبت أقدامنا التف حول سيقاننا وأعناقنا - إنتقاما منا !

صادقت إحدى الزميلات . كانت لها سيارة صغيرة . إستوقفتني أشارت أن أركب إلى جوارها . بهرتني هي وحيويتها وشبابها وعطرها ولمعان سيارتها .. أو سيارتها . قالت : تعال اشرب فنجانا من القهوة في مكتبي .

إنها موظفة في وزارة الخارجية . ما علاقة الخارجية بالفلسفة ؟ كيف استطاعت أن تجد هذا العمل بهذه السرعة . وما الذي تفعله هناك .. بالسيارة .. والذي في أصابعها وأذنيها وعنقها .. وسألتني إن كنت أدخن . فاندهشت جدا . كيف أدخن ؟ وأدهشني أكثر أنها تدخن . وسألتني إن كان يضايقني أن تدخن . ولم أكن قد سمعت قبل هذا النوع من الأسئلة . ولم أجد ما أقوله . ولم تدخن . وسألتني : وما الذي تفعله ؟

وانتقلت عينى إلى حذائى الذى أذابه السير ذهابا وإيابا من الجامعة إلى إمبابة .. وعاودتنى الرغبة أن أهرش بين أصابعى . وأهرش رأسى . ثم لا أقول شيئا . وعادت تقول : أنت تعرف لولا عمى ما وجدت عملا بهذه السرعة !

ولم أكن أعرف عمها . بل إننى نسيت إسمها بالكامل . كل ما أعرفه هو أن إسمها : سعدية .. شقراء ذهبية الشعر عسلية العينين كلها حيوية وشباب ورواء .. إذا ضحكت فكل جسمها يهتز .. وإذا لم تضحك ، وأنا لم أرها إلا ضاحكة ، أى إذا لم تضحك كثيرا ، فجسمها يهتز أيضا . كأنها قد خلقت لذلك .. أو كأنها تضحك بالنيابة عن أمثالى من أبناء الهم والغم والكرب العظيم والبلاء الأعظم !

وفجأة أشارت إلى يدها اليسرى وقالت : الآن تحررت . !

أى كانت متزوجة ثم انفصلت عن زوجها . قالت : عندما نجلس سويا سوف أحكى لك قصة فشل كادت تؤدى إلى سقوطى فى الامتحان ، لولا أن الله سبحانه وتعالى أدركنى برحمته .. أنت تعرف مصطفى زميلنا .. مصطفى : أطهر المحبين . كما كنت تسميه أنت !

مصطفى .. هو الذى ذهبت أخطب له إحدى الزميلات .. مصطفى هذا هو الذى همس فى أذنها بأن الشاب الذى أحبته وتزوجته كان يعرف فتاة أخرى وأنه رآهما فى الحديقة اليابانية فى حلوان . فذهبت ورأت ذلك بعينيها فكان الطلاق بعد زواج شهرين .

وبدون تفكير منى قلت لها : وأنت كنت على صلة بواحد غيره !

وإزداد وجهها إحمرارا وإرتجفت وظهرت قطرات العرق على وجهها . ونهضت من مقعدها تقول : من قال لك ؟! إنها كانت صداقة بريئة .. كأنك كنت تعرف منذ البداية .. إنه صديقك إنه كلب إبن كلب .. لا أمان له .. لقد أقسم على المصحف أن تظل هذه العلاقة سرا بيننا لأنها علاقة شريفة .. كنت أحكى وأستمع إلى نصيحته .. ولولاه ما كان هذا الطلاق الهادىء .. ثم إنه ، كما تعلم ، مخطوب لزميلة فى كلية الحقوق إبنة عمه وسوف يتزوجها فى العيد .. وأنا مدعوة لهذا الفرح .. هو دعانى وهى دعتنى .. هذا كل ما هنالك ..

وأنا لم أكن أعرف هذه العلاقة . ولكن أفكارى السوداء التى ترسبت قوية فى أعماقى جعلتنى أتهمها بالخيانة دون أن أدرى . فإذا بها تعترف بما لم أكن أعرف .. وازددت يقينا من أفكارى ، وأننى على الطريق الصحيح الذى رسمه أستاذنا العظيم شوبنهور خارج عالم المرأة أو الثقة فيها .. كلبة .. حقيرة . !

صدق الأستاذ العقاد فى إحدى قصائده : خنها ولا تخلص لها أبدا .. إلخ .

وكنت أكتب هذه العبارة باللغة الألمانية وأحيانا باليونانية وأحيانا باللاتينية وأحيانا بالعبرية ، حتى لا يفهمها أحد .. وحتى لا تبعد عن عينى أيضا .

وفى يوم عدت إلى البيت مبكرا ..

إننى أعرف مقدما كل ما سوف أسمع وأرى .. لا أكاد أفتح الباب حتى ينبح الكلب ويتعلق بملابسى ولا يبتعد عنى قبل أن يلعق أصابعى وحتى أعطيه ما أتيت به من طعام .. وبعد ذلك أتجه إلى الغرفة التى يتمدد فيها والدى ووالدتى .. ويتظاهر أحدهما بالنوم حتى لا أسأله عن حاله ، وإن كانت قد تحسنت صحته .. وأنا أعرف أنه لا تحسن ، ولا سبب لذلك .. ولكنه أو لكنها ، إشفاقا علي ، لا يريدان أن يجيبا ولكن لابد أن أسأل .. وإن كان أحدهما فى حاجة إلى أى شيء .. طعام .. شراب .. ذهاب إلى دورة المياه .. طبيب .. ثم أدخل غرفتى وأحاول أن أشعر أننى فى البيت .. أخلع حذائى ، ومعه أفكارى السوداء وهمومى الثقيلة .. وأنظر إلى الراديو الذى لم أفتحه من سنوات .. وإلى الكتب التى تحركت عن مواقعها بما يدل على أن والدتى قد دخلت هذه الغرفة وحاولت تسويتها ، بما تبقى لديها من قوة .. ومن وراء النافذة أجد بنت الجيران صبية سمراء تنتظرنى .. وأقول فى نفسى : جاءتك خيبة .. لعلك تظنين أننى شيء أو من الممكن أن أكون شيئا مستعجلة على الزواج .. ممن ؟ منى ؟ ألا ترين ؟ ألا تسمعين ؟ ألا تلاحظين ؟

ويتعالى صوتها تقول أى شيء .. فقط تريد أن تجعلنى أشعر بوجودها .. ثم يكون لها كلام رمزى مع إخوتها .. مثلا : وحشتنى يا واد .. والنبى وحشتنى .. أشوفك بس .. دقيقة .. كلمنى .. يا عينى علينا وعلى بختنا .. أهالينا لم يعلمونا .. يعنى اللى تعلموا خدوا إيه .. أحسن ؟ .. أحلى ؟ . أجمل ؟ أكثر إخلاصا ؟ ومنين أجيب لى بخت ؟ الصبر طيب !

وأحيانا أفتح النافذة فأجدها .. فى غاية الحيوية .. واللمعان .. الوجه والعينان والأسنان .. وأضواء فى كل مكان من وجهها وعنقها .. فكيف تتدفق منها هذه الأضواء .. أين ينابيعها .. كل هذه الأضواء لمجرد أننى نظرت .. تماما كما تضاء فيلا جميلة لاستقبال صرصار .. يا سلام .. ألهذه الدرجة أنا مهم عندها . أو لهذه الدرجة الحب مهم .. الزواج مهم .. للرجل مهم .. ولهذه الدرجة الحب أعمى .. والرغبة فى الزواج عمياء .. أبوها كمسارى .. إخوتها كلهم فى المدرسة وهى التى تطبخ وتكنس وتغسل .. هى دينامو البيت .. ويقولون عنها رجل البيت ..

وعادة تجيء أصوات أخرى من فوق السطوح المجاور : يا بت اهدى .. اسكتى .. سيبى الجدع في حاله .. العين ما تعلاش على الحاجب .. أنت فين وهو فين .. كان غيرك أشطر ..

كلام أحيانا أتابعه وأحيانا أفكر فيه .. وأحيانا لا أسمعه مهما طال وارتفع ..

كل ذلك أتوقع أن أراه وأن أسمعه كل يوم .. وهى حياة ، أو إنعدام حياة ، مملة .. رتيبة .. ليس فيها حوادث . فالدنيا ماتت عند باب بيتنا .. الشارع مجرى مائى متخبط الأمواج والأصوات والروائح .. ولكن عند بيتنا وأمامه وفى داخله توقفت الحياة .. أو ركعت أو جمدت .. أو تلاشت .. وقد اعتدت على ذلك كما اعتادت الضفادع على مياه البرك ، والوطاويط على الأركان المظلمة ، والعفاريت على الخرائب ..

إلا فى تلك الليلة .. وجدت الغرفة التى على الشارع مضاءة .. إذن عندنا ضيوف .. أو طبيب .. واقتربت من النافذة لكى أرى من فى داخل الغرفة فلم أجد أحدا . ولكنى شممت رائحة الشاى ، إذا هناك من يصنع شايا لأحد .. وبسرعة فتحت الباب . لم أجد الكلب . لم أسأل . اتجهت بسرعة إلى غرفة والدى الغرفة مظلمة : مساء الخير .. لم أسمع ردا .. إقتربت من السرير .. وضعت يدى على صدر والدتى .. نائمة .. ومددت يدى على صدر والدى .. نائم .. الحمد لله .. ذهبت إلى غرفتى .. وجدتها مضاءة .. إنها إحدى خالاتى .. أحب الخالات .. أهلا يا خالتى .. حمد لله على سلامتك .. نورت

مصر .. نورت الدنيا .. والله صحيح .. نورت كل شيء في الدنيا ..

إختلفت مع زوجها . وتم الطلاق بسرعة ..

إنني أحتاج إلى ألف ذراع لكي أضع رأسي عليها .. فرأسي قد ثقلت فجأة . ولم أعد قادرا على حملها . جلست وأسندت رأسي للحائط .. وكان التراب ينزل قليلا من السقف .. واستسلمت لهذا الشعور : ولماذا لا يسقط السقف ويدفنني أنا وخالتي تحته .. ما الذي بقي في هذه الدنيا من قيم .. هذه الطيبة الجميلة الخيرة الرقيقة الحنون تعجز عن الحياة مع رجل .. يرفضها رجل .. وإذا كانت كل هذه القيم لا تجد لها مكانا في الدنيا ، فما الدنيا ؟

- قولي لي يا خالتي ماذا حدث ؟ قولي لي فأنا مستعد أن أسمعك حتى الصبح ، وأن أروي لك ما سمعت كثيرا وطويلا وفجأة هذه الشهور الأخيرة .. من التي خانك معها .. واحدة من بنات البندر .. بنت العمدة لأنه يريد أن يكون عمدة .. بنت أخت الباشا ، لأن والدته تعبد هذا الباشا ..

- لاشيء من كل ذلك .. إنه يريد أن يكون له أولاد والله لم يرزقني بالأولاد عشر سنوات ..

وكلام كثير وحكايات ونوادر ودموع وضحكات وأغنيات .. ولم تكن خالتي حزينة .. كانت تتوقع ذلك .. ولكنه خيرها بين أن تبقى على ذمته ثم يتزوج غيرها وبين أن يطلقها .. واختارت هي الطلاق .. ثم إنها هي التي اختارت له العروس .. وسوف يجيء لزيارتها غدا ..

وكان ذلك أكبر من عقلي . . فلم أستطع أن أستوعب كل الذي سمعت . . وكنت أكتفي بأن أرى خالتي وهي تحكي لي كل ذلك . . كأنها تحكي قصة واحدة غيرها . . ملخص فيلم سينمائي . . وحاولت أن أجد في ملامحها لونا واحدا يدل على حزنها أو أسفها أو ضيقها بالدنيا أو كفرها بالإنسان . . لم أجد . كيف ؟

- قولي لي يا خالتي أنت حزينة ؟

- أنا ؟ أبدا . . بعد وفاة خالك . . لم أعد أحزن على شيء . . لقد كان جمالا وصحة ومرحا وحبا للدنيا ومات صغيرا .

- وأنت تريدين أن تموتي صغيرة ؟

ـ نعم . . لأن الأحزان تطيل العمر . . أمي . ـ جدتك . . كنا نتصور أنها بعد وفاة إبنها الكبير ستموت بعد لحظات ـ وهي الآن قد عاشت بعده وقد لونت ملابسها . . وهي شديدة الحزن عليه .ـ. ولكنها عاشت . . و . .

وكادت تشير إلى مرض والدي ووالدتي ، وبسرعة تداركت هذه الإشارة المؤلمة . . ولكنها قالت بذكاء ورقة وجمال وحنان : أفضل أن أموت كما تراني ، على أن أعيش كما ترى أرملة خالك . .

ـ أنت تقولين كلاما غريبا ياخالتي . .

ـ كلام على قدي . . تعلمت هذا الكلام من الدنيا . . لا كتب . . ولا جامعة . .

ـ والله أنت لا تعرفين ما الذي تعلمنا من الكتاب ومن الجامعة . . لا شيء . . والله العظيم لا شيء . . تعلمنا أن نضع أسماء للمشاعر فقط . . بالضبط كالذي يكتب شهادة ميلاد كل طفل يولد . . فقط يكتب إسمه وتاريخ ميلاده . . فلا هو أب ولا هو أم . . وأنا فقط يسجل أسماء المواليد وأسماء الوفيات . . هذا كل الذي تعلمناه في الجامعة . . فالذي أسمعه منك أختار له هذه العناوين : إرادة . . عزيمة . . شخصية . . حب للحياة . . واقعية . . نذالة . .غدر . . وتمضي السنوات ونحن نناقش معاني هذه الكلمات . . نحن كالرجل التركي الذي تتحدث عنه النكته المشهورة . . لما أحيل إلى المعاش أتي بعدد من القلل وملأها بالماء ليشرب منها إترك هذه مجانا .. فكان يقول : خذ هذه .. ليشرب منها الناس اشرب من هذه القلة .. من تلك القلة .. فلا هو الذي صنع القلة ، ولا هو الذي ملأها بالماء .. ثم إنه ليس رجلا رحيما عطوفا على الناس .. وإنما هو خلق لنفسه « مناسبة » ، لكي يأمر وينهى كما كان يفعل من قبل !

وبذكاء عجيب فاجأتني بهذا السؤال : كأنك لن تتزوج !

ـ أتزوج ؟!

ـ طبعا إذا كانت هذه أفكارك وهذا رأيك في نفسك وفي الدنيا .. فلا معنى للحياة .. ولا أمل فيها .. أنا أعذرك تماما . ولكن عندي حل . وكل شيء له

ثمن .. إذا كنت تريد أن تتزوج واحدة مثلك .. فمعنى ذلك أنك تفضل العلم على الجمال وعلى الفلوس ...

ولكن أنا عندى حل أسمعه من هنا وألقى به من هنا .. عقلى يقول لى : إن أحسن واحدة لك هى فتاة متوسطة التعليم وغنية .. أنت تعلمها بمرور الوقت .. وفلوسها سوف توفر عليك التعب .. كأن فلوسها هذه ثمن تعليمك لها .. وعندى واحدة بهذه المواصفات .. وإذا قلت لى الآن : أنك موافق .. فإننى أزوجك لها يوم الخميس القادم .. قلت إيه ؟! وهى تملك بيتا فى القاهرة .. وإخواتها الثلاثة فى الجامعة .. ولكنها أصغرهم جميعا وأحبهم لأبويها .. وهى تشعر لك بتقدير خاص .. ووالدتك تعلم من سنوات .. وأنا فاتحتها فى ذلك .. ولكن نصحتنى أمك ألا أكلمك فى شىء من ذلك .. والآن وقد تخرجت ونجحت ما رأيك ؟



طه حسين مسح بنا
الأرض .. والسماء أيضا

طه حسين مسح بنا الأرض.. والسماء أيضاً

جاء الدكتور فؤاد حسنين أستاذ اللغات الشرقية . . وكنا نجلس على العشب أمام مكتبة الجامعة . وكان يمشي بسرعة ويتطوح يمينا وشمالا فقال بلهجته الصعيدية : تجدروا تجابلوه بعد ساعة ؟

ثم قال : لا تتكلموا في موضوعات تافهة . . هو على كل حال رجل صبور . . ولكن لا تستغلوا صبره في استعراض سخافات العيال الصغار . . عارفين أين تجابلوه . . في مكتبه . . سوف يكون وحده . . وأنتم وشطارتكم . . يمكن أن تتحدثوا اليه عشر دجايج وممكن عشر ساعات . . سلام عليكم . .

وتركنا وعاد يمشي بسرعة يتطوح . . وكنا سعداء بنجاحه في أن يحدد لنا موعدا مع دكتور طه حسين . . أعظم شخصية في عالم الأدب والتربية والفكر . . إنه شخصية أسطورية . . لم نقرأ له كثيرا .

سمعنا إلى بعض محاضراته . . ولكنه طه حسين . . يكفي أن تقول : طه حسين . . لتتجه إليك العيون والآذان . . طه حسين . . ولا يمكن لأحد أن ينطق هذا الأسم بخفة . . وإنما بملء الفم والابتهاج وعظيم الاحترام . . طه حسين . .

واختلفنا ما الذى نقوله له . . هل نشكو ؟ ليس عندنا ما نشكو منه . . هل نحاوره . . ولا عندنا ما نحاوره فيه . . هل نسمعه . . ولكن لكى نسمعه فما الذى نقوله له . . هل نفتعل قصة . . لم نتفق . . وجدناه في انتظارنا . .

الساعي واقف على الباب . . وبسرعة جاء السكرتير . . ونظر إلينا . . وقال : انتم خمسة . . عندكم شكوى ؟

- لا

- هل تطلبون شيئا معينا من الأستاذ الدكتور ؟

- لا
- إذن
- لا شيء فقط أن نتحدث اليه . .
- في أي موضوع ؟
- في أي موضوع !
وفتح لنا الباب قائلا : الطلبة يا سعادة الباشا . .
ظل طه حسين جالسا في مقعده وقد تراجع قليلا إلى الوراء . . ثم عاد فأحنى رأسه وظهرت ابتسامة خفيفة . . وعندما سكنت حركة المقاعد ، رفع رأسه مبتسما هادئا ثم قال بصوته الملىء الموسيقي : هه . . ومن أنتم ؟ أنت إلى أقصى اليمين ؟
- أنا أنيس منصور . . طالب بقسم الفلسفة
- لا بد أنك اخترتها عن حب .
- ليس بعد .
- صدقت . في هذه المرحلة المبكرة من الصعب ان تحب أحدا . . ليس من الضروري أن تحب أحدا الآن . . فالذى تقرؤه هو معلومات عن الفيلسوف دون أن تسمع صوت الفيلسوف . وأنت قرأت عن فيلسوف فرنسا ديكارت طبعا ؟
- نعم
- وهل وجدت فيه شيئا أراحك . . إنه البداية الحقيقية للفلسفة الحديثة . . لأن الرجل لم يدع شيئا لم يشك فيه ، ولم يدع شيئا دون أن يؤكده ويضع له قاعدة من اليقين . فالشك هو البداية واليقين هو النهاية : في الدين والعلوم والفلسفة . . وهو الذى أعلى كرامة العقل الإنساني . . فاتخذ له شعارا هو : أنا أفكر إذن أنا موجود . . فالفكر عند الانسان يعادل وجوده تماما . . وليس القوة ولا العصبية ولا الدين ولا المال ولا الجمال . . وإنما يكون الإنسان مفكرا ، معنى ذلك أنه إنسان . . وهل تقرأ ذلك بالعربية فقط .
- وبالفرنسية والإنجليزية والإلمانية .
- وأين تعلمت ؟
- في المنصورة .
- إذن أنت تعرف الشاعر فلان .

- لا
- ولا الشاعر فلان
- لا
- ولا الباحث الإسلامى فلان . . إنهم من أبناء الدقهلية .
- لا . .
- فكأنك لم تقرأ المتنبى وأبا العلاء
- لا
- لابد أن تقرأ هؤلاء وأن تقرأ عنهم . . وأن تنتقل إلى قراءة الأدباء مثل ابن المقفع وابن خلدون وعبد الحميد وابن العميد وأبى حيان التوحيدى . . لا بد .
- حاضر
- ماذا تريد أن تكون فى مستقبلك ؟
- أريد أن أكون كاتبا . .
- إذن لا بد أن تحفظ لهم . . والذى تحفظه لا بد أن تدرسه وتحلله بعد ذلك . . ولا تكتب سطرا واحدا . . إجعل الكتابة آخر نشاط لك . . إقرأ واحفظ وافهم . .
- إننى أحفظ القرآن الكريم
- هذا شيء هام جدا . . وهذا إنجاز عظيم . . بقى أن تفهم القرآن أيضا . والذى فعلته مع القرآن الكريم يجب أن تفعله مع الشعراء والأدباء والفلاسفة . . إحفظ ثم افهم وادرس واكتب بعد ذلك . . ولمن تقرأ من الأدباء المعاصرين . .
- لم أقرأ كثيرا . . لقد اكتشفت أخيرا أن الكتب الجامعية قد استغرقتنى وشغلتنى عن القراءة الحرة . .
- بل كل قراءة حرة . . بل أنت حر فى قراءة أى شيء . . وكل ما تقرأ أنت قد اخترته بكامل حريتك . . حتى الكتب الجامعية ، ليست كتبا إلزامية . فلا أحد فى الجامعة يلزمك بكتاب ، وإنما هو يلزمك بموضوع . . بقضية . . وأنت حر فى قراءة ما يساعدك على فهمها . . فكل قراءة حرة ، كما أن كل كتابة حرة . .

- هل قرأت المقامات ؟
- لا
- مقامات بديع الزمان الهمذاني . . ومقامات الحريري . . هل قرأت الجاحظ الكاتب العالم المؤرخ المفلسف .
- لا . .
- لابد أن تقرأ وتتأمل وتحفظ وتقارن وتستمتع . .
وسكت طه حسين وأحنى رأسه إلى الأمام . . وهو رجل نحيف يفيض حيوية وشبابا ونورا .
ثم رفع رأسه ليقول ، وأنت الذى إلى جواره .
- أنا في كلية الحقوق .
- تريد أن تكون محاميا أو قاضيا
- أريد أن أشتغل بالسياسة . .
- إذن أنت تريد أن تكون وزيرا . . ثم رئيسا للوزراء . . أو رئيسا للوزراء ثم معارضا للحكومة في البرلمان . . ثم مفكرا سياسيا وكاتبا صحفيا بعد ذلك . . تقرأ في الأدب والشعر . . وتتعامل مع الشعراء كما تتعامل مع أبناء دائرتك الانتخابية . . فتطلب إليهم أن يقفوا وراءك ظالما أو مظلوما . . فأنت لا تتذوق الشعر ، وإنما أنت تقلب فيه ، لتختار ما يناسبك . . ما يناسب المعنى والهدف الذى تريد . . وتكون في علاقتك بالشعر مثل علاقتك بالناس . . فأنت تريد من كل شيء ومن كل أحد أن يكون أداة في يدك . . (وضحك في رفق) أو في قدمك أو على رأسك . . فالشعر مرة يكون حذاء ومرة طربوشا ومرة سكينا (هاها . . هاها) أعرف السياسيين الشبان والشيوخ . . إنهم جميعا سواء . . وهل أبوك غني ؟
- لا
- إذن تريد أن تكون غنيا .
- وهل هو موظف ؟
- نعم . . هو وزير . .
- آه . . إذن لا ترضى عن السلطة التى في حوزة والدك ، وتريد أن تضيف إليها المال . . قوة الحكم وقوة المال . . إذن أنت أكثر تطورا من والدك . . أو لعلك قد استفدت من الدرس ، عندما أصبح والدك في السلطة

..مال ، فأنت تريد المال بلا سلطة ، أو تريد السلطة طريقا إلى المال ، و المال جسرا إلى السلطة . إنك أنت أسعد المعاصرين . لأنك عرفت ما ينقص البلد . وعرفت ما تريده أنت . فليس لى عندك عين (وضحك) . .

ثم تراجع طه حسين إلى الوراء كعادته وقال أكثر مرحا : والذى إلى جواره من أنت !

- طالب فى كلية الزراعة
- فلاح أنت ؟
- نعم يا أستاذنا العظيم . .
- وتقرأ الأدب ؟
- وأنظم الشعر . .
- من يعجبك من الشعراء القدامى ؟
- أبو العلاء . .
- أسأت الاختيار !
- ومن الشعراء المعاصرين
- العقاد
- ولم تحسن الاختيار !
- ومن الذى تقرأ لهم من الأدباء المعاصرين ؟
- مصطفى صادق الرافعى
- أسأت الاختيار . . أسمعنى بعض شعرك . . ما يخطر ببالك الآن . .
- طين على وجه البسيطة أخضر

وهنا ضحك طه حسين وتراجع وانحنى إلى الأمام : هاها . . هاها أنت يا سيدى موفق تماما فى اختيار كل ما ليس حسنا . . فأنت موفق فى عدم توفيقك . . هاها . . تقول طين . . أول القصيدة : طين . . ربما لأنك زراعى فلاح . . ولكن هذا المطلع الطينى ليس بعده إلا الوحل والمستنقعات . . هاها . .

ثم سكت طه حسين : لا تحزن فقد فعل ذلك شعراء عظام . . كان الكاتب الكبير ابن العميد يقول : إن أول ما يحتاج إليه الشاعر حسن المطلع . . فقد أنشده أحد الشعراء فى عيد من الأعياد قصيدة مطلعها : (أقبر وما طلت نراك

يد الطل) فتشاءم من افتتاحه القبر . وتنغص طوال اليوم . وروى أن شاعرا آخر ذهب يمتدح فى يوم عيد فقال :

لا تقل بشرى ولكن بشريان
غرة الداعي ويوم المهرْجان . .

فنفر من قوله : لا تقل بشرى . . وتطير وتشاءم . وأمر بضربه خمسين جلدة . . وأبو نواس الشاعر الكبير قد وقع أيضا فى هذه الغلطة الفظيعة . فقد أنشد الفضل بن يحيى البرمكى قصيدة مطلعها :

أربع البلي إن الخشوع لبادى
عليك ، وإنى لم أخنك ودادى

فتشاءم الفضل من هذا الابتداء . فلما انتهى أبو نواس إلى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم
بنى برحك من رائحين وغادى

زاد تشاؤم الفضل بين يحيى البرمكى . ولم يمض أسبوع حتى وقعت مأساة البرامكة وتم القضاء عليهم !

ويقال إن الخليفة المعتصم عندما فرغ من بناء قصره جلس فيه وجمع أهله وأصحابه وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم . فما رأى الناس أجمل من ذلك اليوم . فاستأذنه إسحاق بن ابراهيم الموصلى . المطرب المعروف وأنشده شعرا جميلا إلا أنه استفتحه بذكر الديار وخرابها وقال :

يا دار غيرك البلى ومحاك
يا ليت شعرى ما الذى أبكاك

فتشاءم المعتصم وتغامز الناس على الموصلى كيف وقع فى هذه الغلطة مع علمه بالخليفة وطول عشرته له وخرجوا من هذا القصر ولم يعد له أحد بعد ذلك . فقد خرب تماما . .

ولأبى نواس قصيدة مستنكرة الابتداء قالها فى مدح الخليفة الأمين . قال أبو نواس :

يا دار ما فعلت بك الأيام
لم يبق فيك لذاذة تستام !

ومضى طه حسين يقول :

فلا عليك يا سيدى أن بدأت شعرك فى شبابك بالطين . . وربما كانت هذه بداية تبعث على السعادة عند البدو الذين يفتقدون إلى الماء الذى يجعل الرمل صالحا للزراعة . . هاها . . هاها . .

وسكت طه حسين ثم قال : والذى إلى جواره من أنت يا سيدى ؟

- طالب فى كلية الهندسة

- ومن المهندسين شعراء وموسيقيون وفلاسفة . فأى واحد أنت منهم يا سيدى ؟

- بل أنا من رجال الدين يا سيدى الأستاذ . . أبى من رجال الأزهر ، وقد تربينا تربية دينية . . ووجدته فى بيتنا مكتبة ضخمة . أقبلت عليها . واسترحت إلى بعض ما وجدت . ولكن وجدت فى العلوم الهندسية متعة أكبر . . ولكن لم أجد الهندسة ترفض الدين . ولا وجدت الدين يرفض العلوم الحديثة . . بل كل شىء حولى هندسة . . قواعد وأصول ونظريات . . وهى أيضا موسيقى . نغم . . إنسجام . . ووجدت الجمال موسيقى . . ووجدت الموسيقى شعرا ، ووجدت الشعر طربا . . ومقياس الجمال ما فيه من موسيقى . . ولذلك فقد وجدت أن عظمة الخلق والإبداع ليس فيما ترى فقط ، وإنما فيما ترى وتتخيل اننا رأينا وما نسمع وما نتخيل أننا سمعناه . . ولست فى حاجة إلى أن أدور مع الأفلاك لأعرف حدود العظمة الكونية . . إن كانت كلمة « الحدود » ليست من الكلمات اللائقة . . . ولكن هذه مفرداتى أنا المحدود . .

- ما أحسن ما تقول . . قل يا سيدى إننى مستمتع . . قل يا سيدى . .

- بل جئنا نسمع إليك يا أستاذ . .

- تريد أن تسمعنى

- نعم يا أستاذ .

- إسمع يا سيدى . . أن الذى تقول هو أجمل ما سمعت من شاب فى عشرين عاما . .

وأرى وأرجو أن تسمعنى ، أن تتحدث أنت لنسمعك أنا وزملائى . . قل يا سيدى قل . .

- وأجلس مع والدى كثيرا . . ويمنعنى الحياء أن أناقشه . . فنحن مختلفان فى الأسلوب . . هو يرتدى العمامة وأنا لا أرتديها . . هو يقول بالضبط

ما أقوله . . ولكنه يعتمد على أسماء ونظريات عربية ، وأنا أعتمد على نظريات أوروبية . . هو ابن عصره وأنا ابن عصرى . . هو الذى له مستقبل ، ولكن لا أجد لى مستقبلا يا أستاذ . . ما الذى يقوله والذى الآن ، قاله والده . . ولم يتغير منه شىء . . ويمكن أن يقال لألف عام قادمة . . فهو كلام قديم له حاضر ومستقبل . . أما الذى أقوله فلا مستقبل له . . إنه يتغير من نظرية إلى نظرية ومن شخص إلى شخص . .

. ولكن هذا هو المستقبل . . فأنت اليوم صورة متطورة لما كنت عليه بالأمس . . وغدا صورة متطورة . . فأنت لك مستقبل أيضا . . ولكن تبقى لك صفات متميزة لا تتغير . . إن والدتك تستطيع وأنت طفل صغير أن تفرزك من ألف ألف طفل . . وقد تكون غير واضح تماما . . ولكنها قادرة على أن تعرفك مهما كانت ملامحك . . لأن ملامحك لا تتغير إلا فى خطوطها التفصيلية . . أما خطوطها الجوهرية فكما هى . .

وتلاقت عيوننا فى دهشة من الكلام الدقيق الذى يقوله طه حسين ، كأنه ولد مبصرا . . ثم قال طه حسين : لا تقلق على نفسك يا سيدى فنحن فى مرحلة انتقالية . . كل الذى تراه وتسمعه هو صورة مؤقتة . . نحن جميعا ننقل الذوق العربى إلى الشاطىء الآخر . . أو نأتى بالشاطىء الآخر إلى ذوقنا العربى . . ولم يتحدد هذا الذوق العام بعد . .

ثم سكت طه حسين ليطلع علينا بهذه الحكمة النافذة : إن المستقبل لم يختره العرب بعد . . فنحن لا نعرف إلا الذى نكرهه ونضيق به . . فكل مانقرأ هو لعنات لفن العرب ، وكفر بما هو كائن . . ولكننا لم نتفق بعد على الذى نحبه . . ما الذى نريده أن يبقى . . ما الذى نحرص على وجوده معنا وبيننا وأمامنا . . إن حاضرنا قلق ، ومستقبلنا غيب ، وماضينا ملعون . . فبالله يا سيدى إذا كان هذا حالنا ، فما أشقاكم معنا ومن بعدنا . .

ثم سكت طه حسين وقال : هل بقى أحد لم أسمعه ؟

- نعم . . أنا طالب فى كلية الطب . .
- ولك اهتمام بالأدب ؟
- نعم . . بالشعر والنثر ثم إننى أدرس الموسيقى ولى فيها محاولات .

ولكني أريد أن أكون طبيبا ينظم الشعر ويعزف الموسيقى ويتذوق الجمال والصدق . وأبى يقول الشعر . . وأمي ترسم اللوحات وتصنع التماثيل . . وجدى تعلم الموسيقى في تركيا ثم في إيطاليا . . ووجدت عنده كل الآلات الموسيقية . . وأذكر أنني تسللت إلى غرفته السرية التي يضع فيها كتبه والآلات الموسيقية بعيدا عن أطفال الأسرة . . ووجدت آلة كمان ضخمة جدا . . فنزعت غطاءها فوقى وغلبنى النوم . . فنمت . .

وضحك طه حسين : هاها . . هاها . . بديعة . . هاها . . طبيعي من يتعمق الآلات الموسيقية ، ان يتعمق الموسيقى . . أو من ، يموت ، في الموسيقى ، أن تموت فيه الموسيقى . أي تحبه الموسيقى . . فماذا حدث يا سيدى . . هاها . . كيف عثروا عليك . .

- ولما صحوت كانت الدنيا مظلمة . . فرحت أصرخ . . ولكن لا أجرؤ على أن أخرج من الآلة الموسيقية . وكانت أسرتي تبحث عني طوال اليوم . . وعثروا على . . وكانت نكتة الأسرة سنوات طويلة . . وهنا أصر جدى على أن أتخصص في الموسيقى . . فقد وجد في هذا الحادث إشارة لأن أكون موسيقيا . . ولكن أمي رفضت أن أحترف الموسيقى . . ورأت أن أحترف الطب . لكني أنفق منه على هواية الموسيقى والشعر والرسم والرحلات والرياضة . .

- أوه . . إذن أنت أفضلنا جميعا يا سيدى . . فأنت ستمتع بكل ما في الدنيا من جمال . . جدير بك أن تكون أسعدنا وأصحنا يا سيدى . . فالناس نوعان يا سيدى : أناس ينامون الدهر ، وأناس يعيشون الدهر . . وأنت تنام مستريحا وتسهر مستمتعا . . فأنت أحسن الثلاثة . . والمتنبي عندما امتدح واحدا في مثل خصلتك قال :

الصوم والفطر والأعياد والعصر
منيرة بك حتى الشمس والقمر
ما الدهر عندك إلا روضة أنف
يا من شمائله في زهره زهر

ما ينتهي لك في أيامه كرم
فلا انتهى لك في أعوامه عمر

فإن حظك من تكرارها شرف

وحظ غيرك منها : النوم والسهر

ودخل سكرتير طه حسين وهمس للمرة العاشرة فى أذنه فبدا عليه الاستياء . . وكان لا بد أن ننهض شاكرين . وشكرناه واعتذرنا عن أننا أضعنا وقته . . ولكن لم يستحسن هذا الاعتذار وقال : أنتم تعرفون أننى لم أضق بالحديث إليكم . . فعن أى شىء تعتذرون . . أحب أن أراكم متى وجدتم وقتا لذلك !

★ ★ ★

إذن أنا لست على الطريق الصحيح فالذى قرأته ليس كثيرا . والذى حفظته ليس كثيرا أيضا . . والذى درسته وحللته واستعدته قليل : فى الفلسفة وفى الشعر والنثر والتاريخ . .

لقد فتح طه حسين دماغى . . وأطل فى داخله بسرعة ، فلم يجد شيئا له قيمة . إذن هذا الذى درست وحفظت وحللت لا يؤهلنى أن أكون كاتبا . . فشروط الكتابة أن يكون الإنسان قارئا معظم الوقت ، كاتبا بعد ذلك . . ولكنى اقرأ فى الآداب الأوروبية أضعاف الذى عرفت فى الأدب العربى . واجد متعة فى ذلك بل أجد حرية كاملة فى أن اختار وأن أتذوق . . وأجد الكتب متوافرة والأسلوب أيسر والحفاوة بالقارىء أكبر . . فقبل أن أقرأ لطه حسين ـ مثلا ـ قرأت لبلزاك وديكنز وجيته وشكسبير . . وقبل أن أقرأ مسرحيات أمير الشعراء ، قرأت لسوفو كليس وموليير . ولكن قراءة معرفة . أى أتعرف بها على هؤلاء الأدباء العظماء . . ولكنها ليست قراءة تعمق . . فليس من السهل أن أفهم سوفو كليس دون أن أفهم زمانه وأسلوب عصره وقضاياه وكذلك كل أدباء العلم . . فهم أشجار يانعه شاهقة فى بيئة مختلفة . . لا بد أن اعرف البيئة ، لأفهم الشجرة ، ولا بد أن أعرف الشجرة لأتذوق الثمرة ، ولكى أتذوق الثمرة لابد أن أعرف كيف أتذوقها . . فالطعام السائل له ملعقة ، والطعام الجاف له شوكة وسكين . . وهذا أتناوله فى أول طعام وهذا فى آخره . . وهذا نأكله نيئا وهذا نتناوله طازجا . . والتذوق هو استطعام . . وطعام أيضا !

كنت أحدث نفسى ونحن نسير معا على شاطىء النيل . . فى صمت وكل واحد يدير فى رأسه ما سمعه من طه حسين .

قال أحدنا : أرأيتم لقد مسح الرجل بنا الأرض بمنتهى الأدب . . أنا قال عني أنني سياسي سوف أكون لصا . . اشترى السلطة بالفلوس ، وأستخدم السلطة في جمع المال . .

ـ وأنا وصفني بأني قليل الذوق جلف . . فلاح . . ولا ألومه فأنا الذي أسأت اختيار القصيدة التي كنت أريد إنشادها . . ثم إذا كان وصف العقاد والرافعي والمعري بأنه اختيار سيء . . أي أن قراءة هؤلاء أمر يدل على سوء اختياري . . بل هو أيضا قد أساء اختيار ألفاظه . . وكان من الواجب عليه أن يوجهني برفق . . فنحن هواة أدب ولسنا محترفي أدب مثله !

ـ وأنا اعتقد أنه جاملني جدا . . عندما قال أنه لم يسمع مثل كلامي بين الشبان عشرين عاما . لقد أسعدني . ربما كان الذي أعطاه لي قد خصمه منكم !

ـ أما أنا فقد أعطاني كل ما عنده وزيادة . . ربما يكون قد خصمه من مئات الطلبة الذين سوف يلقونه اليوم وغدا . . بل إنه استعار من شعر المتنبي أبياتا يصفني بها . . فإذا كان قد مسح بكم الأرض ، فإنه قد مسح بي السماء !

وكانت مفاجأة لنا جميعا عندما التقينا صباح السبت . لنعرف أن واحدا منا لم يذهب لصالون الأستاذ العقاد . كأننا اكتفينا بما قاله طه حسين . . فالذي قاله لنا جميعا كثير . . والذي قاله لكل واحد منا كثير جدا . ولا بد أن نفكر في الذي قال . . وأن نتدبر أمرنا ، ونعرف وسيلتنا وطريقنا إلى مستقبلنا . وليس أحسن من طه حسين قدوة وأسلوبا وغاية . . ولا أرق منه حديثا ولا أعمق منه حنانا وأبوة . .

وكانت مفاجأة أخرى عندما لاحظنا أننا ، دون اتفاق بيننا ، لم نذهب إلى صالون العقاد مرة ثانية !



عجزت عن حب هذا الرجل الرافعي

عجزت عن حب هذا الرجل ..
الرافعى!!

أعلم علماء اللغة العربية والبلاغة هو مصطفى صادق الرافعى . فالمفردات التى جاءت فى كتبه لا حدود لها . والتراكيب التى ابتدعها لايمكن حصرها . وقد قرأت له وأنا صغير كتابا واحدا هو « السحاب الأحمر » وأدهشنى وبهرنى وحيرنى .. فهذا الكتاب قد بدأ بأن وضع صادق الرافعى قلما كان يستخدمه بينه وبين المصباح ورأى اختراق الضوء للقلم المصنوع من الزجاج .. رآه داميا .. فوقف طويلا أمام هذا الاكتشاف .. أمام شلال الدم وشلال النور .. أمام اللحم الدموى والدم الذى هوسحاب بين أصابعه ..

قال الأستاذ سعيد العريان الذى أحبه وأرخ له ولم يفهمه :

قال لى الأستاذ الرافعى : أرأيت القلم الذى تراءى لى السحاب الأحمر فى نصابه بين يمينى وبين المصباح ؟ ثم دس يده فى درج المكتب فأخرجه ثم أعطانى القلم وهو يقول : ضع النصاب بين عينيك والمصباح وأنظر . ألست ترى سحابا يترقرق بالدم كأن قلبا جريحا ينزف .. فى شعاعة هذا النور تراءت لى هذه الخواطر التى تقرؤها فى « السحاب الأحمر » .

ثم عادَ إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال .

ويقول الأستاذ سعيد العريان : « أحسب أن الرافعى حين أنشأ « السحاب الأحمر » كان فى حالة عصبية قلقة لست أعرف مأتاها ومردها . ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها فى شىء من الغموض والإبهام »

ونحن أمام وضع نموذجى للأديب ومؤرخ الأديب .

الأديب يستخرج المعانى من وضع قلم من الزجاج الأحمر ، والمؤرخ يرى ذلك ولايفهم ولايحاول أيضا . ويصف حالة الرافعى بأنها عصبية وأنه لذلك يقول كلاما غامضا غير مفهوم .

والحقيقة أن الرافعي ليس عصبيا عندما كتب الكتاب ، ولكن مزاجه عصبي عموما إذا كتب وإذا لم يكتب ، وهذا الغموض ليس حالة نفسية ولكنه أسلوب الأديب في توليد المعاني بعضها من بعض . هذا الغموض هو الذي صدني عن الكاتب الكبير . فأنا معجب به ومعجب له ، وتمنيت لو أستطيع أن أكون تلميذا في هذه المدرسة ، سائحا في هذا العالم العجيب الغريب للرافعي . حاولت . ولكني لم أستطع وإن كنت أعود إليه من حين إلى حين .

فأنا عندي مشكلة . ومشكلتي أنني أحب الوضوح والبساطة والجمال . وكل الذين كتبوا بوضوح بهروني ، والذين كانت عباراتهم بسيطة جذبوني . وكل شيء جميل أخذني وسحرني . وتمنيت أن أحقق شيئا من كل ذلك . ولكن لم أعرف في بداية حياتي كيف ؟

.. حتى عندما كنت أغني لمحمد عبد الوهاب في الحفلات المدرسية وفي الأفراح وطهور الأطفال - متطوعا - لم يكن سبب ذلك أن صوتي كان جميلا وإنما كانت عندي رغبة قوية اكتشفتها فيما بعد هو أن تمنيت أن تكون لي عبارة سهلة مثل موسيقى عبد الوهاب ، وأن يكون لي أداء سهل مثل أدائه .

وعرفت فيما بعد أن العبارة السهلة شيء صعب . فالإنسان لايستطيع أن يكتب بسهولة إلا بعد أن يكون قد فهم ، ولايستطيع أن ينقل هذا الفهم إلى الناس بسهولة إلا بعد أن يكون قد تمرس على الأداء السهل .. وأن الإنسان لايكتسب السهولة إلا بمشقة .. إلا بعد وقت طويل . وكان الوضوح والسهولة والجمال : أمل حياتي الأدبية والفلسفية . ولايزال .

وربما كان إعجابي المبكر بالأستاذ العقاد هو الوضوح .. أي المنطق القوي الذي يقنعك ، وإن لم تكن عبارة الأستاذ العقاد مما أعجبني فيه . حتى فكرت فيما بعد ، وبنصيحة من الأستاذ توفيق الحكيم ، أن أعيد صياغة كتب الأستاذ العقاد ، ولكني ترددت . ثم رفضت .

وإعجابي بالأستاذ العقاد قد شغلني عن الإعجاب برجل في عظمته ، ولكن عبارته أسهل وأجمل هو الدكتور طه حسين . ولم أكتشفه إلا في مرحلة متأخرة جدا ، وقد أحزنني ذلك تماما !

الأحداث الصغيرة التي زلزلت حياتي أنني كتبت مقالا عن « معنى الفن »

عند تولستوى ونشرتها فى جريدة « الأساس » وفى ندوة الأستاذ العقاد ، أبدى إعجابه بالمقال .. بأسلوب المقال .. وجرت على نفسى .. ومعنى ذلك أن « أسلوبى » قد أعجب الأستاذ العقاد صاحب الأسلوب القوى الغليظ .. أسلوبه كأنه طريق مرصوف بالحجارة .. وأنا أحب أن يكون طريقى مرصوفا بالرمل .. أن يكون ناعما سهلا لينا .. وعكفت على إعادة كتابة نفس المقال عشرات المرات . وكنت فى ذلك الوقت قد تخرجت حديثا فى قسم الفلسفة بآداب القاهرة . وعندما عدت إلى المقال وجدت به مصطلحات فلسفية . فأيقنت أن هذه المصطلحات هى التى أعجبته . ولا أزال أحتفظ بكل العشرين محاولة لتجريد المقال من كل الكلمات الصعبة والتراكيب الغامضة : وبعدها لم أعد ملتفتا إلى العبارات الفلسفية .. فأمنيتى أن أكون مفهوما مقنعا ممتعا عند أقل الناس تخصصا . أى حتى يفهمنى كل الناس !.

ويوم ألقيت قصيدة فى « مولد النبى » فى جمعية الإخوان المسلمين بامبابة . كان يجلس فى الصف الأول فوق السطوح المرشد العام الأستاذ حسن البنا . وبعد أن فرغت من قصيدتى عانقنى وباركنى وهمس فى أذنى يسألنى ما هى دراستى . فقلت : الفلسفة . فقال فى أبوة وحنان ورقة بالغة : هذا واضح يا ولدى .. حاول أن تكون أبسط وأسهل .. فأنت ترى جمهورك من الناس البسطاء !

ولم أنظم قصيدة بعد ذلك !

وكتب الفلسفة التى كانت فى أيدينا فى ذلك الوقت : مؤلفات يوسف كرم . دقيقة مضبوطة . ولكنها ليست سهلة ولا جميلة .

أجمل وأمتع ما عرفنا فى ذلك الوقت ما كتبه زكى نجيب محمود وأحمد أمين عن تاريخ الفلسفة اليونانية والحديثة . العبارة سهلة جميلة مشرقة واضحة مقنعة . متعة مؤكدة . هكذا تكون العبارة !

ومؤلفات د . عبد الرحمن بدوى ، لا هى سهلة ولا ممتعة . ولكنها قوية مطلوءة بالمعانى والتراكيب الفلسفية الجديدة . تبهرك تعجبك . ولكنك لا تحبها ، ولا تحب لنفسك أن تكون مثل صاحبها .

وأذكر عندما عملت محررا بأخبار اليوم أن بعث د . عبد الرحمن بدوى

مقالا عن مؤتمر للمستشرقين هاجموا فيه القرآن والرسول عليه السلام . وعرضت المقال على الأستاذ مصطفى أمين . وتردد فى نشره لغموضه ، وارتفاع مستواه عن القراء .. وكان عنوانه : تخرصات المستشرقين ، فى غمز ولمز القرآن .. وطلب منى مصطفى أمين أن أعيد كتابته بأسلوبى . وكتبته بعنوان : مؤامرة على الرسول .. وقد حذفت منه كل التراكيب الفلسفية الصعبة !

وكان لنا أستاذ إسمه محمد محمود حضيرى يدرس لنا الفلسفة الإسلامية . وهو من أرق الناس وألطفهم وأكثرهم أبوة لنا . وكانت له ابتسامة لطيفة وصوت هادىء . وكان هادىء العبارة . وكان يملي محاضراته من كراسة معه .. أما الرجل فأنا أحب أن أكون فى تواضعه وأدبه ، وأما أسلوبه فلا أحب مطلقا . فهو أقرب إلى فلاسفة المسلمين وعلمائهم : صعب .

وفى ذلك الوقت عرفت مؤرخا أمريكيا ليس له نظير فى العالم هو : ول ديورانت .. هذا هو الكاتب والمفكر والأديب . هذا هو المثل الأعلى لكل من يريد أن يفكر ويتفلسف . فقد أوتى علما غزيرا وأسلوبا سهلا وتواضعا عظيما . ومرحا وخفة وجمالا ـ هذا هو الرجل وهذا هو الأسلوب ..

وعرفت من بين مؤلفى علم النفس رجلا آخر هو دودورث : أسهل عبارة وأمتع القصص والتفسيرات .

وعرفت كاتبا فزيائيا هو جيمس جينز .. عرفت هذا الكاتب ممانترجمه د . أحمد زكى . فقد ترجم له « الكون الغامض » ـ فى أسهل وأيسر عبارة .

وعرفت الكاتب دى كرويف من ترجمة د . أحمد زكى لكتاب له عن « قصة الميكروب » . و هو الذى كان رئيسا لتحرير مجلة « العربى » وقد طلب منى قبل أن أكون رئيسا لتحرير مجلة « آخر ساعة » أن أخلفه فى مجلة « العربى » وقد اعترض الأستاذ إحسان عبد القدوس الذى كان رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم واعترض د . قاسم فرحات العضو المنتدب .. ثم اعترض الرئيس أنور السادات ...

وفى ذلك الوقت كنت قد وقعت أسيرا لكاتب قد توفر لديه كل ما أحب فى الكاتب والكتابة . ذلك هو الكاتب الفرنسى أندريه موروا . فعندما جاء ترتيبى

الأول فى التوجيهية والأول فى مسابقة الفلسفة على مستوى مصر كان لابد أن نذهب للقاء وزير المعارف نجيب الهلالى باشا . وفى حفلة عامة تقدم فيها ستة من مدرسة واحدة هى مدرسة المنصورة الثانوية : أوائل مصر فى التوجيهية أدبى وعلمى ورياضة .. تسلمنا من وزير المعارف شيكا بخمسة وعشرين جنيها ، أكبر مبلغ من المال تلقاه طالب فى مثل سنى .. وأهم من ذلك عدد من الكتب فى مقدمتها : كتاب « دزرائيلى » ترجمة حسن محمود . الكتاب من تأليف أندريه موروا .. أروع ما كتب وأروع ما قرأت . ومعه كتاب « النقد الأدبى » الأبركرومبى ترجمة أستاذ أساتذة الجغرافيا د . محمد عوض محمد من أبناء المنصورة النابهين ..

لا أعرف كم عدد المرات التى قرأت فيها دزرائيلى رئيس وزراء بريطانيا اليهودى ، ومن تأليف الكاتب الفرنسى اليهودى أندريه موروا .. لقد رأيت فى الكتاب وشخص رئيس الوزراء وشخص المؤلف ، ما لم أكن أعرف من أسرار الأدب والسياسة والتاريخ وصناعة الكتابة . ولم يفتنى كتاب واحد لأندريه موروا بعد ذلك فى الأدب والفلسفة . ما كتبه عن الفلسفة الوجودية وما كتبه عن جورج صاند .. وعن صناعة القصة القصيرة وعن الحب والسعادة .. وبهرتنى رواية له إسمها « مناخ » وهى عبارة عن رواية فيها حادثة واحدة يكتبها اثنان كل واحد من وجهة نظره ..

وعرفت فى ذلك الوقت ، ومبكرا جدا ، أديبا فرنسيا هو أستاذ أندريه موروا واسمه « ألان » أستاذ أساتذة المقال القصير .. ألوف المقالات القصيرة . وعرفت كيف يقوم بتوظيف تاريخ الأدب ورموز الأساطير القديمة فى عرض نظرته ونظريته وفلسفته فى الحياة والدنيا . أعجبنى كثيرا .

هل كل ذلك جعلنى أظلم مصطفى صادق الرافعى ؟ .. هل جعلنى أقسو فى الحكم عليه ؟ .. لا أظن ذلك وحده !

وفى نفس الوقت - فى المرحلة الثانوية - قرأت قصة « الحب والدسيسة » للشاعر الألمانى شيلر . وهى أول رواية مترجمة أعيشها .. ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت ما هو الحب ، ولا ما هى مشاكل الحب .. ولا معنى أن يذهب أحد يخطب واحدة .. وفى هذه الرواية يقول الأب لخطيب ابنته : إن الرجل الذى يذهب إلى رجل آخر يرجوه أن يخطب إبنتى له ، لا يلهمنى الثقة به !

ولم أفهم . لأن المطلوب أن يذهب الشاب إلى والدها ويطلبها .. هذه هى الرجولة !

ولم أفهم هذه العبارة الغريبة : إذا باض الشيطان بيضة إنفقست بنتا جميلة !

كانت أول رواية .. وكانت العبارة سهلة . والمعنى غريبا . وعالم الرواية شيء جديد تماما .

وبسرعة وجدت فى المكتبات ، روايات الجيب ، من ترجمة الأستاذ عمر عبد العزيز أمين .. هذا هو الكنز العظيم الذى وقعت عليه ووقعت فيه .. كل أدباء العالم الكبار باللغة العربية .. وفى كتب صغيرة وكثيرة .. أهم من ذلك : سهولة العبارة وسرعتها .

وفى ذلك الوقت أيضا عرفت روايات بوليسية ساخرة للكاتب الفرنسى موريس لوبلان عن مغامرات ، أرسين لوبين ، .. وهى أمتع وأروع ما عرفت فى ذلك الوقت . وأذكر أننى كنت أسافر من المنصورة إلى السنبلاوين لكى أحصل على مزيد من هذه الكتب . فقد كان لدى أحد أقاربى عدد كبير منها . ولم أسأل كيف حصل على كل ذلك !

وفجأة ، وكأن نوافذ النور قد انفتحت كلها فى وقت واحد وجدت كتبا صغيرة الحجم من تأليف كاتب إسمه محمد صبيح . الكتاب تضعه فى جيبك . وغلافه غريب وجميل . والغلاف من تصميم فنان أصبح زميلا وصديقا هو عبد السلام الشريف . والكاتب محمد صبيح الذى كان سكرتير تحرير جريدة ، الأساس ، - أول جريدة أعمل بها - يمتاز بسهولة ووضوح العبارة . ولديه قدرة هائلة على السرد والتبسيط - وإن لم يكن أسلوبه جميلا - ولكن لم أجد أحدا يكتب فى التاريخ الإسلامى أسهل وأيسر منه .

ثم وقعت فى غرام شعراء كثيرين : شوقى والبهاء زهير ومحمود حسن اسماعيل واسماعيل باشا صبرى .. ولم أنتبه فى ذلك الوقت إلى غيرهم من الشعراء . فلم يكن وقتى يتسع لكل هذه القراءات الحرة ، أى البعيدة عن المقرر .

لقد وجدت نفسى . أى وجدت الذى يعجبنى والذى يمتعنى . ولا يعجبنى إلا الذى يريحنى ، ولا يريحنى إلا الذى يبهجنى . إذن هذا بالضبط ما أريد

وما أحب وما أتمنى - إن لم يكن تماما كذلك ، فهو شيء قريب من هذا .

وأنا لا أرفض أى شيء من أول نظرة ، لا أضيق بكتاب إذا قرأت صفحة أو عشرا فلم تعجبنى . لا أجد ذلك كافيا للحكم على الأديب . وإنما أجد من الضرورى أن أقرأ الكتاب كاملا .. هنا فقط أجد في نفسى القدرة والحق والعذر للحكم على صاحب الكتاب .

ولكنى مع الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، لم أكتف بكتابه ، السحاب الأحمر ، وإنما قرأت : رسائل الأحزان .. وأوراق الورد .. وما كتبه فى تاريخ أدب العرب .. ومقالاته فى ، وحى القلم ، .. وقصائده .

فما هذا الذى أجده فى كتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ؟

وجدت هذه البراعة فى تخريج المعانى بعضها من بعض .. ووجدت تراكيب بلاغية غير مألوفة .

ووجدت الأستاذ الرافعى يحاول أن يبرر للقارىء لماذا هو مشغول بالكتابة عن الحب والجمال وفلسفة الجمال وعن الغرام والعشق والكراهية والنسيمة .

ولم يعرف أقرب الناس من هى التى يحبها .. وإنما كان هو يشيع ويشير إلى الأديبة ، مى زيادة ، وكانت ، مى ، شرفا يدعيه كل أدباء زمانها إبتداء من لطفى السيد وانتهاء بسلامة موسى مرورا بالعقاد وطه حسين واسماعيل صبرى ومطران خليل .. وغيرهم كثيرون ..

أما العقاد فكانت بينه وبين مى رسائل ذهابا وإيابا . واختلف الإثنان وأعادت رسائل العقاد إليه . واحتفظ ببعض هذه الرسائل .

وكان مصطفى صادق الرافعى يشير إلى الغرام بينهما .. أو إلى أنه حب من طرف واحد - طرفه هو - ومصطفى صادق الرافعى ، إذا أحب من طرف واحد ، فهو يتمشى مع أشهر الغراميات فى التاريخ كله . فمعظم عظماء الحب كانوا يحبون من طرف واحد .. ولولا هذا العذاب ما كان شعرهم الجميل ..

ولكن حب مصطفى صادق الرافعى لم يكن لمى زيادة ، بقدر حبه أن يكون فى حالة حب ليكون مؤهلا لابتداع التراكيب الجمالية والبلاغية الكثيرة فى كتبه .

ونحن لانسأل أديبا عن حبه ، إن كان صادقا ، وإنما نحن نقلب فى الذى

كتبه . فإن أحب فسوف نرى ماذا كتب ، وإن إدعى الحب فسوف نرى ماذا كتب . وإن تخيل أنه أحب ، فسوف ننظر ماذا قال ..

والحقيقة أن مصطفى صادق الرافعى عاشق للغة العربية . ويحاول أن يبرر هذا العشق . ويخترع له قصة . فلم يجد غير قصة « مى زيادة » .. ولو لم تكن مى زيادة هناك لاخترع غيرها . وقد فعل . ولم يكن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى مقنعا لأحد من القراء أو المؤرخين ..

وإذا كان حبه لمى زيادة مشكوكا فيه ، فإن حبه للغة العربية قد تأكد ألف مرة . طه حسين ، رغم اختلافه معه ، وضيقه بأسلوبه فى الكتابة ، معترف له بأنه أعلم الأدباء باللغة فى زمانه ..

واختلافه مع طه حسين بديهى : فطه حسين إبن الحضارة الفرنسية والبلاغة العربية . المتمرد على قيود اللغة وقيود الفكر .. ومصطفى صادق الرافعى إبن الحضارة الإسلامية وأسير البلاغة العربية ، ولا أثر للحضارة الأوربية فى شىء كتبه أو فكرة تعرض لها أو تحداها ..

وهو خصم لدود للعقاد : إبن المنطق والحضارة الإنجليزية والألمانية . وهو الناقد العنيف الذى يستخدم أدوات علم النفس التحليلى والواقعية فى غير هوادة ولا رحمة . والعقاد لا يقبل كلمة أو تعبيرا ليس واضحا وضوح الشمس . ومصطفى صادق الرافعى يفضل أن يخرج القلم الأحمر من درج مكتبه ويضعه بين عينيه وبين المصباح ويؤلف عن ذلك كتابا ، أما العقاد فهو ينظر فى النور مباشرة ، ويعرف من أين جاء ولماذا ؟ وينظر إلى القلم فيعرف من أى شىء صنعوه وكيف باعوه ، ولماذا اختاره أى أحد .. وما هى الأسباب الذى جعلته يفضل اللون الأحمر ، ثم ما معنى أن يحتفظ به فى المكتب ويخرجه من حين إلى حين وما دلالة إضاعة الوقت فى تقليب القلم ، وإن كانت لذلك دلالة جنسية .. أو إن كان لذلك معنى شاذ ، كما كان يفعل المركيز دى صاد وكما كان يفعل أبو نواس !

ولذلك كان الخلاف بين العقاد والرافعى عنيفا ، إختلاف عقلين ومزاجين وأسلوبين فى الكتابة والثقافة !

وفى ذلك الوقت سمعت عن معارك الرجلين ، ولا أدعى أننى قرأت شيئا

منها . وقيل أن الرافعى كتب سلسلة من المقالات ضد العقاد بعنوان « على السفود » . والسفود هو عود الحديد الذى يضعون فيها اللحم فى النار . ثم هو وصف العقاد بأنه الشاعر المراحيضى . لأن العقاد عندما رثى كلبه الصغير قال :

« مرحاضه أعز أثوابنا »

ورغم سعادة طه حسين بهذه المعركة ضد عملاق النقد الأدبى عباس العقاد ، فإنه كان يرى الرافعى خصما نموذجيا .. فهو صورة حية لكل الذى هجره طه حسين فى الكتابة الأدبية ..

* * *

وهذه نماذج موجزة لأسلوب الرافعى فى الكتاب وتصوير الأشخاص . قال عن الإمام محمد عبده :

« وظهر لى وجه الشيخ : رجل كان فى تركيب العالم الإسلامى أشبه بالجبهة فى جسم المؤمن : أعلى ما يرتفع للأعين وأول ما يسجد لله .. خلق فصيحا لأن لسانه أعد لتفسير معجزة الدنيا فى هذه اللغة ، فكان لسانه معجزة فى الألسنة ! »

* * *

« مرة أجد الفكر يجره القلب ، ومرة أجد القلب ينسحب للفكر » .

* * *

« إن أنت أحببت فتخضع لقلبك ، ولكنك أنت وقلبك سائران فى طريق قلبها .. كل محب يقول : لاهى إلا هى ! »

* * *

« العاشق مع المرأة كالنسر عندما تتحطم مخالبه وينكسر منقاره ويتساقط ريشه .. فالإسم نسر والمعنى دجاجة ! »

« فى قلب الرجل ألف باب ، يدخل منها كل يوم ألف شىء ، ولكن حين تدخل المرأة بين أحدها لا ترضى إلا أن تغلقها كلها » .

• • •

« قيل لحية سامة : أكان يسرك لو خلقت امرأة ؟ قالت : فأنا امرأة غير أن سمى فى الناب وسمها فى لسانها ! »

• • •

« يخيل إلى أن عقل النساء مثل وجوههن : تحته ما تحته وليس عليه إلا « غبار » من العقل ! »

ومن المؤكد أن الأستاذ الرافعى لم يكن يحب المرأة . وإنما كان يكرهها ويحتقرها .. هل هو يكره المرأة التى عرفها ، أو المرأة التى أراد أن يعرفها وفشل ؟ إن الذى يقوله عن المرأة فى فلسفة الجمال والحب ، لايشجع المرأة على أن تقترب منه .. فهو يخيفها بسوء الظن بها .. ثم كيف يحبها وتحبه ، إذا كان ثقيل السمع ، بعيدا فى طنطا ، ثقيل الحركة أيضا .

ولكن للأستاذ الرافعى شعرا رقيقا جميلا ، يكون فيه أكثر حرية وأكثر انطلاقا وأخف دما كأنه إنسان آخر ..

ولكنه أقرب إلى طبيعته إذا كتب النثر . وأبعد عنى تماما . ففى الشعر يقول :

من للمحب ومن يعينه
والحب أهنأه حزينه !
أنا ما عرفت سوى قساوته
فقولوا كيف لينه ؟
قلبى هو الذهب الكريم
فلا يفارقه رنينه
قلبى هو الألماس يعرف

من أشعته ثمينه
قلبى يحب وإنما
أخلاقه فيه ودينه
الحب سجدة عابد
ماأرضه إلا جبينه
الحب أفق طاهر
ما أن يدنسه خئونه
أفق الملائك نفسه
فى البدء كان له لعينه
ويلى على متذلل
ما تنقضى عنى فنونه
كيف السلو وفى فؤادى
لا تفارقنى عيونه !
ويقول أيضا :

يأمن على الحب ينسانا ونذكره
لسوف تذكرنا يوما وننساكا
إن الظلام الذى يحلوك ياقمر
له صباح متى تدركه أخفاكا !

ويقول مشيراً إلى أن محبوبته كانت لها صلة باسماعيل باشا صبرى ـ يقصد الآنسة مى زيادة :

ألا يانسيم الفجر سلم على فجرى
فقد غاب فى الليل الطويل من الهجر
تضىء الليالى بالنجوم وبدرها
وليل الجفا من غير نجم ولا بدر
وقفت وماذا أستطيع بوقفتى
حيرا ، وأقدار الغرام بنا تجرى ؟
أدور بعينى نحو كل شعاعة
على الأفق فى نجم ، أو الأرض فى زهر

فياويح قلبى ماله حتى كلما
تراءى له شبه إبتسام على ثغر
مت ياحبيب القلب هجرك ينتهى
ومن أول الأيام فيه انتهى « صبرى » ؟

• • •

ويقول الأستاذ الرافعى :

سألتها مرة : ماذا يقول البحر لو سقطت فيه دمعة من مهجور ؟

فقالت أنه يقول : إنسان أحمق أو مخبول يحاول أن يجعل له بحرا من قطرتين ..

قال : أراك يافيلسوفتى لاتفهمين لغة الوجود ..

قالت : فما ترى أنت ؟

قال : إنه يقول عندئذ : تباركت يارب أنا الجبار المالىء ثلاثة أرباع الأرض ، قد آلمتنى دمعة محب متألم ، فهل هو يحمل ثلاثة أرباع الهم فى الأرض ؟!؟

• • •

يقول الأستاذ الرافعى :

قد عرفنا أن لنا أعمارا محدودة ، يجوز أن ساعات الهناءة والسعادة إنما كانت محدودة لأنها أعمار لأعمارنا ؟ فبضعة أشهر من الجفاء أو البعد يكون عمرها هو ساعة اللقاء التى تنفق بعدها ، وسنة كاملة من عمل يكون عمرها يوم سرور ؟

إن كان هذا صحيحا فما أقصر عمرك يا عمرى ! »



اهلا بك فى مصر
ضيف مصر العظيم
دلير نمات

أهلاً بك في مصر.. ضيف مصر العظيم "ديرنمات"

في عام ١٩٦٩ مشيت في هذا الطريق صاعداً من جنيف إلى برن إلى نيوشاتل ، حيث يقيم أديب سويسرا فريدريش ديرنمات وضيف مصر هذا العام ١٩٨٥ . في نفس الوقت كان رائد الفضاء الأمريكي نيل أرمسترونج في طريقه إلى القمر والدوران حوله والهبوط عليه ، ليقول جملته الشهيرة : هذه خطوة صغيرة لإنسان ، خطوة عملاقة للإنسانية .. وكنت أقول لنفسي هذه خطوة هامة أن أرى الأديب السويسرى الذى استطاع أن يحرك أدب الشعوب الناطقة بالألمانية الذى كان قد جمد وانطفأ بعد الحرب العالمية الثانية ـ تطبيقاً للعبارة الشهيرة التى قالها العالم الإغريقى أرشميدس : أعطنى مكاناً خارج الكرة الأرضية وأنا أحركها لك .

وديرنمات قد اتخذ مكاناً عبارة عن فيلتين متجاورتين : واحدة للكتابة والرسم ، والأخرى للمعيشة . ومن هنا استطاع أن يملأ الأدب الألمانى بالنكتة والسخرية من العالم ، ومن نفسه أيضا .

وكنا قد عرضنا له فى مصر مسرحية « علماء الطبيعة » من ترجمة د . عبد الرحمن بدوى ، وترجمت له أيضاً مسرحيات : « رومولوس العظيم » و « هبط الملاك فى بابل » و « زيارة السيدة العجوز » و « زواج السيد مسيسبى » و « الشهاب » . ولما عرف ديرنمات سألنى عن حق الأداء العلنى أى عن نصيبه كمؤلف من الأرباح الطائلة التى حصلنا عليها من هذه المسرحية ، فقلت له أنها لم تكسب ، بل هى خسارة فادحة على المسرح القومى ، وخيل إليه أننى أكذب عليه ، فبعث بخطاب إلى السفير السويسرى فى القاهرة ، والسفير

السويسرى بعث بخطاب إلى وزير الثقافة ، ووزارة الثقافة بعثت بخطاب إلى إدارة المسرح ، وسألونى . وكان لابد أن نرد أن المسرحية خاسرة ، ولكن لا شأن للمؤلف بذلك ، فهو يريد حق الأداء العلنى ، وكان ردنا المفحم المخجل أيضاً أنه لا حق له ، فنحن لم نوقع على اتفاقية برن ولن نعطيه مليماً واحداً .

ولم تتوقف السفارة السويسرية عن المطالبة بحق مواطن سويسرى عظيم ، ولم نشأ أن نرد عليها ، ووجدت ديرنمات عند الباب الحديدى ، واختلط صوت السلاسل بالمفاتيح بصوت الكلب ، وبادرنى بصوته الغليظ قائلا : لم أرك منذ عمر طويل .

قلت : ولكن هذا العمر الطويل قد جعلك أرشق وأكثر شباباً ، وأنت لم تكبر ١٦ عاماً وإنما عدت إلى الوراء ١٦ عاما .

وكأنما خاف من الحسد أو كأنه سمعها كثيرا ، فهى عبارة مكررة ، وليس أمام التكرار الممل إلا الملل أو السكوت عليه .

وتقدمته إلى الداخل . ليعتذر أن البيت تجرى به إصلاحات . ومن بين هذه الإصلاحات أنه بعد وفاة زوجته الأولى ظهرت الثانية فى حياته . طويلة نحيفة جادة الملامح والصوت أيضا ، إنها مخرجة فى التليفزيون الألمانى . سألته : منذ متى تزوجتما ؟ هل من سنتين ؟ هل ثلاث سنوات ؟

وبدا التفكير على وجه ديرنمات يحاول أن يعرف بالضبط . فقلت هل سنتان طويلتان لدرجة أنه يصعب عليكما أن تعرفا إن كانتا سنتين أو عشرين سنة . فقال هو : سنتان ، وقالت هى : بل سنتان ونصف .

• • •

وقبل ذلك بعشر سنوات ذهبت للقاء عريس الفلسفة الألمانية .. عريس الفلسفة الوجودية ، وهو مولانا وسيدنا نحن المشتغلين بالفلسفة : مارتن هايدجر . كان ذلك فى مدينة تيبنجن بجنوب ألمانيا ، لقد كان يوماً عظيماً أن أرى مثل هذا الفيلسوف العظيم ، وهو أعظم من رأيت من الفلاسفة . لقد رأيت الفيلسوف الوجودى سارتر وصديقته الأديبة سيمون دى بوفوار وأعجبت به وبها .. ولكن عميد الفلسفة الألمانية هذا أعظم .. هذا أروع . ولم أكن فى حياتى قد رأيت زوجة لفيلسوف ، إننى أعرف كيف كانت تبدو زوجة سقراط ،

وكيف لعنها فى كل كتاب ، وكيف إنه حملها مسئولية القسوة والعنف على كل نساء العالم من ٢٥ قرنا .

وكان لقائى بالفيلسوف هايدجر مثل اللقاء بالأديب ديرنمات عند أعلى الجبل . والطريق صعب على السيارات ، وصعب على المشاة القادمين من الشرق الذين لا تثبت أحذيتهم على الجليد والصخور ، ولا يعرفون كيف يعتمدون على أنفسهم دون الاستعانة بعصى لها مخالب تنغرس فى الأرض . وأعلى الجبل وجدت رجلاً قصير القامة نحيفاً حاد الأنف قاسى النظرة . وأشار أحد الخدم بأنه الفيلسوف . ولم أعرف ما الذى أقوله ، لقد قرأت فى سنوات طويلة مئات الصفحات التى كتبها ، وهرشت رأسى بجدران الليل وتعبت وتعذبت . وعندى ألف سؤال ولا أعرف بأيها أبدأ فأشار هو بصوت خفيض إلى سيدة أطول وأعرض وأكثر بياضاً وقال : زوجتى .

وقالت زوجته : أنت تلميذه ؟

قلت : بل واحد من مئات الألوف فى القارات الخمس .

ولا أعرف إن كانت هذه الابتسامة على وجهه نوعا من الرضا بهذا الانتشار للفلسفة الوجودية الألمانية ، أو نوعا من السخرية من هذه العبارة الشرقية التى ليست فلسفية على الإطلاق !؟

وأشارت زوجته إلى داخل البيت الصغير لنشرب معنا القهوة . ودخلت وجلست وشربت . يتكلم وأنا أستمع . وكأننى أنصت إلى تسجيل لصفحات من كتبه الصعبة . ولا أدعى أننى فهمت ، ولكن أسعدنى أن أراه . أما الفهم فسوف يكون ذلك همى وشاغلى ، وعلى مهل . فى يوم .. فى شهر .. فى سنة ..

وبعد أيام من لقائى بديرنمات فى ٢٢ يوليه سنة ١٩٦٩ ذهبت إلى كوبا .. إلى العاصمة هافانا ، لأرى البيت الذى كان يعيش فيه الأديب الأمريكى همنجواى .. الذى انتحر بسبب لا نعرفه ، وقيل انهيار عصبى .. وقالوا كان فى نيته أن يتزوج فدفعته زوجته الأولى إلى الانتحار .. وقيل : إن هذا البيت تذهب إليه الزوجة ليلاً أما عروس المستقبل فتذهب نهاراً لتعرض دموعها على مصورى التليفزيون والصحافة .

وذهبت أرى دموع العروس . فلم أجد لا الأرملة ولا العروس . ودخلت البيت . ولم يسمحوا لنا إلا برؤية غرفة نومه ، وفى الطريق إلى غرفة النوم

مررنا بالغزلان والحيوانات التى نقلها أو صادها من الغابات الاستوائية وأطلقها في حديقة واسعة ، هذه الحديقة كانت هدية من الرئيس كاسترو الذى كان عاشقا للأديب الأمريكي . وغرفة النوم هي أشبه بغرفة نوم الأستاذ العقاد ، فالأرض مفروشة بالأحذية .. والأحذية من كل لون وحجم ، وهي جميعاً من مقاس واحد .. أو على الأصح ليس لها مقاس ، فهي لا تصلح إلا للأديب نفسه ، إنها واسعة ، وليس في إمكان أحد سواه أن يستعملها .. هل كان للأحذية معنى آخر ؟ هل أرادت الزوجة أن تقول مثلا : إن الأديب لم يترك وراءه إلا جزما ؟ هل من رأيها أن هذا هو رأيه في الناس .. أو هو رأيه في الحياة أو هو رأيها هي في الزوار ، والمؤرخين والنقاد الذين لم يقدروه حق قدره إلا بعد أن مات .. أو كان ذلك رأيها في زوجته الثانية .. وأنها ليست إلا واحدة من هذه المصنوعات الجلدية ؟!

ويكفي أنني رأيت كيف كان يعيش وكيف كان من الممكن أن يموت . فلديه السكاكين والبنادق والمسدسات التى استخدمها في صيد الحيوان وفي التقاط المعلومات والقصص .. ثم في نهايته بعد ذلك .

□ □ □

وعندما تحدد موعدى مع الأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا سألت سفيرنا في روما : إن كان من الضرورى أن أحمل هدية للعروسين ؟

فكان جوابه أن هذا يتوقف على مدى العلاقة بالأديب فقلت : صديق قديم ، وأنا أول من قدمه باللغة العربية ، فقد ترجمت له أكثر من مائة وخمسين قصة قصيرة ، وعرضت له رواية « فتاة من روما » و « زمن اللامبالاة » .. فضحك السفير قائلا : بل حقه عليك أن تقدم له هدية ، مادمت لم تدفع له شيئاً عن هذه القصص .

وسألت أديباً إيطاليا فقال : أعظم هدية أن تشترى مجموعة من مؤلفاته وتطلب إليه أن يوقع عليها !..

وفعلت . أما زوجته الأولى فهي الأديبة المعروفة « اليزامورانته » ، وقد دعوتهما إلى غداء في فندق سميراميس الذى يشغله الآن فندق الإنتركونتننتال

على النيل في جاردن سيتي بالقاهرة ، وكان يشير إلى زوجته بكثير من الخوف والفزع ، فهي تغار عليه وتحقد أيضا . وكانت تخفي وجهها كلما اقترب منها المصور .

ثم ظهرت عروس أدبية جميلة إسمها ، داتشا ماريانى ، أصدرت رواية واحدة إسمها ، لعنة العصر ، متوسطة القامة ذهبية الشعر ، جميلة الوجه ، أصغر منه بثلاثين عاماً ، قال ألبرتو مورافيا : كان لابد أن أتزوجها بعد هذه الخطبة الطويلة .

قلت : إن حياتك الزوجية مختلفة عن الحياة الزوجية في كل رواياتك .. ففي رواياتك .. زوجات ملعونات .

فضحك قائلاً : إنها صور من الواقع .

قلت : من واقعك ؟

قال : نعم .. فكل زوجة هي إنسان ملعون حتى تثبت براءته .

وقالت الزوجة : ما رأيك في هذه الكرافته ؟.. لقد اشتريتها اليوم بمناسبة زواجنا الثاني .. وما رأيك في الجزمة والصديرى ؟

فاعتدل مورافيا ليقول : وما رأيك أنت في الخاتم الذى في أصبعها والعقد الذى حول عنقها والجاكت الفرو .. احتفالا بهذه المناسبة السعيدة ؟!

قلت : هل هو سؤال تقليدي أن أسأل كيف كان اللقاء ؟..

أجاب مورافيا : إنه زواج تقليدي جدا .. هي قارئة تريد أن تسأل عن مشكلة شخصية ، وطال الكلام بيننا في المشكلة ، وأصبحت أنا مشكلتها الشخصية .. وسألتني كيف أجد لها حلاً ؟.. فلم أجد إلا حلاً واحداً هو : الزواج مني . وبذلك يكون هذا الزواج نوعا من العفو الشامل عن الماضي كله ، وانتقالاً إلى مستقبل في ظل رجل مفروض فيه أن يكون حكيماً .. أى قادراً على صنع المستحيل .. والمستحيل هو السعادة الزوجية .. أو السعادة بين شخصين متفاوتين في كل شيء .

قلت : إذن فأنت لست الحل ، وإنما هذا الزواج هو ، تأجيل للحل ».. أى تأجيل للحكم إلى ما بعد الجلسة ، والجلسة هي الزواج عاماً أو عشرين عاماً ؟

فقال جاداً : عشرين عاما ؟! إن عاماً واحداً لكثير جدا .

ولم تعترض العروس ، ولم تتدخل ، إذن فزواجهما مؤقت أو موقوت .

ولما طلب مؤرافيا أن ننتقل إلى غرفة داخلية اعترضت العروس قائلة : ما تزال هناك بعض الإصلاحات . فضحك مورافيا قائلا : هذه الإصلاحات التى تحاولها الزوجة الجديدة عادة تعبر عن رغبتها العميقة فى القيام بإصلاحات أخرى .. إصلاحات فى تكوينه النفسى أو فى وجهة نظره عن الحياة المشتركة ، ولكنها عندما تجد ذلك صعباً فإنها تحاول إصلاح المقاعد وتغيير مفارش السرير ومكانه من الغرفة .

ولم تعترض العروس ..

□ □ □

قلت لفريدريش ديرنمات : هل تعلم أن أحداً لم يعرفك فى مصر عندما ظهرت مسرحيتك ، علماء الطبيعة ، ؟..

ولم يدهشه ذلك .

ثم عدت أقول : ولكن نكتة أطلقها كاتب ساخر جعلتك حديث الناس .

إنها نكتة الكاتب الساخر أحمد رجب فقد ، فبرك ، مسرحية من فصل واحد وجعل إسمها : ، الهواء الأسود ، ونسبها إلى ديرنمات ، ثم عرضها على عدد كبير من النقاد وبعث لى بالنص العربى فأدهشنى أن يكون ذلك لديرنمات ، فالحوار والمعنى يدخل فى مسرح العبث . أو مسرح اللامعقول الذى كنا نجربه على المسارح المصرية فى ذلك الوقت ، والذى دخله الأستاذ توفيق الحكيم بمسرحية : ياطالع الشجرة .. ثم طلبت من الصديق أحمد رجب أن يبعث لى بالنص الألمانى فوعد بذلك ، ولما سألنى عن السبب قلت له . لم أقرأ أن ديرنمات قد ألف شيئاً لمسرح العبث .

ثم عرض المسرحية على كبار النقاد والمخرجين فى مصر فأشادوا بها جميعا .. بالحوار والمنطق والفلسفة والعمق والعقدة والأبعاد الدرامية والبؤرة التاريخية ، ونشر أحمد رجب كل هذه الآراء فى مجلة ، الكواكب ، ومعها أنه هو الذى ألف هذه المسرحية المزعومة .

وكانت فضيحة أدبية كبرى .

وأغرب من ذلك أنه رغم الفضيحة الأدبية المؤكدة فإن مسرح الدولة فى

بغداد قد عرض هذه المسرحية على أنها من تأليف ديرنمات !

وفزع ديرنمات من أن يترجم أحد هذه المسرحية وينسبها إليه .

ولكن أحداً لم يفعل ذلك من ١٦ عاماً .

سألت ديرنمات : قلت لي في لقائنا الأول إنك لم تقرأ من الأدب العربي سوى ألف ليلة ، وكتاباً واحداً للمؤرخ اللبناني الأمير أرسلان ، فهل لم تفعل أكثر من ذلك ؟..

فضحك ديرنمات ضحكة غليظة أخفى فيها خجله ، وتراجع في مقعده ليبدو أقصر ، ووضع يده على رأسه الكروي وراح يضحك : لا .. بل قرأت في الأدب العربي . وفي المذاهب الدينية والفوارق بين السنة والشيعة .. بل اهتديت أيضاً إلى فكرة مسرحية كوميدية ، وهي أنه حدث في أيام الخليفة المنصور أو الخليفة هارون الرشيد أن حكماً صدر على حاخام يهودي وعلى شيخ مسلم ، فتخلا السجن . وفي السجن تناقشا طويلاً ، وكان اليهودي يعتقد أن « التلمود » لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وكان ذلك رأي الشيخ المسلم في القرآن الكريم أيضا ، ولكن بالحوار والمناقشة اكتشفا معاً أنهما يؤمنان بنفس المعاني ، ولكن بصورة مختلفة . وأخرج الحاخام اليهودي خطأ ، فراح يلف البلاد كلها فلم يجد أحداً يرى رأيه ، وبعد مئات السنين عاد إلى السجن ليجد أن السجين المسلم ما يزال حياً وأنه هو الوحيد الذي يتفق معه في الإيمان بكل شيء .

فقلت : أليست هذه هي أسطورة اليهودي التائه ؟..

فقالت الزوجة : هي بالضبط .

قلت محاولا الدوران حول عروسه الجديدة : لم أجد في مسرحياتك زوجة واحدة أو حتى سيدة واحدة جميلة أو فاضلة .

فقال : لأن الممثلات يطلبن مني أن أفعل ذلك ، ولكنني أرفض ، فأنا لا ارى إلا الجانب الذي أخشى منه على تدمير الإنسانية .

قلت : متشائم إذن ؟..

قال : لا متشائم ولا متفائل .

قلت : إذن فأنت أقرب إلى المدرسة الاغريقية المعروفة باسم مدرسة « اللا أدرية » أي التي يقول أعضاؤها : لا أدري .. فهم ليسوا على يقين من

شيء في هذه الدنيا .

فقال : بالضبط .

قلت : هل تدرى أنك متزوج ؟

قال : من الواجب على زوجتى أن تنبهنى إلى ذلك .

قالت الزوجة : بل واجب عليه أن ينبهنى إلى ذلك ، وأنا أعمل من أجله أشياء كثيرة : سكرتيرة وطاهية وخادمة ومخرجة ومنتجة وصديقة ، ولكن عليه أن يؤكد لى أننى زوجة أيضاً .. أو زوجة قبل كل شيء .

وكان فنجان القهوة قد سقط على ملابسى ، فنظرت الزوجة ولم تفعل شيئا ولا حتى عرضت فنجانا آخر .

وكان لابد أن أفهم أن هذا هو البخل السويسرى المعروف ، وكان يجب أن أعرف ذلك من أول لحظة ، فالغرفة التى نجلس فيها بها كرة أرضية كبيرة مضيئة ، وهى فى نفس الوقت مصباح يوزع الضوء خافتا فى كل مكان ، فهى كرة ، وهى مصباح ، وهى دليل على البخل الأنيق فى أى بيت سويسرى ..

قلت : إن زوجة الفيلسوف الألمانى هايدجر قالت لى إنها هى التى تزوجته .. وإنها سعيدة بذلك وإنها هى التى قررت ذلك إنقاذاً للفيلسوف من متاعب يومية كثيرة . وهو يعترف أنها هى التى تزوجته ، وليس هو الذى تزوجها ، أو أنها هى زوجته وليس هو زوجها .

فقال ديرنمات : زوجتى تقول ذلك أحياناً ولكن الحقيقة أننى أنا الذى تعجلت هذا الزواج .

قلت : إن الأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا ...

فقاطعنى : إنه صديقى وأنا من أشد المعجبين به .

وعدت أقول : إن مورافيا يرى الزواج صدفة .. فلا أحد يتزوج عن عمد ، فالزواج مثل الغلطة أو الجريمة التى يتنصل منها كل إنسان ، ومع ذلك فهى غلطة تستمتع بشعبية عظيمة فى كل العالم .

□ □ □

وبدعوة من د . ممدوح البلتاجى رئيس هيئة الاستعلامات وصل الكاتب

السويسرى الكبير فريدريش ديرنمات إلى القاهرة مع زوجته السيدة شارلوت كير ، ومنها إلى الأقصر وأسوان . وهذه هى زيارته الثانية لأفريقيا . فقد زار قبل ذلك المغرب ، فرأى الصحراء المغربية ، وهو يحب منظر الصحراء . ويرى فى امتدادها ورمالها نوعاً من الأبدية أو نوعاً من التحدى الجغرافى للمصير التاريخى للإنسان ، ويرى أيضاً أن الإنسان لم يجرب على مدى مئات الألوف من السنين إلا نوعاً واحداً من الحرب : صراع الحيوان .. وحتى عندما تطورت أدوات القتال فلا يزال الإنسان يصارع الإنسان كما لو كان حيواناً .

ولا خلاص للإنسان من حيوانيته إلا بإيمان الإنسان أنه قد تجاوز مرحلة الحيوانية وأنه دخل ملابس الإنسانية . ولن يتحقق ذلك قبل ألوف السنين . هذا إذا استطاع الانسان أن يقاوم فيعيش إلى ما بعد عصر الأسلحة النووية فى الأرض ، وحول الأرض ، وأن يصارع عبقرية إبداع الشر وغريزة الشر فى قلبه .



زيارة الفيلسوف اللامعقول

زيارة الفيلسوف اللامعقول

منذ سنة ١٩٦٥ ، عرفت مصر الأديب السويسرى فريدريش ديرنمات (٦٤ سنة) فى نفس الوقت الذى كنا نقوم بتجارب متعددة على مسرح اللامعقول أو مسرح العبث أو المسرح اللامسرحى ..

وفى نفس الوقت كنا نخوض آخر معارك الفلسفة الوجودية فى مصر ..

ومسرح العبث يقوم على أنه لايوجد منطق بين الاشياء ولا بين الناس .. وأن الإنسان أحس أخيرا بأنه بلامعنى ، وبلا هدف وأننا نحن الذين نضع المعنى ونختار الهدف . ولكن الكون كله إما أنه بلا حكمة أو أن له حكمة لا نعرفها . المهم أننا لا نعرفها . وغير قادرين على معرفتها .. ثم إن الكون لا يعنينا فإننا أصغر من هذا الكون وحياتنا أقصر من أن تتسع لمثل هذه القضية .. وحتى لو عرفنا الكون فإن هذه المعرفة لا توفر لنا الطعام ولا تضاعف الحرية ، ولا تحقق العدل بين الناس !

وطبيعى أن يكون الألمان هم أكثر الناس إحساسا بهذه المأساة . ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية إنهارت المانيا بفلسفتها وعلمها وقيمها الإنسانية وكانت الصدمة الكبرى للأدب والفن .. فالنازية قد سحقت العالم . وأصبح الخراب هو اللون الأسود والضباب والظلام واليأس والعار .. إذ كيف استطاع شخص واحد ـ هتلر ـ بمساعدة عدد من المفكرين والشعراء والفلاسفة أن يهدم الدنيا على الجميع ، وأن يتولى وحده فضيحة الإنسان . فقد كان العالم يصدق هتلر ، يصدق دعواه بالأبهة والعظمة وتفجير ينابيع الفن والصدق والإبداع ؟ وبسبب هذا الوهم أو بسبب هذه السذاجة ، وقعت الكارثة الإنسانية الكبرى !

فهذا الشعور بالخيبة ، و اليأس والغربة والغرابة والعار الحضارى هو الذى ظهر فى روايات ومسرحيات الأدباء الألمان . وعند اثنين من السويسريين الألمان هما :

ديرنمات وفريش ..

ولكن المسارح في ألمانيا قد نهضت متأخرة ، وكأنها اختارت أن تظل مقابر لليأس بدلا من أن تكون ملاعب للأمل فى الخلاص من كل ذلك . أما المسرح الفرنسى والبريطانى فقد توليا معا هذه الصحوة الأليمة للفكر الحزين فى أوروبا كلها .

وفى باريس ظهرت مسرحيات عظيم المسرح الألمانى ، برتولت برشت ، والرومانى يونسكو والأسبانى اراباك وغيرهم ..

ومع النشاط المسرحى فى مصر فى الستينات إنتقل إلينا ، مسرح العبث ، ورحنا نجرب نحن أيضا هذه الأشكال الجديدة .

وليس معنى العبث : إنعدام المعنى .. وإنما معناه : عدم جدوى المعنى ، إنعدام الفائدة من الحوار أيضا .. أى أنه هو هذا الشعور بميوعة الدنيا فى عيوننا وآذاننا .. فكما أن الإنسان يقرف من الطعام ، فالعين والأذن كذلك ..

فالمفكر الأوروبى قد أحس فجأة بأن الكلمة لا معنى لها .. ومادامت بلا معنى فلا إمكانية للكلام بيننا فإذا كان حوار على المسرح فليكن بلا معنى ولا منطق .. تماما كما تفاجأ أنت بأن الفلوس التى معك قد ألغيت . فأنت غير قادر على أن تبيع أو تشترى .. وبسرعة تختفى من حياتنا كلمات : الغنى والفقر والثراء والإفلاس والبنوك والتجارة ..فكذلك إذا انعدم مدلول الألفاظ لا يبقى هناك ما يربط الإنسان بنفسه ، أو بغيره ..

فقد عاشت الكلمات ذات سحر خاص فى حضن الأديان وفى حلقات السحر .. وفجأة : أصبحت لاشيء !

هل أدى مسرح اللامعقول فى مصر إلى تنبيه المثقفين المصريين إلى أننا نعانى شيئا من ذلك .. هل كان مسرح اللامعقول نبوءة . أو إرهاصا . لما سوف يحدث فى مصر بعد ذلك بسنوات .. بعد النكسة العسكرية وبعد سقوط البطل جمال عبد الناصر وضياع البطولة.؟

هل انتقلت عدوى مسرح اللامعقول إلى المعقول عندنا . أى هل هذا المسرح

اللامعقول وجدناه معقولا واقعيا يعكس صورة المتفرجين القلائل في مسرح الجيب ؟

هل أدى إلى بداية الكفر بالفلسفة الوجودية في مصر أيضا ؟

هل كان مسرح اللامعقول هو السبب الحقيقي في أننا إتجهنا إلى التعديلات التي أدخلت على الفلسفة الوجودية . وذلك بتقريبها من الماركسية أو من الواقعية الجديدة .. أو من الوجودية الجديدة !

• • •

إن الكاتب السويسرى ديرنمات قد دخل تاريخ الأدب الأوروبى من باب اللامعقول .. دخل فهل خرج ؟ بينما دخلت أنا وآخرون قاعات الفلسفة الوجودية وكهوفها ولم نخرج . هو حاول ونحن حاولنا أيضا .

وقد سألت ديرنمات منذ ١٩ عاما في بيته إن كان هو وجوديا فقال إننى أحترم الفلسفة الوجودية . ولكنها لا تساعدنى في عملى المسرحي . فهى تؤكد قيمة الفرد وتنفخ فيه حتى تجعل منه ملكا وبطلا ولكنها لا تقدم لهذا الملك عرشا ولا دولة . ولا تعطى لهذا البطل عملا خارقا يقوم به . فإذا فعل إلتف حوله الناس يخلدونه .. ولكننى أرى أن الفرد هو هذا الملك وهو هذا البطل في مواجهة القوى الطاغية .. قوى السلطة وقوى الكون . وفي هذه المواجهة إصرار على أن يفعل شيئا . وفي عجزه دليل على تأكيد فشله ويأسه .. وهو مع ذلك لا يكف عن المحاولة الجبارة لا نملك إلا أن نضحك عليه وننسى أننا نضحك على أنفسنا .. تماما كما يحاول إنسان أن يخلع شجرة بدبوس إبره .. وهو جاد في ذلك .. وفي هذه الصورة الجادة ما يجعلنا نضحك .. لأن قدرته محدودة والإبرة في يده عاجزة فهى ليست أكثر من إصبع هزيلة أضيفت إلى أصابعه الخمس .. ولكننا أمام إنسان قرر . ووجد وسيلة . ولكنه لا يستطيع !

والصدفة وحدها هي التي جعلتنا نهتدى إلى أن في سويسرا الالمانية أديبا هو ديرنمات . وأنه من مدرسة العبث ولذلك بدأنا نبحث عن أعماله . ووجدناها لا تصلح لمسرح العبث . ولكنها تصلح للمسرح الحديث . ولم يكن ديرنمات « عبثيا » تماما . كان كذلك في المعنى وليس في الشكل المسرحي ..

فمسرحياته مضحكة وأحيانا هزلية وأحيانا تهريجية وهو يقصد ذلك وينبه القارىء والمخرج والممثل والمشاهد ، إلى أن التهريج مقصود .. بل هو يطلب من المخرج أن يجعل البطل لا يلفت النظر بسرعة .. وألا يتعاطف المشاهد معه .. ويطلب تأجيل ذلك إلى الفصول التالية ..

قال لى ديرنمات وكأنه يتوقع ذلك : لم يعرفنى السويسريون إلا بعد أن كتب عني الإنجليز .. والمثل العربى عندكم يقول : زمار الحى لا يطرب أحدا .. أى لابد أن يجىء أحد من بلاد بعيدة فيقول : أنه أعظم زمار . وأن الناس فى الخارج يتطلعون إليه .. هنا فقط يتمسك به أهله !

وأول مسرحية قدمها ديرنمات من حوالى ٣٥ سنة . كان فشلها عظيما . ولم يندهش ديرنمات لذلك . فهو ما يزال غريبا على الناس ، وليس لديهم رصيد من التقدير أو الأعجاب به يجعلهم يغفرون له هذه السقطة الأولى .. أو هذه الخطيئة الأولى ولكن ديرنمات قال عن ذلك : المهم أن الناس ذهبوا . وأن النقاد كتبوا وكل ذلك أفضل من أن يتثاءب الناس عند مشاهدتها !

وفى إحدى محاضراته عن « التأليف » المسرحى قال : إننى أكتب المسرحية للذين إذا استمعوا إلى محاضرات فى الفلسفة الوجودية للفيلسوف الألمانى هيدجر . تثاءبوا ثم غلبهم النوم !

وهذا الفيلسوف الوجودى هو أصعب الفلاسفة فى كل العصور لأن لغته معقدة . وتراكيبه غير مفهومة تماما .. فلا بد أن يتثاءب أكثر الناس تخصصا إذا استمعوا إليه .. وهنا بالضبط يبدأ دور ديرنمات بأن ينعش هؤلاء الناس ويذهب عنهم الملل والقرف واليأس من الفلسفة ولكنها تظهر فى أشخاص لهم حياة وقضايا على المسرح ثم إنهم يبعثون على الضحك وفى هذا الضحك ومن هذا الضحك يكون الأمل القائم على شجاعة الإنسان فى مواجهة المعنى الحزين للحياة !

ـ ولكن لماذا هذا العناء فى الحياة ؟

يجيب ديرنمات : حتى إذا جلست وحدك ، فلست وحدك فهناك ضغط هائل عليك ، ضغط نفسي عائلى دينى سياسى إجتماعى .. أكثر من الضغط الجوى الواقف على دماغك واعنف من جاذبية الأرض التى تتعلق من أطراف أصابعك ..

وعلى الرغم من كل هذه الضغوط الهائلة ، فالإنسان ينساها .. ويتحرك كما لو كان عصفورا ويسبح كما لو كان حوتا .. ويقرر ويدبر كما لو كان إلها .. ويتحدث عن الأبدية وهو فان ويتحدث عن الخلود وهو زائل .. ويقول : أنا .. مع أننا نعرف أن كلمة أنا ليست إلا إسم الشخص الواقف في أول طابور طويل من الناس والمشاكل والمتاعب والهموم ..

- فما الذى يجعل الإنسان حزينا هكذا ؟

والجواب : هو إحساسه بكل ذلك وفي نفس الوقت عجزه عن عمل شيء . ثم إن العقل الإنساني منطقي مع أنه لا منطق في كل الذى حولنا .. مثلا : ما المنطق في أنك موجود على هذه الأرض .. أو أنك تعيش في هذا البلد أو في هذه الإسرة أو في هذا العصر ، تكتب هذا الكلام أو تقرأه .. لا منطق ! إن وجودنا صدفة وأكبر أحداث حياتنا : صدف .. ونحن نحاول أن نجعلها منطقية ، مثلا : إجلس إلى أى إنسان وسوف تجده بسرعة يتحدث عن أخطائه هو .. وعن أخطاء الآخرين ، فكل الذى يربط بين الناس هو هذا الشعور بالذنب .. والندم فإما أن يكون قد أخطأ فعلا أو يخاف أن يخطىء فالخطأ موجود .. ومن السذاجة أن نحاول ، تأجيل ، هذا الخطأ بالرجوع إلى الخطيئة الأولى التى ارتكبها أبونا آدم وأمنا حواء . فلسنا في حاجة إلى هذا المشوار التاريخي الطويل .. ويجب أن نفرق بين الشعور بالذنب والشعور بالخطيئة .. فالشعور بالذنب هو نوع من الحزن الصغير على ، فعلة ، ما .. ونحن نرتكب ذلك ليلا ونهارا ..

أما الشعور بالخطيئة فهو الذنب في مواجهة العدوان على قيمة دينية أو أخلاقية .. مثلا : إذا كان الشارع مبتلا بالماء ودخلت بيتك وحذاؤك متسخ ، كنت موضع مساءلة فقد كان في إمكانك أن تنظف حذاءك .. أى لا معنى لأن تلوث البيت .. وفي هذه الحالة سوف تعتذر أى أنك تعترف بالذنب ثم تطلب العفو .. ولكن إذا كانت الأمطار غزيرة خارج البيت ، ونسيت أن تمسح قدميك ، فليس تنظيف الحذاء سهلا .. وإذا لم تفعل فعذرك مقبول وإن كان من الأفضل أن تنظف حذاءك .. ولكن إذا فاضت الأنهار وهبت الاعاصير كما يحدث في امريكا وفي الهند ، فإن أحدا لن ينظر إلى حذائك أو حتى ساقيك .. ولا معنى لأن تعتذر ولا معنى لأن يطلب منك أحد ذلك . ففي زمن الكارثة

لا ذنب ولا خطيئة !

ونحن الآن قد انتقلنا من عصر الذنوب والخطايا إلى عصر الكوارث . حيث لا ذنب ولا عذر ولا غفران من أحد ـ وليس مطلوبا من أحد أن يفعل ذلك !

ـ فهل معنى ذلك أن الناس أبرياء ؟ الجواب : لا : بل إن الإنسان مذنب مجرم سفاح إلى أن تثبت براءته ، فلا أحد برىء فى زماننا هذا .. لأن المطلوب من كل إنسان أن يكون له رأى وله موقف .. حتى لو لم تكن لهذه الإدانة أثر .. وهذه هى عظمة الانسان وعجزه أيضا فعظمة الانسان هى أنه فى مواجهة كل القوى الطاغية فى الكون وفى المجتمع يقول لا .

والأمثلة كثيرة فى مسرحيات ديرنمات مثلا فى مسرحية « رومولوس العظيم » ... نجد أن الإمبراطور رومولوس وهو آخر ملوك الإمبراطورية الرومانية الغربية ، قد أيقن انه يحكم دولة متعفنة منهارة ، وأن هذه الدولة يجب أن تموت .. وأنه لا يحق له أن يساعدها على البقاء .. فهى مثل مريض أصيب بمرض قاتل ، وهو يعانى سكرات الموت .. والطبيب لا يصح أن يخدع أحدا ، بل يجب أن يصارح أهل المريض مهما ضايقهم ذلك .. وأن يرفض رغباتهم فى علاجه .. فهذا الإمبراطور رومولوس رفض أن تقاوم جيوشه زحف الجيوش الجرمانية الشابة .. ولذلك قرر أن يستسلم واختار للإمبراطورية إلا تقاوم فلا داعى لأن يموت الألوف من أجل دولة ميتة .. وكان شجاعا فى مواجهة كل قواته وحكم التاريخ عليه .. واكتفى بأن يربى الدواجن ، ويراقبها وهى تبيض ويحرص على عدد البيض وعلى تناولها وتذوقها بشهية يومية .. فهو إمبراطور مستريح الضمير .. لم يكن سببا فى مرض الإمبراطورية . وإنما كان شاهدا على موتها .. سائرا فى جنازتها لا يدعى لنفسه البطولة أو القدرة الخارقة ..

وفى مسرحية « هبط الملاك فى بابل » نجد أن الدولة قد أعلنت الحرب على التسول وأن التسول ضد الإنسانية وضد الإشتراكية .. ولكن شحاذا إسمه « عاقى » أصر أن يبقى شحاذا .. فلا يحب إلا هذه المهنة .. وهو قادر على أن يكسب الكثير .. وحاول الملك أن يثنيه عن التسول ، ولكن « عاقى » قال : إن الملك لا يحسن إلا أن يكون ملكا وأنا لا أتقن إلا فن التسول .. وكانت

السماء قد أهدت ملاكا جميلة إلى أفقر الناس على الأرض وهبط الملاك عندما اتفق الملك وعاقى على أيهما يتفوق على الآخر فى مهنة التسول أما « عاقى » فهو أستاذ أما الملك فمبتدىء .. ولذلك لم يستطع أن يكسب مليما فكان بذلك أفقر إنسان على الأرض وأحق الناس بالملاك الجميلة فكانت من نصيبه ولكن عندما عرفت ان هذا الشحاذ الذى أحبته هو الملك رفضت أن تعيش معه .. إنها احبت شحاذا وهبطت من أجله .. وحاولت الحاشية أن يقنعوا هذا الكائن الجميل .. ولكنها لم تقتنع فقرروا طردها من بابل .. أى أنهم رفضوا هبة السماء !

وكان عاقى أشجع الناس فى المملكة على مواجهة السلطة ولو لم يكن هناك فائدة من ذلك !

وفى مسرحية « زيارة السيدة العجوز » نجد أن البطلة التى فشلت فى حبها راحت تطارد الرجل الذى جرح كبرياءها فوجدته بقالا وأحاطت بالقرية وأعلنت مساعدتها وتقديم الطعام للجميع إذا هم حكموا بالاعدام على الرجل الهارب من حبها .. وفوجئوا بأن السيدة العجوز قد اشترت القرية كلها ، وحاكموه وأدانوه وحفروا قبرا له يراه كل يوم ذهابا وإيابا وواجهت كل الناس وتحكمت وتسلطت وفضحت قيمهم الأخلاقية والدينية عندما استولت على كل مقدراتهم المادية والاجتماعية ولما أدانوه وتعجلوا إعدامه ، عفت هى عنه .. أى أعدمتهم هم .. فأصبح كل واحد منهم سفاحا وجلادا .. فهم القاتلون والقتلى .. أما الرجل الذى جاءت من أجل القضاء عليه . فكان هو الرجل الوحيد الشاهد على سفالة الناس .. وكان أبغض الناس إلى الناس !

وفى مسرحية « الشهاب » يعلن الأطباء والقسيس أن الأديب فختر الحائز على جائزة نوبل فى الأدب قد مات .. وتتوالى الحفلات لتكريمه من النقاد والناشرين ولكن الأديب لم يكن قد مات .. ويحاول الأطباء أن يقنعوه بالاختفاء وكذلك رجال الدين ، لأن عودته للحياة فضيحة كبرى لهم جميعا .. ثم إن إبنه الذى درس القانون وتخصص فى الوراثة وقد اكتشف أن والده لم يترك له شيئا فيصاب بالجنون ..

ولكن هذا الأديب مصر على أن يواجه كل الناس بشجاعة . إنها نفس قصة لعازر الذى مات وأحياه السيد المسيح . ولكن بعد أن تناولها بترجمات بشكل

درامي جميل ..

وكذلك يفعل في أعماله المسرحية إنه يستمد مادتها من مصدرين : الكتاب المقدس ومابه من قصص وحكايات وبطولات ومن الإساطير الأغريقية .. ولكنه لا يكاد يعثر على القصة أو الحكاية أو الأسطورة حتى يشيع فيها الحياة ويملأ بها الدنيا .. فتكون قادرة على تفسير كل شيء .. أو يفسرها كل انسان على النحو الذى يرضيه ويشبعه ويقنعه .. ولنفس الأسباب الفلسفية والنفسية والتاريخية نجد الأديب السويسرى ماكس فريش (٧٤ سنة) واحدا من أعلام مسرح العبث ـ أى المسرح الجديد المعبر عن المعانى التى تجتاح اليائسين فى أوروبا ففى مسرحيته « مشعلو النيران » يظهر أناس مجهولون يحرقون البيوت والدكاكين .. ثلاثة من هؤلاء يطلبون أن يختفوا فى بيت أحد النبلاء وأمام عينيه يضعون براميل البنزين فى أماكن مختلفة من البيت .. ويضعون القنابل الحارقة والرجل يستبعد أن يكونوا من الذين يشعلون النيران في المدينة .. فهو قد احتفي بهم وأطعمهم وقدم لهم الشمبانيا والكرنب والسجاير وكان حديثه وديا معهم ورأى مشعلو النيران أن أحسن طريقة لخداع هذا الرجل النبيل هو قول الحقيقة فهو لن يصدقها فقالوا له أنهم سوف يحرقون هذا البيت والمدينه كلها !

وهز الرجل الطيب رأسه بما معناه أنهم يمزحون فليس معقولا أن يقابلوا الإحسان بالإساءة والحفاوة بالحريق والإنسانية بالوحشية ..

ولكنهم أحرقوا البيت والرجل والأسرة والمدينة .

ما السبب ؟ لا سبب .

ما الهدف ؟ لا هدف.

ويقول ماكس فريش أنه قصد بهذه المسرحية ما حدث في تشكوسلوفاكيا عندما استهان الرئيس بنسيشى بأعضاء الحزب الشيوعى الذين صارحوه بأنهم سوف يسقطونه ولكنه لم يصدق !

وأنه قصد هتلر أيضا . فقد استهان بالأدباء والشعراء والفلاسفة وصارحهم بأنه سوف يغزو أوروبا كلها وسوف يهدمها على رؤوس الرأسماليين واليهود .. ولكنهم إستبعدوا ذلك عندما نظروا إلى الصروح المعمارية التى أقامها فى المانيا ، وسماعه للموسيقى وتشجيعه للشباب والأغانى والحدائق

وحبه الشديد للأطفال .. فكثيرا ما أعلن هتلر أنه يتمنى أن يكون أبا لعشرين طفلا فإذا القدر يجعله أبا لملايين الأطفال الألمان .. وسقاها لهم أيضا !
وقد شاهدت الفيلم الذى أخرجته السيدة زوجته : شارلوت كير ، مخرجة التليفزيون الألماني ، الفيلم مأخوذ من إسم إحدى مسرحياته : صورة لكوكب ..

والفيلم يستغرق عرضه أكثر من ساعتين .. وهو تحفة أدبية فنية . فالفيلم يبدأ بعرض لوحات لديرنمات واللوحات ملونة بالطول والعرض واللوحات مليئة بالخطوط والأشكال والقوى والكائنات .. فالكون مليان والإنسان مليان بهذا الكون أيضا وهناك ضغط .. أو تضاغط .. الكون يضغط ونحن نضغط أيضا تماما كما نمشى فى الزحام يضغطنا الناس ونحن نضغطهم .. وفى هذه اللوحات كائنات غريبة .. البشرية منها حيوانية .. والحيوانية لها عيون بشرية .. لماذا ؟ لأن الإنسان فى حالة حرب ضد الوحوش .. وآخر حرب يخوضها وسوف يخوضها الإنسان هى الحرب ضد الوحوش البشرية ..

ثم نرى ديرنمات يرسم لوحاته بيده اليمنى ويده اليسرى .. واقفا ..

وديرنمات يسكن فى بيتين صغيرين متجاورين واحد يعمل فيه .. والآخر ينام فيه ويلتقي بالضيوف . وهو يرسم أبطاله قبل أن يضعهم في مسرحياته .

وقد اشتغل بالإخراج المسرحى بعض الوقت .. فهو يعيش أبطاله تماما .. فكرا ورسما وحركة ..

وبعد ذلك نرى ديرنمات فى القطار لقد اختارت زوجته القطار ليتحرك فيه .. إنه قطار العمر .. القطار يتحرك وهو يتحرك داخل القطار ويروى حياته بصوته الغليظ الخشن المنخفض حتى يصعب أن تفهم ما الذى يقوله عن بداية الفكر وبداية الإبداع .. وفى نفس الوقت يصرخ فى الكون الغامض القوى الجبار ولا يملك في مواجهة كل ذلك وضده ومن أجل التفوق على نفسه وعلى غيره إلا أن يضحك .. فهذه هى الحرية الوحيدة المتاحة له : أن يضحك ..
وقد استراح ديرنمات إلى الثور الإغريقى القديم منتوروس الذى له رأس ثور وجسم إنسان .. وهو القوة الباطشة الغاشمة .. ويجد من المناسب تماما أن يصف القوة فى زماننا بأنها مثل هذا الثور الهائج الأعمى .. وفى نفس الوقت يرى أن الحياة الإنسانية قد اتخذت من الثيران والأبقار مثلا أعلى هى القوة والحيوانية والخصوبة .. وفى هذا الفيلم نجد أن التلقيح الصناعى هو نموذج

للعلاقات الزوجية والتى لم تعد لا زوجية ولا إنسانية .. فالأطفال يجيئون من الأنابيب بلا زوجة ولا حب ولا أسرة .. وإنما حيوانية تمتد عبر الأدوات الحديثة للولادة والحضانة والتربية والاستمرار .. فهناك مزارع للدواجن ومزارع للأبقار ورياض للأطفال وملاجىء وسجون ومعسكرات للعمل وللقتال .. وكلها صورة مختلفة للثيران والأبقار أى للقوة الحيوانية التى تتحكم فيها بأجهزة علمية دقيقة ووفقا لنظريات حديثة .. فكأننا نحرص على أقدم أساليب الحياة ، باستخدام أحدث أساليب النظريات .. تماما كما نستخدم أحدث النظريات السياسية والاقتصادية فى مواجهة أحدث أساليب الدمار .. فالإنسانية لم تتقدم .. فلا نزال نحارب الوحوش والوحشية ، ولا نزال نسكن الكهوف .. ولا فارق كبيرا بين الحرب فى جزيرة فوكلاند وبين الحرب فوق المريخ .. ولا فرق بين الأخوين هابيل وقابيل وبين الزعيمين ريجان وجورباتشوف .. فإذا وجدت كلا منهما يدعو للسلام بصدق ، وفى نفس الوقت يبعث بسفن الفضاء تتجسس وتتصنت على العقول الإلكترونية ، ألا يبعث هذا الموقف الصادق فى كذبه على الضحك ؟!

قلت لديرنمات وزوجته : هذا هو آخر سؤال ؟

وكان ذلك فى بيته بالقرب من نيوشاتل بعد أن امتد اللقاء ساعتين ، وبعد أن ازداد ظلام الطريق الملتوى الهابط إلى المدينة ، واتخذت السحب شكلا أسود تماما ، وجعل المطر يدق الاشجار مثل دقات مسرح قديم : إن مسرحياتك تنتهى عادة بأن نضحك .. ولكن لم نسترح .. فأنت لم تقطع برأى فى شىء .. ومن المؤكد أنك اتخذت قرارا واحدا حاسما ناجحا هو أن يضحك المتفرجون .. ألست هكذا من المدرسة الفلسفية القديمة التى تسمى « اللاأدرية » . أى التى يقول كل واحد فيها : لا أدرى .. لا أدرى .. لا أعرف .. لأنك لست على يقين من شىء !

فقال بصورة قاطعة : نعم أنا كذلك .. فلا يوجد دليل واحد قاطع على أى شىء فى هذا الكون .. الله مثلا

فقلت فى نفسى : أعوذ بالله !!

ولكنه مضى يقول : الله مثلا .. ألف تفسير وتعليل له .. وكل واحد

يستخرج من علمه ومن خياله المعنى الذى يريد .. ونشأة الكون ونهاية الكون وأصل الإنسان ونهاية الإنسان كل هذه المعانى وغيرها لا يوجد أى دليل قاطع مقنع .. وإنما هى تتغير وتتبدل حسب الأشخاص .. فأنا لا أدرى وليس عندى وقت لكى أدرى .. ولا أستطيع أن أضيع عمرى فى البحث عن هذه المعانى ، دون أن يكون لهذا البحث جدوى مسرحية .. لأن المسرح هو الطريق والهدف إلى كل ما أري ..

ولما نظرت إليه وجدته ما يزال متحمسا مستعدا لمزيد من المناقشة . فقلت : مادمت لم تتثاءب من أسئلتى ، وأنا لم أتثاءب من أجوبتك دعنى أذكرك بشىء قديم .. فعندما قابلتك هنا لأول مرة سنة ١٩٦٦ قلت لى إنك لا تعرف أديبا عربيا واحدا .. ولم تقرأ إلا « ألف ليلة » وكتابا لكاتب لبنانى إسمه أرسلان .. ألا تزال عند هذا القدر القليل جدا من المعرفة بالأدب العربى أو الفكر العربى ، رغم أنك مسافر إلى مصر ، وقبل ذلك سافرت إلى الصحراء المغربية وقبلها إلى إسرائيل قلب المشاكل فى الشرق العربى ؟

أجاب بسرعة : بل قرأت فى الأدب العربى والفلسفة العربية وتاريخ العصور الوسطى أيضا .. فأنا سافرت مع زوجتى لتصوير فيلم عن الصحراء .. وسافرت إلى اسرائيل وكتبت عنها .. وعرفت أثر الفلسفة الإسلامية على أوروبا .. وأثر الأسبان على المغرب العربى .. الأسبان وليس العرب .. وتوقفت طويلا عند العلاقة بين الاديان والصراع بين المذاهب الإسلامية .

سألت : ألا تذكر أنك قلت لى أيضا أنك اهتديت إلى أن الشيوعية طبقت فى إحدى الدول الأوربية قبل ظهور الماركسية بمئات السنين .. وأنك سوف تجعل منها مسرحية ..

قال : قلت ذلك والمسرحية ظهرت على مسرح زيورخ .. فالشيوعية أكثر انتشارا فى الدولة التى تدين بالبروتستانتية .. ولكن الشيوعية أول ما ظهرت كانت عندكم فى الشرق .. فى بلاد فارس .. عند مزدك الذى تأثر بتعاليم النبى زرادشت والذى تأثر به الفيلسوف المصرى أفلاطون ..

قلت : ولكن هذه الشيوعية التى ظهرت فى فارس كانت أكثر وضوحا عند جماعة « الأسنيين » أو « الأطهار » الذين عاشوا فى شمال البحر الميت ..

وكان السيد المسيح يتردد عليهم .. وقد ظهرت فلسفتهم وقصة حياتهم فى « مخطوطات البحر الميت » .

قال : نعم ولكن عند الفرس كانت شيوعية مطلقة .. لا مجرد تحريم استخدام الـذهب أو التعامل بالنقد .. كما كان عند هؤلاء الأسنيين ..

★ ★ ★

وكنت قد زرت الأديب السويسرى ديرنمات برفقة سفيرنا فى سويسرا محمد توفيق عبد الفتاح الذى قام بدور المصور ـ رحمه الله والتقط لنا أول صورة نشرت فى الصحف المصرية والمجلات العربية مع الأديب وزوجته الأولى .. وكانت ممثلة ألمانية .. وبعد وفاتها تزوج منذ سنتين ونصف مخرجة التليفزيون الألمانى .. شارلوت كير التى أخرجت سلسلة بعنوان « صورة .. » لعدد من الفنانين والموسيقيين والمخرجين من بينهم السيدة ميلينا مركورى .. والموسيقار اليونانى الشيوعى تيثود راكس مؤلف موسيقى فيلم « زوربا » وعدد من الفنانين الأمريكان أيضا ..

ومن الأمانة التاريخية أن أعترف بأننى نيابة عن د . ثروت عكاشة وزير الثقافة فى ذلك الوقت وجهت دعوة للأديبين فريد ريش ديرنمات وماكس فريش لزيارة مصر سنة ١٩٦٧ ولكن لسبب ما ، لم يبعث د. ثروت عكاشة بهذه الدعوة الرسمية .. فسبقتنا إسرائيل ووجهت الدعوة لماكس فريش ثم منحته جائزة المعرض الدولى للكتاب عن مسرحيته الشهيرة « أندروا » التى يهاجم فيها العداء للسامية .. وبعد ذلك وجهت الدعوة لديرنمات أيضا .

★ ★ ★

وقد ترجمت أنا لديرنمات من عشرين عاما مسرحيات : رومولوس العظيم التى ظهرت على المسرح ، بطولة صلاح منصور وزوزو نبيل واخراج سمير العصفورى .. ومن الصدف العجيبة أن يقوم المرحوم صلاح منصور ببطولة رومولوس آخر ملوك الإمبراطورية الرومانية الغربية ويقوم على الشاشة بدور فاروق آخر ملوك مصر ثم الإمام أحمد آخر ملوك اليمن !!

ومسرحية « هبط الملاك في بابل » التي ظهرت شعرا شعبيا بإسم « سلطان زمانه » بطولة عبد الله غيث ومشيرة اسماعيل .. ومسرحية « الشهاب » بطولة د . ابراهيم سكر .. ومن إخراج د . فاروق الدمرداش وكان إخراجها خطأ فنيا صارخا فهي مسرحية حديثة فأخرجها على مسرح إغريقي دائرى ؟!

وأرجو أن يصحح هذه الغلطة الفنية المخرج سمير العصفورى ..

ثم مسرحية « الزيارة » التي سبق أن ترجمها المرحوم سعد توفيق ..

وأخيرا مسرحية « زواج السيد مسيسبى » والتى جعلت إسمها هى وعشاقها ..

وترجمت له الأديبة أوسيمه جانو المحررة بمجلة « أكتوبر » عددا من تمثيليات الإذاعة والمسرحيات .. في لغة عربية متينة رصينة ..

أما أولى مسرحياته التي ظهرت في القاهرة فهي « علماء الطبيعة » من ترجمة د . عبد الرحمن بدوى ..

وكانت دعوة الأديب السويسرى لمصر إنعاشا للحركة الأدبية والنقد الأدبي ..

وقد أنتهز هذه الفرصة لأطلب من د . ممدوح البلتاجى والذى تعلم في باريس وعاش بها سنوات طويلة وعرف خباياها الأدبية والفنية أن يوجه دعوة إلى أديبة تكتب بالفرنسية وتتباهى دائما بأنها مصرية .. ولكن أحدا من مصر لا يذكرها ولا يشكرها انها السيدة « أندريه شديد » وقد ألفت عددا ممتازا من المسرحيات والروايات .. بعضها مستوحاة من التاريخ الفرعوني والتاريخ الحديث أيضا .. ولم تظهر في اللغة العربية إلا روايتها « اليوم السادس » وهى تحفة أدبية وقد اتخذت موضوعا لها الكوليرا في مصر ..

وقد رأيت السيدة أندريه شديد في التليفزيون السويسرى وهم يناقشون حدث أعمالها الأدبية فقدمت نفسها .. إنني أديبة مصرية ..

وهى من أصل لبناني وولدت في مصر وزوجها طبيب لبناني يعمل في معهد باستور « بباريس وقد قابلتها في القاهرة وفى باريس مع عدد من الأدباء الفرنسيين والسيدة أندريه شديد بكل الموازين الأدبية والفنية « أديبة ممتازة وإن كانت تكتب بالفرنسية » فإن لغتها الفرنسية رفيعة تماما . وإذا كانوا قد حجبوا عنها الجوائز الأدبية التي تستحقها » فلأنها أجنبية .. فإن رضينا بمصريتها . فقد أضفنا إلى تاريخنا الأدبي الحديث أحسن أديبة عربية في كل العصور ..



حياته كلماته.. هذه قاعدة

حياته .. كلماته .. لهذه قاعدة ..

طفلاً يتيماً .. فرباه جده .. ولكن كان سارتر وحيداً أى أكثر عزلة من أى طفل يتيم .. وفى هذه المرحلة من حياته تولدت عنده كل الأفكار الأساسية لفلسفته بعد ذلك : الوحدة .. الفردية .. التأمل .. الحرية .. والأصالة أيضاً . .

ونحن عندما نقف أمام سارتر هذا الموقف فقد اخترنا له أعز الأفكار لديه . فهو الذى يرى أن الناقد يجب أن يكتب عن إنسان ما زال حيا . لأنه ما دام حيا فالكلمة الأخيرة لم ينطقها بعد . ولكن بعد أن يطبق عينيه وأذنيه ، فمن حقنا أن نتناوله كأثر أدبى . كشىء . وبذلك يصبح النقد علميا .

ومع ذلك فسارتر نفسه أصدر كتابا ضخما عن الأديب جان جينيه . وهذا الكتاب يعتبر من أروع الأعمال النقدية فى القرن العشرين . وجان جينيه ما زال حيا ، لم يكمل رسالته بعد . ولكن سارتر تناول من حياة جان جينيه طفولته ، وأثر هذه الطفولة على حياته وأثر جان جينيه على الطفولة لكل أبناء الطبقة المتوسطة . وسارتر إذن اختار جان جينيه الذى مات .. أى الطفل الذى كان فى يوم من الأيام . وكل طفولة لأى إنسان هى مرحلة تمت . وكملت . ولا نستطيع أن نضيف إليها شيئا . ولا أن نحذف منها شيئا . كل ما نستطيع هو أن نعترف بها أو ننكرها . أو نعيش فى الطفولة باعتبارها موقفا إجتماعيا ، من حريتنا الصغيرة فى هذا الموقف . فكل حرية هى حرية فى موقف . تتحدد بالنسبة للموقف . ويتحدد بها الموقف أيضا .

فحياة سارتر كطفل هى الموقف النموذجى لكل من يريد أن يتناول حياته ..

وحتى الذين كتبوا عن حياة سارتر لم يفرقوا بين سارتر الإنسان ، وبين سارتر الأديب أو الفيلسوف . فسارتر هو فلسفته . فسارتر هو رواياته ومسرحياته ومقالاته .

ولذلك جاءت كل الكتب التى تناولت حياة سارتر نوعا من البحث البوليسى عن وجه الشبه بين سارتر وبين شخصياته .. مقارنة مستمرة بين شخصية « ماتيو » فى رواية « سبل الحرية » بأجزائها الثلاثة .. وبين الفتى فلوربيه فى قصة « طفولة رئيس » وبين الفتى فرانس فى مسرحية « سجناء انطونا » .. الخ .

ومن الممكن أن نجد هناك شبها . ولكن من الصعب أن نجعل الشبه تاما بين سارتر الفيلسوف وبين البطل أنطوان روكنتان فى رواية « الغثيان » . وإن كان سارتر قد أجرى على لسان هذا البطل كل أفكاره الوجودية وكيف تفتحت له الدنيا معنى معنى .. وكلمة كلمة .. وكيف تحول البطل إلى مرصد دقيق جديد وسط غابة من المعانى المنعشة .. وكيف شعر بالدوخة وبالغثيان والقرف والملل والضياع وسط هذا الأوركسترا الصاخب من المعانى البكر .. ولكن ليس من المستحيل أن يكون سارتر هو هذا الفتى ..

والناقد هنا يتحول إلى قارىء كف أو إلى أحد علماء الفراسة ..

• • •

ولذلك ليس أمامنا إلا أن نرجع إلى ما كتبته صديقته الأديبة سيمون دى بوفوار . فقد كتبت الكثير عن سارتر الطالب والزميل والصديق والحبيب والإنسان القلق والأستاذ .. ثم الزوج ..

وهى لا تصور فى مذكراتها إلا جانبا من حياة سارتر . ولكن تفاصيل حياته ، ومشاكله اليومية الصغيرة ، لا نعرف منها إلا القليل جدا . فهل حياة سارتر خلت من الأشياء الصغيرة ؟ هل حياة سارتر كانت كلها قضايا فلسفية ؟ نعم كانت حياته فكرا وبحثا عن أفكار جديدة . ولم يكن سارتر يفرح بالعثور على شىء جديد . وإنما كان يفرح جدا ، عندما يجد إسما ، لهذا الشىء الجديد .

فالتجربة الحية لا يهمه أن يشعر بمرارتها ، بقدر أن يستسلم لها ويمد يده إلى « جيوب التجربة » ينشل اسمها السرى وطريقة استعمالها .. وسيمون دى بوفوار تقول لنا : إنها كانت مشغولة بمعانقة الحياة الحارة .. أما سارتر فكان مشغولا بالبحث عن تسمية لهذه التجربة . وعن قاعدة لكل التجارب المماثلة ..

وليس أمامنا إلا أن نرجع لبعض ما كتبه تلامذته . وتلاميذه مخلصون . ولا يرون في سارتر إلا فيلسوفا يتنفس فكرا . ويسرفون في تقديسه . وبذلك يظلمون الفيلسوف . فهم يضيفون إليه صفات ليست فيه .. أو صفات تجعل منه إنسانا آخر . ويمنعه الحياء أن يدافع عن نفسه ، مكتفيا بأن كتبه هي أوراق اعتماده . وأنه ما يزال على قيد الحياة ، وفي إمكانه أن يروى للناس الحقيقة .

ولم يكتب سارتر إلا جانبا ضئيلا من حياته في كتابه « الكلمات » . وفي هذا الكتاب يحكي لنا سارتر قصة اكتشافه للكلمة واللغة والكتب وعالم الأدب . وعرض لنا في نفس الوقت البذور الأولى للفيلسوف سارتر ..

وفي كتاب الكلمات نجد أن سارتر قد صوره لنا نوعا من الوجود « اللغوى » .. وطفولته ليست إلا عشرات من الكتب : هي الأرض والسقف والجدران والنوافذ والهواء والسماء .. هذه الكتب هي دنياه بكل ما فيها من مثل عليا قديمة وجديدة . ومثل عليا يمكن تغييرها .. حتى الله قد عثر عليه سارتر . وأحس أمام الله أنه « منبوذ » . وأنه لذلك من حقه أن يفعل كما يشاء ، فالله قد أنكره قبل أن يعترف به سارتر ..

ولفلسفته .. تدين فلسفة القرن العشرين كله . فالوجودية ما تزال أحد تفسيرات الحياة في العصر الحديث . ولا يزال سارتر هو أهم معالم الحياة والفكر في فرنسا .

وفي طفولة سارتر شعور واحد واضح . وقد ازداد عمقا ووضوحا بمرور التجربة . فسارتر ما يزال يشعر بالغربة في هذا العالم . فهو غريب في العالم ، وهو غريب عنه أيضا . وفلسفة سارتر هي محاولة مستمرة لعقد صداقة مع هذا العالم . أو للتعارف .

وسارتر هو الذي يتقدم عادة . وهو الذي يسأل وهو الذي ينتظر في صمت جاد جدا أي جواب . ثم يعود يسأل وينتظر .

وهذا الشعور بالغرابة بدأ عند سارتر الطفل شعورا بأنه يتيم ..

فقد مات أبوه وهو في الثانية من عمره .. وتزوجت أمه مرة أخرى وهو في الحادية عشرة من عمره . وفي هذه الفترة عاش سارتر في بيت جده . وجده من عائلة اشفيتسر المشهورة في منطقة الألزاس الفرنسية الألمانية . ولم يجد سارتر أباه وإنما وجد رجلا آخر هو : جده لأمه .. ولم يجد أمه وإنما وجد

مربية ألمانية . لم يجد لعب الأطفال ، وإنما وجد الكتب الكثيرة جدا . وكل كتاب من هذه الكتب هو مثل صندوق الأعاجيب ، مليء بالأشخاص والمعاني والحيل والأكاذيب .. واكتشف أن الكاتب هو أكبر ساحر . فهو قادر على أن يخلق أشخاصا وحوادث وبيوتا وقصورا وكنوزا . وأن القارىء يستطيع أن ينعم بكل ما ينعم به أغنى الأغنياء . واقتنع سارتر بأنه يستطيع أن يكون هو شخصيا صانعا للمعجزات . في استطاعته أن يكتب . وقد كتب مئات الصفحات وهو في الثامنة من عمره ، كتب قصصا قصيرة . ونظم قصائد سريالية . ووضع مشروعا لمسرحيات يقوم هو بدور البطولة فيها .. وأقام لنفسه حفلة تكريم باعتباره مؤلفا صغيرا . ثم تولى هو نقد أعماله الأدبية .. كل هذا فعله وهو دون العاشرة ..

وأصبح من المؤكد لديه أن « على بابا » ليس هو الإنسان الوحيد الذى يستطيع بكلمة : إفتح يا سمسم أن يجد نفسه أمام كنوز « ألف ليلة وليلة » .. وأن كل كاتب هو على بابا وهو كنوز ألف ليلة وليلة .. وهو مليون ليلة وليلة .. وأنه قادر على هذا كله .. وأنه سوف يكون هذا كله ..

ورغم هذا الثراء الأدبي والفني في حياة الطفل سارتر فإنه كان مليئا بالوحدة .. بالعزلة .. فقد أحس أنه وحده . وأنه بلا أب . ولا أم . وأنه يتيم . ولم يقبل سارتر أن يكون موضوع شفقة من أحد . فقد كان يرفض إشفاق الآخرين عليه . حتى تصور بعض أقاربه أنه إنسان شاذ . فهو لا يفتقد الأب أو الأم . وأحس سارتر أنه ليس مطالبا باحترام أحد . وليس مطالبا بالتزام آداب السلوك ولا أصول العلاقات الاجتماعية . وليس أسهل من أن يسمعهم يهمسون : أن أحدا لم يعلمه ذلك !

ومعنى هذا أن أسرته قد أعفته من كثير من الآداب الاجتماعية التى يجب أن يلتزمها كل طفل .. كل طفل له أب وله أم .

ولم يشعر سارتر الطفل أنه يملك شيئا ..

أو أن شيئا يملكه . فهو لاينتمى إلى أحد ، ولا أحد ينتمى إليه ... فهو ليس ابن فلان ، وليس فلان أباه ..

واستغرقه عالم الكتب . واستغرقه العالم الجديد الذى اكتشفه . وتحول إلى « سندباد » وإلى « جاليفر » وإلى « أليس » في بلاد العجائب ..

وأحس بأنه ليس من الضرورى أن يكون للإنسان أم . فالمربية تكفى ..

وليس من الضرورى أن يكون للإنسان أب . فالمدرس يكفى ..

وليس من الضرورى أن تكون للطفل لعبة جميلة ، فأى كتاب يكفى ..

وليس من الضروى أن يعتمد الإنسان على أبويه . ففى استطاعته أن يستقل عنهما . وأن يفكر وحده ولوحده .

وسارتر كان طفلا غير عادى . بل إنه لم يكن طفلا على الإطلاق . فقد دخل عالم الرجوله بسرعة . أو ولد رجلا . وفى نفس اللحظة التى اكتشف قدراته على التخيل والإبداع ، أى على المشاركة فى الخلق ، اكتشف قدرته على الوقوف على قدميه : أى على أن يكون حرا فى اختيار القيم التى تعجبه . وإذا اختارها أصبح مسئولا عن النتائج بعد ذلك .. إذن لقد اختار سارتر الهم فى سن مبكرة . فالحرية ثقيلة . لأنه لا يعيش بلا مسئولية . والمسئولية عبء . وهذا العيش هم ثقيل .

فهو طفل مهموم . وقد كبر الطفل وما يزال الرجل مهموما ..

وسارتر لأنه من أسرة متدينة كاثوليكية . فهو متدين . أو على الأصح . فهو رجل أخلاقى . وفيه مثالية واضحة . فهو يرى أن موقفه هذا كطفل . يجب أن يتخذه كل إنسان . كل طفل . والويل للطفل الذى لم يستغن عن أبويه وعن الشعور بهما فى سن مبكرة .

وليس غريبا أن يختار سارتر الشاعر بودلير نموذجا للدراسة .

فالشاعر بودلير مات أبوه . وتزوجت أمه . ولكنه لم يفعل مثل الطفل سارتر . وهذه غلطة وجودية فظيعة ، ولم يرحمه سارتر من النقد العنيف ..

فبودلير كان قد تعلق بأمه . واعتمد عليها . ورأى فيها مصدر قوته . ووسيلته إلى الوجود . فوجوده كان متطفلا على وجود أمه . فلما تزوجت أمه ، أحس بودلير أنه ضاع . أن عملاته ليس لها رصيد . أنه فى عالم فقد قوة الجاذبية .. أنه فى منطقة إنعدام الوزن ..

لقد كان زواج أم بودلير تصفية للوجود .. كأن الدنيا كلها قد أصابها تزيف .. لم تعد له قيمة . ولم تعد للدنيا كلها قيمة . وأنه ليس لديه ما يعطيه . فلا أهمية له . ولا أهمية لفنه ، ولا أهمية للعالم كله .. لقد أصبحت الدنيا عبثا .. أو العبث نفسه !

وغلطة بودلير - فى رأى سارتر - هو أنه جعل من أمه إلها .. جعلها المطلق فى دنياه ..

ولذلك فعندما تزوجت أمه أحس انه بلا إله !

وكان فى استطاعته أن يقرر أن أمه قد فقدها . وفى نفس الوقت يختار أن يعيش بنفسه . وأن يعتمد على نفسه ، وأن يختار قيمه الأخلاقية .

ولكن بودلير ، لكى يعفى نفسه من أعباء المسئولية ، قرر أن يظل صغيرا . قرر ألايكبر . ألا ينضج . أى ان يظل معتمدا على أمه .

وهذا الاعتماد على أمه ، جعله غير حر .. أى جعله غير مسئول . فبودلير هو الذى رفض الحرية ورفض المسئولية .. واختار أن يظل « عالة » على أمه .. أى أن يظل يفتقد ثديها ليرضعه . وعندما لايجد ثدى أمه يتوهم أن هناك ثديا . وهذا الوهم يؤكد أنه طفل . وأنه حريص على أن يكون طفلا . وعلى أنه يرفض حريته !

وعندما تناول سارتر أديباً آخر هو جان جينيه ، جعله نموذجا للفنان الوجودى ..

فجان جينيه لقيط . لايعرف له أبا ولا أما . وهو لص أيضا . وعندما وصفه الناس بأنه لص . قرر أن يكون كما أراد الناس وبلاخجل . وهو شاذ جنسيا . وعرفه الناس بأنه شاذ . فقرر أن يظل كذلك . فهو يواجه الناس بما يخجل منه الناس عادة .

وجان جينيه يتيم الأبوين . يتيم الأسرة . يتيم الطبقة . فهو انسان قرر أن يضع قيمه بنفسه . سواء كانت هذه القيم خاطئة أو سليمة . فهو الذى قررها . وهو الذى اختارها . والتزمها . وواجه الناس بعد ذلك بشجاعة . فهو لم يهرب من حريته فى أن يختار . وهو يرحب بالشعور باليتم ، لأنه يحرره من قيود الأب والأم والأسرة والعائلة والطبقة .

وقد تناول سارتر هذا الموقف فى قصة قصيرة له نجد فيها البطل يتهمه الناس بأنه يكره اليهود .. ويواجه الناس بأنه يكره اليهود فعلا وينضم إلى الحزب الفاشى . وبذلك يتأكد موقفه فى مواجهة الناس ، فاذا وصمه الناس بسبب ، فإنه يرد الوصمة إلى الناس بأن يتمسك بها ، فالناس لايخيفونه ، وفى استطاعته الشجاعة والتمسك بقيمه ويواجههم . وهو يواجههم باختياره لقيمه أخلاقه .. هذه القيمة تصدم الناس .. ولكنها حريته التى اختارت موقفا ...

ولأن سارتر رجل أخلاق ، أى مفكر أخلاقى ، فهو يرى أن الحرية تؤكد المسئولية . وأن المسئولية ليست فردية . وإنما هى أجتماعية أيضا . فالذى يختار ، يختار لنفسه ، ويختار لكل الناس أيضا . أى أنه يعمل ما يجب أن يعمله كل الناس ..

ومن هنا كانت الحرية أخلاقية أيضا ..

وإذا كان بعض الفنانين قد أختاروا شذوذهم ، فسارتر لايحبذ الشذوذ ، ولكن يحبذ شجاعة الاختيار ، وشجاعة المسئولية . وشجاعة المواجهة ..

ومرة ثالثة يواجه سارتر موقفا من اليتم الغريب : صديقته سيمون دى بوفوار ..

فهى فتاة من أسرة متدينة . لها أب ولها أم ولها طبقة أجتماعية ثرية . وهى مختلفة عنه تماما . وهى فى نفس الوقت محرومة من كل حريات الأيتام واللقطاء . فهى مشدودة إلى مثاليات الأب الكاثوليكى ، وإلى أخلاقيات الأم المتدينة . ومربوطة من أنوثتها . وعندها شعور طبقى ..

وسارتر نفسه يرى أنه ليس يتيما . وإنما يرى أنه لقيط ، وهو لقيط مثالى . لأنه ليس بالفعل لقيطا . ولكن هذا شعوره ، فهو شىء .

والفرق بين سارتر وبين جان جينيه . أن سارتر اختار أن يكون لقيطا . أما جان جينيه فقد وجد نفسه لقيطا . وأصر على أن يعامله الناس كلقيط ..

أما سيمون دى بوفوار فقد اختارت هى الأخرى أن تكون ، لقيطة ، فاحتقرت كل الأخلاقيات العائلية والطبقية . وعاشت حياتها . وقررت أن تتزوج سارتر . ولكن بغير وثيقة . فهى لا تحترم أخلاقيات طبقتها . ولامثاليات أمها أو أبيها . أو أهلها أو دينها .

فاختارت هى أيضا أن تكون لقيطة مثالية ..

وليس سارتر هو وحده اليتيم أو اللقيط ، وإنما الإنسان . كل إنسان . فالإنسان وحده على هذه الأرض . وعليه أن يكتشف بنفسه كل ما فى الدنيا من قوانين ومن معادن . لا أحد يساعده . وإنما هو وحده .. وكأنه سقط من كوكب آخر .

والعالم الذى نعيش فيه غريب عنا . ونحن غرباء عنه أيضا . والأشياء التى حولنا بعيدة . وليس لها معنى . وإنما نحن الذين نعطيها المعنى . ونحن الذين نختار لها الطعم . والوزن . والجمال والضرورة .

ولأن كل ما فى الدنيا ليس ضروريا ، ولا نحن ضروريون أيضا ، فمن الممكن ألا يكون هذا العالم . ومن الممكن ألا نكون نحن أيضا . ففناء لا نعرف ماذا سيحدث لنا أو لغيرنا . نحن لا نعرف . فالوجود مخيف . لا أمان فيه . ولا أمان له . بل إن الإنسان يحس دائما أن الوجود سيمسك به من الخلف . وأنه سيجد نفسه موجودا بصورة مباغتة . وهو لذلك يرى أن يواجه الوجود . أن يواجه الدنيا . لا أن تواجهه الدنيا ..

هذه التعرية للوجود ، أو التعرية لنا فى مواجهة الوجود قد صورها سارتر فى أروع صورة فى الأدب العالمى فى رواية « **الغثيان** » .

ولا شك أن الوجود الإنسانى بهذه الصورة رهيب مخيف .. تماما كالعالم الذى يراه طفل يتيم ويقرر أنه وحده قادر على أن يكون أبا وأما وإلها لنفسه ! .

ولم يفلح سارتر فى أن يتخلص من مخاوف الطفولة .. مخاوف الغربة فى هذا العالم . بل إنه كثيرا ما أحس بأن هناك أشباحا مفترسة وكثيرا ما سقط على فراشه يلهث خائفا .

وخافت **سيمون دى بوفوار** على سارتر أن يصاب بالجنون . ولكن سارتر حاول أن يتخلص من هذه المخاوف بأن يخلعها على شخص فرانتس فى مسرحية « **سجناء ألطونا** » .. ففى هذه المسرحية نجد أن فرانتس هذا يتخيل محكمة من الأسماك المتوحشة تستجديه وتحكم عليه بالإعدام ..

ولكن هذه الأسماك لم تختف بعد من خيال سارتر . فهو ما يزال فريسة للمخاوف والهموم .. ولكنه - كأى طفل عملاق - قرر أن يواجه طفولته . وأن يواجه شعوره بالغربة ، وأن يملأ الدنيا بالمعانى والعلاقات ، وأن يختارها ..

وليست طفولة سارتر إلا بداية للخيوط الذهبية الحريرية الملتهبة أيضا .

أما كيف تحولت الخيوط بعد ذلك .. وكيف أصبحت ، فهذه بقية حياة سارتر .. وما كانت حياته إلا كتبه .. فقد كانت دنياه كلمات تعيش على كلمات ..

ففى البدء كانت « الكلمة » .. وفى النهاية تجىء الكلمة أيضا !



ريلكه : الناى الحزين على الإنسان

ريلكه : الناى الحزين على الإنسان

هناك نوع من الشخصيات التى تملأ العقل والقلب وتظل تقترب منك وتستولى عليك حتى ترى من خلالها هذه الدنيا .. إنها تشبه العدسات التى تلتصق بالعين .. فتكون هى نفسها العين .. ولكنها كالعدسات الملتصقة تلهب العين وتوجعها فلا نجد مفرا من نزعها من فوق العين .. هذا الشاعر الالمانى ريلكه الذى ولد من مائة سنة وأكثر (١٨٧٥) هو واحد من هؤلاء الأصدقاء الذين تعذبت بهم سنوات طويلة . لا أعرف من أين جاء ولا كيف ولا لماذا .. إنه عفريت قفز فى طعامى وفى شرابى وفى دمى وجعل دنياى سوداء وآمالى مبددة .. وأفقدنى الشعور بأن لهذه الدنيا أى طعم وأى معنى .

ولم أكن أعرفه .. وإنما فجأة وجدتنى أردد إسمه .. وأكرر معانيه .. ولا أدرى أن هذا الذى أفعله يزلزل نفسى ويعصف بعقلى .. ولم أتبين ذلك إلا بعد وقت طويل ..

كان ذلك فى يوم من الأيام .. وقد تفضل أحد أساتذة كلية الآداب فجلس الينا على العشب .. وهذا سلوك عجيب .. فهذا الرجل لم يكن يدرس لنا .. ولكننا كنا نعرفه .. إنهد. عبد الهادى أبو ريده أستاذ الفلسفة الإسلامية فى ذلك الوقت ومترجم لواحد من أهم كتب الفلسفة .. ترجمه من الألمانية إلى لغة عربية فصيحة . شىء عجيب كيف يستطيع ذلك أى مصرى ؟ وكنا فى ذلك الوقت نعانى من ويلات اللغة الألمانية فى دراستها وحفظ قواعدها وقراءتها وترجمتها .. وفجأة وجدنا الرجل يخرج من حقيبته مع السندوتشات نسخة من مجلة « الثقافة » ويقرأ لنا مقالا منشورا له .. إن هذا المقال هو حلقة فى سلسلة من المقالات بعنوان « رسائل إلى شاعر شاب » وهذه المقالات مترجمة عن

الألمانية ومن تأليف الشاعر الألماني رينر ماريا ريلكه .. وكانت هذه أول مرة أسمع فيها إسم هذا الشاعر .. وبعد ذلك سمعت له كثيرا ، واستمعت إليه طويلا .. وقد بهرنا الدكتور أبو ريده ببساطة سلوكه وفصاحة عبارته .. ثم تركنا وحدنا مع الشاعر ريلكه وحده !

وكانت تدرس لنا اللغة الألمانية فى ذلك الوقت سيدة سويدية عجوز إسمها السيدة برج . وكانت تسكن بالقرب من كوبرى الجيزة .. ولها سيارة فى مثل سنها .. وكثيرا ما طلبت إلينا أن نعاونها على تحريك السيارة . وكنا نفعل ذلك .. وكثيرا ما ظللنا ندفع السيارة حتى باب بيتها .

وفى إحدى المرات رأتنا زميلة ألمانية كانت تدرس اللغة العربية فراحت تضحك .. وتقول : هذه نبوءة .. سوف تكونون عظماء هذا العصر ! لولا هذه السيدة العجوز !

ولم أفهم هذه النكته . واستوضحتها وعرفت أنها تشير إلى حادثة مشهورة فى الفكر الأوروبى . فقد حدث أن أحب ثلاثة من العظماء امرأة واحدة فى وقت واحد . وأصرت هذه الحسناء على أن تركب عربة يجرها هؤلاء الثلاثة ووافقوا .. والتقطت صورة للفتاة الجميلة اليهودية ، لو أندريا سالومى ، وقد تعلق فى هذه العربة : العالم الكبير فرويد والفيلسوف العظيم نيتشه والشاعر الرقيق ريلكه !

وظل الشاعر قريبا من نفسى ومن أهم النوادر التى أرويها فى مناسبات كثيرة .

وفى يوم ذهبت مع الشاعر عبد الرحمن صدقى إلى سور الازبكية .. واشتريت عشرات الكتب .. ولكن أهم هذه الكتب كتاب بعنوان « غراميات ريلكه فى مصر ..» ولم أكن اعرف أنه جاء إلى هنا .. أو أحب من هنا مصرية جميلة نحيفة كانت هى أيضا شاعرة .. وهى التى قال فيها : أنت كالوردة .. فالوردة عشرات من الأجفان بلا عين ترى .. أنت أجفان لعينى التى تراك .»

وكانت المصرية التى أحبت الشاعر وأحبها إسمها « نعمت علوى » .. وفرحت بالإكتشاف .. وعشت معه .. وكتبته فى مقال نشرته مجلة « آخر ساعة » من عشرين عاما ..

ورويت في نهاية المقال كيف مات الشاعر ريلكه وكيف أن وردة وخزته فمات ذابلا .. كأن وردة قد وخزت وردة .. أو كأن وردة قتلت وردة .. لقد مات بالمرض الخبيث .. ولم يبق مريضا وقتا طويلا .. بل إنه لم يكن في صحة جيدة طول حياته . إنه عرف من هذه الدنيا إثنين : المرض والمرأة . وكلاهما مرض !

شيء غريب جدا وفاة هذا الرجل فقد طلب إلى صاحبة البيت الذي يسكنه أن تخبره إن كانت وردته الحمراء قد تفتحت . فعادت صاحبة البيت لتقول له : تفتحت يا سيدي ! وأغمض الشاعر عينيه ليموت .. كأنه أراد أن يكون لون الوردة واسمها وصداها هو آخر مايتزود به من هذه الدنيا .. وأطبق جفنيه وأذنيه ونفسه على ما سمع ومات !

وكنت أهز رأسي مصدقا وغير مصدق . . ولكن حدث أيضا أن مرض والدي في إحدى عوامات النيل . . وكنت أزوره وأخفي دموعي حتى لا يراها . . وفي يوم وجدت إخوتي كلهم يسألون عني : إذهب . . إنه يريد أن يراك . إنه لا ينام . . إنه يريدك . . وذهبت . . وسألني والدي : هل نجحت ؟ فقلت : نعم . وهل جاء ترتيبك الأول في الليسانس ؟ فقلت : نعم . وأغمض عينيه وأذنيه على هذه الكلمات ، وكأنه الشاعر ريلكه . . ومات !

وتحيرت المعاني في رأسي . . ودوخني الحزن عليه . . وأرهقني أن أكون آخر من رأى وآخر من سمع ، وأن يكون نجاحي هو الكفن الأبيض الذي تغطى به ، واستراح تحته إلى الأبد . . شيء غريب ان يدفن أعز الناس وهو يضحك . . أو يكون عروسا دفنت يوم زفافها . . وان يكون نجاحي هو هذه العروس التي زفقتها إلى قلبه . . فكيف أنسى الشاعر ريلكه الذي تطاردني حياته . . أو التي أطاردها . . أو التي ألصقت بها عيني ، فلا أجد غيره قريبا من همومي !

فما الذي هزني من كلمات الشاعر ريلكه في تلك الأيام ؟ هو يقول : أن تكون وحدك هذه نعمة كبرى ، بشرط أن يكون لديك ما يكفيك من طعام الأحزان !

ويقول : أن تكون وحدك مع حزنك ، هذه نعمة أكبر بشرط أن يكون لديك ما يكفيك من سلالم العظمة والسمو إلى ما فوق الإنسان . .

ويقول : أن تكون وحدك معناه : أن تطبق عينيك وتقفل نوافذك لتنعم بالظلام الهادىء الطاهر . . ولكن من المؤكد أنك لست وحدك . . فالله هناك فى أعماقك . . وإذا كان الله فى داخلك ، فلست فى حاجة إلى مصباح يضىء لك . . بل إنك أنت المصباح الذى يضىء لك ولغيرك !

وهو الذى قال : أن أكون فى الجنة وحدى ، أنا إذن فى جنتين فى وقت واحد . . أنا فى الجنة وأنا وحدى ! ويقول أيضا : أناس كثيرون يتحدثون عن « الله ».. كل إنسان يقول : الله . . ولكن ليس هناك أى معنى لما يقول . . إنه يقولها وحده ويقولها عند الخوف . . ويقولها عندما يشعر بالنهاية . . وأريد أن أوضح لنفسى ما أقول : لنفرض أن طفلين قد اشترى كل منهما سكينا فى يوم واحد ، واختفى الإثنان أسبوعا . . ثم عادا وفى يد كل منهما السكين . . لا فرق بين السكين فى يد هذا أو السكين فى يد الآخر . . الفرق الوحيد هو فى أى شىء إستخدم كل منهما هذا السكين . . وكذلك الله . . كيف يكون الله معنا وفينا ولا نستخدمه سلاحا لنا ولغيرنا . . إن الإنسان وحده تماما ، إذا لم يكن مع الله . . وليس وحده تماما إذا كان الله معه . . وقد استمتعت بهذه الصداقة لحظات عميقة فى حياتى !

وفى هذه الوحدة التى يعيشها الشاعر أو الفنان يكون فى حالة حساب أو محاسبة أو تصفية أو صفاء . . ولكن ما الذى يجده الشاعر أو الفنان أو المفكر .

يرى الشاعر ريلكه أن هناك مشكلة هى : مشكلة الحزن العميق فى نفوس الناس . . إن الناس في العصر الحديث أكثر حزنا . . وأميل إلى الحزن أيضا . . إنهم يحاولون أن يغرقوا أحزانهم فى العبادة أو الخمر أو فى الدم . . ويحاولون أيضا أن يفرحوا بالقوة . . بالعنف . . إنهم يستخدمون السكين فى فتح أفواههم . . وتنفتح أفواههم ولكن دماءهم تسيل . . إنهم يحاولون أن يفتحوا قلوبهم بالسكين . . ويفتحونها . . ولكن القلوب تنزف دما . .

والحزن هو توأم الشعراء . . أو ظلهم . أو أنهم ظل للأحزان . . وأن هذا هو قدرهم . . يقول ريلكه : لقد اكتشفت فجأة أننى لست فى مكانى المناسب . . وأن الذى ألعبه فى مسرحية الحياة ليس دورى . . ولذلك حاولت أن أراجع الوجه الذى أحمله . . أن أعيد النظر إلى ملامحى . . ولذلك بحثت عن

مرآة . . وجاءت المرآة . . ورأيت وجهي في المرآة . . ومسحت الطلاء الأحمر والأبيض والأسود ووجدت دمعتين فمسحتهما أيضا . . ورأيت وجهي الحقيقي . . إذن هذا هو أنا . . ولكني رغم ذلك لم أستطع أن أزيل شيئا هاما هو أن الإنسان يبالغ في أحزانه ، ويبالغ في أحزان الآخرين . . هذه المبالغة هي التي لم أفلح في القضاء عليها ، إنها ليست هي طبع الإنسان ، ولكنها أصبحت في طبعه أو في طبع الإنسان .

ولم أنس ولن أنسى ما قاله ريلكه عندما سئل وهو على فراش المرض إن كان لديه ما يقوله لأحد . . فقال : لا أحد أقول له . . فلم أستطع أن أستمتع بالكلام مع أحد . ولم يستطع أحد أن يدعني أقول . . لعله يجد متعة فيما أقول إن الناس يرونك بنصف عين .. ويسمعونك بنصف أذن . . ويفتحون لك ربع قلب . . ويفتحون لك كل العقل لعلك تدخله وتسقط منه إلى غير رجعة !

ولن أنسى ولا نسيت هذه العبارة : وحدنا ولدنا ، وحدنا نموت .. وحدنا ولدنا وحدنا تعذبنا ، وحدنا نموت .. وحدنا تعذبنا في عذابنا ، وحدنا تطهرنا .. وحدنا نموت .. وحدنا تطهرنا في نار الندم ، وحدنا نموت .. وحدنا نموت إذا نظرنا إلى أنفسنا في المرآة : فإننا نموت في عيوننا . . عيوننا تموت وهي تنظر إلى عيوننا . . عيوننا تموت في عيوننا . . ووحدنا نموت !

وأيام التصق الشاعر الرقيق الحزين بحياتي ، وجدتني على مدى خطوات من الفلسفة « الوجودية » . . فهو واحد من الآباء الشرعيين للوجودية الألمانية والفرنسية . . ولا أقول أن إنتسابي للوجودية كان بسببه . . ولكن هناك أنواعا من العذاب النفسي والعقلي والاجتماعي ، كانت مؤهلاتي . . كانت أوراق اعتمادي إلى السلك الوجودي . وإلى تلوين حياتي كلها بألوان قاتمة يائسة . . شائكة . . وأيامها أحسست أنني المقصود بهذه العبارة التي قالها الشاعر اللاتيني فرجيل : من ذلك الذي يتمرغ على الشوك . . من ذلك الذي ينزع أوراق الوردة ويتمدد على شوكها . . من ذلك الذي إذا سما تقلب على لظى النجوم . . وأيامها قلت : بل أنا الذي أرتدي جلد القنفذ بالمقلوب . . ولكن ما الذي يعذبني ؟ وكنت أجد كل شيء يوجعني : أنا والناس . . أنا والبعد عن الناس . . وأنا مع الناس . . ومن القصص الجميلة الأليمة التي اختارها الشاعر ريلكه ليصف حياته . . ثم نظمها في قصائد طويلة جليلة ، أسطورة

أورفيوس » . . إنه اختارها بكل معانيها . . فأورفيوس كان صاحب الناى الجميل . . كان إذا نفخ فيه تركت الطيور أعشاشها وسارت وراءه . . تركت الأسماك أنهارها وتزاحمت وراءه . . تركت الوحوش فرائسها ومشت مسحورة وراءه ، وأحب الفنان الساحرة أوريديس . . وتزوجها . . وراح يغنى لها وحدها . . وضاقت الآلهة بهذا العشق الأبدى . . فأوعزوا إلى حية أن تلدغها . . ولدغتها . . وانتقلت أوريديس . . إلى العالم الأرضى . . وذهب أورفيوس إلى العالم الأرضى يبحث عنها .

. . وراح ينفخ فى الناى فتوقفت كل طواحين العذاب . . حتى النيران ابتلعت نفسها . . وخمدت . . وهرع الآلهة يسمعون الناى الساحر . . وشاءت الآلهة أن تجيبه إلى رغبته . . فأخرجت حبيبته من العالم الآخر . واشترطت أن يمشى هو أمامها . . وألا ينظر وراءه اليها إلا إذا خرجا من العالم الأرضى . ولكن أورفيوس نسى . . فنظر وراءه متلهفاً إلى حبيبته فتلاشت . وخرج هو حزينا إلى الدنيا . . وراح ينفخ فى الناى في الكهوف وكانت الحشرات والزواحف تلتف حوله .. وحاولت بعض النساء أن يغرينه . ولكنه رفض . . فهجمن عليه . . ومزقنه . . وقطعن رأسه . . وألقين به فى الماء .. وكان الرأس كلما صدمه حجر قال صارخا : أوريديس : ولا يزال الموج والصخر يحتفظ بهذا الاسم ويردده ليلا ونهارا . ويتساءل الشاعر ريلكه ويقول : ولكن لماذا هذا العذاب ؟ هل لأنه يغنى ؟ هل لأن الناس يجدون لذة فى الغناء ؟ هل لأنه المغنى الوحيد ؟ هل لأنه أحب زوجته ؟ هل لأنها هى أيضا أحبته ؟ هل لأن للعذاب شعبية بين كل الكائنات ؟ يقول ريلكه : لأن الأحزان هى الهواء الذى يتنفسه الجميع .. لأن الإنسان ناى حزين ينفخ فى ناى أكثر حزنا .

الذى بهرنى فى القاهرة عندما جئت إليها من المنصورة : الشوارع والمكتبات والكتب الرخيصة التى تبيعها قوات الحلفاء .. ثم سور الأزبكية ..

فكانت متعتى الكبرى أن أمشى وأمشى وما دام لا هدف هناك ، فكل الشوارع سواء .. ولم أكن أجد متعة فى النظر إلى فترينات المحلات ..

وقد اكتشفت فيما بعد أن محلات شارع قصر النيل تبذل جهدا هائلا فى أن تكون الفترينات مثل محلات باريس . ولذلك يغيرونها كل أسبوع .. وفى

نفس الوقت الذى يغسلون فيه الرصيف بالماء والصابون . كان ذلك فى أواخر الأربعينات . وكنا نرى الفتيات الجميلات يقمن بإعادة ترتيب الفساتين فى محلات هانو وصيدناوى وبنزايون والصالون الأخضر والغليون .. وتصبح هذه الفترينة تحفة فنية فى أعياد الكريسماس ورأس السنة .. وكنت أتوقف أحيانا ولكن بعد ذلك أمضى إلى لا هدف ..

وأتوقف طويلا عند المكتبات .. مكتبة الكتاب الفرنسى وهاشيت وكارموس وسميث وزلزل والنهضة والأنجلو . كل يوم ، على الرغم من أننى أعرف كل كتاب قد جاء إلى مصر ، ولكنها العادة . أى تكرار المتعة .. متعة النظر إلى الكتب ومتابعتها .. وكانت هذه المكتبات أيضا تغير ترتيب الكتب فى الفترينة كل أسبوع . مع إضافة الصور والورود ..وكنا أسرة مترابطة جميلة .. أقصد أنا وباعة الكتب وأصحاب المكتبات .. فنحن نتصافح كل يوم صباحا ومساء ويكون السؤال عن الحال والصحة ويكون الكلام عن الكتب الجديدة وعن الذى نشرته الصحف هنا وفى الخارج .. كل يوم بلا ملل .. لا أعرف إلا الوجوه وإلا بعض الأسماء .. ولا يهمنى إن كانوا يهودا أو مسيحيين أو شيوعيين أو ملحدين أو متطرفين .. نحن جميعا مثقفون ، أو حريصون على أن نكون كذلك .. وفى هذه المكتبات يلتقى كبار المثقفين المصريين والأجانب ..ونستأنف الكلام والسلام والموضوع : الكتاب فى كل لغة وفى كل موضوع .

ولكن أعظم اكتشاف كان نقطة تحول فى حياتى الثقافية هو تلك الكتب الصغيرة : كتب الجيب التى تقرؤها القوات البريطانية فى مصر .. كل الأعمال الأدبية العظيمة طبعوها فى أحجام صغيرة ورخيصة الثمن .. كل مسرحيات شيكسبير وجيته وموليير وكل شعراء العالم الذين ترجمت دواوينهم ومسرحياتهم إلى اللغة الإنجليزية بقروش معدودة .. وقد اشتريت حمولة عربة كارو بأربعة جنيهات .. إنها المكتبة الأولى التى ملكتها وأقبلت على قراءتها .. وكنت أسهر الليل أكوى الكتب التى تكرمشت أوراقها أو أقوم بلصق صفحاتها بالصمغ .. وفى ذلك الوقت قررت أن أذهب إلى الجامعة سائرا على قدمى من العباسية .. لكى أوفر تذكرة الترام لكى أشترى كتبا .. وكانت تذكرة الترام فى ذلك الوقت بستة مليمات . أى بما يساوى كتابا !

وعندما تعمقت في وسط القاهرة اكتشفت شيئا أعظم وأروع : سور حديقة الأزبكية .. فعلى السور تباع الكتب القديمة والنادرة أيضا .. فالسور ليس شارعا أو رصيفا وإنما هو مكتبة ومعرض ومجتمع ومتعة يومية متغيرة .. فباعة الكتب يأتون كل يوم بجديد .. ويغيرون عرض الكتب .. ثم إنهم أناس مثقفون .. وهم يعرفون كل الذين يترددون عليهم من كبار الكتاب والوزراء وأساتذة الجامعات ..

وعندما رأيت سور نهر السين في باريس بعد ذلك وجدته منظما نظيفا .. ولكني أفضل عليه سور الأزبكية بما فيه من تلقائية شرقية .. هيصة .. وأنت تمد يدك إلى الكتب وتقلب وتقرأ وتتحدث إلى البائع ويسألك إن كنت تريد كتبا أخرى أو كتبا أرخص ..

ثم يحكى لك : لقد جاء الأستاذ عباس العقاد وكان معه الأستاذ على أدهم والأستاذ عبد الرحمن صدقى والأستاذ طاهر الجبلاوى .. واشترى كتاب « عبادة البطولة » للكاتب الانجليزى توماس كارليل .. وجاء دكتور محمد حسين هيكل باشا وسأل عن كتاب فى القانون الدولى طبعة ١٨٩٣ وقد وعدناه بذلك .. وجاءت السيدة سيزا نبراوى .. وعالم الفيزياء دكتور على مصطفى مشرفة ..

وفى لحظات تعرف من الذى جاء وماذا قال وماذا أخذ وماذا ترك ومتى يعود .. وكان يطلب إلينا أن نعود لنرى هؤلاء الكبار ..

ومن سور الأزبكية التقطت عددا كبيرا من الكتب الرائعة بأسعار زهيدة جدا .. لقد رأيت لأول مرة رواية « دون كيخوته » للأديب الأسبانى سرفانتس .. ولأول مرة أرى « ديكاميرون » أو العشاريات للأديب الإيطالى بوكاتشو .. واشتريت « دائرة معارف لاروس » القديمة فى ٢٢ مجلدا بعشرين جنيها .. تصور !! لأول مرة أقرأ بعض مؤلفات الأديب الفرنسى دى ساد « الذى نسبت إليه لذة التعذيب الجنسية (السادية) . ولم أكن أعرف أنه أديب أو فيلسوف .. ولكن كل الذي أعرفه ، ويذكره معظم الناس ، أنه رجل شاذ .. وعلى سور الأزبكية وجدت معظم الديانات القديمة .. فى طبعات سهلة رخيصة .. ووجدت الترجمة الإنجليزية للقرآن الكريم وقرأتها كلها لأؤكد لنفسى الفارق الهائل بين عظمة القرآن الكريم فى لغته العربية وبين أية ترجمة

حرى .. لقد كان عملا مستحيلا أن يترجم أى أحد القرآن إلى أية لغة .. ولم أكن قد قرأت كتاب الأستاذ العقاد « هذه الشجرة » عن فلسفته في المرأة . وقد هزني هذا الكتاب بعنف .. وعرفت فيما بعد أن الأستاذ العقاد قد تأثر فى رأيه في المرأة بالفلسفة الألمانية عند شوبنهور ونيتشه .. وعندما ناقشت الأستاذ العقاد وجدته يؤكد لنا احترامه العميق لها ، ولكن كتبه ، وهذا الكتاب بالذات ، تؤكد أن رأيه قد تغير تماما !

ووجدت مختارات للشاعر الألماني ريلكه . قرأتها .. ولكن لم أفهم الرمزية الصارخة فى شعر هذا الرجل . وعندما درست الفلسفة الوجودية ، استطعت أن أفهم قليلا مما جاء في هذه القصائد ..

وفجأة نشر دكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ، أستاذ الفلسفة الإسلامية ترجمة لكتاب الشاعر ريلكه . الكتاب عنوانه « رسائل مالته بريجه » . وهى رسائل أدبية فلسفية . ولم تكن هذه الرسائل العميقة واضحة أيضا ، رغم الجهد الهائل الذى بذله دكتور أبو ريده .. ثم جلست طويلا إلى دكتور أبو ريده وشرح لى معنى هذه الرسائل الأدبية ، وفلسفة الشاعر ريلكه ، وأنه آخر الشعراء الكبار فى ألمانيا .. ولم يتسع وقتي أن أهتم كثيرا بهذا الشاعر ، فقد كنت غارقا فى الفلسفة ودراسة شعراء ألمان آخرين أقرب إلى مزاجى الفلسفى الوجودى فى ذلك الوقت مثل : هيلدرلن ونوفا لس وتيك والشاعر الإيطالى ليبوردى والشاعر الروسى لرمنتوف والشاعر الرومانسى الفرنسى بول جيرالدى .

ثم عثرت على سور الأزبكية على كتاب بعنوان « آخر صداقات رينر ماريا ريلكه - خطاباته التى لم تنشر إلى مدام نعمت علوى بك - مع دراسة بقلم إدمون جالو عضو الأكاديمية الفرنسية مع مقدمة بقلم مارسيل رافال .

ورحت أتصفح الكتاب .. إنه الشاعر ريلكه وقد أحب سيدة مصرية .. وكان لاسم السيدة معنى خاص .. وحاولت أن أعرف ما هو هذا المعنى لم أستطع فى ذلك الوقت .. ولكن تذكرت أنه كان لنا مدرس فى المنصورة الثانوية إسمه : الأستاذ علوى .. كان مدرسا للرسم .. وكان يبيع لنا « مذكرات » فى الرسم لكى تساعدنا على النجاح فى الامتحان . وفى هذه المذكرات كيف نرسم وكيف ننقل الصور .. وكيف نراعى هذه النسب .. وكنت أذاكر ولكن لم أتقدم فى

الرسم .. فقد كنت أمضى الليلة بطولها أرسم الشخصية بالقلم والمسطرة مراعيا النسب لكى أحتفظ بها عندما أنقلها .. ولكن لا أكاد أقدم له هذه اللوحة حتى يبدى عدم رضائه عنها .. وفى ظهر الورقة وبسرعة مذهلة يرسم هو اللوحة فتكون أدق وأجمل .. وأندهش لهذه الموهبة التى يمتاز بها الأستاذ ، وليس لي منها نصيب .. وكنت ألاحظ زملائى أيضا ينقلون مباشرة عن الصورة الأصلية بمجرد النظر إليها دون الاستعانة بالمسطرة . إذن - لم تكن عندى موهبة الرسم هذه . انتهى . فلم أحاول أن أذاكر أو أتقدم فى الرسم ، وأسلمت قلمى وعجزى لله ..

وكان هذا الأستاذ علوى نحيفا ، كان يضرب الطلبة . وكان يشتم الأب والأم ! هل كرهته ، نعم أنا وحدى ؟ أعتقد أن كثيرين كانوا يمقتونه .

وفى يوم مشهود في مدينة المنصورة ونحن نتمشى على النيل وجدنا مظاهرة كبيرة مع صيحات وصرخات وضحكات . شىء عجيب حقا : إنه الأستاذ علوى وقد أمسكه إثنان من رجال البوليس .. واقتربنا نعرف . وتوارينا عن عينى الرجل . وقالوا : إن المحافظ هو الذى أمر « بتجريسه » - أى فضيحته وذلك عن طريق استخدام الأجراس التى تدق وتلم حوله الناس . لماذا ؟ لأنهم ضبطوا فى شقته واحدة عارية يرسمها - موديل .. ولم يكن ذلك مألوفا أو مقبولا فى الريف . وقد اشتكى جيرانه من أنه يفعل ذلك كل يوم ، مع صيحات وضحكات وأناس آخرين .. وكل شىء يدل على أنهم سكارى ..

وظل إسم « علوى » ملتصقا فى خيالى بهذه الفضيحة الجنسية .. فلما وجدت إسم السيدة نعمت علوى بك على غلاف هذا الكتاب ، كان إهتمامى مضاعفا .. وكأننى دون تفكير تصورت أن كل « علوى » لابد أن تكون له فضيحة جنسية .. وأن هذا الكتاب سوف يروى قصة مماثلة ولكن على أرفع المستويات الأدبية .. وظللت أقرأ الكتاب فى طريق عودتى إلى البيت .. ولكن كل صفحات الكتاب تطالبنى بالعدول فورا عن توقع فضيحة .. وإنما أنا أمام قصة عاطفية كالتى امتلأت بها كتب الأدب العالمى .. قصة حب بين شاعر كبير وفتاة جميلة .. ثم إن هذه الفتاة من مصر .. كيف ؟

ومن ثلاثين عاما كتبت هذه القصة فى مجلة « آخر ساعة » ونشرت صورة

الفتاة الجميلة لأول مرة . وتلقيت خطابات من أقاربها يستنكرون ذلك . وبعضهم يهدد بالقتل في الخطابات وتليفونيا .

وتصادف عندما فرغت من كتابة هذا المقال أن إكتشفت أن الصديق الأديب صلاح ذهني ، وكيل دار الأوبرا ، هو الآخر مريض . وأن مرضه نفس مرض الشاعر ريلكه . وطلبت تأجيل نشر المقال ، حتى يسافر الأستاذ صلاح ذهني إلى لندن للعلاج . فقد خشيت أن يقرأ المقال وينزعج . وتأجل نشر المقال أسبوعا . ولكن صلاح ذهني أجل سفره أسبوعين . وصدر المقال وقرأه صلاح ذهني . وقابلته ليلا في كازينو بديعة - مكان فندق شيراتون القاهرة . وفوجئت بأنه قرأ المقال ، وأدرك أنه هو أيضا سوف يموت مثل الشاعر ريلكه (١٨٧٥ - ١٩٢٦) - أي بسرطان الدم . وأحزنني ذلك تماما ..

ثم وجدتني ألتقي بالمرحوم صلاح ذهني كل ليلة ، كأنني أعتذر له .. أو أحاول التخفيف عنه .

هذا الشاعر ولد في براغ عاصمة تشكوسلوفاكيا .. وأبوه ضابط جيش فاشل .. فليس في حياته قصة واحدة من الممكن أن يرويها لأحد .. فقد ذهب إلى الحرب وعاد كأنه لم يفعل شيئا . وأدخل إبنه الكلية العسكرية لعله يصلح ما أفسده أبوه . ولكن الإبن ليس لديه أي استعداد لأن يكون عنيفا . ولا أن يذهب إلى الميدان . وإنما عنده استعداد لأن يتأمل وأن يتألم وأن يتكلم .. أن يحكي وأن ينام طول اليوم تحت أية شجرة دون طعام أو شراب فهو ذلك النوع البليد من الناس .. ثم أدخله أبوه مدرسة تجارية ، فكان فشله أعظم ..

ولكن عم الشاعر قد لمس في ريلكه ميلا إلى الأدب والفلسفة فساعده على ذلك . وطلب إليه أن يعرض عليه ما يكتبه . وعرض عليه بعض قصائده . فأعجب بها . وشجعه على أن يستمر في القراءة والكتابة . وعرف الشاعر أنه لن يكون غنيا . وعليه أن يستعد لذلك . فهو رجل فقير نظيف . وأن كل ثروته هي معلوماته . وأن سلاحه هو كلمته . وأنه إذا لم يتفوق في صناعة الكلام فسوف يموت جوعا ، وإذا مات فسوف تشيعه الكلاب . هكذا قال لنفسه ..

وإتخذ على الفور قرارا : أن يكون صعلوكا نظيفا . وأن يتغنى بعمق أفكاره وأحلامه أيضا ..

وكانت نقطة تحول فى حياته أن يسافر إلى روسيا . وفى روسيا التقى بالسيدة « لور سالومى » (١٨٦٧ - ١٩٣٧) وكانت محبة للأدب والفلسفة .. جميلة ذكية .. وقبل ذلك كانت معشوقة الفيلسوف الألمانى نيتشه .. لقد أحبها رغم أنها يهودية ، وهو يكره اليهود .. ثم أحبها بعد ذلك العالم الكبير فرويد ..

ولذلك سخر النقاد من هذه العلاقة من امرأة واحدة وثلاثة من عباقرة زمانها .. فكانوا يرسمونها تركب عربة وفى يدها كرباج ، وهذه العربة يجرها ثلاثة خيول نافرة : نيتشه وفرويد وريلكه !

وقد شجعت « لور » هذا الشاعر الكبير على أن يظل شاعرا ..ساعدته ماديا وطلبت إلى أصدقاء لها فى باريس أن ينشروا أدبه وأن يحققوا موهبته العظيمة . أحبها وعرض عليها أن تنفصل عن زوجها . ولكنها اعتذرت بعد أن مددت ساقيها الجميلتين وذراعيها فى نار هذا الشاعر .. نار الشوق ووهج الإبداع وجهنم الحرمان . فقد كانت هذه هوايتها ومتعتها أيضا . كأن السماء قد وكلت إليها أن تعذب العباقرة وأن تتقاضاهم وحدها عن هذه العظمة !

وفى روسيا التقى الشاعر ريلكه بالأديب العظيم تولستوى . والتقى بالرسام اليهودى الكبير ليونيد باسترناك وهو أبو الأديب الكبير بوريس ليونيد باسترناك الذى حصل على جائزة نوبل فى الأدب عن كتابه « دكتور جيفاجو » الذى منعته الرقابة السوفيتية لأنه يهاجم الثورة السوفيتية ..

وقد ظهر هذا الفيلم على الشاشة وقام ببطولته عمر الشريف مع الممثلة جولى كريستى .. وهذا الفيلم ظل ممنوعا فى مصر ، طول حكم الرئيس جمال عبد الناصر - مجاملة للروس !

وقد تأثر الشاعر ريلكه بالحياة فى روسيا . وبهره إتساع البلاد . وضخامة كل شىء .. ووجد فى ذلك تفسيرا للثقة بالنفس عند الروس . والإيمان الدينى العميق أيضا . حتى الماركسية وحدها فى روسيا لها مذاق دينى ، فكلهم فى روسيا متعصبون ؛ المؤمنون والملحدون على سواء . وأصدر ريلكه كتابه الشهير « كتاب الساعات » . ومن يقرأ الكتاب يخيل إليه أنه بقلم راهب مؤمن بكل شىء وزاهد فى كل شىء وهذا هو رأى الشاعر ريلكه فى الفن : إنه دين .. إنه إيمان بالحقيقة والعدل والحرية والخير .. ومن أجل كل ذلك يجب أن يعيش الفنان . وأن يموت أيضا . وقد أعجبه تولستوى العظيم الذى هو كل تناقضات روسيا : السياسية والدينية والإلحادية والفنية أيضا !

ولما رجع إلى ألمانيا عاش فى إحدى القرى الفنية بالقرب من ميناء بريمن . ففى هذه القرية كانت حياته شيوعية .. لا يملك شيئا ، ولا من الضرورى . ولكن يجد كل ما يريد من الطعام والشراب والحرية وأهم من كل ذلك أنه يجد أناسا مثقفين يتحدثون معا .. ومن أعظم نعم الحياة أن يجلس الناس معا يفكرون معا ومن هذا الحوار تتولد كل المعانى ، ويتألق الوميض الإبداعى عند الجميع ..

وتزوج ، كلارا ، التى تعمل فى النحت وكان يحسد الذين يمارسون فن النحت .. فهم قادرون على تجسيد المعانى .. على إبرازها .. على أن يقربوا من المعانى بوضوح فيفهمها كل الناس . فقد تركها الناس جميعا ، من كل لون وكل لغة فى نفس اللحظة ، دون حاجة إلى ترجمة .. النحت والموسيقى أكثر الفنون شمولا .. وأكثرها بلوغا لوجدان الإنسان وبلاغته أيضا . وكان يمضى الساعات يتفرج على أصابع زوجته وهى تسوى الطين والحجارة معنى جميلا .. ويتمنى لو أوتى شيئا من ذلك !

وأسفر الزواج عن تمثال كبير : إبنته الوحيدة ! ووجد فى هذه الإبنة أكبر دليل على أن نجاح الزواج يتأكد فى الأولاد .. أما المعايشة والحوار فكلها متقلبة واليوم حب وغدا حرب .. ولكن الشيء المؤكد الناجح بين الزوجين هو أن يكون لهما أولاد .. فالطفل معناه أنه من لحظة سعادة واحدة كان هذا الإبداع العظيم .. إنها لحظة صدق بين زوجين ، أما الباقى فقد تكفلت به حكمة الله وقوانينه الأزلية !

وقد ترك الشاعر لابنته التى قررت أن تعيش مع أمها هذه الرسالة : إن أردت الوضوح والعمر القصير فكونى مثل أمك ، وإن أردت الخلود فأبوك .. وإن أردت الثراء فليكن لك زوج أمير ، وجمالك هو ثروتك وذكاؤك هو تاجك ، وأبوك مجدك .. إبنتى إننا لم نعرف بالضبط معنى الكثير فى هذه الحياة .. لا ننسى أن أحدا لم يسألنا إن كنا نريد أن نعيش .. ولا أحد عرض علينا المواهب ، فأخذنا الشعر ولم نختر صياغة الذهب .. إنه قدرى وقدرك أيضا .. إلا إذا وجدت معانى أخرى غير التى عاش بها ومات عليها أبوك !

وعاش فى باريس طويلا . عمل أول الأمر سكرتيرا للنحات الكبير رودان .. أراد أن يكون قريبا من صانعى الوضوح البارز ، يتأمل الفنان

الكبير . ولكنه ضاق بالفنان ، وضاق به الفنان أيضا .. إنهما متشابهان ، ولذلك كان التنافر والسخط عاجلا ! واستضافه أحد الأمراء في سويسرا ونزل عنده مريضا وطال مرضه . وتعاقب عليه الأطباء والشعراء والأدباء والرسامون من كل أوروبا . وأيقنوا أنه لا أمل . وفي ذلك الوقت صدرت طبعة جديدة من رسائله إلى مالته بريجه . وجلست سيدة مصرية طويلة عريضة شقراء عسلية العينين في أحد مقاهي مدينة مونترو مع صديق لها هو جورج قطاوي باشا . وأخذت تحدثه عن هذا الكتاب الذي أعجبها . وراحت تستعرض الأفكار البديعة التي قرأتها في هذا الكتاب .

وسألها جورج قطاوي : ولا تعرفين المؤلف ؟

قالت : لا ..

قال : انظري وراءك .. إنه هذا النحيف الشاحب .. ذو الشارب المتدلي كأنه من أبناء المغول .

ونظرت إليه ولمعت عيناها وظهرت الفرحة على وجهها ، عرفني به .. أريد أن أتحدث إليه فورا ..

إنها السيدة نعمت علوي بك زوجة عزيز علوي بك .. وكان زوجها هو الآخر مريضا في سويسرا . وكانت ترافقه في تنقلاته من عيادة إلى أخرى ومن مستشفى إلى مصحة .. إنه الرجل الثاني في حياتها .. أما الأول فقد أرغمها أهلها على أن تتزوجه دون أن تراه ، وكان موظفا في المراسم الملكية . فرفضت فانفسخت الخطوبة . وزوجها هذا أيضا لم تره إلا يوم الزفاف . ولكنها رأته سرا . ولم تكد تمضي شهور على الزواج حتى مرض ومات .. وأصابها نفس المرض المعدي ، وماتت به أيضا !

وهي من أصل شركسي وأبوها أحمد خيري باشا .. فتعلمت اللغات الفرنسية والألمانية والتركية والعربية أيضا . وكانت تتكلمها بطلاقة تامة ..

وقد ماتت أمها في سن مبكرة ..

وتكفلت أسرتها بتربيتها وتعليمها . وكانت تعيش معظم الصيف في جزيرة رودس ، حيث يملك كثير من الأتراك قصورا وحدائق . ولما مات أبوها ، لم تعلم إلا بعد سنوات . فقد اشتعلت الحرب العالمية الأولى وهي في جزيرة رودس .

وارتبطت بالشاعر الألمانى ريلكه ، كانت تزوره كل يوم تسبقها الورود وتجيء من بعدها .. وكانت تكتب له ويكتب لها .. هل أحبت الشاعر ؟ هل أحبها؟ من المؤكد أن الحب كان عنيفا . ولكن الشاعر كان فى أيامه الأخيرة .. وهى أيضا كانت فى الأيام الأخيرة مع زوجها عزيز علوى بك .. كانت هى تتأمل أصابع الشاعر الطويلة الناعمة ، وكان هو يتأمل عينيها الجميلتين ..

قال فى عينيها : لا غابات الدنيا ولا جبالها الجليدية ولا نجومها ولا حكمة الإغريق ولا سحر الشرق يدانى ومضة واحدة من عينيك .. خسارة كبرى أن أموت وأترك هذا الكنز الأبدى !

وتم الطلاق بين نعمت علوى وزوجها وقررت أن تعيش فى باريس . وهناك تزوجت من الأمير نيكولا متشوسكى . وبعد الزواج بوقت قليل نشبت الحرب العالمية الثانية فذهب إلى الجبهة . وداهمها المرض فى باريس . مع الوحدة وبرودة الجو . وكانت إصابتها الأولى بالالتهاب الرئوى والسل وأمراض أخرى وتنقلت بين المستشفيات . وتوفيت فى ٤ أغسطس سنة ١٩٤٣ ودفنت فى مقابر آل متشوسكى .

وكانت نعمت علوى قد أعجبت بالممثلة الكبيرة جريتا جاربو . وحاولت أن تكون ممثلة . فوجهها الجميل يصلح . ولكن جسمها طويل عريض لا يصلح للشاشة . وقد ظهرت دقائق فى بعض الأفلام . ولكن لم تستطع أن تكون نجما سينمائيا ..

وهى على فراش الموت انشغلت بقراءة عشرين خطابا بعث بها الشاعر ريلكه .. وقبل أن يموت سلمها خطاباتها إليه . كرما ونبلا ، مع تعليق على كل خطاب ، على نفس الخطاب .

حاولت نعمت علوى أن تكتب المسرحية .. فكتبت مشروع مسرحية من فصل واحد . وهى مسرحية واقعية جدا .. أى بينها وبينه . وأرسلتها إليه .

وأنا أنقل هنا نص الفصل الأول الذى لم يكتمل :

- هو : أعرف من الذى هيأ لنا هذه الظروف .. أنا فى حاجة إليك .. وأنت أيضا .. أنا فى حاجة إلى قلبك .. وإذا لم يسعفنى قلبك عوضتنى عيناك .. وإذا أغرقت الدموع عينيك ، فلمسة من أصابعك تشيع الحياة والعافية فى كل شيء .. وإذا لم تحركنى أصابعك الفاتنة فأنفاسك من عبير الجنة .. لقد دخلت

الجنة فى هذه الدنيا ، قبل أن أدخلها فى الآخرة .. إننى على يقين من أننى سوف أدخلها .. لأننى يا سيدتى سوف أكون ظلك فى الدنيا والآخرة ولا يمكن أن يكون الله قد أبدع صورتك ليحشرها فى نار جهنم ..صدقينى !

هى : بل أنت يا سيدى نعمتى المؤجلة .. لم يشأ الله أن ينجح زواجى الأول .. ولو نجح ما جئت إلى سويسرا .. فقد كان رجلى الأول فى كامل الصحة ولا يحب السفر .. كان يؤمن بأنه إذا ترك مصر ، فلن يعود ، فهو يحرسهابعينيه .. بل لو أغمض عينه فانه بسرعة يفتحها حتى لا تختفى مصر من عينه أو عن عينه لحظة واحدة .. ولكن شاء القدر أن أتزوج رجلا مريضا أجلس جواره لكى أكون إلى جوارك أيضا .. ولكنى منذ رأيتك يا سيدى وأنا إلى جوارك .. بل أنت إلى جوارك .. بل أنت أنا .. فلم تعد لكلمة الجوار معنى .. فالذى إلى جوارى هو الخارج عنى .. البعيد عنى .. ولكن أين أنت يا سيدى .. إننى أنت .. معا فى جلد واحد .. كما يتجاور القلب والمعدة بل كما تتشابك الرئتان فى الصدر الواحد .. تقول الجنة والنار ؟ .. لا جنة ولا نار .. لأن الجنة بعد الموت والنار أيضا .. ولكن بك ومعك لا موت .. فلا جنة ولا نار .. وإنما الحياة معا على الأرض وتحتها .. حياة بلا نهاية

ولو جاءتنى الملائكة وحاسبتنى فسوف أعترف بخطيئتى أننى أحببتك متأخرة جدا . حتى هذه الحقيقة ليست خطيئة .. إذ كيف أعرف مستقبلى .. إذ كيف أدرى مصيرى .. لو كنت عرفت ، لو كنت دريت ، لو كنت إحدى آلهات الإغريق ، لارتبطت بك من الأزل إلى الأبد .. تقول إننى لمسة الحياة وعبير الجنة .. أنت لا تدرى ماذا أقول عنك يا سيدى إننى أراك فلا أتنفس يا سيدى .. إن الوجود معك حياة .. إننى أراك فلا أتنفس يا سيدى .. إننى الخلود .. إن كل شيء معك قد انتقل إلى .. حتى مرضك .. ما أسعدنى بمثل هذه النهاية .. إننى أتمنى أن أموت بعدك بلحظة واحدة .. لكى تكون آخر ما أرى فى هذه الدنيا .. إننى لا أتمنى لك طول العمر .. فطول العمر وقصر العمر لا تعنى شيئا .. وإنما أتمنى أن أكون معك .. أو أن أكون أنت أطول وقت ممكن .. ولكن من يعرف الحب لا يعرف الزمن .. من يعرف العشق لا يعرف إلا الأبدية .. إن الذى أحس به ليس سعادة .. فالسعادة كلمة صغيرة .. والنعمة كلمة أصغر .. ولكن هذا الذى أنت ، أو هذا الذى أنا ،

و هذا الذى أنا ـ أنت .. أو أنت ـ أنا هو البركة .. إنها بركة الله قد حلت فينا .
ـ سيدى ..

هو : ماذا لو أعطيتنى يدك .

هى : إليك .. يدى ..

هو : هل تسمحين لى أن أقبلها ..

هى : شرف يا سيدى !

هو : هل ألمس شعرك ؟

هى : سحر يا سيدى .

هو : وطرف ثوبك .

هى : أتعنى أن أموت .

الآن يا سيدى .. فليس بعد ذلك شرف ولا سعادة ولا بهجة ولا بركة !

هو : بل هناك يا سيدتى ..

هى : لا شىء بعد ذلك .

هو : بل هناك .. اقتربى دعينى أشم أنفاسك .. دعينى أتنفس بك .. وبعدها أموت ! (وتدخل الممرضة ومعها الدواء) .

الممرضة : الدواء يا سيدتى .

هو : ولكنى شفيت .

الممرضة : الحمد لله .. هذا هو أملنا يا سيدى العظيم ..

هو : حقا شفيت ..

الممرضة : بلا دواء ؟

هو : الدواء والطبيب من مكان آخر ..

الممرضة : كيف يا سيدتى ؟

هى : كما قال لك السيد .. بل أنا أيضا تعاطيت نفس الدواء .. إنه النفس الطيب .. هل أطمع فى أن تضعوا لى سريرا فى هذه الغرفة ..

الممرضة : لا أفهم يا سيدتى .. لا أفهم .. سوف آتى بالطبيب .

وتخرج الممرضة .. وقد تركت الدواء ..

هى : (تخفى الدواء تحت المخدة) .

هو : (يسحب يدها ويقبلها) .

هى : (تنحنى عليه وتقبل جبينه) .

هو : (يضع يده على عينيه المغمضتين) .

هى : (تضع رأسها على صدره) .

(يدخل الطبيب والممرضة) .

الطبيب : يهز رأسه ويبدو الارتياح على وجهه إن كان هذا هو الدواء ..أو كان أحدكما الطبيب أو أنتما معا ، فلا دواء بعد ذلك .. ولا شفاء إلا هذا ..

الممرضة : لا أفهم .. حتى الدواء اختفى .. أين الدواء .. إن هذا واجبى .. وأنا أريد أن أؤدى واجبى .. إننى أفعل ذلك من ثلاثين عاما .. إن هذه نقطة سوداء فى حياتى ..

الطبيب وقد وضع يده على كتفى الممرضة ويسحبها إلى الخارج .

عندها يعتدل الشاعر فى فراشه وتجلس هى إلى جواره ويضع رأسه على صدرها .. وتلف ذراعيها حوله .. وتفتح النافذة وتدخل نسمة باردة منعشة .. ومعها فراشة صغيرة جميلة الألوان تدور حولهما) .

وفى العام الماضى ظهرت دراسة عن سيدات عربيات فى حياة الشعراء الألمان الكتاب فى ٣٥٠ صفحة بعنوان « ساحرات الشرق فى أدبنا) . المؤلفة أديبة إسمها مرجريت جراف (سن ٣٢ سنة) . والكتاب مطبوع فى كندا . وفى هذا الكتاب قصص عن تسع عربيات . ثلاث من لبنان وواحدة من سوريا وثلاث من المغرب وواحدة من تونس .. والسيدة نعمت علوى .

تقول المؤلفة : إن الحسناء المصرية كانت أعمق أثرا . فالشاعر الألمانى ريلكه كان يتمنى أن يموت فى سن صغيرة ككل الرومانسيين الشعراء ، ولكنه ندم على أن السماء لم تهبه عمر النسور عندما عرف نعمت علوى .

وتقول : إن الشاعر ريلكه قد اعترف لأحد أصدقائه وهو على فراش الموت أن أكثر أفكاره كانت مستوحاة من نعمت علوى .. وأنها أمسكت قلمه ويده

وكتبت عبارات من عندها .. وأنه لو طال عمره لذكر لها هذا الفضل .. ولكن كل فضل يهون أمام فضلها .. ووجودها ..

ويقول ريلكه : يا شمسا لا أقوى على النظر إليها .. يا محيطا من الشمبانيا لا أقدر أن أشربه .. يا عاصفة من العطر أكبر من صدرى الضيق ، يا شبابا أذل شبابى يا ثوابا على معصية .. لقد عصيت الآلهة عندما كفرت بالنعمة ، فجئت نعمة النعم تكذيبا فاضحا لكل معتقداتى .. يا آخر ما أبدعت السماء ، وأقصى درجات الكمال عندها !

ونشرت المؤلفة الألمانية عبارات كان قد كتبها على باقات الورد التى بعث بها إلى نعمت علوى مثلا ؛ إلى جنة الله هذه الزهور من صديقتى .. إلى جبل الماس هذه القطع الزجاجية الملونة ومع أصدق الحب !

ويقول أيضا : زهورى قد غارت من زهورك ، فسبقتنى ترى جمالك وتستقر عند قدميك !

ويقول : إلى سمائك هذه القبلات من أرضى !

ثم يقول : ما لم أستطع أن أقوله كلاما ، أحاول أن أنظمه وردا .. يا وردة الجمال فى مفرق السحر !

ويقول : سيدتى .. ألمس هذه الورود بعينيك .. أما أصابعك فهى سلالم النور إلى حياتى !

ثم نشرت عبارات كانت قد كتبتها نعمت علوى إلى الشاعر رينر ماريا ريلكه قبل وفاته بأيام : إليك هذه العبارات الرقيقة هذه الورود تنحنى أمام عظمة البلاغة وموسيقى السماء ..

وكان من عادتها ألا تبعث إليه ورودا . وإنما كانت تحملها إليه .. أما كيف مات الشاعر ريلكه فيقول الأطباء أن شوكة من هذه الورود التى قدمها للفاتنة المصرية قد وخزته ونفذت فى لحمه وأسالت دمه .. ومن هذه الوخزة دخل الميكروب ومن ورائه الموت ..

وتقول الأديبة الألمانية ما لم نكن نعرف ..

فهى التى طلبت إلى الشاعر أن يسيل دمها وأن يسيل دمه .. وأن يتسلل دمها إلى دمه .. ودمه إلى دمها وفى وحدة الدم ، وحدة الموت أيضا !



رجل عظيم من أسوان

رجل عظيم من أسوان

الأستاذ العقاد مشكلة للنقاد والمؤرخين . . لأنه لابد أن يختاروا له صفة واحدة يضعونها بعد اسمه أو عنوانا لأى كتاب أو تقويم لحياته وأعماله الأدبية والفلسفية والشعرية التى بلغت التسعين كتابا . فهل هو شاعر ؟ مؤرخ ؟ مفسر ؟ ناقد ؟ فيلسوف ؟ مفكر ؟ سياسى ؟

لابد أن يختار المؤرخون له صفة واحدة . . وهذه الصفة هى المفتاح الصغير الذى يمسكه القارىء فى يده ويفتح به كل أبواب قلعة العقاد . . مفتاح واحد فقط كالذى نجده فى الفنادق فعندما يضيع مفتاح صغير فى أى فندق فإن الفندق بسرعة يبعث له بمن يفتح له الغرفة وأية غرفة . . هذا المفتاح والمفتاح الرئيسى » أو « المفتاح السيد » .

والمؤرخ أو الناقد يجب أن يعطى للقارىء المفتاح الرئيسى لعقلية العقاد . .

والمفتاح الواحد أسهل من مجموعة مفاتيح تدوخ القارىء أو تتعبه ، والناقد لا يريد أن يتعب نفسه ، ولا أن يتعب القارىء معه . .

فاذا قال أن العقاد شاعر ، فمعنى ذلك أنه شاعر معظم الوقت . ويكتب النثر بعض الوقت . ولكن القارىء يفاجأ عندما يجد أن أكثر كتب العقاد من النثر . .

وإذا قال المؤرخون أن العقاد يهتم بالنقد الأدبى وأنه ناقد ، كانت مفاجأة أن يجدوه قد ألف عددا من قصص حياة محمد وعمر وأبو بكر وعثمان وعلى والمسيح . . فهو كاتب التراجمات الأول فى الأدب العربى . .

وهو فى نفس الوقت صاحب قدرة على التحليل النفسى والمنطقى والواقعى . . وهو باحث فى اللغة وفى الشريعة .

وهو كل هذه الصفات معا : شاعر ناقد مؤرخ مفسر متفلسف ومفكر سياسى . .

ولكن القارىء يريد أن يعرف ما هى صفته . . ما هى الصفة الغالبة عليه لكى يسهل فهم العقاد . .

إن العقاد عقلية موسوعية . .

فهو قد قرأ فى أشياء كثيرة وكتب عنها . وهو قرأ الكثير لأنه قارىء يحاول أن يفهم . أو هو مفكر يريد أن يبحث عن أشياء كثيرة فى هذه الدنيا . وهو يحمل فى يده مصباحا قويا يوجهه فى كل الاتجاهات . لأن الحقيقة الكبرى ليست فى مكان واحد . إنها فى كل مكان . . وعنده قلق عقلى ورغبة فى المعرفة ، وقدرة على الفهم تجعله قادرا على المحاولة والفهم والتعبير بعد ذلك . .

ولكن الناس يسألون : ولكن ما هو الشىء الذى تخصص فيه العقاد ؟

ويكون الجواب : أنه تخصص فى الفكر . .

ويقال لك : هل هو مفكر

ــــ نعم

ــــ مفكر فى أى شىء ؟

ــــ مفكر فى أى شىء !

ــــ مثل ماذا ؟

ــــ مثل الإنسان ونفسية الإنسان وعلاقته بالإنسان . . وعلاقته بربه . . أو الانسان فى كل ظروفه النفسية والاجتماعية والجسدية . . وليس سهلا أن يجعل المفكر قضيته الكبرى هى : الإنسان ! أننى احترم جدا ما قاله الفيلسوف الوجودى سارتر بعد أن فرغ من أربعين كتابا من روائع الفلسفة والأدب . . وسئل يوما : بالضبط ما هى القضية التى تشغلك ؟ تصور أن هذا يقال لرجل أتى بجديد فى الفلسفة الوجودية . . وكان رد سارتر : أننى مشغول بطبيعة الانسان !

ــــ أننا نقرأ أن فلانا روائى . . وفلانا قصصى ، وفلانا شاعر . . وفلانا ناقد . . وهذا مؤرخ وهذا طبيب وهذا عالم فلك .

ــــ معك حق . . ففى حياتنا الأدبية أناس دخلوا الأدب وأقاموا فيه وعاشوا

في ظل مجد عجيب لأنهم ألفوا كتابا واحدا . . أو كتابين . . وفى إمكانك أن تختار من مؤلفات العقاد كتابين فى الشعر وتقول : شاعر . . وفى النقد وتقول : ناقد عظيم . . وفى الدراسات الدينية وتقول : مفكر دينى .

ولو اخترت من كل مؤلفات العقاد عشرة كتب ، فهذه الكتب تكفيه جدا ليكون ناقدا عظيما وشاعرا عظيما ومؤرخا . . ولكن مشكلة العقاد هى : أنه رجل غنى جدا بأفكاره . . ما الذى نأخذ منها ، وما الذى نترك . . إن العقاد يشبه سيدة عندها عشرات الخواتم الماسية والأقراط والعقود والأساور والساعات والدبابيس كلها وضعت في مكان واحد .. وهي جميعا تبهر العين وتلقى ضياءها بعضها على بعض . . ولو كان العقاد يملك خاتما واحدا لبدا هذا الخاتم باهرا . . ولكنه يملك الكثير جدا . فما الذى يفعله النقاد والمؤرخون . أنهم يحارون ويحيرون القراء معهم . . ولكن من المؤكد أن المفكر أو الفنان لا تشغله كثيرا الصفة التى سوف يطلقها الناس عليه . . وإنما هو مشغول بالذى فى رأسه بالذى يقلقه ويحيره . . إنه يريد أن يعرف وأن يفهم وأن يعبر بعد ذلك . . هذا هو الذى يشغله دائما . .

فالعقاد مشكلة للنقاد والمؤرخين . .

ولكن الحقيقة أنه رجل واسع الأفق عميق المعانى . . وفى استطاعتك أن تطلق عليه أى إسم . . فهو كل هذه الأسماء التى دارت فى رأسك . . فلا يحدث مطلقا أن يجىء الكاتب ويقول : أنا ناقد ... فلا أكتب إلا عن النقد . . أو أنا مؤرخ لا أكتب إلا فى التاريخ . . فهناك أعمال نقدية هى أدب رفيع ، والأديب لا يمكن إلا أن يكون ناقدا ، والمؤرخ أديب . . والأدب تاريخ . . ولكن الذى يحدث هو أن الكاتب له قضية تشغله وتلح عليه . . ويحاول أن يهتدى إلى شىء . فإذا اهتدى إليه ، أهداه إلى القارىء . واستراح بعض الوقت ليبدأ الطريق من جديد ، أو يبدأ طريقا من جديد . . فكل بداية هى ملتقى أو مفترق طرق . . وبعدها يتجه الأديب أو المفكر أو الناقد الى مجالات أخرى أوسع وأكثر تنوعا !

فعندما فرغ العقاد من كتاب عبقرية محمد وفرغ من عبقرية المسيح وفرغ من كتاب ابليس ، قال : لقد جربت قدرتى العقلية فى دراسة هذه الشخصيات العجيبة . ولا بد أن أعرف حدود قدراتى العقلية . . سوف أكتب عن الله !

وألف كتابه عن « الله » . وهو دراسة فى مفهوم الالوهية عند كثير من الفلاسفة . وانتهى العقاد إلى نظرية خاصة فى معنى « الألوهية » هى أن هناك « وعيا كونيا » . . هذا الوعى الكونى الالهى يلمسه الناس ويستشعرونه على أشكال مختلفة . . إن كل إنسان أو كل شعب يحس بهذا « الوعى الكونى » أو بعبارة أسهل : فى هذه الغرفة أو هذا المكان الذى أنت فيه تتجمع كل إذاعات العالم . وكل جهاز راديو قادر على أن يلتقط المحطات المختلفة . الراديو الصغير يلتقط المحطات المحلية . . الراديو الأكبر والأقوى يلتقط الإذاعات الأجنبية البعيدة . . وهناك المراصد تستطيع أن تلتقط الموجات المغناطيسية الكهربية الموجودة بين الكواكب التى تبعد عنا ملايين السنين الضوئية . . أى أن هناك إذاعات فى كل مكان . . وكل جهاز يلتقط ما يقدر عليه . . وهذا تشبيه فقط ولكنه ليس دقيقا جدا . فهذا الوعى الكونى الذى هو قوانين الأشياء وقواعدها وحكمتها والقدرة على إبقائها وتنظيمها وتحريكها هو : الله . . وكل الأفراد والشعوب فى كل العصور ، يدرك ذلك بأشكال مختلفة !

فالعقاد يحاول أن يعرف قدرته وحدوده أو كيف يستطيع عقله تخطى الحدود الحسية والمعنوية لعله يدرك الحقيقة وراء الأشياء . .

وكانت للعقاد طريقة هى أنه يبحث عن « المفتاح » الذى يعالج به الأبواب المغلقة . . أو الشخصيات الغامضة . . إنه يقرأ ويقلب فيها حتى يعرف مدخلها . فإذا عرف ذلك وجدته يتحدث عن كل شىء بسهولة وبمنتهى الوضوح .

شىء عجيب يواجهك وأنت تقرأ كتابه « خلاصة اليومية » وهو أول كتاب للعقاد . وهذا الكتاب يضم مجموعة من الآراء والحكم . وهذه المعلومات المكثفة أو الحقائق المتبلورة تدل على أن العقاد قد أدرك أشياء كثيرة بوضوح . وهذا الوضوح جاء مبكرا جدا . وكان العقاد يفخر ويسعد عندما يقال له : أن هذا ما اهتديت إليه يا أستاذ من أربعين أو من خمسين عاما . وانك عرفت هذه الحقيقة وأنت شاب !

وكان يقول : للحمد لله على ذلك . فقد رأيت هذا المعنى وأنا ما أزال شابا صغيرا . فلما كبرت رأيته أوضح . ولكنه هو هو !

حتى شعر العقاد في هذه السن المبكرة كان نوعا من الحكمة التى لا يبلغها الانسان إلا فى سن متأخرة . فهو القائل فى هذه السن الصغيرة :

لقد ثقلت على نفسى حياتى
وأشفق عائدى وشكت أساتى
سئمت فما أريد اليوم إلا
دواء الموت من داء الحياة
إذا كانت حياة المرء سجنا
فشق اللحد باب للنجاة

ويقول العقاد أيضا :

لا تحسدن غنيا فى تنعمه
قد يكثر المال مقرونا به الكدر
تصفو العيون إذا قلت مواردها
والماء عند ازدياد النيل يعتكر

وكان العقاد يقول أن هناك نوعين من الناس : أناس يلمسون الأشياء بعيونهم وأناس يرون بعيونهم . فعندما قال الناس أن هتلر سوف ينتصر فى النهاية لأنه أسقط النمسا وهولندا وبلجيكا وفرنسا والنرويج وغيرها . . فهؤلاء الناس يلمسون الواقع بعيونهم . لأن الذى أمامهم هو سقوط كل الدول أمام هتلر . . ولكن العقاد كان يؤكد أن هتلر سوف ينهزم . . وكان يقول ذلك وهتلر ينتصر والعالم كله يتساقط أمامه . . وكانت للعقاد حجج أثبت الواقع أنها صحيحة . فهو لم يكن فى ذلك الوقت ، ولا فى أى وقت يلمس الواقع برموش عينيه . . وإنما كان يرى ما هو أبعد من الواقع !

وكان العقاد يعتز بالفكر . ويرى أن المفكر هو أعظم مخلوقات الله . وأن الله قد أعطاه الموهبة أو الصفة التى رفعته عن الحيوان وعن الإنسان . ولذلك يجب أن يرفع رأسه وأن يرتفع . وكان العقاد عاليا . عملاقا . وكان الذى يزور العقاد يشعر أنه قد أضيف إليه بضعة أمتار عن سطح الأرض .

قال لى ابراهيم عبد الهادى باشا : أن العقاد كان نموذجا للإباء والكبرياء . وأنه تعذب كثيراً بسبب ذلك . ولكنه ظل فى حياته الخاصة والسياسية والأدبية الرجل العظيم الاحترام لنفسه ولغيره !

وكان العقاد قاسيا على نفسه . فهو لم يكن موظفا . ولكن له كل عادات الموظفين . فهو يصحو فى ساعة معروفة . ويجلس إلى القراءة وإلى الكتابة ساعات . وبعدها ينزل من مصر الجديدة إلى القاهرة . ويتردد على المكتبات المعروفة . وبعد ذلك يذهب إلى بعض اللجان . ثم يعود إلى بيته فى ساعة محدودة . يأكل المسلوق . وينام . ويبدأ القراءة والكتابة . ثم يتمشى ليعود إلى بيته ليستمع إلى الموسيقى . ويأكل وينام . . وهو الذى وضع هذه القواعد لنفسه . والتزم بها .

وهو يطلب من الناس أن يحرصوا على القواعد والآداب والأصول ، تماما كما يفعل هو .

وأنا أعرف أن للعقاد نوادر محرجة ومضحكة أيضا . ولكنه لم يرها كذلك . ففى أحد الأيام جاءه الحاج عبد الرحمن السقاف من سنغافورة يطلب ترجمة مؤلفات العقاد الإسلامية ونشرها في الشرق الأقصى مقابل عشرة آلاف جنيه استرلينى . وفرح العقاد بذلك . وأبدى الحاج عبد الرحمن رغبته فى زيارة العقاد .وتحددت الساعة الخامسة بعد الظهر . وأنا أعرف جيدا ماذا يحدث فى بيت العقاد فى هذه الساعة . فقبل هذا الموعد بعشر دقائق تماما ينادى العقاد خادمه ويطلب إليه أن يعد عصير الليمون والقهوة . وأن ينتظر . ثم يرتدى العقاد بدلته وطربوشه ويدخل غرفة الانتظار قبل الموعد بدقائق . وينتظر . ثم يقول لابن أخيه عامر العقاد : انتظر السيد فلان أنه سوف يجىء فى الخامسة ! وجاءت الخامسة . ولم يحضر الرجل . ومضت خمس دقائق طويلة . ولم يحضر الرجل وبدا الضيق على العقاد . ولما كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق نادى العقاد بصوته العالى يقول : أغلق الباب . اذا جاء الرجل الهلفوت فقل له أن الأستاذ نزل إلى الشارع !

أما الرجل الهلفوت فلم يكن هلفوتا . وإنما هو من كبار الشخصيات العربية في سنغافورة . ومن أكثر الناس حبا للعقاد . ثم أنه جاء مصر من ألوف الأميال . . ومن الممكن أن تكون المواصلات وإشارات المرور وجهله ببيت العقاد ، قد عوقته بعض الشىء . . ولكن هذه الأعذار لا يقبلها العقاد ، لأنه شديد الحرص على مواعيده مع الناس ، ومواعيد الناس معه . .

وفى الخامسة والربع جاء الرجل القادم من سنغافورة . ودخل . ومد يده

للعقاد يقول : آسف يا أستاذ . . فالمواصلات . . الخ . وقال العقاد غاضبا : نعم هذه مسألة موجبة للأسف !

وهو رد عنيف . ولكن الذى فى نفسه أعنف من ذلك . وأحس الرجل القادم من بعيد أن العقاد قد ضاق به . فاستأذن وخرج .

وفى اليوم التالى طلب العقاد فى التليفون أحد المسئولين فى المؤتمر الإسلامي وقال له : يا أستاذ لقد جاءك الرجل من آخر الدنيا . ولا يعرف بيتك وجاء يشترى كتبك . تقابله أسوأ مقابلة .

وثار العقاد وهو يقول : وهل تتصور يا مولانا أن رجلا لا يحترم مواعيده ، وأن رجلا فعل ذلك هل أقيم له حفلة تكريم . . هل تتصور أن رجلا يشغل العقاد عن رياضاته اليومية يستحق منى الاحترام . . ملعون أبوك على أبوه . . ووضع سماعة التليفون !

وكان من عادة العقاد أن يبعث لنا بمقالة لكى ننشرها فى جريدة « الأساس » سنة ١٩٤٨ وما بعدها فى مواعيد محددة . فى الساعة الحادية عشرة صباحا . يجيء سائق سيارته في هذا الموعد بالضبط . . وقد حمل مقالا مكتوبا على ورق صغير بالحبر الأحمر .

وفى يوم عرف العقاد أن مقاله قد وصل متأخرا عن الموعد المحدد . فحاسب السائق حسابا قاسيا . وباع سيارته . وطلب إلى السائق أن يأخذ التاكسى ما دامت السيارة تتوقف فى الطريق وتعطل المقال عن الموعد المحدد . .

مع أنه فى إمكان العقاد أن يبعث بمقاله فى أية ساعة حتى منتصف الليل . . أى بعد ذلك باثنتى عشرة ساعة . ولكنه التزم بموعد . وهذا يكفى !

وكان العقاد شديد الاعتداد والاعتزاز بنفسه ، ولذلك كان يستحق الاحترام من الجميع .

وفى إحدى المرات ونحن طلبة فى الجامعة طلبت إليه أن يلقى محاضرة لطلبة قسم الفلسفة . ووافق العقاد فورا . فقال : فى أى موضوع !

فقلت : فى أى موضوع تراه يا أستاذ ؟

فأجاب : بل أنتم الذين تختارون الموضوع . أنا لا أختار . فهو يستطيع أن يتحدث فى أى موضوع فلسفى . واخترنا له موضوعا كان يعذبنا . وكنا نحتاج

منه إلى كلام واضح . وكان الموضوع هو : « منهج الغزالى فى الفلسفة ونظرية النسبية عند اينشتين » . وتحدد موعد المحاضرة . وكان ذلك فى المدرج رقم ٧٨ . وامتلأ المدرج وسمعنا ما لم نقرأ من قبل . وكان العقاد رائعا !

وازددنا إعجابا وحبا للعقاد . .

وفى إحدى المرات داعبنى العقاد فى مقال نشره بأخبار اليوم . وكانت المداعبة قاسية . إما لأننى لا أتوقع ذلك من العقاد ، أو لأنه لم يخبرنى بذلك رغم اتصالى به كل يوم . . وتضايقت . وانتظرت أن يكتب العقاد شيئا فأنتقده أو أهاجمه . أو أضايقه . وإن كان يعز على ذلك !

وكتب العقاد مقالا عن « مسرح العبث » . ورأيت أن العقاد قد وقع فى غلطة فى اللغة اليونانية . ومن المؤكد أن العقاد لا يعرف اللغة اليونانية التى درستها . وأعددت مقالا أرد به على العقاد واستعير بعض عباراته التى يوجهها إلى النقاد إذا أخطأوا . ولكن لم أتصور أن العقاد من الممكن أن يسقط بهذه السهوله . فطلبت عامر العقاد ابن أخيه ، وقلت له : أننى سوف أهاجم الأستاذ بعد أيام . . فقد وقع فى غلطة لغوية . ولن أفوتها له . .

ثم ذكرت له الغلطة .

وبعد دقائق طلبنى عامر العقاد وقال لى : الأستاذ يقول لك احترس . أنت الغلطان .

وسألته : كيف ؟

- لا أعرف . ولكن الأستاذ يقول لك . ويحذرك . . ويطلب إليك قبل أن تكتب أن تعود إلى كتاب كذا صفحة كذا . .

وبسرعة نزلت من المكتب . وعدت إلى البيت . . وأتيت بالكتاب . ووصلت إلى الصفحة التى أشار إليها . . وصرخت فقد كان العقاد على حق !

ومزقت المقاله . وتضايقت . وإن كنت قد استرحت إلى أن العقاد ما يزال هو الرجل العالم الدقيق المتأكد من علمه ، المعتد بعقله الكبير !

وعشرات الأمثلة على ذلك فى هذه العلاقة الغنية التى استمرت أكثر من عشرين عاما أتردد فيها على بيته وقبلها سنوات من القراءة والإعجاب عن بعد لكل ما كتبه فى مجلة « الرسالة » الأدبية . .

وكان العقاد يضحك حزينا وهو يقول : هذه البلد عجيبة يا مولانا . . إذا أرادوا مكافحة الشيوعية نشروا مؤلفاتى . . إذا أرادوا الدعوة إلى الإسلام أعادوا طبع كتبى . . إذا أرادوا أن يرشحوا أحدا لجائزة نوبل ، رشحوا طه حسين ! ولكن هذه الكتب التى ألفها العقاد قد عادت عليه بمال كثير ، يبدده فى شراء الكتب أيضا . وكنا نتسابق فى ذلك . فكنت أمر على المكتبات أسأل عن كتب جديدة ، فكان يقال : جاء الأستاذ العقاد وأخذ كل صناديق الكتب الجديدة إلى بيته . وسوف يختار منها ما يعجبه وتعود إلينا الصناديق . فتعال بعد غد .

وفى إحدى المرات ذهبت إلى إحدى المكتبات فى نفس اللحظة التى جاءت فيها الكتب الجديدة . وفى ذلك الوقت كنت مشغولا بالفلسفة الوجودية . . وكانت مؤلفات الفيلسوف الوجودى الدنماركى كير كجورد تصدر تباعا باللغة الانجليزية . وكنت انتظرها واختطفها . وفى ندوة العقاد استدرجته إلى الكلام عن الفلسفة الوجودية وعن هذا الفيلسوف بالذات لكى أقول أمام الحاضرين جميعا إننى حصلت على كتب جديدة مترجمة لم يرها العقاد بعد . وتكلم العقاد عن الفلسفة . وعن الفيلسوف الذى أريد . وهنا أحسست أن فرصتى قد جاءت . فقلت : لقد قرأت له كتابين جديدين ..

وأنا أقصد أن أقول : أننى وجدت له كتابين جديدين لا أعتقد أن الأستاذ قد رآهما بعد !

فقال العقاد : أعرف الكتابين يامولانا . . وكتبا اخرى غيرهما . . ولكن لم يعجبنى . .

ومضى يشرح ما الذى أعجبه وما الذى لم يعجبه من الكتب . ولابد أنه قد لاحظ شيئا من عدم التصديق فى عينى . ولذلك نادى بأعلى صوته : يا ابراهيم . . هات الكتب الملقاة على السرير !

وجاء خادمه ابراهيم بكل الكتب . .

وكانت الترجمة الكاملة لجميع مؤلفات الفيلسوف الوجودى الدنماركى ، ولم أكن أعرف إلا نصفها !

وعندما ألف العقاد كتابه عن « أبى نواس » احتاج إلى بعض المخطوطات القديمة اشتراها من ايران وكلفته مئات الجنيهات . وربما نقل العقاد من هذه المخطوطات عبارة أو عبارتين . ولكن الدقة هى التى تهم . أما الفلوس فإنها

لا تهم . . وهذا الكتاب لم يعجب طه حسين . . وأخبرنا بذلك . . وقلت للعقاد : أن طه حسين يرى أن كتابك هذا عبارة عن ترجمة عربية لكل فلسفة فرويد لسلوك الشاعر العربى !

وغضب العقاد وقال : بل طه حسين نفسه هو واحد من الأمراض النفسية عند فرويد !!

وكاد هذا الكتاب أن ينسف العلاقة بين الأستاذ العقاد وبينى . فعندما صدر هذا الكتاب طلب منى الصديق حلمي مراد أن ألخصه في مجلة ، كتابى ، ولخصت الكتاب فى حوالى أربعين صفحة . وقرأها العقاد وأعجبته جدا . وقال لى : لو لخصت كتابى بقلمى ما فعلت أحسن مما فعلت !

ولكن الذى لم يدركه العقاد هو أننى كنت فى بداية مشروع هو كتابة مؤلفات العقاد ، أو بعضها ، بعبارة سهلة . فالعقاد أسلوبه صعب فى بعض الأحيان . . ويستخدم كلمات غير مألوفة . وقلت للعقاد : إننى سوف أحاول تلخيص بعض كتبك . . أو ، تيسير ، عبارتها . .

ولم أكمل هذه الجملة حتى ثار العقاد . ورأى أن هذا الذى أقوم به هو قضاء على ملامح الأسلوب العقادى وطمس لشخصيته . . وإنما إذا كان الغرض هو تيسير القراءة فلا مانع . . ولكن تيسير الأسلوب وتغييرة فهناك ألف مانع !

واشكر للعقاد ثورته هذه . والا كنت قد أضعت سنوات من عمرى أقدم العقاد سهلا للناس ، أقدمه هو وأتوارى أنا . .

وفى ذلك الوقت رنت فى ذاكرتى عبارة استنكار لكامل الشناوى . فقد كان من عادة كامل الشناوى أن يروى شعر أمير الشعراء أحمد شوقى ، وأن يلقيه فى الندوات . وكان الناس يحبون صوت كامل الشناوى فى الالقاء . . ولكن انسحب كامل الشناوى . . ووجد أن هذا النوع من العمل ليس إلا تقديما لشوقى وتأخيرا له ، وإنكاراً لشاعريته هو . . ولو عاش مقرئا أو منشدا لشعر شوقى ، لاعتاد الناس أن يسمعوه يردد كلام غيره لا كلامه . . وابتعدت تماما عن تسهيل العقاد . . أو تقريبه إلى الناس .

وكانت للعقاد قاعدة لا يحيد عنها : فهو يشترك فى اللجان التى يتقاضى عنها مرتبا شهريا . ولا يشترك فى اللجان التى يتقاضى عنها مكافأة كلما حضر .

وكان يقول : هذه اللجان التى تدفع لى مكافأة كلما حضرت . أنا حر أن أحضر أو لا أحضر . وأنا غالبا لا أذهب .

أما اللجان التى يتقاضى عنها مرتبا شهريا . فلابد أن يحضرها ... على عكس طه حسين وتوفيق الحكيم . . وعشرات من الأعضاء .

ولم تكن للعقاد موارد مادية كثيرة . والذي كان يتقاضاه كان يشترى به الكتب . . وما تبقى ينفقه على عشرين أسرة صديقة فقيرة . وعندما مات العقاد وجدنا فى خزانته الخالية أسماء الأصدقاء الذين مال عليهم الزمن ، وحاول العقاد أن يحميهم من الهوان . .

وعندما مرض العقاد توقف عن الكتابة لجريدة « الاخبار » . ولم يكن يتقاضى مرتبا شهريا . وإنما كان يتقاضى أجراً بعدد المقالات . ولم نعرف كيف نعين العقاد على مرضه .

وذهبت إلى الأستاذ مصطفى أمين أحكى له ظروف العقاد . فأرسل إليه مصطفى أمين خطابا يقول له فيه : إنه شرف عظيم لمؤسسة أخبار اليوم أن يكون العقاد كاتبها . وإن أخبار اليوم قررت أن تعين العقاد بمرتب شهرى وأن تدفع له مرتبه مقدما وتتمنى له الشفاء وتنتظر مقالاته ، كما تنتظر رؤيته ، بشوق عظيم واحترام أعظم .

وأخذت الخطاب إلى العقاد فى بيته . ولكن العقاد اعتذر عن الفلوس وعن الكتابة !

وعندما ثقل المرض على العقاد زاره ابراهيم باشا عبد الهادى . وجلس على طرف السرير وترك مجلة أمريكية . ولما مد العقاد يده يرى المجلة تساقطت منها مئات الجنيهات . وصرخ العقاد يقول : خذوا هذه المجلة والفلوس واعطوها لدولة الباشا مع الشكر !

وعندما أعددت حديثا للعقاد فى التليفزيون دفع له التليفزيون مائتى جنيه . ونشرت « الأخبار » أن « الأستاذ العقاد قد تقاضى مبلغ ٢٠٠ جنيه عن حديثه فى التليفزيون ! » .

وغضب العقاد جدا . وطلبنى فى اليوم التالى وهو يقول : وهل كثير هذا المبلغ على رجل مثلى أمضى من عمره ستين عاما فى القراءة والكتابة .. هل كثير على العقاد فى بلد كهذا أن يتقاضى هذه الأجرة مرة فى عمره .. إن أحقر راقصة تتقاضى هذا المبلغ فى هزة أو هزتين ..

فقلت له فى دهشة : ولكن أحدا يا أستاذ لم يقل شيئا من ذلك . لا أحد . بل إن الناس جميعا أسعدهم أن يسمعوك وأن يروك ..

- يا سيدى إن الفلوس لا تهم العقاد . ولم تشغل العقاد .

- ولكن من الذى قال ذلك !

- اقرأ جريدة « الأخبار » يا مولانا .. إنها نشرت الخبر ووضعت فى نهايته علامة تعجب ! علامة تعجب من ماذا !؟ بل إن هذا هو الشىء الذى يدعو إلى العجب !

وتعبت فى إقناع العقاد أننا نسرف فى وضع علامات التعجب بلا مناسبة . حتى لم تعد هذه العلامات إلا عادة أو مجرد بديل عن النقطة الواحدة فى نهاية الكلام . بل إننا لم نعد نستخدم النقطة الواحدة إننا نستخدم النقط الكثيرة هكذا .... فكأن هذه النقط هى علامات تعجب انكسرت عندما وقعت على السطر !

وقبل ذلك عندما صدرت مجلة « الشهر » التى رأس تحريرها الأستاذ أحمد الصاوى محمد . وكنت مع حسن فؤاد وعبد السلام الشريف كل هيئة التحرير فيها . وكان يملك هذه المجلة الأستاذ حامد العبد زوج السيدة لطيفة العبد ، فطلبت من العقاد أن يكتب لنا مقالا طويلا . وسألنى : كم يكون طوله : فقلت له : عشرون صفحة . قال : وهو كذلك يا مولانا !

وكان يستخدم كلمة « مولانا » لكل الناس وعليك أن تفسرها على هواك : إحتراما واحتقارا .

وسلمنى العقاد مقاله وكان عن « الوجودية » .. هجوما عنيفا عليها ، فى الموعد المحدد . وأسعدنا المقال أن يكتبه العقاد . وإن لم يكن قد أسعدنى كل ما جاء فى المقال ، ففى ذلك الوقت كنت أدعو للفلسفة الوجودية وأقوم بتدريسها فى الجامعة . وأصدرت عنها أول كتاب سهل فى اللغة العربية . وبعت منه أكثر من مائة ألف نسخة فى سنة ١٩٥١ ..

وقررت المجلة أن تدفع للعقاد ثلاثين جنيها عن المقال . ورأيت أن هذا المبلغ قليل جدا . وخشيت أن أعطيه للعقاد فيغضب . وخشيت أيضا أن أبعث به مع أحد الأصدقاء فيغضب أكثر . فذهبت للسيدة لطيفة العبد ، وطلبت منها

أن ترفع مكافأة العقاد ، لأنه العقاد .. ولأنه شرف عظيم لنا جميعا أن يكتب العقاد .. وأمسكت القلم وغيرت فى الرقم فجعلته خمسة وثلاثين جنيها . وقابلت الأستاذ العقاد وأعطيته الشيك . ووضعه فى جيبه . وسألنى إن كان عندى مانع فى أن أرافقه إلى البنك . فقلت : يسعدنى يا أستاذ .

وسرنا معا . وذهبنا إلى البنك . وأمسك العقاد الشيك ووقعه . وأعطاه لصراف البنك . وقلب الرجل فى الشيك واحمر وجهه . ثم توارى . وعاد يتصبب عرقا وهو يقول : مع احترامى العظيم لك يا أستاذ ولكن الشيك فيه تغيير . والسيدة التى غيرت فى الشيك لم توقع مرة أخرى بجوار هذا التغيير .. طبعا حضرتك الأستاذ العقاد وكلنا معجبون بك . ولكنه الروتين يا أستاذ .

وغضب العقاد ، ولم أجد رأسى فوق كتفى . وبسرعة امتدت يد العقاد وتحول الشيك إلى قطع تشبه ريش عصفور أبيض انفجرت فيه قنبلة .. وافترقنا عند باب البنك . ولم أعرف بالضبط ما الذى حدث .. وذهبت فورا إلى السيدة لطيفة العبد . ورويت لها ما حدث . ولا أعرف إن كانت السيدة قد اهتزت لما أقول . ولابد أنها أشفقت تماما على هذا الشاب الصغير الذى أصيب فى عزيز لديه .. واقترحت أن تعطيه خمسين جنيها بلا شيك . ووافقت . ثم ترددت . فقد خشيت أن يظن العقاد أن هذه الأموال قد جمعناها من جيوبنا نحن الذين نحبه .. أو أنها كانت أكبر أو كانت أقل . ووافقت السيدة على كتابة شيك آخر ذهبت به إلى العقاد فى بيته .. وكانت الساعة التاسعة مساء . وكان الأستاذ نائما . فحمدت الله . وتركت الشيك ، وأنا مطمئن أن الأستاذ لم يغضب إلى درجة تمنعه من النوم المبكر !

• • •

وكنت أداعب العقاد وأقول له : يجب أن تغير هذا البيت الذى تسكنه ياأستاذ !

وكان يسأل : ولماذا يا مولانا ؟!

فلم يكن من الصعب أن أقول له : إنه ضيق . وقديم . وغير صحى ..

وكان العقاد يقول : إنه تغير على هذا البيت ستة من الملاك . والعقاد باق .
وكان يقول : ولكن هذا البيت له مزايا فلكية .. فالهواء يدخل من هنا ..

والشمس تجيء من هنا .. وفى الشتاء أذهب إلى هذه الغرفة .. وفى الصيف أجلس هنا .. وعند تعامد الشمس على مدار السرطان ومدار الجدى وخط الاستواء .. وأشياء كثيرة يقولها العقاد تقنعك بأنه ليس فى الدنيا أحسن ولا أجمل من هذا البيت !

ولم أكن أراه كذلك . فكنت أقول له : هل صحيح مايقال من أن فى هذه الشقة غرفة أستأجرها البواب .

- من قال ذلك ؟

- سمعت .. وأن البواب قد ملأها بالصفائح والكراكيب .

- لم يقل ذلك أحد غيرك !

وكنت أقول له : ياأستاذ هل معقول أنك تسكن فى بيت .. به أول وابور جاز دخل مصر ، وآخر كتاب عن الصواريخ ؟

وكان يضحك ولا يرد . فهو حريص على البيت لمزايا فلكية . وهذا يكفى !

وفى غرفة نومه كل الاحذية الواسعة .. وهذا هو الشيء الذى أختلف فيه مع العقاد . فأنا لا أطيق أن أرى حذاء فى غرفة النوم . وإنما كل الأحذية والشباشب بروائحها وترابها يجب أن تكون بعيدة . ومن المناظر التى تؤذينى وتدهشنى أن أجد فى الافلام واحدا جاء ينام فألقى بحذائه وخلع جوربه ووضعه فى الحذاء وترك الاثنين إلى جوار السرير . وأرى أن المشكلة هنا هى مشكلة سينمائية .. فالمخرج لا يريد الممثل أن يذهب بعيدا عن الموقع الذى يتم تصويره فيه .. فهى عادات سيئة قد حتمها الإخراج وضرورة اختصار حركات الممثلين والممثلات أمام الكاميرا .. وربما كان عذر العقاد أن كل أحذيته واسعة جدا مثل ملابسه .. وأن المسافات التى يمشيها قصيرة .. فلا يكون للأحذية رائحة كريهة .. أو لعل البيت كله قد ضاق بالكتب ، أو لعل أحدا من الذين يخدمون العقاد من الحفاة ويرون فى فصل الحذاء عن السرير عن الجورب نوعا من الترف ، كما أن العقاد مشغول برأسه عن قدميه !

وكان العقاد يعالج نفسه تماما كما يفكر فى نفسه . ولا يجد العقاد فارقا بين الورقة يكتبها والروشتة ... يكتبها أيضا . فلما مرض العقاد وتقلب على جنبيه

يشكو من ألم هنا وهناك . عرضت عليه أن آتى له بأستاذ الجراحة فى قصر العينى د . جمال بحيرى . فوافق . وذهب د . جمال بحيرى يسمع من العقاد وهو يصف مرضه . ويشخصه . ويروى له كيف عالج نفسه . وكيف أنه لأسباب طبية يعرفها العقاد قد قام بتنويع الأدوية ..

وكان د . جمال بحيرى يهز رأسه يوافق على ما يقوله العقاد . ولما خرجنا . سألت د . بحيرى إن كان الذى قاله العقاد صحيحا أو دقيقا . فقال : منتهى الدقة . إنه يتحدث كما لو كان أحسن طبيب باطنى !

ويبدو أن العقاد قد حرص على أن يكون الطبيب للعقاد أيضا . ولم يغير هذا الموقف : أن يكون هو الطبيب والمريض معا .. ولم يفلح أحد فى إقناعه بغير ذلك . هل هو عناد العقاد ؟ هل هو علم العقاد ؟ هل هو عدم ثقة العقاد بالاطباء .؟

على كل حال إنه العقاد الطبيب الذى قتل العقاد الأديب .!

والعقاد كان مشغولا عن البيت الذى يسكنه بالمعانى التى ترد على رأسه وهو يفكر فيه طالعا ونازلا . ففى كتابه « فى بيتى » يقول عن السلم الذى يرتقيه كل يوم : « كنت أصعده ثلاثا ثلاثا .. واليوم أصعده واحدة واحدة .. كنت أصعده وبياض شعرى يتوارى فى سواده ، واليوم أصعده وسواد شعرى يتوارى فى بياضه .. » ولم يغير البيت !

★ ★ ★

وكان العقاد إذا غضب يقول : عندما يحاسبنى الله يوم القيامة فإننى أقول له كيف تحاسبنى وقد خلقتنى فى عصر فلان من الناس !

وهذا الفلان يكون زعيما أو وزيرا أو كاتبا ، على حسب الظروف !

★ ★ ★

ولا نهاية لما يمكن أن أقوله عن العقاد كاتبا وأستاذا وصديقا وفنانا رفيعا ومحبا للنكتة ومهذبا وقارئا ..

وفى كل ندوة للعقاد كان هو وحده يملؤها بكل أنواع المعرفة . ويملؤك أنت أيضا . عقلك وقلبك . وأحلامك . ويرصف الطريق الى بيتك . وفى

فراشك يعلو رأسك إلى السقف وتظل هناك سعيدا بأن تنظر إلى إنسان قد إرتقى وعلا .. ألم يكن فى ندوة العقاد .. فى ندوة بها أكثر من واحد يحمل إسم العقاد .. إنه هيئة . إنه رابطة . إنه مؤتمر .. إذا جلس فلا تقل إنه جلس . وإنما قل : إن العقاد قد انعقد بكامل هيئته . وكل جلسة يتكامل فيها العدد القانونى . وكل رأى هو رأى الأغلبية : الشاعر والناقد والمؤرخ والفيلسوف والمصلح والسياسى ورجل الدين والمصرى وابن البلد وابن النكتة . إنهم جميعا : عباس محمود العقاد !



واتسعت الدنيا وتلونت
ووجدتني مواطنا عالميا

واتسعت الدنيا وتلونت، ووجدتني مواطناً عالمياً

كان الخوف أقوى مشاعرى فى كل مراحل الطفولة .. وعندما أصبحت شابا صار القلق .. وعندما صرت رجلا أصبح الشك .. فقد كنت أتصور دائما أن الخوف أمام الباب .. ولذلك يجب ألا أفتح الباب .. ألا أخرج ليلا .. وكانت أمى تقول : العفاريت .. الذئاب .. الغجر يخطفونك ويذبحونك ويصنعون من دمك كعكا ..

وكنت أخاف من الليل والسير فى الحقول .. وإذا نمت غطيت وجهى وذراعى وساقى فلا يظهر منى شىء حتى لا تلمسه العفاريت .. وإذا سرت فى الشارع ووجدت رجلا معه قرد وحمار فهو غجرى وهو الذى يخطف الأطفال ويذبحهم ..

وفى هذه السن المبكرة لم أناقش هذه المخاوف مع أحد .. ولا شككت فيها لحظة واحدة .. ولذلك فأنا أعود إلى البيت بسرعة قبل غروب الشمس .. وكنت أندهش عندما أرى الأطفال يلعبون كرة القدم فى الليل فى ضوء البيوت وأحيانا فى ضوء القمر .. ولكنى لا أفكر لماذا لا يخافون ..

وبسرعة أجد الجواب عند أمى : إنهم أبناء البلد .. أما نحن فغرباء ..

أى أن العفاريت تطارد الغرباء .. وهى تطارد الغرباء لأنهم يمشون واحدا واحدا .. ولا يمشون مجموعات كبيرة . ولما كنت وحدى فلابد أن أخاف على نفسى . وكنت أخاف .. وكنت أرى من النافذة وأحيانا من ثقب الباب أشباحا تروح وتجىء .. وأحيانا أسمع أصواتا .. أما الخربشة فى الشباك ، فهى إما عفاريت وإما بعض الذئاب والثعالب تريد أن تلتهم الدجاج فوق السطح .. وقد رأيت الذئاب والثعالب والثعابين فى بيتنا .. هذه حقيقة .. ولم أستطع أن أعرف إن كانت هذه ثعالب حقيقية أو هى عفاريت إتخذت شكل هذه الحيوانات ..

وفى يوم لا أنساه فى ساعة متأخرة سمعت طرقات على الباب . ولم أجرؤ أن أخرج رأسى من تحت الغطاء .. ولا استطعت أن أوقظ أمى .. وانتقلت الطرقات من الباب إلى النافذة . وصحت أمى . وكان والدى .. وقد دفعنى الخوف الشديد إلى النوم العميق . وعندما صحوت لم أستطع أن أرفع رأسى من تحت الغطاء .. وظللت كذلك حتى إنتصف النهار .. فكلما حاولت أن أصحو لم أجد صوتا حولى .. وفى ذلك اليوم ظن والدى أننى مريض .. وقد أكد له صحة ذلك الاستنتاج أن وجهى كان أصفر .. ولم أقل له أننى كنت خائفا .. وقد ظن أننى لا أريد أن أذهب إلى المدرسة .. فهذا أول يوم فى العام الدراسى !

وكنت فى العاشرة من عمرى .. وكنت أمسك أى كتاب وأقلب صفحاته .. وأقرأ . ولا يهم أننى أفهم . ولكن اعتدت على ذلك . وأكثر الكتب لوالدى ، ولذلك لم أستطع أن أفهمها .. إلا كتابا واحدا .. هو رحلة ، ابن بطوطة ، وكان هذا الكتاب هو أعظم وأروع كتاب فى حياتى .. لم أفهم منه الكثير . ولكن كل الذى استطعت أن أعرفه من والدى أن ابن بطوطة رجل سافر إلى كل الدنيا وحده .. ورأى عجائب الكائنات والعادات . وسمعت حكايات من والدى ولكن احتفظت بالكتاب لأقرأه بعد ذلك بعام . ثم أعاود قراءته مرات بعد ذلك ..

وكان عالمى محدودا جدا .. لا أحاول أن أجعله أكبر وأوسع .. فأنا إذا سرت فى شارع فإننى لا أعرفه .. وإذا عرفت بقالا أشترى منه ، فهو واحد .. لم تكن عندى هذه الرغبة ولا هذه القدرة ، على أن أغامر بمعرفة شىء جديد أو أحد جديد .. كأننى مربوط بحبل .. وعلى قدر هذا الحبل فإننى أتحرك . والغريب أن هذا الحبل من صنعى أو من صنع ظروفى .. بل لست مربوطا بحبل فقط .. وإنما كأننى أمشى تحت الأرض فى نفق له أول وله آخر .. لا أخرج عنه .. ولا أرى غيره .. بل إننى لا أرفع رأسى لا أرى الجانب العلوى من الشوارع أو البيوت .. ولا أرى إلا جانبا واحدا من الشارع .. وإذا ذهبت إلى البقال وقفت فى نفس المكان الذى اعتدت أن أقف فيه .. ثم إننى أتحدث إلى بائع واحد ، فإذا لم أجد هذا البائع وظهر واحد آخر .. فإننى أرتبك .. وأحيانا أعود إلى البيت وأقول لوالدتى : ليس عندهم سكر الآن .. ربما بعد ساعة .. أو غدا !

وأهم ما فى هذا الشارع كان عسكرى المرور . فعلى النيل توجد خيمة . وهذه الخيمة ينام تحتها رجال المرور . ولكن واحدا منهم قد وضع دفترا على منضدة . ثم هو يسجل السيارات المتجهة يمينا وشمالا .. فيكتب : فورد رقم ٧٩ ملاكى اسكندرية الساعة التاسعة و ١٥ دقيقة .. وكنت مبهوراً بعسكرى المرور . وكنت أنظر إليه بإعجاب . ويزداد إعجابى به عندما يشير إلى السيارة ، أية سيارة أن تقف . وكانت تقف . وطلبت من عسكرى المرور أن أؤدى هذا العمل عنه ، ريثما يصنع القهوة أو الشاى أو يحلق ذقنه . وكانت ساعات من أروع ساعات حياتى . فأنا أقف وقد ارتديت الجلباب والقبقاب والطاقية وأؤدى هذا العمل الجليل ..

ولم يكن الذى يبهرنى هو الوقوف هكذا .. ولا تسجيل البيانات .. وإنما منظر السيارات تظهر صغيرة ثم تكبر ثم تتوقف .. السيارات لامعة .. والناس ينظرون من وراء الزجاج اللامع .. وتمضى السيارات وتصغر وتختفى .. جاءت من مكان بعيد ، وذهبت إلى مكان بعيد .. من المجهول إلى المجهول .. وشكل كاوتش السيارة .. مغسول لامع .. مستدير دائر .. وأحيانا تثير وراءها ترابا ودخانا .. والناس وراء الزجاج بالبدل والقمصان والسيدات بالملابس الملونة والأطفال الصغار وأحيانا الكلاب .. شىء غريب عجيب .. إنه عرض يومى مستمر .. أنظر إليه مسحورا مبهورا .. كل شىء يتحرك بسرعة من هنا إلى هناك .. وأحيانا تتوقف السيارات لشراء الفاكهة أو سندوتشات الفول . أو لإلقاء أكياس من الورق الملون اللامع .. وعندما يتقدم إليهم الشحاتون ، فإنهم يعطفون بالقرش والقرشين دون أن يشتموا أو يضربوا الشحاتين .. وإذا ألقوا ، أعقاب ، السجائر فإنهم يدوسونها بأحذية جديدة لامعة .. بل إننى رأيت سيدة تدخن وقد أدهشنى ذلك تماما ..

وكنت أرى اللوريات يغسلونها بينما السائقون يشربون الشاى أو يضحكون أو يتشاجرون .. ثم تتحرك اللوريات بعيدا إلى مدن أخرى .. وكنت أقترب من السيارة وأنظر فى داخلها إلى الدريكسيون ولا أعرف ما هذا .. وأنظر إلى عدادات ومفاتيح ولا أفهم .. وأسمع صوت الموتور يدور .. ثم يعلو ويعلو ويندفع كأنه فى حالة غضب .. كأن للسيارة عقلا وقلبا .. شىء عجيب حقا ..

ووراءنا النيل قد امتلأ بالسفن الشراعية .. وعلى السفن توجد نيران فوقها

حلل الطعام . وسيدات يطبخن أما الرجال يصلحون أشرعة السفن . وأحيانا ينزلون إلى الشاطىء يجرون السفن الشراعية .. وتتعالى أصوات المراكبية ويصرخون .. حركة فى النيل وعلى الشاطىء .. أناس كلهم على سفر .. يتحركون .. ليسوا مربوطين ولا جامدين وليسوا خائفين أيضا ..

ومن المناظر التى كنت أحب أن أراها تزاحم السفن عند الكبارى فى انتظار أن ينفتح لتستأنف مسيرتها .. وكذلك تزاحم السيارات واللوريات وعربات الكارو .. هذا الزحام ، هذا التحفز .. هذا الاتجاه .. صحيح أنه زحام ولكن كل واحد له طريق وكل طريق له هدف .. وكلهم يتحركون بعيدا .. أو جاءوا من بعيد .. هناك مسافات لا نهاية لها ..

ودون تفكير منى أو من زميلى فى المدرسة وكان ابن العمدة تسللنا إلى إحدى المراكب فى النيل .. نريد أن نذهب بعيدا .. نريد أن نعرف .. وتوارينا بين شوالات القمح .. وجاء الليل تولانا الفزع فرحنا نبكى نحن الإثنين .. وكان شتاءً بارداً .. وتعالت أصواتنا بالبكاء .. واكتشفت المراكبية وجودنا . وأول ما تبادر إليهم أننا لصوص .. وعندما نظروا إلى ملابسنا وإلى كتب معنا .. راحوا يسألوننا عن السبب .. وعندما طلع النهار ، أنزلونا وأشاروا أن نمشى على النيل فى هذا الاتجاه لنجد أنفسنا فى بيوتنا بعد ساعات ..

وأحزننى ما صار إليه حال أمى من البكاء . ولا أعرف كيف اعتذرت لها . ولا كيف قبلت اعتذارى . ولكن رغم هذا الحزن فقد كانت مغامرة حكيتها كثيرا لزملائى فى المدرسة وأضفت إليها من خيالى ما يجعلها إحدى المغامرات . بل إننى كنت أقول لهم : ووجدنا أناسا لهم ذيل .. وأناسا يأكلون الأطفال الصغار ؟!

وكان زملائى يسألوننى : وأين ذلك .. ومتى حدث ؟

وكنت أقول : فى النيل .. حتى اسألوا فلانا ..

وفلان هذا هو ابن العمدة الذى رافقنى فى هذه المغامرة . وكان يقول أيضا ويتوهم أحداثا . ومن معارضة الزملاء وسخرية المدرسين والفراشين ، لم نعد نروى هذه الحوادث الخيالية ..

وفى يوم وجدت سيدة غجرية فى بيتنا .. إنها حمراء اللون وقد صبغت شفتيها باللون الأزرق ويتدلى من أنفها قرط كبير .. ومن أذنيها أيضا .. وفى

.. عيها أساور من ذهب .. وقد جلست على الأرض .. ونشرت قطعة من القماش فوقها رمل . وكانت تضرب الودع لوالدتي . أى تشوف بختها .

ويبدو أن والدتي أحست بدهشتي ، فهي التي كانت تخيفني من الغجر الذين يخطفون الأطفال . فلابد أن تقول لي شيئا عن سبب وجود هذه الغجرية . ولما كانت لا تريد ذلك ، طلبت مني أن أدخل وأن أقفل الباب ورائي .. أو أخرج لألعب أمام البيت . ودخلت وأقفلت الباب .. ثم فتحته قليلا لأسمع ما يدور بين السيدتين .. ولم أفهم .. ولكن لاحظت أن والدتي أعطتها فلوسا . وأن الغجرية وعدتها بشيء ما سوف تأتي به بعد غد .. ولم أر فزعا أو ضيقا على وجه والدتي .. واعتدت أن أرى هذه السيدة كثيرا في بيتنا .. تشترى وتبيع الدجاج والبيض والمناديل والقمصان والأساور .

وزارنا أحد أقاربي كان يعيش في الإسكندرية . وجلست مسحورا إلى جواره أسمعه يتحدث عن البحر والخواجات . والسفن الكبيرة التي تنقل البضائع .. وعن أسماء غريبة : مخالي .. ويني .. وريشارسون .. والخواجة ألفونس .. والسيدة فكتوريا .. وكيف أنهم لا يكذبون وأن بيوتهم نظيفة .. وأنهم لا ينسون الأعياد .. وأنهم يأكلون لحم الخنزير .. وأنهم يشربون النبيذ والبيرة .. وأنهم يذهبون إلى الكنيسة كل يوم أحد .. وألغاز وأسرار كانت تهزني وتفتح عيني .. وتجعلني لا أريد طعاما ولا شرابا ولا نوما .. وإنما فقط أن أسمع إلى ما يقوله قريبي .. وكنت أنظر إلى يديه وقدميه .. وأصابعه وعينيه وملابسه .. متوقعا أن أجد شيئا غير مألوف ..

وعندما سألته : وهل يذبحون الأطفال ؟

ضحك وقال : ليس في مصر .. في إفريقيا ؟

يقصد أن شيئا من ذلك لا يحدث في بلادنا . ولكن في بلاد أخرى . ولم أسأل ولم أفهم .

وسأل عن الكتب التي أقرؤها أو من الناس الذين أجلس معهم . وعرف أنني أحاول أن أقرأ رحلات ابن بطوطة ..

وكنت أحب كثيرا جدا أن أتسلل إلى زورق صغير يربطونه بالسفن الشراعية . وأجلس فيه والموج يعلو ويهبط وأنظر إلى ظلال السفن على الماء .. وإلى المراكبية يخلعون ملابسهم ويغطسون تحت السفن .. ويظهرون

عراة تماما .. ثم يرتدون ملابسهم .. ليخلعوها ويلقوا بأنفسهم فى النيل .. ويربطون السفن فى الشاطىء .. إلى الأشجار أو إلى أعمدة من الحديد يدقونها فى الأرض .. وأحيانا يأتون بحمار يجر السفينة .. وأحيانا بحصان أو بثلاثة من الرجال .. وفى يوم أعطانى واحد منهم رغيفا ساخنا . وطلب منى أن آكل معه .. وأكلت . وعندما حكيت هذه القصة لوالدتى ، صفعتنى بشدة قائلة : ماذا يقول عنك الناس ؟ جائع لا يجد طعاما فى بيته ؟!

وفى إحدى المرات جلست فى الزورق الذى راح يهتز .. فجأة وجدت نفسى فى الماء .. أعلو وأهبط وأصرخ .. حتى أخرجونى من الماء .. هل غلبنى النوم ؟ هل هى رغبة عميقة فى أن أعوم ؟ فى أن أقلد هؤلاء المراكبية .. وكان ذلك آخر عهدى بالماء .. فظللت بعدها لا أنزل الماء ولا أحاول . ولا تعلمت السباحة ولا نجح أحد فى أن يعلمنى السباحة !

بسرعة بدأت علاقتى بالماء أو بالاقتراب منه ، وبسرعة إنتهت . كأنه مكتوب ألا أقترب من شاطىء نهر أو بحر .. إنتهى . وكانت تجربة أليمة سريعة . وعندما خرجت من الماء . لم يكن عندى سوى خوف واحد . ماذا أفعل بملابسى التى ابتلت . وما الذى سوف تفعله أمى . وبسرعة وجدتنى نصف عريان وقد نشروا ملابسى على حبل فى الشمس . وجفت ملابسى . وعندما عدت إلى البيت رويت لأمى كيف أن أحد زملائى كان فى زورق وغلبه النوم فوقع فى النيل .. ولكنهم أنقذوه . فصفعتنى عدة مرات بشدة وطلبت ألا ألتقى به بعد اليوم .. فربما حدث لى ما هو أسوأ من ذلك ، فأغرق وأموت !

• • •

وفى مواجهة هذا العالم ، هذه الدنيا الصغيرة المخيفة ، كان لابد أن أحمى نفسى .. فاخترعت مجموعة من الأوهام والأكاذيب ..

فإذا لاحظ زملائى أننى أسرع إلى البيت قبل أن تغرب الشمس قلت : إن والدتى مريضة وأنا الذى أطهو لها الطعام وأعطيها الدواء ..

وإذا لم أشارك فى اللعب مع الأطفال إدعيت أن قدمى توجعنى .. وأننى أدوخ من الوقوف فى الشمس .. وإذا طلب أحد الزملاء أن يزورنى فى البيت لنذاكر معا ، قلت أننى أنام مبكرا ..

وإذا كان أحد يأكل فاكهة أو سندوتشا مثلا وقدم لى قطعة منه قلت : إنها تحدث لى مغصا .. أو أننى مصاب بإسهال ..

وفى يوم جاءنى أحد الزملاء ليلا ولم تكن والدتى بالبيت وراح يدق الباب .. وقال : إفتح ..

قلت : ماما ليست موجودة ..

قال : وإيه يعنى !

قلت : عندنا كلب ، سوف يهجم عليك ويمزق ملابسك .. غدا صباحا .. أو فى المدرسة نلتقى !

ولم يكن عندنا كلب ..

ووجدت الزملاء قد تباعدوا .. وأنا لا أحاول أن أقترب من أحد .. وإذا حاولت فإنهم لا يبالون بذلك .. ويسخرون قائلين : إجر يا شاطر على أمك !

وفى يوم زارتنا والدة أحد الزملاء وطلبت من والدتى أن أحضر إحتفال عيد ميلاد إبنها . ووافقت والدتى بسرعة فقالت لها السيدة : ولكنه يقول لزملائه فى المدرسة أنك تضربينه ليلا ونهارا ولأتفه الأسباب ..

ولكن والدتى وافقت . وخرجت مع والدة زميلى . وكان لابد أن أعود إلى البيت وحدى ليلا .. وكانت تجربة مروعة . لا أعرف تفاصيلها . وكل الذى أذكره أننى لم أشعر بنفسى ولا بالطريق .. وإنما كنت أسير على الأرض أو فوقها .. فأنا لم أشعر إلا بأننى أدق باب بيتنا .. وإلا أن الباب انفتح .. وإلا أننى أرتدى فردة جزمة واحدة .. ورويت قصصا من بينها أن الذئب طاردنى . وأنه حاول أن يأكلنى من قدمى فخرجت الجزمة من بين أنيابه ..

والمعنى : حمد الله على سلامتى !

ولكن لم تصدقنى والدتى . وكان لابد من الضرب المبرح بسبب إهمالى الشديد ؟!

• • •

ولا أعرف على التحديد متى تخطيت حواجز الخوف والفزع من الناس والليل ومن نزع الغطاء من فوق وجهى صيفا وشتاء ..

ولكن من المؤكد أن كل شيء في حياتي قد تغير عن طريق الكتاب .. فالكتاب هو العالم الذى أفتحه وأقتحمه ليلا ونهارا وأنظر منه إلى الدنيا .. وكانت دنيا الكتاب أوسع وأطول وأعمق وأجمل .. وكل كتاب أقرؤه : نافذة جديدة .. ونور جديد .. وأناس جدد .. وكل كتاب أقرؤه أرتفع به شبرا عن الأرض وعن الناس .. وأصبحت متعتى أن أسأل زملائى إن كانوا قد قرأوا الكتاب الفلانى .. فأجدهم لم يقرأوه .. وتكون سعادتى .. كتابا بعد مائة كتاب بعد ألف كتاب .. ولم أجد أحدا منهم قد سمع عن « ابن بطوطة » ورحلاته .. وبعد ذلك عن ابن جبير .. أما الكابتن كوك فلم يعرفه أحد .. مع أن الكابتن كوك كان مكتوبا فى قصص الأطفال الإنجليز .. والكتاب وجدته بالصدفة .. فقد وجدته عند زميل أمه يونانية .. وكان أحسن التلاميذ جميعا فى اللغة الإنجليزية .. وكان المدرسون يطلبون إليه أن يقرأ وأن يكتب .. لكى نتعلم منه حسن الأداء .. وهو الذى قرأ لى هذا الكتاب الصغير .. وقد نسيت كل الكلمات وكل تفاصيل الرحلات إلا صورة الرجل : طويل عريض ، شعره طويل ذهبى وأنفه وعيناه وبدلته الغريبة : القميص طويل وأكمام القميص تخرج من كم الجاكتة . والجاكتة طويلة جدا وواسعة . والبنطلون ضيق والجزمة لها وردة .. وفى يده ورقة كبيرة ملفوفة والرجل له شخصية قوية .. وله نظرة مضيئة .. وهو ينظر بعيدا .. ووراء الرجل سفينة شراعية ..

بدأ حياته يعمل فى دكان بقالة . والدكان يطل على البحر . وهو اسكتلندى . وكان عندما ينتهى العمل يجلس فوق صخرة وينظر إلى البحر . وفى إحدى المرات غلبه النوم .. ولكنه لم يسقط فى الماء ، وإنما نام على صخرة كبيرة .. وعندما سألته أمه أين أمضى ليلته . قال : إنه نام فوق صخرة مطلة على البحر .

وصدقته أمه ولم يضربه أحد

وسألته : ولكن لماذا يا ولدى ؟

أجاب : أريد أن أكون بحاراً .

قالت أمه : إذهب إلى فلان وهو يعلمك .

وذهب . وترك البقالة واشتغل خادما فى إحدى سفن نقل الفحم . وكان رئيس المركب إذا طلب منه شيئا أداه بسرعة . وبدقة . وإذا سقط شيء فى البحر ،

كي أسبق البحارة إلى إلقاء نفسه في الماء والإتيان بالأشياء المفقودة . وانتقل بعض في سفينة أخرى . وثالثة ورابعة . ثم طلبت إليه إحدى الشركات الملاحية ـ يكون هو قبطان إحدى السفن وكان في العشرين من عمره ..

وقد لاحظ زملاؤه من البحارة أنه يتقدم بسرعة . وأنه شجاع . وأنه مخلص . وأنه يقرأ كثيرا . وأن المركب الذى يقوده إذا وقف إلى جوار شاطىء نزل كل البحارة وذهبوا إلى بيوتهم إلا هو .. فإنه لا يترك المركب . ويظل هناك يأكل ويشرب ويمرح ويقرأ .. وكان يطلب إلى والديه زيارته في المركب . فهو لم يحب الشاطىء .. إنه ابن البحر وسوف يعيش فيه ومن أجله ..

وفي سنة ١٧٦٨ أى عندما كان في الأربعين من عمره قررت الجمعية الملكية أن توفد سفينة إلى جزر تاهيتى لرصد مرور كوكب الزهرة وراء الشمس . وكان ذلك حادثا هاما لن يتكرر إلا بعد مائة سنة . وكان العلماء حريصين على رصد هذا الحادث لمعرفة المسافة بالضبط بين الشمس والأرض ..

وتقدم لهذه المهمة كثيرون ، ولكن الكابتن كوك هو الذى فاز بهذا الشرف العظيم . فقد قدم للجمعية الملكية تقريرا دقيقا كتبه قبل ذلك عندما وصف كسوف الشمس على شبه جزيرة نيوفوندلاند .. لقد كان التقرير دقيقا شاملا وكان أيضا مسحا وافيا لشبه الجزيرة جغرافيا واجتماعيا . وقد رأت الجمعية ـ رجلا لديه هذه الموهبة وعلى الوصف الدقيق ، لقادر أن يقوم بالمهمة .. ولم يكن هو الذى سوف يرصد كوكب الزهرة وإنما عدد كبير من الفلكيين .

وفي يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٧٦٨ خرج على ظهر سفينة جديدة من ميناء بليموث ليصل إلى تاهيتى بعد ثمانية شهور .. ولرصد الظاهرة الفلكية يوم ٣ يونيو سنة ١٧٦٩ .. وكان رصد الظاهرة هو السبب المعلن من هذه الرحلة .

ولكن السبب الأهم هو اكتشاف أستراليا . أى الأرض الجنوبية المجهولة . وأن يضع العلم البريطانى ويضم الأرض الجديدة إلى التاج البريطانى . هذه هى المهمة . وقد اختارت الجمعية الملكية أعظم مكتشف في كل العصور ، فلم يستطع أحد أن يكتشف أرضا بهذا الاتساع في أى وقت .. فهو إكتشف أستراليا ونيوزيلندا وجزر هاواى .. وغيرها من الجزر الصغيرة ..

وكان الكابتن كوك يكتب مذكراته كل يوم وبدقة شديدة . ومن يقرأ مذكراته يخيل إليه أن هذا الرجل لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يمرض .. وكأنه لا يركب سفينة صغيرة وسط الأمواج والعواصف والشعب المرجانية وتمرد البحارة . وإنما كأنه يمشي على الماء ليكتشف أرضا جديدة في ظروف قاسية . وهو لا يشكو ولا يتألم . كأنه يعرف مكانها بالضبط فذهب إليها .. مع أنه لم يكن على يقين من أي شيء .. ولا كانت الخرائط التي معه دقيقة .. ولكن شيئا ما في أعماقه يؤكد له أن الأرض الجديدة هناك في انتظاره ليكتشفها . ولم يسجل لنا حوارا بينه وبين البحارة .. بل إن البحارة عندما كان يعذبهم الجوع والعطش والملل ، فهو يسجل أقوالهم ولكن يرد عليهم ..

وهو الذي إكتشف أن نقص الخضروات والفواكه قد أدى إلى موت كثير من البحارة بمرض الكساح والإسقربوط .. ولم نكن قد عرفنا فيتامين ج الموجود في البرتقال . ولكنه بالملاحظة الدقيقة إكتشف خاصية البرتقال . ولذلك كان يصر على إطعام البحارة خضارا وفواكه طازجة .. فلم يمت من بحارته أحد !

وكان ينام قليلا جدا . كان ينام ساعة واحدة في غرفته الدافئة . وينام ساعات أخرى متقطعة جالسا على ظهر السفينة .. ينام دقيقة ويصحو أخرى .. ولا يعرف إن كان صاحيا أو نائما .. كأنه ينام بعين ويصحو بعين أخرى .. وكان يقول في مذكراته : ساعة واحدة عميقة تكفيني جدا ..

وكان آخر من ينام وآخر من يأكل وآخر من يشرب وأول من يصحو .. وأول من يخلع ملابسه يدور حول السفينة يكتشف ما الذي فعلته الأمواج والعواصف بها ..

وفي إحدى الليالي إستأذن العلماء في أن يكتب خطابا لوالدته . وقرأ عليهم الخطاب القصير : والدتي أحبك وأؤكد حبي لك وإمتناني العظيم . فلولا تشجيعك ما جئت إلى هذا المكان في مهمة جليلة . إن كل عمل أنجح في أدائه فالشكر لك . وإذا كان العمل جليلا . فالشكر لك واجب على التاج البريطاني ..

وقبل أن يسأله العلماء كيف يرسل هذا الخطاب إلى والدته .. كان وضعه في زجاجة وأغلقها وألقى بها في المحيط قائلا : وعدتها بأنني عندما أفرغ من كتابة خطاب لها أن أبعث به فورا !

ثم ضحك . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يضحك فيها !

ثم استأذن العلماء فى كتابة خطاب آخر لوالدته . لأنه قد نسى أن يقول لها شيئا هاما . وجلس يكتب بجدية وهم يضحكون : شيء آخر يا ماما نسيت أن أقوله لك .. لقد قرصت أذنى ، وضربت نفسى قلما بالنيابة عنك ، فقد نسيت أن أنفذ أوامرك فى الصلاة كل يوم أحد .. نسيت أن أصلى وأدعو لك يوم الأحد الماضى .. فليس من السهل أن نتذكر الأيام . معذرة .

ثم وضع الجواب فى زجاجة وألقاها فى المحيط دون أن يضحك هذه المرة !

• • •

وأصبح البحث عن كتب للكابتن كوك من آمالى فى الحياة . وكان أملا صعبا . فقد مضت سنوات طويلة دون أن أعثر على كتاب له أو عنه .. ولكن وجدت كتابا عن (الرحلات البحرية القديمة) من تأليف عبد الرحمن يسرى . وكان كتابا ضخما ومددت يدى وقلبت ووجدت فصولا عن الكابتن كوك .. ووقفت أتصفح الكتاب ثم جلست على الأرض أمام المكتبة وقرأت الكتاب كله فى ساعتين . ونظرت إلى بائع الكتب ووضعته وكأننى سرقت ما فيه . وسألنى الرجل : ألست أنت إبن فلان ؟

قلت : بلى إنه والدى .

فقال الرجل : هذا الكتاب لك !

ولم أنم ليلتى .. جلست أقرأ الكتاب على مهل من أوله لآخره .. وانظر إلى الصور والخرائط .. وأدهشنى أن الكابتن كوك كان هو الآخر يخاف من الليل ومن أمواج البحر . ولكنه تساءل فيما بينه وبين نفسه : ولماذا يكون الليل مخيفا ؟ ما الفرق بين الليل والنهار .

فقرر فى أحد الأيام أن ينام أمام البيت ليلا . وأن يظل مفتوح العينين ليرى ما هذا الذى يجيء فى الليل ويخيف الناس ولا يطلع عليهم بالنهار . فلم يجد شيئا وانتهى الخوف !

أما الذى اكتشفه الكابتن كوك فهو الساحل الشرقى من أستراليا .. وكانت

سفينته تتحطم فى الحاجز المرجانى الممتد ألف كيلومتر .. ولكنه رغم ذلك لم يخف وإنما تفادى الموت والبحارة كلهم نائمون .. فلما طلع النهار أصابهم الرعب .. وتأكدت عظمة الكابتن كوك لديهم ..

واكتشف أيضا جزيرة نيوزيلندا .. ووقفت سفينته على شاطئها . وهاجمه السكان الأصليون وأطلقوا السهام والرماح .. وأطلق عليهم النار .. وقتل منهم عشرات .. ولكن امتلأت سفينته بالفواكه والخضروات .. وهجم البحارة على الفتيات .. وحذرهم من المرض . وبقى هو أعفهم جميعا .

وقال للعلماء على ظهر سفينته : إننى أسمع صوتا غريبا يملأ نفسى ويقول : أمامك مهمة أكبر .. إنها النهاية !

واكتشف جزر هاواى . وكان السكان الأصليون لهذه الجزر ينظرون إليه على أنه إله .. فالأساطير تقول لهم أن الإله سوف يكون طويلا عريضا ويجىء على ظهر جزيرة .. أو سفينة كبيرة كأنها جزيرة .. وواجه السكان الأصليين بقسوة . وكان يستغل تقديسهم له وكان يبالغ فى إبهارهم .. فكان إذا دخن السيجار أمامهم سقطوا ساجدين : إذ كيف يخرج الدخان من فمه ولا يحترق !

وكان يضع يديه فى جيوب البنطلون فيسقطون ساجدين .. إذ كيف يضع يديه فى بطنه ، ثم لا يموت بعد ذلك .

ولما أطلق النار على شيخ القبيلة وأرداه قتيلا ، لم تخفهم النار التى لا يعرفونها ، وإنما أفزعهم وأغضبهم مقتل شيخ القبيلة .. ففقدوا عقولهم وأطلقوا السهام والرماح على رجاله فقتلوا منهم كثيرين .. ثم جاء واحد من ورائه وضرب رأسه .. فسقط على الأرض .. ثم فى الماء ، فانهالت عليه السهام من كل جانب .. ومات يوم ١٣ فبراير سنة ١٧٧٨ عن خمسين عاما !

ونقل جثمانه إلى بريطانيا !

ولم يكن السكان الأصليون يتصورون أنه هو أيضا يمكن إصابته وقتله وموته .. فلما مات هاجموا البحارة والسفينة ونهبوها .. وكان انتصارا عظيما لهم !

وعندما ذهبت إلى جزر هاواى فى أغسطس سنة ١٩٥٩ وقفت فى نفس الأماكن التى وقف الكابتن كوك عندها .. وجاء من يضربنى فوق رأسى ومن

يطلب أن أسقط على الأرض لتنهال السهام إلى آخر ما حدث للمكتشف العظيم !

وعندما ذهبت إلى جزيرة سيلان (سرى لانكا) صعدت إلى قمة آدم .. حيث وقف ابن بطوطة .. وحيث نزل أبونا آدم من السماء .. هكذا تقول الأسطورة .. فوضع قدما فى سيلان وقدما فى عدن فى اليمن .. وكانت قدم آدم كبيرة لدرجة أن التجويف الذى أحدثته فى الأرض ، على شكل قدم ، بحيرة كبيرة !؟

• • •

ولما عدت إلى قراءة كتاب « الرحلات البحرية القديمة » بعد ذلك .. لم أجد فيه شيئا يستحق القراءة .. فالكتاب ردىء الطباعة ردىء الورق .. وليست به صورة وإنما هى لوحات ملونة سيئة .. ثم إن الصورة التى كنت أحتفظ بها للكابتن كوك لم تكن له ، وإنما كانت لممثل سينمائى ليس فى كل إسمه : لا جيمس ولا كوك ولا كابتن . ولا أعرف كيف احتفظت بهذه الصورة سنوات دون أن أنظر إلى الإسم تحت الصورة .. وأسلوب الكتاب ركيك .. ولم أجد معلومة واحدة مفيدة ولا قصة ممتعة . ولا موعظة .. ولا شيئا يشجع التلاميذ فى مثل سنى على القراءة والمغامرة .. والسفر والرحلات ..

ولكننى كنت أقرأ هذا الكتاب بخيالى .. بحبى الشديد .. ورغبتى العارمة فى أن أخرج .. فى أن أحطم عالمى الضيق .. فى القفز من القفص المصنوع من الخوف والقلق والشعور الدائم بالغربة والعزلة .. تماما كما يحاول العصفور أن يهرب من القفص .. وبعد أن يهرب فإنه يقف فوق القفص .. والذى يرى العصفور حائرا صاعدا هابطا ، يخيل إليه أنه إذا انطلق فسوف يظل طائرا حتى يموت فوق السحاب .. ولكنه فقط يريد ألا يكون فى القفص .. ثم يظل مربوطا بغير خيط فوق القفص !

وكذلك أنا ، لم يعجبنى الكتاب ولا ما جاء به .. ولكننى ظللت محتفظا بهذا الكتاب سنوات طويلة .. وحتى عندما وجدت كتابا أكبر عن الرحلات .. وعن الكابتن كوك لم أتخلص من هذا الكتاب القديم .. الذى هو صورة من تجاربى ومن حياتى .. وكيف كانت تبدو الأشياء فى الطفولة .. وقد عثرت على بيتى

فى المنصورة .. ووجدت البيت صغيرا والباب ضيقا والشارع حارة ، وكنت أرى ذلك كله واسعا شاسعا .

ونحن صغار ، كانت الدنيا أكبر منا ، ونحن كبار ، صارت الأشياء أصغر منا ..

وكذلك هذا الكتاب ، بعد أن رأيته صغيرا تافها ، لم أتخلص منه تماما كما لم أتخلص من ملابسى الصغيرة ومذكراتى الساذجة .. إنها صورة منى ومرحلة من تجاربى أتفرج عليها من حين إلى حين ، لأرى كيف كنت وكيف أصبحت ..

ووجدتنى بعد ذلك على سفر دائم ..

واتجهت إلى الخارج . ولم يتسع وقتى لكى أرى أماكن كثيرة من مصر . فأنا رأيت استراليا ، ولم أر دمياط ورأيت كوبا قبل أن أرى رشيد .. وأقمت فى القطب الشمالى ، قبل أن أرى أسوان .

وكانت رحلتى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » سنة ١٩٥٩ على شكل كتاب فى ٨٠٠ صفحة هذا الكتاب فاز بجائزة الدولة التشجيعية عن أدب الرحلات .. وهو أكثر الكتب العربية إنتشارا بشهادة اليونسكو منذ سنة ١٩٦٣ حتى اليوم .

وكان كتابى « اليمن - ذلك المجهول »

وكتابى « أطيب تحياتى من موسكو »

وكتابى « بلاد الله خلق الله »

وكتابى « غريب فى بلاد غريبة »

وكتابى « أنت فى اليابان »

أما كتابى « أعجب الرحلات فى التاريخ » فى ٧٠٠ صفحة فقد جمعت عشرات الرحلات التاريخية الكبرى ، برا وبحرا وجوا . وكان الهدف : تشجيع الشبان على السفر والمغامرة وتقديم المثل الأعلى والقدوة الحسنة .. وكان ذلك عقب الإنهيار النفسى والهزيمة العسكرية سنة ١٩٦٧ ..

وقد كان من نتيجة هذه الكتب أن ظهرت عشرات من الكتب عن الرحلات وأدب الرحلات والهجرة إلى القارات الخمس . وقد ساعدت كثيرين على الهجرة والسفر والرحلات والمغامرات .

ومن أجل كتاب « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » أنشأ المجلس الأعلى للآداب والفنون جائزة الدولة فى أدب الرحلات ..

واتسع عالمى الضيق .. وأصبح أعمق وأجمل .. وتزاحمت الصور فى رأسى : صور المكتشفين والمغامرين وأدباء السفر إلى العالم كله .. واكتسبت الدنيا طعما ورائحة وموسيقى وبهجة .. وشعرت أننى مواطن عالمى .. !



القلق الوجودي ومشاكل أخرى

القلق الوجودي .. ومشاكل أخرى!

لم يكن واضحا هذا السؤال : ما الذى يضايقنى فى الجامعة ؟

ولا واضحة أية إجابة عن هذا السؤال . فليس من الممكن أن يكون لى رأى فى العلوم الكثيرة التى أدرسها . كيف يكون لى رأى وأنا لم أعرف منها إلا القليل .. وكيف يكون لى رأى وأنا غير قادر على أن أفعل شيئا . ولماذا أفعل أى شىء .. فمن الضرورى أن أدرس ومن الضرورى أن أحرص على ذلك وأن أنجح وأن أتفوق .. فمثلى ليس أمامه إلا اختيار واحد : أن ينجح بتفوق . فليس هناك أى سند مادى أو إجتماعى يجعلنى أحصل على نصيبى المتواضع من الحياة .. لا شىء إلا النجاح بتفوق ..

وإذا جلست إلى زملائى وجدتهم يلعنون المدرسين والمكتبة والكتب والإمتحانات .. وهو كلام عادى جدا لا معنى له ولا قيمة أيضا . فالذى يشكو من الكتب عنده مكتبة فى بيته .. والذى يشكو من أن هذه الدراسة لن توصله إلى شىء ، يجىء إلى الكلية فى سيارة .. والذى يتحدث عن مستقبل الدراسات الفلسفية قد تحدد مستقبله نهائيا .. فهو غنى إبن غنى .. ويستطيع أن يعيش بلا فلسفة وبلا دراسة وبلا نجاح ..

إذن فهل هذا الذى أقوله دليل على ضعف شخصيتى ، وعلى أننى أكرر ما يقوله الغير دون فهم ؟ !

أو أن الذى أقوله لنفسى ليس صحيحا .. فأنا عندى مشاكل كثيرة .. وعند التعبير عن هذه المشاكل فإننى أستعير مفردات أخرى .. فبدلا من أن أشكو من المواصلات ، وأننى أذهب إلى الكلية على قدمى ، فإننى أشكو من السكن

السيء فى إصابة ، فإننى أصف الفلسفة بأن الذى يتغطى بها عريان .. وأن الإنسان إذا تعب نفسيا فلن يجد فيها الراحة .. إنها ليست الفراش الناعم والمخدة الحريرية التى يوضع فوقها الرأس ، ويجيء النوم بعد ذلك .. وعندما أشكو من تكدس العلوم وأن بعضها يرتطم ببعض ، فإننى فى الحقيقة أشكو من شيء آخر : هو تكدس الأثاث فى بيتنا .. وإرتطامي به ذهابا وإيابا ليلا عندما ينقطع التيار الكهربى ، وعندما أستمع إلى تأوهات أمى وأبى فأسارع لأعرف أيهما يستعجل الموت ، ويستعجل أن يقول لى الكلمة الأخيرة .. هذه هى التكدسات الحقيقية التى أتوجع منها .. هذه الهموم الثقيلة على رأسى وعلى قلبى .. وليست العلوم الفلسفية ..

وفى الليل عندما نجتمع نلعب الشطرنج أجد أحد الزملاء يشكو من زوجة أبيه .. وكيف أن والده ضعيف جدا أمامها وأمام إخوتها وأولادها .. وأنه يريد أن يترك البيت ، لولا أن خروجه من البيت يؤكد ضعف والده وقوة زوجته .. وأبوه يريد أن يتوهم أنه قوى ، وإنما فقط يحاول أن « يقتصر » الشر .. وأن تكون بينه وبين إخوته غير الأشقاء علاقات الأخوة والصداقة .. وأن يصبر .. وعلى الرغم من أن هذه الشكوى تأخذ شكل الدموع فى عينيه .. فإنه من خلال هذه الدموع يصرخ من السعادة عندما يقول لى : كش الملك !

وأكش الملك ، ويغلبنى فى الشطرنج - ربما كان هذا هو الإنتصار اليومى الذى يسعده . بل إنه يرى فى هذا النصر « بشرى » خير .. وأن الفرج سوف يأتى بعد هذا الضيق .. والله لطيف به فليس معقولا أن يكون مهزوما فى كل مكان : فى البيت والمقهى !

فأنا - إذن - مناسبة سعيدة له يستخرج منها الأمل والمستقبل الأفضل بإذن الله !

وزميل ثان إذا انفرد بى يقول لى ضايع .. ضايع .. إلى الأبد !
فأسأل : من ؟
يقول : أنا ..

لماذ ؟ لأن والده مسلم ووالدته مسيحية متمسكة بدينها . فهى لا تشجع أولادها على الصوم والصلاة وفى نفس الوقت لا تمنعهم - خوفا من غضب

وجها . ولكن المشكلة أن كل البنات والأولاد الذين يترددون على الأسرة من قريبها هي بل إنه لم ير شابا مسلما واحدا .. فأبوه من أسوان .. وكل أقاربه هناك .. والموجودون فى القاهرة يعملون فى حرف متواضعة وإذا إلتقى بهم تعلى المقهى ..

وأمه تدعى الصلاة والصوم ، ولكنها ليست صادقة في ذلك .. فقد ضبطها أكثر من مرة تأكل وتشرب سرا في رمضان ، دون أن تعتذر عن ذلك . حتى تصارحه بأنها مريضة .. كاذبة ومنافقة إذن !! وأبوه مخدوع وهو ضائع بين الرجل المؤمن الضعيف والأم الكاذبة الكافرة .. ولذلك كان أكثرنا إرتباطا بجماعة الإخوان المسلمين . وأكثرنا إنتظاما على الندوات والصلوات ..

وفى يوم قرر هذا « الضايع » أن يترك البيت .. تمهيدا لأن يترك مصر نهائيا . قال لى : ما رأيك ؟

قلت : عندى مشاكل تمنعنى من مجرد التفكير فى ذلك .

قال : أما أنا فقد قررت نهائيا أن أترك هذه البلاد مع الأسف !

قلت : لماذا قررت نهائيا .

وقال لى إنه كان فى غرفته عندما فتحت أمه الباب لتجده أمسك صليبا من الخشب يحاول أن يثبت فوقه هلالا .. كما كانوا يفعلون أيام ثورة ١٩١٩ .. ودون أن تسأله أمه ما الذى يفعله رفعت رأسه ثم صفعته ؟ !

وأذهله ذلك . ولم يشأ أن يسألهم ولا هى شاءت أن تستوضح ما حدث .

فقلت : هذا كل ما حدث ؟

قال : هل تتوقع أكثر من ذلك ؟

قلت : هذا يؤكد أنها استقرت على دينها .. وأنت حر فى دينك ..

قال : ليس بهذه السهولة .. لا تنس أنها أمى وأنها مثلى الأعلى .. أو كانت .. أو كان ينبغى .. فأنا مصدوم فيها وفى والدى .. ثم ..

وأشار إلى حقيبة بجواره ..

قلت : جمعت ملابسك ؟ وهل تركتك تفعل كل ذلك دون أن تمنعك ..

قال : بل أنا جمعت ملابسي .. وألقيت بالحقيبة من النافذة .. ونزلت وأنا أسمع أمي تبكي في غرفتها .. إنتهى !

ثم سكت ليقول : هل تسافر معنا إلى البرازيل ؟

- معكم ؟

- أنا وفؤاد الحلبي وزكي دمشقية ووفيق العظمة .. وعزب أبو اليزيد .. وهم جميعا زملاء في قسم الفلسفة وقسم اللغة الفرنسية ..

وكان يجلس إلى جوارنا زميلنا المتفائل دائما - كيف ؟ الراضي بحياته دائما - لماذا ؟ المتمسك بمصر والمصرية والتاريخ - ولم أفهم .. إنه شاؤول ليشع .. وهو مشهور بأسئلته الغريبة المفاجئة .

مثلا في يوم من الأيام قال لي : إسمع .. تتزوج أختي مارلين إنها تحبك ؟

مفاجأة بكل المعاني . فأنا لم أر أخته إلا مرة واحدة . وهي لطيفة ذكية واسعة الأفق .. وتقرأ في كل شيء وقادرة على الحديث بعدة لغات .. وهي أصغر مني بثلاث سنوات .. وحاولت أن أتذكر ملامحها بسرعة وهو يكلمني فلم أجدني قادرا على ذلك ..

وقبل أن أستوضح معنى هذا السؤال يقول شاؤول ليشع : لا تتصور لحظة أنك أجمل رجل في العالم .. ولا أغنى رجل .. ولا أذكى .. إنها سمعت عنك .. وعرفت أنك طيب وغلبان وأنك « مالك الحزين » .. ذلك الطائر الحزين إلى الأبد .. وأنها قررت فيما بينها وبين نفسها أن تجعلك أسعد .. هي التي تقول .. وحتى لاتدوخ معي ومعها فهي وجدت علاجا لك .. إنك تريد فقط قليلا من الاستقرار .. هذا القليل سوف يمكنك من الدراسة .. هذه هي « الوصفة » الطبية لحالتك .. حاول أن تناقشها في رأيها هذا ..

وفوجئنا بأنه يعلق على حالة زميلنا « الضايع » بقوله : ولا يهمك أنت متمسك بدينك .. وهي تتمسك بدينها .. في استطاعتك أن تجعل غرفتك مسجدا وافتح الراديو بالقرآن على الآخر .. وعلق صورة حسن البنا .. فلست وحدك في البيت . فأبوك مسلم أيضا .. فأنتما أغلبية .. هذا إذا كنت قد قررت أن تجعلها معركة .. وأن تتحدى إرادتها .. ولكن إذا وجدت من يخالفك الرأى ،

فتركت له البيت ، فسوف تعود من أمريكا بعد أيام ، لأنهم جميعا سوف يخالفونك الرأى والرؤية والدين !

وهو أشجع من سأل الشيخ حسن البنا قائلا : يافضيلة المرشد العام .. لماذا لا تتزوج يهودية .. إن الرسول عليه السلام تزوج السيدة صفية وهى يهودية .. ولماذا لا تتزوج مسيحية أيضا .. وبذلك تضرب مثلا رفيعا فى التزاوج بين الأديان .. لماذا ؟

وقد ضحك الشيخ حسن البنا وسأله : وأنت ؟

قال : يهودى إبن يهودى وسوف أبقى كذلك ..

ثم سأله الشيخ حسن البنا : ومن هى هذه اليهودية ؟

فأجاب : أختى راشيل .. وقد أسمت نفسها رقية .. ما رأيك ياأستاذ ؟ وضحك الشيخ حسن البنا . ولم يقل شيئا !

وفى إحدى المرات ذهبنا إلى مسجد فى شبرا .. لا أذكر اسمه الآن .. وكان موعد صلاة الجمعة .. وجدت أن شاؤول قد خلع حذاءه .. ثم ذهب وتوضأ .. ولم يتسع الوقت لكى أستوضحه .. ثم وجدته قد وقف إلى جوارى .. وصلى .. وسألته : ولكن لماذا ؟

فقال : الدنيا حر جدا ولا أستطيع أن أنتظركم ساعة وساعتين أمام الباب ..

وضحكنا ثم قلت له : هذا بينى وبينك ولا تقل لأحد ذلك .. فهذا عبث .. أرجوك !

وفى يوم كنت فى بيت شاؤول وقد دعانى للغداء والمناقشة بعد ذلك .. وإذا به يفاجىء أمه قائلا : قولوا مبروك ..

وتطلعنا إليه وإلى المفاجأة القادمة ولم يقل أحد منا شيئا .. أمه وأختاه مارلين وراشيل .

فقال : لقد وجدنا شقة جميلة على النيل ، أحسن من هذا البيت الحقير فى « حارة اليهود » .. قولوا مبروك .

ولم يقل أحد شيئا ..

وإذا به يلتفت إلى والدته ويقول ماما .. مبروك .. لقد وجدت لك عريسا يملك محل أقمشة فى الأزهر .. رآك ومعجب بك ويريد أن يتزوجك وأنا موافق .. إننى جاد !

وضحكنا . وقد إعتدنا منه ذلك .. وإذا به يخرج ورقة من جيبه ويقول : هذا إسم التاجر ورقم تليفونه في الدكان وفي البيت .. وهو على إستعداد لسماع صوتك الجميل في أي وقت !

إن شاؤول شخصية مدهشة .. وعنده قضية واحدة : كيف يمكن تزويج الأديان بعضها من بعض .. كيف تلغى الفوارق والخلافات الدينية .. هذا هو عذابه الوحيد . وهو يكره « إسرائيل » ويكره أن تقوم هذه الدولة .. ويرى أن قيامها أكبر دليل على غباوة اليهود .. لأنهم بدلا من أن يعيشوا ويكسبوا دون أن يدرى بهم أحد في كل الدنيا ،فقد جمعوا أنفسهم في مكان واحد . جعلوا من أنفسهم هدفا معلوما لكل أعدائهم .. وهذه غباوة .. وهو يتمنى أن يجيء اليوم الذى يعود فيه اليهود متفرقين في العالم ، يتكاثرون ويحكمون السياسة والمال ، كل سكان الكرة الأرضية .. بدلا من أن يجمع العالم على كراهيتهم .. وهو مؤمن بأن اليهود سوف يضيقون بهذه الحياة في الشرق الأوسط وأنهم سوف يهربون من الدولة وهم فيها بأن يتزوجوا من المسلمين والمسيحيين .. وتضيع معالم الديانة اليهودية .. وتضيع معالم كل الأديان لتعيش الشعوب كلها بلا دين سماوى وإنما بديانة سلوكية مثل الديانات الهندية والصينية واليابانية ! وبسرعة بعد مناقشات جادة نفاجأ بأن شاؤول يقول : هل سمعتم آخر نكتة ؟

(٢)

تجمعنا عشرين أمام باب جمعية « الإخوان المسلمين » في بولاق التكرور بالقرب من الجامعة . لتقدم واجب العزاء في والد أحد الزملاء .. ثم سرنا معا إلى المدرج ٧٨ في كلية الآداب . فقد جاء دورى في ذلك اليوم أن ألقى بحثا على طلبة قسم الفلسفة . أما موضوع البحث فقد حدده رئيس قسم الفلسفة وكان رجلا إنجليزيا إسمه د . لامونت . الموضوع هو : القلق الوجودى - ما هو ولماذا ؟

ودخلت المدرج . وكانت القاعدة أن أقرأ البحث . لأنه لا يصح للباحث الجاد أن يرتجل ففى الارتجال إستخفاف بالمستمعين وغرور من المتحدث وهذا لا يليق بطالب في مستهل حياته العلمية . ولكنى إعتذرت بأن نظرى ضعيف ،

وأن الإضاءة ليست كافية . وأننى بسبب الوقت الطويل الذى أمضيته فى القراءة والكتابة أكاد أحفظه بكلماته ..

بدأت كلمتى بقولى : أطلب من الله الرحمة بنا والمغفرة فالموضوع شاق وأنا صغير والمشاكل ضخمة ، ولا أملك إلا هذه الأصابع المتواضعة التى لا تقوى على احتواء الكون والعقد والألغاز والطلاسم والرموز التى لا نهاية لها ، وليس عندى إلا هذا العقل المبتدىء الذى لم يتدرب بدرجة كافية على مثل هذه الهموم الكثيرة .. بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد حاولت أن أكون مفهوما ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

ووجدتنى أقول : فى سنة ١٨٣٢ وفى إحدى الغابات بالقرب من بيونس أيرس ذهب شاب عمره ٢٤ سنة . كان قد درس أصول الشريعة المسيحية فى إحدى الجامعات ثم تحول إلى دراسة الأجناس البشرية والحيوان والنبات .. وأخذ يقلب بأصابعه ، وبعد ذلك بعينه وعقله فى هذا العدد الهائل من الحشرات التى وجدها تحت أوراق الشجر .. لقد وجد فى مساحة منديل ٨٦ نوعا من الخنافس ..

وكلها مختلفة فى الشكل واللون والحجم !

ذلك الشاب هو عبقرى المستقبل تشارلز داروين .. ثم عرفنا فيما بعد ذلك بمائة عام أن عدد الخنافس الموجودة على الأرض تبلغ ربع مليون نوع .. هذه الخنافس لا تتزاوج كأنها ليست من فصيلة واحدة .. وكان الرأى الشائع فى ذلك الوقت .. أن الله سبحانه وتعالى خلق الحيوانات والحشرات والنباتات منفصلة بعضها عن بعض .. وليست بها أية صلة من أى نوع .. ولكن داروين ذهب إلى جزر فى المحيط الهادى فوجد هذه الخنافس وقد تنوعت لونا وحجما وشكلا .. ووجد الحيوانات من الفصيلة الواحدة قد تباينت فى اللون والحجم . فما السبب ؟ السبب أن الحيوانات إذا عاشت فى ظروف مختلفة فإنها تطاوع البيئة وتقاومها وتتعايش معها وأن الحيوانات التى تفعل ذلك تطول أعمارها .. أما الحيوانات التى لا تطاوع البيئة فإنها تنقرض وتموت .. فالبقاء لأقدر الحيوانات على مقاومة الظروف والتغلب عليها ..

ثم قلت : دعونى أتقدم إليكم بنظرية إهتديت إليها ، ورغم أن هذه عبارة

كبيرة ودعوى ضخمة ، فإننى لا أجد إسما لهذه الفكرة التى أعرضها عليكم وهى « نظرية العينات » . فكل ما نبحثه هو عينة .. فبحث الخنافس هو بحث لعينة من الخنافس . لا كل الخنافس .. والبحث فى الإنسان هو بحث فى عينة من بنى البشر ، وليس كل البشر .. تماما كما نأخذ قطرات من المطر أو من البحر ثم من دراسة هذه القطرات نخرج برأى أو بنظرية عن تركيب مياه الأمطار والبحار .. وكذلك فعل تشارلز داروين .. لقد درس عينات من الحشرات والزواحف والنباتات ، ليخرج منها بنظرية . هذه النظرية ليست كافية لتفسير كل شىء .. ولكن تفسير ما استطاع .. وكذلك البحث فى القلق .. ليس قلق كل الناس . ولكن بعض الناس .. فأنا لم أدرس إلا عددا من الزملاء حولى .. ولم أدرس كل الطلبة ولا كل المثقفين فى مصر أو فى العالم العربى أو فى العالم .. أستاذنا العظيم سقراط عندما أراد أن يتعمق فى الإنسان ، لم يكن أمامه إلا تلامذته .. راح يقلبهم ويؤلبهم بعضهم على بعض .. ومن الشرر المتطاير منهم وعلى ضوئه ، أخذ يتسلل إلى أعماق النفس الإنسانية .. إنها - إذن - عينة ليست كافية .. ولكن هذا هو المتاح لنا ، فى هذه المرحلة من البحث .. وهذا عذر أتقدم به مبكرا ، إذا لاحظتم أى نقص أو سلبيات فى هذه الدراسة المتواضعة .

وليس من الضرورى أن يكون القلق هو حال كل الشباب .. فإننى أعرف شبابا لم يسمعوا عن هذه الكلمة .. فهم راضون تماما . قانعون تماما . وأعرف شبابا دفعهم القلق إلى التفكير فى ترك مصر ، والذهاب إلى بلاد أخرى ليستأنفوا فيها القلق ولكن فى ظروف أخرى .. إن قصة « روبنسون كروزو » الذى وجد نفسه فى جزيرة مهجورة .. قد استأنف فيها الحضارة الغربية وحده .. لقد نقل كل ما تعلم وما تألم به إلى هذه الجزيرة .. فهؤلاء الشباب لم يفكروا فى أسباب القلق ولا كيف يمكن القضاء عليه .. وإنما فقط فى أن يبحثوا عن جو أفضل .. عن خلفية أجمل لمعاناة القلق من جديد .. تماما كما تنقل مريضا من غرفة تحت السلم إلى غرفة فى أجمل الفنادق ، دون أن تفكر فى علاجه .. أو كأن يقسم أحد اللصوص أن يتوب عن سرقة الفقراء فلا يسرق إلا الأغنياء . فهو لم يعدل عن السرقة !

وقلت : إسمحوا لى أن أروى لكم قصة رمزية معناها مناسب تماما .. يقال

ـ رجلا كان يعمل فى قطع أشجار الغابات ـ القصة للأديب الألماني باومباخ ..
ـهبت إليه زوجته الجميلة وجلست إليه بعد أن قطع الأشجار . وفجأة ظهرت
سيدة صغيرة الحجم وقالت لهما : عندى ينبوع الشباب ..

وسارا وراءها وملأ الرجل زجاجة من ينبوع الشباب وقالت لهما السيدة :
تشربان منها بضع قطرات عندما تشعران بالحاجة إلى ذلك . ولكن مفعول هذا
الماء يبطل إذا نظرت أنت الزوج إلى امرأة أخرى ، وأنت الزوجة إلى رجل
آخر !

وعاد الإثنان وأخفيا الزجاجة فى مكان بعيد لا تمتد إليه الأيدى . ولأنهما
شابان فلم يجدا ضرورة لشرب قطرات من الزجاجة .. وحرص الزوج
ألا ينظر إلى أية إمرأة أخرى ، وهى إلى أى رجل آخر .. وأنجبا أولادا ذكورا
وبناتا .. وفى يوم إمتدت يد الرجل إلى الزجاجة وسقطت منه .. وحزن ولكنه
ملأ الزجاجة بماء آخر . وأخفاها فى الملابس .. وفى يوم شعرت الزوجة
بالتعب فقررت أن تشرب قليلا منها . وامتدت يدها إلى الزجاجة فسقطت منها ،
وسارعت بملء زجاجة أخرى . وكانت تقول لزوجها : لماذا لا تشرب من
الزجاجة ؟

وشرب الإثنان وكل منهما يقول للآخر إن أثر الزجاجة يبدو عليك واضحا .
نضارة وحيوية وشباب وسعادة .

وقد حاول الإثنان أن يعثرا على « ينبوع الشباب » فى الغابة ولم يفلحا ..
وفى يوم لاحظ الرجل أن شعرة بيضاء فى رأسه . وانزعج . وطلبت إليه
زوجته أن يشرب من الزجاجة . وشرب وشربت هى أيضا !

وكانا يقولان لبعضهما البعض : شباب وحيوية وجمال وسعادة .. وحياة
زوجية مثالية وأولاد أصحاء ..

وقد حاولت أن تطلعه على ما حدث ولكنها ترددت . وفكر هو فى أن
يصارحها ، ولكنه تردد . فهى تراه سعيدا وهو يراها جميلة ..

وفى يوم قررا معا أن يبحثا عن « ينبوع الشباب » فى الغابة ووجداه ..
وهناك وجدا السيدة أيضا . وقالت لهما السيدة : ولكنكما لم تشربا من
الزجاجة .. إن الشيخوخة ظهرت عليكما ..

ونظر الإثنان إلى سطح الماء .. فرأى الرجل نفسه شبحا أبيض الشعر مجعد البشرة .. ووجدت الزوجة نفسها كذلك ونظرت إليه ونظر إليها فسألها وكنت تعرفين أننى هكذا كبرت ؟

قالت : نعم . وأنت كنت ترانى كذلك ؟

قال : نعم ..

وصرخت فيهما الساحرة وهى تقول : يجب أن تشربا من الينبوع قبل غروب الشمس .. أسرعا !

ونظر الرجل إلى زوجته وسألها : ما رأيك ؟ قالت : لا .. إننا سعداء هكذا ..

وعاد الإثنان إلى البيت متعانقين ، والناس يضحكون عليهما ويرون فى ذلك مصداقا للعبارة الشهيرة : إن الحب أعمى وأطرش ..

ولكنهما سعيدان !

وكذلك كثيرون من الشباب لم يعرفوا ولا يريدون أن يعرفوا ، ولاتعمقوا ولا يريدون أن يتعمقوا معنى القلق النفسى والفلسفى والدينى والسياسى .. إنهم قد شربوا من زجاجات الماء العادى الذى لا يعيد الشباب .. ولا يريدون أن يفسدوا حياتهم !

والسؤال كما ترون سهل ، ولكن الإجابة صعبة .. وأنا أحاول أن أدور حولها .. وأكتفى بعينات من الناس لعلى أهتدى ..

وأتذكر بهذه المناسبة أن الفيلسوف البريطانى رسل قد طلب إلى تلامذته فى أحد الإمتحانات أن يكتبوا : عن الفرق بين المتشكك والملحد والكافر واللا أدرى . وكان الإمتحان صبيحة رأس السنة الجديدة ..

فكتب أحد الطلبة : إن الله وحده هو الذى يستطيع أن يجيب عن مثل هذا السؤال .. وكل سنة وأنت طيب !

فضحك الفيلسوف رسل وكتب على الورقة : عشرة على عشرة لله .. وصفر على عشرة لك .. وأنت طيب ! —

وهذا القلق ليس خاصا بالفلاسفة والمشتغلين بعلم النفس . وإنما يصيب كل

الناس .. والسعادة ليست من نصيب البلهاء والبسطاء ، بل هي أيضا من حظ الفلاسفة أيضا .

وفى يوم سئل الفيلسوف الفرنسى الأنيق جدا « أوجيست كونت » : كيف تكون فيلسوفا وتأكل أحسن الطعام ، وتقيم في أحسن القصور ، وترتدى أجمل الملابس ؟ فقال : وهل تظن أن الله قد خلق كل هذه الخيرات لتكون من نصيب البلهاء وحدهم ؟ !

ولا أعرف كيف إنتهت المحاضرة . ولا إن كنت وجدت تعريفا جامعا مانعا للقلق عموما والقلق فى الفلسفة الوجودية .. ولا أين ذهبت بعد المحاضرة . ولا ماالذى كان يقوله الطلبة عند خروجى من المدرج .. ولا إن كان رئيس قسم الفلسفة د . لامونت كان يناديني أو يستوقفنى ..

واتجهت إلى حديقة الأورمان .. عالم آخر .. كوكب آخر .. الأشجار والأزهار .. الظلال .. الأطفال .. الوجوه الضاحكة .. وعلى أحد المقاعد جلست .. ولم أتابع ما يدور من حوار هنا وهناك .. وكيف تتلاقى الأحاديث ورائى ومن فوق رأسى . كأنهم أسرة واحدة ..

إلى جوارى جلس رجل إبن بلد وزوجته وطفلان صغيران ..
قال الرجل : تعالى يا ولد هنا .. أترك مكانا لحضرة التلميذ .. أنت تلميذ ؟
قلت : نعم ..
قال : أنت وزوجتى .. هى أيضا تلميذة .. كلميه يا عواطف ..
قالت عواطف : أنا تلميذة فى كلية التجارة ..

قال : لا يبدو عليها ذلك .. أو يبدو عليها ، ولكن أنت لا تتصور أن يكون رجل مثلى زوجا لها .. صحيح أنا ألبس الجلباب ولكنى جدع وأعجبك .. وأنا الذى أدخلتها الجامعة .. وأريدها أن تشاركنى فى الدكان . وفى زراعة الأرض .. العلم نور .. وأنا ليست عندى رغبة فى التعلم ، ولا أحب أن يسخر منى المتعلمون .. ولكن عواطف إذا تنورت ، فسوف تقف فى وجه كل هؤلاء اللصوص الأفندية .. وإن شاء الله سوف آتى لها بعدد من الخادمات من البلد لكى تتفرغ للمذاكرة .. يبقى أنا رجل أعجبك .. أليس كذلك ؟

قلت : فعلا .. أنت أفضل من ألوف من المتعلمين الذين لا يحبون لزوجاتهم أن يتعلمن ..

قال : هذه هى مشكلة حياتى كلها .. أنا تعبت كثيرا وطردونى من المدرسة .. ولكن سوف يكون أولادى أحسن من زوجتى .. الحمد لله .. كل شيء عال العال .. الحمد لله .. وعلى فكرة نحن عندنا حديقة فى الفيلا التى نملكها فى المعادى .. ولكن أفضل أن يلعب أولادى مع الأطفال وليس وحدهم . فقد كانت هذه غلطة والدتى .. جعلتنى دلوعة أعيش وحدى وألعب وحدى .. غلطة لا أكررها أبدا .. أنا أعجبك .. أليس كذلك ؟

إنه ولا شك أحسن وأسعد حالا .. وأكثر واقعية .. عنده مشكلة ، عرفها بوضوح ووجد لها حلا !



حتى إذا ظهر

الطفل المعجزة قتلناه

حتى إذا ظهر الطفل المعجزة قتلناه

الأطباء وقفوا حول شاب مريض ، ١٩ سنة ، يحركونه يمينا وشمالا . ولكنه لا يقوى . والتفت أحد الأطباء قائلا : بعد أسبوعين سوف ينزل من السرير !

ولكن الشاب لمح مجلة فنية قد سقطت على أرض الغرفة فأشار إليها . وقدموها له . وبسرعة مرت عيناه على السطور . وقفز الشاب واقفا ثم ألقى بنفسه على السرير قائلا : الآن يمكن أن أموت سعيدا !

كان ذلك فى سنة ١٨٥٣ فقد قرأ هذا الموسيقار الشاب برامز مقالا بقلم الموسيقار شومان يقول : أيها الناس سوف يظهر من بيننا فنان عظيم قادر على أن يعبر ببلاغة عن أعمق مشاعرنا . سوف يكون له أسلوب جديد فريد . فإذا ظهر هذا الشاب المعجزة فلا ترفعوا عيونكم عنه ولا تبعدوا آذانكم . إفتحوا له قلوبكم وكل الطرق التى تؤدى إلى المجد . . أيها الناس سوف يخرج هذا الشاب كامل الأوصاف والمعدات والذخيرة . . تماما كما كانت تخرج الآلهة من رأس كبير الآلهة زيوس . . أيها السادة إن هذا الشاب قد ظهر . . إنه بيننا وفى مقدمتنا . . إنه سيدنا وتاج رأسنا إلى الأبد . . إنه الموسيقار برامز ! »

وكان ذلك حدثا فنيا نادرا . فنحن لا نجد كثيرا فى تاريخ الموسيقى أو الفنون الأخرى أن يعترف عظيم لعظيم آخر بفضله وتفوقه . .

وهو فى عالم الأخلاق أكثر ندرة . . فأعظم عظماء الموسيقى موتسارت عندما زاره الشاب بيتهوفن واستمع إلى موسيقاه قال : إنتظروا هذا الشاب سوف يكون حديث الدنيا كلها !

ولكن الشاب الذى أصبح حديث الموسيقى لم يقل كلمة طيبة واحدة عن موتسارت !

ففى تاريخ الموسيقى مذابح بشرية ، وخناقات ومؤامرات واغتيالات بالسم والحقد . ولذلك كانت هذه المقالة من أروع ما سجل تاريخ الموسيقى . .

وما قاله الموسيقار شومان يتردد فى كل زمان . . فالناس ينتظرون المعجزة . . يتوقعون الحدث الفريد . . والشخص الهادى إلى ما هو أروع وأفضل . . يتوقعون المهدى المنتظر فى الموسيقى والأدب والسياسة والدين . وعندما يظهر هذا الشخص ، يلتف الناس حوله . وقد يطول هذا السلوك بين الناس وقد ينتهى بسرعة بالقضاء على هذا الشخص الذى صدم الناس فى عزيز لديهم : الكسل والسير نياما . لأن ضوءه يوجع العين . وصوته يزلزل الآذان . . وما يدعو إليه يجعل الناس يتمردون على عاداتهم القديمة . .

فكأن الناس تنتظر المعجزة ، ثم لا يقوى الناس على التغيير . . فيضيقون بصاحب المعجزة .. كثير من الأنبياء قد قتلوا . وكثير من المصلحين قد أعدموا . .

ولم يعرف التاريخ كله طفلا معجزة مثل الموسيقار النمساوى موتسارت (١٧٥٦ - ١٧٩١) .. لم يذهب إلى المدرسة . علمه أبوه الموسيقى دراسة وكتابة وإبداعا . فكتب أول سيمفونية وهو فى التاسعة من عمره . وعندما بلغ الخامسة عشرة كان قد كتب بيده ٥٥٨ صفحة من تأليفه . لم يصدقه أحد كانوا يظنون أن والده يكتب له . حبسوه فى غرفة سدوا أبوابها وشبابيكها حتى لا تدخل العفاريت تكتب له . أتوا بالكتاب المقدس ووضعوه حوله حتى لا تقترب منه الشياطين . فكتب وأذهل . وعندما زار بابا الفاتيكان تهامس الكرادلة بأن كل شىء يدل على أن هذا الطفل على صلة بالعفاريت . فطلبوا إليه أن يعزف . عزف . أن يرتجل إرتجل . أن يدخل تعديلات على ألحان قديمة . فعل . ثم طلبوا أن يؤلف موضوعات حددوها له . كتب وعزف . إذن هو عبقرى ليس له نظير فى التاريخ .

وعندما ذهب إلى لندن ، أتوا له بعدد من الأطباء ليكشفوا على قواه العقلية . . ولم يجد الأطباء شيئا غير عادى ، إذن العبقرية فى أعماق مخه . أين ؟ لا أحد يدرى !

وآمن الأطباء في ذلك الوقت من القرن الثامن عشر أن العبقرية هى ضخامة المخ . وكلما كبر الرأس كانت العبقرية أعظم . أنظر إلى رأس الحمار والثور وبقية الحيوانات إنها أكبر بكثير جدا من رأس أى إنسان ؟!

وفى القرن العشرين عندما فتحوا دماغ أعظم علماء الفيزياء أينشتين ووضعوا المخ تحت الاختبار لم يجدوا شيئا غير عادى . إذن العبقرية شيء من عند الله يدخل أى مخ وأى رأس من أى حجم ومن أى لون !

وأصبح من آمال أى أب أن يكون إبنه طفلا معجزة ، ومن أحلام أى شعب أيضا . وفى تاريخ الشعوب نجد عددا من أطفال المعجزة . ويكون ذلك دليلا على أن شعبا من الشعوب لديه هذه القدرة على ولادة المعجزات .. فى الفن والعلم والحرب . فالشعوب الشابة هي القادرة على الولادة . والشعوب الخلاقة هي المكلفة من السماء ، بتقديم أطفال المعجزات . . وفى تاريخ الموسيقى الألمانية والفلسفة والأدب ، أطفال وشباب المعجزات . .

فالأمريكان قدموا فى هذا القرن الممثلة شيرلى تمبل ، طفلة معجزة فى التمثيل والرقص والغناء . يقابلها فى العالم العربى كله فى هذا القرن الطفلة ، فيروز ، التى كانت معجزة السينما العربية ، ولم تعد معجزة ، يكفى أن تذهب إلى أى فرح وتتفرج على الأطفال كيف يرقصون لقد صقلهم التليفزيون وتشجيع الناس فكانوا ألف ألف فيروز !

حتى بطل الأبطال محمد على كلاى جاء فى قصة حياته أنه مشى وعمره ١٨ شهرا . . ولما بلغ الشهر الثامن والعشرين ضرب أمه فى فمها فحطم لها ست أسنان . هنا تنبأ له الفلكيون بأنه سوف يكون معجزة الملاكمة فى أمريكا !

وفى انجلترا إستطاع جون استيوارت ميل أن يتكلم اليونانية واللاتينية وهو فى السابعة من عمره . وكان بعد صبيا .

وفرنسا تحدثت عن الفيلسوف العظيم مونتنى الذى تعلم اللاتينية وهو فى السادسة من عمره !

ووزير الثقافة الفرنسى الأديب أندريه مالرو علم إبنتيه اليونانية واللاتينية فكانتا تنظمان الشعر بهاتين اللغتين وهما فى العاشرة !

والفليسوف الفرنسى مونتسكيو كان يتكلم تسع لغات وهو فى الحادية عشرة .

وفى إحدى الغارات الجوية على لندن إكتشف أبوان أن إبنتهما لها صوت جميل وأنه يغطى ثلاثة أرباع السلم الموسيقى . فهى إذن طفلة معجزة . إنها المطربة جولى أندروز . وعمرها ١٨ سنة !

وفى هذه السن أيضا عكف الأديب اللبنانى خليل جبران على كتابة السطور الأولى من كتابه الجميل « النبى » ..

وفى الخامسة عشرة إستطاع المفكر الفرنسى باسكال أن يقدم لنا أول كومبيوتر . أول آله حاسبة كلها من تفكيره وتنفيذه ، قد أكملها بدقة وكتمان شديد !

وفى مثل هذه السن بدأ التنافس شديدا بين الطفل المعجزة يوهان اشتراوس مؤلف « الدانوب الأزرق » وبين والده ملك الفالس ..

وفى التاسعة عشرة من عمره قام المخترع الإيطالى ماركونى بمحاولاته الأولى فى الإرسال اللاسلكى . الراديو .

وفى هذه السن أعلن الشاعر الفرنسى رامبو : أنا إنتهيت ! .

وكان قد نظم مئات من القصائد الجميلة إبتداء من التاسعة من عمره . ثم هاجر إلى الحبشة . .

ولم ينظم بعد ذلك بيتا واحدا !

وفى هذه السن أيضا كانت المفاجأة الأدبية الكبرى سنة ١٩٥٤ عندما صدرت رواية « مرحبا أيها الحزن » للأديبة الفرنسية فرنسواز ساجان التى اتخذت إسمها من رواية « البحث فى الزمن الضائع » للأديب الفرنسى مارسيل بروست !

والشعوب تبحث عن المعجزة فى المجال الذى تحتاج إليه . فإن كان الإقتصاد هو المشكلة أخذت تبحث عن العقول الإقتصادية الجبارة . وكثيرا ما اختلطت مشاعر الشعوب ، فجعلت عبقريا من ليس كذلك . وراحت ضحيته ، أو ذهب العبقرى المزعوم ضحية لآمال الناس .

أو يبحثون عنه فى الفيزياء أو الكيمياء أو الطب أو اكتشاف أرض جديدة كما حدث فى القرون الأربعة الماضية فى القارات الخمس .

وفى الغرب عند الشعوب العلمية التفكير ، يسمون صاحب المعجزة

بالعبقرى . . ولكن فى الشعوب البلاغية التى تؤمن بعبقرية الكلمة ظهر الأنبياء أصحاب الرسالات الإصلاحية وكان أسلوب الأنبياء هو الكلمة والحكمة. عشرات الأنبياء والقديسين وأدعياء النبوة. قد ظهروا فى مهبط الديانات الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام . كما ظهر أنبياء آخرون فى البوذية والكونفوشية والزرادشتية والبهائية والشنتوية . . وسجل لنا تاريخ الأدب العربى أطفالا معجزة كالذى يحفظ القصيدة من مائة بيت ، إذا سمعها مرة واحدة . . أو يحفظ كتابا من أوله لآخره إذا قرأه أحد على مسمع منه مرة واحدة . . أو يحفظ حوارا بين رجلين يتكلمان الفارسية أو التركية وكان المستمع لا يعرف هاتين اللغتين . كل ذلك رواه التاريخ عن شاعرنا العظيم أبى العلاء المعرى. وكان أعمى !

يحكى لنا شاعرنا الكبير البحترى . أنه كان يلقى قصيدة بين يدى أحد الخلفاء . القصيدة طويلة وعندما طواها ووضعها فى جيبه بين إعجاب الحاضرين . تقدم شيخ وقور يقول له : كيف تدعى شعرا ليس لك ، أيها النصاب الكذاب . إنها قصيدتى وأنا أعيدها عليك كلها !

وأعادها . وكان حزن البحترى شديدا . فهى من نظمه وإبداعه . وعاد البحترى إلى بيته . . وفوجىء بمن يستدعيه . وذهب إلى بيت الخليفة . وتقدم له الرجل الوقور معتذرا قائلا : إنها لك يا ولدى . ولكنى رأيتك تتجاهلنى !

ولم يكن البحترى يعرف أن هذا هو الشاعر الأعظم أبو تمام !

ويقال مثل ذلك أيضا عن الشاعر العبقرى أبى الطيب المتنبى . بل إن المتنبى لم يكتف بعظمته وتفوقه على كل الشعراء طفلا وشابا ورجلا ، فادعى النبوة . وقال أنه نبى مرسل . وأن الوحى قد نزل عليه بقرآن جديد . . نزل عليه مرة واحدة . . وطلب من الناس أن يؤمنوا به . .

ووقف على ربوة مرتفعة ونظر إلى الدنيا والناس تحت قدميه يعرب عن عظيم إحتقاره لكل شىء ولكل أحد . قال المتنبى :

أى محل أرتقى
أى عظيم أتقى ؟
وكل ما قد خلق

الله وما لم يخلق
محتقر فى همتى
كشعرة فى مفرقى !

وكذلك إدعى أبو العلاء المعرى النبوة . واخترع سورا وآيات يحاكى بها القرآن الكريم ؟!

ووصف القاضى أبو جعفر شاعرنا المعرى إبن مدينة معرة النعمان

كلب عوى بمعرة النعمان
لما خلا عن ربقة الإيمان
أمعرة النعمان ما أنجبت إذ
أخرجت منك معرة العميان !!

ولكنها التقاليد الشرقية أن يكون الطفل المعجزة نبيا . من عند الناس أو من عند الله . . ولذلك زعم لنفسه هذه الصفة العظيمة عدد كبير من مثل المتنبى والمعرى . .

ثم تغير مفهوم المعجزة ، بتغير احتياجات الشعوب . . وتصورها للخلاص من عذابها المادى والمعنوى . . ففى القرن العشرين ، ورغم التطور العلمى الهائل ، فما يزال هناك أناس يدعون النبوة والألوهية أيضا . . ويجدون أناسا يمشون وراءهم ، إلى خارج المجتمع وإلى الخروج على القانون ، وإلى الهجرة من قارة إلى قارة وإلى الموت الجماعى بإشارة من إصبع هذا الإله !

ولدى الإنسانية كلها شعور بالندم على الذى أصاب عبقرى العباقرة موتسارت . فقد عاش طفلا فقيرا وأبوه أيضا . وكبر شابا معذبا مريضا تعيسا . وفى كل مرة نستمع إلى موسيقاه العظيمة ، يستشعر الناس ندما أعظم فقد أماته الإهمال والحسد والجهل . ولذلك يجب ألا يموت طفل جوعا أو مريضا . . يجب أن تتاح لكل الأطفال كل الفرص . . من يدرى ربما ظهر موتسارت فى الشعر والفيزياء والإقتصاد والفضاء والأخلاق !

وفى المعرض الدولى فى بروكسل سنة ١٩٥٨ ، قدمت كل دولة أروع ما إبتدع علماؤها .

أما النمسا ، بلد موتسارت ، فقدمت لنا نموذجا لرياض الأطفال . . للرعاية

باهرة لطفل صغير ربما صار موتسارت عندما يكبر . كأن النمسا تريد أن تكفر عن خطيئة تجاهل العبقرية وإخناقها وموتها قبل الأوان !

وفي العصر الحديث ، حيث التنافس هائل بين الدول الكبرى والعظمى ، لا يكاد يظهر عبقرى فى بلد حتى يظهر واحد منافس له فى دولة أخرى . . وحتى تراجع الهيئات العلمية والتربوية برامجها تمهيدا لظهور عبقرى . . أو محاولة « لتخليق » عبقرى . . ومعنى ذلك أن الدول العظمى ترى أنه لابد أن يظهر فرد . . شخص . . نبى . . صاحب معجزة يهدى الناس إلى سواء السبيل فى كل مجالات الحضارة الإنسانية . .

ولكن الدول الصناعية نفسها ، لم تعد فى حاجة إلى إنتظار هذه المعجزة . جاءت أو لم تأت . ولذلك راحت تعوض نفسها عن الشخص المعجزة بألف من العلماء يعملون معا . . ويخترعون معا . ولهذا السبب لم نعد نسمع عن الذى اخترع الصواريخ والتليفزيون والساعات والسيارات والعدسات . . وأسلحة الحرب فى الفضاء . .

إنهم ما لانهاية له من العلماء . . كأن كل واحد منهم خلية فى عقل عبقرى . . فإن لم يظهر الرجل المعجزة ، فليكن رجال كثيرون يعملون معا كأنهم معجزة واحدة !

وعندما أطلق الروس أول قمر صناعى ، إهتزت الدنيا كلها لهذا التفوق العلمى . واهتز العالم الحر لأن معناه أن الشيوعية التى هى ضد الحرية وضد الفرد وضد الدين ، إستطاعت أن تحقق ما لم تحققه الديمقراطية والحرية والأديان . ولذلك كان لابد أن تسارع أمريكا بإنقاذ شرفها وسمعتها فى العالم ، فأطلقت بسرعة سفينة وثالثة وألف سفينة وهبطت على القمر وحول الكواكب الأخرى ، قبل الروس . . ودخلت حرب الكواكب ، قبل أن يفكر الروس فى ذلك . أى أن هذا هو رد إعتبار للحرية والإيمان . ضد القهر والإلحاد .

ولكن فى نفس الوقت عكفت أمريكا على مراجعة البرامج المدرسية والجامعية التى أخرجت العباقرة فى روسيا ، وتأخرت عن إنجابهم فى أمريكا .

ومرة أخرى كان لابد لأمريكا والدول الغربية أن تراجع نفسها ، عندما تفوقت اليابان على العالم كله فى مجالات الصناعة المتطورة .

أما الهدف فهو : لماذا تفوقت اليابان ؟ ولماذا تأخروا هم ؟ ما الذى يجب عمله من أجل « تخليق » أطفال المعجزة وعباقرة المستقبل . .

إن روسيا والدول التابعة لها . وأمريكا والدول الشبيهه بها ، قد أدمنوا جميعا عقارا واحدا هو : المستقبل

فكل هذه الدول ترى أن الجنة غدا وبعد غد . . وأن عصورهم الذهبية قادمة ، وأنهم سائرون إليها . .

وعلى عكس الدول التى تؤمن بالمعجزة والغيبيات فإنها ترى العصر الذهبى فى الماضى . . وأن الجنه كانت فيما مضى . وأننا يجب أن نستعد للموت لكى ندخل الجنة التى فاتنا أن نكون فى ربوعها . . فنحن نعيش من أجل أن نموت مستورين . ويا الله حسن الختام . منتهى العجز عن المساهمة من أجل ما هو أفضل . وهو كفر بما تدعو له كل الأديان بأن يعمل الإنسان ويكدح . ويعيش لتحقيق الخير والعدل والحرية والسلام بين الناس . وبذلك يريح نفسه وغيره ويكون مستحقا لرحمة الله فى الدنيا وجنته فى الآخرة . . بدلا من أن يختار الموت ، أو ما يشبه الموت ؟

وفى البحث عن المعجزة وتخليقها وإستعجالها ، ظهر فى التليفزيون والسينما أطفال المعجزة فأمريكا إهتزت طربا بمئات ملايينها فى كل مرة ترى شابا يجيب بسرعة خارقة على مثل هذه الأسئلة : كم شعرة فى ذيل الحصان إذا كان عمره شهرا ؟ وكان يجيب . أو كم عدد النجوم فى السماء التى يمكن أن تراها من ثقب أبره ؟ كم عدد الدموع التى يذرفها الإنسان فى كل حياته ؟ وما الذى قاله نابليون لأحد جنوده فى روسيا يوم كذا ؟ من هو القائد العسكرى التى كانت قدمه اليسرى أصغر من قدمه اليمنى ، ويده اليمنى أكبر من يده اليسرى ولسانه أقصر عن طول اللسان ثلاثة مليمترات ؟ وكان يجيب . كم عدد الحاضرين الآن أمامك ؟ أنظر بسرعة ! وكان يقول . . والناس تصفق وتدوخ من الإعجاب بهذا الطفل الذى لم تلد مثله الأمهات فى عشرين قرنا .

وفجأة إنكشف السر إنه غشاش . . وأن هناك إتفاقا بينه وبين مخرج البرنامج على إقتسام المكافأة المالية وهى ملايين الدولارات . ولايزال المخرجون يفعلون !

والمعنى : إنهم فى أمريكا فى إنتظار المعجزة . . من أى نوع فى أى وقت !

وظهر فى أمريكا أدعياء النبوة والألوهية أيضا !

وبعد مائة سنة من المقال الذى كتبه شومان ، كتب الأديب الفرنسى أندريه موروا مقالا فى مجلة « الأخبار » الأدبية يبشر هو الآخر بظهور طفلة معجزة تعبر عن عصرها وعن جيلها . عن جمال عصرها وعن عيوب شبابها . وعن الملل واليأس والقرف . ولكنها فى نفس الوقت إستطاعت أن تمشى على الرمل وأن تنفض الملل ، وأن تذيب القرف ، وأن تعلو على اليأس فتكون أملا جديدا لكل شباب الأدب والفن والعلم . .

ثم قدم للعالم الأديبة الفرنسية فرانسواز ساجان . .

وعرفنا فيما بعد أن رواية « مرحبا أيها الحزن » التى ألفتها فرنسواز ساجان كانت طويلة جدا . وأن إحدى دور النشر قد طلبت إلى أندريه موروا أن يختصرها . فاختصرها إلى الربع فكانت عملا أدبيا جميلا ، وحادثا هائلا فى أوروبا وأمريكا وفى العالم العربى أيضا .

وكنت ، وكنا ، من أكثر الناس حفاوة بهذا الجديد . . وتبارى النقاد يبحثون لهذه الأديبة عن مدرسة أدبية ، يجعلونها من تلاميذها . . أو شجرة يجعلونها من ثمارها . .

المهم أن الأديبة الشابة ظهرت ولقيت من الحفاوة ما لم يلقه مليون مونتسارت لو ظهر فى كل مدينة فى الدنيا .

وفى الخمسينات كانت الفلسفة الوجودية قد بلغت قمتها . . فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا . وبدأ الإهتمام الشديد بها فى مصر وصدر لى أول كتاب عن الفلسفة الوجودية . .

وأحست دور النشر فى العالم أنها لابد أن تبحث عن معجزة أدبية تؤدى إلى رواج كتب الأدب وكل الأعمال الأدبية الشابة . . وظهرت فى ذلك الوقت أديبات صغيرات فى فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وانجلترا . ولكن بقيت فرنسواز ساجان هى الأديبة وهى الأولى وهى المعجزة !

وفى فرنسا ظهرت طفلة فى السابعة من عمرها تنظم الشعر . الطفلة إسمها مينو دوريه ، وظهر ديوانها الأول بعنوان « أيتها الشجرة أنت صديقتى » والتف النقاد والمؤرخون حول الطفلة الصغيرة يسألونها ويفحصونها . . وكان لهذه الطفلة دوى القنابل ودوى أجراس مليون كنيسة فى العالم . وراح الرهبان والقساوسة يهنئون أنفسهم : أن الله لم يترك الإنسان بغير معجزة !

وفجأة نكست أبراج الكنائس وأقلام النقاد عندما إنكشف أمر هذه الطفلة فالشعر من نظم والدتها مدرسة اللغة الفرنسية التى لم تتح لها فرصة الظهور رغم محاولتها ذلك !

وكأننا نحن أيضا فى الشرق العربى كنا ننتظر مثل هذا الحدث الذى يهز الفكر الراكد ، والأدب الرسمى ، والفلسفة الوجودية الطالعة . فكان الحديث عن فرانسواز ساجان وروايتها التى ترجمت فى بيروت ، هو الحديث . .

ولذلك كان إهتمامنا بأدبيات عربيات نوعا من الرد على المعجزة ، بمعجزة أخرى . . أو كان دليلا على أن أرض الديانات والأنبياء قادرة على أن تلد المعجزات الأدبية أيضا . .

فكان الإهتمام بالأديبة السورية غادة السمان . وكانت مجموعتها القصصية « عيناك قدرى » حدثا أدبيا فالعبارة جميلة والتعبيرات جديدة . ووهج الحيوية والتمرد والتألق والسخط والفرحة بالحب والألم المنتعش وفلول اليأس . . والمشاعر الوجودية !

أو هكذا تصورنا فى ذلك الوقت . ورأيت ورأينا ، أنها أعمق وأروع من فرانسواز ساجان ، أو أننا نريدها كذلك !

ثم ظهرت رواية « أنا أحيا » لأديبة لبنان ليلى بعلبكى . وكان حماسى وحماسنا ، لهذه الأديبة هائلا . واقترحت على الناشر اللبنانى أن اختصرها كما فعل أندريه موروا فى مائتى صفحة بدلا من خمسمائة ، ووافق ولكنى ترددت . فقد رأيت دورى متواضعا جدا !

وأعجبتنى رواية « أنا أحيا » ولكن وجدت فى عباراتها عنفا وغلظة وكرهت أن تجىء على لسان الكاتبة عبارات أقرب إلى البصق على وجه الأب والأم .

وكتبت مقالا بعنوان : أنا أحيا ولكن لا أستحى ! وقلت أن الرواية أعجبتنى لولا قلة أدب المؤلفة وأسلوبها العنيف فى صفع وركل الوالدين ، بلا سبب حقيقى فى مسار أحداث الرواية . . حتى لو كان هناك سبب ، فإننى أعترض على مثل هذا الأسلوب الفظ الغليظ . . وظهرت لها بعد ذلك قصص قصيرة لم أجدها ذات قيمة وإن كانت لها دلالة أخلاقية ، فهى قلة أدب فقط . ولذلك ظهرت ليلى بعلبكى وإختفت مع روايتها الأولى : « أنا أحيا » ، وإختفت الأديبة بعد ذلك بسنوات قبل تزوجت صحفيا إنجليزيا وكسرت قلمها !

حتى غادة السمان ظهرت لها أعمال أدبية أخرى هى تنويعات على ألحان من الكتاب المقدس . . كأنها أعادت صياغة « نشيد الإنشاد » فى لغة عربية ومشاعر متمردة . وإختفت كأديبة وظهرت صحفية لها أسلوب أدبى . ولم تعد معجزة الخمسينات !

وكذلك كوليت خورى الأديبة السورية . ولكن قد حرمتها الظروف من أن تلقى ما تستحقه من الحفاوة . فقد إرتبط إسمها بالشاعر الرومانسى نزار قبانى . وألقى ظلالا على روايتها الأدبية الأولى والكتب التالية !

وظهرت أديبة لبنان ليلى عسيران ظهر لها ديوان شعر صرخات للشاعرة المصرية الشابة جويس منصور . ولأنه كان بالفرنسية لم يلق ما يستحقه من إهتمام كبير . وظهرت أديبات أخريات من لبنان وسوريا أيضا . ولكن لم يكن لهن صدى . . فقد اعتدنا على الصغيرات فى الأدب العالمى حتى لم نعد نلتفت إلى الأدباء الكبار .. كأنه زمن الصغيرات حتى يكبرن . وكبرت الصغيرات ولم يعد أحد يقرأ لهن . كأننا أعجبنا بهن صغيرات فقط ، ولا نريد أن يكبرن . فإذا كبرن ، فهن مثل كل الأدباء فى كل العصور . .

• • •

وظللنا فى مصر نتفرج على الأحداث الأدبية العربية والأوربية ، دون أن نساهم إلا بالقراءة والنقد والإعجاب . .

وكنا سعداء بالنشر والتبشير بكل ذلك . .

أو كأننا سعداء بأن عندنا كبار الأدباء العقاد وطه حسين والحكيم والشعراء أباظة وصالح جودت وأحمد رامي والمطربين عبد الوهاب وأم كلثوم وسيد درويش : وأن لدى الآخرين صغيرات الأدباء . .

وعندما إتحدنا مع سوريا كان السوريون يبهروننا بتفوقهم الأدبي . .فكل مسئول ننفرد به يروى لك شعرا من حفظه أو من نظمه . . وكتبت الصحف والمجلات المصرية على هذا الشيء الغريب : التذوق الأدبي . . وعن الناس الذين لا يخطئون في النحو والصرف وعن المرأة السورية التي هي الأخرى تنظم الشعر وترويه بصوت جميل ووجه أجمل . .

وفي مؤتمر الأدباء في بلودان قامت الشاعرة عزيزة هارون تقول والأدباء يصرخون لجمال الشعر والشعر ، بكسر الشين وفتحها ، والصوت والوجه والعنق . .

وظهرت شاعرة أخرى وفي ضوء القمر تلقي بقصيدة جميلة لم أعد أذكر منها إلا نصف بيت تقول :

تغوصين عطرا وشيئا حرام !

وجعلت هذا النصف بيت عنوانا لمقال نشرته في أخبار اليوم وبسرعة تحول ، الشيء الحرام ، إلى عناوين لمجموعة من القصص القصيرة وأفلام وأغنيات . .

وتساءلنا من تكون الشاعرة الجريئة . وعرفنا . ونسينا الإسم بعد ذلك . .

وفجأة جاءني في مكتبي وكنت وقتها رئيسا لتحرير مجلة ، الجيل ، وزير الثقافة السابق في سوريا د . الجندي . وقال أن الشاعرة إسمها : خالدة عبد الله .

ونشرت للشاعرة قصائد . . ثم نشرت لها قصصا قصيرة وكتبت في مقدمتها . إن لم تكن هذه طفلة أدبية معجزة فهي استئناف للمعجزات الأدبية .

وسألت بعد ذلك إن كان أحد قد رأى هذه الأديبة في دمشق فقال كثيرون : نعم . . وقال آخرون : ولكن هذه القصص من تأليف الوزير نفسه . . فهو الذي نظم لها القصائد وكتب لها القصص !

وقد عثرت فى أوراقى أخيرا على مجموعة من القصص القصيرة بقلم خالدة عبد الله ، بخطها أو بخطه . . ولعلها ولعله لم ينشرها . فإن كان أحدهما حيا ، فالقصص عندى . وإن كانت هذه الأدبية تنتسب إلى عصر المعجزات الأدبية ، فهى لا تخلو من ، نكهة ، أدبية ومذاق شائك متجدد .. تمرد فتاة شرقية على قيود الأب والأم والمدرسة والشارع . .

وما يقال فى مصر والعالم العربى الآن عن إختفاء العظماء أو قرب إختفائهم فى النثر والشعر والطرب والسياسة ، والتطلع إلى المواهب الجديدة ليس إلا تكرار لنداءات وصلوات قديمة من أجل ظهور الطفل المعجزة ليلقى ما لقيه كل أصحاب المعجزات . . نفرح لها ثم نبكى عليها ونحزن على غيابها ونصلى من أجل ظهورها لندفنها فى احتفال مهيب !!



إنها أم كلثوم

الله .. الله .. ياست

انها أم كلثوم .. الله .. الله .. يا ست

لم تكن حياتي جميلة .. ولكن كان فيها كلام جميل .. أو كانت مليئة بأصوات جميلة ..

ففى الصباح الباكر أستمع إلى الأذان الجميل . والدى كان هو الذى يؤذن فى البيت .. وكان يتلو القرآن بصوت جميل .. وكان لى خال جميل الصوت والصورة .. وكان يستريح إلى وجودى معه .. أذهب معه فى الليل إلى بيوت أقاربه . وكانوا يطلبون إليه أن يغنى . وكانت لى خالة صوتها جميل أيضا .. ففى صوتها ، بحة ، لم أسمع لها مثيلا إلا عند ممثلة إيطالية إسمها ، إليانورة روسي دراجو ، .. وحفظت القرآن الكريم . أجمل كلام . وحفظت مئات الأبيات من الشعر .. أرددها وراء أبى . بعض هذه الأبيات أعرف معانيها ، والباقى أعرف موسيقاها . .

أما طفولتى نفسها فلم تكن جميلة . ولا أظن أننى فى هذه السن المبكرة قد أحسست بشيء من كل ذلك .. فما الذى يعرفه طفل .. يلهو طول اليوم ثم يأوى إلى فراشه والدموع على خده معظم الوقت ، فقد كانت أمى تضربنى كثيرا . وعرفت فيما بعد أننى لم أكن المقصود بذلك .. فقد كانت في ضيق دائم فوالدى على سفر . ولا تراه ولا أراه إلا قليلا .. وهى لا تستطيع أن تضرب والدى ، فأنا البديل .. أما لماذا الضرب ؟ فلأننى أنزل النيل ، ولا أعرف السباحة ، وأصعد النخل وأضرب الأطفال .. وأمشى وراء أحد الشحاتين .. وكان صوته قويا وكنت لا أتبين الذى يقوله . وكنت أعتقد فى تلك الوقت أن صوته جميل . .

وتمنيت وأنا صغير أن أدخل الأزهر .. ألم أحفظ القرآن ؟ ألست أحب أن أكون قارئا جميل الصوت . فقد كنت أظن أن الأزهر هو الذى يعلم الناس

القراءة الجميلة . ولم أتبين أن والدى كان جميل الصوت وخالى وخالتى .. وأنا أيضا ، ولم ندخل الأزهر . .

وأنا طفل ذهبت مع والدى لسماع السيدة منيرة المهدية . أنا لا أذكر صوتها ولا صورتها . ولا أعرف المكان . وأتذكر أننى ذهبت معه لكى أستمع إلى المطرب عبد اللطيف البنا .. ولم أره إلا قبل وفاته فى بيت الأستاذ محمد عبد الوهاب . فوجدت رجلا نحيلا ناعم البشرة والصوت أيضا . .

وفى إحدى المرات توقفت بنا السيارة وسط الحقول . وقيل لنا : هنا ولدت أم كلثوم .. إنها قرية طماى الزهايرة .. وكان لى زميل فى الدراسة من هذه القرية إسمه منير .. وكان فى مثل سنى .. جميل الصورة : أشقر .. أزرق العينين ذهبى الشعر .. وكنا نسميه السلطان . فهو يركب حمارا أبيض كبيرا . ويغنى وهو على ظهر الحمار .. وأغنياته لأم كلثوم .. وكنا نلتف حوله ونطلب إليه أن يغنى . وسمعنا بعد ذلك أنه ذهب إلى القاهرة وأنه أصبح مطربا مشهورا . ولكن عرفنا فيما بعد أنه دخل الجيش . خرج من القرية ولم يعد .

وتأكد حبى للغناء . فقد كان يتردد على بيتنا شحاذ . وكان يغنى . فإذا سمعنا صوته سارعنا بإعطائه الخبز وبقايا الطعام . وكان يطلب بعض السكر . وكنت أتسلل بالسكر والشاى واللحم مقابل أن يغنى . وكنت أطلب إليه أن يقف أمام الباب وأقف أنا فى البلكونة . وكانت المرة الأولى التى استمعت فيها إلى أغنية : يا جارة الوادى لمحمد عبد الوهاب .

كل يوم يجيء هذا الشحاذ ، يقف أمام الباب ، وأنا أطل عليه من البلكونة .. ويغنى يا جارة الوادى .. وبلبل حيران .. ياللى ظالمانى ..

وفى يوم ضبطنى والدى وقد أمسكت غطاء ماكينة الخياطة ، وهو من خشب رقيق . نصف إسطوانى . وقد أخفيت رأسى فيه ورحت أغنى : يا جارة الوادى .. وكان هذا الغطاء يضخم الصوت ويجعل له صدى فى أذنى .. ثم سمعنى وأنا أرتل القرآن فى داخل هذه الإسطوانة الخشبية . وكان يضحك . ولم تكد أمى ترى ذلك حتى ضربتنى بعنف . فهى لا تريد شيئا مما أريد أو مما يريد والدى .. لا قرآن .. ولا أزهر .. وإنما أن أكون مثل أقاربها من المحامين والوزراء .. وهى التى إعترضت على أن أحفظ القرآن فى الكتاب خوفا من أن أصبح شيخا معمما أو قارئا فى المقابر أو خطيبا فى مسجد . ولا

أمام إصرار والدى ، لم تفلح فى الإعتراض ولم تمنعه دموعها وتهديدها بترك البيت .. وتركت البيت . وأمام بكائنا جميعا عادت . وامتنعت أنا عن الذهاب إلى الكتاب إرضاء لها وخوفا منها . ولكن لسبب ما غيرت رأيها ، وكانت تشجعنى على الذهاب إلى الكتاب . .

وأول « فونوغراف » أو « جراموفون » رأيته فى حياتى كان فى دكان يملكه إبن العمدة . وهو عبارة عن صندوق خشبى كبير . وله إسطوانات سوداء وتدور هذه الإسطوانات وتتدلى فوقها إبرة . هذه الإبرة لها ذراع .. وهذه الإبرة هى التى تجعل الإسطوانة تنطق بكل الأغانى القديمة .. أعجوبة .. معجزة .. وكانت أصوات الإسطوانات « مسرسعة » . أم كلثوم وعبد الوهاب وصالح عبد الحى .. وكان الأداء سريعا . وكنت أكثر الأطفال إنتظاما فى الذهاب إلى هذا الدكان .

هل فى هذا الوقت بدأت أغنى لنفسى بصوت مرتفع . من الذى قال لى أن صوتى جميل « جدا » .. لا أعرف .. فهل أنا الذى قررت أن أغنى ، فلما سمعت أن صوتى جميل ، مضيت فى الغناء .. وفى ذلك الوقت حفظت الأغانى ، وشعرا كثيرا صوفيا .. ورحت أتردد سرا على الموالد .. وأقف إلى جوار المنشدين وأشترك فى حلقات الذكر .. وأتمايل وأدوخ وأتساقط من الإعياء .. ولكنى مأخوذ بما يغنون وينشدون .

وكانت أول مرة أرى القسوة من والدى . لم يصفعنى على خدى . ولكنى أحسست أن يده كأنها فعلت ذلك . فقد وجدنى قد لففت حزاما حول وسطى وأمسكت مقشة ورحت إكنس أمام بيت سوف يقام فيه ذكر .. والذى حدث أن رجلا رآنى واقفا فنادانى يا ولد .. إكنس أمام البيت !

وفى الليل قال لى والدى : يا بنى .. إن كان يعجبك صوت حسن ـ الشحاذ ـ فسوف أجعله يأتى إليك كل يوم تلعب معه .. وسوف أبعث إليك بمتولى .. إبن عبد الرسول خولى الزراعة فصوته أيضا جميل !

وكان والدى يستطيع ذلك وأكثر .. فهو مأمور تفتيش زراعة عز الدين بك يكن ..

والشحاذ أصبح يعمل فى بيتنا .. وإبن الخولى أيضا .. وكان حسن يضيق

بإلحاحي المستمر على أن يظل يغني أغنية واحدة طوال اليوم .. هو يزهق أما أنا فلم أكن أمل .. وكنت أصاحبه في الغناء .. ثم أغني وحدى .

وسمعت من الراديو محمد عبد الوهاب وأم كلثوم ومنيرة المهدية وفتحية أحمد وأصوات كثيرة أخرى لا أذكرها . وألصقت أذني بالراديو . وتحركت حنجرتي مع كل الأصوات . وبيني وبين نفسي أحسست أني سوف أكون مطربا .. ولا شيء آخر .. ولا أعرف ما معنى أن يكون الإنسان كذلك . ما الذى يفعله . ما الذى يكون عليه مستقبله .. لا شيء .. فقط أريد أن أغني .. وكثيرا ما فتحت الكتاب ورحت أغني ولا أقرأ . .

وكان ذلك لعبا ولهوا . وجاء الجد . ودخلت المدرسة . وكان لابد أن أنجح وأن أتفوق . وأن أكون الأول . هذا ما كانت تصرح به أمي .. فهي لا تريدني أن أكون مثل فلان الذى فشل . وفلان العاطل ، وفلان الذى أضاع أرضه على البنات .. وككل طفل كنت أسمع ذلك ، ولا أعرف ما هو المطلوب بالضبط .. ما هو المطلوب أكثر من أن أذاكر وأن أنجح وأن أكون الأول .. وعرفت فيما بعد أن غضبها وسخطها ليس بسبب خوفي من ألا أتفوق ، وإنما هو خوف عام وقلق عام .. فزع من كل شيء حولي وحولنا . .

ثم إتخذت أمي موقفا محددا : مفيش غناء ولا كلام فارغ .. حسن لا يدخل البيت .. ومتولى لا يدخل البيت .. ما حرصك على أن تصاحب الشحاذين والخدامين .. لماذا ترفض إبن المأمور .. ولماذا تكره إبن العمدة .. هل تريد أن تكون شحاذا ؟ هل تريد أن تكون لصا يسرق الدجاج .. تحفظ القرآن وتكنس الأرض ؟!

وفي يوم نادتني أمي من البلكونة ثم قذفت بالجراموفون .. وتحطم على الأرض ومعه كل الإسطوانات . لا أعرف كيف أصف ذلك .. ولا عرفت في ذلك الوقت .. فقد حزنت حزنا ، غامرا ، لم أستطع أن أبكي .. ولم أستطع أن آكل ولا أن أشرب .. ولا أن أفتح كتابا .. ولا أن أعترض !

إنتهى . لا أعرف ما الذى إنتهى في داخلي ، لا أعرف ما الذى إنسد في وجهي ، ولا الذى إنسحب من الهواء فأصبحت مختنقا .. إن الأرض قد إنشقت تحتي .. وهويت في هدوء وصمت تام إلى أعماق مظلمة صامتة .. لا صوت لا ضوء .. لا أحد في الدنيا في تلك اللحظة .. إنتهى الذى ابتدأ !

ومضت سنوات طويلة والدراسة هي شاغلي .. وانتقلت من المنصورة إلى القاهرة لأدخل الجامعة . وكنت أسكن فى بيت فى شارع الأمير حسين بالزمالك .. ليس فى البيت الذى هو قصر عظيم تملكه السيدة نعمت هانم يكن ، وإنما فى بيت مجاور له . له سلم خشبى . وكنت أعيش مع والدى . وفى الحديقة الصغيرة يظهر جنود قوات الحلفاء . إنهم يوغسلاف . يأكلون ويشربون ويرقصون .. وفى الليل يطلبون إلى البوابين أن يرقصوا حول النار .. كأنهم فى أواسط أفريقيا .. وكان يبهرنى شكل النار والأشباح السوداء حولها .. وكان الجنود اليوغوسلاف يتمايلون ويرقصون وزجاجات الخمر فى أيديهم .. كل ليلة . وكان البوابون يغنون هم أيضا . ويتقدمهم واحد يغنى وهم يدقون الطبول بعنف . وبعضهم أمسك غطيان الحلل وراح يدقها بالشوك والسكاكين . .

وفجأة وفي إحدى المرات نزل والدى بسرعة . وطلب إليهم أن يكفوا عن كل ذلك فورا . وتوقفوا . وتوارى البوابون .. والجنود .

إنها أم كلثوم .. أم كلثوم وترددت هذه الكلمة ألوف المرات .. همسا ولمسا بالفم للأذن .. وتصفيقا وقفزا عاليا .. أم كلثوم سوف تجىء الليلة لتغنى فى عيد ميلاد الهانم .. وكانت دهشتى عميقة . هل كنت سعيدا ؟ لا أظن . وإنما كنت فى دهشة غير واضحة .. أم كلثوم التى نسمعها ولا نراها . ولا أظن أننى رأيت لها صورة واضحة ولابد أن الصحف والمجلات تنشر صورتها . ولكنى فى ذلك الوقت لم أكن من قراء الصحف . فكانت معلوماتى السياسية والإجتماعية متواضعة جدا . فقد أحسست فى ذلك الوقت أن الطالب لا يرفع عينه عن الكتاب ولا يذهب إلا لمكانين إثنين : الكلية والبيت ولذلك فلا مقهى ولا سينما . .

ووقفت مع كثيرين على باب القصر . وجاءت أم كلثوم ووراءها عدد من العازفين يحملون العود والكمان والقانون .. فستانها طويل وعلى كتفيها بالطو .. واتجهت إلى السلالم وصعدت وأضيئت الأنوار كلها وأغلقت النوافذ الزجاجية .. وعندما سمعنا نغمات موسيقية تجىء من بعيد تسللت على السلم إلى ما يقرب من النوافذ .. ومن بعيد وقفت أم كلثوم تتمايل ، ونحن لا نسمع ما تقول وأمامها عشرون أو ثلاثون من الضيوف . جاءوا ودخلوا دون أن

يدرى بهم أحد .. ولم أجد والدى بين الحاضرين . ولكنه فى داخل القصر وبقية الموظفين أيضا .

وعندما ذكرت السيدة أم كلثوم بهذه الحادثة بعد ذلك بوقت طويل ضحكت وقالت كان من الممكن أن تقع كارثة ..

فقد أصر أحد الباشوات على أن تغنى أم كلثوم عيد ميلاد سعيد بالإنجليزية ..

وهى رفضت . لأنها لا تريد ولأنها لا تعرف هذه الأغنية ..

فإذا بأحد الباشوات يقترح أن تشدو السيدة أم كلثوم بأغنية زفة العروسة . لماذا ؟ لأن أحد الباشوات قد لاحظ أن نعمت هانم يكن كانت فى تلك الليلة عروسا لا ينقصها إلا عريس .. وأصرت أم كلثوم على الرفض .. أو .. تخرج فورا !

ولم تكن ليلة سعيدة .. فلا الهانم راضية عن هذا الرفض أو التعالى من أم كلثوم ولا أم كلثوم كانت سعيدة .. ولا والدى عندما إنتحى بها جانبا يدفع لها الأجر .. فقد كان أقل من الذى إتفقت عليه .. ولا أنا .. فقد سكت والدى حتى الصباح ، ولم يشأ أن يحكى لى ما حدث !

ثم جاء بواب أم كلثوم وفى يده مظروف يقول : الست مش عاوزه الفلوس دى !

• • •

وأحببت صوت أم كلثوم .. وسهرت وسعدت بأغانيها .. ومضت سنوات طويلة قبل أن أراها وأن أجلس إليها . كان ذلك فى بيتنا . دعوتها للعشاء . فجاءت . والآن أراها بوضوح : إنها قصيرة القامة ، وتراها فى الصور طويلة فارعة . إنها سمراء قمحية ، وتراها فى الصورة وعلى الشاشة بيضاء .. إن الماس يتدلى طويلا من أذنيها ، ويحتشد هلالا على صدرها . وهى عندما تدخل ، كأنها تتمشى على المسرح .. فهى مركز الضوء . وكل الأصوات يجب أن تتوقف . والكل يجب أن يقفوا . وأن يصافحوها . وأن يتزاحموا عليها .. وبسرعة ينقسم الضيوف نصفين : السيدات حولها ، والرجال فى انتظارها .. وبسرعة يتعالى الضحك : إنها نكت أم كلثوم وقفشاتها .. وهنا يطالب الرجال بنصيبهم من النكت وخفة الدم .

وأم كلثوم تفضل أن تجلس مع الرجال فهم يحدثونها فى السياسة وفى أخبار الدنيا وهى تريد أن تعرف . .

وأم كلثوم تأكل أى شىء ولكن بحساب . وهى لا تشرب الساخن جدا ولا البارد جدا . وهى تتعشى ساعة وساعتين كل يوم . وهى التى صانت نفسها وجسمها .. وهى التى جعلت المطربة محترمة .. فهى لا تغنى فى الكباريهات ولا تغنى للسكارى . وهى لا تغنى بينما حولها أناس يرقصون .. هى التى رفعت قدر المطربة .. وهى التى فرضت إحترامها على الناس .. فواجهها الناس بسلوك محترم .. هم محترمون وهى عظيمة الإحترام .

وحفلات أم كلثوم الشهرية حفلات قومية . قد وحدت بين العرب من المحيط إلى الخليج .. جمعتهم على الحب والفن .. وضعت رؤوسهم على أيديهم وفى نفس واحد يقولون : الله .. يا ست .. الله ..

وجاءت الطائرات من كل العالم تحمل عشاقا لصوتها مرة كل شهر .. فإذا غنت أم كلثوم فالإذاعة كلها قد تفرغت لها .. وأغانيها تذاع كما هى بما فيها من ضوضاء وتصفيق .. فذلك عنصر هام من معالم الحفلة الحية ..

وطالت الأغنية الواحدة ساعة وساعتين .. والجمهور يطلب منها أن تزيد وتعيد ويقولون : للصبح يا ست !

وعشاقها يحفظون أغانيها تماما ، فإذا أدخلت تعديلا جديدا صرخوا بهجة ونشوة مؤكدين أنهم يعرفون أن هذا جديد قد أضيف للأغنية .. ويتحدث عشاقها فيقولون : أنا عندى التسجيل الذى رددت فيه أم كلثوم : يطولوك يا ليل ٧٥ مرة ..

فيقول آخر : وأنا عندى التسجيل الذى قالت فيه : يا اللى كان يشجيك أنينى ٩١ مرة !

وتسجيلات ضحكت فيها ، وتسجيلات تنهدت فيها .. وتسجيلات ظهرت دمعة فى عينيها .. قصص وحكايات ونوادر ، والناس يعرفون من الذى يجلس فى الصف الأول من عشرين عاما ، ولا يغير مكانه .. ومن الذى يجلس فى الصف الثانى ..

وكانت حفلات أم كلثوم هى الفرصة الأنيقة لكل سيدات المجتمع فيرتدين أشيك وأجمل ما عندهن .. حفلات تؤدى إلى رواج الكوافيرات والترزية والتكسيات والمطاعم والفنادق وشركات السياحة ..

والناس يعرفون أن أم كلثوم قبل حفلتها تجرى البروفات .. ثم تنام مبكرا قبلها بيوم . ولا تأكل ولا تشرب .. ثم تجىء فى سيارتها الكاديلاك وتدخل بها مسرح الازبكية . والناس ينتظرونها على الباب . وينظرون إلى وجهها ويطمئنون عليها ويؤكدون لبعضهم البعض فى داخل المسرح : رأيتها .. قمر .. قمر ١٤ .. اللهم صلى على النبى ... للصبح إن شاء الله !

وينفتح الستار عن أم كلثوم . وقد جلست على مقعد ، ومن ورائها : عازف القانون أحمد عبده صالح وعازف العود القصبجى وعازف الكمان الحفناوى . معالم التخت الغنائى .

وبقية الطقوس المعروفة للعالم العربى كله .. وتبدأ الموسيقى .. ثم تنهض أم كلثوم . والمسرح يزلزله التصفيق . وتتقدم أم كلثوم مشدودة القوام عالية الرأس : كبرياء وأبهة وعظمة وثقة بالنفس وحب الناس .. وفى يدها المنديل الحرير الذى تمسكه بيد ثم تمسكه باليدين معا .. وتعتصره وهى تغنى .. وترفع يديها الإثنتين وتتراجع برأسها .. ثم تتراجع كلها وتتقدم من الميكروفون .. ويستطيع المشاهدون أن يتحدوا المشاهدين أنفسهم كل حفلة ، إن كان أحد يستطيع أن يصف لك ملامح أم كلثوم .. أو وجهها أو شعرها الأسود الذى لم تتغير تسريحته .. لا أحد . فهى طاقة من النور .. فهى نافورة من النعيم .. وهى عروس فى حفلة زفافها إلى مليون قلب عربى .. إنهم يجدونها طويلة عملاقة .. وهم لا يرونها وإنما هم يرون صوتها يصل الأرض بالسماء .. ويبقى فى السماء كثيرا وطويلا وعميقا .. ثم يبرق ويلمع ويلمس ويسحر يطيح بالعقل فالكل صغارا وكبارا فقدوا عقولهم .. وأسلموا قيادهم وزمامهم لأم كلثوم .. طاغية ؟ طاغية جميلة ؟

ساحرة ؟ ساحرة نبيلة ..

وفى اليوم التالى لا تسمع إلا صوت أم كلثوم فى كل بيت وفى كل شارع وفى كل سيارة .. كأن الناس إستمعوا إليها نياما . ويريدون أن يتحققوا مما رأوا

فى المنام .. كأنهم يريدون أن يناموا على ذراعها .. على صدرها تحت قدميها .. إنها أم كلثوم .

ـ ومقبول منك أى شىء يا ست !

قال لى الموسيقار رياض السنباطى أنه زار أم كلثوم فى اليوم التالى لإحدى الحفلات . وكانت تستمع لإحدى الأغنيات فوجدها جالسة تتمايل وتقول : الله يا أم كلثوم !

• • •

وعرفت أم كلثوم فى الحرب .. بعد النكسة العسكرية والهزيمة النفسية والقهر التاريخى . كنا جميعا فى الأرض ، تحت الأرض .. حفرنا لأنفسنا قبورا هربا من أنفسنا .. كنا الشهيد والحانوتى .. وكنا « المعددة » التى تزعق بأعمق صوتها وتقول : يا سبعى !

يا مائة ألف سبع فى ست ساعات ..

ولم تكن أم كلثوم فى حاجة إلى فلسفة أو دراسة عميقة للتاريخ لكى تساهم بصوتها . وساهمت . ولكن أرادت أن تذهب إلى أبعد من ذلك ، فطلبت منى مجموعة من النداءات .. مئات النداءات تتوجه بها إلى الشعب تطلب إليه الصبر على البلاء .. تطلب إليه أن يربط الحزام .. وألا يشكو من الحرمان .. فقد عانت شعوب غيرنا ويلات الهزيمة ؟ ألمانيا واليابان وفرنسا ..

وأذيعت نداءات أم كلثوم .

وطلبت أم كلثوم من عشاقها أن يتبرعوا بالذهب .. بالدبل والأساور والأقراط من أجل المجهود الحربى .. وتبرع الناس .

وقد طبعت لها فى « أخبار اليوم » إيصالات تعطيها لمن يتبرع بشىء . وقد جعلت لها شعارا نصف بيت من أحد أناشيدها الوطنية : نغنى ولا نهون !

وكانت تطلبنى كل ليلة وتسألنى عن أخبار الحرب . وإن كانت أمريكا قد أصابتها كارثة . أو أن الله كما خلقها أغرقها فى المحيطين الأطلسى والهادى ..

وقد إقترح على أم كلثوم أحد عشاقها المؤمنين قراءة « عدية ياسين » على إسرائيل وإنجلترا وفرنسا وأمريكا . وربنا قادر على أن يسحق هذه الشعوب .

ولكن قيل لأم كلثوم أيضا أن الرئيس جمال عبد الناصر بعد إنفصال سوريا وبعد النكسة العسكرية قد غاب عن الوجود .. أو فى حالة غيبوبة أو غياب .. وأنه لم يعد هناك .. وأن مصر يديرها الذين حوله وأنه لا يدرى ولم يعد يدرى .. إنتهى كل شىء . وإنتهى الرجل . وكان الذى يحدثها هو المرحوم كامل الشناوى . ولم يكد يكمل هذه المعلومات والتحليلات حتى بكت أم كلثوم .. تماما كطفل سمع كل هذه الأخبار المفاجئة عن والده !

ودخلت أم كلثوم إلى غرفتها . وخرجنا ليكمل كامل الشناوى ما الذى عساه أن يحدث فى مصر بعد ذلك !

وفى الليل وقبل أن أنام كان صوت أم كلثوم الأجش الغليظ يسألنى فى التليفون إن كان صحيحا ما قاله كامل الشناوى .. أو أنه يبالغ على طريقته فى الكلام : وإن كان هذا هو رأى كل الناس .. لقد جعلنى أعدل عن السفر للخارج .. ولم تعد عندى أية رغبة فى الغناء فى حفلات عامة .. ولا أريد أن أقابل أو أرى أحدا !

وكان لابد أن يذهب إليها كامل الشناوى من جديد . ورافقته وقال لها ضاحكا يا ست إنما أردت أهيئك نفسيا لغناء قصيدة جديدة حزينة وفى نفس الوقت تشعل الهمم من أجل الثأر .. وأنت لم تنتبهى إلى ما قلت .. فأنا قلت لك : كأن عبد الناصر .. ليس هنا .. ولكن أنا سمعت من رجال حول عبد الناصر ، أنه مثل الكرة المطاط كلما ضربته فى الأرض إرتفع أكثر .. وهو سوف ينتقم أعظم إنتقام .. وأن الإنسحاب كان خطة .. وعلى رأى (وأشار ناحيتى) أنه كالذى يريد أن يقفز فوق قناة واسعة ، فلابد أن يتراجع إلى الوراء . !

وصدقته أم كلثوم . وأكلت وضحكت . وترددت على صديقات لها . ونامت نوما عميقا !

• • •

وتعرضت أم كلثوم لكثير من النقد والتجريح ..

مرة هوجمت لاختيارها الأغنيات المليئة بالذل والهوان .. وبعض أغانيها

من تأليف الشاعر الرومانسى أحمد رامى .. أى أنها تدعو إلى الذل والهوان فى الحب .. تدعو إلى الإستسلام الإجتماعى ، والتراخى السياسى .. والتواكل الدينى .

وقيل أن حفلاتها الغنائية الطويلة ، جعلت الناس يتعاطون المخدرات حتى لا يشعروا بمرور الوقت . إذن فأم كلثوم هى التى نشرت السلبية وروجت الحشيش فى مصر والعالم العربى !

مع أنهم فى تركيا يزرعون الحشيش ولا يعرفون أم كلثوم . وفى الصين حيث مئات الملايين تتعاطى الأفيون فى نهاية القرن التاسع لم يسمعوا حتى عن مصر !

ولا أظن أم كلثوم هى المسئولة الآن عن إنتشار كل أنواع المواد والبودرة المخدرة . ولاهى التى قتلت سيد درويش !

ولما هوجمت أم كلثوم لأنها - أيضا - تغنى القصائد الدينية ، قيل أنها تدعو إلى التعصب الدينى . فكان لابد من الدعاية لفيروز المارونية .

والذين يؤيدون اللهجة العامية ضد الفصحى ، هاجموا أم كلثوم لأنها إتجهت إلى غناء القصائد الشعرية التى لم يكن أحد يسمع بها لولا أنها غنت نهج البردة والهمزية والنيل وقصائد إبراهيم ناجى وكامل الشناوى . .

وهوجمت أم كلثوم أنها حجبت الكثير من المواهب الغنائية عن الظهور . لا بعظمتها وأغنياتها الباهرة .. ولكن بشخصيتها والصحف التى تساندها - مثل صحف أخبار اليوم أكبر أوركسترا صحفى .

وماتت أم كلثوم وإنفتحت الأبواب والإستديوهات لكل الأصوات من الشرق والغرب . وظل مكان أم كلثوم شاغرا ..

وبدأت « حرب الكواكب » بين الأصوات من الجزائر والمغرب وتونس ولبنان . ولم تكد هذه الحرب تبدأ حتى خمدت .. فهى حرب بلا قضية .. لأن أم كلثوم قد ذهبت بجسمها ، أما مقامها ومكانها وعرشها . فهو كما هو . .

وبدأنا نرى المواقف الهزلية .. واحدة تسمى نفسها « سيدة الغناء » - وهو اللقب الذى أعطته الجماهير لأم كلثوم ..

وأطلقت أنا عليها : سيئة الغناء العربى ..

واشترت من يقول لها فى حفلاتها يا ست .. يا عظمة على عظمة ..
فلا هى ست ولا هى عظمة .. ولا هذه أصوات .. وإنما هى شوشرة مأجورة .. وتوالت الوجوه الغنائية على الشاشة . وكما ظهرت إختفت . وسوف تظهر وكأنها لم تظهر . فالفن الجميل إستفتاء حر شعبى ..
أما الذى نراه الآن فهى حملات إنتخابية مدفوعة الأجر ..
وليس من الضرورى أن يكون صوت آخر يخلف أم كلثوم . أو يكون فى مثل عظمتها ، هذا العام أو الذى يليه أو حتى هذا القرن .. ولكن سوف تظهر موهبة يوما ما . ولكن نحن نستعجل الموهبة . لأننا إعتدنا أن نلتف حول أحد .. فالقلب له واحد .. والحب لشخص واحد .. وهذا الواحد نستغنى به عن الأصوات المكسرة التى ليست صحيحة ولا كاملة ..
سألت أم كلثوم عن أحب الأصوات إليها قالت : فايزة أحمد
وعن أظرف الأصوات قالت : شادية
وعن أقدر الناس على تلحين القصائد قالت لى : السنباطى
وعن أعظم الملحنين قالت : محمد عبد الوهاب
وعن الصوت المتميز قالت لى : فيروز
وعن الصوت الذى تخرج فى مدرستها الغنائية قالت لى : سعاد محمد
وعن أم كلثوم قالت لى : أم كلثوم !

• • •

كانت أم كلثوم تحب أن تبدو أنيقة ..
وكانت السيدات يتوقعن منها فى كل حفلة أن ترتدى فستانا جديدا .. القماش هدية تجىء من صديقات عربيات يحضرنه من باريس . والتى تفصل لها الأزياء دائما هى مدام فاسو . .
إقترحت على أم كلثوم أن أصور كل أزيائها وأنشرها فى مجلة آخر ساعة . وكنت وقتها رئيسا للتحرير ووافقت . .
ورافقنى الصديق أحمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم . وكنت حريصا على إنقاذه مما هو فيه .. فقد وقع فى الأسر سنة ١٩٦٧ . وحتى لا يعرفه

اليهود ، دفن الكاميرات فى الأرض . ودفن معها رغبته فى أن يعود إلى التصوير .. فلم يكن من الممكن أن يحمل الكاميرات وأن يصور الذى رآه من إنسحاب القوات المصرية . ولا من الوحشية الإسرائيلية . وأن يعود بكل ذلك إلى « آخر ساعة » .. وكأنه أحس بأنه أهمل فى أداء واجبه . .

ولم أكد أعرض عليه فكرة أن نذهب معا إلى « أم كلثوم » أملا فى أن يولد على يديها .. وأن تبرق عدساته أمام فساتينها حتى وافق فورا ..

وذهبنا وأمضينا ساعات طويلة وهى ترتدى فستانا بعد فستان . وتقف كأية مانيكان .. فقد إعتادت أن يتحدث الناس عن صوتها ، لا قوامها ، وعن جمال الأداء لا عن جمال الفساتين .. فكأنها ليست صاحبة أجمل صوت ولكن أجمل فساتين أيضا ..

وأسعدها أكثر عندما عرفت أن الجيل الجديد من الشبان يتزاحمون على حفلاتها وعلى أغانيها القديمة . إذن لقد تكامل حب الناس لها : صوتا وذكاء ومرحا وأناقة ووطنية !

وتهامس الناس بعد ذلك بأن صوتها بدأ « يخسع » . أى ينقص .. وأنها لم تعد قادرة على أن تصعد السلم الذى كانت تصعده مقاما مقاما . الموسيقيون لاحظوا ذلك .. وعشاقها أيضا . وتمنينا جميعا ألا نرى ولا نسمع هذا الذى أمامنا .. وكانت هى أول من أدرك ذلك . وكأنها أرادت أن تثبت لنفسها أنها ما تزال كما هى .. وحاولت وتعبت وبدأ الناس يحزنون على ذلك . .

وأدرك الناس أن محمد عبد الوهاب كان حكيما ، عندما انسحب من أمام الميكروفون . تاركا المجال لأصوات شابة أقوى وأقدر .. وإن كان محمد عبد الوهاب « يدندن » أحيانا .. فنجد فى ذلك فاكهة نادرة .. ولكنه ابتعد .. واكتفى بأن يكون صاحب اللحن والموسيقى !

وذهبت لأرى أم كلثوم لأول مرة . فلم أذهب إلى حفلاتها قبل ذلك . وتألمت كثيرا . فهى تجد صعوبة شديدة فى الأداء . وهى تهتز بعنف عندما تغنى فالصوت غير قادر على الخروج .. فقد إنسد الطريق إليه .. أو هو يتعثر .. ويقال فى تلك الليلة أنها بكت .. ويقال أن بعض الحاضرين بكوا . وكانت آخر حفلاتها الغنائية .

ويقال أنها مرضت لما أصابها . وكانت تتمنى لو ماتت فى فنها ..

وقيل أن أحد الأطباء سوف يعالجها . يعالجها من ماذا ؟! من السن ؟ من المرض ؟

ولكن أحدا لم يستطع أن يقول لها : كفى يا ست !

حاولت فيما كتبت .. واستدرجتها إلى أن تقرأ . فلم تفهم ما أردت .

وعاشت أم كلثوم فى قلوب الناس وبقلوب الناس ، وما تزال ..

• • •

قلت لأم كلثوم : هل تعرفين أننى غنيت إحدى أغنياتك فى مؤتمر دولى ! فقالت بسرعة : ومتى أفرجوا عنك ؟ !

حدث .. كان ذلك مهرجانا للشباب فى فيينا . ذهبت شابا صغيرا على أننى طالب ، مع أننى كنت وقتها مدرسا فى الجامعة . سألت : إن كان أحد من المصريين قد شارك فى هذا المؤتمر . قيل : لا أحد . فقلت : إذن أقوم بتمثيل مصر .

وجلست . وبعد أن توالى أعضاء وفود الدول المختلفة . كل واحد يتحدث عن بلاده . وعن مشاكل الشباب . فجأة وبسرعة غريبة سمعت من يقول : مندوب مصر يتفضل !

ونهضت والنار فى رأسى . لا أرى أحدا حولى . ولا أسمع . فلم يخطر على بالى أن أقف وأن أجيب عن أسئلة كثيرة . وفجأة وكالصاعقة جاء السؤال المدوى : هل يتفضل المندوب المصرى فيغنى مقطعا من النشيد القومى !

هل تحول الناس إلى موج يعلو ويهبط .. هل اشتعلت النار فى هذا الماء .. كما يتفجر البركان وسط البحر .. هل حريقه كانت فى جسمى ، وأنا أسمع صوت البخار فى أذنى .. هل أنا الذى أغنى : هلت ليالى القمر .

لقد نسيت النشيد القومى .. أو النشيد الوطنى . ولم أتذكر إلا هذه الأغنية لأم كلثوم .. وحولتها إلى نشيد حماسى .. ثم عدت إلى مقعدى والضوضاء تتعالى فى كل مكان .. ونظرت حولى .. وانخفضت درجة حرارتى فجأة .. وكأن لوحا من الزجاج كان مغطى بالضباب فامتدت يد سحرية تمسحه فرأيت

بوضوح وجوها تضحك .. وعلى المقاعد وساقطة على الأرض .. إنهم جماعة من المصريين جاءوا فى آخر لحظة وسمعونى أهتف للقمر !

• • •

سئل الشاعر الظريف كامل الشناوى : من هم بخلاء مصر ؟

أجاب بسرعة : محمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم وأم كلثوم محمد عبد الوهاب يفضل لك أن تشرب القهوة قبل أن تزوره ..

وتوفيق الحكيم يدعوك بحماس شديد لأن تشرب معه على حساب نجيب محفوظ !

وأم كلثوم تكره أن يفتح أحد هذه السيرة !

• • •

فما الذى تسمعه من الميكروفون وعلى الشاشة الآن .. ؟

إنها أصوات محدودة الدخل .. إن أصحابها من صغار الملاك .. إنهم « فكة » غنائية .. لا مانع . ما دمنا لا نجد أم كلثوم ولا فايزة أحمد .. فالموجود يمد . ولابد أن نمنح المواهب الصغيرة فرصة أن تكبر ، فإن لم تكبر ، فسوف تظهر مواهب أخرى يوما ما .

وقد مرت على مصر مئات السنين قبل أن تظهر أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ..

والأصوات التى تتزاحم على آذاننا لها صفة واحدة : الجرأة ..

إنها أصوات جريئة فقط . أى عندها القدرة على الظهور والغناء والإستمرار . هى تغنى ونحن نعتاد عليها ..

وبعض الأصوات التى لم تقبلها الإذاعة إتجهت إلى شركات الكاسيتات . تغنى ما يعجب الناس من العبارات العادية والنكت النابية . وتكسب كثيرا . وتغنى أيضا فى الحفلات وفى الكباريهات .

والأصوات المحدودة جدا تغنى للأطفال . .

وارتفع أجر الملحنين . وعجز المصريون عن الدفع . ولذلك لابد أن يعملوا فى أماكن كثيرة قبل أن يتجمع لديهم المبلغ الكبير . فبعض المطربات المغاربة جئن ومعهن الفلوس . فكانت لهن الأغانى والفرصة . وتزاحمن على الميكروفون . ووجودهن فى مصر دليل على سعة الصدر المصرية . ودليل على أن مصر هى قاعدة إطلاق الصواريخ الغنائية .. والتى لم تطلقها مصر فى الفراغ الذى تركته أم كلثوم ، فلا هى غنت ولا أمل عندها فى أن تغنى بعد ذلك فى أى مكان .

تماما مثل فايزة أحمد وصباح ونجاح سلام وسعاد محمد ونور الهدى وعزيزة جلال وسعيدة وميادة وغيرهن . .

ولكن لم تظهر مطربة واحدة إلى جانب شادية ونجاة ومها صبرى وياسمين . فالأصوات التى لدينا صغيرة . قدرتها تبعث على الأسى والحزن . أو هى قدرات « تقليدية » . قدرتها على تقليد أم كلثوم فقط .. حتى الأداء لا تملك إلا أن تهز كتفيك لـه.. كأنه طائر وقف على كتفك فهززته لكى يقع بعيدا عنك ، فبدلا من أن نساعد صاحبات هذه الأصوات ، فإننا نتبارى فى التخلى عنها ، لعلها تسقط بعيدا ، لأن مطلبها فى أن تعيش ، مبالغ فيه جدا !

إستمعت إلى أصوات فرقة أم كلثوم . أغانيها الجماعية ، وأغانيها الفردية .. ليس لها من أم كلثوم سوى الإسم .. والإثم . أقصد تقليدها !

فأم كلثوم لم تمت فنيا وسوف تبقى ما دام الجمال متعة وهدفا .

أما الشىء الذى سوف يموت بالتدريج فهو تخت الموسيقى العربية . فهذا التخت قد طال عمره الإفتراضى . أكثر مما ينبغى .

أم كلثوم هى التى أطالت عمره كما أطالت الأغانى .. ونحن قد قبلنا منها ذلك لأسباب شخصية . أى من أجلها هى شخصيا .

وأم كلثوم مثل يوشع الذى جاء فى التوراة ، فقد أشار إلى الشمس ألا تغرب حتى يكمل معركته ، وتوقفت الشمس حتى إنتصر ..

وأم كلثوم هى التى أجلت غروب المسرح الغنائى الشرقى .. وبعد أن غربت أم كلثوم ، فقد جاء دوره لكى ينسحب آلة بعد آلة ، ليظهر التخت الأوربى اليابانى ، وتقصر الأغنية ويتحرك المطرب أو المطربة .. وإلا إتجه الناس إلى الموسيقى الغربية الراقصة !

وفى مصر مطربون كان يجب أن يبحثوا عن مهنة أخرى ..

وأصوات أخرى كان يجب أن تغنى . صوت « أحمد عدوية » رأيى الشخصى أنه صوت قوى سليم ، ولكن إختار أن يغنى ليلا وسرا . وأن يردد كلاما نابيا يفرح به رواد الكباريهات .. وأن ينتشر فى السيارات وأن يكسب . وقد سبقته هذه السمعة السيئة إلى كل مكان . فهو الذى سد على نفسه الطريق إلى الإذاعة والتليفزيون .. وإن كان يتسلل إلى الأفلام . ولكنه لا يطرب أحدا !

إنه المسئول عن « تزوير » وتشويه هذه الموهبة الغنائية . وهو فى حاجة إلى « توبة » لكى ينتقل إلى الإذاعة والتليفزيون قبل فوات الأوان !

أما أصوات الشباب فهى أيضا محدودة التنوع - أى محدودة ومتقاربة وليس قبل وقت طويل تنفصل وتتميز بعضها عن بعض . فأصوات بعضها لم يكد يظهر حتى بدأ يذبل ويهوى لأسباب صحية ، ولأسباب نفسية . ولم ينفد بجلده من البهدلة الليلية فى الكباريهات إلا ياسمين الخيام وعفاف راضى وهانى شاكر ومحمد ثروت وأحمد إبراهيم ونادية مصطفى .. وكان من الممكن لرأفت الشيخ أن يكون أفضل الأصوات الطالعة ولكن . .

وقد سمعت بالصدفة إلى واحدة من أعضاء فرقة أم كلثوم ومن الممكن أن تكون صوتا جميلا كما أن ملامحها أفضل وهى حياة محمد ..

وآفة هذا العصر الغناء الليلى مع الدخان والتدخين والسهر الذى يشق الحنجرة ويقصف عمرها ..

ولابد أن نواصل البحث عن أصوات جديدة ومواهب شابة .

قال لى طبيب الأذن العالمى روزن أن أم كلثوم معجزة صوتية لأسباب عديدة .

السبب الأول أن صوتها قوى ملىء جميل .

والسبب الثانى أن فى بلاد مثل مصر مليئة بالهواء الفاسد . من الصعب أن تسلم لأى إنسان عين أو أنف أو أذن أو .. حنجرة . وقد سلمت لأم كلثوم حنجرتها !

والسبب الثالث أن سلامة حنجرتها قد بقيت زمنا طويلا . أما معجزة الشعب المصرى كله ، أن سلمت له أذنه .. فهو يسمع ويسمع ويتذوق وبأعلى صوته يقول : الله - أى أن حنجرته قد سلمت أيضا !

وكنا فى « أخبار اليوم » (١٩٧٢ - ١٩٧٦) نمثل أعظم قوة دفاع عن أم كلثوم بكل الأقلام وكل الصحف (أخبار اليوم والأخبار وآخر ساعة والجيل) .. أعظم أوركسترا .. أعظم تخت صحفى .. وكان مصطفى أمين وعلى أمين فى مقدمة الذين ينسبون لأم كلثوم كل الصفات الجميلة فى الحديث والنكتة والفهم والإدراك . ولكن مصطفى أمين وعلى أمين لا يتذوقان الفن ولا الموسيقى . وكانت أم كلثوم إذا رأتهما فى مقدمة الجالسين فإنها تنزعج لأنه لن يمضى وقت طويل حتى يكونا قد دخلا فى حديث مع من يجلس إلى جوارهما .. ولابد أنهما يتكلمان فى السياسة .. أو يسألان عن أخبار الدنيا .. وكانت تحذرهما من الكلام أثناء الغناء . ويقال أنهما كانا يفعلان ذلك !

وفى إحدى المرات دخلت مكتب على أمين فوجدته يدور حول المكتب ويقول : الله .. يا أم كلثوم ..

ولم أجد فى المكتب صوتا ينبعث من أى مكان .. لا عنده راديو ولا تليفزيون .. ولا يوجد راديو فى الشارع .. ولم أكن فى حاجة إلى ذكاء كبير لأعرف ما الذى هز على أمين وجعله يدور سعيدا هكذا . إنه صوت المطبعة .. وهى تدور بلا توقف .

ولكن إعجاب مصطفى أمين وعلى أمين بأم كلثوم بلا حدود . فهى معجبة بهما . وهى قد ساهمت فى نجاح أخبار اليوم .. وهما معجبان بالفتاة الريفية غير المتعلمة التى استطاعت بالموهبة أن تمشى على قدميها إلى عرش الغناء وأن تبقى خمسين عاما !

وفى أخبار اليوم تكونت فرقة غنائية ، أطلق عليها كامل الشناوى إسم « فرقة البلابل الموسيقية » ، وكانت تضم على حمدى الجمال نائب رئيس تحرير الأخبار وصلاح هلال نائب رئيس تحرير آخر ساعة وعثمان لطفى سكرتير تحرير أخبار اليوم وأنا رئيس تحرير الجيل . وفى صباحية حفلات أم كلثوم نلتقى فى إحدى الغرف ونغلق علينا الباب . ونغنى ونستمع إلى بعضنا البعض .

وكان يشاركنا عبد الحليم حافظ . وكان ما يزال مبتدئا . غنى فقط أغنيتين صافينى مرة ويا أبو قلب خالى ..

وكنا نغنى له أكثر مما كان يغنى لنا .. وكنا نحس أننا نتفضل عليه بجلوسه معنا . واستماعنا له .. فلم تكن موهبته الغنائية قد ظهرت بعد ..

وكان كامل الشناوى يسخر منا بقوله إن فرقة البلابل قد إتخذت إسمها من « البلبلة » لا من البلـبل !

قلت لأم كلثوم - مداعبا - أن فرقة البلابل تريد أن تستأجر شقة وأننا فى حاجة إلى مساعدتها ، فقالت بسرعة : ما دام لا جمهور لكم ، فلماذا لا تغنون كل واحد فى بيته ؟ !

• • •

وقبل أن تسكت أم كلثوم عن الغناء ، كنا جميعا قد ابتلعنا ألسنتنا وحناجرنا أيضا - وإن كنا لا نزال - والحمد لله - ننعم بالتذوق العميق - للصوت الجميل .. لصوت أم كلثوم ومعجزات غنائية أخرى !



قل لي من أنت ؟

قل لى .. من أنت ؟!

س : ما حكمتك ؟

ج : الحكمة : لم أعرف بعد الحكمة وراء كل أى شيء !

س : هل ما تزال طفلا ؟

ج : بالامس كنت طفلا خائفا من الآخرين ، ثم صرت شابا قلقا على نفسى ، واليوم أكثر قلقا على بلدى !

س : فى أى ظروف ولدت

وفى أى ظروف كنت تحب أن تولد ؟

ج : نحن نولد فى ظروف سبقتنا إلى الوجود . ظروف أقوى وأغرب . فقبل أن أولد قد تحددت ، إلى حد ما صفاتى الجسمية ، وسماتى الأخلاقية ، لأنى سوف أرثها عن والدى .. وسبقتنى إلى الوجود : طبيعتى ولغتى ودينى .. وقدرة الأسرة على تعليمى أو عجزها عن ذلك .. وفى حالتى كان عجزها واضحا منذ اللحظة الأولى . ولذلك كنت مهددا بعدم استمرارى فى المدرسة فى أى وقت .

كل ذلك قبل أن أولد .

فلما ولدت . كان من الضرورى أن أعرف وأفهم وأتوافق .. أى كان لابد أن أستعير لغة العصر وأساليب البيئة ، لأصبح قادرا على المسايرة والتقدم .. والتحدى بعد ذلك .

والإنسان - عادة - لا يكون راضيا عن أى عصر يولد فيه . لأنه فى حالة مستمرة للتوافق والتوفيق بين الذى يريده وهو كثير ، وبين الذى يستطيعه وهو قليل .

ومع ذلك فقد كنت أتمنى « فلسفيا »أن أعيش في عصر « سقراط » « وعاطفيا » في عصر مجنون ليلى ، عصور الاستغراق في شيء كبير ، يجعل كل ما في الدنيا متواضعا .. إلا الحكمة وراء كل شيء ، إلا الحب الذى يستغرق أى شيء .

فسقراط كان يقضى اليوم كله يسأل ويتساءل ويجيب هو ..

فإذا قال له أحد : صباح الخير ياسقراط ، أجلسه إلى جواره وسأله : وما معنى الخير ..

ويمضى العمر كله يبحث عن الخير المطلق والخير النسبى ، والشر الأبدى والخير الذى هو ضيف غريب على الأرض ..

وفى عصر المجنون أو الشعراء العذريين أو عصر الطروبادور Troubador فى أسبانيا فليس هناك إلا الحب والعشق والشوق والحنين والوصال والشعر والموسيقى والنجوم والقمر .. وكل ما فى الكون « كورس » يغنى للمحبين .. والدنيا كلها شهود على ذلك .

س : هل أنت إنسان طموح ؟

ج : لم يكن لى طموح فى أى وقت .. ولا أعرف كيف انتقلت من حالة إلى حالة .. فأنا كالذى يقف على سلم متحرك .. أو حصيرة متحركة .. أنا واقف وهى تطلع وتنزل أو تتقدم وتتأخر ..

فكما للعصافير أجنحة لكى تطير ، وللأسماك خياشيم لكى تغوص ، فأنا لى عينان لكى أقرأ ، وأقرأ وأكتب .. فعالمى محدود شرقا بالكتاب وغربا بالكتاب وجنوبا بدائرة معارف وشمالا بمعارض الكتب .. هذه هى دنياى .. ورق فى ورق ..

والقراءة علمتنى الصمت الطويل .. أى أن أستمع بعناية فائقة لما يقوله الآخرون ، وبعد ذلك يجيء دورى فى التساؤل ثم أستمع .. ثم أتساءل . هذه هى حياتى ..

فالذى كتبت كان بضاعتى أعرضها على الناس .. والناس يرون فيها شيئا جيدا .. ولذلك يختاروننى لكى أكون رئيسا للتحرير أو رئيسا لمجلس الإدارة أو عضوا فى لجان جوائز الدولة .. أو يشترون كتبى أكثر من غيرى ؟ أى

أن بضاعتى فى سوق الكلام هى التى أعطتنى هذه الصفات الإدارية أو القيادية .

ولكننى لم أقصد ذلك . كل ما قصدت هو أن أقرأ وأن أفكر وأن أكتب ..

فإن كان عندى طموح فهو أن أكتب أسهل وأجمل وأمتع .. مائة كتاب ألف كتاب إن استطعت ! .

س : كيف كانت بدايتك الأدبية ؟

ج : أول ما كتبت لم يكن مقالا ، وإنما كان قصة بعنوان « سوزى » .. قصة حب حقيقى ، لأنه حب من جانب واحد .. حب بلا مقابل .. حب أقرب إلى الوثنية . عملا بالأغنية المشهورة : كلنا نحب القمر القمر والقمر بيحب مين .. حظنا منه النظر والنظر راح يرضى مين !

ولكن هذا هو الحب الوثنى ، العشق الإلهى ..

وهو حب بائس ..

فأنت عندما تقول للقمر ما أروعك ما أجملك .. تعلم أنه قطعة من الحجر .. له وجهان .. منير حار يطل علينا ، وآخر شديد البرودة لانراه .. ورغم ذلك فنحن سعداء بهذا الوهم الجميل ..

س : مقال ندمت عليه ؟

ج : لم أكن أعرف من هو يوسف السباعى فى سنة ١٩٥٣ . فاخترت عشر قصص ورأيت فيها أحسن ما كتب الأدباء فى ذلك العام ، ولم أختر ليوسف السباعى شيئا .

فهاجمنى قائلا : من أنا حتى أفعل ذلك !

وكان ردى : ومن أنت حتى تقول ذلك .!

ثم قلت : أنت أديب عريان ، وأنصحك أن تتغطى بورقتين من التوت : إحداهما على فمك !

س : ما صلتك بكتبك بعد أن تفرغ منها ؟

ج : تربطنى بمؤلفاتى علاقة غريبة فأنا لا أقرؤها بعد صدورها .. تماما كإحساسك بعد وجبة أنت طبختها وأنت أكلتها . أو بعد عناق طويل استنفد كل رغباتك وهد حيلك .

تماما ككل أم تعبت فى الحمل والولادة والرضاعة .. ثم إنها تهمل بعد

ذلك من جديد .. وينسيها الحمل الجديد متاعب الحمل القديم .. وفرحتها بالمولود الأول .. فما بالك بمن يحمل ويلد كل يوم .

فأنا كالنحلة لا تذوق العسل الذى تفرزه .. أو كحيوان اللؤلؤ يظل تحت الماء يذرف دموعا لامعة حتى ينقذه الصيادون ويستخرجوا من بطنه حبات اللؤلؤ .. ثم يتركوه متعبا مرهقا تحت سطح الماء .. لكى يبكى من جديد .. وهكذا حتى الموت ..

هذا هو الإحساس العميق الذى أعرفه وأتعذب به .. وفى كل مرة يخيل إلى أننى أشعر بذلك لأول مرة .. ثم أتجاوزه إلى عمل جديد ..

فعندما فرغت من كتابى « فى صالون العقاد » ١٩٨١ فى ٨٠٠ صفحة تصور أصدقائى أننى لن أكتب شيئا بعد ذلك ولعدة عشر سنوات .. لأن هذا الكتاب هو تاج على رأس كتبى .. وإننى سوف أجد صعوبة فى تأليف أى كتاب جديد .. ولكننى أصدرت بعد ذلك ستة كتب من بينها كتاب بعنوان « إلا قليلا » .. هو أول كتاب أؤلفه فى جلسة واحدة استغرقت أسبوعا .. وبعثت به من البيت إلى المطبعة ، فبعض كتبى قد صدرت فى مقالات أو سلاسل ثم جمعتها فى كتاب إلا هذا الكتاب .

واليوم نسيت تماما كتاب « فى صالون العقاد » × .. ونسيت أيضا .. « إلا قليلا » فأنا مشغول بكتب أخرى كثيرة !

س : هل أنت فيلسوف ؟

ج : أنا دارس للفلسفة ومدرسها أيضا . الباحث عن الحكمة وعاشقها .. وسوف أظل كذلك .. هذا قدرى .

وأنا هنا أتمثل موقف أستاذنا العظيم الفيلسوف الألمانى هيدجر ، رائد الفلسفة الوجودية فهو يقول : لقد ركعت عند قدمى سيدتى وأحنيت رأسى . وانتظرتها أن تقول لى شيئا وقالت . ولكن الذى قالته قليل جداً ..

أما سيدته هذه فهى « الحقيقة » .. الحكمة وراء كل شىء فى حياتنا وفى هذا الكون ..

ولكننى ، ولكنه ، سأظل خاشعا صابرا !

س : هل كانت لك أعمال أخرى غير الأدب والصحافة ؟

ج : لم أقم إلا بعمل واحد طوال حياتى أكتب :

حتى عندما كنت مدرسا فى الجامعة كنت ألقى محاضرات فى الميتافزيقا وتاريخ الحضارة وعلم الجمال .. ولم اكن متحدثا ، وأنما كنت أكتب على مسمع من ألوف الطلبة . كنت أفكر بصوت مرتفع أخلط الفلسفة بالأدب بالتاريخ بالنكتة بالواقع .. كنت أتدرب علنا على تيسير الكلام وتبسيط المعانى وفك زراير المعضلات العقلية ..

وكنت أقوم بتفصيل الألفاظ على قدر المعانى .. وكانت عباراتى مثل فساتين ضيقة شفافة تغطى المعانى وتفضحها أيضا .. وبين الستر والفضيحة يتأرجح جمال الكلام .

ومنذ ذلك الوقت وأنا أعرف أن الفاظى ، محزقة ، ملتصقة بالمعانى .. وأن الكلمات ومعانيها فى عناق دائم .

ولابد أن شعورى العميق بأننى أكتب على مسمع من الطلبة هو الذى جعلنى أنسى مرتبى لعدة سنتين .. فقد نسيت أن أتقاضى أجرى على ذلك . ولم اتذكر هذا الموقف الغريب إلا بعد أن تركت الجامعة بأكثر من عشر سنوات .

وفى ذلك الوقت كنت كاتبا مشهورا مشغولا بأن أكتب أسهل وأجمل وامتع ..

فقد كنت فى كل الأحوال كاتبا وهذا ما أعتز به .. ولا أعرف إن كان هذا التعبير صحيحا .. لأنه لم يكن أمامى خيار : فإما أن أكتب وإما أن أكتب . فأخترت أن أكتب ! .

س : هل ما تزال تشعر بأنك شاب ؟

ج : لم أشعر بذلك .. ولو فعلت لكذبتنى الف الف شعرة بيضاء !

س : كيف اخترت زوجتك ؟

ج : يجتمع فى زوجتى هذا الذكاء والحنان .. أو هذا التألق .. النار التى تدفىء والنور الذى يضىء ..

ولابد أن تكون مزاياها الكثيرة واحتمالها لاستغراقى فى عملى ، واستعدادها للتضحية ، والتضحية دائما ، هو الذى جعلها قدرى .

والإنسان لا يكون أعزب متشددا ، لسنوات طويلة . وإنما فقط عندما يبلغ السن التى يراها مناسبة للزواج . ويكون ذلك عادة بعد الثلاثين ..

ولا توجد سن مناسبة محددة للزواج . فكل حسب ظروفه النفسية والاجتماعية . وقد تزوجت فى الثامنة والثلاثين .

ولابد أن تكون الصفات الجميلة لزوجتى هى التى نقلتنى من اعزب متشدد إلى متزوج أكثر تشددا . أى الجمال والذكاء والتشجيع والصبر على المكاره . والمكاره هى انشغالى كثيرا واستغراقى فى القراءة والكتابة .. أى بين الحمل والولادة والرضاعة الفكرية والحضانة العاطفية . والكاتب لايعرف تحديد النسل الفكرى . بل إنى كثيرا مافكرت فى ثلاثة أو أربعة كتب فى وقت واحد إلى جانب كتابتى اليومية والأسبوعية والشهرية .. وكثيرا ما كنت فى حالة حمل كاذب ، أو جاءت الولادة مبتسرة . فالكاتب هو الرجل الوحيد الذى له كل صفات الأنثى .. فلا هو رجل ولا هو أنثى .. وإنما هما معًا . أو إنه يتجرد من الذكورة والأنوثه .. تماما كنحلة العسل التى لا هى ذكر ولا هى أنثى ، وإنما هى مصنع رحيق فقط !

والكائن الوحيد فى خلية النحل الذى هو انثى : الملكة .. فهى المصنع .. وهى أم الخلية .. والخلية والنحل والملكة والعسل هى الكاتب فى كل وقت ؟

ألا ترى أنها مهمة شاقة أن تحمل سيدة وحدها كل هذا العبء . ثم إن هذه الزوجة رغم أنها صاحبة فضل كبير تكتفى بأن تعيش فى الظل قمرا يعكس ضوء الشمس الذى هو الكاتب !

س : ما الحب ؟

ج : الحب : عاطفة .. تتولد من الإعجاب والتفاهم والتعود والرغبة فى الامتلاك ..

ويكون الحب فى الزواج ، ويكون الحب بغير زواج ..

ويمكن أن يقال : من زواج بلا حب :حب بغير زواج !

س : امراة أثرت فى حياتك ؟

ج : قبل الزواج : أمى .
بعد الزواج : زوجتى .

وكانت أمى هى منبع الألم الدائم والعذاب المتدفق وكل ماهو مؤلم مظلم مر .. وليست هى ، وإنما زماننا على أيامها .. أيام كنت طفلا أنتقل من قرية

إلى قرية وراء أبى .. فى ذلك الوقت تعمق عندى الشعور بالغربة والغرابة والاغتراب .. أحسست أنى مثل البدو الرحل .. أو مثل أبناء الغجر ..

أو الشعراء الصعاليك .. أو اللامنتمى .. ومن هذه المعانى وتضاربها تفجر فى داخلى إحساس بكل معانى الفلسفة الوجودية ..

ولكن بعد الزواج تحاول زوجتى أن تخصنى بالأمل ولكننى يائس .. وبالتفاؤل ولكننى متشائم .. ورغم الخلاف فى تكوينى وتكوينها فإننى قد توافقت معها إلى حد بعيد .. فهى فى غاية الحيوية ولكن ليست عندها طاقة .. فهى تستطيع أن تنشط يوما كاملا ، تتحرك وتعمل وتنظم وتنسق وتبنى . وبعد ذلك تنهار من التعب أياما طويلة ..

أما أنا فعندى طاقة ولكن ليس عندى حيوية .. فمن الممكن أن أجلس على مقعد واحد ساكنا جامدا كأننى قطعة من الحجر يوما كاملا ، وإن تحركت فلكى أقلب صفحة فى كتاب .. ومن الممكن أن أغلق بابى يوما أو عشرين يوما ، أقرأ وأكتب ..

وزوجتى اجتماعية ، ولست كذلك . وهى شديدة الحساسية بالآخرين وبما هو واجب ، ولست كذلك . وهى مجاملة إلى أبعد درجة ولست مجاملا درجة واحدة . فمن دعاها إلى الغداء ، دعته إلى الغداء والعشاء ، وأما أنا فأنسى أننى تغديت ، أو أن احدا قد دعانى إلى شىء من ذلك ..

فالزواج قد أدخل فى حسابى « بعدا » اجتماعيا وبعدا أخلاقيا ، وبمرور الوقت ، وجدت ان الحق معها فى معظم الأحيان ..

وهى ناقد عنيف .. لا تجامل ولا ترحم . وأكثر المقالات التى أوجعت رأسى ، هى التى لم أشعر فيها بالآخرين . وهى أول من يقول لى ذلك . وتثبت الأيام صحة رأيها ودقة ملاحظتها وعمق إحساسها . واستمرارى فى الخطأ ..

وعندى نظرة « أحادية » .. فأنا أكتب كأنه لا أحد هناك .. وسبب ذلك موقفى المتباعد من الناس .. أى حرصى على أن تكون هناك مسافة .. ومادامت هناك مسافة فكل شىء يبدو صغيرا ، فأرى الأشياء عموما .. لا خصوصا .. والناس خصوصيون عادة .. أى يهتمون بأنفسهم أكثر من أى شىء آخر .. يهتمون بالجزء الذى هو أنفسهم ، ولا يهتمون بالعموميات وهنا أقع فى الخطأ !

أى إننى مادمت أتعب فى التفكير والتعبير ، أى مادمت جادا ، فإننى أحب أن يكون الناس كذلك . هذا أمل !

ولا أقول أن هذه كانت نظرتى دائما ، فكثيرا ماأحببت اللعب والمزاح والسخرية والاستخفاف دفعا للملل اليومى وضيقا بالمنطق ، ودغدغة للحياة الراكدة .. فالكاتب الجاد يتعب ، ويريد أن يتحلل من قيود العقل وأن يتخفف من الملابس الاجتماعية ، ويرتدى المايوه . حتى ولو لم يكن هناك شاطىء أو يمشى حافيا عاريا .. وكثيرا ما أساء الناس فهم الكاتب .. بل إن الكاتب عندما يتوجع ويشكو لقارئه ، فإن القارىء يضيق بذلك قائلا : إننى تعبان ولا تنقصنى متاعبك !

فمهمة الكاتب أن يخفف عن الناس . لا أن يصب على رؤوسهم متاعبه ومصائبه . وهذا حق للقارىء لولا أن الكاتب بشر . فهو الآخر يتعب .. كالطبيب يمرض ويموت . فالكاتب لا يملك بساط الريح وعصا موسى وخاتم سليمان ومال خاشقوجى وقوة شمشون ..

والكتابة . كل أنواع الكتابة . هى ترجمة ذاتية .. فالكاتب يكتب عن نفسه فى مواجهة الآخرين . وهو يصف الدنيا كلها . من خلاله هو . أى مرورا بعقله وقلبه وأعصابه وخوفه وشجاعته ويأسه وأمله . فكل شىء هو : أنا .. مرورا .. بالأنا ..

وعندما ينسى الكاتب ويقول : أنا .. يرد القارىء عليه .. بل أنا !

★ ★ ★

س : مالذى تتمناه للعرب ؟

ج : أريد أن ينبت للعقل العربى عقل !

★ ★ ★

س : أى جيل هذا ؟

ج : هذا الجيل هو جيل التحولات الاجتماعية والسياسية الكبيرة والحيرة بين البرامج التى قدمها الثوار المصلحون !

★ ★ ★

س : هل تغير العرب ؟

ج : لم يتغير العرب : فكل عناصر القوة أصبحت هي أسباب الضعف .. فنحن نتكلم لغة واحدة ، ولنا دين واحد وتاريخ واحد وجغرافية واحدة ..

ولكن ينطبق علينا ما قاله الكاتب الساخر برنادو شو على الإنجليز والامريكان : إنهم شعب واحد تفصل بينهما لغة واحدة !

وكذلك نحن العرب ..

وليس بيننا إلا كلام في كلام .. ولذلك يصدق علينا ما قاله كاتب سعودي ساخر هو الأستاذ القسيمي : إن العرب ظاهرة صوتية !

★ ★ ★

س : ما السياسة ؟

ج : السياسة : هي فن السفالة الأنيقة !

★ ★ ★

س : ما أعظم التحديات ؟

ج : أعظم تحديات العرب : العرب وإسرائيل !

★ ★ ★

س : أنت تكرر كلمة « المسافات بيننا دائما » فما معناها ؟

ج : أما تفسير هذه العبارة التي تناولتها في كتاب « وداعاً أيها الملل » ثم في كتاب « نحن أولاد الغجر » وفي كتاب ثالث .. « إلا قليلا » فهو أن نشأتي الريفية الخائفة القلقة جعلتني أتفرج على المجتمع من بعيد دون أن أشارك فيه . ولو أردت ما استطعت .

فمنذ طفولتي وأنا أكثر الناس إحساسا « بالمسافات » التي بيننا .. بيني وبين الناس .. فالانتقال من مكان إلى مكان جعلني كما يقول المثل اليوناني القديم : كالحجر المتحرك لاينبت عليه العشب ؟! ولم ينبت عشب الصداقة والمودة والألفة والقرب والقربى .. فكنت أرى من بعيد وأصادق من بعيد .. وأذهب إلى بعيد في المكان وفي الخيال .. ولذلك لم يكن غريبا أن آوى إلى الكتب ..

أسكن فيها وأسكن إليها .. عالم جميل أنيق . ولكنه ليس واقعيا .. فأصدقائى أدباء ، وعائلتى فلاسفة . ولذلك لم أشعر بالأمن والأمان .. لم أعرف الدفء فأنا في مهب الريح .. لم أعرف الظل ، لأننى لم أجد الشجر . ولم ينبت العشب على أحجارى ، لأنها لم تعرف الاستقرار .. والسياسة علاقات واستغلال للعلاقات ، والسياسة هى التوفيق بين الناس . معهم وضدهم . والسياسى كالسفينة .. تقاوم الماء وتتحرك فوقه ولاتمشى بغيره .. والسياسة .. هواء .. تطير به وعليه وضده ..

ولست سياسيا وإن كان أستاذنا أرسطو يقول : الإنسان حيوان سياسى . أى انه يفكر فى حياته وربطها بالآخرين . ولكن لست مشتغلا بصفة خاصة بالعمل السياسى . وإنما أشتغل بالفكر السياسى . ولست من رجال الدولة . وكان من الممكن أن أكون منذ عشر سنوات وزيرا للثقافة . وأحمد الله أن هذا لم يتحقق . فأنا مازلت فى حاجة إلى تثقيف نفسى ، قبل أن أنشغل بتثقيف الآخرين .. ولو عاش سقراط وفرض علينا دولته المثالية لكنت فى صدرها فدراستى الفلسفية تؤهلنى إلى ذلك ، أما أعمالى الأدبية والنقدية فسوف يكون مكانها فى الصناديق الأنيقة للزبالة !

ولكن فى غياب هذه الدولة التى لن تتحقق فى أى وقت ، نحن جميعا فى الصدارة وعند القمة ـ قمة الفكر . وإن كنت لا أعرف أين القمة وأين القاع .. فالإنسان إما أن يفكر وإما أنه لا يفكر .. وأنت تكون حيث تضعك قضاياك ـ أو أنك حيث تضع قضاياك ـ أى تحدياتك !

★ ★ ★

س : كم يبلغ طولك ؟

ج : طولى ١٧٩ سنتميترا ـ هذا إذا وقفت على الأرض .. أما إذا وقفت فوق كتبى فإننى أضيف إلى ذلك أمتارا عديدة ..

وأكثر الناس لا يقفون على أقدامهم .. وإنما يقفون كما يجلس حيوان الكانجرو على ذيله .. وذيلى وذيلك هو تاريخى !

ولذلك فأنت أطول مما تتصور !

ويقال أن ملكة جمال تزوجت رجلا قصيرا قبيحا . وسألوها . فقالت مستنكرة : هل لأنه قصير .. ولكن عندما يقف على فلوسه كم يبدو عملاقا !

س : أنت تقول أنك ماتزال طفلا فما معنى ذلك ؟

ج : لا أزال ذلك الطفل الذى يصحو مبكرا لكى يذاكر قبل أن يذهب إلى المدرسة . فى الساعة الرابعة من صباح كل يوم . أجدنى على مكتبى أقرأ وأكتب حتى العاشرة ، اذاكر كأننى أمتحن كل يوم !

• • •

س : أنت وأصدقاؤك ؟

ج : لدى إحساس بأننى مثل حيوان القنفذ لا أقترب كثيرا من الناس خوفا من أشواكهم ، وأما أننى لم أعرف طعم الصداقة .. لذلك لا أفتقدها . لأن الإنسان لا يطلب المزيد من طعام لم يتذوقه . وأما أننى مثل إيكاروس أول إنسان طار بأجنحة من الريش الصقت إلى ذراعيه فاقترب من الشمس فذاب الشمع من ريشه .. فسقط ميتا .. وأما إننى أشبه السفينة المعروفة فى « ألف ليلة وليلة » التى اقتربت من جزيرة المغناطيس فجذبت مساميرها فتحولت إلى ألواح خشبية .. وغرق كل من فيها ـ فأنا أخاف مصير إيكاروس وأخاف مصير سفينة ألف ليلة وليلة !

أتمنى أن يكون لى هذا الصديق العزيز ، لولا أن هذه الدنيا لا فيها صديق ولا لها عزيز !

• • •

س : أنت حزين ؟

ج : الذى أحس به ليس حزنا ، وإنما هو قدر كبير من اليأس يذوب فى مقادير أخرى من التشاؤم وسوء الظن وانعدام الحكمة وراء كل شيء ..

ولذلك فأنا متشائم غالبا ، متفائل أحيانا !

الفرح لحظات .. فلا يطول جلوسه ، ولا يطول وقوفه .. إما لأنه كذلك وإما لأننى لا أتوقعه !

• • •

س : ما مشكلات العصر ؟

ج : أهم مشكلات العصر : القلق لانعدام الشعور بالأمان !

• • •

س : ما قضيتك ؟

ج : الإنسان قضيتي ..

فأنا أحب أن أرقب الناس .. وأن أفهم وأن أحلل وأن أعاود النظر والمتابعة والملاحقة . وليس الإنسان وحده : قضيتي .. وإنما الحكمة وراء هذه الحياة .. هذا الوجود .. فلست في حاجة إلى أن أنظر إلى النجوم في السماء لأعرف عظمة الخالق .. بل إن خلية واحدة تحت الميكروسكوب قادرة على أن تؤكد عجزي عن فهم حكمة الله .. وتؤكد عظمة الله التي لا حدود لها .. وهذا العجز يجعلني أتواضع كثيرا جدا عندما أتحدث عن العقل والفكر والإنسان .. فلا أقطع برأى أو بنظرية .. وإنما أسرف في استخدام كلمات مثل : ربما .. يجوز .. لعله ..

فمن الصعب أن أقطع بصحة شيء ، أو أقطع بيقين في أي أمر من أمور الحياة الإنسانية ..والحيوانية .. والنباتية .. والصخرية .. فالصخور لها حياة ولها عقل . وهذه أحدث نظرية في العالم .. وتلك قصة طويلة !

فالكون له عقل واحد ، وله لغة واحدة .. وله منطق واحد .. والله من وراء ذلك محيط .. هذه هي تحديات العصر . وهي كبرى تحديات من يفكر في نفسه وفي غيره !

وأنا واحد من ملايين المفكرين الذين يمسكون مصباح الفيلسوف الإغريقي ديوجين ويبحثون عن إنسان في وضح النهار ..

لولا أن هذا المصباح في داخلي أحاول به أن أنير أعماقي لكي أراني وأراك !

وقضيتي الخاصة هي صدى كل ذلك ..

فليست عندي إلا هذه الرغبة القوية في أن ألمس بأصابعي هذا الكون . وأن أقيس السماء بالشبر .. وأن أحتضن الأبدية .. وأن أعتصر النور في قلمي : سهولة ووضوحا وجمالا ومتعة .. وألا أكون قادرا على ذلك حتى الموت !

س : من أنت في هذا الكون ؟

ج : لن أقول ما قاله جاجارين الرائد السوفيتي للفضاء وأول رائد في التاريخ عندما دار حول الأرض على ارتفاع مئات الأميال : ولكني لم أجد الله ؟!

إنه جاهل .. فأنا لست في حاجة إلى أن أرتفع عن الأرض شبرا واحدا أو مليون مليون ميل لكي أرى الله .. إنه هنا .. في نفسي .. في عقلي .. في أصغر خلية من خلاياى ..

أما جاجارين فهو راكب سيارة جاهل .. بل انه نزيل زنزانة علمية يديرونها من الأرض ..

وماهذه الأرض .. انها قطعة من الحجر تدور حول نفسها أمام الشمس .. وما هذه الشمس .. إنه نجم ملتهب .. واحد من ملايين النجوم في « المجرة » .. وما هذه المجرة انها واحدة من ملايين ملايين المجرات في هذا الفضاء الذي لانعلم عنه إلا القليل جدا !

وإذا وقفت فوق أبي الهول فإنني أرى ذلك الطفل الذي دخل مكتبه وجلس ثم أمسك كل الأوراق التي كتبها في ساعات ومزقها جميعا .. ثم نزل هادئا كأنه لم يفعل شيئا .. ذلك الطفل الصغير جدا أمام عشرات الألوف من الكتب - هو أنا - لأن بيتنا قريب من أبي الهول !

• • •

س : بسرعة : ما الحب ؟

ج : الحب تعبير مهذب عن رغبة غير مهذبة !

• • •

س : امرأة بكيت عليها ؟

ج : بكيت على امرأتين : أمي .. ومارلين مونرو !

• • •

س : رجل بكيت عليه ؟

ج : وعلى رجلين : أبي .. والأستاذ العقاد !

س : ما معنى وراء كل رجل عظيم امرأة ؟

ج : وراء كل رجل امرأة أو أكثر ..

أو المرأة - أى تجاربه مع المرأة التى هى أمه وزوجته أو التى أحبها أو التى قرأ عنها أو التى رآها .. أى هو الإحساس بالمرأة ..

وليس من الضرورى أن يكون الرجل عظيما ، لتكون وراءه امرأة .

ولكن إذا كانت وراء العظيم امرأة ، فلابد أن تضيق باعباء العظمة .. أو مقتضيات العظمة ، أو تكاليفها النفسية والاجتماعية ..

وإذا كانت المرأة ، رغم هذه الأعباء تقف وراءه فمعنى ذلك أنها تحمل متاعب العظمة وترتضيها وترى ان هذه المتاعب هى توأم العظمة ..

وبقاء المرأة وراء الرجل سببه أن المرأة تنظر إلى الرجل على أنه « مشروع » .. على أنه « خطة » هى تحرص عليها وعلى تنفيذها على أحسن وجه ..

وترى فى نجاحه نجاحا لها ، وفى فشله سقوطا له ولها . فإذا نجح فهى التى صنعته وإذا فشل فلانها قد تعبت فى تقويمه وإدارته ودفعه إلى الأمام !

• • •

س : ما أقوى امرأة فى العالم ؟

ج : أقوى امرأة : شجرة الدر .

كانت مملوكة تزوجت ملكا وحكمت فى ظله ولما مات تزوجت رجلا لا تحبه ، لتظل فى الحكم .. وأرغمته على أن يطلق زوجته . ولما علمت أنه يفكر فى الزواج من غيرها قتلته بالقباقيب .. وواجهت أرملته .. وقتلت إبنه .. وواجهت رجال الدين وفى مقدمتهم قاضى القضاة العنيف : العز بن عبد السلام .. وهاجمها خدامها . وقتلوها بالقباقيب ، تماما كما قتلوا انديرا غاندى .. ولكن قبل أن يقتلوها قالت لهم : قبل أن تقتلونى أعصبوا عينى حتى لا أراكم .. حتى لا أرى خدمى الذين توهمت أنهم مخلصون لى ، يقتلوننى .. أعصبوا عينى حتى لا أرى كاننى أقتل نفسى !

ولم يشعر خدامها بهذه السخرية بهم والاحتقار لهم !
وقتلوها !

س : ما نصيحتك لهذا الجيل !

ج : يتعلم الجيل الحاضر ما يريد أن يتعلم .. أو ما يجب ان يتعلم . ولكن ليس من الضرورى أن يتعلم ذلك فكل جيل - مثل كل شاب - عنده اعتزاز شديد بنفسه وأنه أقوى وأذكى تطوراً . وأنه غنى بنفسه . وليس فى حاجة إلى الآخرين .

وقد علمتنى التجارب أن الناس يكرهون النصيحة . وأن أحدا عندما يطلب إليك النصيحة فهو يطلب عادة ان تؤيده فى وجهة نظره . ونصيحتى إليك ألا تنصح احداً !

• • •

س : ماذا يخيفك ؟

ج : إننى أخاف على الأطفال والرجال .. على مستقبل الإنسانية .. فالعلم الحديث لم يسعد البشرية ، إلا بقدر أن يشقيها ويفنيها أيضاً . فنحن بالعلم ، أى بالعقل نقضى على العقل !

س : ما صيغة الصراع الآن فى العالم ؟

ج : القوة : حق !

والحق : قوة !

هذا هو الصراع الدائم بين الطغاة والأنبياء . بين كل موسى وكل فرعون وسوف يبقى هذا الصراع إلى الأبد .. مرة تجلس القوة على العرش ، ومرة يجلس الحق .

وقد كان الحق ، ولا يزال ، غريباً ولذلك بعث الله أنبياءه ومعهم خطابات « توصية » .. التوراة والإنجيل والقرآن ، لعل الناس يؤمنون بالذين يحملون هذه الخطابات .. حتى يكون الحق قوة !

ونحن نعرف ما الذى أصاب الأنبياء ، وما الذى يصيب الطغاة .. وسوف يبقى الصراع إلى نهاية الإنسان !

وموسى عليه السلام هو الذى وصف نفسه فى أرض المعاد ، أو على مشارفها بأنه : الغريب فى الأرض الغريبة !

والرسول عليه السلام يقول : ولد الإسلام غريبا وسيعود كما بدا . أى الحق غريب فى أرض القوة ..

• • •

س : كيف حالنا نحن العرب ؟

ج : حالنا نحن العرب يبدو كأننا فى نهاية الدنيا .. أو نهاية الحضارة العربية .. تماماً كأننا فى الأندلس أو كأننا فى نهاية الإمبراطورية الرومانية .. أى أننا فى حالة من التفكك والتحلل والانفلات .. فى نهاية الخط الحديدى .. أو عند الغروب .. فالضعف واضح : اختفاء الرأى وانعدام الرؤية . فليست هناك نظرية . وليس هناك الرجل القوى القادر على تطبيقها أو على فرضها على الجميع .. ولذلك لم يعد الهدف واضحاً أو تعددت الأهداف والطرق .. حتى ضاع الهدف الواحد الذى نريده .. وتداخلت الطرق فلم يعد هناك طريق ..

ونحن أمام هذه النهاية أو الشعور بها ، وواجب المثقفين أن يوضحوا ذلك وأن يدفعوا الشعوب بعيداً عنها .. أو يؤجلوا هذه النهاية الحزينة .. النهاية المأسوية للأمة العربية .. أو الشعوب العربية ..

اننى : إنسان عقلاً وقلباً .. والذى يستيقظ فى أعماقى هو « الإنسان البدائى » .. إنسان الكهف . وقد تدربت طويلاً وكثيراً فى التسلط عليه .. ومشكلتى هى أننى أروض وحشاً فى داخلى ، فصدرى هو قفص يضم عدداً كبيراً من الوحوش والطيور الكاسرة . وأنا صاحب سيرك .. وبسبب العشرة الطويلة تجدنى أحيانا مثل مربى الكلاب أو الخيول أو الصقور .. وفى هذه الحالة وبسببها لا أعرف أين الوحش وأين الإنسان فى داخلى وخارجى !

• • •

س : من نحن الآن ؟

ج : الإنسان ملك وهو يحلم ، وشحاذ عندما يصحو من النوم !

فالرومانسيون ملوك ، والواقعيون متسولون ..

وإذا أحببنا فكلنا شعراء ، وإذا صحونا من أحلامنا فكلنا مدرسون

ومحامون وقضاة وسفاحون ولكن ما هذا الذى يمكن ان نسميه رومانسياً .. إن الحب عندنا : بكاء وعذاب .

وإذا سمعت أغانى أم كلثوم فأنت أمام من يحب ويتمنى أن يظل يحب بغير نهاية وبغير أمل ، فتبقى فى حالة من العذاب الدائم ، والهوان الأبدى .

وإذا نحن انشغلنا بالسياسة ، أى بإدارة شئون الشعوب ، فنحن أمام الفواجع المسرحية : القتل والتضحية .

فنحن إذن « درانسيون » - أى دراميون رومانسيون !

• • •

س : كلام .. كلام .. ماذا تقصد بذلك ؟

ج : ليس من قبيل الصدفة أن تظهر الديانات السماوية فى هذه المنطقة من العالم : توراة اليهود وإنجيل النصارى وقرآن المسلمين .. وقبل ذلك الزرادشتية وبعد ذلك البهائية كلها تعتمد على « الكلمة » :

وأول عبارة فى الإنجيل : فى البدء كان الكلمة .

وفى القرآن : اقرأ .

ولذلك فنحن نعيش ونموت بالكلام .. وسوف نبقى كذلك !

• • •

س : هل كل معلوماتك مؤكدة ؟

ج : لست على يقين من أشياء كثيرة !

• • •

س : ماذا تريد ؟

ج : أعرف نفسى ، لكى أعرف غيرى .. فأعرف الحكمة وراء كل شىء !

• • •

س : هل أنت راض ؟

ج : أكثر الأحيان لست راضيا .

• • •

س : ما الذى تقوله كثيراً ؟

ج : إننى أتحدث عن ضعفى كثيراً ؟

• • •

س :أنت معقد ؟

ج : الناس كالأقمشة : أقمشة غليظة الخيوط .. ولذلك عقدها واضحة . وأقمشة من حرير لها عقد أكثر ولكن لأن هذه العقد متجاورة تماماً ، فليست واضحة !

• • •

س : ما هوايتك ؟

ج : مع الأسف لست لى هواية !

• • •

س : ماذا تقول فى نهاية المشوار ؟

ج : لم ينته المشوار . فأنا ما أزال في الطريق .. وهو طريق بلا نهاية .. وإنما هناك محطات أتوقف عندها لكى أوقع في نهاية كتاب فرغت منه .. وأستأنف المسيرة فى كتاب آخر حتى الموت . أرجو ذلك !

• • •

س : هل هناك ادباء شبان ؟

ج : نعم : ولكن من الصعب الحكم عليهم قبل ان تظهر ملامحهم !

• • •

. س : ما هو الأدب ؟

ج : الأدب : ترجمة ذاتية . فكل الذى أكتبه هو من نفسي وعنها . فإذا تحدثت عن الجبل أو البحر أو السماء فإننى أتحدث عن إحساسي بالجبل فى تلك اللحظة .. ومن الممكن أن أكتب عن الجبل عشرين مرة بعد ذلك .. وفى كل مرة سوف نجد تعبيراً مختلفاً ، أى إحساساً مختلفاً ، ولذلك ما كتبته عن الأستاذ العقاد فى كتابى ، فى صالون العقاد ، كان عن جيلى ، وكان عن قلقى وحيرتى بين المذاهب والأشخاص وفى مواجهة العقاد الذى اعجبت به إلا قليلاً واختلفت معه . فأنا كتبت عن العقاد الذى أراه أو الذى أحب أو لا أحب أن أراه ..

فأنا - إذن - أكتب عن نفسى فى جميع الأحوال ..

• • •

س : ما الطغيان ؟

ج : الطغيان يفعل بالناس ما فعلته عصا موسى بثعابين آل فرعون .. فموسى ألقى عصاه فإذا هى حية تسعى تلتهم حيات سحرة فرعون . وكذلك الطغيان : إرادة فرد تلتهم إرادات الآخرين !

• • •

س : ما خلاصة تجاربك فى الحياة ؟

ج : لا أعرف خلاصة لتجربتى فى الحياة .. ففى كل مرحلة من مراحل الحياة ، كانت عندى حكمة .. وتجاوزتها سنوات .. ثم اكتشفت معنى جديداً ..

وخلاصة هذه التجربة ، إذا كان ولابد من خلاصة فهى : أنك لست مهماً جداً كما تتصور . وبدونك سوف تستمر الحياة ولكننا نحن الذين نجعل لحياتنا أهمية . ومن غير هذا الشعور ، فلن يكون لحياتنا معنى . ولكن يجب ألا نسرف فى أهميتك وفى ضرورتك ، وفى أن الكون يعتمد على وجودك .. فأقرب الناس إليك سوف يعيش من غيرك ، وربما أفضل وسوف ينسى دورك فى حياته . فأنت مهم جداً عند نفسك وعند من يحتاج إليك .. ولكن انت وكل الناس ، وهذه الأرض ، والحضارة الإنسانية ، لا أهمية لها وإنما نحن مثل العنكبوت نفرز خيوطنا ... هذه الخيوط هى بيت العنكبوت .. وهى مصيدة ضحاياه وهى نعشه أيضاً . المطلوب أن نتواضع كثيراً ولحسن الحظ أننا ننسى كل ذلك ولو تذكرنا هذه المعانى ما أكلنا ولا شربنا ولا نام لنا جفن !

• • •

س : هل أنت ملتزم !

ج : إذا كان الالتزام معناه : أن أكون مسئولاً عن كل كلمة قلتها وعن قضايا بلدى وعصرى ، فأنا ملتزم ...

• • •

س : ما ثروتك ؟

ج : لا عندى ثروة حقيقية ولا ثروة وهمية ..

وكان من أحلامى أن أعيش فى جمهورية أفلاطون ، حيث لايملك أحد شيئا .. وإنما يكفى أن يأكل ويشرب ويفكر ، !

• • •

س : ما الذى أعطته لك الصحافة ؟

ج : أعطتنى بعض القوة ، وأخذت بعض الحرية !

• • •

س : ماذا أخذت من الكتابة السياسية ؟

ج : حصدت من الكتابات السياسية : صداقات وهمية وعداوات حقيقية !

* * *

س : ما الذى ينقص المثقف العربى !

ج : المثقف العربى تنقصه الثقافة !

* * *

س : قل لى حكمة ؟

ج : استعيرها من صديقى أمير الشعراء الصعاليك ، عروة بن الورد ، :
ذرينى للغنى أسعى فانى
رأيت الناس : شرهم الفقير
وأدناهم وأهونهم عليهم
وإن أمسى له حب وفير
يباعده القريب وتزدريه
حليلته ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال
يكاد فؤاد لا فيه يطير
قليل ذنبه ـ والذنب جم
ولكن للغنى رب غفور !

ولكنى أختلف مع أمير الصعاليك فى معنى الغنى والفقر وأتمسك بالحديث النبوى الشريف الذى يقول : إنما الغنى غنى النفس

نحن أولاد الغجر

وأنا صغير كنت أرى عدداً من الناس ، نساءً وأطفالاً ورجالا يعيشون فى أطراف مدينة المنصورة .. إنهم أناس مثلنا . ولكن السبب لا أعرفه كان الناس ينظرون إليهم بشىء من الخوف والاحتقار ، ولم أجد سببًا لذلك إلا أنهم يعيشون فى خيام . والخيام قدْ امتلأت بهم وبحيواناتهم وطيورهم . ولم أجد فى ذلك شيئًا غريبًا .

وعندما اقتربت من أحد الأطفال وجدته مثلى تمامًا . يريد أن يلعب . وقد لعبنا . وجاءت أمه وطلبت إليه أن يكف عن اللعب وأن يهتم بالماعز والطيور وإلا .. وقبل أن يرد عليها الطفل كانت قد صفعته على وجهه . ونظرت ناحيتى بقسوة شديدة . وكان لا بد أن أترك المكان .

ولم أجد فى ذلك شيئًا عجيبًا . فقد عرفت الضرب والصفع والركل من والدتى ، ولأسباب من هذا النوع وربما لأسباب أتفه كثيراً .

وفى يوم أتيت معى بطعام وظللت واقفا بالقرب من هذه الخيام وكان فى نيتى أن أقدم هذا الطعام إلى صديقى « حسان » .. إنه أحد الأطفال . أجده لطيفاً وأجدنى حريصًا على أن أجلس معه وأن نلعب معًا . وكان يحدثنى عن الذى تفعله أمه بأبيه .. قال إنها تضربه كثيراً . وقد أدهشنى ذلك . فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها أن أمًا تضرب أبًا ..

ولم يظهر « حسان » . وألقيت بالطعام إلى الكلاب . وعدت إلى البيت حزينًا .

وسمعت والدتى وصديقات لها يتحدثن عن هؤلاء الناس .. هؤلاء الغجر ، وكيف أنهم يسرقون الملابس والطعام والطيور وأى شىء . ثم يحملون خيامهم ليلا . ويذهبون إلى مكان آخر .. فهم لصوص متجولون . وسمعت أن أحدًا لا يعرف من أين جاءوا أو إلى أين ذهبوا . إنهم هكذا يعيشون على الحدود ..

● من كتاب « نحن أولاد الغجر »

على حدود المدن .. وعلى حافة المجتمع .. وعلى المسافة الضيقة بين القانون والخروج عليه ..

هل لأنهم غجر هم لصوص ؟ أو هل لأنهم لصوص قرروا أن يكونوا غجرًا .. أى أن يكونوا مجموعة من الناس تعيش معًا وتهرب معًا ، ولا تبقى فى مكان واحد ، حتى لا ينكشف أمرها ، ويعاقبها الناس ..

ولم أشعر لحظة واحدة بالضيق مو هؤلاء الناس .. أو بهذا الاحتقار لهم . إننى لا أوافق على أنهم يسرقون ولكن أجد فى أعماقى عذرًا جاهزًا لهذه السرقات فأقول لا بد أنهم محتاجون إلى الطعام ولو أعطاهم الناس ماسرقوا ، ولو كانت لهم بيوت ماسرقوا .. ثم إنهم ليسوا اللصوص الوحيدين . فالذين لهم بيوت يسرقون والذين يملكون الكثير يسرقون أيضًا إننى لا أنسى فزعى يوم رأيت البوليس يلقى القبض على أحد أقاربى وكان ابن العمدة . أما تهمته فإنه قد ساعد عددًا من الفلاحين على سرقة جواميس وأبقار ! وسمعت وأنا صغير أن العمدة كان غنيًا وأن هذا هو ابنه الوحيد !!

وفى أول رحلة إلى أوربا سنة ١٩٥٠ قرأت فى الصحف الإيطالية أن ملكة الغجر قد ماتت ولم أفكر فيمن تكون . ولا معنى أن للغجر ملكة . ولكن ركبت القطار وذهبت إلى حيث بيتها وجنازتها ووقفت فى طابور المعزين . ونزلت الدموع من عينى . ووجدت من يسألنى : من أى البلاد أنت ؟ فقلت : من مصر .. أى من غجر مصر !

ولا أعرف إن كان الرجل قد أدهشه ذلك . ولكن كنت قد استسلمت لإحساس غريب فى أعماقى . إنهم غجر . وهم لذلك يثيرون العطف والحزن . لماذا لم أفكر كثيرًا فى ذلك ؟

واتجهت أدرس حياة الغجر . تلك الجماعات الضالة فى أوربا شرقًا وغربًا . ووجدت أن الأغلبية العظمى من الغجر يعيشون فى بولندا ورومانيا .. وأن عددًا كبيرًا منهم يعيشون فى أسبانيا .

ولا أنسى كيف اهتزت أعماقى يوم رأيت فيلم « غراميات كارمن » بطولة ريتا هيوارث وجلين فورد . والقصة من تأليف الأديب الفرنسى ميريميه ..

ولا أعرف كم عدد المرات التي رأيت فيها أوبرا « كارمن » ولا أعرف لماذا دمعت عيناي أكثر من مرة .. إن كارمن غجرية جميلة وعندها شجاعة وشخصية وجرأة واعتزاز بنفسها ، ورغم أنها لا تقف على أرض ولا تربطها أسرة طويلة عريضة وتشدها حضارة غربية أو شرقية . فإن ينبوع قوتها يتفجر من أعماقها . وهذا الينبوع يتدفق قوة وجمالا وجلالا .. وهي عندما تقف وحدها فإنها مثل مليون امرأة قد تحولت جميعًا إلى خلايا حية في جسم امرأة واحدة تكاملت محاسنها ، وتعاظمت مفاتنها . هكذا رأيتها .

وكتبت كثيرًا جدًا عن هذا الفيلم وكيف أن عبارة واحدة قالها بطل هذا الفيلم قد غيرت مجرى حياتي . وجعلتني أتحول من مدرس في الجامعة إلى أديب فقط وحريص على أن أظل كذلك . أما العبارة فهي أن الإنسان ليس دائمًا مايفعله ..

أي أن الإنسان لا يمكن أن نحكم عليه بما يفعله لأنه من الممكن أن يكون قاتلا وهو مضطر إلى ذلك . ويكون لصًا وهو مرغم على ذلك . وكان البطل يفعل بالضبط مايفعله الغجر . مع أنه ليس غجريًا . ومن الممكن أن يفعل الإنسان أي شيء ، وهو في أعماقه شيء آخر . ووجدت هذه العبارة تنطبق على حياتي بعد أن تخرجت في الجامعة . فقد اتجهت إلى التدريس . ولكنني لا أحب ذلك . واتجهت إلى الطريق الأكاديمي الجاف القاسي . ولكني لا أحب ذلك ولا أقدر على هذا الاختناق المنظم العظيم الاحترام .

ولما رأيت هذا الفيلم للمرة الثانية أي ثلاثين عاما لم أجد هذه العبارة التي زلزلت وجودي . لم أجد المعنى الذي يشير إليها ! إذن فهذه العبارة قد خرجت من أعماق لأنها أعماقي . وجاء هذا الفيلم تفسيرًا جميلا أنيقًا لها ..

واكتشفت أني واحد من أبناء الغجر .....

فقد تنقلت طويلا في الريف المصري . . كان والدي يعمل في أماكن كثيرة . ونحن وراءه نجري ونلاحقه ، ونتدحرج على الريف المصري ولا نثبت على أرض . ولا تثبت لنا علاقات اجتماعية : الأصدقاء والأقارب والجيران .. فكأننا نقيم في خيام على أطراف المدن . ولأسباب ليست واضحة نضع خيامنا .

ولأسباب ليست واضحة نفك خيامنا ونحملها .. ثم نمضى إلى مكان آخر ..

وعرفت طفولتى الخوف معنى ، المسافة ، فأنا على مسافة من الناس ، وأنا فى حالة من الخوف . من الذى جعل هذه المسافة بعيدة . لا أعرف ، من الذى ومالذى أخافنى ؟ لا أعرف ، ولكن لم نشعر بالدفء .. ولم نشعر بالأنس .. لم نجد العشرة .. لم نعرف العودة .. ولا حرارة اللقاء ، ولا ثقل الفراق .. لم نر الأيدى تمتد للسلام ، ولا عند الوداع .. فنحن نجىء ولا يشعر بنا أحد ، ونمشى ولا يدرى بنا أحد ..

هل هناك يد تمتد خفية فتزرعنا فى أرض غريبة ثم تمتد مرة أخرى فتنقلنا إلى أرض غريبة .. ولم أشعر لحظة أنى نبات زرعوه ثم اقتلعوه .. وإنما كنت أشعر أنى نبات ملقى دائما بعيدًا .. ثم أنقل من مكان وألقى فيه ، ثم إلى مكان آخر وألقى فيه .. وكان انتقالنا ليلا لماذا ؟ لا أعرف .. وعرفت مع الليل المزيد من الخوف ..

وقد كان بيتنا فى أطراف القرى .. وقد رأيت الذئاب والثعالب تعتدى على طيورنا ليلا . وأحيانًا سمعت من أمى أن اللصوص أيضًا .. لقد كنت أحس أننى أتعس حالا من أبناء الغجر .. فهم قادرون على السطو والسرقة والقتل . فالناس يخافونهم ، وهم لا يخافون الناس .. أما نحن فقد كنا وحدنا فى أطراف القرى .. وحدنا فى بيتنا . هان أمرنا على الناس وعلى الذئاب والكلاب .. ومهما أغلقنا الباب والشباك ، فنحن فى خوف من أشياء كثيرة ..

لم نكن جماعة من الناس يشد بعضنا أزر بعض .. وإنما كنا وحدنا .. أسرة صغيرة قلقة حائرة ، مصيرها ليس بيدها . وحياتها ليست من اختيارها ، بل لا اختيار لها . عذابها فى أيدى الآخرين .. وإذا جاءها الليل ، زادها فزعًا .. وإذا انتقلت من الخوف الذى تعرفه ، فإلى الهول الذى لا تعرفه .

وعرفت النظر إلى الأشياء والناس من بعيد .. فكل شىء بعيد .. لأننى أقف وأجلس وأنام بعيدًا عن كل الناس .

وعندما كبرت وعندما استقر رأسى على كتفى ، ووجدت ما أملأ به هذا الفراغ ، ووجدت ما يميزنى عن غيرى من الصغار .

عندما تفوقت فى الدراسة . وعندما حفظت القرآن الكريم ونظمت الشعر

أحسست أنني انتسب إلى فصيلة أخرى من الناس .. إلى طراز يعيش بعيدًا ، ومن الخير أن يكون كذلك لكي ترى أوضح وتسمع أصفى ، وتفكر أعمق وليس ذلك سجنًا انفراديًا ، ولكنها العزلة المقدسة .. عزلة الرهبان في الأديرة والعلماء في المعامل والزعامات في القمم .. عزلة حيوان اللؤلؤ يفرز مادته الفضية وحده بعيدًا عن بقية الكائنات البحرية .. وحدة دودة القز تفرز حريرها .. وحدة الجنين في بطن أمه .. وحدة يوسف في البئر .. وحدة يونس في بطن الحوت .. وحدة روبنسون كروزو في جزيرته .. وحدة النبي في الغار .. وحدة علماء المراصد يعلقون عيونهم بين النجوم .. وحدة رواد الفضاء .. وحدة الفنان عندما يبدع وهناك حكمة تقول : « إنه لا يقدر على العزلة الكاملة إلا إله أو حيوان .. ولما قرأها الشاعر الألماني جيته أكملها هكذا : أو هما معًا !

أي الإله الحيوان .. أي الإنسان .. العبقري الذي به قبس من الله ، وبه غرائز الحيوان أيضًا .

ويقول الفيلسوف الألماني شوبنهور : قل لي كم ساعة تجلسها مع نفسك ، أقل لك من أنت إن قلت يومًا في كل يوم ، كنت إلهًا .. وإن قلت نصف يوم من كل يوم كنت عبقريًا .. وإن قلت لا يوم في أي يوم فأنت حيوان !

قرأتها فقلت يا أنا !

فنحن أولاد الغجر .. نحن الفنين ننتسب إلى نوعية أخرى من الناس . نعيش بعيدًا لنرى أقرب ونسمع أوضح . نحن سلالة نوح عليه السلام .. إنه بعد (آدم) أبو البشرية كلها .. وهو الذي حمل في سفينته بدايات الحياة كلها .. (من كل زوجين) اثنين كما يقول القرآن الكريم .. وكأن سفينة نوح وسط الطوفان خلية معزولة عن الحياة .. ولكن من هذه الخلية المنعزلة راحت الدنيا تضج بالحياة .

كتب للمــؤلف

أ ـ مقــالات :

1 ـ وحدى .. ومع الآخرين
2 ـ عذاب كل يوم
3 ـ طريق العذاب
4 ـ يسطق الحائط الرابع
5 ـ كرسى على الشمال
6 ـ ساعات بلا عقارب
7 ـ مع الآخرين
8 ـ بقايا كل شيء
9 ـ نحن أولاد الفجر
10 ـ من نفسى
11 ـ شيء من الفكر
12 ـ حتى أنت يا أنا
13 ـ لو كنت أيوب
14 ـ أضواء وضوضاء
15 ـ كل شيء نسبى
16 ـ الحنان أقوى
17 ـ إنها الأشياء الصغيرة
18 ـ يعيش .. يعيش
19 ـ مواقف 1
20 ـ مواقف 2
21 ـ مواقف 3

ب ـ قــصص :

22 ـ عزيزى فلان
23 ـ هى وغيرها
24 ـ بقايا كل شيء
25 ـ يوم بيوم
26 ـ يا من كنت حبيبى
27 ـ قلوب صغيرة
28 ـ شارع التنهدات
29 ـ فوق الركبة
30 ـ هذه الصغيرة وقصص أخرى (ترجمة)
31 ـ الأظافر الصغيرة
32 ـ عريس فاطمة
33 ـ الغرباء ترجمة
34 ـ أثنين .. أثنين

جـ ـ دراسات

35 ـ الوجودية
36 ـ الخبز والقبلات
37 ـ التاريخ أنياب وأظافر
38 ـ من أول نظرة
39 ـ الحائط والدموع

٤٠ - الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل)
٤١ - وجع في قلب إسرائيل
٤٢ - ديانات أخرى
٤٣ - على رقاب العباد
٤٤ - الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله
٤٥ - دراسات في الأدب الأمريكي
٤٦ - دراسات في الأدب الايطالي
٤٧ - دراسات في الأدب الالماني
٤٨ - فلاسفة وجوديون
٤٩ - فلاسفة العدم
٥٠ - وداعاً أيها المال
٥١ - الذين هبطوا من السماء
٥٢ - الذين عادوا إلى السماء
٥٣ - أرواح وأشباح
٥٤ - القوى الخفية
٥٥ - لعنة الفراعنة
٥٦ - أوراق على شجر
٥٧ - في السياسة جزء ١
٥٨ - في السياسة جزء ٢
٥٩ - وكانت النعمة هي الثمن
٦٠ - ألوان من الحب
٦١ - أظافرها الطويلة
٦٢ - الدين والديناميت
٦٣ - لاحرب في اكتوبر ولاسلام

د - ترجمة ذاتية :

٦٤ - طلع البدر علينا
٦٥ - قالوا
٦٦ - عاشوا في حياتي
٦٧ - في صالون العقاد كانت لنا أيام
٦٨ - إلا قليلا .

هـ - رحلات :

٦٩ - حول العالم في ٢٠٠ يوم (الحائز على جائزة الدولة التشجيعية ١٩٦٢)
٧٠ - بلاد الله .. خلق الله
٧١ - أطيب تحياتي من موسكو
٧٢ - أعجب الرحلات في التاريخ
٧٣ - اليمن ذلك المجهول
٧٤ - غريب في بلاد غريبة
٧٥ - أنت في اليابان

و - مسرحيات :

٧٦ - مدرسة الحب
٧٧ - حلمك ياشيخ علام
٧٨ - مين قتل مين
٧٩ - العبقري
٨٠ - الأحياء المجاورة
٨١ - جمعية كل وأشكر
٨٢ - سلطان زمانه
٨٣ - حقنة بنج
٨٤ - عش رقم ٣
٨٥ - كلام لك ياجارة

ز - ترجمـــة :

٨٦ - ترجمة (رنمولوس العظيم) تأليف (ديرنمات)

٨٧ - ترجمة (هبط الملاك فى بابل) تأليف (ديرنمات)

٨٨ - ترجمة (زيارة السيدة العجوز) تأليف (ديرنمات)

٨٩ ـ ترجمـة (الشهـاب) تأليـف (ديرنمات)

٩٠ - ترجمة (زواج السيد ميسبى) تأليف (ديرنمات)

٩١ - ترجمة (هى وعشاقها) تأليف (ديرنمات)

٩٢ - ترجمة (أمير الأراضى البور) تأليف (ماكس فريش)

٩٣ - ترجمة (من أجل سواد عينيها) تأليف (جيرودو)

٩٤ - ترجمة (بعد السقوط) تأليف (أرتر معللير)

٩٥ - ترجمة (فوق الكهف) تأليف (تنس وليامز)

٩٦ - ترجمة (الأمبراطور جونز) تأليف (يوجين أونيل)

٩٧ - ترجمة (تعب كلها الحياة) تأليف (يونسكو)

٩٨ - ترجمة (الباب والشباك) تأليف (آواموف)

٩٩ - ترجمة (ملح على جرح) تأليف (آرابال)

١٠٠ - أنتم الناس أيها الشعراء

١٠١ - مذكرات شاب غاضب

١٠٢ - كتاب عن كتب

١٠٣ - غرباء فى كل عصر

١٠٤ - لحظات مسروقه

١٠٥ - أيها الموت لحظة من فضلك

١٠٦ - السيدة الأولى

١٠٧ - عبد الناصر

١٠٨ - شباب .. شباب

١٠٩ - الذين هاجروا

١١٠ - جسمك لا يكذب

١١١ - ما لا تعلمون

المحتويات

صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org
E - mail : info@egyptianbook.org